Novel

LABYRINTH OF GREAT NOTHINGNESS

Burhan Shawi

متاهة العدم العظيم

برُهان شاوي

رواية

مكتبة
Telegram Network

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

متاهة العدم العظيم

«مكتبة ♔ النخبة»

LABYRINTH OF GREAT

NOTHINGNSS

طُبع في لبنان

متاهة

العدم العظيم

LABYRINTH OF GREAT

NOTHINGNSS

رواية

بُرهان شاوي

BURHAN SHAWI

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1440هـ - 2019م

ردمك 978-614-02-4405-4

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 009613223227

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف: 0776616609
e–mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

لِمَ لا تذهب أنت للبحث عنه

في أجمات غابة وحيدة؟

كعطر يغلف فوحه زهرة،

فالرب العلي يتخلل الكون كلّه،

لكن هيهات للكون أن يحدّه..

ابحث عنه في ذات نفسك.

فحقًا، هو مقيم في كنهك.

«نص سيخي» من «آدي غرانث»

صعب وصفه،

مستحيلة تسميته.

الإنسان، يحسه فقط،

الوجود الخفي لكامي.

من «المانيو شو» الشنتوي

«إن الصمت الأبدي الذي يلف هذا الفضاء اللانهائي يخيفني، ولكن هناك لا نهائية أخرى هي لا نهائية صغر الذرة، وعقلنا يتذبذب في حيرة وارتياع بين الشاسع غير المحدود والدقيق غير المحدود.

إنّ من يتأمل نفسه علي هذا النحو تخيفه نفسه، وإذا أدرك أنه معلق بين هاويتي اللانهائية والعدم ارتعد فرقا، وبات أميل إلى تأمل

هذه العجائب في صمت منه إلى ارتيادها بغرور.

بليز باسكال «الخواطر»

المحْتويَات

الباب الأول: آدم الأكويني 9

الفصل الأول: آدم الأكويني.. دفتر المذكرات 10

رواية آدم الغامضة 27

1. الغرفة الغامضة 27

2. الممرّ 34

3. الكائن الغامض 39

4. البحر والحوت الأزرق 43

5. الموسيقى الهاربة 46

6. سحر الأنثى 48

7. الزنزانات 52

8. الغابة الثلجية والعربة الغامضة 55

9. البستان 59

الفصل الثاني: بوح حوّاء سرّ الختم 83

الفصل الثالث: آدم الغوريلا وحواء المتهورة 109

الفصل الرابع: عن الصداقة.. وحوّاء حسني.. وتيه الذئبة الفتية 153

الفصل الخامس: جحيم حواء المستكفي 180

الفصل السادس: الليلة الغامضة 212

الفصل السابع: حواء العاقل 228

الفصل الثامن: آدم الأكويني وأشباحه 248

الفصل التاسع: البندول 263

الفصل العاشر: عين الظلام 270

الفصل الحادي عشر: عين الأعماق 284

الباب الثاني: آدم المجنون 291

الفصل الأول: نشيد الذئاب والزهور وفانوس آدم المطرود 292

الفصل الثاني: صوت كوكب زحل المخيف 302

الفصل الثالث: الكلاب الآدمية وأنين قابيل الفهد 310

الفصل الرابع: قاتل في محطة مهجورة 314

الفصل الخامس: إيمانويل كانت والراهب في الدير الغامض 328

الفصل السادس: في حضرة العين.. والعدد الواحد 345

الفصل السابع: القراصنة العميان 354

الفصل الثامن: درب الرؤوس المقطوعة 365

الفصل التاسع: كوابي حوّاء الدفتري 371

الباب الثالث: آدم الأعمى 379

1. آدم اللاأحد 380

2. حوّاء الضعيف 391

3. آدم الأعمى يغادر المتاهة بكلمة "طز" 413

4. الحداد يليق بحواء ذوالنورين 418

5. بوح حوّاء السواني 439

6. حوّاء الصلع.. جناح السرطان 449

7. طز آدم العليل 471

8. آدم الأثري.. آدم العليل.. متاهة آلهة سومر.. والسروال الأسود 477

9. هو الظاهر لنفسه والباطن عن نفسه. 509

الباب الأول

آدم الأكويني

الفصل الأول

آدم الأكويني.. دفتر المذكرات

الساعة تشير إلى التاسعة من مساء اليوم التاسع في الشهر التاسع، وفي شقة بالطابق التاسع في الحي التاسع من المدينة والمسمى بمجمع (الجحيم - أونفيرنو) السكني..!

كان آدم الأكويني مسترخيًا على كرسيه حول طاولة مكتبه، وحيدًا في شقته الفارهة بالطابق التاسع من المبنى التاسع في ذلك الحي الذي يمتد على سفح جبل قمته فوّهة بركان لا يعرف أحد من العلماء ممن كُلِّفوا بدراسته ومتابعته متى ينفجر ليدفن الحي والمدينة البعيدة التي تستقر في بطن الوادي تحت رماده الحارق وحممه السائلة المرعبة.

كان المكتب يواجه نافذة عريضة تطلّ على الظلام، وعلى نقاط ضوء تبدو كومضات نجوم في قاع الظلام الذي يبدو تحته، نقاط هي أضواء المدينة البعيدة.

«من أنت يا ألله؟ أسميّك «الله» لأن هذا هو اسمك في اللغة العربية، وأعرف أسماءك الأخرى في بعض اللغات، لكن في الأحوال كلها أنت لا علاقة لك بهذه الأسماء، فهي أسماء أطلقها البشر عليك بلغاتهم الكثيرة، وليس بينها اسمك بالتأكيد، إذ لا اسم لك!. الأسماء للتميز بين الأشياء، وأنت الواحد الذي لا تحتاج للتميز لأنه أنت وحدك، أم يا تُرى لديك اسم تعرفه أنت فقط؟.

لو سميت نفسك فأنت لا تكون ذاتك وإنما تكون ذاتك مرة واسمك مرة أخرى، أليس كذلك؟ لا. لا. إنني أهذي. لكن من أنت يا ألله!؟ ومرة أخرى

أناديك بهذا الاسم «الله» وأنت بلا اسم!».

***

«الأساطير الدينية ونصوص الكتب المقدسة تصر على أن الله يريد البشر عبيداً يعبدونه!. أهناك حر مطلق الكمال ومكتف بذاته يحتاج للاعتراف به؟ وممن!؟ من مخلوقاته الضئيلة التي خلقها!؟ أليس الحاجة للآخر يمس كماله وجوهره المكتف بذاته!؟»..

«أليس الأصح هو منح البشر القدرة على الشك كي يصلوا إليه عبر العقل! دونما إغراءات بائسة بالجنة وبالحوريات الباكرات أبدًا وبأنهار الخمر والعسل واللبن، ومن دون تهديد بالعقاب وبالجحيم!

يقولون إنه يريد أن يريهم آياته في الآفاق!. تُرى هل يحتاج الله لاعتراف مخلوقاته الضئيلة ليثبت وجوده وآياته في الآفاق!!..

ثم ياتُرى أية أفاق تلك التي يريدهم أن يروها وهذا ما تقوله النصوص المقدسة وغير المقدسة قبل آلاف السنين، بينما البشر إلى الآن، وإلى هذه اللحظة التاريخية من تطور العلوم، لا يستطيعون اكتشاف كواكب منظومتهم الشمسية بعد!!».

***

وانقطع النص المكتوب على شاشة جهاز الحاسوب. لم تكن غير تلك الأسطر مكتوبة على وجه الصفحات الأولى من دفتر المذكرات الوردي الذي عُثر عليه مصادفة أثناء التنظيف في إحدى غرف فندق «رووم ماتا لوكا» في فلورنسا بإيطاليا.

في تلك اللحظات فكر آدم الأكويني بتلك الأسطر التي قرأها من دفتر المذكرات، وسأل نفسه: «ألست أنا من كتب هذه الرواية المسلسلة «المتاهات»؟! فلماذا أندهش عند قراءة بعض سطورها وكأنها لكاتب آخر أو وكأني أقرأ هذه الأسطر لأول مرة!؟ ألم أكتب رواية «المتاهات» عن كاتب اسمه آدم البغدادي الذي جعلته يكتب رواية بعنوان «متاهة آدم - السقوط إلى الأعلى» التي تتحدث عن كاتب اسمه آدم التائه وزوجته حواء المؤمن، الذي بدوره يكتب رواية بعنوان «متاهة آدم - المرأة المجهولة» عن كاتب آخر اسمه آدم المطرود وحبيبته حواء الصايغ وعشيقته حواء اللهيبي!؟. ألست من ترك اللعبة السردية تأخذ أبعادها من خلال ترك الكاتب آدم البغدادي بعد مقتله مجموعة من المخطوطات المتداخلة لمتاهات عديدة آخرها «متاهة الأنبياء»!!، والتي في أحد مشاهدها الأخيرة يتم العثور على دفتر مذكرات وردي في فندق

ما بمدينة فلورنسا يعود لواحدة من الحواءات اللاتي نزلن في ذاك الفندق..!!؟ فلماذا أبدي استغرابي وكأنني لا أعرف شيئًا عن دفتر المذكرات هذا؟. لكن من عساها تكون هذه الحواء!! أهي حواء ذو النورين أم حواء الحلو اللبنانية؟. ثم أيعقل أنني لا أعرف من هي!؟ صحيح أن دفتر المذكرات الوردي كان في شقة آدم بوناروتي، وأن الرجل الأشقر الوسيم الذي خرج من الغرفة المغلقة لحظة الجريمة أخذ الدفتر وجلس ليقرأ فيه، لكن يفترض بي أنا آدم الإكويني، أن أعرف ذلك باعتباري الكاتب الأصلي للمتاهات!. بيد إن دفتر المذكرات لم يفتحه أحد في الرواية الأخيرة!! إذن هل هذا يعني أنني الآن سأتدخل لأفتح الدفتر وأروي ما فيه!؟.

ومع أن آدم الأكويني أستاذ بدرجة بروفيسور في الفلسفة إلاّ إنه معروف ككاتب روائي إلى جانب موقعه الأكاديمي، وهو مع نفسه يرى ممارسته التدريس في الجامعة مهنة تضمن له العيش الهادئ لا أكثر، أما (الأكويني) فهو لقب أطلقه عليه طلبة قسم الفلسفة في الجامعة التي يدرّس فيها من باب المزاح وكذلك من باب التقدير والتبجيل لمعارفه وتخصصه في فلسفة القرون الوسطى وتأثره بالمفكر الديني القديس توما الأكويني، وقد أطلقه الطلبة عليه بعد نشره كتابًا فكريًا يشرح فيه فلسفة هذا القديس الفيلسوف بعنوان «متاهة الله». وبمرور الوقت التصق هذا اللقب به حتى إنه حين نشر روايته الأولى «متاهة آدم»، نشرها باسم «آدم الأكويني»..!.

يتذكر الآن أيامه الأولى في هذه المدينة العربية التي تقع في شمال أفريقيا كأستاذ للفلسفة في جامعتها الرسمية، وما واجهه من سوء فهم سواء من قبل عمادة الجامعة وعيونها وآذانها المنتشرة في كل قاعة محاضرات أو من قبل الطلبة أيضًا. يتذكر كيف انطلقت الشائعات المتعارضة حوله، فبعضهم، من اليساريين أساتذة وطلبة، كان يشيّع عنه بأنه رجعي، ميتافيزيقي، يميني، ضد الفكر التقدمي اليساري والعلماني، لأنه بعيد عن هموم المجتمع وأنه لا يبحث إلاّ في مشكلات ميتافيزيقية حول وجود الله، لاسيما من خلال أطروحات قديسي القرون الوسطى المسيحيين أمثال بونافنتورا وتوما الأكويني، واهتمامه الكبير والمتخصص في الأخير منهما، متناسين أنه درس في إيطاليا وتخصص في فلسفة العصور الوسطى متخذا من توما الأكويني أنموذجا وموضوعا لأطروحته لنيل درجة الدكتوراة، كما أن فلسفة العصور الوسطى هي موضوع محاضراته. أما البعض الآخر من الأصوليين والسلفيين، فيشيّع عنه بأنه كافر متأثر بسلوكيات الغرب وتحللهم الأخلاقي وبالتالي هو خطر على الشباب لاسيما الفتيات!.

ومع كل تعارض الآراء حوله، فلا أحد تقريبًا في الجامعة يعرف شيئًا حقيقيًا ملموسًا عن تفاصيل حياته الشخصية ولا عن سلوكه وقناعاته الحقيقية وآرائه السياسية. لا أحد يعرفه جيدًا، بل إن الجميع يعرفون سيرة شخصيات رواياته أكثر بكثير مما يعرفون عن تفاصيل حياته.

وحده، صديقه العراقي الحميم، الغامض، آدم الغوريلا، المشعوذ، الصوفي، الفيلسوف، الشاعر، الفيزيائي، الإباحي، الفاسق، الزاهد، المؤمن، الشكاك، دودة الكتب، الغامض في علاقاته مع السلطات!!.. آدم الغوريلا الذي لضخامة جسده وطوله الشاهق وشبقه الجنسي الشديد وشكل وجهه الشبيه بوجه الغوريلا كينغ كونغ هو ما دفع آدم الأكويني أن يطلق عليه هذا اللقب مازحًا بأنه أكبر دليل على صحة نظرية داروين بانحدار الإنسان من فصيلة القرود!. آدم الغوريلا وحده هو موضع ثقته وخزانة أسراره وملاذه في هذه المدينة الغريبة وهو الوحيد الذي يعرفه جيدًا.

خطر ببال آدم الأكويني أن يتصل بصديقه ويقرأ له ما ورد من أسطر في الصفحة الأولى من دفتر المذكرات الوردي الذي عُثر عليه في الفندق بمدينة فلورنسا ضمن أحداث خاتمة رواية «متاهة الأنبياء» التي كتبها آدم البغدادي، لكن ما فائدة أن يقرأ لصديقه هذه الأسطر وهو يتوقع جوابه مسبقًا، فقد تخيل ما سيقوله صديقه:

- إنك أيها الأكويني من كتب رواية «متاهة آدم» وأوجدت شخصية الكاتب الأول آدم البغدادي الذي قتلته في نهاية الرواية ليترك حقيبة مليئة بالمخطوطات التي هي بالأساس مخطوطاتك!!. كما أنك تتقنع خلف شخصية آدم البغدادي الذي قتلته بنفسك في نهاية الرواية!. أنت تلعب مع نفسك لعبة القط والفأر. نعم، هكذا سيجيبني، بل سبق له إن قال لي ذلك حين كان يناقشني عن المتاهات، وهو محق في ذلك. لا ليس محقًا، فأنا أترك لشخصياتي حرية التعبير عن نفسها، وليس هذا هو المهم الآن، وأنما المهم ماذا جاء في تلك الأسطر..!.

وفجأة قطع سيل خواطره وحواره الافتراضي مع صديقه وواصل القراءة في ما ورد في دفتر المذكرات الوردي:

«كلُ شيء بدأ من بوابةِ الفردوس، كلُ شيء. متاهةُ الأنبياء بدأت من بوابة الفردوس، كلُ شيء بدأ من الباب الخارجي للفردوس، لكن لماذا؟ ألأن آدم وحواء أكلا من ثمار الشجرة التي منعهما الرب من تذوق ثمارها أو حتى الإقتراب منها؟ أليس هو القدير الذي يعلم الغيب وقد قدّر كل شيء سلفًا!! ألا يعني ذلك هو من قدّر لهما هذا المصير بأن يأكلا من ثمار تلك الشجرة، فلماذا

عاقبهما إذن!! ما ذنبهما ما دام هو قد قدّر كلَ شيء؟ ثم أليس هو الذي خلق الشر قبل خلق آدم وحواء. ألم يأت في «العهد القديم» بأنه خلق جنة عدن، وخلق شجرة المعرفة، شجرة الخير والشر، كما جاء في سِفر التكوين بالعهد القديم!!؟ أي إن الشر كان موجودًا في الجنة في شجرة المعرفة!!، ومع ذلك طردهما الرب!. ألم تبدأ المتاهة منذ لحظة خطوتهما الأولى خارج بوابة الفردوس!. نعم متاهة آدم وحواء بدأت من بوابة الفردوس، ومن بابها الخارجي!. ومتاهتي أيضًا بدأت من بوابة الفردوس في فلورنسا».

وانقطع النص، تلته صفحات بيض خالية من أي حرف. اندهش آدم الأكويني وكأنه يقرأ هذا النص لأول مرة!!. أخذ يقلّب الصفحات محركًا فأرة جهاز الكمبيوتر إلى الأسفل، وتوقف ليقرأ:

«يا أيها الذي لا اسم لك، البشر يطلقون عليك أسماء عديدة، وفي لغتي يسمونك الله. فيا ألله أنا أحبك، أنا مهووسة بك، لكني حين أقرأ الكتب المقدسة للأديان يراودني الشك بك، فأنت في الأديان إلى جانب الصفات العظيمة بالقدرة أنت منتقم وعنيف ومتكبر وماكر أيضًا، بل وتتوسل مخلوقاتك بالعبادة، تهددهم بالعذاب والجحيم بكل طبقاته إذا تناسوا عبادتك، ومن جانب آخر تغريهم بشكل لا يليق بقدرتك وعظمتك. تغريهم بالحوريات والجنس بكل أشكاله والخمر والأكل كي يعبدونك!!.. هذا لا يليق بك يا ألله..!

أنت الخير والجمال المطلق، لكن الأنبياء يصفونك بأنك مرعب ومخيف، وبشري، بل خلقت الإنسان على صورتك! أأنت تشبه البشر!!؟؟

حين أقرأ كتب العلم والفضاء وأتابع الأخبار العلمية عند «وكالة علوم الفضاء الأميركية - ناسا» أشعر بك أكثر. أجدك في كل شيء، أحس بأنفاسك في النسيم وفي الأشجار والبحار والينابيع وفي بديع مخلوقات الطبيعة، أراك في تناسق الأشياء، في عالم المجهريات وفي العظمة الهائلة للمجرات وحركتها الكونية، أحسك بك في كل الموجودات.

استغرب أحيانا حينما يقولون إنك نور السماوات والأرض، بينما العلم يقول إن الكون مظلم، وإن المادة السوداء تشكل ثلاثة أرباع الكون، وإن الشموس التي تبعث الضوء لا تشكل إلّا نسبة ضئيلة من الوجود الكوني! أتُرى نورك لا تراه العيون!؟ هل هو مضيء كنور الفكر الذي لا علاقة له بالضوء والفوتونات.!!».

وواصل آدم الأكويني تصفح الدفتر فواجهته العديد من الصفحات البيض، بل بعض الصفحات لم يكن فيها سوى جملة واحدة، وأحيانا اقتباسًا من

مقولات كاتب ما.

توقف عند صفحة في تدوين فأخذ يقرأ:

«لقد جاء في مستهل العهد القديم، في سِفر التكوين بالتحديد، وفي الإصحاح الأول: «في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربةً وخاليةً وعلى وجه الغمر ظلمةٌ وروح الله يرف على وجه المياه. وقال الله ليكن نورٌ فكان نورٌ.. ورأى الله النورَ أنه حسنٌ. وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النورَ نهارًا والظلمةُ دعاها ليلًا.»، ألا يعني هذا أن الله ليس نورًا كما جاء في كتب مقدسة لأديان أخرى، لأن النور مخلوق وكذا الظلمة، فماذا كان قبل النور والظلام..؟؟

ولم يأت بأنه خلق الظلام!! ناهيك أن الحديث المتكرر عن السماوات والأرض غير دقيق علميًا.. فالأرض كوكب صغير في مجرتنا درب التبانة ضئيل كحبة رمل في صحراء كبرى، كما يقول العلم..!.».

* * *

«لو تأملنا الكرة الأرضية، لربما فهمنا معنى السماء بالنسبة لقطب الأرض الشمالي فهي الفضاء الأعلى المحيط بالأرض، لكن ماذا عن قطب الأرض الجنوبي حيث (السماء) ستكون في الأسفل.. يعني (أسفل السماء) قياسا لوضع الأرض في الفضاء، وأيضا قياسا لسكان القطب الشمالي..، ولأن البشر لا ينتبهون لوضعهم بفعل الجاذبية، لذا فإن سماء الصين مثلا جانبية وكذا سماء الأميركيتين وأجزاء من أفريقيا. ولو تأمّلنا توزيع القارات على كوكبنا لأدركنا ذلك، فكل فضاء يعلو جهة ما هو سماء تلك الجهة التي يتكون أحيانا بالضد من (سماء) الجهة المعاكسة...!

أين سقف السماء.. وأين قاعها..!

وأي جانب منها هو السقف وأين جانب هو القاع..!؟

هل هناك جهات في الكون..؟

هل هناك جغرافيا كونية..؟

الأديان تصلي للرب الذي في الأعالي..!

لكنه بالنسبة لسكان القطب الجنوبي فأنه ليس في الأعالي، وإنما في قاع الفضاء..!»

* * *

«في النص القرآني توجد سورة تسمى سورة النور، وهي السورة 24 في تسلسل السور القرآنية وعدد آياتها 64 آية. ويرد في الآية 35 منها تعريفا وصفيا للخالق.. الله.. (اللَّـهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ. الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ. الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ. نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّـهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّـهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّـهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الآية 35.

كما يرد في سورة الأعراف وفي الآية الرابعة والخمسين النص القرآني التالي:

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّـهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّـهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}..

أو في سورة لقمان - الآية: 25:

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّـهُ}

بينما يرد في العهد القديم، وفي سفر التكوين، الإصحاح الأول - الآيات من 1- 5 ما يلي: (في البدءِ خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربةً وخاليةً وعلى وجه الغمر ظُلمةٌ وروُحُ اللَّـهِ يرفُّ على وجه المياه. وقال اللَّـهُ ليكن نورٌ فكان نورٌ. ورأى اللَّـهُ النورَ أنّهُ حسنٌ. وفصل اللَّـهُ بينَ النور والظلمةِ. ودعا اللَّـهُ النورَ نهارًا والظلمةُ دعاها ليلًا. وكان مساء وكان صباح يوما واحدًا).

سؤالي هنا: ماذا كان الله قبل أن يخلق السماء والأرض ويكون نورهما..؟؟ حسب النص القرآني في سورة النور.. إن الله نور السماوات.

وسؤالي الثاني: أين كان الله قبل هذه الأيام الستة؟ حسب سورة الأعراف أو حسب الكتب المقدسة كلها..

حسب النص التوراتي فقد كان الظلام والمياه قبل أن يخلق الله النور (وكانت الأرض خربةً وخاليةً وعلى وجه الغمر ظُلمةٌ وروُحُ اللهِ يرفُّ على وجه المياه)..

أي إن روح الله لم تكن نورانية!!

لأن النور لم يكن قد وجد بعد..

فبعد ذلك خلق الله النور.. (وقال اللهُ ليكن نورٌ فكان نورٌ)..!

«أنا في متاهة..»

* * *

أغلق آدم الأكويني الملف الذي يضم دفتر المذكرات، وسأل نفسه: هل هذه الأسطر المدونة هنا في دفتر المذكرات هي آرائي أنا أم هي فعلًا تعود لشخصية روائية دونتها في دفتر مذكراته..؟

قطع عليه تأملاته رنين هاتفه الجوال. رأى رقمًا وليس اسمًا على شاشة الهاتف. لم يرد على الاتصال مباشرة. خطر في باله بأن هذا الاتصال من أحد طلبته، فهو يتلقى منهم أحيانا اتصالات يستفسرون فيها عن كتاب أو مادة تخص محاضراته، ولأنه بطبيعته منفتح على الآخرين، لاسيما على طلبته، فقد دوّن رقم هاتفه على اللوح في قاعة المحاضرات منذ المحاضرة الأولى له في الفصل الدراسي، وأخبرهم بأنه يتلقى أي اتصال منهم برحابة صدر في أي وقت إذا ما واجهوا إشكالا في المساق الذي يدرسونه في هذا الفصل أو أي استفسار آخر.

في تلك اللحظات مدّ يده إلى جارور بلاستيكي مفتوح يضع فيه أوراقا مختلفة يحتاج إلى العودة إليها أحيانا، وتناول منه صفحتين لأسماء طلبته كان قد دوّن أرقامهم مقابلها. تصفّح الأرقام بسرعة فلم يجد الرقم المتصل بينها، وحين قلب ظهر الصفحة الخالي من الأرقام والأسماء وجد أنه قد كتب ذلك الرقم بقلم رصاص وأمامه اسم حواء الإيراني.

حاول استحضار وجهها ليتذكرها جيدًا. تذكر تلك المرأة الأنيقة ذات النهدين العامرين التي يميل جسدها للامتلاء الشهي، والتي كانت دوما تتحجج للاتصال به، بل وكشفت في بعض اتصالاتها عن رغبات جنسية مكبوتة ومنفلتة في الوقت نفسه، لكنه لم تراوده الرغبة في الاتصال بها قط، وقرر عدم الرد عليها.

فجأة سمع رنين جرس الباب. ارتبك. من تراه قد جاء في هذا الوقت. مساعدته التي تقوم بخدمته في المنزل، حواء سرّ الختم، قد ذهبت إلى بيتها. صحيح أنه قد اتفق معها على أن تسكن في الغرفة الصغيرة قرب المطبخ في الممر بعد أن روت له تحرش ابن العائلة بها، لكنها الآن غير موجودة ومن الغد ستسكن الغرفة.

استمر رنين جرس الباب. فكّر بهوية الطارق، فهو لا ينتظر أحدًا في مثل هذا الوقت!. مدّ يده ليمسك العكّاز الذي يستخدمه منذ شهر تقريبًا بعد حادث الاصطدام بسيارة مسرعة فاجأته، ذلك الحادث الذي لم يترك خسارات كبيرة سوى كسر رجله اليسرى وألمًا نفسيا زاد من يأسه وثقته بتفاهة البشر..!. مرّ شهر تقريبًا على الحادث إلاّ إنه لم ينس تلك التفاصيل الموجعة التي رافقت الحادث..!..

وهو يسعى للوقوف ماسكًا عكّازه تذكّر كيف جاء رجال المرور وهو ملقى على الأرض يتلوى من ألم كسر عظام ساقه، وكيف ألقوا اللوم عليه دونما تدقيق في ملابسات الحادث! بل لم يسألوا عن السائق الذي كان يقود العربة التي صدمته!. كل هذه اللامبالاة في التعامل معه ومع الحادث حصلت حينما عرف رجال الشرطة بأنه ليس من أهل البلاد، وإنما هو غريب جاء من بلاد عربية أخرى ليعمل عندهم..!

المشكلة التي لم تكن في الحسبان حينها. ففي السيارة التي صدمته كانت مجموعة فتيات من أهل البلاد، إحداهن كانت حاملًا في شهرها التاسع، وبسبب رعب الحادث جاءها الطلق، فنُقلت سريعا إلى المستشفى مما عقّد وضعه القانوني أكثر، بل إن أحد أبناء البلاد أوقف سيارته ليرى الحادث من باب الفضول، لكنه ما إن رأى الفتاة الجميلة التي ادّعت أنها السائقة حتى تحمس وتقدم إلى الشرطة معلنا استعداده للإدلاء بشهادته وكيف أنه رأى هذا الأجنبي يلقى بنفسه أمام السيارة ربما رغبة منه في الانتحار!. وسجّل رجال الشرطة اسمه كشاهد وهم يبتسمون..!.

كان ملقىً على الأرض يتلوّى من الألم، ولم يأبه له الشرطة وإنما اهتموا بالحديث مع الفتاة السائقة ابنة البلاد، ثم بعد أن ذهبت الفتيات اللاتي كن في السيارة إلى حال سبيلهن التفت إليه رجال الشرطة بلامبالاة واضحة وأخذوه إلى المستشفى، وهناك قيدوه إلى السرير بعد اتخاذ الإجراءات الطبية التي انتهت بربط ساقه بالشاش والجبس..!..

ما إن اختلى لنفسه بعد ذهاب رجال الشرطة حتى اتصل بصديقه العراقي آدم الغوريلا الذي يعيش في هذه البلاد منذ عشرات السنين، وشرح له ما جرى، فقام الآخر باستخدام كل علاقاته الجيدة. بعد ساعة زاره حاملا معه طعامًا وفاكهة، لكنه استاء جدًا وصار عصبيا حينما رأى القيد في يده مشدودًا إلى السرير.

في صباح اليوم الثاني جاء صديقه آدم الغوريلا مرة أخرى ومعه رجل من معارفه المهمين. استمع الصديق الآخر لآدم الأكويني وأخذ تفاصيل مكان

الحادث ووقت وقوعه، ثم اتصل بالجهات التي يعرفها فورا، وغادر المستشفى بعد أن وعدهما خيرًا..!

صديقه آدم الغوريلا لم يتركه وحيدًا وإنما قضى فترة ما بعد الظهر عنده حتى ساعة متأخرة من المساء حينما جاءت رئيسة الممرضات في ذلك القسم وطلبت منه المغادرة لانتهاء فترة الزيارات، وكان طيلة ذلك الوقت يتصل بصديقه المسؤول ليتابع تفاصيل أمر إطلاق سراحه صديقه الأكويني.

في صباح اليوم التالي جاء صديقه آدم الغوريلا والشخص الآخر نفسه ومعهما شرطي قام بفك قيده، ووقعه على ورقة رسمية. وما أن غادر الشرطي حتى أمر الصديق الآخر أحد مستخدمي المستشفى بنقله على كرسي متحرك إلى خارج المستشفى وصولا إلى سيارة صديقه آدم الغوريلا.

صافح هو الشخص الآخر شاكرًا على إنقاذه من هذه الورطة، وفي الوقت نفسه علم منه بأن التي تقدمت مدّعية أنها السائقة هي فعلًا صاحبة السيارة لكنها لم تكن حينها وراء المقود وإنما تركت صديقتها التي تتدرب على القيادة تسوق السيارة، أما المرأة الحامل فقد كانت زوجة لأخيها، ومن حسن حظه أنها ولدت طفلا ذكرًا وإلاّ لو كان قد أصابها أو جنينها مكروهًا لكانت كارثة!، وأخبره بأن والد الطفل الوليد من فرحته بولادة ابنه تنازل عن الدعوة التي سجلتها الشرطة ضده ظلما، وقد تمت تسوية الأمر!.

حصل هو على إجازة طبية لمدة شهر زاره خلالها بضعة من طلابه واتصل آخرون، لكن إدارة الكلية اتصلت به مرة واحدة لتتأكد من أمر إجازته الطبية وضرورة إرسالها إلى الجامعة، وقد قام بذلك طلابه الذين زاروه للاطمئنان على صحته..!.

كان جرس الباب يرن حينما مشى ما استطاع من سرعة نحو الباب. وحين فتح الباب كان رنين الجرس لا يزال متواصلا. استغرب حقا حينما لم يرَ أحدًا..!. في تلك اللحظة انبثقت في ذهنه بعض تفاصيل إحدى المتاهات التي كتبها آدم البغدادي، حيث إن بعض الحواءات كن يسمعن رنين جرس الباب وحين يخرجن لا يجدن أحدًا، لكنه الآن في الواقع كما يعتقد وليس في رواية..!!؟

مدّ رأسه متلفّتا في الممّر فلم يرَ أثرًا لمخلوق. ظل واقفًا لبضع دقائق عند الباب من الداخل، مفكرًا بما جرى، ثم سأل نفسه: أيعقل أني توهّمت صوت رنين الجرس..؟ كيف توهّمته وهو قد استمر لدقائق حتى لحظة فتح الباب؟ أعرف أن هذا يجري في رواية «المتاهات» مع الشخصيات الروائية

لكن هل أنا شخصية روائية أيضًا؟ من يكتبني إذن؟ لا. لا. أنا أفكر وأقوم بما أشاء دون توجيه من مؤلف أو كاتب آخر، بل إنني، آدم الأكويني من كتب رواية «المتاهات»، فكيف أكون أنا شخصية روائية!!؟. يبدو أنني صرتُ ممسوسًا بشخصياتي وبهاجس المتاهة، وعليّ الابتعاد لفترة عن عالم الكتابة، عليّ أن استرخي قبل أن أجنّ، فهذه علامات غير حميدة..!.

أقفل الباب مرتبكًا. خطى ببطء وهو يفكر مع نفسه مستغربا ما جرى. ولم يمش سوى بضع خطوات راجعًا إلى مكتبه حتى رنّ جرس الباب مرة أخرى.!. تجمّد في مكانه. لم يستطع أن يخطو للأمام أية خطوة، لكنه لم يكن متيقنًا أيضا من صوت رنين الجرس، فربما قد توهّم مرة أخرى، لذا لم يتحرك. كان حائرًا ما بين أن يرجع ليفتح الباب أو العودة إلى مكتبه!.

توقف رنين الجرس. مرتْ لحظاتٌ شعر فيها بالراحة التي لم يعرف سببها الحقيقي. لكن، فجأة، سمع طرقًا باليد على الباب. تنصّت جيدًا فسمع الطرق على الباب يتكرر. استدار متوجهًا إلى الباب.

حين وصل الباب توقف الطرق اليدوي. ظل واقفا قرب الباب منتظرًا. وما إن طُرق الباب مرة أخرى حتى فتحه فجأة!. أصابته الدهشة.

لم يكن يصدق عينيه، وسأل نفسه مستغربًا: «أيعقل أن يكون هو حقا.؟ كيف يمكن أن يقرأ شيئًا عن الله بينما يحضر إبليس!؟ أيعقل أن يتحول الخيال الروائي إلى واقع، والشخصيات الروائية تظهر بشكل ملموس وواقعي..؟»

وخلال ثوان عرف أنه الرجل الأشقر الوسيم الذي قدمه في «متاهة إبليس» ببدلته السوداء وقميصه الأبيض يقف عند الباب. وبسرعة خاطفة استحضر كل معرفته عنه وفكر مع نفسه «أنا لا أؤمن بوجوده. لقد استوحيته في شكل الممثل الايطالي النمساوي هيلموت بيرغر ومنحته حق المرافعة للدفاع عن نفسه باعتباره مجرد رمز ديني خلقه البشر للتخلص من الشعور بالذنب عند اقتراف خطيئة ما، وهو ليس سوى وهم أخلاقي، لكن ها هو يقف أمامي عند الباب.. كيف هذا؟!».

ابتسم الرجل الأشقر الوسيم له وكأنه أدرك ما دار في ذهنه وقال له مبتسمًا وهو يركز نظراته في عينيه:

- أتتركني هكذا واقفا عند بابك يا أستاذ آدم..!؟

ارتبك آدم الأكويني وفتح الباب على مصراعيه إشارة لدعوة الدخول من دون أن يقول شيئًا، فمرق الرجل الأشقر الوسيم. وخلال ثوان كان في

وسط الشقة الفارهة.

ازدادتْ حيرة آدم الأكويني حين نظر إليه ورآه في ثانية واحدة جالسًا على الصوفا الجلدية وهو ينظر إليه بابتسامة فيها شيء من التركيز المشوب بالاستفزاز الخفيف.

وقف هو أمامه مرتبكًا محاولًا أن يأخذ المبادرة في الحوار باعتباره صاحب الشقة، فقال بصوت مرتبك سعى أن يكون متماسكا:

- أهلًا وسهلًا..

استرخت ملامح الرجل الأشقر الوسيم وأشار إلى الصوفا المقابلة وقال وكأنه هو المضيف:

- تفضل.. اجلس.

لا شعوريا استجاب آدم الأكويني لدعوته وكأنه ضيف على الرجل الأشقر الوسيم فعلًا، وقال له بهدوء وبنبرة فيها امتنان:

- شكرًا لك..

نظر الرجل الأشقر الوسيم إليه متأملًا وعلى شفتيه ابتسامة دافئة وقال:

- أنت تعرف من أنا طبعا..؟.. وتعرف أن هذا الحي الذي تسكنه هو منطقتي.. ألم يمنحه دانتي لي..!

لم يجب آدم الأكويني للحظات، ثم هز رأسه للأسفل علامة على الايجاب ثم قال:

- أعتقد ذلك..

امتدت لحظات صمت بينهما. صمت مشحون بالكلام، قطعه الرجل الأشقر الوسيم بقوله:

- أعرف أنك الكاتب آدم الملقب بالأكويني، وأنك كتبت رواية «المتاهات» المتعددة الأجزاء، وفي إحدى أجزاء تلك الرواية إستحضرتني بهيئتي هذه، وأنا اشكرك على ذلك، فأنت على خلاف ما أُقدّم في الأدب والفن العالمي، قبيحًا وشريرًا ونتنًا وبشكل حيواني

وبأظلاف ومخالب، قدمتني بشكل جميل ووسيم.. وأعتقد أنك مثلي بالضبط مؤمن بأنني غير موجود، فأنا لا أؤومن بوجودي، أنا غير موجود، لذا أشكرك مرة أخرى لأنك منحتني الفرصة كي أكون موجودًا لأدافع عن لا وجودي..!.

صمت الرجل الأشقر الوسيم للحظات وكأنه يفكر فيما يريد قوله ثم واصل:

- لا أريد أن أناقشك في أمري، لأنك تعرف البشر وتعرف وتعرف تفاهتهم، لكني في الوقت نفسه أحب هؤلاء البشر الشكاكين. أنت تعرف أن الحقيقة لا تروي ظمأ الشك، والذي يشك ربما يرتوي من الحقيقة للحظات ثم يبدأ شكه في الحقيقة نفسها!. وعلى أي حال، أنا كتبت رواية قصيرة، رواية عن آدم بعنوان «رواية آدم الغامضة» ستجدها على شاشة حاسوبك..!.

أحس آدم الأكويني بأن الكلام كله الذي قاله الرجل الأشقر الوسيم كأنه قد سمعه في مكان ما وفي وقت ما، أو وكأنه كان يتوقع كل جملة يسمعها، إلّا ما يخص «رواية آدم الغامضة» فهذا ما لم يتوقعه، بل وما زاد استغرابه أنها موجودة على شاشة الحاسوب! لذا تحرك بطريقة عجولة ليمسك عكّازه الذي كان قربه ونهض دون استئذان وذهب ليلقي نظرة على شاشة حاسوبه فرأى ملفا يحمل اسم «رواية آدم الغامضة»، وسأل نفسه كيف صار الملف على شاشة الحاسوب وليس مرسلًا عبر البريد الإلكتروني أو عبر وسائل الاتصال الجماهيري كالفيسبوك والمسنجر..!

لبث للحظات بجانب المكتب ليلتقط أنفاسه ويفكر بالوضع الذي هو فيه. حاول أن يهدأ. بعد لحظات رجع إلى حيث الرجل الأشقر الوسيم فجلس حائرًا ومرتبكًا أمامه. نظر الآخر إليه وابتسم له بطيبة، قائلًا:

- أنا أعرف أنك في مقام الحيرة. فبعيدًا عن وجودي الرمزي في الأديان فقد أوجدتني أنت بهذه الصورة في رواياتك، ومنحتني الحرية في أن أكون أو لا أكون، أنت تعرف أن أحد المنظرين الذين تحترمهم أنت، كتب ذات مرة بأن الروائي إذا كان حرًا فهو لا يستطيع أن يمنح شخصياته الحرية، فالحرية بالنسبة للكاتب غير قابلة للتقاسم حتى مع الشخصيات التي يبدعها، فما يستحيل على الإله يستحيل على الروائي، فإما أن يكون الروائي حرًا وشخصياته غير حرة، أو أن تكون الشخصيات حرة والروائي، مثلما الإله، غير موجود. لا تبحلق في وجهي هكذا. أنت لست حرًا.. فأنت غير موجود أيضًا..!

بهت آدم الأكويني وصُدم مما سمعه فقال بنبرة فيها احتجاج مكتوم:

- كيف أنا غير موجود؟ ماذا تقصد..؟

لم يلق الرجل الأشقر الوسيم بالًا لتساؤل آدم الأكويني واحتجاجه المبطّن، إذ نهض عن الصوفا وتوجه إلى الباب، بينما بقي آدم الإكويني جالسًا للحظات وكأنه يعيش حوارًا روائيا وليس أحداثًا واقعية تجري معه.

فجأة نهض آدم الأكويني متكئا على عكازه وتبعه، لكن الرجل الأشقر الوسيم التفت إليه وأشار له بأن يتوقف ولا يتعب حاله بمرافقته وقال:

- لا داع لمرافقتي إلى الباب. استرح أنت. بالمناسبة أنت رجل لا إيمان لديك، وإنما لديك الشجاعة. نعم الشجاعة على الشك. أنا على الضد منك، ليست لديّ الشجاعة وإنما لدي الإيمان. هذا الإيمان هو الذي يدفعني إلى السخرية من أهوال الجحيم التي يضعني البشر في أعمق وديانها الخانقة. أنا، على الرغم من لا وجودي، مؤمن بالبارئ القدير أكثر من جميع البشر، ومع ذلك يعتبرونني رمزًا للشر، وبأني الذي يوسوس لهم ويزين لهم الشهوات.. يا للخبثاء المنافقين..!.

ثم توجه نحو الباب مجتازا الممر القصير. فتح الباب. وقبل أن يغادر التفت إلى آدم الأكويني مرة أخرى قائلًا:

- ستأتيك المرأة التي اسمها حواء سرّ الختم. انتبه لحكايتها. صحيح أنت معجب بها ولا تفارق صورتها ذهنك وهي بثوبها الأسود. أعرف ذلك. لكنها ستأتيك فاستمع لها جيدًا. ألم تقرأ يوما أن كريشنا قال: قد يأتي الضوء من امرأة بسيطة لا من رجل حكيم أو حتى من الشيطان! فاستمع لبوحها المثقل بالألم والإذلال والخطايا التي تواجه البشر في منعطفات ضعفهم البشري!. وإياك إياك أن تمنح نفسك الحق بالحكم عليها. لا أحد يمتلك الحق بالحكم على الآخرين..!

واختفى..

كان آدم الأكويني ينظر إليه وهو واقف قرب الباب لكنه لم يره يغادر عبره، إنما اختفى فجأة!. وفي تلك اللحظات اجتاحه يقين بأن ما حصل ليس أكثر من رؤية اشراقية باعتباره كاتبًا روائيًا مهمومًا بالسؤال عن الله وعن الخير والشر في الحياة، وإن كل ما جرى من أوهام عقله. ولكي يتأكد من تفسير ما حدث توجه مرة أخرى إلى شاشة الحاسوب فانتبه إلى أن ملف «رواية آدم الغامضة» موجودة على الشاشة فعلًا.

ظل للحظات متكئًا. شيئًا فشيئًا بجذعه إلى الطاولة وهو يحدّق في شاشة الحاسوب، وشيئا فشيئا استرخى بذهول، فجلس على كرسيه حول الطاول وأسند عكّازه على طرفها.

لم يفتح الملف مباشرة. ظل يفكر بما جرى. فجأة، انتبه لشاشة الموبايل وهي تضيء. مدّ يده وأخذ الهاتف ليعرف المتصل في مثل هذا الوقت. لم يكن على الشاشة أيّ رقم. انقبضت نفسه من هذه الأشياء الغامضة التي تجري معه في الواقع وليست جزءًا من أحداث روائية غرائبية يكتبها.

تجنب أن يرد على الاتصال. وحين توقف رنين الهاتف شعر براحة نفسية. استرجع ما قاله له الرجل الأشقر الوسيم عند الباب، وسأل نفسه: كيف عرف علاقتي بحواء سرّ الختم..! وهل سيحدث فعلا أن تأتيني لتبوح لي بسيرة حياتها..!.

كان يمسك الهاتف بيديه. فكّر أن يتصل بصديقه آدم الغوريلا، وأخذ يفتش عن اسمه. ضغط على زر الهاتف. رن الهاتف على الطرف المقابل، لكن لا أحد يجيب. حاول مرة أخرى. استغرب أن صديقه لا يجيب. «ربما هو مع امرأة، فهذا هو السبب الوحيد الذي يمنعه من الإجابة فهو يأخذ الهاتف معه حتى حينما يذهب إلى غرفة الحمّام» هكذا فكر مع نفسه.

أراد المحاولة للمرة الثالثة لكن الهاتف رنّ في يده. لم يقرأ شيئًا على الشاشة إذ لا إراديا ضغط على زر استقبال المكالمات. ظل صامتا لكنه أراد أن يعرف من على الطرف الآخر من الخط فسمع صوتًا رجوليًا فتيًا ذا نبرة فيها استرخاء الثمالة الواضحة لكنها مسالمة، كان الصوت يسأل:

- عفوا أنني اتصل في مثل هذا الوقت المتأخر، لكن هل أنا مع الأستاذ آدم الأ كويني..!.

صمت آدم الأكويني للحظات ثم أجاب:

- نعم.. تفضل.. من حضرتك؟

صمت الشخص على الطرف الآخر للحظات وقال بنبرة متوترة ومرتبكة لكن باندفاع الثمل:

- أنا آدم سر الختم. أود أن أتحدث مع عمتي حواء سرَ الختم..! مساعدتك والتي تقوم بخدمتك وتدير منزلك.

- مَن؟

سأل آدم الأكويني مستغربًا.

- حواء سرّ الختم.. عمتي..!.

فوجئ آدم الأكويني وفكر للحظات بما يجري معه، فهذا المتصل يؤكد مجيء تلك المرأة نفسها. لم يواصل التفكير طويلا إذ قاطعه الشخص المتصل وكأنه يقرأ أفكاره عن بعد وقال:

- أرجوك دعني أحدثها. لقد هربت من البيت، وأعرف أنها جاءتك فلا مكان لديها تذهب إليه سواك..!.

صمت آدم الإكويني للحظات متفكرا ومحاولًا أن يفهم ما يجري معه!. انشغل للحظات بخبر هروبها من البيت!، فقال بطريقة بدت لا مبالية لكنها كانت مع ذلك مليئة بالفضول:

- هي ليست موجودة هنا، ثم ما الذي جرى..؟ لماذا هربت..؟

لم يدعه الآخر أن يكمل سؤاله إذ قاطعه:

- أنا السبب. أنا النذل السافل الدنيء، أنا الذي أسأت إليها وحطمت كرامتها وعزتها بنفسها وحولتها من قديسة إلى عاهرة ساقطة ومبتذلة..!

- ماذا..؟.. قال الأكويني مندهشًا.

- نعم.. أنا السافل الذي دمّرها، لكنها تمردت عليّ وحطّمت كل شيء.. وهربتْ..! هي بدأتْ تتغير من أول يوم التحقت فيه للعمل عندك كمساعدة لك في ترتيب بيتك وشقتك، لكنني أنا السبب في هروبها. دعني أتحدث معها وأعتذر لها. أنا الآن سكران، وحين أكون سكرانٍ أكون طيبًا، لأني في الواقع حين أصحو أكون سافلًا وحقيرًا ومنحطًا!. دعني أحدّثها أرجوك وأتوسل إليك..!

- هي غير موجودة هنا، ولم تأتْ إلى هنا..!. قال بنبرة فيها حزم وحياد في الوقت نفسه.

فجأة جاء صوت الآخر منتفضا وعصبيا ومهددًا:

- اسمعني جيدا أستاذ آدم. إذا لم تدعني أحدّثها الآن فسأفضحك، بل سأتصل بالأجهزة الأمنية وشرطة الآداب لأخبرهم عن وجود عاهرة في شقتك، أيها المحترم..!

انزعج آدم الأكويني من نبرة التهديد المبتذلة، كما راودته مخاوف أن يفعلها هذا المتهور السكران. ولم يكن خوفه بسبب المرأة فهي غير موجودة فعلًا، وإنما من الفضيحة بحد ذاتها واقتحام شقته في هذا الليل، فقال له بنبرة صارمة:

- اسمعني أيها الأخ. عمّتك ليست موجودة، ثق لو كانت حقا موجودة لسمحت لك أن تحدّثها لاسيما وأنت تريد الاعتذار منها، لكنك تقول إنها هربت! إذن ربما ذهبتْ إلى فندق ما أو إلى أقرباء آخرين لكم..!؟

امتدّ الصمتُ بينهما للحظات. فجأة، سمع الآخر يقول بنبرة اعتذار صادق:

- أنا آسف على الإزعاج أستاذ، ظننتها عندك. هي تبجّلك كثيرًا، وتقول إنك نبيٌ. ولو ادّعيت النبوة لتبَعَتكْ!، لذك ظننتُها جاءتْ إليك. (صمت لثوان). لكن ربما ذهبت إلى بيت عمي الآخر. آسف على الإزعاج.

وانقطع الاتصال.

بقيّ هو مندهشًا من هذه المحادثة التي قلبتْ الأشياء في ذهنه. من ترُاها هذه المرأة التي تنبأ الرجل الأشقر الوسيم بأنها ستأتيه وعليه الاستماع لبوحها؟ أهي مهمة إلى هذه الدرجة بحيث يحدّثني عنها؟ هو يعرف أنها امرأة محجّبة، محافظة، خجولة، نظيفة، أمينة، ودودة ولطيفة في التعامل، وتتحرك في الشقة وكأنها كائن شفاف غير موجود؟ وذكر أنها تشكتْ له من عدم ارتياحها في سكنها، وكانت إشارتها واضحة وغامضة في الوقت نفسه إلى تحرّش ابن العائلة بها، لذا أخذته مشاعر النبل فعرض عليها الانتقال للسكن في الغرفة الصغيرة قرب المطبخ في شقته. بيد إنه صُدم من هذه المكالمة التي تأتي من ابن أخيها ليصفها بأنها ساقطة وعاهرة!.

وعلى الرغم من تلاطم هذه الأفكار في نفسه فقد شعر بالسرور لكلمات المتّصل بأنها تبجّله وتعّده نبيا، وأنها مستعدة لتتبعه، لكن إلى أين تتبعه وهو ليس نبيًا ولا صاحب رسالة ولا يرغب في ذلك ابدًا؟ ثم أين هي الآن؟ لماذا لم تأتِ إليه إذن؟

تمنّى للحظة لو أنها توجهت له في مثل هذا الوقت إذ لم يبق على صباح الغد سوى ساعات، وما دامت قد هربتْ فالأفضل لها أن تأتيه..!.

خطرت في ذهنه أن يتصل لحظتها بصديقه آدم الغوريلا مرة أخرى ليروي له أحداث هذه الليلة الغريبة، فضغط على زر المكاملة، لكن لا أحد كان يرد على الطرف الآخر، ووجد نفسه لا إراديا يضغط عن طريق فأرة الحاسوب على ملف «رواية آدم الغامضة» فانفتح النص أمامه.

وما إن قرأ الأسطر الأولى من النص المفتوح أمامه حتى وجد نفسه يتوغل فيه برغبة وفضول:

رواية آدم الغامضة

لكاتبها

الرجل الأشقر الوسيم

1

الغرفة الغامضة

حين فتح عينيه فجأة لم يستوعب أين هو، أو من هو؟ لم يفهم شيئًا قط، ولم يدرك شيئًا أبدًا، كان ذهنه فارغًا من أية فكرة أو تصور عن هويته الشخصية أو عمّا يحيطه! ظل لثوان وهو مستلق على سريره يحدّق في السقف الذي كان عاليًا جدًّا! نظراته فارغة وباردة، رأسه فارغ من أية أفكار سابقة، ظل على استلقائه ينظر إلى السقف، أحسّ بما يشبه الضباب الأبيض الكثيف يملأ ذهنه، وفراغ شاسع يملأ جمجمته!

لم تمض سوى ثوانٍ معدوداتٍ حتى أخذ الضباب الذهني ينقشع شيئًا فشيئًا. ظل يحدق في السقف الأبيض العالي جدًّا، انتبه إلى أنه لا يعرف هذا السقف، ولا يتذكره، حرّك رأسه يمينًا ويسارًا، فازدادت دهشته، فهو لا يعرف هذا المكان، لا يعرف أين هو؟!

أحس بالخوف البارد يسري في أعماقه، أراد أن ينهض عن سريره، رفع القسم الأعلى من جسده محاولًا أن يغادر السرير لكنه فجأة ألقى بنفسه مرة أخرى مستلقيًا باسترخاء، فقد انتبه إلى أنه لا يستطيع أن يتذكر نفسه، على الرغم من أنه الآن يفكر ويدرك ما حوله!. ظل مسترخيًا لدقائق، لكن لا شيء، كان الوقت يمرّ عليه دون أن يستطيع الوصول إلى معرفة نفسه!

انبثقت خاطرة في ذهنه: «ربما قد فقدتُ ذاكرتي؟ لكن لماذا؟ وكيف؟ هل تعرضتُ لحادث اصطدام سبب لي فقدان الذاكرة؟»، ولا شعوريًّا أخذ يتلمس جسده إن كان مصابًا أو تعرض لحادث، ثم تلمس بكفيه وجهه ورأسه، لكن لا شيء يشير إلى أنه تعرض لحادث أو إصابة أو ارتجاج في الدماغ، لا شيء يوجعه في جسده، فكيف فقد ذاكرته كليًّا، إنه لا يتذكر شيئًا بتاتًا!

انقبضت نفسه، وشعر بقلق يجتاح ذهنه ونفسه، هو لا يريد الآن سوى أن يعرف من هو؟ وكيف وجد نفسه الآن في هذه الغرفة؟!.

فكّر مع نفسه: «ربما أنا ميت، والآن أعيش تفاصيل حياة ما بعد الموت! وربما أنا شخصية وهمية أعيش الآن في حلم لشخصيتي الحقيقة التي هي ربما نائمة في مكان ما في هذه اللحظة! لكن من هو ذلك الشخص، الذي هو أنا، الذي يراني في الحلم! وأين هو الآن؟!». قرر مع نفسه أن ينهض عن سريره بحثًا عن أي شيء يساعده على التذكر.

نهض ببطء، مدّ ساقيه إلى الأرض، لكنه بقي جالسًا على حافة السرير، انتبه إلى أن جدران الغرفة أخذت تتغير، تتداخل في بعضها البعض، وتتشكل بطريقة غريبة، تستدير، وتتشكل كصورة ثم تثبت وتتجسد واقعيًّا، أو هكذا خُيّل إليه، إذ خلال ثوان وجد نفسه في غرفة واسعة أشبه بصالة أو جناح في فندق، في أحد جوانبها تمتد رفوف خشبية من الصندل تشكل مكتبة مقسمة إلى رفوف طولية وعرضية تصطف فيها مجلدات أنيقة لكتب لا يبدو على ظهرها أي عنوان أو كتابة ما، وأمامها ثمة صوفا طويلة جلدية بيضاء، أمام الصوفا طاولة زجاجية عريضة عليها دورق زجاجي مليء بالماء حتى منتصفه وإلى جانبه كأس كريستالية فيها ماء حتى منتصفها أيضًا، إلى جانب المكتبة من جهة اليسار ثمة ممر صغير يفضي إلى الباب الخارجي، وفي ذلك المرر ثمة باب خمن أنه باب لغرفة الحمام، سريره يحتل المنطقة المواجهة للمكتبة والممر، وعلى امتداد الممر باتجاه أعماق الغرفة الجانب الآخر المقابل ثمة ما يشبه المطبخ المفتوح من الجانبين، حيث يشكل القسم الأول من المطبخ ما يشبه الطاولة المرمرية التي يتوسطها طباخ كهربائي سطحه من الزجاج المضاد للحرارة، وفي الجهة المقابلة للمطبخ وإلى الجدار ثمة خزانة خشبية واضح أنها خزانة للملابس تغطي عرض الجدار كله تقريبًا.

وعلى الرغم من أنه كان منهمكًا مع نفسه لمعرفة هويته الشخصية إلاّ أنه تأكد من أنه لا يعرف هذا المكان، فكل ما فيه لا يذكّره بنفسه ولا يحمل له أية دلالة خاصة قد تساعده على معرفة نفسه!

مرّت دقائق وهو يتأمل المكان، نظر إلى الأرضية عند قدميه فرأى شبشبًا قطنيًّا فانتعله، ونهض واقفًا.

حين صار واقفًا أحس بدوار يلفّه، بقي واقفًا ولم يتحرك إلى أن تلاشى الدوار، سأل نفسه: كم مضى عليّ وأنا نائم في هذه الغرفة؟ وكم هو الوقت الآن؟ وما هو تاريخ اليوم، والشهر والعام؟ وفي أية مدينة وأي بلاد هذه التي أنا فيها الآن؟ ولم يجد جوابًا لهذه الأسئلة البديهية، فشعر بدبيب الخوف في نفسه.

خلال وقفته تلك فكر مع نفسه: «أنا قادر على التفكير، وهذا يعني أني موجود، لكنني غير موجود كذات أيضًا، أنا فاقد لذاكرتي وهويتي، فما جدوى وجودي الجسدي إذا لم أعرف ذاتي وهويتي!».

فكّر مع نفسه، بأن عليه أن يرصد تفكيره بأية لغة تتم، فربما سيعرف حينها هويته الأصلية، لكنه تاه أكثر، فقد وجد الأبجديات تتشكل أمام عينه الداخلية الثالثة، انتبه إلى الحروف الأبجدية العربية، لا، إنها تتلاشى لتنبثق الأبجدية اللاتينية، ثم الحروف الإنكليزية، والألمانية، «ما هذا؟!»، ها هي الأبجدية الصينية تتشكّل أمام عين أعماقه، وها هي الأبجدية الهندية، «لا، لا، هذه الأبجدية الإغريقية، وها هي والروسية، السلافية، لا، لا، هذه هي الأبجدية الفارسية، الكوردية، والأوردية، لا، ما الذي يجري معي! وها هي حروف الأبجدية الأمازيغية، وما هذه؟! إنها حروف الأبجدية العبرية، لا، هذا غير ممكن، ها هي الأبجدية الهيروغليفية الفرعونية أيضًا، وهذه الكتابة المسمارية!»، فجأة، ضغط بكفيه على رأسه ليوقف عملية تدفق الأبجديات، وكأن الأمر بإرادته! ازداد تيهًا وارتباكًا، وأخذ يسأل نفسه بقلق مجددًا: من أنا؟ وأين أنا؟ ومن أين جئت؟ ولماذا أنا موجود في هذه الغرفة؟ ما معنى كل هذا؟

ظل واقفًا للحظات إلى أن هدأت نفسه من القلق الذي انتابه، ولا إراديًّا وجد نفسه يتقدم نحو المكتبة، وقبل أن يصل إليها توقف عند الصوفا الجلدية البيضاء، نظر إلى الطاولة الزجاجية، انتبه لوجود الدورق الزجاجي وإلى الكأس الكريستالية، سأل نفسه: لماذا الكأس فارغة حتى نصفها، أو فيها الماء حتى منتصفها! أهناك من كان هنا وشرب منها! لا بُد من وجود شخص ما سكب الماء في الكأس!

فجأة خطرت في ذهنه خاطرة بأنه سيعرف نفسه من خلال الكتب، اقترب من رفوف الكتب والمجلدات الأنيقة، سحب كتابًا ذا غلاف أنيق، تصفح عنوانه فلم يجد عنوانًا للكتاب! فأسرع بتقليب صفحات المجلد فهاله أن جميع صفحاته بيض وخالية من أية كتابة؟!

أحس بالحنق، رمى الكتاب على الأرض، ثم سحب كتابًا آخر، فتحه على صفحة العنوان فلم يجد عنوانًا للكتاب أيضًا، تصفح الكتاب مقلّبًا الصفحات بسرعة، فكانت خالية من أية كلمة أيضًا؟! أخذ يتصفح الكتب بطريقة سريعة وعصبية، وحينما لا يجد فيها شيئًا يرميها على الأرض!

استمر هكذا إلى أن انتهى من الرف الأول فتوجه إلى الرف المجاور وأخذ يقلّب مجلداته، فتأكد من أن كتب الرف الثاني كالأول فارغة من أية كتابة. الكتب تكدست على الأرض، صار هو كالمهووس، يأخذ من كل رف بعض المجلدات ويتصفحها بسرعة، ثم يرميها على الأرض، إلى أن أيقن أن جميع الكتب ليست كتبًا، وأن المكتبة ليست مكتبة وإنما هي جزء من ديكور الصالة، أو أنها لغز يضاف لبقية الألغاز التي تحيط به!

أحس بالخذلان فقد كان يأمل أن تساعده الكتب في فهم نفسه، من خلال لغة الكتاب، ودار النشر، ومكان النشر، وتأريخ الطباعة، وعنوان الكتاب، واسم المؤلف، لكن لا شيء من هذه الأشياء وجدها في هذه المجلدات التي كانت مرصوفة بأناقة على هذه الرفوف.

في تلك اللحظات، رنّ هاتف أرضي من إحدى زوايا الصالة، فزّ هو مرعوبًا، تلفّت بفزع باحثًا عن الجهة التي ينبعث منها الرنين المتواصل، لم يحدده بسهولة، كان الرنين ينبعث من جهة السرير، لكنه لم يرَ أي جهاز للهاتف، توجه مسرعًا ونظراته فزعة تفتش الفسحة التي فيها السرير، انتبه إلى أن الصوت يأتي من أسفل السرير، من الجهة الأخرى المعاكسة للجهة التي نهض منها، صار هناك، فرأى الجهاز على الأرض، حمله ووضعه على السرير.

استلقى على السرير، أخذ السماعة، وقبل أن يرفع السماعة انقطع الرنين، وعلى الرغم من ذلك رفع السماعة آملًا أن هناك من سيجيبه، أراد أن يتكلم، لكنه لم يستطع أن ينطق بأية كلمة..!.. استغرب من نفسه، هل هو أخرس! أرعبته فكرة أنه لا يستطيع الكلام!.

نسى في تلك اللحظات كل شيء وانشغل بفكرة البكم، وقرر أن يقول شيئًا ليتأكد من أنه ليس أخرسَ، أن يقول أية كلمة بأية لغة، لكن فمه لم يطاوعه، لم تخرج من فمه أية كلمة، أراد الصراخ، فانتبه إلى أن الصراخ الذي انطلق من فمه كان مكتومًا!. شعر أنه في كابوس حقيقي.

* * *

لا يعرف كم من الوقت مرّ وهو على حالته تلك مستلقيًا على السرير، وكأنه كان غائبًا عن المكان، طيلة ذلك الوقت كان منشغلًا مع نفسه وأعماقه محاولًا أن يعرف نفسه، وأن يستذكر أي شيء عن شخصيته السابقة قبل أن يفيق من نومه، لكن جهوده كانت تقوده إلى الفراغ والعبث!

وبحركة لا إرادية جلس على حافة السرير عسى أن يرن الهاتف مرة أخرى فيرد على المتصل مباشرة، عندها سيفهم منه ما يمكن أن يكشف له عن هويته واسمه وشخصه والمكان الذي هو فيه! لكن كيف سيكلمه، وبأية لغة؟

فجأة، انبثقت في ذهنه فكرة لم يفكر بها منذ أن أفاق ووجد نفسه هنا في هذه الغرفة الواسعة، إذ فكر بأن عليه مغادرة هذه الغرفة! عندها سيفهم كل شيء.

نظر إلى جسده وكأنه ينتبه له لأول مرة، إذ رأى أنه يلبس بيجاما حريرية زرقاء، حاول أن يستذكر شيئًا ما عنها لكن بلا جدوى، أحس بالحيرة والتوتر أكثر، أحس بالضيق والخوف من أنه لا يتذكر أي شيء..!

بعد لحظات، وبعد أن ترسخت فكرة مغادرة الغرفة في ذهنه، أقنع نفسه بأنه سيركض إلى الهاتف مباشرة إذا ما رن مرة أخرى، لذلك قام من مكانه متجهًا إلى خزانة الملابس ليتعرف على محتوياتها!

فتح باب الخزانة الخشبية العريضة بجانبيها ففوجئ بما رأى، كانت تصطف أمامه داخل الخزانة ثلاث بدلات مختلفة الألوان، وسبعة قمصان، مع سبعة سراويل مختلفة الألوان، وتسعة أزواج من الأحذية الجلدية المختلفة، بقي للحظات يتساءل عن سر هذا العدد من البدلات والقمصان والأحذية، ثم تأمل الملابس عسى أنها تحمل له بعض الذكريات لكن دون جدوى!

فجأة انبثقت في ذهنه فكرة أن يرى نفسه، وشكله، فهو لا يعرف شكله ولا يتذكر ملامح وجهه، وأدرك ضرورة النظر إلى نفسه في مرآة، لكن هذا المكان يخلو من أثر لمرآة!

نظر إلى جانبي باب الخزانة، كانتا بلا أية مرآة، لا من الداخل ولا من الخارج، أحس بالفزع من نفسه ومن الوضع الذي هو فيه! تلفت وهو واقف أمام خزانة الملابس مفتشًا في أرجاء الغرفة عن مرآة فلم يجد، وفجأة، تذكر غرفة الحمام في الممر الذي يفضي إلى الباب الخارجي، فتوجه إلى الحمام!

فتح باب الحمام، أصابته الصدمة، فقد كان الحمام خاليًا من أية مرآة! كان هناك حوض من السيراميك الأبيض ينتصب فوقه دُش للاستحمام، ومقعد للمرحاض، وحوض للغسيل مع حنفية تنتصب في وسطه، لكن لا مرآة في المكان المخصص لها عادة على الجدار خلف حنفية الماء!

ظل لدقائق يتساءل عن سر اختفاء المرآة من الحمام، ومن خزانة الملابس التي تكون مرآة كبيرة تحتل أحد جانبي بابها!

في تلك اللحظة بالذات رنّ جرس الهاتف مرة أخرى، فقفز خارجًا من غرفة الحمام راكضًا باتجاه جهاز الهاتف، ولكي يمسك بسماعة الهاتف بسرعة فقد ألقى بنفسه على السرير من الجهة المقابلة للهاتف، لكن الغريب أن الرنين انقطع قبل أن يمد هو يده إلى سماعة الهاتف!

استغرب هو من قصر فترة الرنين، أحس وكأن هناك من يتلاعب به قصدًا، لكن من هو هذا المتصل الذي يستفزه بهذه الطريقة وكأنه يراقبه فيوقف الرنين قبل أن يأخذ هو السماعة؟!

ظل لدقائق مستلقيًا على بطنه ناظرًا إلى جهاز الهاتف وكأنه يستنطقه أو ينتظر منه إجابة، أو يستعطفه كي يرن مرة أخرى! لكن دون جدوى، فجهاز التليفون الأسود الكلاسيكي الطراز لم يرن ثالثة.

لم يجد أمامه سوى أن يرتدي إحدى البدلات ويغادر الغرفة ليستطلع المكان الذي هو فيه، حينها ستتكشف له الأشياء بوضوح، وربما سيجد من جيرانه من يعرفه، حينذاك سيسأل عن نفسه دونما خجل!.. ثم برقت في ذهنه خاطرة، ربما هناك في جيوب تلك البدلات والقمصان ثمة وثيقة أو بطاقة هوية أو جواز سفر ستساعده على كشف هويته!.

نهض مسرعًا متجهًا نحو خزانة الملابس، وأخذ يفتش في جيوب البدلات من الداخل والخارج لكنها كانت كلها فارغة، وأخذ يفتش في جيوب السراويل، لم يجد شيئًا، أخذ يفتش في القمصان التي كان بعضها بجيب وبعضها بلا جيب، ولم يعثر على أي شيء فقد كانت الجيوب كلها فارغة، كان هو يلهث من سرعته في تفتيش الملابس، ولم يكتف بذلك وإنما تقرفص على الأرض ليفتش داخل الأحذية أيضًا عسى أن يجد شيئًا، لكن كل آماله قد خابت!

أحس بنفسه مستفزًّا، فأخذ ينزع بيجامته بسرعة وتهور، وألقى بها من بعيد على السرير، وأخذ أحد القمصان من الخزانة فلبسه، وأخذ إحدى البدلات الثلاث فارتداها أيضًا، ثم لبس الحذاء..!.

في تلك اللحظات سمع صوتا هادرا يأتي من الخارج.. صوتا أشبه بانفتاح بوابة ضخمة، فأسرع مغادرًا الغرفة.

2

المَمَرّ

حين فتح الباب وجد نفسه أمام جدار ينتصب أمامه، ارتد للوراء قليلًا، لكنه انتبه إلى أن في الجدار مقبضًا صغيرًا، إذ اتضح له أنه لم يكن جدارًا وإنما هو الباب نفسه لكنه مغطى بورق مرسوم عليه جدار من الآجر الأحمر، مسك المقبض وحركه فانفتح الباب، فاجتازه. وجد نفسه في ممر طويل لا نهاية واضحة له، يمتد أبعد من المدى الذي يراه، سواء من جهة اليمين أو من جهة اليسار!

على كل جانب تصطف غرف تمتد على مدى الجدار إلى حيث تختفي في نقطة لا يستطيع أن يرى أبعد منها، وثمة ضوء شاحب متقطع يأتي من مصابيح شحيحة الضوء معلقة على السقف الأسمنتي!

وقف منذهلًا من غرابة المكان الذي وجد نفسه فيه، تلفت يمينًا وشمالًا، على امتداد البصر تمتد الأبواب التي تشبه أبواب زنزانات في سجن مهجور، انتبه إلى أن الأبواب كانت ملونة، مصبوغة بالدهان الملون، كل تسعة أبواب مصبوغة بلون محدد، تتبعها تسعة أبواب بلون مختلف عنهما، وهكذا على امتداد الممر، ومن الجهتين. وقف لدقائق يعد هذه الأبواب ليتحقق من دورتها وتتابعها العددي..!.

استغرب من هذا التناسب بين الأبواب التسعة ثم الثلاثة، لم يفهم شيئًا، كان الصمت مهيمنًا على الممر، إلا بعض الأزيز الذي يأتي من بعض المصابيح التي كانت تنطفئ وتضيء بين لحظة وأخرى.

«أين أنا؟ وما هذا المكان؟ وما معنى هذه الأبواب الملونة؟ ما دلالة ذلك، لماذا تسعة أبواب! ولِمَ هذه الأبواب وكأنها أبواب لزنزانات؟! هل أنا في سجن؟ لا أحد هنا يمكنني أن أسأله؟ أين المدخل لهذا المبنى؟ بل وأين السلّم، فكما يبدو أن هذا الممر هو طابق في المبنى بالتأكيد!»، هكذا كان يسأل نفسه، وكان في حيرة حقيقية، لا يعرف من أين يبدأ، وإلى أي اتجاه يخطو.

بعد لحظات وجد نفسه لا إراديًّا يتجه إلى اليسار! كان يخطو بحذر شديد، الأبواب على الجانبين مغلقة، فجأة، وبعد عشر خطوات انتبه إلى أن ثلاثة أبواب متقابلة كانت مفتوحة، بابان من الجانب الذي يقف هو فيه يقابلها باب من الناحية المقابلة، سار نحو أول باب من جهته، وقف أمامه ونظر من

خلال الباب إلى داخل الغرفة، لم يجد أمامه أي شخص ولم يشعر بأية حياة داخل الغرفة، لكن قلقه ورغبته المتعطشة لمعرفة نفسه ومعرفة ما يجري معه دفعته إلى أن يطرق الباب، طرقات خفيفة!

لم يجبه أحد، فدخل الغرفة متوجسًا، ظنًّا منه بأن من يسكن الغرفة ربما لم يسمعه جيدًا، لكن ما أن تخطى العتبة بخطوتين حتى وقف مندهشًا، أحس وكأنه دخل غرفته هو!

كانت الغرفة فارغة، لا أثر لأي كائن فيها، وكل شيء كما في غرفته بالضبط، الأشياء نفسها، تقسيم الغرفة، المطبخ، المكتبة، دورق الماء على الطاولة الزجاجية، كأس الماء الكريستالية والماء فيها حتى المنتصف، الكتب الملقاة على الأرض كما في غرفته بعد أن رماها غاضبًا!

وجّه نظراته المتوجسة في أرجاء الغرفة فتأكد من غياب ساكنها، وفي تلك اللحظة بالذات رن جهاز التليفون الأرضي، ولثوان ركّز على جهة الرنين فلمح جهاز التليفون الذي يشبه الجهاز الموجودة في غرفته بالضبط، فلم يجد سوى أن يغادر الغرفة مذعورًا لما شاهده، بينما استمر الهاتف بالرنين.

ما أن صار في الممرّ حتى أصابه الهلع أكثر، فقد سمع رنين الهاتف يأتي من جميع الغرف المفتوحة والمغلقة، فلم يجد نفسه إلا وهو يركض نحو غرفته مرعوبًا، داخلًا، ليقفل بابها ويقف خلف الباب لاهثا..!

ظل للحظات قرب الباب من الداخل، كان يلهث من سرعة الجري والفزع الذي انتابه من هذا الرنين الغامض لأجهزة التليفونات!.

توجه إلى داخل الغرفة وألقى بنفسه منهكًا على الصوفا الجلدية البيضاء، ولا إراديًّا مدّ يديه نحو الكأس الكريستالية، وأخذها مرتشفًا ما فيها من ماء، أرجع الكأس إلى الطاولة، ولا إراديًّا مد يده إلى الدورق الزجاجي، أخذه، سكب ماءً في الكأس الكريستالية إلى النصف أيضًا. انتبه لنفسه، لم يجد أي تفسير لما قام به، بأن يسكب الماء في الكأس حتى منتصفها بالضبط دون أن يشرب منها.

ظل جالسًا، وشيئًا فشيئًا هدأت نفسه، انزاح الرعب عنه لكن القلق بقي يشوش عليه، فهو لم يفهم كل ما يجري معه، وفشلت محاولاته لمعرفة نفسه، فليس من المعقول أنه إنسان ظهر من الغيب وألقي به إلى الوجود دونما سيرة ذاتية..!

لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل؟ ولا إلى أين ذهب؟ وصحيح أنه لا يستطيع أن يتذكر أي شيء، لكنه في الوقت نفسه يدرك بأن ما يحيطه غامض ومليء بالأسرار، فهذه الغرفة لا تذكّره بشيء ما، وهو لا يفهم سر هذه الكتب الفارغة، كما لا يفهم لم كانت الغرفة التي دخلها وكأنها غرفته هذه طبق الأصل؟! ولماذا رنت التليفونات في جميع غرف الممرّ من جانبيه في اللحظة نفسها!.

كان الخوف والتردد يشلان تفكيره لكنه على الرغم من ذلك وجد في نفسه الرغبة في أن يعاود المحاولة لاستكشاف المكان!

***

نهض ببطء، مشى نحو الباب بتوجس، فتح الباب بحذر شديد، اجتاز الباب، صار في الممر، ظل واقفًا أمام باب غرفته، تلفّت إلى اتجاهي الممر فشعر ببرودة تسري في جسده.

كان الضوء الشاحب الذي تشعه المصابيح القريبة يومض وينطفئ يبعث في النفس رهبة غامضة، وكانت المصابيح البعيدة والمضيئة تكشف عن خواء بارد يمتد على طول الممر من جانبيه.

سار بخطوات حذرة إلى الجهة اليمنى هذه المرة، كانت أبواب الغرف مغلقة، لا نأمة ولا صوت يصدر من تلك الغرف. فجأة، أحس بضوضاء ولهاث يرافقه نباح يأتي من بعيد، من أعماق الممرّ، بل كان اللهاث والنباح يأتي من الجهتين!

توقف للحظات متجمدًا في مكانه، نظر في أعماق الممرّ، ثم تلفت إلى الجهة التي خلفه، فشلّه الرعب، لمح كلبين أسودين كبيرين تتّقد عيونهما كالمصابيح الفسفورية، كل منهما يركض بأقصى سرعته نحوه!

أرعبه الضوء الفسفوري المنطلق من عيونهما، وارتعش جسده من شراسة النباح المتلهف الذي يصدرانه، كانا يركضان نحوه من أعماق جهتي الممرّ!

الكلبان لا يزالان بعيدين، شعر وكأن عضلات ساقيه قد تجمدت وشُلّت، فهو لا يستطيع الركض نحو غرفته، كان بالكاد يحرك قدميه، بينما الكلبان كانا يركضان نحوه بسرعة مخيفة!

باب غرفته ليس بعيدًا لكن قدميه لا تساعدانه على الحركة. انتبه إلى أن الكلبين صارا على بعد مئات الأمتار منه، وينظران إليه وكأنهما يتوعدانه

قصدًا، حاول أن يستنهض قواه الداخلية، أخذ يشدّ نفسه ساحبًا جسده نحو باب غرفته، لكنه بالكاد وصل إلى بعد أمتار من الباب، بينما الكلبان صارا على بعد عشرات الأمتار منه، وحين وصل إلى باب غرفته كان الكلبان قد صارا على بعد ثلاثة أمتار منه، وما إن مد يده إلى أكرة الباب حتى قفز الكلبان نحوه، لكنه كان قد فتح باب الغرفة وصار داخلها..! وفي تلك اللحظة بالذات نظر من فتحة الباب قبل إغلاقها بالكامل فرأى أن الكلبين اصطدما ببعضهما أثناء القفز للإمساك به، لكن ما أثار غرابته أن الكلبين في لحظة اصطدامهما ببعضهما تحولا إلى ومضة برق خارقة السرعة واختفيا من الوجود، وفي تلك اللحظة أغلق الباب.

وقف لاهثًا ومرعوبًا للحظات قرب الباب من الداخل، لم يفهم ماذا جرى، من أين أتى هذان الكلبان؟ ولماذا أرادا أن ينهشاه بحقد وغضب؟ وكيف اصطدما واختفيا في العدم وتحولا إلى ومضة وكأنهما ما كانا واقعًا؟ أكان هو يتخيل ذلك؟ وإذا ما كان قادرًا على التخيل فلماذا لا يستطيع أن يتخيل أي شيء عن نفسه وماضيه وشخصيته والمكان الذي كان فيه وجاء منه؟ وبينما هو منهمك بأسئلته وحيرته سمع صوتًا يأتي من غرفة الحمام، أنصت جيدًا، كان صوت الماء المنهمر من الدش، وصوت الماء المتلاطم قليلًا في حوض الاستحمام!

الدهشة أنسته حيرته، مشى بخطوات حذرة جدًّا نحو غرفة الحمام، وبيد حذرة مسَك بقبضة الباب، وفجأة وبطريقة جريئة فتح الباب ليفاجئ مَن في الداخل، لكن دهشته كانت صادمة حينما لم يجد أحدًا، بل ولم يكن الماء ينزل من الدش، والحوض جاف وفارغ، ولا أثر لبلل أو ماء على الأرض أو لوجود أي شخص في الحمام.

ظل للحظات منذهلًا مما رأى، فقد كان على يقين من سماعه لصوت انهمار الماء من الدش، وأيضًا تلاطم الماء الخفيف في حوض الاستحمام، بقي للحظات قرب الحمام، ثمة خيبة سرت في نفسه، وكأنه كان يتمنى أن يرى الماء المنهمر من الدش، وكذا تلاطم الماء في الحوض، خاف من هذه التهيؤات التي مرّت به، والتي تضاف إلى مجموعة الألغاز الغامضة التي تحيط به، وإلى تلك التي يعيشها هو بنفسه!

أغلق باب الحمام، ثم مضى بخطوات بطيئة نحو الصوفا الجلدية البيضاء، ألقى بنفسه عليها هادًّا جسده باسترخاء وتعب، مدّ ذراعيه على طول الصوفا من الأعلى، وألقى برأسه إلى الوراء، ناظرًا إلى سقف الغرفة!.

مرّ وقت ليس بالقصير وهو يحملق في السقف، فكر في كل ما مرّ به منذ لحظة استيقاظه، إلى لحظة فتح باب الحمام، محاولًا أن يجد ترابطًا بينها وتفسيرًا لها، لكنه عجز بالكامل عن ذلك، بل إن عجزه جعله عاجزًا عن التفكير، فعملية التفكير في ذهنه وأعماقه لا تأخذ شكلًا لغويًّا وإنما صوريًّا، إذ تتجسد له الأشياء والأفكار في هيئة لغة صورية، شريط مصور!

أحس بتعب من هذا الوضع الذي وجد نفسه فيه، فأخذ يحدّق في الفراغ، لا شيء في ذهنه، ودون أن يشعر غرق في رقاد عميق.

3

الكائن الغامض

فزّ من رقدته مرعوبًا على صوت منبه هائل الصوت هزّ المكان كله، تلفّت مرعوبًا عن مصدر الصوت في أرجاء الغرفة فلم يجد أي مصدر للصوت في الغرفة، وأدرك أن الصوت يصدر من مكبّر هائل وقوي للصوت، صوت نفخ في بوق هائل!

ولم يطق هذا النفير المهول، فقام لا إراديًّا واتجه إلى الباب، وقبل ثوانٍ من فتحه لباب الغرفة توقف مترددًا، لكن صوت النفخ في البوق الهائل كان مزعجًا ويبث القلق في نفسه، فوجد نفسه يدير مقبض الباب، وفي تلك اللحظة بالذات، حين فتح الباب توقف الصوت!

اجتاز الباب بحذر شديد، كان السكون الغامض المدوي يهيمن على الممرّ، وانتبه إلى خشخشة تأتي من السقف، رفع رأسه بحذر، فرأى بعض الحشرات الطائرة تطن قرب المصباح الأبيض الكهربائي المعلق في سقف الممر!

فجأة لا يعرف كيف، وجد نفسه جامد المشاعر، هادئًا ببرود، أحس بأن للسكون المهيمن على الممرّ قوة مغناطيسية عليه، لكنها قوة غامضة، فحينما غادر الغرفة أول مرة رنّت أجهزة التليفون بجميع غرف الممرّ في اللحظة نفسها! وفي المرة الثانية انبثق من أعماق الممرّ بجهتيه كلبان حاولا أن ينهشاه بحقد وغضب! وقبل قليل هدر صوت هائل مرعب لبوق يطلق النفير، لكنه اختفى فجأة، دون أن ينتبه لمصدره، وها هو الآن يشعر بسكينة غامضة تملأه، سكينة وكأنها تأتي من أعماق الممرّ التي لا يستطيع سبر غورها!. وكأن في أعماق الممر، في الظلمة الكثيفة التي ينتهي إليها الممر ثمة كائن يراه ويترصده..!

وعلى غير توقع منه انطفأت المصابيح في الممر كلية، أحس وكأنه تلاشى في العدم، لكن بعد ثوانٍ قليلة اتقدت المصابيح مرة أخرى، لكن خلال تلك الثواني ارتدّ هو للوراء لاصقًا ظهره بباب غرفته، ولم يطل الأمر سوى ثوانٍ حينما عاد النور ثانية إلى الممرّ، ثم أخذت المصابيح تنطفئ وتتقد في حركةٍ متوازنة ومتتالية.

حين غمرَ الضوءُ الشاحبُ المتقطعُ الممرَّ، رفع رأسه للأمام، أحس بالصدمة، كان ثمة كائن ما يقف عند الباب المقابل له، لم يصدّق عينيه، ما الذي يراه!.

حدّق في وجه ذلك الكائن الذي يقف أمامه في الجهة الأخرى خلال لحظات الإضاءة القصيرة، أدرك أنه كائن يشبهه لكن يختلف عنه أيضًا. ظل ينتظر لحظات الضوء المتقطعة ليتأكد من وجود ذلك الكائن، فجأة استقر الضوء في الممرّ، فأخذ يتأمله، وأخذ يسأل نفسه إن كان يعرفه، وكيف هو هنا مثله؟ ومن هو؟!

لم يستطع أن يجد لنفسه جوابًا، حاول أن يغور في أعماقه عسى يجد ولو أثرًا يقوده إليه! لكنه لم يستطع أن يتذكره، بل ولم يستطع أن يذّكره بأي كائن آخر قط!

انتبه إلى أن هذا الكائن يشبهه ويختلف عنه قليلًا، فجأة، أحس وكأن شرارة برق اتقدت في أعماقه وذهنه، نعم، هو يعرف أن هذا الكائن هو أنثى، من صدرها النافر، وشعرها الطويل، وجسدها اللدن، هي كائن أنثى، هي امرأة، وشعر بدفق من السعادة لكنه، في الوقت نفسه، شعر وكأنه لم يعرف أية امرأة في حياته، وحاول أن يضغط على ذهنه كي يستعيد أية أنثى يعرفها ولها صورة في ذاكرته أو خبرته، لكنه لم يستطع! وسأل نفسه بأن الإنسان يولد وبالتأكيد لديه أم تنجبه، وحينما أراد أن يستذكر أمه أو أية امرأة أخرى لم يستطع، وكأنه بلا أم جاء إلى الوجود! ودون أن ينتبه لنفسه أحس برغبة في أن يقترب منها، عسى أن توضح له الوضع الذي هو فيه مثلما هي فيه! ربما لديها إجابة ما!

كانت المرأة ترتدي ثوبًا أسود لم يحدد نوعية طرازه وموديله وزمنه! ثوب يفسح عن كتفيها ويبرز نهديها وتقاسيم جسدها.

كانت هي تنظر إليه بدهشة أيضًا، بل كانت تحدّق مركّزة نظرها على عينيه وكأنها كانت خائفة ومندهشة لرؤيته أيضًا! فجأة، فتحتْ باب غرفتها ودخلتها، غالقة الباب خلفها، وسمع هو من مكانه ضجيج الرتاج وهو يسد بابها بمتانة.

كان هو في حالة ذهول، لم يصدق ما رآه، فكر للحظة مع نفسه بأن ما رآه ربما كان هلوسة بصرية منه، ربما هو بحكم وضعه الغامض هذا، وهذا الكابوس الذي يعيشه قد رأى ما رأى، لكنه فكر مع نفسه، لو كانت هلوسة فلِمَ حضرت هذه المرأة في هلوساته! من هي؟ هو لا يتذكر أية امرأة عرفها

سابقًا، ولو لم يراها أمامه لما اعتقد بوجود كائن أنثى، لكنه منذ أن رآها عرف أنها امرأة! ولم يستطع أن يستوعب من أين جاءت هذه المعرفة بأنها أنثى!

ما إن اختفت المرأة حتى راوده إحساس غريب، فلم يعد يفكر بالسؤال عن هويته ولا لغز وجوده هنا وإنما انحصر تفكيره في المرأة، كانت في أعماقه تتصاعد رغبة في رؤيتها والاقتراب منها، أحس أنه لم يعد وحيدًا! لكن كيف يقدم على ذلك وهي قد اختفت في غرفتها مذعورة وخائفة منه!

أراد أن يدخل غرفته ويقفل على نفسه، لكن ماذا سيفعل وحده في غرفته! ولا شعوريًّا وجد نفسه يتقدم إلى الجهة الأخرى حيث باب المرأة.

تقدم بخطوات مرتبكة نحو باب تلك المرأة الغامضة، تذكر ملامح وجهها الحزين، المذعور، الغامض، وثوبها الأسود، أراد أن يطرق الباب، لكنه توقف! تردّد، حاول أن يرفع يده ليطرق على الباب لكنه أرجعها بسرعة، أحس بالخوف من أن يكون واهمًا، ولا يعرف من أين جاءه الخوف ثانية، وبسرعة عاد إلى غرفته، دخلها وأغلق الباب على نفسه وهو غاضب من تردده وخوفه الذي فوّت عليه فرصة أن يكتشف ذاته مع هذه المرأة.

كان حائرًا، ومنقبض النفس من تردده في طرق باب الغرفة المقابلة، جلس على الصوفا الجلدية البيضاء، أخذ كأس الماء وارتشفه في رشفة طويلة، ليس لأنه عطشان، وإنما ليبعد عن نفسه هذا القلق والحيرة، وحين وضع الكأس الفارغة على الطاولة مدّ يده إلى الدورق الزجاجي ليملأ الكأس حتى المنتصف!

في تلك اللحظات تحديدًا سمع طرقًا على الباب، ففز مرتبكًا، ومن شدة ارتباكه ارتعشت يده فاندلق قليل من الماء على الطاولة الزجاجية، لكنه لم يعبأ بذلك، وضع الدورق على الطاولة ونهض مستفزًّا.

توقف الطرق. ظل هو واقفًا لا يتحرك، لكن الطرق عاد مرة أخرى، فتحرك بحذر شديد نحو الباب، وما إن خطى بضع خطوات حتى توقف الطرق مرة أخرى. توقف هو متوترًا وحذرًا، وبخطوات حذرة وخافتة جدًّا وبطيئة اقترب من الباب، صار أمام الباب بالضبط، وفي اللحظة التي طُرق فيها الباب مرة أخرى فتح هو باب الغرفة ليفاجئ الطارق، لكن الصدمة الهائلة كانت حينما لم يجد أحدًا أمام الباب، ولا أثر لأي كائن!

شعر بالخوف، التفت إلى ناحيتي الممرّ، كان السكون الغامض يلفّ كل شيء! «من طرق الباب إذن؟!» سأل نفسه، ولا شعوريًّا وجّه نظره نحو باب الغرفة المقابلة، فكان الباب مغلقًا، فكّر مع نفسه: «حتى لو كانت هي فكيف

وصلت غرفتها وأغلقت الباب بهذه السرعة بينما أنا فتحت الباب لحظة الطرق بالضبط؟!».

فكر مع نفسه بأنه ربما قد توهّم صوت طرقات الباب مثلما حدث معه مع صوت انهمار الماء في الحمام، ووجد نفسه تطمئن لهذا التفسير، أحس بدبيب الشجاعة يسري في روحه.

كان ما زال واقفًا عند الباب من الداخل، وبحذر شديد لكن برغبة حاسمة في أن يكتشف المكان وأسراره خرج إلى الممر دون أن يغلق الباب خلفه! وعند الباب وقف حائرًا، إلى أي جهة عليه أن يتجه، فجانبا الممر يتشابهان، كل جهة ليس فيها سوى غرف تصطف بشكل متقابل إلى ما لا نهاية، لكنه حسم أمره وسار إلى جهة اليسار..!.

انتبه إلى أن الغرف الثلاث التي كانت مضاءة والتي حاول أن يدخل في إحداها مغلقة الآن! شعر بقشعريرة تسري في جسده، لكنه واصل خطواته الحذرة.

لا يعرف كم من الوقت مضى عليه، فقد راوده إحساس بأنه لا يمشي، فكل الغرف مغلقة وتتشابه، وبرغم التباين اللوني بين الغرف إلّا أن الإحساس بعدم التقدم في السير أثار خوفه. فجأة، وجد سلّمًا جانبيًّا عريضًا، درجاته من المرمر، يسوّره سياج حديدي مغلّف بخشب الصندل الأملس، سلّم ينحدر إلى قاع غامض!

ظل للحظات حائرًا ما بين أن يواصل مشيه في الممرّ أو أن يهبط السلّم، فهو المنفذ الوحيد الذي صادفه إلى الآن في هذا الممر، وربما سيقوده هذا السلّم إلى كشف أسرار هذا المكان الذي وجد نفسه فيه!

4

البحر والحوت الأزرق

هبط السلّم بحذر شديد، يده تنزلق على خشب الصندل الذي يحد السياج الحديدي من الأعلى. نظر إلى الأسفل. لم يستطع أن يبلغ بنظره إلى القاع حيث الطابق الأرضي. كان السلّم يلتف هابطًا دون أن يتضح أنه يقود إلى طوابق أخرى، والدرجات تلتف، والسلّم ينزل إلى القاع!

هبط بحذر وتوجس لفترة ليست بالقصيرة، إلى أن بدأ يشعر بالدوار من طول وكثرة الالتواءات المنحدرة للسلّم، حتى أحس وكأنه لن يبلغ قاع المبنى، ولا يصل لنهاية السلّم!. فجأة، سمع هديرًا، وصوت اصطخاب للأمواج وتلاطمها على الشاطئ! وأخذت تهبّ من الأسفل ريح منعشة إليه، وبعد التفافتين أخريين للسلّم، تكشّف المكان بضوء النهار. لحظتها فكر مع نفسه بأن الوقت الآن نهار..!.

وجد نفسه في باحة أرضية دائرية رحبة تنفتح على ما يشبه الشرفة المطلة على البحر. شرفة مرمرية تقود إلى البحر مباشرة. شرفة تمتد لثلاثة أمتار لا يفصلها عن البحر المفتوح أي سياج أو ساتر..!

تقدم بخطوات حذرة، وقف على تلك الأرضية المرمرية، وهاله ما رأى، البحر بتدرج ألوانه من الأخضر اللازوردي إلى الأزرق الداكن يمتد شاسعًا إلى أن تنطبق السماء عليه في خط الأفق. البحر يمتد أمامه، بل ويحيطه من كل جانب، وبدا له من خلال التفافة السلم وهذه الشرفة المطلة على البحر وكأنها مرسى، وأن المبنى ليس إلا فنار داخلي ضيق ينتصب في وسط البحر!.. «لا، لا» قال لنفسه، «كيف ذلك؟ وما معنى وجود الطابق الذي كنت فيه والذي يمتد على الجانبين إلى ما لا نهاية؟! ألا يعني أن المبنى شاسع طولًا وعرضًا، وهائل الحجم؟! كيف لا أرى شيئًا أبعد من الفتحة الصغيرة نسبيًّا والمطلة على البحر مباشرة وكأنها شرفة منسية ونائية، بينما الجدران من جانبي الفتحة تلتف بشكل دائري، في مساحة ضيقة وكأنني في برج ضيق وفنار مهجور، كيف ذلك؟! من أتى بي إلى هذا المكان الغامض والمرعب؟! أين أنا؟ وأي بحر هذا؟».

كانت تلك الفسحة المرمرية ذات الأمتار الثلاثة تتقدم كلسان ناتئ، كشرفة غريبة وغامضة!.

وقف للحظات متأملًا ومفكرًا في المنظر الذي يمتد أمامه، تقدم ببطء، وبحذر شديد مشوب بخوف جليّ. صار على الحافة المرمرية التي يتلاطم الموج عليها، أخذ يتأمل البحر، وتدرجه اللوني، كانت مساحات تمتد لعشرات الأمتار لازوردية ثم تبدأ بالأخضر، ثم فجأة يتوقف اللون الأخضر ليبدأ لون أزرق قاتم!.

انتبه إلى نفسه وسألها مستغربًا كيف انصرف ليفكر بالتدرج اللوني بينما عليه أن يفك أهم لغز يحاصره، هو معرفة كيف جاء إلى هنا؟ وما هذا المكان الذي هو فيه؟

وبينما هو مستغرق في مساءلة نفسه، تدافع الموج في المنطقة الزرقاء من البحر، وهدر البحر، وتعالت نافورات الماء إلى الأعلى، وانشقّ الموج عن حوت عملاق!

وخلال ثوانٍ اقترب الحوت نحوه، حتى صار على بعد مسافة رؤية ملامحه جيدًا، بل انتبه إلى أن الحوت ينظر إليه بتركيز. تذكر هذا المشهد، بدا له أنه رأى ذلك في مكان ما وفي لحظة ما!.. بل بدا وكأن الحوت يخاطبه ويقول له: «أنا من جئت بك إلى هنا!؟».. أو هكذا خُيّل له.

فجأة، قفز الحوت قفزة قوية إلى الأعلى ثم انهدّ بقوة ساقطًا في لجة البحر بحيث ارتبك المشهد كله أمامه، ورأى البحر ينحسر وينخفض إلى الأسفل بسرعة هائلة، وكأن البحر انهدّ من ثقل الحوت الساقط في لجّته. وخلال ثوانٍ رأى نفسه يقف في تلك الشرفة المرمرية الصغيرة، والبحر تحت الشرفة يبعد بانخفاض مئات الأمتار، وكأنه يقف على قمة جبل والبحر تحته!

ارتعب مما رأى وعاد خطوة إلى الوراء، وحين ألقى نظرة إلى أسفل الشرفة التي يقف عليها ارتعب للهوة التي يقف عندها، كان منحدرًا حادًّا جدًّا وأملسَ، واستغرب كيف غاص البحر مع سقوط الحوت في اللجّة، أحس بأن وقوفه هناك خطر عليه، وأنه محاصر بالبحر ومهجور.

فجأة استدار، وأخذ يهرول صاعدًا السلّم من جديد مرعوبًا ويائسًا.

أنفاسه تتقطع، حتى أحس بأنه بالكاد يستنشق الهواء. تعرق جسده، وأحس بأن صعود السلّم كان أطول من نزوله، فلقد توقف مرات عدة من التعب، ونظر مرات إلى الأعلى، وأحس بضياع وتيه حينما لم يتبين له سقف المكان أو نهاية السلّم!

لا يعرف كم أنفق من الوقت إلى أن ارتقى السلم صاعدًا حتى النهاية، إلى الممرّ. وحين صار في المرر ونظر إلى جانبيه اللانهائيين تأكدّ أن المكان الذي يتواجد فيه ليس فنارًا في وسط البحر، وأن هذا المبنى ليس دائريًّا كما بدا له عند الشرفة المرمرية، ومن المستحيل أن يكون المكان فنارًا ضيقًا، ومع ذلك سأل نفسه لحظتها سر وجود هذا السلّم الذي قاده إلى البحر.

وقف في الممرّ، تلفّتَ يمينًا ويسارًا، وقرر أن يواصل في جهة اليسار التي مشى فيها. لكن ما إن واصل السير حتى غمره الإحساس السابق نفسه بأنه يمشي لكنه يبدو وكأنه لا يمشي ولا يتقدم إلى الأمام، حينها فسّر الأمر مع نفسه بأن الممرّ متشابه الأبواب والجدران، لا سيما من ناحية تكرار الألوان، وأنه يمشي لكن تكرار الألوان والأبواب يخلق لديه الشعور بأنه لا يتقدم وإنما يراوح في مكانه، ودون إرادة منه نظر إلى قدميه، كانتا تمشيان وفي الوقت نفسه وكأنما تراوحان في مكانهما!.

مرّ وقت طويل وهو يمشي في الممرّ اللا نهائي، لم يتغير لديه المشهد، الأبواب الملونة التسعة، لا شيء يحدث، ولا تغيير في المشهد، لا صوت، لا نأمة، لا أثر لأي كائن أو مخلوق أو حشرة، أو حتى صوت!.

أحس بالملل وباللاجدوى من هذا السير غير الواضح. شعر برغبة في العودة إلى غرفته، لكن فجأة.. في تلك اللحظة التي قرر فيها العودة انطلقت موسيقى من أبعد نقطة في الممرّ!.. تفجرّت في نفسه مشاعر متضاربة وقال لنفسه: «وأخيرًا.. يوجد أحد ما..!».

5

الموسيقى الهاربة

واصل السير في الاتجاه الذي جاءت الموسيقى منه. سار بخطوات سريعة، لكنها كالعادة بدت له وكأنه يراوح في مكانه، لكن الغرف من الجانبين كانت تتحرك متجهة إلى الجهة التي خلفه، وكأنه يعبرها، مع إحساسه بأنه لا يتقدم بالمشي!

انتبه إلى أنه كلما اقترب من مصدر الموسيقى يجده يبتعد الصوت، وكأنه يهرب منه. كانت الموسيقى ألحانًا رائعة، لا يعرف كيف يصنفها، ألحانًا سماوية جذابة، ساحرة، غمرته بحنين لشيء يجهله! لكن ما كان يشغله ليست الموسيقى وحدها، وإنما مصدرها، ومن يعزفها..! فمن المؤكد أنه ليس وحده هنا في هذا المكان الغامض والمريب!

مضى وقت ليس بالقليل وهو يمشي بسرعة أقرب للهرولة، أحس بالتعب، بينما صوت الموسيقى يبتعد ويهرب منه، إلى أن اختفى نهائيًّا دون أن يستطيع اللحاق به، ومعرفة مصدره!.

أحس بالخيبة.. فجأة، سمع تلك الألحان تنطلق مرة أخرى من غرفة ليست بعيدة عنه! لم يصدق ما سمعه، لكنه بعد لحظات تأكد من أن الموسيقى تنطلق فعلًا من غرفة ليست بعيدة. حث الخطى، ووقف أمام باب مغلق، تأكد من أن الموسيقى تأتي من الغرفة خلف الباب.

تردد قليلًا، تهيّب أن يفتح الباب، لكن رغبته في اكتشاف الأسرار وغموض الأشياء دفعته إلى أن يقبض على أكرة الباب ويدفعها فاتحًا إياها وداخلًا إلى الغرفة، ويا لهول ما رأى!.

كانت الأبجدية الموسيقية، حروف النوتات، تبدو في فضاء الغرفة وكأنها شريط ضوئي ملون بألوان هائلة، حروف النوتات ورموزها تتطاير في فضاء الغرفة، وتتداخل فيما بينها، بينما الأصوات والألحان تُسمع!، لم يكن هناك أي شخص ولا أية آلة موسيقية، حروف النوتة فقط وهي تسبح وتتداخل في الفضاء وكأنها مجرة أو أفلاك من الحروف الموسيقية!.

منذ أول نظرة له لمجرة الحروف الموسيقية الملونة والمضيئة اجتاحته نشوة هائلة لم يعرفها، بل كانت شديدة الكثافة والروعة.. لم يتحمل ذروة

النشوة وما خلفته في جسده وروحه من ارتعاشات، إذ، فجأة، أغمي عليه.

حين فتح عينيه، وجد نفسه ملقىً عند الباب، بينما الألحان الموسيقية تأتي من الغرفة. استغرب الأمر كيف صار ملقى على الأرض خارج الغرفة!.. صحيح أنه حين أفاق من نومه لم يعرف من هو، ولا يتذكر شيئًا عن ماضيه، وعن ذاته، ولا يتذكر أي شيء لكنه منذ لحظة يقظته في تلك الغرفة الغامضة وإلى لحظة دخوله هذه الغرفة يتذكر كل شيء..؛ الكلبان، رنين الهاتف، الكائن الأنثى، السلّم الأول، والشرفة المرمرية والحوت الأزرق، وهبوط البحر إلى مئات الأمتار تحت الشرفة، والموسيقى الهاربة، ثم الحروف الموسيقية الملونة والمضيئة والسابحة في فلك كوني، والنشوة، لكنه لا يتذكر كيف صار خارج الغرفة؟

كان جسده مسترخيًا استرخاءً لذيذًا، مدّ يده إلى أكرة الباب، ونهض على قدميه، توقف عند الباب للحظات مأخوذًا بالألحان السماوية التي كانت تأتي من الغرفة، وبهدوء فتح الباب، وفي تلك اللحظة توقفت الموسيقى، وأصابه الذهول حينما لم يجد أية حروف مضيئة تدور في فلك كالمجرة، وإنما رأى غرفة كغرفته بالضبط. أحس أنه لم يعد يفهم شيئًا مما يدور حوله ويمر به! فليست المشكلة أنه لا يتذكر مَن هو وإنما صار لا يثق بما رآه فعلًا بعد صحوته، وفكر ربما أنه لم ينزل السلّم أصلًا! وأنه الآن ربما ليس هنا!.. فغادر الغرفة وهو في حالة تيه وضياع.

حين صار خارج الغرفة أحس ببرودة تسري في أعماقه وبقشعريرة في جسده، حتى أنه أحس بتنمل وانكماشات سرت على سطح جلده، راودته رغبة قوية أن يعود أدراجه، يعود إلى غرفته، ويعود للبحث عن ذلك الكائن الأنثى، فهو لا يطيق أن يبقى وحده.

6

سحر الأنثى

استدار عائدًا إلى حيث غرفته. انتبه إلى أنه يمشي بسرعة، بل إنه يهرول وليس كما كان يبدو له أنه يراوح في مكانه والأشياء تتحرك حوله! لكنه أحس في الوقت نفسه بأنه لا يتقدم كثيرًا، فهو لم يصل بعد إلى السلّم الذي قاده إلى الشرفة المرمرية والبحر والحوت الأزرق!

ظل يهرول، أحس بأن أنفاسه تكاد تتقطع وأنه يكاد يختنق وقلبه لم يعد يحتمل كل هذا التعب من الجري، توقف للحظات، انحنى متكئًا بساعديه على ركبتيه!

ظل لفترة ليست بالقصيرة على ذلك الوضع، ثم استقام بجسده، نظر إلى أعماق الممر أمامه فوجد أنه يكاد لا يعرف أين هو في هذا الممرّ، وأين تقع غرفته؟

ولم يشغل نفسه كثيرًا بالأسئلة وإنما واصل الهرولة، وكان أثناء ذلك تراوده بعض الأسئلة لكنه يطردها من ذهنه مباشرة، من خلال الإسراع بالهرولة بحيث صار يركض بأقصى سرعته، لكنه بعد فترة شعر بالتعب ثانية! توقف وهو يلهث، متقطع الأنفاس، مبتل الجسد من التعرق، واتكأ على ركبتيه مرة أخرى، لكن دهشته كانت صادمة حينما رفع رأسه فوجد نفسه أمام غرفته!!. تأكد من ذلك حينما لمح المرأة واقفة عند باب غرفتها!

في تلك اللحظة انتبه إلى أنه ترك باب غرفته مفتوحًا، تلفّت ما بين جهة المرأة وبين جهة غرفته المفتوحة، ولا إراديًّا توجه إلى غرفته، دخلها مسرعًا بعد أن أغلق الباب خلفه.

حين اجتاز الممر القصير عند الباب انتبه إلى شيء غير عادي في الغرفة، كان كأس الماء فارغة بينما كان الماء فيها عند النصف حين غادر الغرفة، وانتبه إلى أن الكتب التي ألقاها على الأرض قد أعيدت إلى الرفوف.

ألقى نظرة على السرير فوجده مرتبًا، ولم يكن جهاز الهاتف موجودًا. كيف هذا؟ من قام بذلك؟ من دخل الغرفة وشرب الماء، وأعاد الكتب إلى الرفوف وأعاد ترتيب السرير! ومباشرة استحضر صورة المرأة في ذهنه، «أمن المعقول أنها دخلت غرفتي في غيابي؟!» سأل نفسه.

ولم يتوقف كثيرًا في غرفته وإنما غادرها، وحينما صار في الممر فوجئ بأن المرأة غير موجودة، فاتجه نحو غرفتها، وحينما صار عند الباب بالضبط ورفع كفه ليطرق الباب فاجأته هي بفتحها للباب في تلك اللحظة.

أحس بالارتباك، كانت المرأة تنظر إليه بتوجس وارتباك منتظرة أن يوضح لها لماذا هو يقف عند بابها..!.

أراد أن يقول شيئًا لكنه صُدم بأنه لا يستطيع الكلام ولا يستطيع أن يستحضر أية لغة منطوقة ليتحدث بها معها!.

بقي للحظات كالمذهول أمامها بينما يجتاح أعماقه غضب خفي لعجزه! ولم يكن أمامه سوى أن يبدأ معها لغة الإشارات، مستخدمًا كفيه وذراعيه مشيرًا نحو باب غرفته ومحركًا كفه نحو فمه بحركة تشير إلى شرب الماء وترتيب الكتب! وبعدما انتهى من حركاته وقف منتظرًا أن تقول شيئًا، لكن دهشته كانت كبيرة حينما انتبه إلى أن المرأة التي تقف أمامه هي عاجزة عن الكلام مثله، وبدأت تحرك يديها نحو عينيها بإشارة إلى النظر، وفي تلك اللحظات تقدمت مجتازة الباب فتراجع هو قليلًا وصارت أمامه في الممر أيضًا. أشارت إلى أنه مضى في الممرّ، وهي كانت واقفة تتابعه بنظراتها، وهزت رأسها نافية مصاحبة ذلك بإشارة من أصابعها وكفيها بأنها لم تتوجه إلى غرفته ولم تدخلها!.

ظلا ينظران لبعضهما للحظات، وخلال تلك اللحظات هدأ الغضب في داخله، بل وأحس بالأمان من خلال وجود هذه المرأة التي كانت تنظر إليه بترقب وتساؤل لكن دونما خوف مثلما كانت تشعر قبل لحظات! ودون مقدمات، أبدت حركة بيديها أشارت فيها إلى دعوتها له بأن يدخل إلى غرفتها!

دخلت هي، تردد هو، ظل واقفًا لثوانٍ عند الباب، كانت هي قد خطت بضع خطوات في ممر غرفتها، وحينما التفتت ورأته واقفًا عند الباب أشارت له بحركة واضحة بأن يدخل، فدخل. حين صار في غرفتها فوجئ بأنها لا تختلف عن غرفته بتاتًا!

دعته إلى الجلوس على الصوفا الجلدية البيضاء، وبطواعية غريبة واستسلام بارد جلس حيث أشارت، بينما توجهت هي إلى الزاوية التي تشكّل المطبخ، وأخذت تعدّ شيئًا ساخنًا.

أخذ هو يدور بنظراته في الغرفة باحثًا عن أي شيء مختلف يوجد هنا ولا يوجد في غرفته، لكنه كان مأخوذًا بما يرى؛ فكل شيء كما هو في غرفته، بما في ذلك ألوان شراشف السرير!

نظر إلى دورق الماء، انتبه إلى أن الماء فيه كما في دورق الماء في غرفته، والماء في الكأس حتى المنتصف أيضًا، وخلال تأمله أنحاء الغرفة جاءت هي بكأسين فيهما شراب ساخن، وجلست على المقعد الجلدي الجانبي، ثم مدّت له بكأسه بينما وضعت كأسها أمامها!

كانا ينظران لبعضهما البعض، وكان واضحًا أن كل منهما ينتظر من الآخر أن يبادر بحديث الإشارات، وكانا يخفيان ارتباكهما برشف الشراب الساخن في كأسيهما!.

في تلك اللحظات فكر هو بطعم هذا الشراب الذي لا يعرفه ولا يتذكر أنه شرب منه! وفجأة وضع كأسه على الطاولة الزجاجية التي أمامه، وأشار بيده إليها محركًا كفيه سائلًا بما معناه: من أين أنت؟ وحرك ذراعيه بحركة عريضة مشيرًا إلى كل هذا المكان، هذه الغرفة، وغرفته في الجهة المقابلة، والممرّ!!؟

فهمت هي ما أشار إليه، وبدأت تشير له بحركات من كفيها بما معناه أنها لا تعرف شيئًا، ووضعت كفيها تحت أحد جانبي وجهها وأحنت رأسها بما يشير أنها كانت نائمة، وأشارت إلى السرير، ثم واصلت حركاتها مشيرة إلى الغرفة التي هما فيها، وكل ما في الغرفة، بما يشير إلى أنها لا تعرف أي شيء عنه، ثم أشارت إلى صدرها بما يعني أنها نفسها، وحركت كفيها وذراعيها بما يعني أنها لا تعرف من هي؟! وأشارت إلى لسانها بأنها وجدت نفسها لا تستطيع الكلام أيضًا!.

كانت المرأة تنتظر منه أن يحدثها هو أيضًا، لكنه ظل صامتًا.. وبعد لحظات من الصمت أشار لها بما معناه هو كذلك أيضًا، وأعاد عليها معظم الحركات التي قدمت هي نفسها من خلالها، وكذلك شرح لها من خلال الحركات بأنه ذهب إلى الغرف المجاورة، ووجد واحدة مفتوحة، وأشار لاصقًا إصبعًا من كل كف بما معناه بأن تلك الغرفة مثل غرفته، ومثل هذه الغرفة، وأخذ يروي لها كل ما جرى له في الممر، من رنين الهاتف، وظهور الكلاب، مرورًا بالسلّم الذي قاده إلى البحر والحوت الأزرق، ومجرة الموسيقى الهاربة، وإلى عودته ورؤيته ملامح الترتيب في غرفته!.. لم يشعرا بأية صعوبة في التفاهم، على العكس فقد كانا يعبران عما يريدان قوله بيُسرٍ شديد بحيث يفهمان بعضهما بوضوح شديد.

فجأة حانت منه التفاتة إلى رف الكتب، وخطرت في ذهنه فكرة أن يتأكد من الكتب الموجودة، فأشار بذراعه إلى الكتب وحرّك كفيه سائلًا عن الكتب والقراءة، فهزت رأسها نافية، فقام من مكانه واتجه نحو رفّ الكتب

وأخذ يتناولها ويتصفحها، ولم يستغرب حينما وجدها فارغة كما الكتب في غرفته، صفحات بيضاء ومجلدات للديكور لا أكثر!.

نظر إليها متسائلًا، لكنها لم تفهم نظرته، فأشار إليها وهو يفتح بأحد كفيه كتابًا ويشير بالكف الثانية للصفحة البيضاء، فأجابته بما معناه بأن كل الكتب هكذا! أرجع الكتاب إلى مكانه على الرف، ظل واقفًا، نظر إليها، وراودته فكرة أن يستطلع المكان معها، فأشار لها بما معناه، أين هما؟ وما هو هذا المكان؟ فأجابته بأنها لا تعرف، فأشار لها بما معناه أن يمضيا معًا لاستكشاف المكان، فأجابته بإشارات تعني بأنها خائفة، فأشار لها بأنهما سيكونان معًا، وشدّ على قبضتيه تأكيدًا. ترددت قليلًا، ثم استجابت نظراتها، واسترخت ملامحها قليلًا، وقامت من مكانها!

أحس هو براحة نفسية وسكينة تغمره حينما اتجهت نحوه، نظر إليها وقد غمره شعور لطيف ورقيق وشعر بانجذاب لا يعرف مصدره، وبشجاعة لم يعرفها في نفسه، لم يعد خائفًا من استكشاف الممرّ فهو لن يكون وحده! واتجها نحو الباب، وخرجا.

7

الزنزانات

حين صارا في الممر انتبها إلى أن ريحًا باردة عاصفة مصحوبة برذاذ ثلجي تهب مقبلة من الجهة التي كان هو قد اتجه نحوها أول مرة، نظرا لبعضهما البعض نظرات استفسار وتساؤل إن كانا عليهما أن يرجعا إلى الغرفة أم لا!.. استغربا هبوب الريح المصحوبة برذاذ الثلج، فالمكان مغلق بالكامل، سقفه الأسمنتي وجدرانه الملونة وغرفه اللا نهائية العدد، وأرضيته الأسمنتية الصلدة، كل هذا يجعل هبوب الريح البارد ورذاذ الثلج أمرًا غريبًا، وعلى الرغم من ذلك فإن ملامح كل منهما لم تبد أية إشارة تعني الرجوع إلى الغرفة!

تحركا نحو الجهة المعاكسة التي تتجه إليها الريح الثلجية العاصفة! سارا جنبًا إلى جنب، كانت أكفهما وذراعيهما تتلامس أحيانًا، فكان هذا يمنح كل منهما دفئًا خاصًّا وشعورًا بالأمان، فصار كل منهما لا إراديًّا يحاول أن يمس الآخر!. فجأة سمعا حركة وضجيجًا يأتي من خلفهما، التفتا بذعر، كان قطيعًا من الجواميس السود المرعوبة بعيون حمر قانية يقبل مسرعًا بهياج وفوضى من عمق الممر، ولم يكن أمامه سوى أن يحضنها بقوة ويقفز ملتصقًا بالجدار متجنبًا الدهس من قبل القطيع الهائج الذي ظل يمر من أمامهما لفترة ليست بالقليلة!

كانا يتنفسان بسرعة لكنه لم يفكّها عن أحضانه، مرت دقائق وهما على ذلك الوضع. كان الممرّ خاليًا، فقد اختفى القطيع في أعماق الممرّ من الجهة الأخرى، ولم يجد أمامه سوى أن يخفف من احتضانه لها، بينما كانت مستسلمة وراضية عن الوضع الذي هي فيه، ولم يكن أمامهما سوى أن يواصلا السير في الاتجاه الذي اختفى فيه القطيع.

كانت الريح مستمرة في هبوبها العاصف، والثلج صار أكثر كثافة، حيث غطى أرضية الممرّ بطريقة غامضة. نظرا باستغراب ودهشة للممر الذي بدا وكأنه وادٍ بين جبال تغطيها الثلوج، إذ امّحت الألوان كلها من الجدران الجانبية فقد غطاها الثلج، وسدّتْ مداخلَ الأبوابِ كثبانُه العالية نسبيًّا.

سارا معًا، لكنهما ظلا ملتصقين ببعضهما بشكل أكثر حميمية، وكأنهما يستمدان الدفء من بعضهما. كانت أقدامهما تغوص في الثلج الناعم. المرأة كانت أكثر تعرضًا للبرد لكونها كانت في ثوبها الأسود المفتوح من جهة الكتفين

والذي يصل ركبتيها، فنزع سترته وألبسها لها. فجأة توقفت المرأة، تلفتت إلى الوراء، نظرت إليه وكأنها تقول له إنها تريد الرجوع، نظرت إلى قدميها، كانتا عاريتان حتى الركبة وغائصتان في الثلج، نظر إليها مترددًا ثم استدار معها كي يرجعا، وفي تلك اللحظة، أحس كلاهما باندفاع موج عاتٍ وتيار مياه عنيف غمرهما واجتاح الممر؛ فتشبثا ببعضهما، وفي غمرة المياه تشبث هو بمقبض باب قريب أزاح التيارُ الثلجَ المتراكم أمام عتبته!

جرى كل ذلك خلال ثوانٍ قليلة، ثم وبشكل مفاجئ وغامض انحسرت المياه واختفت، ووجدا نفسيهما مبتلين، لكن لا أثر للمياه في الممر، بل ولا أثر للثلج..!.

نظر كل منهما إلى الآخر، ولا شعوريًّا انسحبا من التشبث ببعضهما، وأرخى هو ذراعيه عنها، فالجو ليس باردًا الآن، ولا ثلج في الممر، إذ جرفته وذوبته المياه المندفعة القوية، لكن أين ذهب الموج العاتي، ومن أين جاء؟ كانا يفكران في هذا الأمر معا وفي اللحظة نفسها.

حاولت هي أن تلملم نفسها وتسدل ثوبها الذي كشف عن جانب من ساقها، لا سيما بعد أن انتبهت لنظرة عفوية منه إلى ساقيها. حاول هو أن يشغل نفسه للحظات ليجبر نفسه ألّا ينظر لساقيها أو لجسدها الذي التصق الثوب المبتل به فكشف التواءاته أكثر.

لحظتها كانا قرب الباب، ولا إراديا مسك هو بقبضة الباب. حرك يده فأحس بأن الباب مفتوح. دفع الباب فانفتح!

حين فُتح الباب نظر إليها نظرة مليئة بالتساؤل والدهشة. تحركت نحوه، صارت خلفه وكأنها تحتمي به، خطا هو الخطوة الأولى ثم خطا بضع خطوات أخرى، تبعته هي بحذر، استغربا حينما وجدا نفسيهما في قاعة كبيرة فارغة، قاعة إضاءتها قوية جدًّا، قاعة مقطعة بطريقة تشي إلى أنها ليست سوى زنزانة كبيرة تفصل بين مساحاتها قواطع من القضبان الحديدية بحيث بدت القاعة وكأنها سجن.

مشيا بحذر، انتبها إلى أن هذه القواطع ليس فيها سوى مساطب خشبية في كل قاطع، وعلى المسطبة صحن خزفي صغير فيه سكينًا!

مشيا في القاعة والدهشة تغمرهما. قواطع تشبه الزنزانات على مد البصر، تتكرر فيها المساطب والسكاكين! فجأة انتبها إلى أنه من أعماق القاعة، وفي الممر الذي يتوسط القواطع، ثمة حيوان وحيد القرن هائل الحجم يقبل نحوهما، ارتعبا، فهربا باتجاه باب القاعة، وحينما صارا خارجها

أغلقا الباب بقوة، لكنهما في تلك اللحظة بالذات سمعا ارتطام جسد الحيوان هائل الحجم بالباب!

وفي تلك اللحظة أيضًا أحس بالباب يخلع من مكانه، ولأنه كان يمسك بمقبض الباب فقد وجدا نفسيهما يسقطان والباب عليهما، لكنهما لم يشعرا بالأذى أو الوجع، فقد كان الباب خفيفًا جدًّا، فدفعه جانبًا، ثم وقفا يسند أحدهما الآخر، لكن ما زاد من دهشتهما أن الحيوان هائل الحجم قد اختفى، كما أن القاعة والزنازين قد اختفت، وفتحة الباب تفضي إلى غرفة!. ترددا في الدخول، لكنهما سمعا حفيفًا لأجنحة، حفيفًا عاليًا، وواضحًا!.

تجرأ هو فدخل الغرفة، تبعته هي بتردد، لكن بفضول. كانت الغرفة نسخة من غرفتيهما، ممر يقطعه الحمّام الذي يقود إلى الصالة الواسعة التي فيها رفوف الكتب، والمطبخ، والصوفا الجلدية البيضاء، والطاولة الزجاجية التي عليها دورق الماء الذي يحتل الماء منتصفه، وكأس الماء المليء حتى النصف، والسرير، وخزانات الملابس، لكنهما فوجئا حينها بكائن شفاف كالزلال الفضي ذي البريق الفضي غادر المكان، غادره شاقًّا الجدار ومختفيًا في داخله! بينما ظل حفيف خفق الأجنحة يملأ الغرفة!.

كانا مرتبكين، نظرا لبعضهما، واتجها لمغادرة الغرفة، وحينما صارا عند مخرج الغرفة سمعا ضجيجًا وقلقة حديد وسلاسل، فالتفتا بدهشة، لحظتها ارتعبا حينما شاهدا الغرفة وقد تحولت إلى زنزانات على مد البصر، زنزانات حديدية لا جدران لها وإنما تتشكل من قضبان! والقاعة تتحرك مرة بشكل طولي ومرة بشكل عرضي، ثم تتداخل الزنزانات، وتفترق لتتحول مرة أخرى إلى زنزانات فردية! ولم يكن أمامهما سوى أن يعبرا عتبة الباب.

8

الغابة الثلجية، والعربة الغامضة

حين صارا في الممر أحسّا بهدير رعد وبرق، بل كان الممر يضيء بنور البرق الخاطف وتهتز جوانبه بشكل مرعب من خلال هزيم الرعد. استغربا ذلك، فالممر ذو سقف أسمنتي متين، وليس هناك من منافذ يأتي منها الصوت، فكيف يضاء الممرّ وكأن السماء مكشوفة عليه وكيف يقصف الرعد داخله!

وخلال لحظات، بدأ السقف ينشق من الوسط وينسحب على الجوانب مثل قطعة قماش مرتخية، وانكمشت الجدران والغرف، والسقف، أو كأنما الجدران والسقف ورقة تم طيها طيًّا. ولم يمض سوى لحظات قليلة حتى اختفى كل شيء، كل شيء، ووجدا نفسيهما في العراء، وفي الليل، لا، لم يكن ليلًا، كان فجرًا أزرق، مشوب بلون حليبي!.

وجدا نفسيهما يقفان على مرتفع أشبه بتلة ثلجية، وأمامهما تمتد برارٍ ثلجية بيضاء تميل إلى الزرقة تنتهي بغابة بيضاء غطى أشجارها الثلج! كان السكون يهيمن على تلك البراري الموحشة، وكانا يسمعان صوت خشخشة تأتي من بعيد، ومن مكانهما فوق التل الثلجي لمحا شيئًا ما يقبل من الجهة الجانبية المقابلة للغابة، حدقّا جيدًا، لمحا عربة مغطاة يجرها حصان في رقبته جرس يهتز ليرن في ذلك السكون، كما كان صرير عجلات العربة وهو يشق الثلج يصل إليهما!.

تقدمت العربة التي يجرها الحصان حتى صارت أسفل التل وعلى مقربة من الغابة، وهناك وقفت العربة، لم يتحرك الحصان، ظل واقفًا، بل هز رأسه ورقبته فرنّ الجرس المتدلي في رقبته في صمت البراري وسكون الغابة الثلجية!

نظرا لبعضهما، وكأنهما كانا يفكران في الشيء ذاته، نزلا التلة الثلجية سوية، كادا يسقطان في الثلج، لكنهما وجدا نفسيهما يركضان وصارا قرب العربة في لحظات! التفتا إلى أعلى التلة خلفهما فاستغربا أنهما وصلا العربة وقطعا تلك المسافة بهذه السرعة!.

صعد كلاهما إلى حيث مقعد القيادة للحصان.. شعرا وكأن مجيئ العربة كان بقصد أن يصعدا إليها. وبهدوء تحرك الحصان متجهًا إلى الغابة، وكأنه

يعرف إلى أين يذهب!

دخلت العربة إلى الغابة. كانا يجلسان على المقعد الخشبي في مقدمة العربة، وكان غطاء العربة يمس الأغصان المتدلية والمغطاة بالثلج فيتساقط الثلج كتلًا من بقية الأغصان أيضًا، فجأة وجدا نفسيهما أمام طريق مظلم، وأشجار تبدو سوداء مع أن الثلج يغطي الغابة كلها.

توقف الحصان، حاول هو أن يلكزه بعصا جانبية كانت موجودة في غمد جلدي مخصص لها، الحصان لم يتحرك، فضغط هو بالعصا على جانب من فخذ الحصان، لم يتحرك الحصان وإنما حرك رأسه ورقبته، فرنّ الجرس في سكون الغابة، وفجأة، طارت عشرات بل مئات الغربان من الأشجار السود التي كانت تسد الطريق على العربة!.

وخلال لحظات صارت السماء سوداء بينما انكشف الدرب قليلًا في الغابة، فتحرك الحصان، لكنهما بعد خطوات قليلة وجدا أن العربة تدخل ما يشبه النفق المظلم وسط الغابة، ولم يفهما سر وجود هذا النفق وسط الغابة، وبعد لحظات من السير في الظلمة الحالكة وقف الحصان أمام بوابة خلفها يتبين ضوء شاحب. نزلا من العربة، إذ بدا لهما أن الحصان قد أنجز مهمته وهذه هي محطته الأخيرة!

توجها إلى البوابة التي لم تكن تبعد عنهما سوى خطوات قليلة، فتحا الباب ودخلا، وجدا نفسيهما في مدخل صغير لا يتجاوز المترين يضيئه مصباح شاحب، وكانت هذ الفسحة تقود إلى بوابة أخرى!

حين صارا في هذه الفسحة أُغلق الباب من خلفهما بقوة وتداخلت القفل والرتاج إشارة لإغلاق البوابة.

فكر هو مع نفسه: لماذا كانت البوابة مفتوحة وكأنما كان هناك من ينتظرهما، ولماذا أغلقت الآن بطريقة تثير الفزع؟! نظر إلى المرأة التي التفتت إليه فزعة، وبدا من نظراتها أنها فهمت كل ما كان يدور في ذهنه من تساؤل.

وجدا نفسيهما في الفسحة الغريبة التي تقود إلى باب من الخشب الصندل، انتبه هو إلى أن الباب عالٍ جدًّا بما يعادل ضعف قامته! نظر إلى المرأة التي ترافقه نظرات من يشاركها فكرة فتح الباب ومواصلة الدخول إلى المجهول، فنظرت إليه نظرات مؤيدة!

فتح الباب ودخل، وتبعته المرأة داخلة خلفه، وجدا نفسيهما في ظلام دامس، وفي مكان مظلم، بارد، هواءه رطب، لا يمكنهما أن يريا أي شيء، بل لم يستطع أحدهما رؤية الآخر لكثافة الظلام!.

مدا ذراعيهما في الظلمة عسى أن يلمسا جدارًا يقودهما في السير بعمق الظلام، لكن لا شيء يحيط بهما سوى الظلام، حرّكا أذرعهما عسى أن يلمسا بعضهما البعض، وبعد لحظات تلامست الأكف، مسك بكفها وقادها معه في الظلام!

ظلّا لفترة طويلة يمشيان في الظلام الدامس، يدبان دبيبًا، خطواتهما بطيئة، مرتبكة، غير واثقة!

كانا لا يستطيعان الكلام، وحتى لغة الإشارة بينهما صارت بلا معنى في هذا الظلام الحالك، فهما لا يريان بعضهما البعض، ولا يريان أية حركة يدوية يقوم بها الآخر، ولولا أن كف كل منهما بكف الآخر لما شعرا بوجودهما فعلًا!

ظلا يسيران في الظلام، في براري الظلام، وكوكب الظلام، وسماء الظلام، وبحر الظلام. الظلام في كل مكان، الظلام أمامهما، والظلام خلفهما، والظلام تحتهما، والظلام فوقهما!

فجأة هبّت عليهما ريح زمهرير، شعرا بأن وجهيهما يتجمدان، وجسديهما يتخشبان. لم يستطيعا التحرك، ولا الخطو، وقفا في مكانيهما، وكفاهما متيبستان وهما تمسكان ببعضهما.

ظلا واقفان على وضعهما المتجمد لأمد ليس بالقصير، حتى بعد توقف الريح الزمهرير، وشيء فشيء أحسا بالدفء، بل انتشر في تلك الظلمة هواء دافئ بدأت حرارته تشتد، حتى صار الجو خانقًا ببخار ساخن كثيف، وكانا قد بدأ الخطو للأمام في تلك الظلمة الحالكة!

أحسا بنفسيهما وقد ابتلا من العرق الذي تسرب من جسديهما، وشعرا بالإنهاك، الإنهاك الذي هو أقرب للاختناق، بل كاد أن يغمى عليهما في تلك الظلمة المخيفة!

فجأة، ارتطما بشيء حاد وصلب أمامهما، فمدّ هو ذراعه ليتلمس ذلك الشيء الذي أمامه، فصارت كفه على مقبض باب، حركه ودفع الباب، ساحبًا المرأة خلفه بسرعة!

كانا يتنفسان بصعوبة، لكن الذي أذهلهما أنهما وجدا نفسيهما في الممرّ الذي وُجدا فيه منذ استيقاظهما في غرفتيهما، أحسا برهبة مشوبة براحة أنهما في أمان الآن! ولا إراديًّا حانت منه التفاتة للوراء، فهاله ما رأى، إذ لم يكن خلفه أي باب أو بوابة، بل كان الممر يمتد عميقًا إلى ما لا يمكن لعين أن تحدّ نهايته، فحرّك كفها هازًّا إياها كي تنظر، فالتفتت بكامل جسدها وسحبت كفها من كفه لا إراديًّا ووضعت كفيها على وجهها إشارة للغرابة والدهشة!

كان الممر يمتد خلفهما عميقًا، لكنهما آثرا ألّا يرجعا للوراء، بل سارا إلى الأمام!

سارا ببطء وحذر قاطعين الممر منتبهين إلى أن أبواب جميع الغرف كانت مفتوحة بالكامل، لكن كلما نظرا إلى داخل غرفة كلما ازداد خوفهما، فقد كانت الغرفة تكشف عن قاعات عميقة الطول من الزنزانات الحديدية على شكل أقفاص مكونة من قضبان.

ولم يكونا قد مشيا كثيرًا ولا اجتازا الكثير من الأبواب حتى بدأت أصوات صرخات إنسانية وأنين بشري لرجال ونساء يتعالى قادمًا من الأقفاص الحديدية والزنزانات الفارغة! توقفا عند أحد الأبواب التي كانت الصرخات تنطلق منه، لكن لم يكن ثمة أحد في تلك الزنزانات!

تلك الصرخات وذلك الأنين بثَّ الخوف في نفسيهما، لكنهما واصلا السير في ذلك الممر شاحب الضوء دون أن يصلا إلى غرفتيهما المتقابلتين، إلى أن لاح لهما سلّم جانبي، مرمري الدرجات، يهبط للأسفل، تنبعث منه روائح زكية ونسيم عليل ينعش الروح، قررا الهبوط!

9

البستان

حين هبطا السلّم أحسا أنهما لا ينزلان سلمًا مرمريًّا وإنما يهبطان على درجات يغطيها قماش مخملي أحمر، استغربا، إذ لم تكن درجات السلّم مغطاة حينما توجها للهبوط. نظرا لبعضهما البعض. كانا يفكران في الأمر نفسه، لكنهما لم يتوقفان عند غرابة ما يواجهان، فقد عرفا أشياء غامضة وشاهدا غرائب لا يحكمها منطق وليس لها تفسير! بل إن وجودهما بحد ذاته غامض ويحتاج لتفسير..

لم يطل الهبوط سوى لحظات إذ وجدا نفسيهما في بستان هائل، فيه كل أنواع الأشجار والثمار، بستان لا ترى شبرًا من الأرض فيه؛ فالأرض مغطاة بالعشب، والدروب التي بين الأشجار تغطيها العرائش، وخرير الماء يُسمع صوته العذب، والطيور الملونة والغريبة تتنقل بهدوء من غصن إلى آخر ومن شجرة إلى أخرى، وهناك أرائك تصطف في كل درب ظليل! وثمة ألحان رقيقة تملأ المكان لا يعرف مصدرها!.. والعطر.. العطر الشذي يملأ الهواء.

لم يكن نهارًا ولا ليلًا، لكن المكان كان مضيئًا. لا أحد غيرهما في هذا البستان الساحر. تجولا بهدوء بين الدروب الظليلة، ووجدا نفسيهما يدخلان في درب تتدلى من عرائشه عناقيد العنب الأرجوانية القاتمة، والتين الناضج بلونَيه الأخضر والأرجواني المائل للزرقة، والتفاح الأحمر برائحته المثيرة.

لم يكونا جائعين، لكن منظر الثمار وهي متدلية دفعت بالمرأة إلى أن تمدّ يدها إلى عنقود عنب يتدلى.. قطفت حبة منه وقضمتها. هو رأى تفاحة وحيدة كانت تتدلى من غصنها، لم يقطفها، وإنما مسكها، وبسهولة بالغة صارت التفاحة في كفه!.

انتبهت هي إلى التفاحة في كفه، أعجبها لونها الأحمر والرائحة التي تنبعث منها، مدّ بها إليها، فهزت رأسها رافضةً، مشيرةً له بيدها بأن يأكل هو منها أولًا، ابتسم لها، وقضم التفاحة بهدوء قضمة خفيفة، كانت هي تنظر إليه، واستغربت كيف تألق وجهه فجأة، وتوهجت نظراته، وارتوت شفتاه، واسترخت ملامحه، وبنظرة غامضة مليئة بالإغراء مد التفاحة لها. لم تأخذ التفاحة وإنما مدت يدها إلى عنقود العنب فقطفت منه حبة، واقترب منها،

فمدت يدها نحو شفتيه ففتحهما ووضعت حبة العنب في فمه، ثم قطفت حبة أخرى ووضعتها في فمها!

برقت عيناه، أحس بعصير حبة العنب ينساب في جوفه ويخدره. مد يده إليها بالتفاحة، وكالمسحورة أخذتها، قضمت منها قضمة كبيرة!

كان هو يبتسم وهو يرى التحولات التي أخذت تطرأ على نظراتها التي صارت تتقد برغبة غامضة، ماكرة، نحوه، ولم تستمر هي بأكل التفاحة إذ رمتها خلف الأشجار على جانبي الدرب!

كل منهما أخذ ينظر إلى الآخر نظرات لم يدرك معناها، لكنها نظرات كانت ممتعة لكليهما، كانا في حالة انجذاب لا يعرفان كنهه، ولم ينتبها لنفسيهما إلا على صراخ البط البري الذي كان يسبح في بحيرة مجاورة، فالتفتا إلى جهة الصراخ، ولمحا البحيرة الجميلة، الصغيرة، ذات الماء الأزرق الرقراق والتي تقع على حافة شلال واطئ صغير!

حين صارا عند البحيرة، نظر كل منهما نحو الآخر، وأدرك انجذاب كل منهما نحو الآخر، بل وأدرك كل منهما ما يجول في ذهن الآخر، فاستدار كل منهما لينزع ملابسه، صارا عاريين تمامًا، ونزلا إلى البحيرة!.

لم تكن البحيرة عميقة، والماء كان دافئًا؛ فأحسا بالاسترخاء. اقتربا من بعضهما، وفي تلك اللحظة قفزت بطة إلى الماء على مقربة منهما، فارتبكا، وكادت هي أن تفقد توازنها، فمسكها بذراعيه، واحتضنها، وفي تلك اللحظة بالذات كان تلامسهما وكأنه تيار دافئ، ومخدر، قد مس جسديهما. ابتعدا عن بعضهما، فتوقف التيار الدافئ المخدر لجسديهما، أحسا بالخيبة، نظر كل منهما إلى الآخر، واقتربا، احتضنا بعضهما، اكتشفا تيار اللذة يسري في جسديهما مرة أخرى.. احتضنا بعضهما بقوة، فازداد التيار اللذيذ يسري في جسديهما، ووجدا نفسيهما في حالة احتضان محموم ولذيذ لبعضهما، وفي تلك اللحظة، قفزت من الجهة الأخرى من البحيرة الصغيرة بقية البطات، فانسحبا قليلًا وهما في حالة الاحتضان!

حين صارا على حافة البحيرة انتبهت إلى ذلك الشيء اللحمي المنتصب في أسفله بين فخذيه، وانتبهت الى البلل اللزج مصحوبًا بما يشبه الحرارة المخدرة بين فخذيها.

خرجا من البحيرة، أخذا ملابسهما لكنهما لم يلبساها، إذ صارا تحت ظلال شجرة تين ورقاء، لكنهما لم يفترقا جسديًّا، إذ واصلا العناق والاحتضان، إذ كان يعجبه طراوة نهديها، وبينما هي تبحث عن سند، عن جذع الشجرة كي

تستند عليه بظهرها، فقدت توازنها، فجذبته معها، وسقطا على العشب الكثيف، فصار هو بين فخذيها، أحس بانتعاظ ورطوبة بين فخذيها، وفي لحظة خارقة أحس بنشوة عظيمة وبرغة جامحة ولذة في احتضانها، أحس أنه يمتلكها كلها، ودون أن يفهم شيئًا، كان قد دخل فيها وولجها. شعرت هي بوخزة مؤلمة قصيرة، والتحما. كلاهما لم يدرك تلك الأمواج من اللذة التي اجتاحتهما، وكلما كان يحاول أن يخرج منها كانت تمسك به، بل واحتضنته بساقيها وأحاطته بذراعيها، وكانت تلهث وتشهق، بينما أحس هو بتيارات اللذة تكاد تخنق تنفسه، وفجأة غامت عيناه، وأحس بنفسه يقذف في أعماقها سيلًا من الماء الدافق، بينما كان أسفلها يرتجف ويقبض على قضيب اللحم الذي بدأ بالارتخاء في داخلها قليلًا.

فجأة، وهما في تلك الحال، سمعا هديرا هزّ البستان، فأدركا أنهما أخطآ المجيء إلى المكان فمن المؤكد قد جاء صاحبه، نهضا بخوف وارتباك، أخذا ملابسهما، وبدآ يهربان من البستان، وخلال ثوانٍ، أدركهما ظلام لا يعرفان سره! وغابا عن الوعي.

حين فتحا أعينهم وجدا نفسيهما يرقدان سوية في السرير الذي في غرفته، التفت هو إليها، فأدرك أنها المرأة التي كانت معه في البستان، لكن أين هو ذلك البستان الساحر!

كانت هي عارية بجانبه، وسأل نفسه: من هي هذه الكائن أصلًا؟ صحيح أنها كانت معي في البستان، لكن من هي؟! وكيف جاءت معي إلى البستان؟ أنا لم أرها سابقًا قط، لكني متأكد أنها كانت معي في البستان، وأكلنا من تفاحة واحدة!

كان هو يتأمل جسدها العاري المثير، ويقترب من وجهها ليتأمل ملامحها، وبينما هو يقترب بوجهه منها، فتحت هي عينيها وابتسمت، تذكرت هذا الكائن الذي كان معها في البستان، لكن من تراه؟ وكيف كان معها في البستان؟ ولماذا هي في هذه الغرفة وليست في البستان الساحر!. جالت بنظرها في الغرفة، وفجأة، فزّت عن السرير، عارية، صارت على بعد أمتار من السرير، ارتبك هو من تصرفها، فترجّل عن السرير وكان عاريًا أيضًا!

أخذت تشير له متسائلة عن المكان والغرفة، والسرير، والأشياء الموجودة في الغرفة، وتشير له بكفيها وذراعيها بما معناه أين الأشجار والثمار، والماء، والبط، والبحيرة. وأشارت له بأنها تريد الذهاب إلى هناك، فأخذ هو يجيبها بالحركات المشابهة، بأن هذه هي الغرفة التي وجد نفسه فيها، ولا يعرف من أين أتى قبلها ولا أين كان سابقًا؟

أراد الاقتراب منها، فابتعدت خطوة إلى الوراء، وتوجهت مغادرة الغرفة وهي عارية، تبعها هو أيضًا محاولًا إقناعها، لكنها صارت في الممرّ شاحب الضوء!

وقفا عاريين في الممرّ، كانا مأخوذين بذلك المكان الذي اكتشفا فيه لذة جسد الآخر، هبّت أنسام معطرة فيها رائحة الورود الفواحة، والفواكه العطرة الشهية، تشمما تلك العطور التي ذكرتهما بذلك البستان الساحر، أخذا يسيران عاريين متتبعين العطر القادم من البستان الذي لم يذكرا شيئًا سواه.

***

البداية

***

في تلك اللحظات بالذات أفاق رجل ما من ذلك الكابوس الغريب الذي عاشه وهو في سريره. كانت الغرفة مظلمة. مدّ يده في الظلام ليضغط على زر المصباح المنضدي المجاور، أنار الغرفة بضوء شاحب خفيف، شعر أن ذهنه فارغ! لم يكن يدري أين هو الآن؟ وأين تقع هذه الغرفة؟ ولا في أي بلد هو؟ ولا من أين هو جاء؟ بل لم يكن يعرف من هو بالذات!

تحرك ببطء، غادر سريره، توجه إلى الثلاجة، أخرج قنينة ماء بارد فأخذ يرتشف منها رشفات طويلة، أغلق القنينة، وأعادها إلى الثلاجة، تلفّت في الغرفة، رأى حقيبة صغيرة على طاولة المكتب في الغرفة، ذهب إلى هناك وفتح الحقيبة ببطء، وجد فيها جواز سفر عالمي، واسمه وصورته فيها، آدم بن ماء السماء! كما وجد تذكرة سفر من (بلاد اللا أحد) إلى (بلاد اللا أحد).

لم يفهم شيئًا، جلس على كرسي أمام طاولة المكتب، وأخذ يفكر بهذا الذي اسمه آدم بن ماء السماء، محاولًا أن يستعيد ذكرياته!

***

حين انتهى آدم الأكويني من القراءة أحس بارتباك نفسي وعصفت في ذهنه الأفكار وسأل نفسه: ما الذي يريد هذا الرجل الأشقر الوسيم أن يقوله في هذا النص؟ فالنص غريب وغامض، لكن الأكثر غموضًا فيه أنه يسمى هذا الشخص الذي بلا ذاكرة وبلا اسم، ويمنحه اسم آدم في العنوان فقط «رواية آدم الغامضة»!؟ هل يريد أن يعيد صياغة قصة الخطيئة وتفاحة الشهوة والمعرفة؟ نعم. إنه يعيد صياغة الأسطورة.!.

«رواية آدم الغامضة» لمؤلفها الرجل الأشقر الوسيم أكدت بعض قناعاته، فقد كان لا أدريا من ناحية الموقف الفلسفي والوجودي، وتذكر كيف أن معرفة الله كانت شغله على مدى عقود من الزمان. ومع أنه متخصص في توما الإكويني إلاّ إنه كثيرًا ما يفكر بمعارضه القديس بونافنتورا حين يطرح السؤال حول إمكانية معرفة الله..!؟ وتأكيد بونافنتورا على التفريق بين الإحاطة وبين الإدراك..! وإن الله يمكن إدراكه لكن لا يمكن أن يحاط به!. وهذا يمكن أن ينطبق على أسطورة الإنسان الأول..!.

أحس برغبة في أن يتصل مرة أخرى بصديقه آدم الغوريلا. وقام بذلك. بعد لحظات جاءه صوت صديقه. كان الصوت مغمومًا قليلًا وليس كما تعود منه حيث المزاح والنكتة والسخرية المحبّبة، بل بدأ صديقه يعتذر له بأنه لم يجبه على اتصالاته السابقة لأنه كان متضايقا جدًا، ولم يشأ أن يعديه بالطاقة السلبية التي كانت تهيمن عليه فقال له آدم الأكويني بمرح مصطنع:

- هات ما لديك. ما جرى لك يا صديقي؟ هذه هي المرة الأولى التي أسمعك فيها تتحدث عن الطاقة السلبية، ولا ترد على اتصالاتي، أية كارثة هزت الغوريلا الجبار؟ وأية مراكب غرقت في البحر فأخذت معها كل تجارته..؟

امتدت لحظات صمت قصيرة بينهما. انتبه آدم الأكويني بأن الأمر غير اعتيادي هذه المرة. وجاءه صوت صديقه يتحدث بنبرة مشوبة باللامبالاة والمرارة:

- الحياة مثل كازينو القمار. كل من يدخلها لا بد أن يخسر، حتى وإن ربح في إحدى الجولات. الخسارة هي المعادلة الثابتة والمطلقة في الحياة..!.

- ما الذي جرى؟ ما هذه النبرة اليائسة أيها الغوريلا، وكأنك الغوريلا كينغ كونغ حينما وقع في الأسر..!

- نعم.. أصبت.. جاء الصوت الآخر بنبرة مريرة.

- هل تود أن تفضفض لي بما يثقل على روحك..!

- هل لديك نبيذ جيد..!

- نعم.. كالعادة، نبيذ شيراز الأسترالي وكانتي الإيطالي موجودان في انتظارك..

- سأكون عندك بعد نصف ساعة..

- وأنا بالانتظار، فأنا أيضا أردت أن أروي لك ما جرى معي هذه الليلة، وهي ليلة مفتوحة على المفاجآت..!

- إذن إلى اللقاء.

بعد انتهاء المكالمة فكّر آدم الأكويني مع نفسه في حالة صديقه، وسأل نفسه عن غرابة الإنسان، فعلى الرغم من أن صداقتهما تمتد لسنوات إلّا أنه يكتشف فجأة بأن لدى صديقه أسرار لا يعرفها وصفحات لم يقرأها..!. برر ذلك مع نفسه قائلا: «سعيد من يعرف نفسه جيدًا. أنا نفسي أشك في معرفتي لنفسي، لا أمتلك اليقين في ذلك، بل أشك في أي يقين بمعرفة النفس وأرتاب في من يتحدث بيقين عن نفسه وأفكاره ومواقفه ومشاعره وذائقته الجمالية، إذ إننا جميعا نتغير وفق قوانين موضوعية، قوانين المجتمع و منطق التجارب الشخصية، الجيدة منها والسيئة، والكشوفات الفكرية، والخطوات الجريئة للأمام أو الانتكاسات والتراجعات للوراء، وقوانين البايولوجيا، وثقل سنوات العمر، وهمود الشغف، وتنوع المتع وتحولات مركزيتها، لذا لا يقين في معرفة النفس، بل ربما لا يقيننا هذا يمنحنا الشعور بالحرية النسبية، ويعلمنا بأن لا يحق لأحد في الحكم على الآخرين دون معرفة تلك التحولات والأسباب. قانون اللايقين هو المهمين على الوجود، لذا سعيد من يعتقد أنه يعرف نفسه جيدا..!».

قطع عليه تداعياته مع نفسه رنين الهاتف وانتبه إلى أن الرقم يعود لآدم سر الختم الذي حدّثه وهو ثمل باحثا عن عمته، فضغط على زر استقبال المكالمة فجاء صوت الآخر قلقًا ومرتبكًا:

- أستاذ آدم.. أعتذر عن اتصالي بك مجددًا، لكن عمتي لم تذهب إلى منزل عمي الآخر، وقد اتصلوا بنا من إحدى المستشفيات بأن سيارة صدمتها..!

- ماذا..! قال آدم الأكويني متفاجئا.

- نعم.. لكن والحمدلله لم تصاب بجروح خطيرة..

- في أية مستشفى..

- في مستشفى الطوارئ القريبة من الحي التاسع.. حي «الجحيم»...!

- وماذا عليّ أن أفعل..!؟

- لا شيء.. ظننت أن الأمر يهمكم.. فقط أردتُ إبلاغكم بأنها ربما لن تأتيكم خلال الأيام المقبلة..!

- الحمدلله أنها لم تصاب بجروح خطيرة، لتأخذ وقتها للعلاج حتى تخرج، وبعدها لكل حادث حديث..!.

حين أنهى المكالمة فكّر بجملة المتصل حين قال له «ظننت أن الأمر يهمكم»، وسأل نفسه: «لماذا فكّر هذا الرجل بأن الأمر يهمّني..؟». لم يتوقف كثيرًا عند هذا الأمر لأنه شعر بارتياح لمجرد حضورها في ذهنه مرة أخرى مع أن هذا الحضور ارتبط بخبرٍ مؤسف. وفجأة سأل نفسه: «هل عليّ أن أزورها في المستشفى؟ الآن أم غدًا؟ لا. لا. أنا لا أستطيع الحركة فكيف أذهب إليها؟ ولماذا أذهب إليها؟ ليس بيننا علاقة خاصة بل نحن بالكاد نتكلم ونتبادل بضعة كلمات رسمية يوميا..؟ ثم أنا الآن انتظر مجيء الغوريلا..».

لا إراديا تدفق سيل الخواطر في ذهنه. قام متكئًا على عكّازه ليعدّ المائدة. وقبل أن يدخل إلى المطبخ ألقى نظرة على الغرفة الصغيرة التي ستسكن فيها حواء سرّ الختم، فانتبه إلى أنها رتّبتها قبل أن تغادر ورتّبت السرير فيها.

دخل المطبخ. سحب من فوق الثلاجة قنينة نبيذ كانتي. وضع القنينة على الطاولة وعاد ليحمل القنينة الثانية من نبيذ شيراز الأسترالي، ثم حمل قطع جبن ماتسوريلا الأبيض والزيتون الأسود المملّح وذهب ليضع بضع بيضات في قدر صغير، وغمرها بالماء وأشعل الطباخ..

خلال هذه الحركات الآلية كان يفكّر في حوّاء سرّ الختم، وكيف أنها كانت ستعدّ مائدة شهية وتضفي على المكان حضورًا أنثويا بابتسامتها الرقيقة والخجولة، لكن فجأة انقطعت هذه الخواطر في ذهنه وانبثقت سيل من الصور على غير توقع منه، صور سريعة ومفترضة للمفكر القديس توما الأكويني..، ولقطات ربما شاهدها في فيلم «اسم الوردة» عن عالم الرهبان والأديرة، واستغرب من نفسه حضور هذه الصور على الرغم من عدم تفكيره بعالم الرهبان والأديرة في هذه اللحظات.

أثناء تفكيره في سرّ حضور هذه الصور في ذهنه، انبثقت في ذهنه فكرة مفاجئة، هي أن يكتب بحثًا فلسفيًا عن «الله».. عن الخلق من العدم، لكنه سرعان ما أجاب نفسه: «لا.. الله هو العدم العظيم.. فقبل الوجود لم يكن شيء ولا زمان أو مكان ولا أكوان.. كان العدم العظيم». وتشكلت بسرعة

خارقة بعض مفاصل هذا المشروع المفاجئ بأن يتناول ابن سينا في علاقته بتوما الإكويني وبحث مفهوم الخلق، وفكّر أن يفاتح صديقه بما خطر في ذهنه.

لم يواصل أفكاره بصدد بحثه إذ سمع رنين جرس الباب الخارجي، فمشى بهدوء متكئًا على عكازه مستغربا أن صديقه آدم الغوريلا قد وصل بهذه السرعة..!.

حين فتح الباب رأى حواء سرّ الختم تقف أمام الباب وبيدها حقيبة جلدية ليست بالكبيرة. كانت تقف مرتبكة وخجولة، لكنها كانت في حالة صحية جيدة ولا أثر لأي جرح عليها.

فوجئ هو. لم يكن يتوقع حضورها، لذا لم يسألها أبدًا بل ولم ينطق بأية كلمة، وإنما فتح الباب أمامها بالكامل ووقف جانبا كإشارة للدخول. لم تدخل. ظلت للحظات واقفة عند الباب. استغرب هو عدم دخولها، ونظر إليها مستفسرًا عن عدم رغبتها في الدخول، فوجد وجهها يكشف عن موجات الخجل في أعماقها، وقالت له:

- لا أجد الكلمات يا أستاذ لأعبّر لك عن أسفي بمجيئي الآن وليس غدًا حسب اتفاقنا، لكني اضطررت إلى ذلك..

- لا ضير.. أهلا بك.. لم يبق على الغد سوى ساعات، فلنعتبر أنك جئت في الموعد، لكن ألم تكوني في المستشفى..!

- في المستشفى!؟ أجابت مستغربة متجاوزة خجلها قبل لحظات.

- نعم.. لقد اتصل بي ابن أخيك وأخبرني بأنك تركت البيت، وبعد ذلك اتصل ليخبرني بأنك تعرضت لحادثة اصطدام سيارة وأنك في المستشفى..!

- ابن أخي..! سألت بدهشة مشوبة بخوف.

أرادت أن تقول شيئًا، لكن قبل أن توضح شيئا دعاها للدخول قائلًا:

- ادخلي الآن.. وضعي حقيبتك في غرفتك، ثم وضحي لي ما جرى لك..

اجتازت الباب داخلة. مشى أمامها، وقبل أن تدخل إلى وسط الشقة وضعت حقيبتها في الغرفة الصغيرة التي في الممرّ، كان هو قد صار في الصالة وجلس على الصوفا. رجعت من غرفتها بعد أن وضعت الحقيبة. وقفت

هي أمامه دون أن تجلس. كانت متوترة، فأشار لها بأن تجلس لكنها ظلت واقفة، بل سألته بنبرة فيها استغراب:

- حضرتك قلت إن ابن أخي اتصل بك..؟

- نعم.. اتصل بي في المرة الأولى وأخبرني بأنك هربت، تركت البيت، وظنك جئت إلى هنا، بل قال كلامًا غير مفهوم، وأوضح بأنه مستاء من نفسه ويريد أن يتعذر لك، ثم بعد فترة اتصل ثانية وقال لي إنك تعرضت لحادث سير وإنك ترقدين في مستشفى الطوارئ..!

- غريب..!!؟ قالت ذلك بنبرة خائفة.

- غريب!؟ لماذا الغرابة..!؟

صمتت للحظات ثم قالت:

- لأن ابن اخي.. مات قبل أربعين يومًا بجرعة زائدة من المخدرات التي كان يتعاطاها..!

صُدم آدم الإكويني حينما سمعها وقال بنبرة خائفة وعصبية:

- ماذا..!؟ ماذا تقولين..؟ ومن ذا الذي اتصل بي إذن؟

- لا أعرف.. قالت وعلى وجهها ملامح من يفكر بأشياء في الذاكرة..

امتدت بينهما لحظات صمت كان كل منهما يفكر بما قاله الآخر، لكنه رفع رأسه إليها وسأل:

- لكن كيف حدث أنه قال لي إنك هربت من البيت..!. أنا سمعته بنفسي. أليس اسمه آدم أيضًا..

نظرت إليه بدهشة وقالت:

- نعم.. صحيح اسمه آدم.. لكني لم أهرب وإنما عجّلت بمغادرتي للبيت.

- ومن تراه الذي اتصل بي؟

- لا أعرف..

- كيف يمكن لميت أن يتصل بي ويهاتفني..!؟

- لا أعرف..!. كانت تجيب باستسلام تام.

- وما قصة حادث الاصطدام، بينما لا يبدو أنك قد صُدمت.

- لقد صُدمت قبل موته بتسعة أيام، لكنه حينما عرف بما تعرضت في ما بعد أصابه انهيار عصبي، وأخذ جرعة كبيرة من المخدرات، مات على أثرها..!

- وماذا عرف؟ أقصد ما الذي كان بك..!؟

صمتت للحظات وكأنها كانت تفكر هل تخبره أم لا، وأخيرا قالت له:

- أخبرته بأني حامل..

- ماذا..؟ هل كنت حاملًا فعلا..!

- لا.. لكن بعد حادث الاصطدام نقلت إلى المستشفى، وأخذوا عينة من دمي وإدراري، وفي اليوم الثاني هنأتني الممرضة بأني حامل، فأخبرته. صُدم حينها. كنت في المستشفى حينما زارني قبل يوم من خروجي، وكان منهارًا جدًا، لم يصدق الأمر. ولم أره بعدها. في اليوم الأخير لنهار خروجي أخبرتني الممرضة معتذرة بأنها أخطأت بشأن خبر حملي بسبب تشابه الأسماء، فأنا لست حاملا والتحليل لم يكن يخصني، لكن كان كل شيء قد انتهى، ففي ذلك اليوم مات هو..!

كان آدم الأكويني مذهولًا وهو يستمع لها وكأنه ينتظر مفاجأة كبرى تقود لما قاله المتصل الميت له، فسألها:

- لِمَ صُدم هو؟ ما علاقته بحملك حتى لو كان ذلك حقيقيا؟ وكيف تحملين وأنت كما أخبرتني أرملة منذ ثلاثة أعوام؟ وإذا كان ميتًا فمن تراه الذي اتصل بي..؟!

نظرت إليه بألم وقالت له بنبرة فيها توسل ورجاء:

- لا أعرف.. لكن حادث الاصطدام حدث فعلا قبل تسعة أيام من موته. (صمتت للحظات ثم واصلت) سأخبرك كل شيء، لكن هل يمكننا أن نؤجل هذا الحديث الآن. أعدك بأني سأخبرك كل شيء..!

نظر إليها وكأنه يخمّن أسرارًا ستُكشف لكنه لم يشأ أن يزيد من معاناتها فقال لها:

- لا ضير، سنتحدث في ذلك لاحقا، وبالمناسبة، أنا انتظر صديقًا، ربما تعرفينه، آدم الغوريلا الذي كنت تسمعينني أحدثه يوميًا تقريبًا. سيأتي عندي لندردش قليلًا. اذهبي إلى غرفتك. إذا ما احتجتك سأناديك.

ابتسمت بحزن، لكنها ارتاحت لأنه لم يجبرها على أن تسرد قصتها. وفي تلك اللحظات سُمع رنين جرس الباب. فابتسم لها وقال:

- وصل وحش الغابة الطيب..!

ابتسمت. أراد أن ينهض ليفتح الباب فقالت له:

- استرح انت.. أنا سأفتح الباب..

- لا.. اذهبي الآن إلى غرفتك، وسأناديك حينما أحتاجك..

توجهت إلى غرفتها بينما كان هو يلاحق قامتها الرشيقة بثوبها الأسود وحجابها الأنيق ولون بشرتها الوردي. وبعد أن أغلقت بابها نهض هو وتوجه ليفتح الباب لصديقه الغوريلا.

حين فتح الباب لم يصدق أن الذي يقف أمامه هو صديقه آدم الغوريلا. صحيح أنه لم يره منذ حوالي الأسبوع، وكان تواصلهما هاتفيا، لكنه لم يصدق أن يرى صديقه ملتحيًا، وأن اللحية يمكن أن تنمو بهذه الكثافة خلال هذه الفترة ليست طويلة نسبيًا، وانتبه إلى أنها أضفت وسامة على وجه الغوريلي فغطت نتوءاته البارزة، لكن كثافة الحزن والخيبة كانت هي الطاغية على ملامحه.

لحظتها تعانق الصديقان، ولم يستطع آدم الإكويني أن ينتبه إلى عكّازه فسقطت على الأرض محدثة دويًا، فانحنى صديقه ليحملها له بعد لحظات العناق.

ما إن جلسا حول المائدة حتى أخذ آدم الغوريلا بفتح قنينتي النبيذ وسكب في قدحيهما. آدم الأكويني يعرف أن صديقه يفتح قناني النبيذ ويتركها لفترة قصيرة، وحينما سأله مرة عن ذلك قال له «كي يرّق النبيذ ويعطي نفسه»، ولم يفهم حينها ما المقصود، وعندما سأله مستفسرًا أجابه: «مثل مرق الباميا.. يُفضل أن تطبخها ليلا لتأكل منها في اليوم الثاني، إذ تكون أطيب مما لو أكلتها مباشرة»، ولم يستفسر منه أكثر، لكنه فهم ما يقصده، ولم يكن

متأكدًا إن كان هذا يحدث مع النبيذ، لكنه متأكد منه مع الباميا. ولم يترك آدم الأكويني الكلام يتسرب إلى دروب أخرى فسأله مباشرة:

- ما بك؟ ما الذي يجري..؟ ما هذه التحولات صديقي..؟

رفع آدم الغوريلا كأسه عاليا وقال:

- لنشرب نخب صحتك أولًا..

- صحتك..

وارتشفا من كأسيهما رشفات طويلة. كان آدم الأكويني ينظر بطريقة مواربة إلى وجه صديقه الذي قد أغلق عينيه وكأنه في عالم آخر وهو يرتشف النبيذ بلذّة، وأدرك أن هذا الشخص الذي أمامه قد مرّ بتحولات غريبة لا يعلم عنها شيئًا، فلم يعد ذلك الشخص المرح المتدفق بالحياة، وإنما تحول إلى إنسان منكسرٍ ومهزوم..!.

حين وضعا الأقداح فارغة على الطاولة نظر الغوريلا إلى صديقه وقال له:

- اسمع ياصديقي. أنت تنتظر مني أن أروي لك سرّ هذه التحولات التي طرأت عليّ، وما وراء هذا الانكسار الذي أعيشه. سأروي لك ذلك. سأقول لك بجملة واحدة. لا شيء يستطيع أن يحطم الرجل سوى المرأة.. نعم.. المرأة وحدها تستطيع أن تمنح الرجل القوة والشجاعة وهو في أعمق أعماق وديان الجحيم، وهي التي تجعله يشك بوجود الإله وهو في الفردوس! المرأة وحدها يمكنها أن تنكس رأس الرجل ولو كان ملك الملوك. ألم تفعلها هيلينا التي هربت من زوجها مع بارس وأشعلت حربًا بين الإغريق وطروادة قيل دامت عشر سنوات راح ضحيتها مئات الألوف من القتلى والجرحى ودمّرت مدينة كانت تُعد دولة في ذلك الزمان!!. لا تنتظر مني مديحًا وكلامًا عن المساواة، فأنا لا أتحدث هنا عن التمايز وإنما عن الجنس!. أليست المرأة جنسا آخر كما تقول سيمون دي بوفوار.. نعم المرأة إنسان، لكنها جنس بشري آخر. قد تكون أضعف من الرجل في قوتها الجسمانية لكنها أقوى منه في قوة التحمل، بل ربما هي أعمق من الرجل بكثير!. ألم تقل أنت أيها الأكويني في إحدى رواياتك على لسان آدم البغدادي وعن آدم التائه إن الرجل شيء والمرأة أشياء.. نعم.. أنا آدم الغوريلا هزمتني وحطمتني فتاة في العشرينات وجعلت مني أضحوكة ومهزلة يتداولها عشاقها الذين بعمرها...!.

- ما بك ياصديقي..! سأل آدم الأكويني بقلق.

- واحدة بعمر ابنتي جعلتني أضحوكة، أنا الذي أعدُّ نفسي خبيرًا بالحياة وبالناس والنساء..!

انتبه آدم الأكويني إلى أن صديقه مجروح الكرامة ولم يشأ أن ينكأ جرحه أكثر فقال بنبرة مواسية:

- السباحة في عرض البحر لا تعني الغوص في أعماقه ياصديقي، على العكس فإن السباحة تعني ألّا نغوص وننزل للقاع..!. السباحة في البحر لا تعني سوى العوم على السطح..!

نظر آدم الغوريلا لصديقه وفي نفسه أن يروي تجربته المرّة مع الفتاة العشرينية، لكنه أحس بانقباض في نفسه، فقال لصديقه:

- حدثني أنت عما جرى لك..! لماذا اتصلت بي أكثر من مرة..؟

تردد آدم الأكويني قليلا ثم قال:

- لقد هاتفني رجل ميت..!

- ماذا..؟ قال الغوريلا متفاجئا على الرغم من وضعه النفسي.

- هل تتذكّر الرجل الأشقر الوسيم الذي جسّدته في روايتي «متاهة إبليس»؟

- وكيف لي أن أنساه؟

- لقد جاءني متجسدًا بشكل واقعي في هيئته التي رسمتها في الرواية إلى هذه الشقة، وأرسل لي رواية تحت عنوان «رواية آدم الغامضة» يروي لي فيها قصة خلق آدم ناسفًا كل ما ورد في الكتب المقدسة..!

- ماذا تقول..

قال آدم الغوريلا مستغربًاثم واصل:

- يمكنني تصور هلوساتك الروائية مع الرجل الأشقر الوسيم ووهمك بأنه زارك لأني أعرف أن شخصياتك الروائية هي واقعية بالنسبة لك، لكني لا أفهم كيف هاتفك رجل ميت..!

- نعم.. لقد اتّصل بي رجل وحدثني، واتضح أنه ميت منذ أربعين يوما..!

- لقد أنسيتني مصيبتي مع هذ الفتاة العشرينية..

- نعم.. في الحياة من الغرائب واللامنطقي ما يجعل الوجود والكون والحياة ليست سوى لغز غامض.

- حدثني إذن..! وسأحدثك عن نفسي في ما بعد، فقصتي طويلة وتحتاج إلى أن احتسي النبيذ لأرويها لك بالتفصيل الممّل.

صمت آدم الأكويني للحظات، كان مكتظًا بأشياء كثيرة يود أن يقولها لكنه وجد نفسه يبدأ من فكرة كتابة البحث فقال:

- راودتني فكرة أن أكتب بحثًا فلسفيًا علميًا عن الله، أقارن فيه طروحات توما الأكويني مع طروحات ابن سينا في فهم «الله»..

فقاطعه صديقه بلا مبالاة:

- وما الجديد في الأمر، فأنت تناولتْ ذلك في كتابك عن توما الأكويني الذي نشرته والذي كان توسيعًا لأطروحة الدكتوراه التي أنجزتها في إيطاليا، فما الجديد الذي ستضيفه!؟ ثم لماذا تؤرق نفسك بأسئلة لا إجابة عقلية عليها.! ليس أمامك ياصديقي سوى إجابات يقدمها لك الإيمان الفطري أو الأعمى، أي أن تؤمن بالله دون سؤال، هكذا ببساطة، هو خالقك وخالق الكون، وكفى أسئلة..!

أطرق آدم الأكويني برأسه ونظر إلى شيء ما بين قدميه وقال:

- نعم.. لكن الإيمان الفطري تسليم لا عقلاني يعترف بعجز العقل عن الإجابة، بل هو يستخدم العقل في أبسط أسئلته وتحولاته، مثل أسئلة إبراهيم حينما تنقل في عبادة الأشياء، ثم وصل إلى الإيمان، ووصل إلى ربه، لكنه لم يسأل عن ربه من هو؟ وكيف هو؟ وكيف وجد..؟ وإنما استسلم له كليًا، بينما العقل ربما يدرك وجود الله لكنه لا يحيط به، إنه يعجز عن ذلك.

صمت آدم الغوريلا للحظات ثم سأل بنبرة من يريد الفهم فعلًا:

- كيف ندرك وجود الله ولا نحيط به وبوجوده.!! ألا ترى في ذلك تناقضا؟

رفع آدم الأكويني رأسه ونظر إليه مباشرة قائلا:

- لا.. ليس من تناقض في الأمر، لكنه ظاهريا يبدو هكذا، إذ علينا أن نفرّق بين الإحاطة وبين الإدراك، لأن الإحاطة بالشيء كما يقول الفيلسوف الديني بونافنتورا معناها أن يكون الإنسان في مستوى ذلك الشيء فيدركه تمام الإدراك ويحيط به علمًا من جميع جوانبه، أما الإدراك فهو أن تصبح حقيقة الشيء واضحة للنفس المدركة وحاضرة فيها، فإذا نظرنا إلى حقيقة الله وجدنا أنها يمكن أن تُدرك، لكن لا يمكن الإحاطة بهذه الحقيقة، وطبعا معنى أن ندرك وجود الله لا يعني أن ندرك حقيقة الله كاملة، وإنما المقصود أن ندرك حقيقة وجود الله، أي نحن لا ندرك ما هية الله؟ ولا من هو الله؟ وإنما ندرك وجوده فقط، فالإدراك عاجز وقاصر عن حقيقة ماهية الله، لكنه يدرك وجوده.

ارتسمتْ ملامح الرضا على وجه آدم الغوريلا، لكنه سرعان ما ردّ على صاحبه قائلا:

- لكن المتصوفة يا صديقي يتحدثون عن معرفة الله، حتى إن النفّري يتحدث عن مواقف ومخاطبات معه..!

ابتسم آدم الأكويني معجبا بهذه الحجّة وقال:

- المعرفة تكون أحيانا معرفة حدسية إيمانية، لكن يبقى هذا كلام أدبي وفيه شاعرية كثيفة وشفافية حكيمة، مثل الابتهالات في كتب الفيديا الهندية والأوبانيشاد أو صلوات السومريين وكتب المانيو شو عند أتباع الشنتو أو عند السيخ وابتهالات المعلم ناناك..

امتد بينهما صمت أطرق الغوريلا رأسه خلاله مفكرًا بوضع صديقه الذي يحبّه والذي يمشي في دروب خطرة، وقال:

- لكنك هنا يا صديقي تدخل في قاع بئر تلتف فيها الأفاعي، فهؤلاء المتصوفة وحشد آيات الله وشيوخ المؤسسات والمرجعيات الدينية والطرق الصوفية، وحتى أتباع الديانات الأخرى كالفاتيكان تدّعي معرفة الله وتضفي عليه الصفات والأسماء الحسنى، بينما أنت تجعل معرفة الله أمرًا مستحيلًا.

نظر آدم الأكويني لصديقه ذي الملامح الحزينة وقال:

- أعرف هذا، مثلما أعرف أن أرسطو قال إن تحديد صفات الشيء يأتي تبعًا واستنادًا لتحديدنا ماهيته، فبقدر معرفتنا بماهية الشيء، بهذا القدر تكون معرفتنا بخواصه وصفاته، فهل ياتُرى تعرف الأديان أو المتصوفة ماهية الله كي يطلقوا ما يشاؤون عليه من الصفات..!؟

ارتسمتْ ابتسامة حزينة على محيّا آدم الغوريلا وقال معقبًا:

- هذا ما طرحه سبينوزا..

- نعم.. ولكن قبل ألف عام قبله طرحه الوثني أرسطو، ثم علماء المسلمين كابن سينا، وهذا ما طرحه أبو بكر الرازي أيضا، ومن المسيحيين بونافنتورا وتوما الأكويني ثم سبينوزا..، والآن علماء الفضاء. العلم يطرح مثل هذه الأسئلة اليوم ويسأل عمّا وراء الكون المادي..؟ وماذا كان قبل لحظة الانفجار الكبير؟ وماذا وراء حافات الكون؟ وإلى أين تتجه المجرات؟ وما هو الحيز أو المكان الذي تتمدد فيه المجرات..؟ و.. و.

قاطعه صديقه الغوريلا قائلا:

- لكني أرى أنك تتبنى موقف توما الأكويني بحكم تعمّقك في دراسته وكتابتك أطروحة الدكتوراه عنه وتأليفك كتابًا عنه..!

هزّ آدم الأكويني رأسه موافقا على ذلك، وانطلق وكأنه في قاعة محاضرات بالجامعة قائلا:

- أنت محقّ إلى حد ما، فأنا أجد أن توما الأكويني أقرب اليوم إلى طروحات علماء الفضاء. توما الأكويني قدم دليله في كتابيه «الخلاصة اللاهوتية» و «الرد على الأمم» وهو ما يُسمّى بدليل الحركة والمحرك، فهو يقول إن لكل حركة محرك، ولا يمكن للمتحركات أن تتحرك إلى ما لانهاية، فلا بُدّ أن تصل إلى محرك أول، ويمكن للمحرك الأول أن يكون جزء منه ساكنًا وجزء متحرك، والحركة هي الانتقال من القوة إلى الفعل..! يمكن للقوة أن تكون ساكنةً لكن الفعل متحرك بالضرورة! العدم يمكن أن يكون ساكنًا والوجود متحرك، العدم قوة والوجود فعل، الوجود تجل لإرادة العدم.. هل تفهمني..!..

نظرَ آدم الغوريلا له بشرود وقال:

- لا.. لم أفهم قصدك بالضبط..

صمَتَ آدم الأكويني للحظات وكأنه يبحث عن التعابير الأكثر تناسبا لتبيان فكرته وقال:

- أقصد أن الوجود وليد العدم، وخلق الوجود وحركته هو إرادة قوة العدم.. العدم المفكّر.. العدم العظيم.

حدّق صديقه إليه للحظات متسائلا ثم قال بمودة:

- أتعرف أن من يسمعك ولا يعرفك يظنك تهذي وأنك مصاب بعقلك..

ابتسم آدم الأكويني لهذا التعليق وقال:

- أعرف ذلك..

امتد الصمت بينهما للحظات، قطعه آدم الغوريلا بسؤال:

- وطلّابك هل يفهمون محاضراتك..؟ أعتقد أنهم على صواب حين أطلقوا عليك اسم آدم الأكويني.. لأنهم انتبهوا لهوسك به..

ابتسم الأكويني وقال وكأنه يريد الرجوع لتوضيح فكرته:

- أتعرف أيها الغوريلا المفكّر، ياصديقي، أن توما الأكويني، وهو قديس لدى المسيحيين، يعترف بأنه لا يمكن معرفة ذات الله، لذا فمن يتحدث عن الله بيقين مطلق فأنه لا يعرف الله!. المتصوفة ورجال الدين والأنبياء يتحدثون عن معرفة الله، بل ومنهم من تحدث معه ورآه وجالسه، لكنها معرفة حدسية، معرفة غير عقلية وإنما إيمانية، وهناك المليارات من البشر يعرفون الله عن طريق الإيمان وهذا الأمر لا علاقة له بالعقل، لكن هناك أيضًا من يعرف الله عن طريق العقل، بيد أنه يعي تماما وعلى يقين كامل بأنه يدرك وجوده فقط لكنه لا يحيط به ولا يعرف جوهره! ولو سألت أي مؤمن بالله إيمانا دينيا عن الله فأنه سيجيبك عن صفات يقينية وكأنه رأى الله بعينيه، على الرغم من يقينه بأنه لا يدري كيف هو وما هو جوهره..!.

نظر آدم الغوريلا له متأملًا وسأله:

- هل تتحدث هكذا في محاضراتك..!؟ يا صديقي لا تبح بأفكارك هذه، فلن يفهمك أحد. ألا تعرف طبيعة الأنظمة في منطقتنا؟ ألا تدري أن حرّاس النوايا ينتشرون كالوباء في كل مكان..!

- أعرف.. ومع ذلك فهناك من يفهمني.. أنا متأكد..

صمت آدم الغوريلا للحظات ثم قال بنبرة فيها شيء من المشاكسة الودودة:

- أنت تعرف أن هناك الكثير من الفلاسفة والمفكرين الذين بحثوا في شأن الله، ولم يصلوا إلى نتيجة، فإما يصلون إلى الإيمان الذي يحاول التعكز على العلم ولوي عنق الحقائق العلمية قسرًا كي تدعم إيمانهم، أو التفلسف العقلاني الذي يقود إلى الإلحاد ونفي كل شيء، أو العكس، أي الاعتماد على العقل لإثبات وجود شيء.. الخالق.. فماذا لديك أنت كي تضيف فلسفيًا..؟

لم يتوقع آدم الأكويني هذا الاعتراض فقال موضحًا فكرته:

- كلامك دقيق. لكني أريد هنا أن ابتعد عن الفهم الفلسفي السائد تاريخيا وأتوغل في العلم وفي نظريات تشكّل الكون، والوصول إلى حافاتِ الكون، لكن في الحقيقة أن ما يشغلني هو سؤال فلسفي، علمي، روحاني، وهو: ما الذي كان قبل الانفجار العظيم الذي يتحدث عنه العلم..؟ هذا ما لا يجيب العلم عنه ولا الأديان..! فالسؤال: إن الكون وفق طروحات العلم يتمدد والمجرات تبتعد بسرعة مهولة، فياتُرى ما هو ذلك الحيز الذي تتمدد فيه المجرات، هل هو مكان؟ هل هو فضاء؟ لأن فكرة التمدد تعني ثمة وجود آخر تتمدد فيه المجرات والكون، وهو يحيط بالكون الذي نعرفه، أي ثمة وجود غير هذا الوجود المادي الذي نراه ونحسه!؟ وإذا ما كان كذلك فما هو هذا الوجود الذي في أبعاده يتمدد الكون؟. بالتأكيد هو ليس وجودًا ماديًا لأنه ليس جزءًا من الكون المادي..! وإذا ما اتفقنا مع العلم بأن الكون نشأ من إنفجار جسيم في الزمان صفر فهذا يعني ثمة عدم انبثق عنه هذا الجسيم وإلا لكنّا نسأل عن المادة أو الطاقة التي شكلت ذلك الجسيم!؟ وإذا ما عدنا لمفهو الحركة والقوة والفعل فثمة قوة فعلتْ وقامت بفعل الانفجار، لكن هذا يحيلنا إلى إشكال آخر، وهو الوجود من العدم..!؟ هذا العدم ليس عدمًا بالمفهوم البسيط باعتباره لاشيء أو لا وجود، وإنما هو عدم عظيم ومفكر، لأنه وضع في داخل الجسيم كل القوانين التي شكلت الكون في ما بعد، يعني نقترب مرة أخرى من سبينوزا في الحديث عن الجوهر الحر..! العدم العظيم، والذي هو بالنسبة له «الله» الذي تتحدث عنه الأديان..!.

كان آدم الغوريلا ينصت إلى صديقه وقد توقدتْ عيناه بالتأمل وقال:

- لكن هذا ليس بطرح جديد، فكل المتصوفة بل والفلاسفة الإغريق قالوا ذلك، ثم إن هذا هو الله عند سبينوزا وعند آينشتاين أيضًا..

- نعم.. نعم.. لكني لا أريد القول بأن الوجود انبثق من العدم، بل إن هذا الوجود ليس مضادًا للعدم، وإنما هو أحد تجليات العدم وهو جزء منه، أي أن الوجود جزء من العدم وأحد أبعاده، وهذا العدم العظيم هو الله، وأن الوجود أحد تجليات الله وهو ليس منفصلًا عنه، لأننا لو قلنا إن الله كامل ومطلق وأسقطنا الوجود عنه فإنه «الله» لن يكون كاملًا ومطلقًا وإنما سيكون ناقص الكون والوجود!! وبما إن الكون يتمدد فهذا يعني أنه يجرف ويلتهم هذا الجوهر المطلق! وهذا غير ممكن لأننا نلغي عنه الإرادة المطلقة التي أوجد بها الكون!. لكننا لو اعتبرنا أن الكون هو أحد أبعاد الله أو العدم جزء منه فإننا سنكون في قلب الله وسنتوحد به من خلال الوجود..!! لأن السؤال الذي أود البحث فيه لم تجب عنه الأديان بل طرحته الفلسفة لكنها مع ذلك لم تجب عنه بيقين وإنما بالإيمان، بينما منذ عقود يسعى إليه العلم وهو: ماذا كان قبل لحظة الخلق؟ ماذا كان قبل النور والظلام؟ وماذا كان قبل لحظة الانفجار العظيم!؟ ماذا كان قبل وجود الوجود؟ هنا سنواجه العدم، العدم الغامض المفكّر، الروح المطلق أو العقل المطلق كما عند هيغل أو الجوهر الحر كما عند سبينوزا!.

كان آدم الغوريلا ينظر إلى صديقه نظرات مليئة بالتأمل والمودة، فقد بثَّ هذا الحديث بعض الحيوية في روحه المنكسرة، فقال:

- لكن تأكيدك على أن الله هو عدم يبعث على الحيرة، فكيف هو عدم وكيف هو عقل مطلق..؟

صمت آدم الأكويني للحظات وتوهجت ملامحه ونظراته لأن السؤال يتيح له أن يفيض في توضيح فكرته، فقال بنبرة عميقة وحيوية:

- هو عدم مفكر.. عدم عظيم ومطلق.. هو أشبه بجوهر الفكر. هل يمكننا أن نمسك بجوهر وبطبيعة الفكر وتجسيده المادي ونحن نتحدث الآن عن أشياء عميقة عن الكون والمجرات والوجود والعدم، بينما كل هذا يجري في دماغنا..؟ هل التفكير والفِكر بحد ذاته وفي جوهره هو إفرازات مادية للدماغ..؟ هل هو تيارات طاقة..؟ ما هو جوهر التفكير!؟ إنه لا مادي ولا علاقة له بالدماغ مع العلم هو نتاجه..!! إن الفكر والمعادلات الهندسية والكيماوية والرياضية والطروحات الفلسفية التي تجري في ذهننا ليس لديها جوهر مادي، وفهمي للعدم

هو هكذا، هو عقل مطلق وروح مطلق، لا تجسيد مادي له، وإنما الوجود هو فعل إرادته وقوته..!

- لكننا حتى لو افترضنا ذلك صحيحا وقبلنا به فأننا سنواجه السؤال الأزلي: من أوجد هذا العقل المطلق والروح المطلق؟ ومن أين جاء؟

صمت آدم الأكويني للحظات ثم واصل:

- هذا ما تحدث عنه بونافنتورا في ردّه على يوحنا الدمشقي وأوغسطين، بأنه يمكننا إدراك الله لكن لا يمكننا الإحاطة به، بل أعود أنا إلى توما الأكويني الذي كثيرًا ما أكّد بأن القول بوجود الله ليس واضحًا بذاته، لكنه مع ذلك قدّم برهان الحركة، وهو إن الكون في حالة حركة، والحركة هي انتقال من حالة القوة إلى حالة الفعل، إذن لا بد له من محرك لا يتحرك. الوجود يتحرك والعدم ساكن..!. لكني بعد كل هذه السنين من البحث الفلسفي والعلمي والديني وصلت إلى اللا أدرية. أنا مؤمن بوجود الجوهر الحر، بوجود العدم العظيم المفكر، ومؤمن بأن هذا الوجود أو الطبيعة أو الكون ليس سوى نفحة من نفحات قدرته، وتجلٍ لإرادته كما يقول سبينوزا، وهذا الوجود هو متلاحم بالعدم ومظهر له!. أما من أين أتى هذا العدم فهذا ما لا أدركه أو أحيط به.. لا أدري.. هو وحده يعرف سرّ ذاته..!.

ما إن صمت آدم الأكويني حتى أخذ آدم الغوريلا يسكب النبيذ في قدحيهما، ورفع كأسه وهو يبتسم لصديقه:

- مع أنك لن تجيب على السؤال: من أين أتى هذا العدم العظيم الذي أقبل تفسيرك له، لكني أجد ذلك يفتح الأفق للسؤال عن جوهر هذا العدم! إذ لم يعد الوجود هو مشكلتنا وإنما العدم، وهذه بحد ذاتها خطوة فكرية للأمام.. (وبمزاح).. ممتاز.. هذا من ثمار حادث الاصطدام بالسيارة، لكن ما قصة اتصال الشخص الميت!!.

فوجئ آدم الأكويني بهذا القطع لحديثه الفلسفي الذي كان مستعدًا أن يسهب فيه لساعات، لكنه سرعان ما انتبه إلى أن صديقه ليس في حالة استعداد كامل للخوض معه في نقاش، فقال له مستجيبًا لسؤاله:

- نعم.. أنت تعرف أن لديّ مساعدة تدير لي الشقة. وقد أخبرتني بأنها غير مرتاحة في سكنها عند أخيها، وتتعرض للإساءات هناك، وكانت في حيرة من أمرها، فطلبتُ منها أن تسكن هنا في الغرفة التي في الممرّ قرب المطبخ، وقد اتفقنا على أن تأتي غدًا لكن جاءني اتصال

من ابن أخيها يبحث عنها، لأنها حسب قوله هربت من البيت، ثم اتصل ليقول لي إنها تعرضت لحادث اصطدام بسيارة وهي ترقد في المستشفى..!

- وكيف عرفت أنه ميت..؟

- لقد جاءت المرأة قبل مجيئك بقليل، ونفت أنها تعرضت لحادث، وحين أخبرتها بأن ابن أخيها أخبرني بذلك، استغربت، بل وقالت إن ابن أخيها ميت منذ أربعين يوما..!..

- ماذا..؟ اسمع ياصديقي، ربما هناك مقلب يدبّر لك بينها وبين ابن أخيها..!!

صُدم آدم الأكويني لتفسير صديقه وقال متسائلًا:

- هل تقصد إن هذا الشخص ليس ميتًا وأن هناك لعبة ما ومكيدة..!؟

- ربما.. قل لي: أين هي المرأة الآن..؟

تردد آدم الأكويني قليلًا ثم قال مستسلمًا:

- موجودة في غرفتها..

- ناد عليها كي تأتي، وسنستفسر منها بطريقة ما، وسنعرف الأمر..!

نهض آدم الأكويني واتجه للممرّ القريب. وقف عند الباب. طرق الباب طرقات خفيفة وهو ينادي بصوت هادئ:

- يا مدام حواء.. يا ست حواء..

لم يجبه أحد. طرق الباب مرة أخرى لكن لم يرد عليه أحد. انتبه إلى أن الباب لم يكن مغلقًا بالكامل، ففتحه قليلا وأطلّ برأسه. فوجئ بأن لا أحد في الغرفة، بل لا أثر لحقيبتها، والغرفة كما كانت عليه حين أطل عليها قبل مجيئها..!.

عاد إلى المائدة وقال بارتباك لصديقه الغوريلا الذي أدرك بأن ثمة شيء قد حدث:

- لقد اختفت..!

- اختفت..!؟ ماذا تقصد..؟

- هكذا اختفت ببساطة، فقد جاءت مع حقيبتها.. تحدثنا.. دخلت غرفتها وأغلقت الباب. حينها قلت لها إذا احتجنا شيئًا فسأناديك، لكنها الآن غير موجودة ولا أثر لحقيبتها..! هل أحسست بثمة شخص يغادر الشقة منذ مجيئك؟

- لا أبدًا.. اسمع ياصديقي، يبدو لي أنك تعيش عالمك الروائي كأحلام يقظة وتتوهم الأشياء والأحداث والشخصيات والحوارات.

أحس آدم الأكويني بالارتباك وقال مدافعًا:

- الأمر ليس كذلك صدقني. هذه ليست شخصيات المتاهات، بل سأقول لك ما يؤكد كلامي.. فقد جاءني اليوم الرجل الأشقر الوسيم الذي قدمته في روايتي «متاهة إبليس».

صمت لآدم الغوريلا وهو ينظر إليه نظرة متفحصة ومعاتبة قليلا، وقال:

- آدم.. أنت تخاطبني أنا صديقك آدم الغوريلا الذي أعرف كيف تكتب رواياتك وتحدثني عن كل فصل..! أتريدني أن أصدق كلامك هذا!؟. أتريد أن تقول لي إن الرجل الأشقر الوسيم جاء ليعترض على تقديمه بهذه الصورة أو يريد تغيير مصيره..!؟

أحس آدم الأكويني بشيء من الحرج. صمت للحظات ثم قال:

- أعرف أنك لن تصدقني وستقول لي بأنني أستحضر حكاية لفيلم ما، لكن صدقني هذا ما حدث. لم نتناقش طويلا، على العكس، فقد شكرني لأني قدّمته بهذه الصورة الجميلة على خلاف ما يُقدّم به في الأدب والفن العالمي باعتباره قبيحًا وشريرًا ونتنا وبشكل حيواني وبأظلاف ومخالب، بل وكما قلت لك هو أرسل بطريقة غامضة رواية قصيرة كتبها بعنوان «رواية آدم الغامضة»، وقد وجدتها على شاشة حاسوبي!بل وقرأتها.. تعال لأريك إيّاها حتى تصدقني..!.. تعال.. لا تتكاسل.. كي تصدّق ما رويته لك..

ونهض عن المائدة ومشى نحو طاولة الكتابة حيث الحاسوب فقام آدم الغوريلا مستسلمًا وتبعه. كانت صدمة آدم الأكويني كبيرة حين لم يجد ملف «رواية آدم الغامضة» على شاشة الحاسوب. حاول أن يعيد الشاشة إلى

أحوالها، لكن دون فائدة..! أحس بالحرج أمام صديقه الذي كان يدرك الوضع الذي فيه.

عادا إلى المائدة. كان آدم الأكويني مشوشًا من الوضع الذي وجد نفسه فيه، فحاولَ صديقه أن يداري الوضع فقال له:

- يحدث ذلك ياصديقي. فأنت منذ سنوات مسافر في عالم المتاهات، حيث التبس عليك الواقع والوهم وتلبّستك شخصياتك..!

فقال الأكويني بحيرة وحزن:

- لكن هذه الأحداث حدثت معي أنا وليس حين أكتبها من خلال مخطوطات آدم البغدادي..، وبما أن الأمور خرجت عن إرادتي فربما هذا يعني بأني نفسي شخصية روائية يكتبني مؤلف مجهول..!.

نظر إليه صديقه نظرة متفاجئة فيها خوف وقال:

- ما بك ياصديقي!! أتريد القول بأنني شخصية روائية أيضا!؟ وأن كل ما جرى معك، وكل هذه الكوميديا السوداء التي جرت معي من خلال هذه الفتاة العشرينية مجرد حكاية روائية يكتبها مؤلف مجهول ولا أساس لها في الواقع؟ هذا مستحيل!. طيب ها أنا أمامك، لم تجر معي أي أمور غرائبية، وما جرى معي بالضبط سأرويه أنا لك دون أن يتدخل أي مؤلف في هذا الأمر..!.

كانت الجملة الأخيرة عابرة لكنها منحت آدم الأكويني فرصة في أن يخرج من حيرته أولًا، وأن يعرف ما جرى مع صديقه ثانيا، فقال له:

- حدّثني عمّا جرى معك؟ لم أفهم قصة هذه الفتاة التي قلت إنها بعمر ابنتك لكنها حطمتك..!

- سأروي لك كل شيء..

وعبَّ ما تبقى في كأسه من نبيذ، ثم صبّ مرة أخرى في قدحه فقط حتى امتلأ، وعبّه وكأنه يريد أن يحفز نفسه على أن يبوح بكل شيء. كان آدم الإكويني ينظر إليه بتعاطف لما يدركه من ألم يشع من هذا الكيان الهائل والمنكسر الذي يجلس أمامه حول الطاولة.

- اسمع يا صديقي آدم..

الفصل الثاني

بوح حوّاء سر الختم

أفاق آدم الأكويني من غفوة الثمالة فوجد نفسه وحيدًا يجلس حول المائدة. أصابته الدهشة حينما لم يجد صديقه آدم الغوريلا حول المائدة. ظنّ أنه ربما ذهب إلى الحمام ليتبول، لكنه استغرب ولم يفهم شيئًا حينما لم يجد كأسه أو حتى صحن المقبلات الخاص به على الطاولة.

حاول أن يجمع شتات أفكاره ويستذكر ما كان. وجد إحدى قنينتي النبيذ فارغة والأخرى حتى ربعها وكأسه فارغة، لكن لا أثر لصديقه الغوريلا. سأل نفسه إن كان قد غادر الشقة بينما كان هو غافيا..!. حانت التفاتة لا إرادية منه في أرجاء الشقة وتركزت على غرفة الحمام التي كانت مفتوحة الباب ومظلمة.

«إذن لقد غادر حينما غفوت أنا من الثمالة» قال لنفسه، وواصل «لكنه أراد أن يروي حكايته التي أشار فيها إلى فتاة صغيرة جعلت منه أضحوكة. يا للعيب، كيف غفوت حينما قرر البدء بحكايته!»، فجأة سمع حركة في المطبخ. صوت الماء ينصبّ من الحنفية، ثم حركة غسيل لصحون وصوت فتح باب الثلاجة وإغلاقها! ظن أن صديقه في المطبخ واستغرب ذلك، وبتوجس قام عن كرسيه بتثاقل، متكئًا على عكّازه، واتجه نحو المطبخ بهدوء واحتراس، وعند باب المطبخ ارتد للوراء من هول المفاجأة.

كانت المرأة حواء سرّ الختم في المطبخ تقوم بغسل بعض الصحون والأواني. وفي اللحظة التي صار هو فيها عند باب المطبخ التفت هي. وبدورها فزّت هي أيضًا، فلم تكن تتوقع وجوده عند الباب.

- أنتِ هنا؟ سأل هو مستفهما.

- نعم.. لم أستطع النوم، فأخذت أُلهي نفسي بغسل الصحون والقدور. قالت بارتباك واستحياء.

- لكني طرقت الباب عليك، ولم تكوني موجودة..

- متى..؟ سألت باستغراب وارتباك.

- قبل ساعة من الوقت حينما كان صديقي آدم الغوريلا موجودًا..

صمتت هي للحظات مستغربة ما قاله، ثم بعد لحظات قالت:

- أنا كنت في غرفتي ولم أخرج منها مذ لحظة وصولي، وحضرتك أخبرتني بأنك تنتظر صديقك.. لكنه لم يأت..!

- ماذا.. ماذا تقولين..؟ قال مستغربًا وكأنه لم يفهم ما قالت.

انتبهت هي لاستغرابه ولعلامات الحيرة التي ارتسمت على وجهه. وواصلت:

- أنا كنت طيلة الوقت يقظة في غرفتي، بل لم أرقد لأني كنت أفكر بأنكما قد تحتاجاني في إعداد شيء ما لكما، لكنه لم يأت. حين خرجت من غرفتي وقبل أن أدخل المطبخ رأيتك غافيًا وأنت لا تزال جالسًا على كرسيك حول المائدة، وقلت لنفسي ربما سأوقظك وأطلب منك الذهاب لغرفة النوم بعد الانتهاء من مما لدي في المطبخ..!.

كان آدم الأكويني مندهشًا في أعماقه مما يسمع لكنه لم يشأ أن يبدو في وضع الحيرة والتوهان فحاول أن يتماسك، وقال لها:

- على أية حال. ربما كنت متعبًا، وربما أثّر ما شربته من نبيذ فيّ حتى خُيّل لي بأن صديقي كان هنا، لكن أنت متأكدة بأنه لم يأت..!

- نعم متأكدة، مثلما أنا متأكدة بأنك لم تطرق علي الباب..!

صمت هو للحظات فغرائب هذه الليلة كثيرة، لكنه أحس بدفء يتسرب إلى أعماقه لوجود حواء سرّ الختم في الشقة. فقال لها بلطف محاولًا تجاوز الحوار المليء بالتساؤلات بينهما:

- هل يمكنك أن تعدّي لي القهوة. أحس بدوار خفيف في رأسي..!

- حاضر.. دقائق وستكون جاهزة.. استرح أنت وآتيك بها.

ولأول مرة ينظران إلى بعضهما وجها لوجه. ألقى عليها نظرة حنون مشوبة برغبة خفية، ولم يكن دفق الحنان خاصًا بها بل هي نظرته لأي شيء يوحي في نفسه اللطف والرغبة، وهو لا يخفي عن نفسه انجذابه لوجهها ولقوامها الذي يبعث الارتياح في نفسه عند رؤيتها.

توجه على مهل إلى صالون الشقة. كانت الأفكار والرغبات تتداخل في ذهنه، فتأكيد المرأة بأن صديقه لم يحضر أربكه. هو يصدّقها، لكن كيف جرى الذي جرى، فهو متأكد بأنه حدّث صديقه عما جرى معه، وكذلك عن اللقاء بالرجل الأشقر الوسيم، وعن نص «رواية آدم الغامضة» التي اختفت حينما أراد أن يريها له ردًا على انكار هذا اللقاء من قبل صديقه آدم الغوريلا..!.

وقبل أن يجلس توجه إلى جهاز الحاسوب الذي كان لم يطفئه إذ كانت شاشته الزرقاء تضئ ما حولها قليلا، وحرك فأرة الحاسوب قليلا فكشفت الشاشة بكل ملفاتها، ووجد ملف «رواية آدم الغامضة».. استغرب أكثر.. «إذن ربما فعلا أنني تخيلت حضور الغوريلا، إذ كيف يكون النص موجودًا هنا الآن بينما اختفى حينما أردت أن أريه له» قال لنفسه.

جلس على الصوفا القريبة. بعد لحظات أقبلت حواء سرّ الختم وهي تحمل صينية صغيرة عليها دلة القهوة الصغيرة مع فنجان قهوة في صحن وكأس ماء. لم تفارقه نظرته الحنونة المشوبة بالغربة إليها مع أنه أبدى لامبالاة مصطنعة وكأنه لم يركز على حضورها الأنثوي المثير. كان يعرف بأنه على الرغم من تهذيبه السلوكي الأقرب للزهد إلاّ إن لديه ما يشبه روح الكلب في تشمم روائح الرغبة في أعماق النساء. كان يشم ذلك حتى لو جللت المرأة نفسها بأستار وأقنعة وحجب، كانت هذه موهبة وعطية من الطبيعة أهديت له. ومع أنه لا يبدي اهتماما زائدًا بالمرأة التي أمامه بل على العكس يبدي لا مبالاة نحوها، لكنه في الحقيقة لا يفوت أية ثانية أو فسحة تمنحه متعة النظر إليها، وكان خلال هذه الثوان القليلة العابرة يسبر غور المرأة التي أمامه ويستقرئ جذوة الرغبة في أعماقها. وما إن يلمح ولو ظلالًا من الغربة في أعماق المرأة التي ينظر إليها حتى تتأهب كل حواسه ليخوض مغامرة غير مخطط لها. كان بكل معارفه الفلسفية ومفاهيمه الأخلاقية يرى أن الإنسان مخلوق جنسي، وهو مثل البندول يتأرجح ما بين الروحي السامي والجنسي الحيواني الغريزي.

انحنت هي أمامه لتضع الصينية على الطاولة، لكنها وأثناء انحنائها ألقت عليه نظرة خاطفة، وكأنها نظرة عابرة لكنها أيضا كانت نظرة فاحصة، فهي امرأة متقدة الأحاسيس، ولديها خبرة حياتية لا بأس بها، امرأة تستطيع طمر جمر الرغبة تحت رماد من الحركات البليدة والعفوية، وتحت قناع من الحزن الجليل والخفر الرصين.

وضعت الصينية على الطاولة التي أمامه، صبّت له القهوة في الفنجان وقدمتها له، وأبقت الصينية التي فيها دلة القهوة الصغيرة مع كأس الماء. بقت واقفة للحظة، أحست أنها لا تستطيع المغادرة. كانت تشعر وكأنها مطالبة بتقديم إيضاحات له، مع أنها ليست مضطرة لذلك، لكن شيئًا في أعماقها يوقظ فيها مثل هذا الإحساس. وكانت تستشعر أن ابن أخيها الميت قد أخبره بشيء ما حولها، فهي تعرفه ذلك النذل السافل ولغته، وهي لا تصدق ما أخبرها به بأنه اتصل كي يعتذر لها..!.

كل منهما كان يفكر في الآخر بطريقته. انتبه هو إلى وقوفها الذي طال، لذلك قرر أن يحطم ذلك الوقار المزيف، فقد تشمم بحاسته الكلبية بأنها امرأة تحتاج إلى رجل جريء يقتحم عالمها ويكشف عن شخصيتها ويحطم احتراسها الهش. فقال لها:

- اجلسي.. صبي لنفسك فنجان قهوة أيضا..!

- أوه.. ربما لا أستطيع النوم بعد ذلك..!

ابتسم بطريقة مدروسة وقال:

- وماذا في ذلك، ليس أمامنا سوى الليل، وبعده النوم..!

صمتت للحظات. ارتسمت على وجهها ابتسامة مشبوبة بخفر وقالت:

- سآتي بفنجاني إذن..!.

أخذ فنجانه وارتشف شيئا من قهوته. تتبعها بنظراته. كان يتأمل جسدها من خلف الثوب الأسود والبلوزة السوداء. ومع أنه لا يرى منها إلا ظهرها إلا أنه أحس من خلال مشيتها بأنها في هذه اللحظات تفكر في حيرة، فهي مترددة ما بين التمسك بعفتها ورصانتها الأخلاقية وبين أن تنطلق وتكشف عن أعماقها، وربما هي خائفة مني أو من نفسها.!

لكنه هيأ نفسه لمغامرة الكشف عن كل ملابسات هذه الليلة. وأراد أن يعرف لغز اتصال الميت به. وحين عادت وأنحنت لتصب لنفسها ما بقي في

الدلة من قهوة لاحظ على ملامحها الأنثوية حوارًا صامتا لم يكتمل بعد، فقال لها أثناء ذلك:

- اجلسي.

أخذت فنجانها وجلست قبالته. فجأة، وكأنه استيقظ من أحلام يقظته، إذ سألها:

- أريد أن أعرف لغز ابن أخيك الميت. كيف هو ميت وكيف أنه اتصل بي؟

نظرت إليه وكأنها تفكر في الإجابة، حرّكت الشال الذي يحيط بوجهها ولا يغطي شعرها بالكامل، وقالت له:

- أشك أنه هو مَن اتصل بك؟ فمن غير المعقول أن يكون هو لأنه ببساطة ميت..!.

- فمن يكون غيره في رأيك؟ سأل وهو ينظر إليها كمحقق.

نظرت إليه بتساؤل وقالت بنبرة فيها احتجاج خفي:

- كيف لي أن أعرف ذلك؟ الشيء الذي أنا متأكدة منه هو أنه ميت منذ أربعين يومًا..

- لكنه سأل عنك وبالاسم، وكان متوترًا، بل قال شيئًا غير لائق عنك..!

صُدمت حواء سرّ الختم عند سماع ذلك. صمتت للحظات وكأنها تفكر كيف سترد، مدّت يدها إلى فنجان قهوتها وارتشفت منه رشفة قصيرة، وقالت:

- ماذا قال عني هذا المتصل؟

- أولا.. إذا لم يكن ابن اخيك كما أدّعى فمن سيكون؟

أجابت بحيرة وارتباك:

- لا أدري من يكون، لكن ماذا قال عني..!؟

خفض آدم الأكويني رأسه ونظر إلى ساقه الملفوفة بالجبس، وقال بصوت منخفض:

- قال كلاما غير لائق.. يحرجني أن أقوله..

نظرت إليه مرفوعة الرأس وقال بنبرة مواجهة:

- قل يا أستاذ آدم ما أخبرك بك هذا المتصل ولا تتردد، سأتحمل كل الكلام مهما كان مخزيًا ومحرجًا..!

فجأة رفع آدم الأكويني رأسه ونظر في وجهها مباشرة وقال:

- لقد كان يريد أن يعتذر منك. وقال لي بأنه نذل وسافل ودنيء، وهو قد أساء إليك وحطم كرامتك وعزتك بنفسك وحولك من قديسة إلى عاهرة ساقطة ومبتذلة..!.

ارتجفت شفتا حواء سرّ الختم وارتبكت جدًا. كان وجهها يعكس تيارات من المشاعر المتناقضة. كانت خائفة، مرتبكة، خجلة، وعنيدة في آن. وتمتمت بصوت مسموع:

- إنه هو.. ابن أخي آدم..!

ارتد آدم الأكويني للوراء ساندًا ظهره على مسند الصوفا الخلفي في حركة لا إرادية وقال:

- كيف هو وأنت تقولين إنه ميت؟ كيف لميت أن يتصل بي من العالم الآخر؟ ثم ما معنى كلامك هذا!؟ وهل أنت فعلًا كما قال...

- لا تكمل أرجوك. سأروي لك كل شيء، ولك أن تحكم إن كنت كما يقول..!؟

ذهل آدم الأكويني. تأمل وجهها الأبيض المتورد وأخذ يمسح بنظراته صدرها ونهديها وبطنها وساقيها بسرعة، ثم عاد بسرعة قبل أن تفتنص نظرته لجسدها، فنظر إلى عتمة عينيها اللتين أخذتا تبرقان بدمع ترقرق في محجريها، واستشف من كآبتها المفاجئة كثافة حزنها وخيبتها وشبقها المكتوم.

امتدَّ بينهما صمت ثقيل لكنه مشحون بالانتظار. مد يده إلى فنجانه وارتشف ما تبقى فيه. كانت هي تنظر إليه وكأنها تسأل نفسها إن كان عليها أن تقول له الحقيقة أم تلوي الحكاية، لكنها فجأة عزمت أمرها وقالت:

- ما سوف أعترف به لجنابك هو حقيقة ما جرى معي، بل ربما اعترافي سيكون تطهيرا لي. صحيح إنني مترددة وخائفة مما سأبوح

به إليك، لكن خجلي مما سأبوح به أعظم من خوفي منه..!

- كوني مطمئنة يا ست حواء. مهما كان اعترافك فأنا لست قاضيًا كي أحكم عليك..

نبرة صوته وكلامه أثّرتا فيها، فاسترخت ملامحها وبرقت عيناها واجتاحها نشاط مسح عنها ارتباكها وسألت بصوت حيادي:

- هل يمكنني أن أحتسي كأسًا من النبيذ، كي أسترخي في الكلام واتشجع في البوح..؟

فوجئ آدم الأكويني ولم يصدق ما سمعه منها، صمت لثوان، ثم قال بسرعة وارتباك:

- طبعا.. لم يخطر في بالي هذا الأمر..

وهمّ بالنهوض كي يأتيها بالنبيذ، لكنها أوقفته وقالت له:

- ابق أنت جالسًا. أنا سأتناول كأسًا هناك، وأرجع لأروي حكايتي..!

لم يقل هو شيئًا، كان مأخوذا بهذه المفاجأة. وتتبّعها بنظراته حيث وقفت عند المائدة، صبّت لنفسها كأسًا من النبيذ وارتشفته مباشرة في رشفة طويلة واحدة، ثم وضعت القدح، وصبت ثانية ما تبقى في القنينة، وارتشفته أيضًا في رشفتين. بقت للحظات واقفة عند المائدة دون أن تلتفت إليه. لم يبعد هو نظراته عنها، بل فوجئ أكثر، إذ فكر مع نفسه بأنها من خلال طريقة شربها تبدو له محترفة على الشرب.

حين عادت، انتبه لخديها اللذين قد توردا، ولمسحة من الحزن الشفيف المشبوب بتوتر يكشف عن شبق مكتوم، بينما تعمّد هو ألاّ يظهر اهتماما بما قامت به، وكأن الأمر عادي جدًا بالنسبة له، لكنه وهي تمشي راجعة إلى مقعدها كانت تود لو أنه علّق على تصرفها بالشرب بهذه الطريقة، كي تجد في ذلك مدخلا عفويًا تروي من خلاله حكايتها.

حين جلست وجدت نفسها في مواجهة نفسها ومواجهته، فقالت بصوت محايد وكأنها تتحدث عن امرأة أخرى لا تمت إليها بصلة، لكن نبرتها كانت حارة ومتعاطفة معها ومنكسرة في بعض المناطق، وأحيانا كانت تتحدث بكراهية نقية وبحقد مطلق. وهكذا بدأت:

- لا أدري من اتصل بك يا أستاذ آدم. وربما من غير المعقول والمنطقي أن أقول لك إن الذي اتصل بك هو ابن اخي آدم سرّ الختم، لأنه ببساطة ميت فعلًا منذ أربعين يومًا..!. لكن مع ذلك لا يمكن لأحد أن يعرف سري غيره، ولا أحد دمّرني وحطّمني فعلًا غيره. لا يمكن لأحد أن يعرف ما جرى لي غيره، لكن أن يكون هو من اتصل بك فهذا هو المستحيل أيضًا! لذا لا تطلب مني تفسيرًا لذلك. (صمتت حظات، ثم واصلت).. هذه المرأة التي تجلس أمامك، والتي أقصد بها أناي، هي امرأة ليست أمّية أو جاهلة، فقد أنهيتُ دراستي الثانوية، لكني لم أواصل دراستي الجامعية لأني تزوجت رجلًا عسكريًا كان يكبرني بخمسة عشر عامًا. قبل زواجي لم تكن لديّ أية علاقات عاطفية أو أية تجربة خاصة، فقد نشأت في عائلة محافظة بل ومتزمتة دينيًا، وكنت الأخت الصغرى لأخوين يكبرانني. كانا يتحكمان بي أحيانا أشد من والديّ، لذا قبلت الزواج وفرحت به كي أتخلص من الجو العائلي المتزمّتْ ومن عنت أخوتي. صحيح أن بيتي الزوجي لم يكن يفرق كثيرًا في تزمّته عن بيت أهلي لكنه في كل الأحوال كان أهون عليّ بكثير، إذ أن زوجي على الرغم من تحفظه وتشدّده الديني، الذي لا يختلف فيه كثيرًا عن أخويّ، فهو لم يكن طيلة النهار في البيت، وإنما في عمله الذي يأخذ الكثير من وقته، وحتى حين يكون في البيت فإنه يأتي متأخرًا وينام مبكرًا جدًا، لكنه كان مع ذلك لا يقبل أن أشاهد أفلام التلفزيون إذا لم يسهر معي، وإذا ما ذهب إلى النوم مبكرًا وأنا باقية في الصالة فإنه يأمرني بمشاهدة القنوات الدينية وقنوات القرآن والتفسير ولا يسمح لي بمشاهدة أية قناة أخرى، إلى أن رُزقت بابني فانشغلت به عن كل شيء في العالم!. وهكذا مرت السنين وأنا أكرّر أيامي بكل رتابتها المميتة..، ولم أسعد في حياتي مع زوجي قط لأن مقامي لديه لم يتعد كوني خادمته في كل شيء! ولم أفهم من علاقتي بزوجي سوى وظيفتي بإنجاب الأطفال إلى جانب خدمته والحفاظ على بيته وشرفه، شرفه الذي هو أنا، أو بدقة أكبر منطقة محددة من جسدي. لكن الله لم يرزقنا سوى بابن واحد.

صمتتْ فجأة بينما كان هو مسترخيًا في جلسته، لكنه كان مع نفسه يفكّر بالاتصال الغامض الذي جاءه من العالم الآخر «ها هي تؤكد بأنه ليس هناك من يعرف عنها شيئا سوى ابن أخيها! ومع أنه ميت فهي متأكدة أنه هو؟؟ أية حماقة هذه، مع أنها تكشف عن طريقة جذابة في الحديث، فهي تروي حكايتها كمن يرى فيلما عائليا تقليديا من أفلام الأسود والأبيض التي أحب مشاهدتها أحيانا رغم بساطة القصة..!».. وسمعها تواصل حكايتها:

- مرت السنين.. وصار ابني شابًا يافعًا. كان عزائي في خيبتي.. وصرت أراه دنياي بكاملها. لا لا يمكنني أن أقول خيبتي لأم لم أكن أعرف عن علاقة الرجل بالمرأة غير ذلك، وكنت اتصورها طبيعية، فأنا جاهزة له في أية لحظة يشتهي، وهكذا، بعد سنوات عديدة وبمرور الوقت خفت الرغبة. بعد كل هذا السنين ارتحت من زهد زوجي بجسدي، مع أني كنت ما زلت أحتفظ بتناسقي.

حين قالت ذلك ارتبكتْ ولامتْ نفسها لأنها أشارت لتناسقها وكأنها دعوة خفية له لينتبه لجسدها، لكنه لم يعلق شيئًا، فأحسّت بالراحة لأنه لم ينتبه لجملتها الفاضحة، وشعرت أنها كادت أن تلقي بنفسها في هاوية جديدة، فواصلت كي لا تترك فرصة محتملة للتعليق على تلك الجملة:

- ابني كان سعادتي. كان هدية الحياة لي، لكن الحياة حطمتني، والأقدار، على الرغم من حياتي المملّة، عاقبتني أشد العقاب، ولا أعرف لماذا؟ فأنا أصلي الفرائض الخمس في مواقيتها وأصوم رمضان، وصنت نفسي وجسدي، وكنت طول عمري عفيفة اللسان، فقد كنت منزوية ولا اختلط بالجيران، وإلى الآن لا أعرف لماذا عاقبتني الأقدار..؟

انتبه آدم الأكويني إلى أنها تتعمد ألاّ تتحدث عن زوجها، وإنما ركزّت حديثها على ابنها، كما أنه لم يكن غافلا عن جملتها عن جسدها لكنه لم يشأ أن ينقضّ عليها من خلال إشارة واحدة، فقد أدرك أنها تتحدث من أعماق وديان الجحيم، كما كان ينتظر منها أن تبوح أكثر ففي البوح كشف، لذا ظل صامتا ينظر إليها بتعاطف مؤجلا المواجهة بينهما إلى اللحظة الحاسمة التي يقررها هو، بينما واصلت هي:

- حين أنهى ابني الثانوية وسجّل في الجامعة، ظهر اسمه من ضمن المقبولين في كلية الآداب قسم القانون والسياسة في جامعة تبعد عن مدينتنا مسافة تقطع خلال ساعتين. وحدث أنه بمناسبة قبوله في الجامعة دعاه والده إلى سهرة خاصة في مطعم راق بضواحي المدينة، على سفح الجبل الذي في قمته يتأجج البركان.

صمتت للحظات وكأنها تستذكر أشياء محددة، بل ترى ما ترويه أمام عينيها، ثم واصلت:

- لا أعرف ما الذي جرى حينها وكيف حصل الذي حصل..! إذ بينما هما في طريق عودتهما، وفي أحد المنعطفات، خرجت سيارتهما عن

الطريق وهوت إلى أسفل الوادي..!!.

انتبه آدم الأكويني لارتعاشة شفتيها ولرجفة عند حافتي شفتيها. صمتت للحظات، لكنها لم تبك وأنما واصلت:

- مات زوجي خلال الحادث، أما ابني الحبيب فقد تعرّض لإصابات خطيرة في العمود الفقري والجمجمة شلّته بالكامل. حدث ذلك قبل ثلاث سنوات.. (صمت وكأنها تستعيد المشهد.. ثم واصلت) أعتقد يمكنك أن تتخيل موقفي. ربما بمرور الوقت تآسيت بموت زوجي لكن رؤية ابني العاجز الذي تحطم شبابه دمرتني. اضطررت إلى أن أنفق كل ما كان لدينا من مال، وما حصلت عليه كمكافأة خدمة زوجي، على الأطباء وأجور العمليات التي أُجريت لابني حتى وصل الأمر إلى أن بعت منزلي..

- مواساتي لك. أحداث مؤلمة حقا..

قال آدم الأكويني مقاطعا بنبرة صادقة. كانت هي حزينة لكنها مع ذلك شعرت بالسعادة لنبرة صوته الصادقة في مواساتها ولكثافة التعاطف والحنان في كلماته، مع أنها تعرف بأن ذلك يمكن أن يقوله أي إنسان حينما يسمع هذه الأحداث والخسارات المأساوية. ولا تدري لم أحسّت بالرغبة في اكتساب ودّه وتعاطفه معها بقوة، لذا واصلت حكايتها التي أرادت جاهدة أن تطيل من القسم البريء منها وليس القسم الذي يروي حكاية سقوطها، لكنها تعرف أنه لا بد أن تروي ذلك حتمًا، فواصلت:

- أنفقتُ كل ما أملك على الأطباء والمستشفيات من أجل إنقاذ ابني، لكن القدر كان قاسيًا معي، فلم يستطع حبة قلبي من المقاومة وتحمل العمليات وفترات التخدير، لذا فارق الدنيا وهو في عزّ شبابه..!

صُدم آدم الأكويني ولم يجد الكلمات التي يمكن أن تواسيها فصمت حزينا منتظرًا أن تجتاز لحظات حزنها الكثيف، وفعلا بعد لحظات صمت وتوتر واصلت:

- حينما كان ابني طالبا في الإعدادية، كان كثيرًا ما يمثل دور المحامي وهو يدافع عن المتهمين الأبرياء في المحكمة، ويقلّد مشاهد مشهورة في السينما المصرية، تلك التي تجسد قاعات المحكمة والمرافعات فيها، وكان يحفظ كلام تلك المرافعات لاسيما مرافعة شهيرة لأحد الممثلين في فيلم قديم حينما دافع عن أمه المتهمة بالقتل والدعارة

دون أن يعرف أنها أمه!، بل ربما تستغرب إن قلت لك بأنني أحيانا ارتاح لفكرة موته وخلاصه من عذاب العمليات والعجز والشلل الكامل ومن هذه الدنيا وعذابها الذي كان سيتجرعه كل يوم لو بقيّ حيّا، عاجزا عن كل شيء.

انتبه آدم الأكويني إلى أنها تطيل من حكايتها تجنبًا لما سيأتي، وفكّر مع نفسه: «ربما تخجل من الحديث عن ذلك. أحيانا نخجل من البوح أمام أناس نعرفهم، ونتجرأ في البوح أمام أناس لا نعرفهم حق المعرفة، وأحيانا العكس صحيح، فمن أي نوع هي؟».. قطعت عليه تداعياته حينما سمعها تواصل:

- كثيرا ما فكرت بالبشر، وكثيرًا ما سألت بنفسي: هل يولد الإنسان خيرًا وطيبًا بطبيعته، ثم تأتي العائلة والدين والمدرسة والمجتمع لتفسده، أم أنه يولد بطبعه شريرًا ومستعدًا لكل أنواع الآثام والخطايا مع وجود بذرة نائمة للخير في داخله، بل لماذا نجد الشر هو الغالب!!؟ ولم أصل إلى جواب محدد ويقيني، لكني برغم كل ما مررت به أشعر باستعدادي للخير.. كيف أوضح ذلك..!

انتبه آدم الأكويني بأنها مترددة في البوح فقرر أن يساعدها ويشعرها بالأمان فقال لها:

- استرخي.. وبوحي.. ألقي ما يثقل على روحك..

صمتت هي للحظات ثم قالت:

- أحيانًا لا نعرف أنفسنا حق المعرفة، لا نعرف أجسادنا. نتفاجئ بها، بل نُصدم حينما يستيقظ الجسد متمردا على كل أخلاقياتنا التي تربينا عليها، وهذا الأمر خبرته بنفسي!. بعد وفاة ابني كنت محطّمة. كانت وفاته بعد ثلاث سنوات من وفاة زوجي، ولم يكن أمامي في تلك الحال سوى أن ألجأ للعيش عند أحد أخوتي، وهو متزوج ولديه ابن يكبر ابني بثلاث سنوات..، أي كان في الثانية والعشرين من العمر تقريبا. كان أخي هذا متزمتًا بل كان متطرفًا، على عكس ابنه المحتال الذي ينافقه، بينما يعيش حياة سرية على الضد من ذلك بالكامل!. ابن أخي هو الشاب نفسه الذي يُفترض أن يكون قد اتصل بك!. كنتُ حين أراه ارتاح لرؤيته وأتألم، فقد كان صديقا لابني، وكانا في طفولتهما يلعبان معا، لكن ابني صار في ما بعد منهمكا في دراسته فابتعد عنه، لأن ابن أخي كان سيئًا جدًا في دراسته حتى أنه لم يكمل الثانوي. وحين اضطررت للعيش معهم في شقتهم كان هو يواسيني ويتقرب

إليّ، بل أحيانا كان يأتيني إلى غرفتي القريبة من غرفة الحمام ليواسيني، وحينما يجدني أبكي وحدي وأنا جالسة على سريري مستذكرة ابني كان يجلس إلى جانبي، ويحضنني بحنان طالبًا مني الكف عن البكاء. وبصراحة، كان هو أقرب إليّ من أخي وزوجته اللذين كانا وكأنما يذهبان إلى النوم يتوقعان أن يوم القيامة سيكون صباحًا. كنت أرتاح لمواساات ابن أخي، وأشعر بالراحة في احتضانه لي إذ كان يشعرني بأنني لست وحدي، ولم أكن أعرف بأن روحه هي روح خنزير، كما لم أكن أعرف نفسي وجسدي جيدًا!. لا أريد أن أبرّر لنفسي وأجعل منها ضحية، لكن صدقا ومن دون وعي مني، لاشعوريا، تعلّقت به، ليس تعلّق امرأة برجل، إذ لم يخطر هذا الأمر في نفسي أبدًا، وأنما لأنه كان يذكرني بابني، إلى جانب أنه ابن أخي، لكنه الوحيد في بيت أخي ممن أشعر معه بإنسانيتي..، وبصراحة فقد كنت خادمة عند أخي وزوجته، إذ كان عليّ أن أقوم بكل أعمال البيت لأعوّض أدبيًا عن السكن والأكل عندهم، إذ كنت أقوم بتنظيف البيت والطبخ يوميًا، بينما كانت زوجة أخي أثناء ذلك تقرأ القرآن وتسبّح وتصلي في غرفتها، بل حتى حينما كانت تخرج من غرفتها أحيانا قبل وصول أخي، كانت تبدي هذه الملاحظة أو تلك. المهم، انتبهتُ لتعلّقي بابن أخي، إذ صرت لا أنام إلى وقت متأخر من الليل منتظرة مجيئه إلى البيت، بل حين كنت أسمع صوت إغلاق الباب، أبدي أية حركة كي ينتبه إلى أني لم أرقد بعد، فيدلف حينها إلى غرفتي التي عادة ما أترك بابها مفتوحا قليلًا، بل وكثيرا ما حين كنت أسمع وقع خطواته تقترب من الممرّ حيث غرفتي أمسك القرآن، واستدعي الكآبة لتمتلكني، منتظرة منه أن يواسيني بالاحتضان. وحين كان يقف عند الباب ويراني ساهمة وكئيبة وأنا جالسة على حافة السرير يقول لي بصوته الثمل: «ممكن أدخل يا عمتي» فأرفع إليه وجهي الحزين وعيني اللتين تبرقان من الفرح الخفي الذي صرتُ أتمكن من السيطرة عليه، فأهزّ رأسي بالإيجاب، فيدخل ليجلس جنبي، ويحتك فخذه بفخذي!. لا أدري إن كان يفعل ذلك بشكل عفوي أو مقصود!؟، لكنه كان يذكّرني بجسدي، هذا الجسد الذي استيقظ فجأة وكأنه تمساح تحرك رافعا رأسه من تحت الوحل!. فقد كنت أظن أنني ودعت رغباتي واعتزلت أنوثتي التي لم أشعر بها أبدًا برغم كل سنوات زواجي..!.

كان آدم الأكويني مستمتعا بطريقة سردها لحكايتها، بل كان يحس وكأنه يرى مشهدًا سينمائيا، وانتبه إلى أن رغبة بهيمية بدأت تتشكل في داخله نحوها، رغبة تشكّلت من نظراتها المخاتلة التي تتوهج برغبة مكتومة حين

تسترجع مشاهدها مع نفسها أثناء حديثها، ومن ابتسامتها الخاطفة أحيانا التي فيها دعوة غامضة غير فصيحة وفيها تمنع كاذب.

أحس بأنه متأهب للمغامرة، فقد انتبه إلى أنه مسكون برغبة غامضة لكنها قوية نحوها، رغبة بُذرت منذ اليوم الأول لعملها عنده، إلّا أنها كانت رغبة روائي مغامر أكثر مما هي رغبة عاطفية في شخصها.

فجأة، وجد نفسه يقول لها بأن لديه شرابًا أقوى من النبيذ، كونياك، فإذا كانت توّد أن تشاركه كأسًا فسيسعده ذلك.!. نظرت إليه نظرة سريعة لكنها فاحصة، وأدركت بغريزتها أنها قد حرّكت الرجل فيه، لذا غمرتها مشاعر الفرح والخاوف في الوقت نفسه، فهي لا تريد الانجرار مع رغبتها لأنه سيعتبرها عاهرة حقيقية كما قال له الرجل في الهاتف، فهي تعرف نفسها بأنها ليست كذلك، لذا هزّتْ رأسها رافضة وقالت:

- لا شكرًا.. هل تريد أن أعدّ لك كأسًا..؟

- نعم لو سمحت.. القنينة في أسفل الكاونتر بالمطبخ..

- أعرفُ مكانها. هل تريد أن أقطّع لك جبنا وخيارا معه..؟

- لو أمكن أن تقطّعي لي تفاحة..

- حاضر.. دقيقة ويكون أمامك..

حين نهضت انتبه فجأة إلى أنها تلبس ثوبًا أسود يلتصق بجسدها ويبين حدود ساقيها وحوضها، ويبرز صدرها، وحين تحرّكتْ متوجهة نحو المطبخ أخذ ينظر إلى مؤخرتها المتناسقة وإلى قامتها الأنثوية المثيرة..! وقرب باب المطبخ التفتتْ إليه لأنها كانت تدرك أنه يلاحقها بعينيه، فأرادت التأكد من ذلك. وفي تلك اللحظات التقتْ نظراتهما. وفجأة، لا يعرف كيف انبثقت في ذهنه صورة ممثلة إيرانية شهيرة تشبهها كثيرًا.

عادتْ وهي تحمل صحنًا صغيرًا فيه شرائح تفاح وكأسًا فيه شرابا بني اللون يلمع ببريق ذهبي في الضوء. وضعتهما أمامه وجلست حيث كانت تجلس سابقًا، فقال لها باحترام:

- شكرًا لك..

ابتسمت بمودة.. وقالت:

- هذا واجبي..

رفع هو الكأس وقال لها دون أن يبتسم:

- نخبك.. في صحتك..

فوجئتْ أنه يشرب نخبها. نظرت إليه، ثم ابتسمت بمرارة وقالت:

- شكرًا لك.. هنيئًا مريئًا..

وبقيت تنظر إليه للحظات وهي ترى على وجهه الانكماش المرّ الذي تلى ارتشافه للكونياك وسرعته بتناول شريحة من التفاح. صمتت للحظات إلى أن عاد لطبيعته.. وقالت:

- طبعًا أنت تنتظر منّي مواصلة حكايتي. ربّما تستغرب إن قلت لك إنني أتحدث الآن عن نفسي لكنني وكأنني أتحدث عن امرأة أخرى، امرأة كنّتها ذات يوم، ربما ليس منذ فترة بعيدة، وإنما في الأشهر الستة الأخيرة. نعم. الآن انظر لتلك التي كنتها وكأنها غريبة عني أو هي لاذتْ إلى أعماقي من جديد. لا أعرف. دعني أكمل حكايتي، وأتمنى ألّا تستغرب ما سأرويه لك الآن.

وصمتت. طال صمتها هذه المرة، حتى ظن أنها ربما لن تجازف بالبوح، لكنها واصلت:

- لقد اعترفت لك أنني تعلّقت لا شعوريًا بابن أخي، وصرتُ لا أستطيع أن أكون على طبيعتي حينما يكون خارج البيت. أكون حينها مستعرة المشاعر ومتهيجة. وفي يوم ما سألتُ نفسي عن سرّ تعلّقي به؟ وقد فسّرت الأمر بأنه ربما لكونه يذكّرني بابني، لذا منحته كل حناني المكبوت نحو ابني، وهذا إلى حد ما صحيح فقد كان شبابه وحركاته وحضوره كلّها تذكّرني بابني، ومن هنا فسّرت سرّ تعلقي به!. كنتُ لا أطيق غيابه، إلى أن حدث ذات ليلة ما أبطل هذه الحجة التي كنت احتمي بها هربًا من مشاعري الحقيقية، فقد تأخر عن موعد مجيئه على غير العادة، فبدأ قلقي وحاجتي لرؤيته تتصاعد ومشاعري تستعر، وأخذت أتحرّك في غرفتي قلقة واتنصّت لكل حركة في الممرّ. أجلس على سريري. أمسك القرآن كي أقرأ فيه لأهدأ. أضعه جانبًا، لأني كنت أقرأ دون أن أفهم ما أقرأ!. استمر هذا الحال إلى أن سمعت صوت إغلاق الباب الخارجي. لحظتها أردتُ أن أخرج لملاقاته، لكني تماسكت، وفكّرت بأنني سأفضح حالي لو خرجت إليه، فبقيت

واقفة قرب باب غرفتي من الداخل. تأخر في المجيء إلى غرفتي.. توتّرت..، إلى أن سمعت خطواته تقترب باتجاه غرفتي. وحينما صار أمام غرفتي ونظر باتجاه السرير المقابل لم يراني، ففتح الباب بشكل أوسع فوجدني واقفة على الجانب الخلفي منه، ولا شعوريا ألقيت نفسي على صدره وأنا أقول بتوتر: «آدم أين كنت؟ أنا خائفة جدًا». وحين رفعت رأسي لأرى وجهه، رأيت وجهًا مختلفًا تقريبًا. كانت عيناه تلمعان وابتسامة شيطانية ترتسم على وجهه، وبلا تردد ضمّني إليه وهو يقول لي بحنان وتهيج: «لا تقلقي ياعمتي العزيزة.. لا تخافي وأنا موجود». ضمّني بقوة وسحبني لنجلس على حافة السرير. كان لا يزال محتضنا إياي بذراعه. أحسست بالراحة والأمان في حضنه. وفجأة، مدّني على السرير، ثم انحني مستلقيا معي على السرير، بل انحني عليّ ووضع ساقه بين ساقيّ حتى أني أحسست بثقل صدره على نهدي. وفجأة، ودون توقع مني، أطبق على شفتيّ بقبلة حارة. فوجئت. دفعته عني بقوة، لكن يده الأخرى كانت تعبث في جسدي وتحت ثيابي وبين فخذي. كدّتُ أنهار. اشتعلتْ رغبتي فجأة، لكني مع ذلك صحت به: «ماذا تفعل يا آدم.. أنا عمتك..؟».. فابتعد خائفًا وكأنه فوجئ بردّة فعلي، ودون أن ينظر إليّ غادر الغرفة..!!. بقيت مذهولة مما حدث. استغفرت ربي ولعنت الشيطان، وفسّرت الأمر بأنه ربما كان هو مخمورًا، لكن وبصراحة شديدة، حركته تلك كانت مثل عصا سحريّة أعادت صياغة نفسي وجسدي، فلم أعد تلك التي كنتها قبل تلك الحركة الطائشة!. كانت ليلة صعبة عليّ. كنت مثل بندول الساعة الحائطية، مرة استغفر ربي وأتعوذ به من الشيطان الرجيم ومن كل إثم وخطيئة، وأتعهّد بأن أقطع علاقتي بابن أخي وابتعد عنه، ومرة أجد أن الأمر عادي وأنه أخطأ فلربّما كان ثملًا وأنه مثل ابني الحبيب لا أستطيع ألّا أتواصل معه!. ولا أعرف كيف مسّ النوم عينيّ في تلك الليلة..!.

صمتت حتى ظن آدم الأكويني أنها ربما ندمت على بوحها، فقال لها بفضول وبنبرة متوترة تكتم شبقًا خفيا:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

ارتبكت قليلًا وقالت بنبرة أحسّ أنها مرتعشة قليلا:

- حين صحوت في نهار اليوم التالي لم أره. سألت عنه فقالت أمه إنه خرج مع أصحابه. ومرّ النهار وجاء المساء ولم يأت تلك الليلة، ويبدو أنه خاف أن أخبر والديه بما فعل!. لا أخفيك ربما من المخجل أن

أقول إنني في النهاية أحببّت تصرفه، إذ وجدت نفسي في نهار اليوم التالي قد عدّت إلى تلك الفتاة المراهقة التي كنتها قبل الزواج!. لقد أيقظ في نفسي رغبة الحياة والشعور بأنني قادرة أن أعيش مشاعر تشعر بها أية أنثى، مشاعر جديدة عليّ. ونسيتُ أني أرملة، وأنني عمّته، وراودتني ذلك النهار مشاعر غريبة عليّ، فقد تمنيت لو أنه لم يأبه لرفضي، وأنه واصل امتلاكه لي ولجسدي الذي فجأة اكتشفت أنه عطشان للمس وللعناق وللدعس والانطعاج.. انتبهت إلى رغبتي في أن يطويني جسد رجل بقوة. ولا أخفيك.. فإنني لحظتها خفت من لحظة السقوط التي وجدتها تختبئ في أعماقي وسألت نفسي: من أنت يا حوّاء؟ سألت نفسي. فأنا منذ عشرين عاما قد تزوجت لكني لم أشعر بجسدي في أية لحظة. آلاف المرات نام زوجي معي، لكني لم أشعر قط بأفراح جسدي معه، بل كنت انتظر متى يصل هو إلى ذروته ويقذف وينتهي مني كي أنام! بينما صرت بعد تلك الليلة ما أن أتذكر آدم ابن اخي حتى تتأجّج شهوتي، وتغمرني خيالات تدفعي إلى مهب المغامرة..!.

انتبه آدم الأكويني لكلمة «تتأجّج شهوتي» فأحس بتدفق الدم في جسده، وبدء الانتصاب لديه. وفكّر ربما هي الآن رطبة ومتهيجة وهي تستعيد هذه الذكريات الشبقة..!! ولكي يبعد التخيل الجنسي عن نفسه أخذ كأسه وارتشف منها شيئًا من الكونياك، وفكّر لحظتها مع نفسه بأنها يمكن أن تكون إحدى حواءات متاهاته.

انتبهت هي لارتباكه، لكنها واصلت وكأنها تخطط لشيء مما وراء حكايتها، وقالت بنبرة حيادية:

- لم يأت ليومين متتاليين. صرت فيها كاللبوة في القفص الحديدي بحديقة الحيوانات، لا أهدأ ولا يستقر بي مقام. كنت أبحث عن مختلف الحجج كي أسأل عنه، حتى وصل بي الأمر إلى زعزعة أحد أركان سريري عن مكانها، كي تكون حجة للسؤال عنه لحاجتي إلى إصلاح السرير، لكن في مساء اليوم الثالث عاد قبل أوانه المعتاد، وكان مرتبكًا. وكان والده يتابع إعلانًا عن الحج إلى مكة بالتلفزيون. كنت في حينها بغرفتي، وحين سمعت صوته المرتبك خرجت إلى الصالة وسألته عن غيبته! فوجئ هو لنبرة صوتي الاعتيادية بل والمليئة بالود والحرص، ثم برجاء سألته إن كان يساعدني في إصلاح أحد أركان سريري المتداعي!. ارتبك لنبرة صوتي اللطيفة والمليئة بالرجاء.. وحدس أنني لم أخبر أحدًا بما جرى، بل انتبه إلى أنني نفسي لم أكن

مستاءة وأود الاختلاء به في الغرفة! فقال لي: «حاضر» ولكنه طلب أن أعدّ له الشاي، ثم توجه إلى غرفتي بينما ذهبت أنا إلى المطبخ لأعد الشاي. كنت انتظر أن يذهب أخي إلى النوم، وما إن انتهى الإعلان عن السفر إلى مكة حتى أطفأ أخي التلفزيون وتوجه إلى غرفة نومه، بينما حملت أنا كوب الشاي إلى آدم في غرفتي. حين دخلت وجدته جالسًا على السرير بانتظاري فقد عرف أنني لم أخبر أحدًا وأنني دعوته للحديث معه، وليس هناك أي شيء يمكن إصلاحه في سريري فقد أعاد الركن المتداعي إلى مكانه بسهولة. لا أدري ماذا كان يفكر لحظتها وكيف فسّر الأمر!. نظر إليّ لثوان، أدرك كل شيء. نهض عن السرير مرتبكًا، أخذ كوب الشاي من يدي ووضعه على الطاولة التي تقابل السرير، ومباشرة وبلا مقدمات احتضنني بشدة وشوق ولهفة. شعرت بحرارة جسده فاستعر جسدي. مسك وجهي محاولا أن يقبلني من فمي فلم أمكّنه من ذلك، فأخذ يقبل وجهي ويعصر صدري، ويمد يده إلى ما بين فخذي، لكني صحوت إلى نفسي ودفعته عني وأنا أقول له: «ماذا تفعل يا آدم.. أنا عمتك.. حرام ما تنوي فعله معي» فحاول احتضاني مرة أخرى وهو يقول لي: «أنا أحبك.. وأريدك».. أرعبتني تلك الكلمة مثلما غمرتني بفرح محرّم.. فدفعته خارج الغرفة وأغلقت الباب وأنا أقول له: «أنت مجنون». تلك الليلة لم أنم، إذ قضيت الليل أقرأ القرآن وأصلي. لكن صدّقني كنت أقطع القراءة لأستعيد تلك اللحظات التي كان يقبلني فيها ويده تعبث في جسدي.. أتدري أستاذ.. أحيانا تجد أن المصادفات قد ترتبتْ بحيث تقودك إلى المقاومة والانتصار أو إلى الانهيار والسقوط!. ففي اليوم التالي وعند الفطور أعلن أخي وزوجته بأنهما قررا السفر لأداء فريضة الحج، وطلب أخي من ابنه أن يرافقه لإنجاز المعاملة، لكن الذي انتبهت له أن آدم ابن أخي صار يتجنبني ولا يحاول أن ينظر إليّ، وإذا ما اضطررت أن أساله فإنه يجيبني بجفاء!. استأت من ذلك جدًا، وفي الوقت نفسه اعتبرتها إشارة إلهية بأن الله سينقذني من نفسي!.. (صمت مرة أخرى للحظات، ثم واصلت).. ومرت الأيام.. كنت في الأيام الأولى راضية بهذا الجفاء، لكن وبصراحة، كنت حين آوي إلى فراشي تبدأ الخيالات الحميمة وأحلام اليقظة تعصف بي وبجسدي!.. وشعرت أنني لن أصمدّ في هذا الامتحان طويلًا، إلى أن جاء موعد سفر أخي وزوجته إلى مكة، وطبعا لم يطرأ في ذهنهما أية خيالات أو تصورات دنسة حول بقاءنا في البيت!. وفي يوم السفر، وبعد أن كنّا جميعا في محطة الباصات المنطلقة إلى المطار ومن هناك لتطير في رحلة الحج، قال لوالديه بأنه سيبقى لبضعة أيام عند صديقه. لم أصدّق ما سمعته، فقد شعرتْ من ناحية بالأمان من نزواته

المفضوحة والسافرة ومن نزواتي المقنعة بحجاب التحفظ المزيف!، ومن ناحية أخرى راودني إحساس غامض بالخيبة!. والحقيقة، حين رأيت الناس المتجهة للحج بملابسهم البيض غمرتني حمى دينية واعتبرتها إشارة إلهية، فقررت أن ألوذ إلى الدين، وأصابتني ما يشبه الجذوة الدينية، لذا قررت مع نفسي بأن أتطهر من كل هذه النزوات والآثام التي تأمر نفسي بالسوء وتدفعها إلى الخطيئة، وخطّطت لنفسي بأن علي عند رجوعي إلى البيت ان أتطهّر، استحم، وأبدأ خلال الأيام اللاحقة بختم القرآن..! وهذا ما حصل!

انتبهت حواء سرّ الختم إلى أنه ارتشف كل ما تبقى في كأسه من كونياك، فأشارت له بما معناه هل تحمل له كأسًا أخرى، لكنه أجاب بإشارة من وجهه وكفه بأنه لا يريد. وامتدّت بينهما لحظات صمت. فقد كان آدم الأكويني ينتظر منها أن تواصل حكايتها. خفضت هي رأسها وكأنها تستعيد الأحداث التي جرت وقالت:

- بعد عودتي رتّبت البيت. حمدت الله بأن ابن أخي لن يكون في البيت، وإلّا كنت سأشك بصمودي أمامه، وفي تلك الليلة شعرت بالحرية. كنت وحدي في البيت. طبخت لنفسي شيئًا اشتهيه لنفسي ولست مضطرة لأكله لأن أخي وزوجتي يريدون أكله. جلستُ مساء في الصالون، شاهدت فيلما مصريا قديمًا أثّر في نفسي اسمه «الحرام»، لكنني لم أستطع النوم، فأردت أن أُشغل نفسي. قمت بتنظيف البيت وغسل الأرضية ومسح الأتربة وترتيب جميع الغرف في الشقة حتى أنهكت وتصبّبت عرقًا، فقرّرت أن أستحم ثم أقرأ شيئًا من القرآن وبعدها أخلد إلى النوم.. وفعلًا، هذا ما قمت به. فقد أغلقت الباب الخارجي، ثم دخلت غرفة الحمّام القريبة من غرفتي وتركت باب غرفتي مفتوحا. كنت أشعر بالانتعاش وأنا تحت دش الماء الدافئ، أشعر بالتطهر، فللماء سحر خفيّ على الأجساد، لذلك التطهر به جزء من القداسة، ومن هنا كل طقوس الطهارة مرتبطة بالماء!. وكنت مستغرقة في نشوة التطهّر تحت وابل الماء الدافئ المنهمر على جسدي..!. ولا أدري ما الذي دفعني إلى أن اتباطئ في إنهاء حمامي، كنت وكأنني أود أن أقضي أطول فترة من الليل تحت الماء المنهمر من الدش، لكن ما لم أتوقعه وأنا في تلك الحالة من الاسترخاء أن يُفتح باب غرفة الحمام وأجد نفسي أمام ابن أخي وهو عار تمام ومنتصب ومتهيج ويقف أمامي وكله شبق مجنون!! كيف دخل؟ ومن أين جاء؟ ألم يقل إنه سيقضي بضعة أيام عند صديقه؟ أكان ذلك لكي استرخي ولا أشك في نواياه الخبيثة؟ لم أعرف ما

أفعل. كنت عارية بالكامل وهو عار بالكامل. دخل معي تحت الدش، فأخذت أدفعه وأضربه، لكنه كان أقوى منّي طبعا، بل أخذ يقبلني من وجهي وشفتي ويعصر نهدي ويمتص حلمتيّ، ثم نزل ليقبل بطني، وقام بحركة لم أعرف خطورتها لأني لم أجربها سابقًا، إذ جلس ووضع رأسه بين فخذي ورفع إحدى ساقي وبدأ يلحسني. شعرت بالانهيار. كنت تائهة ومستمتعة، بل وأخذت أبكي من عجزي، إذ عرفت أنني أنجرف مع فيضان اللذة، وإنني على الرغم من رفضي فإنني مستمتعة.. بكيت ضعفي.. وأحسست لحظتها أنني سقطت، وضعت، فجأة.. استغل هو حيرتي وانهياري فأخذني خارج الدش وألقاني على أرضية الحمام المبتلة، وفتح فخذي واخترقني بجنون. أخذ يدخل ويخرج ويدخل بكل قوة فتوته، حتى وجدت جسدي لا يستجيب لإرادتي بل يجرّني معه، وتدفق ماءه ومائي. بصراحة، أحسست بخفة هائلة في جسدي وسكون أعاد لي توازني النفسي، مع يقيني بأنني قد ضعت، بل صرت ملكه.

كان ما ترويه يجري وكأنه مشهد سينمائي في مخيلة آدم الأكويني، وفكر أن يدخل شخصية آدم سرّ الختم في روايته «متاهة العدم العظيم» التي سيختتم بها سلسلة «المتاهات»، لكن عليه أن يستمع لكامل الحكاية وبعد ذلك يسألها إن كانت لا تمانع في أن تكون شخصية روائية..!.

مدّ يده إلى القدح الفارغ. لاحظت حركته فسألته:

- هل تود كأسًا أخرى..؟

- إذا كان ممكنًا..!

- أنا هنا لخدمتك في كل شؤون البيت..

نظر إليها نظرة مشوبة بالرغبة والحياء وقال لها:

- أتمنى ألّا تشعري بأنك هنا للخدمة فقط، وإنما أنت الآن تعيشين هنا، فهذا مكان سكنك أيضًا..

برقت في عينيها أشعة فرح وتقدير وقالت:

- أنت إنسان طيب، بل ونادر في طيبتك، إنني أؤمن بك وبإنسانيتك، وأرجو ألّا يؤثر ما أبوح به وأعترفه لك من نظرتك لي، فأنا أبوح وأعترف بكل هذه الجرأة لأني أثق بك ومؤمنة بإنسانيتك..!.

شعر آدم الإكويني بالارتباك والخجل، فهو لا يتحمل المديح حينما يقال في وجهه مباشرة وأمامه، فأدار الموضوع وسألها:

- بالمناسبة، أنا لم أسألك، هل تناولت عشاءك؟ أنا لم أتعشى بعد، فإن أحببت أن تجهزي لنا عشاءً.. لكلينا. سيكون ذلك رائعًا، لكن كما أرى أنك لم تنتهي من حكايتك بعد..!

نظرة إليه بمودة وقالت:

- سيسرني أن أعد العشاء.. نعم.. لم أكمل الحكاية بعد، لكن لحظة..

ونهضت. أخذت القدح من المائدة. مضت إلى المطبخ. وبعد دقائق عادت وهي تحمل الكأس المليئة حتى المنتصف، وقبل أن تضعه أمامه مد آدم الإكويني يده وأخذ الكأس منها وقال قبل أن يرتشف جرعة منه:

- شكرًا لك.. والآن.. أكملي..!

ارتبكت للحظات. أحسّت بدبيب الرغبة الغامض في جسدها، ووجدت في نفسها الرغبة في الحديث فقالت:

- ماذا أكمل! البقية تعاسة. نشوة قصيرة أعقبها شعور مدمّر. فبعد ما جرى في الحمّام صرتُ عاجزة عن صدّه أبدًا، بل تركته يفعل بي ما يشاء وكأنني لم أكن أنا!. ولا أخفيك، معه تعرّفتُ على جسدي بشكل أفضل، فقد أخذ يمارس معي بمختلف الأوضاع التي كانت بالنسبة لي اكتشافًا!، لكن النذل دفعني إلى أن أقوم بأشياء كان مجرد التفكير فيها أعدّه إثما ونجاسة وخطيئة، وبأفعال تبعث على التقزز أخلاقيا سابقًا، لكنني حين واصلت ممارستها اكتشفت لذتها، وقد كان هو خبيرًا بالأمور الخليعة، بل ذات مرة جاء بأفلام جنسية مبتذلة وأجبرني على أن نشاهدها سوية..! أفلام عن ممارسة جماعية. وذات ليلة جاء بمشروبات كحولية، وحبوب، وطلب مني تهيئة المائدة. وكنت مأخوذة بلذة اكتشاف جسدي وما يمكن أن يختزن من متع، لذا قرّرت أن أذهب معه إلى آخر الشوط!.. صحيح كانت تأتيني لحظات ندم وتأنيب ضمير، لكني كنت أطردها بقوة، ودفعني إلى التعوّد على شرب الكحول والنبيذ لكني أحببت البيرة، بل وتعاطيت حبوب الهلوسة أيضا لمرتين، لكنه كان مدّمنا عليها، إلى أن خطّط ذات ليلة بطريقة إجرامية لتدميري نهائيا!. فقد كان كما يبدو يستدين المال لشراء الحبوب المخدرة وإبر الهيوريين..!. وقد انتبهت لتدهور وضعه النفسي وقلقه وتوتراته المفاجئة.!. وتلك الليلة أعدّدت له المائدة. وشربنا

كثيرًا وتناولت معه حبة مخدرة، وشاهدنا شريط فيديو جنسي، و أخذنا نمارس بجنون وبلا وعي كما في الشريط. كنت في حالة هلوسة حين طُرق الباب. ذهب هو ليفتحه. كنتُ أظن أن الطارق أحد الجيران، إذ بقيت أنا في الصالة كما كنت عارية! لكن عاد ومع رجل آخر قدّمه لي بأنه صديقه!؟ كان شابًا وسيمًا فعلا، ارتبكت، لكني لم أكن في كامل وعيي. قدّمه لي بأنه الصديق الذي يزوده بالحبوب والمخدرات الأخرى، وقال لي أمامه، بأن صديقه يريد أن يكون معي أيضًا، فقلت له: بأنني له وحده، لكن أثناء ذلك كان صديقه قد نزع ملابسه وبقي في الكلسون فقط، حينما مانعت بضعف، مدني ابن أخي على الأرض ومسك يديّ، بينما دخل الآخر بين فخدي وأولجه في..!.. استأت من حركة ابن أخي، لكني ولكي انتقم منه، استجبت لصديقه بل بالغت في استجابتي له، فرأيت انكسارا وغيرة مكتومة في وجه ابن أخي ونظراته.!. ولم أطق ذلك الانكسار فحبوت إليه، وسحبته نحوي بينما الآخر كان منهمكا بأسفلي، وهكذا وجدت نفسي أمارس مع الاثنين!.. ولم أعد أتذكر.. (صمتت وكانت وكأنها لا تريد الاستمرار، لكنها واصلت).. في اليوم التالي صحوت قبلهما.. ووجدت نفسي في وضع مزري.. فقد كان هناك قيء.. وبول على السجادة، بل وتغوط يبدو كان لا إراديا، لحظتها وكأن مطرقة جاءت على رأسي، وصحوت على نفسي وعلى الانحطاط الذي وصلته. ذهبت إلى الحمام، أغلقت الباب من الداخل، أخذت أتحمم وأجلف نفسي باللّيف وكأني أريد سلخ جلدي لأستعيض به جلدًا جديدا، ثم ذهبت إلى غرفتي، لبست جلبابا وحجابا..، وأغلقت باب الغرفة على نفسي مستغفرة ربي..!!.

صمتت للحظات. نظرت إليه وكأنها تريد أن تقرأ تأثير كلامها على محيّاه، ثم واصلت:

- نهارا طرق ابن أخي عليّ الباب فلم أجبه. أراد فتح الباب فوجده مقفلًا.. أخذ يتوسلني.. ولمّا لم استجب لتوسلاته أخذ يهددني بأنه صورني بالأمس بينما صديقه يمارس معي بأوضاع مختلفة.. فزعت، لكني مع ذلك لم افتح له. صمدّت، مع أني كنت مرعوبة. وبقيت في غرفتي إلى أن سمعت صوت الباب الخارجي يطبق، وحينما تأكدت من هدوء الشقة خرجت. لم أصدّق نفسي كيف تحولت، نظرت إلى المائدة والقناني الفارغة نظرة احتقار واشمئزاز، فقرّرت الهرب من هذا المكان. نظفت البيت. غسلته. شفطته بالماء والمطهرات، وكأني أريد التخلص من كل شيء. حين ذاك لم يبق على عودة أخي وزوجته من الحج سوى عشرة أيام، ذلك اليوم قرّرت البحث عن عمل، كي

أعيل نفسي وأتمكن من مغادرة بيت أخي! وفعلًا أخذت بالبحث عن عمل.. وجدت عملًا في محل لبيع الألبسة النسائية، ولم استمر سوى أيام لأن صاحب المحل حاصرني في مخزن حفظ الملابس وأراد اغتصابي فتركت المحل هاربة، حتى أني لم أستلم أجر تلك الأيام التي عملت فيها!. وذات يوم ومصادفة بعد أن تعبت من مشاوير البحث عن عمل، اشتريت مشاوي في طريق عودتي للبيت فلفها البائع لي بجريدة، وحينما جلست للأكل وفتحت الجريدة واجهني اعلانك عن حاجتك لمديرة منزل تساعدك في ترتيب المنزل وإعداد الطعام، وكان الإعلان يشير إلى أنك تعيش لوحدك.. ترددت.. لكني اتصلت بالهاتف الموجود، وقابلتك..

ارتسمت ابتسامة على وجهه، ثم ارتشف جرعة من شرابه، وقال:

- نعم أتذكر ذلك اليوم.. كان ذلك قبل ثلاثة أشهر تقريبا..

صمتت هي للحظات.. ثم نظرت في وجهه مباشرة وقالت:

- نعم.. نعم.. حين رأيتك أحسست أنني رأيتك في مكان ما، وأنني أعرفك، لكني كنت على يقين أيضا بأنني لم ألتق بك قط. ارتحت لك وشعرت بالأمان. كانت نظرتك مرتوية، نظرة رجل تائه.. شبع من النساء، بل ومكتف بذاته. لم أجد في عينيك جوع إلى جسد المرأة، بل كنتَ تتجنبْ النظر إليّ أحيانا. رأيت فيك إنسانا مطمئنا للغاية. وبعدما اتفقنا، وبدأت العمل في الشقة، انبهرت بمكتبتك، وحينما وجدت طريقة حياتك الزاهدة والبسيطة تعلقت بشخصك، لكنني كنت أعيش أثناء ذلك في الجحيم، فقد انهارت صحة ابن أخي من جراء تعاطي المخدرات، وصرت أخافه. كنت أغلق الباب على نفسي ليلًا. عملي لديّك كان يمنحني القوة على التطهر والتخلص من ماضيي، ويمنحني الطاقة لمواجهة ما تبقى في الواقع. حين عاد أخي وزوجته من الحج ازدادت أعبائي، فقد تحوّلا إلى كائنين غريبين. لم يكونا يخرجان من غرفتهما إلى الصالة إلّا نادرًا. يبقيان في غرفتهما يصليان، بينما ابن أخي يطرق بابي كل فجر لكني لا أفتح له، إلى أن تبعني ذات يوم وأنا في طريقي إلى شقتك..، وفي سيارة الباص جلس إلى جانبي وأعطاني هاتفه النقال وطلب مني رؤية ما فيه، وهالنّي ما وجدت. كان فيديو لي في أوضاع جنسية مختلفة مع صديقه، ولقطات وصور له وهو فوقي أو في داخلي.. وأيقنت أنه لم يكذب حين هددني بذلك، لكن فجأة أخذ يبكي.. أحرجني ذلك ونحن في سيارة الباص، وقال لي بأنه في ورطة كبيرة، إذ عليه ديون متراكمة لبياعي المخدرات،

ولصديقه الذي كان معي، وإذا لم يدفع لهم سيقتلونه، وحينها هبطت بمنطقتين قبل المحطة القريبة من الشقة كي لا يعرف أين أشتغل، لكنه من شدّة انهياره نزل إلى الأرض ليقبل قدمي.. أحرجني.. وحين ذكر لي مبلغ الديون فوجئت، قلت له ليس بمقدوري مساعدته لأني ببساطة لا أملك هذا المبلغ!! فقال لي خجلا بأنه يعرف ذلك، وصديقه سوف يدفع المبلغ بشرط!! لم أفهم حينها قصده، فسألته: ما هو شرطه..؟ فقال لي بلا تردد: إنه يريد أن يكون معك ليلة أخرى!!. حينها صفعته ومشيت. واختفى من البيت لليال عديدة حتى أني قلقت عليه. وذات مساء جاء، طرق بابي وقال لي إنه ينتظرني في الصالة، ولحسن الحظ كان والداه نائمين. حين رأيته انتبهت إلى كدمات على وجهه وإلى كفه الملفوفة وكان واضحا بأن أصبعين من يده قد قطعتا وشدتا بالشاش المدمى!! وحين جلستُ على الصوفا نهض عن مكانه وقرفص أمامي متوسلا، قال لي إنه يكرّر طلبه لي، وإلا فإنهم سيقتلونه!! وأن صديقه أبدى استعداده للمساعدة لكن بالشرط نفسه، بأن يكون معي لليلة كاملة..!.

دون انتباه حرك آدم الأكويني يده التي اصطدمت بالكأس الذي أمامه. كاد يسقط عن الطاولة لكنه أمسك به. أحس بالارتباك من هذه الحركة التي كسرت سياق انسياب الكلام. نظرت هي إليه وكأنها تحاول أن تفهم ما جرى، ثم واصلت:

- لا أعرف كيف أصف لك نفسي، لكني وجدت في تلبية رغبته ربما تكفير عن آثامي كلّها فأبديت استعدادي لتلبية طلبه، واتفقت معه أن يكون ذلك مساء يوم استراحتي من العمل هنا، إلّا أن الذي انقذني من هذا الوعد المقيت هو أن سيارة ما صدمتني فنقلت إلى المستشفى.. وأخبرتك ما جرى بخطأ الحمل. وليلة خروجي من المستشفى طرقت الشرطة بابنا ذات مساء، كان هذا قبل أربعين يوما، ونقلوا إلينا الخبر الحزين، فقدو وُجدوا ابن أخي ميّتًا وملقى في مكبّ للقمامة بأطراف المدينة..! وقيل إن وفاته كانت نتيجة جرعة زائدة من الهيروين. حدث ذلك قبل أربعين يوما، لذا استغرب أن يأتيك اتصال منه!!.. أما ما جرى لي بعد ذلك وسبب هروبي من البيت، فإنه منذ يومين طُرق الباب ذات مساء، حين فتحته واجهني وجه صديقه الذي ضاجعني معه في لحظة هلوسة، وقال لي بأنه أعطى مالًا لابن أخي مقابل أن أكون عنده ليلة، ولم يوف بالوعد، وأنه جاء بنفسه ليخبرني بأنه سينتظرني بعد غد ليلًا، وأن عليّ أن أجد أية حجة لأبيت الليل عنده، وإذا لم استطع ذلك فيمكنني عوضا عن ذلك أن

أزوره صباحا لتسعة أيام متتالية! خفت الفضيحة، وافقت على الاتفاق، لكن لم يكن أمامي سوى الهروب، وحين أخبرتني أنت اليوم عن ذلك فكرت للحظة بإمكانية أن يكون المتصل هو هذا الصديق، لكنه من أين له أن يعرفك، ويعرف رقمك!.. لا. لا.. هذا مستحيل.

أطرق آدم الأكويني برأسه مفكرًا باحثًا عن جواب لمعرفة هوية المتصل، ثم قال:

- الغريب.. إن مثل هذه الظواهر الغامضة والغريبة أكتبها أنا في متاهاتي، وهي عادة لا تحدث في الواقع إلا نادرًا، أو تحدث ومسكوت عنها..

صمت كلاهما.. فجأة، نهضت هي ترمقه بنظرة مليئة بالحنان، وقالت:

- سأعدّ العشاء.

حين دخلت المطبخ ظل هو يفكّر بما سمع وما جرى. راودته رغبة أن يساعدها في إعداد المقبلات.. نهض بتثاقل معتمدًا على عكّازه، ومضى إلى المطبخ.

حين وصل المطبخ فوجئ بأنه لا أحد هناك!! خرج من المطبخ وطرق بابها، فلم يجبه أحد. فتح الباب ونظر في داخل الغرفة الخالية فلم يجد أثرًا لها ولا لحقيبتها. فجأة، سقط عكّازه، فأحدث صوتًا مدوّيًا في الشقة.

فزّ آدم الأكويني على صوت العكّاز وصديقه آدم الغوريلا وهو يقول له:

- ما بك يا آدم..؟ هل سكرت من كأسين من النبيذ..؟

انتبه آدم الأكويني لنفسه فرأى نفسه جالسًا على كرسيه حول المائدة وأمامه صديقه آدم الغوريلا الذي كان شارد النظرات الذي قال له:

- يبدو أنه لا رغبة لديك لسماع حكايتي..

شعر بالارتباك الشديد فهو لم يعد يدرك أيهما الواقعي، أهذا المشهد الذي هو فيه مع صديقه آدم الغوريلا أم المشهد مع حواء سرّ الختم!!؟ أيهما الوهم وأيهما الحقيقة!؟ لكنّه الآن داخل هذا المشهد!!. فقال بحيرة وخجل لصديقه:

- هل غفوت عنك طويلا؟

- لا.. غفوة لحظات.. لكني شعرت بأنك لا تريد سماع حكايتي التي ألححت أنت لتعرفها..

- على العكس. أريد أن أعرفها حقا فهات ما عندك. أنا صاغ إليك..!

- إذن اسمع يا صديقي..

الفصل الثالث

آدم الغوريلا و حوّاء المتهورة

- اسمعني ياصديقي. نحن الرجال مهما بلغنا من العمر واكتنزّنا من الخبرات والتجارب والمعارف وقرأنا من الكتب ووصلنا إلى مواقع إدارية وسياسية واجتماعية ودينية، نبقى أطفالًا صغارًا، ويمكن لمراهقة ولفتاة بعمر ابنة لنا أن تلعب بنا وتطوّحنا مثلما تطوّح قميص نوم لها أو كلسونا وسخًا أو تلغي وجودنا مثلما تلغي رقما في هاتفها، بل ربما تقوم بتحطيمنا وتمريغ رجولتنا في التراب وإذلالنا وإذلال دون جوانيتنا التي مارسناها مع نساء عديدات ناضجات مررن في حياتنا..

ابتسم آدم الأكويني وعلّق بمودة قائلًا:

- تذكرني بعنوان كتاب تراثي.. «عودة الشيخ إلى صباه»..

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجه آدم الغوريلا وقال:

- نعم.. نعم.. أنت محق.. نتحول إلى مراهقين، وربما أكثر. عموما، جرى كل ذلك معي مصادفة حينما كنتُ انتظر إعلامية عراقية كان عليها البقاء ترانزيت في المطار لمدة تسع ساعات إلى حين مواصلة رحلتها، فقررت أن استقبلها وأدعوها إلى المدينة وأودعها حين موعد سفرها، لذا غادرتُ البيت متّجها إلى المطار قبل الموعد بثلاث ساعات آخذًا بنظر الاعتبار ذلك الزحام الكريه الذي يهيمن على شوارع العاصمة!. لكن حدثت معجزة، إذا كان كما يبدو أن وفدًا رسميًا أو شخصية دولية حلّت ضيفًا على البلاد لذا أُغلقت بعض

الطرق المؤدية إلى المطار، فكان طريقنا سالكًا ووصلت خلال أربعين دقيقة.

لم يعلّق آدم الأكويني بشيء فهو يعرف أنه إذا سأل صديقه الغوريلا فسيستطرد في الحديث عن الطرق والدروب الجانبية التي سلكها قبل أن يعود إلى الحكاية الأساسية، فهو يحبّ التفاصيل والتشعب فيها لكنه عادة ما يرجع إلى حكايته الرئيسية، لذا ظل ينتظره ليواصل حكايته. انتظر الغوريلا للحظات أي تعليق من صديقه ولمّا لم يسمع شيئًا واصل قائلا:

- جلستُ في أحد مقاهي المطار المقابلة لبواباتِ دخول المسافرين لغرض التفتيش، و كان بعض الموّدعين يصطفون في طابور غير منتظم. كنت أشرب قهوتي وأتأمل الناس، فقد كان لدّي وقت كاف، وكنت أحمل معي كتابًا لشاعري المفضل «ت. إس. إليوت» بترجمة عربية. فجأة، أقبلتْ فتاتان أنيقتان، في منتصف العشرينات، وجلستا على الطاولة القريبة أمامي التي لم تكن تبعد عن طاولتي سوى مسافة متر واحد أو أقل. كانت إحداهما قصيرة القامة بحدود المتر وستين سنتيمترا، متناسقة الجسد مع مؤخرة بارزة بتناسق، سمراء البشرة، والأخرى طويلة ونحيلة وذات رقبة طويلة تذكّر بالزرافة. لم يكن ثمة تناسق بينهما ولا تتناسبان كصديقتين. (صمت للحظات.. ثم واصل) لا أعرف لماذا وجدتُ نفسي منجذبًا للقصيرة، وصار لدي فضول بأن أتابعها وأنظر إليها وأدرس حركاتها، فانتبهتُ لشخصيتها المرحة، فقد كانت تمزح كثيرًا، بل حتى في الأمور التي تحتاج لبعض الجدية كانت تمزح، فمثلا قامت لتأتي بمشروباتهما، وحين نهضت عن كرسيها سألت صديقتها مازحة: «وأنت ماذا تودين أن تشربي ويسكي.. فودكا.. مارتيني.. جن..!!؟»، فردّت صديقتها بجدية: «اسكتي ياحواء يامتهورة. ستفضحينا، فلو سمعنا أحد لأعتقد بأننا خبيرات في الكحوليات»، فقهقهت السمراء القصيرة التي عرفتُ اسمها وردّتْ: «ليعتقدوا ما يشاؤون!»، واتجهتْ إلى الزاوية حيث نادل المقهى، فنهضتُ بحجة حاجتي لشيء ما، وطبعا كان بالإمكان أن يأتي به النادل لو طلبته، لكني أردت أن أكون قريبًا منها، فتبعتها، ووقفت خلفها فانتبهتُ إلى أنها، مع حذائها ذي الكعب العالي، تصل برأسها حتى ما فوق السرة بقليل من جسدي، فهي قصيرة بالنسبة لي!. ولا شعوريًا دندّنتُ بلحنٍ لأغنيةٍ معروفة، فاستدارات نحوي. ابتسمتْ، ولا أدري لماذا ابتسمتٍْ؟. كانت ابتسامتها مرحة وساخرة ومذهلة وكأنها انتبهت لقصرها أو لطولي! وانتبهتُ إلى جهها الطفولي الذي لا يتناسب مع أنوثتها. انْحنتْ لتختار شيئًا من بين أصناف الحلويات

الموجودة للعرض فانتبهت لمؤخرتها المليئة والمتناسقة. كانت تلبس جلبابًا أنيقًا أسودَ.. استقاّمت. كانت تود أن ترتب نفسها لذا فتحت أزارا جلبابها وكأنها لا شعوريًا تود أن تبّين تفاصيل جسدها المثير تحت الحلباب، ولتريني البلوزة السوداء والبنطلون الأسود!!. هكذا فهمت الأمر حينها. ولا أخفيك، كل شيء كان فيها مكتمل الأنوثة، سوى وجهها الطفولي. ولما رأتني منشغلًا بالنظر إليها وأقف في موضع يكون خلفها في الطابور قالت: «يمكن لحضرتك أن تتقدم بمكاني، فأنا لم انته بعد»، فابتسمت لها وشكرتها!. أخذتُ هذه المرة شكولاته ساخنة بالحليب بعد أن كنت قد أحتسيت قهوتي، وعدّت لطاولتي، ومن هناك أخذت أتابعها بنظراتي... أثناء رجوعها وهي تحمل بعض المعجنات في صحنين رمقتني بنظرة متفحصة!. ولا أدري إن كان سبب ذلك أنها انتبهت لفارق الطول بيننا أو أنها انتبهت من هيئتي وملامحي فأدّركت أنني لست من أبناء بلادها، فمن حيث أن مسألة إعجابها بي كرجل استبعدتُها، فهي في منتصف العشرينات وأنا على مشارف الستين!. لا أدري لماذا أحسستُ بأنها فقدتْ مرحها أو ظلت مرحة لكنه مرح مصطنع!. لكني واصلت النظر إليها لاشعوريا فاقتنصتها مرتين وهي تنظر لي نظرة سريعة لكن متأملة، نظرة محايدة وخالية من المعنى أو هي وحدها تدرك معناها!، وبحكم خبّرتي بالبلاد وأهلها، أدّركتُ بأنها ليست عاهرة صغيرة تمارس صيدها في المطارات بل هي مسافرة لاسيما وقربهما حقيبتا سفر..!.

ابتسم آدم الأكويني وعلق بلطف ومزاح:

- نعم.. أنت خبير لست بالبلاد فحسب وأنما في العاهرات الصغيرات والكبيرات أيضا..!.

ابتسم الغوريلا لكنه كان يريد أن يروي حكايته فواصل:

- صديقتها ذات عنق الزرّافة كانت جالسة وظهرها إليّ، بينما التي لقبّتها صديقتها بحواء المتهورة كانت موضع رؤيتي، لاسيّما وهي لم تكن جالسة أمام صديقتها بالضبط وإنما جلست بزاوية منحرفة قليلًا، فهي أمامي بكامل حضورها. بعد دقائق قليلة أشار النادل إليها فأسرعت إليه وعادتْ وهي تحمل أكواب القهوة، واستغربتُ أن صديقتها الطويلة النحيلة لم تتحرك من مكانها لتساعدها، بينما كنت أرى اهتزاز الكوبين في يدها. رمقتّني بنظرة خاطفة فانتبهتْ لقلقي عليها من أن يسقط أحد الكوبين، وحينما وصلتْ بسلام وجلست على كرسيها أرسلتْ لي نظرة مع ابتسامة، وكأنما تقول لقد نجحت ومرّ

كل شيء بسلام!. لا أستطيع أن أصف لك مشاعري حينما ابتسمتْ لي. كانت الابتسامة لي وحدي، وأنا وحدي فهمتها، فهي رد جميل على قلقي وهي تمشي حاملة الكوبين، وصار بيننا اتصال بصري عابر، ولو لثوان. كان قد بقى على وصول ضيفتي أكثر من الساعتين بقليل، بيد أني كنت لا أحسّ بثقل الوقت، على العكس كنت مستمّتعا بحضور هذه الذئبة السمراء الشاردة المليئة بالمرح والطفولة. وبحكم خبرتي الطويلة بالنساء، أدّركت أنني قد أثرتُ اهتمامها. لكني سألت نفسي: «بماذا أثرتها، ولماذا؟»، بينما واصلت هي النظر إليّ بطريقة حاولتْ أن تبدو عفوية ولا مبالية، لكن فجأة، حدث ما يشبه الكارثة، إذ قامتْ ذئبتي المرحة عن كرسيها وأخذت تستنهض صديقتها الزرّافة بالإسراع فقد تم التنبيه والإعلان عن رحلتهما، فقامت هي بحماس وسحبتْ الحقيبة المتوسطة الحجم من مقبضها الطويل وغادرت الباحة المحاطة بسياج واطئ يحدّد مساحة الكافتيريا، وسمعتُ صاحبتها تصرخ بها: «انتظري يا حواء.. انتظري أيتها المتهورة فلدينا وقت كاف»، لكن المتهورة لم تلتفتْ إليها، فاضطرتْ صديقتها الزرّافة أن تترك قهوتها وتلحق بها. لكنّي وأنا أتابعهما رأيتها تنظر إليّ من بعيد، نظرة أقل ما يمكن أن أصفها بأنّها نظرة دارسة ومتفحّصة وكأنها تحاول أن تستذكرني أو كأني أذكّرها بشخص ما. وسألت نفسي هل هي متهورة حقًا..!.

- وماذا اكتشفت؟ علّق آدم الأكويني مبتسما ابتسامة متعاطفة.

لم يجب آدم الغوريلا مباشرة، بل تجاهل الإجابة المباشرة على سؤال صديقه، وبعد لحظة صمت واصل:

- أتعرف ياصديقي الأكويني المعاصر، أنا أحبّ الأفلام الهندية. أعشق ممثلاتها وقصصها الرومانسية والمأساوية ونهاياتها السعيدة. في البداية كنت أسخر منها وأنظر لها نظرة استعلائية كبقية المثقفين لأبدي علوّا في ذائقتي الجمالية، وكنت ابتسم ساخرًا لتراكم المصادفات التي تخرج عن المنطق في أحداث قصة الفيلم، لكنني من خلال تجاربي في الحياة وجدتُ أن في الحياة مصادفات من الغرابة بحيث تفوق المصادفات في قصص الأفلام الهندية بعشرات المرات!! المهم.. كنتُ أراقب هذه الحواء المتهورة، وكنت أتتبع حركتها مع صديقتها. تأسّفت لسفرها، لكن المصادفة التي فاقت ما يجري في الأفلام الهندية هي أن صديقتها وحدها التي سافرتْ، واتضح أنها جاءت لتوديعها، إذ عند وصولهما إلى بوابة الدخول تعانقتْ مع صديقتها

وسلّمتها الحقيبة التي كانت تسحبها. لحّظتها صرت لا أسمع شيئًا ولا انتبه لشيء مما يدور حولي، فقد كنت مركّزًا على هذا الكائن القصير الصغير البهيج، وكما في الأفلام حينما يركّز المخرج على لقطات مكبّرة على وجه البطل، هكذا ركّزت على وجهها، فرأيت كيف أنه تحوّل إلى وجه حزين، واكتشفت لحظتها أنها تعيش وحشة وعزلة، إذ كان مرحها قناعًا واختفى بعد مغادرة صديقتها.!.

صمت للحظات، وبدا كأنّه يسترجع المشهد الذي كان في المطار في ذاكرته. طال صمته قليلا ثم واصل:

- نحن البشر كائنات عجيبة. كائنات لا تستطيع أن توجه نواياها وميولها دائما، فأعماقنا هي لغز بالنسبة لنا، ومهما ادّعينا بأننا نفهم أنفسنا فنحن نوهم أنفسنا بمعرفتها، وثمة لحظات في الحياة تزعزع هذه الثقة بأنفسنا لأننا نكّتشف أننا لسنا كتصوراتنا عن أنفسنا! قد نرفض أشياء محددة لأسباب أخلاقية أو نفسية أو دينية ونتزمت في ذلك، وإذا بنا نكّتشف أننا في حاجة عميقة لما كنّا نرفضه لسنوات طويلة ونعدّه لا أخلاقيا. أقول هذا لأني أحسستُ بدفق من المشاعر اللطيفة والرغبات الغامضة، بل سألتُ نفسي عن هذه الرغبات التي أرفضها بالمنطق والفهم الأخلاقي، وكان ثمة صوت داخلي يقول لي: «أنت لا تعرف نفسك جيدًا أيها الغوريلا.. أظننتَ أنك تفهم نفسك، لكنّك واهم فأنت لست أنت! ألم تعلم أن الروح لا تشيب ولا تهرم!!». لحظتها تمنيّت لو بإمكاني التعرف عليها على الرغم من فارق السّن الذي بيننا، فأنا بعمر والدها، بل لو كنت متزوجا لكانت هي بعمر ابنة صغرى لي، ومع ذلك شعرت بحنين لها وانجذاب ذكوري نحوها. وفي تلك اللحظة تذكرت رواية «لوليتا» وذاك الأستاذ الجامعي الذي عشق الصبية ذات الاثنتي عشرة سنة، وعاشرها كعشيقة له مع أنها كانت بحكم القانون ابنة له لأنها كانت ابنة زوجته المتوفاة بحادث.!.

ابتسم آدم الأكويني قائلا:

- أنت تذكرني بأبطال روايات تيار الوعي الذين يرصدون تحولاتهم الفكرية وانفعالاتهم أكثر مما يحللون الواقع الذي هو مصدر انفعالاتهم والدافع لها.

انتبه الغوريلا لتعليق صديقه وأيّده بحرارة قائلًا:

- ممكن.. ممكن جدًا.. ففي تلك اللحظات أنا نفسي تذكّرتُ «انفعالات» نتالي ساروت، بل تذكّرت ستندال وبطله جوليان سوريل ورصده لنفسه في «الأحمر والأسود».. أنتَ محقّ. لكن هكذا أنا، الغوريلا المجنون، كينغ كونغ العاشق. المهم.. توجّهتْ هي لمغادرة المطار، وحينما صارت في منتصف القاعة وعلى بعد أمتار من سياج الكافتريا نظرتْ إليّ، وخلال ثوان عاد القناع المرح لوجهها وابتسمتْ لي. لحظتها خفتُ، وشعرت بوخزةٍ في قلبي، فأنا أخاف الفتيات اللّعوبات.. ليس لأن لديّ موقف أخلاقي منهن، فكما تعرف لا أحكام أخلاقية لديّ على الآخرين بسبب سلوكهم الجنسي وتعدد علاقاتهم، فهذه أجسادهم ويتصرفون بها كما يشاؤون، المهم ألّا يتحول هذا الجسد لقنبلة أو حزام ناسف يتفجر في الناس الأبرياء!!.. لا أطيل عليك، فأنت تعرف أنني أخاف الأقنعة، والبراعة في استخدام الأقنعة تخيفني، لأنني حينها لا أعرف أن أتعامل مع ذلك الشخص، إذ لا أعرف حينها أيهما وجهه وأيهما قناعه..!.

- أنت محق.. هذه لعبة الوجه والقناع الأزلية..!

علّق آدم الأكويني، لكن آدم الغوريلا لم يتوقف عند تعليقه وإنما واصل:

- مع ذلك أحببت أن أتعرف على هذه الحواء القصيرة المثيرة، علما أنا لا أحب القصيرات من النساء أبدًا، فأنا غوريلا كما لقبّتني أنت. وصدّقني، لا أعرف من أين جاءتني الجرأة حينها. ربما لأني كنت أتخيل كل ما يجري كما في فيلم هندي، فحين ابتسمت لي قابلتها بابتسامة وأشرتُ لها بذراعي بأن تتفضل إلى طاولتي. وقفتْ هي للحظات وكأنها تفكّر في دعوتي، ثم استدارت واتّجهت نحو الكافتيريا، وخلال تلك المسافة كنت منذهلًا من نفسي لجرأتي، ولاستجابتها.!.

- هل قبلت دعوتك مباشرة؟ سأل آدم الأكويني.

- نعم.. وليس عبثا أن صديقتها كانت تلقبها بالمتهورة!. فحين أقبلت التفتَ نحوها بعضُ الجالسين. كانت على زاوية من الكافتيريا طاولة حولها شباب بعمرها أو أكثر قليلًا من أبناء البلاد، أطلقوا بلهجتهم كلمات مسيئة أقرب إلى الشتيمة بأنها عاهرة صغيرة. تجمّدتْ هي في مكانها ملتفتة إليهم بغضب واضح كذئبة فتية. انتبهوا لغضبها. ولكن ربمّا خوفًا من الفضيحة فقد أخذوا التحدث في ما بينهم وكأنهم لا يقصدونها بجملتهم. بقيت صامتة للحظات إذ يبدو أنها لم تودْ أن تثير

شجارًا، فتوجهتْ نحوي، ووضعت قناع الابتسامة على وجهها مباشرة، ابتسامة طيبة ممزوجة بآثار الغضب الذي لم تستطع أن تمحوه بسهولة!. (صمت للحظات، ثم واصل). كنت أدّرك أن ابتسامتها جزء من قناعها، فهي كما يبدو وحيدة وتعشعش في أعماقها عزلة لا أعرف غورها بعد، هكذا فكّرتُ، لكني سرعان ما تراجعت قليلا، فأنا أخاف اليقين، إذ قلت لنفسي في تلك اللحظات: «ربما أنا مخطئ. فليس من المعقول لفتاة جميلة مثلها أن تكون وحيدة، لكن سنرى». وقفتُ مرحبًا بها. ترددتُ أن أصافحها، فهي محجبة، وسيكون مشهدًا فضائحيا وغير مريح أبدًا إذا ما مددّت كفي ورفضت، بل ربّما ستفهم حركتي في غير مقاصدها، لاسيّما العيون كلها تقريبا توجهت إلينا!. جلستْ أمامي ووضعت حقيبتها على الكرسي الفارغ الآخر حول الطاولة. بدتْ لي وكأنها كانت تقاوم مشاعر متضاربة في نفسها، ربما انتقدت نفسها على تهورها بالموافقة على تلبية دعوتي لها، وربما كانت تقاوم ضعفها، وبدت لي وكأنها من هؤلاء البشر الذين لا يتقبلون الهزيمة أو الفشل، والذين يتظاهرون بالقوة حتى في أوج ضعفهم.!. والحقيقة لقد احتاجتْ للحظاتٍ من الصمت مع نفسها كي تستعيد سكينتها. رفعتْ رأسها إليّ وعلى وجهها ابتسامة مرحة وقالت: «أنا حواء»، فأجبتها: «وأنا آدم»، فعلّقت ساخرة بمزاح: «حواء وآدم.. يا للمصادفة.. لكن آدم ماذا..!؟»، فأجبت مبتسمًا: «صديقي أستاذ جامعي وكاتب معروف أطلقَ عليّ لقب الغوريلا». ابتسمت بطيبة ومرح وقالت: «واو.. صديقك بارع في التوصيف، فأنت تشبه الغوريلا فعلا، إذن تشرفنا يا سيدي آدم الغوريلا..».

ابتسم آدم الأكويتني وقال له:

- لقد فضحتني..!. أنا أطلقت اللقب مازحًا ليبقى بيننا ولا يكون شهرتك بين النساء..

- لا عليك، فهو لقب أعجب ذئبتي الفتية، المهم، حاولتُ توثيق العلاقة بيننا بسرعة فسألتها: «وأنتِ..؟»، فقالت: «أنا حواء، لكن صديقتي التي سافرت قبل قليل تلقّبني بالمتهورة»، فقلت مرحبّا: «إذن. تشرفنا سيدتي حواء المتهورة»، فانطلقتْ ضاحكة ضحكة صافية مرحة طيبة تشي بطيبة القلب والبراءة. فجأة، قالت لي بوجه ملامحه جادة: «اسمعني ياسيدي آدم الغوريلا.. لأكن واضحة معك. لا تعتقد أنني فتاة سيئة ورخيصة وسهلة لأنني لبيت دعوتك بإشارة منك، لكنني وجدت فيك رجلًا محترمًا كبيرًا في السن بعمر أبي، أي مأمون

الجانب ولست متهورًا مثلي أو كبقية الشبان، وبالمناسبة، أنا لا أحب الشباب اليافعين وأنما أغرم بالرجال الكبار في السن، وقد لبيت دعوتك احترامًا. أتعرف، ربما لقّبتني صديقتي بالمتهورة عن صواب، لأن جلوسي معك وتلبية دعوتك دونما معرفة مسبقة بيننا يؤكد على تطابق اللقب على شخصيتي، لكني لست كذلك..، أقصد لست متهورة في الواقع وأنما التهور هو قناعي» وسكتت. طبعا ارتبكتُ أنا من صراحتها ووضوحها. انتبهتْ هي لارتباكي مع أني لا ارتبك عادة مع النساء، لكنني في تلك اللحظات كنتُ أعيش جياشان مشاعر متناقضة، فقد أعجبتني هذه الذئبة الفتية، بشخصيتها، ووضوحها، ومرحها، وأنثوتها الواضحة، بيد أن فارق العمر بيني وبينها وتأكيدها وإشارتها لذلك أحرجني. وأقنعت نفسي بأن العمر ليس حاجزًا أمام الحب أبدًا، ولا أدري كيف ورد في ذهني خلال ثوان علاقة الكاتبة أنايس نن بهنري ميلر بينما بينهما عشرات السنين، وكذلك ألبرتومورافيا وزوجته الأخيرة وهي فتاة يكبرها بأربعين عاما، وقلت لنفسي: «إني لا أنوي الزواج بها، ثم من قال إنها تفكر بالطريقة التي أفكر بها، ربما لديها عشيق أو عشاق، بل ربما هي متزوجة ومطلقة، فما الذي أريده أنا منها؟» ووجدت نفسي أجيب على أسئلة غامضة وغريبة انبثقت من العدم في ذهني، لكني تيقّنت من أمر واحد وهو أنها أعجبتني، وأريد أن أكون معها، أريدها أن تكون فتاتي، أعيش معها مغامرة مفتوحة على الزمن!. ويبدو أنها انتبهت لانشغالي وشرودي الذهني وربما اكتشفت انعكاسات ذلك على ملامحي لأنها بادرت بتقديم نفسها بوضوح أكثر قائلة لي: «لا تنظر لمرحي وعدم جدّيتي، فأنا عصبية جدًا، عنيدة، وأعشق النوم، كسولة، نعم أعترف بأنني كسولة، لكني أحبّ النظافة وأعشقها، وأحبّ الترتيب والتناسق في كل شيء، كما أحبّ المسلسلات الكورية والكوريين، أنا شخصية حالمة، أتخيل ما سيكون، وكيف سيكون بالصورة التي أحبّها، كما أحبّ الأناقة وأدوات الزينة، لكن لا تهمني الملابس الباهضة، المهم الأناقة. أحبّ اللون الأسود فهو أحبّ الألوان إليّ، وأحبّ الأرز والشيبس، وكل شيء تقليدي وقديم.. والآن هات ما عندك..».

ابتسم آدم الأكويني متعاطفا مع الحكاية وقال:

- يبدو أنها شخصية قوية على الرغم من هشاشتها الظاهرة..!

انتبه آدم الغوريلا لتعليق صديقه وواصل مؤكدًا:

- نعم. أنت محق.. هي كذلك، لكني حينها ارتبكت لطريقتها في الحديث، مع أني أحببت هذه الطريقة غير المتعارف عليها في تقديم النفس، ولذلك طارت كل الكلمات والأشياء التي يمكن أن أقولها. ما أنقذني أنها قاطعتني وواصلت: «نسيت أن أخبرك بأني أحبّ الممثلة المصرية الراحلة سعاد حسني، فقد تأثرّت بسيرتها، وحزنت، بل بكيت يوم رحيلها. كما أحبّ الفساتين القصيرة والكعب العالي لأني قصيرة فيخفف ذلك من عقدة القصر عندي. لا أستمع لنصائح أمي وأبي، وأقوم بفعل بما يدور في رأسي. أنا متمردة بدءًا من تمردي على تعاليم أمي وأبي. والآن هات ما عندك.. إنني أصغي إليك..!».

صمت آدم الغوريلا للحظات وارتسمت على وجهه ابتسامة وكأنه يبتسم لتلك الذبة الفتية المتهورة، ثم واصل:

- أنت تعرف ياصديقي، ليست كل رحلة تنتهي بالعودة دائما، فرحلة الحياة تنتهي بالموت. طبعًا ليس هذا ما أردت قوله، بل أردت القول إننا البشر لسنا سوى تراكم وتكرار للأخطاء. نعتقد أننا نتعلم لكننا مع ذلك نكرر الأخطاء، لكن هل كانت علاقتي معها خطأً؟. عموما، كل عاداتنا السيئة بل وحتى الجيدة ندفع ثمنها، ولا ينقذنا من هذه الدوامة من تكرار الأخطاء سوى لمسة حنان من القدير، نعم من القدير، وقلَّ ما يحدث أن ننتبه لأنفسنا. بعضنا يعيش زاهدًا قاسيًا مع نفسه ورغبات جسده وأحلام يقظته حارمًا نفسه من اللذات والمتع ويعتقد أنه يعيش حياة فاضلة بينما هو يضّيع عمره باسم الفضيلة، وبعضهم يستهلك نفسه وصحته في التهام المتع، معتقدا بأن الحياة هاربة منه وعليه اقتناص كل لحظة فيها، بينما هو في الحقيقة يستهلك نفسه وصحته، وكل منهما راض عن نفسه، وكل منهما يعتقد أنه على صواب وأنه اكتشف سر الحياة ومنح وجوده فيها معنى!. وهناك من لا يعنيه موقف هذين الأثنين لأنهما يعتقدان بأنهما مسكا الذئب من ذيله وعرفا سر الحياة بينما هو يعرف أن حياته عبث بين عدمين!. لكن مالي أثرثر الآن وابتعد عن جوهر الحكاية.. المهم..!..

نظر آدم الغوريلا إلى كأسه فوجده فارغًا، أخذ قنينة النبيذ وسكب لنفسه قليلًا على قدر رشفة.. ارتشف ما في كأسه. انتبه إلى أنه لم يسكب نبيذًا في كأس صديقه، ودونما اعتذار أخذ القنينة وسكب قليلًا من النبيذ في كأس الأكويني وفي كأسه مرة أخرى. وضع القنينة جانبا، ورفع كأسه فرفع الأكويني كأسه أيضا.. وقال الغوريلا:

- نخب حواء المتهورة.. نخب الذئبة الفتية..!

- نخبها..

بعد لحظات واصل آدم الغوريلا حكايته قائلًا:

- شعرتُ بانجذاب نحو هذه الذئبة الفتية.. وربما هي أدركتْ ذلك لكنّها كما خمنّت حينها أنها قررت أن تلعب معي أو تلعب بي. أنت تعرف أيضا أن في كل رغبة نوع من القسوة والسادية أو المازوشية، فإما أكون قاسيا معها، أو أكون قاسيا مع نفسي. وكانت تنتظر مني أن أقدّم نفسي لها على طريقتها، ولم أكن أعرف كيف أقدّم نفسي لها، فقلت لها: أنا الغوريلا.. أنا الغامض، المشعوذ، الصوفي، الإباحي، الفاسق، الزاهد، المؤمن، الشكاك، دودة الكتب، الغامض في علاقاته مع نفسه.. وبالمناسبة، هذه كلها أوصاف صديقي الكاتب آدم الأكويني..!.

أطلق آدم الأكويني ضحكة قصيرة وقال:

- إنك بذلك شدهتها وأثرت اهتمامها بالتأكيد..!

- نعم.. نعم لأنها أطلقت ضحكة مغتصبة وقالت: «يبدو أن صديقك هذا هو من يحدد وجودك.. وكأنه خالقك لأن كل أوصافه وكأنها تقرير دقيق من مختبر كيماوي للنفس البشرية، لكن جميل وصفه لك بالإباحي الفاسق، والزاهد المؤمن، لقد جمعت النقائض كلها».. لا أخفيك، لقد صدمني تعليقها، أحسست بعدم رضا ووجدت فيه وقاحة وتهورًا، وقلت لنفسي: «نعم لقب المتهورة يليق بها، مع أن هذا لا يعني أنها ساذجة، فهي كما يبدو لي ذكية جدًا». لم ارتح لتعليقها كثيرًا، لكني مع ذلك وجدت فيه مفتاحًا. فقد عرفتْ أنني إباحي، أي صار لديها حكم أخلاقي أنا أعترف به. ويبدو أنها انتبهت لفجاجة تعليقها، فحاولت أن تلطّف الجو، لكن على طريقتها المتهورة، فقالت: «هل أنت بخيل إلى هذه الدرجة؟ تريد كل شيء دون مقابل!؟ فإلى الآن لم تطلب لي شيئًا أشربه، قهوة أو كابتشينو مثلًا!». جملتها الثانية لم تعجبني، «تريد كل شيء دون مقابل»، فيها شيء من المقايضة. وإذا أردتُ إساءة الظن بها لأعتبرت تلك الجملة إشارة لعهرها واستعدادها بيع نفسها مقابل شيء ما، مع أني لم أطلب منها شيئًا إلى الآن، بيد إني اعتبرت قولها لتلك الجملة دليلا آخر على تهورها حتى في الكلام.

- وماذا فعلتَ؟ سأل آدم الأكويني.

- لاشيء. نهضتُ لأتخلص من الموقف، وذهبتُ إلى عامل الكافتيريا. حين التفتُّ إليها وجدتها منهمكة بكتابةٍ مسج على شاشة هاتفها النقال بسرعة. كان وجهها جادًا ومنهمكًا في ما تكتبه. أدركت أنها ليست كما تبدو متهورة، وإنما هي فتاة تعرف ما تريد. وانتبهتُ إلى طاولة الشبّان الذي كانوا يتهامسون فيما بينهم وهم ينظرون إليها. طلبت لها كابيتشينو ولي قهوة، وحملت الكوبين متجهًا نحو الطاولة، وحين اقتربتُ التفتتْ إليّ وعلى وجهها ابتسامة مقنّعة. أدركت أنها متدربة على هذه الابتسامة جيدًا.

وصمت الغوريلا فجأة. ملامحه كانت تشي بأنه ينظر بعيدًا خارج المكان، وكأنه يفكّر في شيءٍ ما. وبعد لحظات من الصمت والتفكر واصل حديثه:

- أتتذكر حينما تحدثنا مرة عن فهم الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر لعزلة الإنسان وقلقه الوجودي، وكيف الإنسان أما أن يعيش قلقه أو يهرب منه إلى الوجود المزيف أي إلى الوجود الخارجي الذي هو ضرب من عدم الوجود، أي يهرب إلى الآنية، وإلى السقوط من خلال الثرثرة اليومية، التي تكون مصدر معرفة الإنسان، ويهرب من الذات إلى التسلية والضياع في الأشياء، حيث يفقد الرغبة في معرفة الذات والوجود، وحيث يتحول الإنسان ليعيش حياة زائفة في كل تفاصيلها، وهذا ما يوقعه في التباس مع ذاته ووجوده، حينما يتخلى عن أي مسعىً لفهم الحياة ومعناها، ويغرق في الوجود المبتذل..! هل تذكر مناقشاتنا تلك حول هذه الطاولة نفسها!!.

استغرب آدم الأكويني انتقالة الحديث إلى هايدغر، وقال بحيوية موافقا ومعجبًا بالحضور الفكري والوضوح الفلسفي عند صديقه الغوريلا الذي يفلّسف كل شيء:

- نعم.. اذكر ذلك. وهل ينسى حديثنا عن معنى الحياة والوجود..!

صمت الغوريلا للحظات وواصل:

- لا أدري لماذا هيّمن عليّ ذلك الهاجس وأنا أنظر إليها وهي تعتقد نفسها واثقة، وأنها تدير قدرها ووجودها بكفاءة! دون أن تعرف معنى السقوط في الوجود المزيف والمبتذل الذي تعيشه، والذي تحدث عنه هايدغر.

- ماذا جرى حينها بحيث تفسر الأمر بهذا العمق الفلسفي؟ سأل آدم الأكويني.

- لا شيء مهم. جلستُ أمامها بعد أن وضعتُ الكوبين على الطاولة. ولا أعرف لماذا راودتني خاطرة مجنونة بأن أقدم نفسي بطريقة غريبة كما قدمتْ هي نفسها، فقلت لها: «ربما لم أقدّم نفسي بشكل صحيح.. فقد كنت أود إثارة إعجابك، لكني في الحقيقية غير ذلك، فأنا آدم الغوريلا، الجالس أمامك، هارب من مستشفى الأمراض العقلية منذ تسعة أشهر، وهذا الرقم تسعة مهيمن على حياتي، فأنا الابن التاسع لعائلة مشوشة، الأب زير نساء والأم مجنونة..

- أف.. ولماذا فعلت ذلك؟ سأل الأكويني مستغربًا.

صمت الغوريلا للحظة.. ثم قال:

- لا أدري.. ربما أردت الوصول إليها بأشدّ الطرق غرابة..!.

- وماذا جرى؟ سأل الأكويني.

- لا شيء.. ينها لمحت الصدمة والخوف على وجهها، فشعرتُ برغبة في التمادي لإخافتها بحكايتي فقلت لها: «هذه هي المرة التاسعة التي هربت فيها من مستشفى المجانين. وكل مرة أترك خلفي كارثة. ففي المرة الأولى كان أخي الذي يكبرني بعشر سنوات، والذي كان يضطهدني ويهينني علانية بمناسبة وبدون مناسبة، أصرّ بأن أذهب معه إلى المستشفى لاستشارة طبيب في مستشفى الأمراض النفسية والعقلية. وذهبت معه. وحين كنّا في الاستعلامات تحدّثَ مع موظف هناك، والذي اتصل بدوره باثنين من العاملين لأخذي ملفوفا بالقميص الأبيض، ومصادفة ذهبَ ذلك الموظف إلى مكان ما، فقلت لأخي أود الذهاب إلى الحمّام. نظر أخي إليّ بريبة لكنه لا أدري كيف وافق طالبًا مني ألّا أتأخر، لكني لم أذهب إلى الحمّام حين لمحتُ الرجلين قادمين وبيد أحدهما قميص المجانين اقتربّتُ منهما وقلت لهما إن أخي الكبير مجنون وبالكاد جئنا به إلى هنا، وأنه ضرب أبي بشدة فهربنا أنا وأبي من عنفه، هو يبدو هادئًا لكنه خطير. وحينها سألاني عن هويتي ومن أنا بالنسبة له فقلت لهم إنني أخوه الأصغر، وتواريت، فاقتربوا منه، وباغتوه بلفه بقميص المجانين بينما حاول هو أن يفلت منهما بالعنف ويسبّهما. تواريت أنا بطريقة ما، وما إن ابتعدوا وسط صراخه بأنه ليس المقصود هربت أنا من المستشفى! وطبعا لا

أعرف ما الذي جرى، لكن الأمر طال لفترة ليست بالقليلة من أجل أن يثبت أنه ليس المجنون المطلوب..!..

ابتسم آدم الأكويني وقال:

- يا للفتاة المسكينة!.. طيب وكيف رتبت بقية قصص الفرار! ولماذا اخترت الهروب من مستشفى المجانين وليس هروًبا من نظام قمعي مثلًا، فأنت حقًا هربت من النظام القمعي في بلادنا آنذاك..!

- لا ضير.. المجتمع العراقي لا يختلف عن أية مستشفى للأمراض العقلية! وعلى مرّ الأزمنة..!.

رفع آدم الأكويني كأسه وعلى وجهه ابتسامة حزينة وقال:

- العالم كله صار مستشفى للمجانين.. بصحتك.

رفع الغوريلا كأسه أيضا وارتشفا ما في كأسيهما. ثم واصل الغوريلا قائلًا:

- لم أواصل قص بقية الحكاية، فقد رأيت وجهها يشحب قليلًا بل ولمحت خوفا وتوجسًا في نظرتها، وكأنها كانت تفكر بالهرب من أمامي، فقلت لها: «لا تخافي، أنا أمزح معك.. صحيح أنا مجنون، لكني بكامل قواي العقلية، بل وأعقل من كل هؤلاء المجانين الذين يجلسون هنا، أو الذين تقابلينهم في الشارع..، كما أنا مدرّس للغة الإنكليزية، جئت بلادكم منذ أكثر من ربع قرن من الزمان بعقد عمل». حينها رأيت شيئًا من الاسترخاء والتوجس في وجهها، وسألتني: «يعني أنت لست مجنونًا بصحيح.؟». ابتسمتُ لها بطيبة وقلت: «وهل أبدو لك مجنونًا؟»، فتمتمت: «لا» فسألتها: «أأبدو لك عاقلًا. أليس كذلك؟».. فأجابت بتردد: «نعم..» فقلت لها: «لكني أقول لك إنني مجنون! أنت واهمة».. نظرت إليّ بتفحص، ويبدو أني أثرت فضولها، فقالت لي: «أنا أيضا أعتقد نفسي مجنونة.. مثلك..».. فرفعت كوبي وارتشفت منه، بينما كانت هي تراقبني وتدرس حركاتي، ثم رفعت كأسها وارتشفت منه وقالت لي: «في المرحلة الثانوية وأنا في عمر السادسة عشر عامًا كنتُ شغوفة بالمكياج وبأدوات الزينة ووضع الكحل على حواف عيني. كنتُ أرى نفسي قبيحة جدًا دون وضع الكحل وأحمر الشفاه. وعلى الرغم من تحذير والدي لي إلّا أنني لم أكن أكترث لكلامه. كنت أخرج من البيت دون مكياج بينما كنت احتفظ بمستحضرات التجميل داخل حقيبتي المدرسية و أذهب مستعجلة

إلى الثانوية حريصة على ألّا يراني أحد، وأدخل مباشرة إلى تواليت الثانوية لأجد راحتي هناك وأضع المكياج ثم أدخل قاعة الدراسة، وحين أعود إلى البيت أجد والدي هناك، فيلمح علامات المكياج على وجهي. يضربني بشدّة وبقسوة كبيرة. أتألم كثيرًا، لكنني أعاود الكرة في اليوم التالي. أهملتُ دروسي خلال تلك الفترة. كنت أحبّ شابًا وسيمًا، أحببته حد الجنون، كان أول حب لي، ومعه عرفت معنى الحب ومعنى ممارسة الحب. تعرّفت عليه بعد نجاحي في المرحلة الأهلية. كان يكبرني بثلاث سنوات. كان يهتم بي ويقوم بالاتصال الهاتفي بي كثيرًا، علمًا أنني كنت أخفي هاتفي النقال عن كل عائلتي. وهنا بدأت المأساة، وكان الثمن غاليا. لقد تعرّفت عليه في حفل زفاف عمتي. كان هو أخو العريس، وقد اغتنم فرصة دخولي الحمّام و لاحقني ليعطيني رقم هاتفه، وكان ذلك اليوم أجمل يوم في حياتي. كنت أنتظر الليل بفارغ الصبر حتى يتصل بي حبيبي. كان مثابرًا في الاتصال خلال الأشهر الأربعة الأولى. كنا نتحدّث عن الحب طوال الوقت. قبله لم أعرف معنى الحب أو الجنس، لكن ذات ليلة سألني ماذا ترتدين وأنت في فراشك، خجلت كثييرًا ولم أعرف بماذا أجبت! ولم ألتقي به إلّا بعد شهرين من تلك الليلة. أول لقاء لنا كان خارج البيت، إذ اصطحبني معه لمرآب صديقه. أذكر ذلك اليوم جيدًا، إذ كان أول يوم في حياتي أعرف فيه ما هي القبلة. ومع أنني لم أبق معه وقتًا طويلا إذ كنت مستعجلة للعودة إلى البيت، لأني لو تأخرت كنت سأعاقب عقابًا شديدًا، كما كنت أحتاج وقتًا لمسح الكحل عن عيني وأمسح أحمر الشفاه، لكني أتذكر إلى الآن كيف شعرت بالذوبان وكاد يغمى عليّ من أثر القبلة. ولم يتكرر ذلك الشعور مع أن القبلات انهمرت كثيرًا لاحقًا مع الشخص نفسه ومع آخرين. بعد عودتي الى البيت ذهبت مباشرة الى غرفتي، لم أشأ النهوض من الفراش كنت أعيد مشهد القبلة الأولى، حتى غرقت في نوم عميق، ولكن لم يحدث بيننا أي اتصال جنسي خلال العام الأول. أنا جاهلة بل وثقافتي الجنسية محدودة، لكني انتبهت إلى أن هذا الشاب صار يتهرب مني، إذ كان يختلق الأعذار للتهرب مني. كنت اتصل به كثيرا فكان يقطع اتصالاتي، وكان ذلك مؤلما. وذات يوم وأنا في المدرسة فاجئني اتصال من رقم أحد أصدقائه وعند ردي على الاتصال سمعت صوت حبيبي. أخبرني أنه راكن في سيارة صديقه على مقربة من بيتنا ويريد أن يراني. خرجت مسرعة، ولم أكترث لغيابي عن الصف، ولا للحصول على ورقة الدخول لأن أي غياب يلتزم حضور أحد الوالدين أو تقديم شهادة مرضية.. المهم ركبت في المقعد الخلفي من السيارة، بينما كان هو في المقعد الأمامي مِع صديقه. كان يبدو

مهموما وقانط الوجه. لم يتحدث حتى حينما سألته عن غيابه. المهم، أخبرني صديقه بأنه هو بحاجة للمال بحجة أن لديه قضية في المحكمة و يجب عليه الدفع و إلا سيسجن، وأنه يعرف حالتنا المادية الميسورة. حزنت لأجله كثيرًا. انتهى الحوار ولم يتفوه حبيبي بكلمة، بعدها عدتُ إلى الثانوية ومنها إلى المنزل ليفاجئني اتصال صديقه لي ليؤكد لي بأن عليّ أن أعطي حبيبي المال لأخلصه من كربه. لم يكن المبلغ قليلا. كان بما يعادل الألف دولار. فكرت طوال الليل كيف سأحضّر المبلغ، ووجدت حلًا واحدًا وهو سرقة أبي الذي كان يحتفظ بماله الكثير في جيب بذلته داخل الخزانة، أو تحت بعض الألبسة في الخزانة أيضًا، طبعا من غير الحقيبة الكبيرة في غرفة نومه. وهذا ما حدث، إذ سرقت المبلغ، واتصلت بحبيبي واتفقنا على مكان حددناه وسلمته المبلغ.. أرأيت كيف أنا مجنونة ومتهورة..؟؟ المهم.. بعدها اختفى ولم يعد يجيب على اتصالاتي مرة أخرى. أصابني إحباط شديد لأنني كنت أظن أنني بسرقتي لمال أبي اشتريه وأقربه منى ولن يتجرأ على الابتعاد عني، لكنني كنت غبية لأكتشف بعدها أنها خطة مدروسة فقط ليأخذ مني المال وليس أكثر، فقد كان يمثل هذا الدور المكروب والمحاصر ليبتز عواطفي الساذجة. قررت بعدها اعتزال الحب، فلا جدوى منه. هل يوجد حب أصلًا..؟.. أسألك أيها الغوريلا الغامض».. كنتُ استمع لها باهتمام وتركيز. كانت تنظر إلى حياتها كمشهد غريب ليس لها علاقة به، وكانت تتحدث بأسى وتعاطف مع تلك الفتاة المراهقة التي سرقت والدها من أجل حبيب تافه يستغلها، وكأنها شخص آخر، كانت تتحدث وكأنها تودع الإسكندرية التي تفقدها كما في قصيدة كفافي.!..

- وماذا كان جوابك على سؤالها؟ سأل الأكويني.

- لم أجب.. تجاهلت السؤال.. ولا شعوريا نظرتُ إلى ساعتي. كان قد بقي ساعة ونصف على موعد وصول ضيفتي العراقية. وصار بقاؤنا في الكافتيريا محط الأنظار. لم أجب على سؤالها، وإنما اقترحت عليها بأن نذهب للمطعم القريب ونتناول الغذاء ونواصل الحديث. فوجئت باقتراحي، وقالت إنها ليست جائعة، لكن ما دمتُ أنا جائعًا فلا مانع لديها من أن تأكل شيئا خفيفًا أو تشرب عصيرًا. لكن قبل أن نغادر المكان سألتها: «هل رأيت الأشجار في حياتك؟».. نظرت إليّ مستفهمة وقالت: «طبعا.. وهل هذا سؤال؟».. فقلت لها: «أنا شجرة». نظرت إليّ وعلى وجهها علامة استفهام وحيرة، ثم فجأة ابتسمت وكأنها سمعت نكتة غريبة، وقالت: «أنت غريب الأطوار، أنت غوريلا

جميل، كينغ كونغ، لكن ماذا يعني أنك شجرة؟». نظرتُ إليها بتركيز وقلت: «يعني أنا لا أختلف عن الأشجار. أمر بمواسم نفسية وفصول جسدية، وأميل مع الرياح وأقف بوجهها في غالب الأحيان. تجردني الريح من أوراقي وتعرّيني الفصول، لكنها تترفق بي فأخضر وأثمر.. يعني أنا شجرة..» حينها ابتسمتْ لي، لكن ملامح وجهها كانت تشي بالتفكير، ربما تفكّر في الذي قلته عن نفسي أو في شيء آخر. وخلال ذلك توجهنا نحو المطعم الذي كان يقع في الجهة المقابلة للكافتيريا من جانب بوابة دخول المسافرين للتفتيش.

- أنا متأكد أنك سحرتها بكل هذا الجنون والكلام الشيق. قال آدم الأكويني.

- لا أدري.. ربّما. المهم. حين دخلنا المطعم نظر بعض الجالسين إلينا. كان شابان من أبناء البلاد يأكلان طعامهما. وعلى مبعدة منهما عائلة مؤلفة من رجل وزوجته وابنتين مراهقتين. وحول طاولة ثالثة رجل في الثلاثين مع فتاة بعمر المتهورة، أما في أقصى المطعم فكانت فتاتان تشربان العصير وتنظران لكل من يدخل ويخرج وتتهامسان بينهما. وكما قلت فحين دخلنا التفت الجميع إلينا. أولا لأني غوريلا حقيقي بهيئتي، كما أن ملامحي تشي بشكل واضح إلى أني لستُ من أهل البلاد، إلى جانب أنها قصيرة قياسًا إلى طولي، وملامحها واضحة لانتمائها للبلاد، وهذا ما دفع الفتاتين إلى أن تقرّب كل منهما رأسها إلى الأخرى وتتهامسان، وأظن أنهما حسبوها عاهرة صغيرة اصطادت رجلًا شرقيًا سائحًا بعمر أبيها، وهذا الشعور ربما راودها أيضا حينما انتبهت لكل تلك العيون، لكنها سيطرت على مشاعرها، فهي تعرف بنات بلدها وكيف يفكرن بفتاة مثلها في مثل هذا الوضع. وطبعا أنت يا صديقي الأكويني تعرف الوضع أيضًا كيف هو هنا في هذه البلاد التي يكاد تزمتها وتشدّدها الديني يشكل هوية لها، بينما وجهها الآخر يكشف عن واقع انتشار الدعارة والفساد الإداري والرشاوى والمخدرات. لقد كان ما يهمني من انتقالنا من الكافتريا إلى المطعم هو أن ابتعد عن العيون التي أخذت تتركز علينا هناك، بيد أن رواد المطعم لم يكونوا أفضل، لكني فكرت بأنه لم يبق إلا القليل على وصول ضيفتي، فلا ضير من إنفاق الوقت في المطعم.

انزعج آدم الأكويني وهو يتخيل المشهد ووضع صديقه والمتهورة معه فقال بمرارة:

- يحدث في كل مكان وزمان مثل هذا المشهد. رجل كبير في السن وفتاة بعمر ابنته. لكن النوايا هي التي تسوق النظرات وتفسر المشهد. لو كان ذلك في بلاد أوربية لظنوا أنها ابنتك ولم يفسروا الأمر بأنها ربما عاهرة صغيرة اصطادت رجلا مسنا سائحا! وحتى لو كان بينكما علاقة لما أثارت هذا الفضول. بلداننا يحكمها حراس النوايا حتى لو كن عاهرات. لكن ماذا جرى بعد ذلك..!؟

شعر آدم الغوريلا بالارتياح لتعاطف صديقه النفسي معه وواصل:

- جلسنا حول طاولة مريحة بعيدة عن مرمى نظر المسافرين في المطار. قرأنا قائمة الطعام. شخصيًا لم أجد شيئا مشهيًا. حين أقبل النادل طلبتُ صحن سلطة وسندويش جبن أبيض وعصير ليمون، بينما اكتفت هي بصحن السلطة وعصير البرتقال. فجأة رنّ هاتفها. كانت صديقتها، وقد فهمت من حوارها بأن صديقتها في السوق الحرة وستدخل الطائرة بعد قليل. اعتذرتْ لي عن انشغالها، ولكن ما إن انتهى الاتصال حتى رنّ الهاتف مرة أخرى. انتبهت لارتباكها. لم تشأ أن تردّ، لكن رنين الهاتف المستمر أربكها فاضطرت إلى الرد، وأخذت تتحدث بالفرنسية، ثم نظرت إليّ بتوسل وكأنها تعتذر لأهمية الشخص. نهضت عن كرسيها وخرجت من المطعم. ارتبكتُ، لم أتوقع أن تغادر المطعم بهذه الصورة، لكني ارتحت حينما انتبهت إلى حقيبتها اليدوية الجلدية معلّقة على الكرسي. حين جاءوا بالطعام لم تكن موجودة. كنت ألمحها مشغولة بالحديث وهي تمشي رواحًا ومجيئًا على مقربة من المطعم. حينها فكّرت مع نفسي بأن أتركها ولا أفكّر بأية علاقة معها فهي ليست بالفتاة التي يطمئن لمشاعرها رجل مثلي، بيد أنها حين عادتْ لمحتُ عدم الارتياح على وجهها، لكنها كانت تسعى لإخفاء ذلك. اعتذرت مني بحرارة لأن الاتصال كان مهما. سألتها: «هل أنت بخير..؟» فأجابتني بقلق: «شكرًا على سؤالك.. أنا بخير». لم أشأ أن أكون فضوليا فجًّا، لذا لم أسألها عن المتصل المهم الذي أربكها إلى هذه الدرجة، لكني انتبهت إلى أنها لم تجلس وإنما ظلت واقفة، فقلت لها: «تفضلي اجلسي»، فقالت بارتباك وهي تتناولها حقيبتها من ظهر الكرسي: «أنا آسفة مرة أخرى. مضطرة للذهاب.. أنا بشكل عام في منحدر نفسي غير محمود، وهذا الاتصال أربكني قليلًا. عليّ الذهاب». طلبها المغادرة أربكني قليلًا، ومع ذلك حاولت تهدأتها وسألتها: «لماذا أنت في منحدر نفسي غير محمود؟». ارتسمت ملامح الحيرة على وجهها وقالت موضحة: «لا شيء يمكن القبض عليه بشكل واضح. مشاعر مختلطة تأتي دفعة واحدة. أحس

نفسي ضائعة. أعاني من شعور بظلم الحياة لي. أسئلة تشتبك فجأة لتشعرني بلا جدوى كل شيء.. عموما.. أعطني رقم هاتفك. سأتصل بك. أعدك بذلك. أنا آسفة. هذا الاتصال أربكني. سأكون ثقيلة الظل إذا بقيت. لا أعرف كيف هو وضعك ومتى يمكنني أن أتصل بك دون أن أسبب لك إحراجًا عائليا». حقيقة، ارتحت لما قالته مع أني وددت حقا أن تبقى، لكن وعدها بالاتصال بي دون أن أسألها وإشارتها للوقت المناسب والحديث عن الإحراج العائلي سرّني، فهو يكشف عن رغبة غامضة بخصوصية التواصل، فقلت لها: «وددت لو بقيت معي لنتحدث، ونتعارف أكثر، لكن بما أنك غير مرتاحة نفسيا فخذي راحتك. وبالنسبة لي يمكنك الاتصال في أي وقت من الليل أو النهار، فأنا أعيش وحدي». انتبهت لتألق عينيها. وعلى غير توقع مدّت يدها مصافحة وعلى وجهها ابتسامة قلقة وهي تقول: «تشرفت بالتعرف إليك سيدي آدم الغوريلا». فأجبتها بحرارة: «الشرف لي أيتها الحواء التي لا أعتقد أنها متهورة». ابتسمت قائلة: «بلى أنني متهورة، بل ومجنونة، وسترى ذلك»، ثم غادرت المطعم.

في تلك اللحظة رنّ هاتف آدم الأكويني الذي كان على طاولة المكتب، فأعتذر من صديقه الغوريلا. نهض عن كرسيه متكئا على عكّازه، متجهًا إلى حيث الهاتف النقال في الجهة الأخرى من الصالة، أخذ الجهاز، نظر إلى شاشته، انتبه إلى أن الرقم هو نفسه الرقم الذي اتصل عبره آدم سرّ الختم. ضغط على زر استقبال المكالمات بارتباك فجاء الصوت من الطرف الآخر:

- تحياتي أستاذ آدم الأكويني.. أنا آدم سرّ الختم مرة أخرى. اتصل بك من العالم الآخر، فكما عرفتَ من عمتي أنني رجل ميت منذ أربعين يومًا. مرة أخرى أرجوك أن تعتذر لي من عمتي حواء سرّ الختم، فهي قد أغلقت هاتفها..!.

لم يتمالك آدم الأكويني نفسه لاسيما وقد تذكّر كل ما قالته حواء سرّ الختم ففي لحظة حضور غامضة، فقال بنبرة فيها غضب واحتجاج:

- هل أنت مجنون؟ ما معنى أنك تتصل بي من العالم الآخر..؟

حاول أن يتحدّث أكثر، إلا أن الذي كان على الطرف الآخر قد قطع الاتصال. اشتدّ غضب آدم الأكويني فطلب الرقم نفسه، فجاءه صوت المجيب الآلي بأن الجهاز مغلق أو خارح نطاق الخدمة.

ظل للحظات واقفًا قرب طاولة المكتب، وفكّر مع نفسه «ربّما المحادثة هي جزء من هلوسات روائية..!! إذ كيف عرف هذا المتصل الذي يدّعي أنه من العالم الآخر بأن عمّته قد أخبرتني بأنه ميت منذ أربعين يوما!! لكن هذه المحادثة التي يفترض أنها جرت مع عمّته هي وهم أيضًا، فهي لم تصل إلى الشقّة بعد، وكل المحادثة معها كانت وهما، وكأنها جرت في الحلم أو أحلام يقظة! ربما أنا الآن أعيش في المنام وكل ما حولي وهم! لا. لا. كفاني هلوسات روائية». عاد إلى المائدة على ايقاع عكّازه الذي كان يطلق صوتا مسموعًا بوضوح على الرغم من قصر المسافة.

حين صار قرب الطاولة كان مرتبكًا، بيد أنه وجدَ صديقه آدم الغوريلا غارقًا في ذكرياته لذا لم ينتبه لارتباكه. جلس الأكويني على كرسيه حول المائدة، وعلّق عكّازه من قبضته على الكرسي المجاور..!. بدا شارد الانتباه وكأنه يسترجع ذكريات محددة، وفكّر بأنه من غير المجدي الآن الحديث مع صديقه الغوريلا عن هذه المكالمة، وليستمع هو له وهو يسرد حكايته. وبعد أن سكب ما تبقى في القنينة الثانية في كأسيهما رفع كأسه وخاطب صديقه قائلا:

- نخبك ونخب حواءك المتهورة..

انتبه آدم الغوريلا له. لم يبتسم، وإنما رفع كأسه بحيوية وقال:

- نخبك.. ونخبها..

فجأة سأله آدم الأكويني وكأنه يحاول أن يتجاوز ارتباكه:

- ما الذي جرى بعد ذلك. هل رأيتها. هل تقابلتما..؟

دبّ النشاط في كيان آدم الغوريلا وكأنه استيقظ من غفوة وقال:

- نعم.. اتصلت بي في وقت متأخر من تلك الليلة، اعتذرت عما بدر منها، لكن معظم المكاملة كانت محاولة منها لتتعرف عليّ أكثر، فسألتني عن وضعي وعن وجودي في بلدهم، وحياتي الخاصة، لكن بطريقة أرادت ألاّ تبدو فيها بأنها مهتمة بشكل خاص لمعرفة تفاصيل حياتي، فكانت تسوق الأسئلة بطريقة اضطر فيها أن أتحدث عن وضعي الخاص لتوضيح الإجابات..! وخلال المكالمة دعوتها إلى اللقاء لشرب فنجان قهوة في مقهى صاحبه مثلي قادم من بلد عربي ومقيم منذ عقود في هذه البلاد. وهكذا التقينا في اليوم التالي في محطة قطار الأنفاق في الشارع الذي تقع فيه المقهى. حينما وصلت سألتني عن مكان المقهى قلت إنها قريبة، قد تبعد مائة متر من

المحطة. الغريب أننا حين خرجنا من المحطة صارت تمشي ليس بجواري وإنما على مبعدة مني بحيث لا تبدو وكأنها معي، وأدّركتُ أنها تتجنب نظرات أبناء بلدها إذا ما اقتربت مني، لذلك لم أسعى إلى محادثتها، ولكن حين وصلنا المقهى التي وزعت كراسيها وطاولاتها ومظلاتها الشمسية الكبيرة في مساحة محددة وسط الرصيف. أثار وجودها معي فضول الجالسين، وقد انتبهتْ هي لذلك فطلبت أن نجلس داخل المقهى. ولكي نبتعد عن الأنظار أكثر صعدنا إلى الطابق الأعلى. وهناك كانت الأمور مفاجئة فقد رأينا طاولات متعددة، واحدة حولها رجل قد تجاوز الستين ومقابله تجلس فتاة في بداية العشرينات وتمسك بيده وتهمس له بكلمات كانت من خلال ملامحها هي كلمات مليئة بالمشاعر، وطاولة أخرى حولها رجلان تجاوزا الخمسين مع امرأتين إحداهما في الثلاثينات ومعها فتاة في العشرينات. وكان الوضع مريبًا، كما كانت هناك طاولة أخرى حولها فتاتان تنظران لكل من يصعد وكأنهما تنتظران أحدًا ما. المهم، جلسنا على مقربة من الطاولة الثالثة. وما أن جلسنا نبّهتني هامسة بأن هاتين الفتاتين من المرجح جدًا أنهن مومسات. واقترحتْ أن نغيّر المكان. استجبتُ مباشرة لأني شخصيًا وجدت نفسي في موضع غير مريح، فقد كنت أعرف المكان، وأعرف أن الفتيات مومسات، لكني حاولت تجاهل الأمر حينها، فهذا وفق قناعاتي أمر يخصهن، ولا أملك حق الحكم الأخلاقي عليهن فللناس حكايات.

علّق آدم الأكويني موافقا:

- صحيح.. تبقى كلمة المسيح مدوية عبر القرون: «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر!». لكن ماذا حصل بعد ذلك..؟

نظر آدم الغوريلا بارتياح إلى صديقه إذ أعجبه اهتمامه بحكايته، فواصل:

- لا شيء. انتقلنا لمقهى آخر قرب محطة المترو، لكنها لم تتردد هذه المرة في الجلوس في المنطقة المكشوفة وسط الرصيف التابعة للمقهى، فهناك كانت فتيات يجلسن مع رجال أكبر منهن عمرًا بشكل واضح، إلى جانب أن الجميع كانوا مشغولين بأحاديثهم. جلسنا عند حافة السياج المطل على الشارع بعيدًا عن سير السابلة، جاءوا إلينا بما طلبنا، أنا طلبت الشاي الأخضر وهي طلبت عصير برتقال. وهنا أيضا كما في مكالماتها الليلية كانت معظم أسئلتها عني، وكأنها تريد أن تستوثق مني أكثر أو تتعود على وجودي لتشعر بالأمان معي. بقينا هناك لمدة ساعة، تخللها اتصالان لها، أحدهم كان مع أمها، وآخر جاء

من صديقة لها. بعد ذلك طلبتْ أن نغادر المكان لأنها تأخرتْ ولا تريد أن يحققوا معها في البيت. أوصلتها لمحطة قطار الأنفاق إلى أن دخلت المقصورة في القطار. بعد ساعة اتصلت بي وشكرتني على الدعوة. وهكذا استمرت اتصالاتنا اليومية والليلية، وطبعا لم نكرّر اللقاء الخارجي تجنبا للإحراج، لأنها أخبرتني بأنها محرجة قليلًا من خروجنا معًا لأنها تعرف عقلية أبناء بلدها إذ إنني واضح باختلافي عن أبناء البلد وسحناتهم الواضحة، لذا اقترحتُ عليها ذات ليلة أن نلتقي في شقتي لنعد الغداء أو العشاء ونتجنب عيون الناس ونظراتهم المليئة بالأحكام الأخلاقية، طبعًا ترددتْ في البداية وأخذت تلف وتدور في الإجابة، فلم ألح عليها، لكنها وافقت على استحياء. شخصيًا، كنت أريد من اقتراحي، أن تدخل عالمي الحقيقي، وأن تكون في مكان تشعر فيه بالأمان وتتصرف بشكل طبيعي وتلقائي مثلما رأيتها مع صديقتها في أول لقاء، ناهيك أنني أحببت أن أعرف عنها أكثر، إذ ولا أخفيك سرًا، كانت ظلال الشك تراودني عن كونها ليست صادقة معي، وأن لديها علاقات أخرى إلى جانب تواصلها معي.

- وماذا حصل.. هل تأكدت من ذلك؟

سأل آدم الأكويني وقد وجد نفسه منسجما مع هذه الحكاية، حتى فكر أن يسأل صديقه إن كان يود أن يزجهما في متاهته التي يكتبها، لكنه أجّل السؤال إذ واصل الغوريلا حكايته:

- من أين لي أن أتاكد؟ أنا لا أعرف أين تعيش. هي تتحدث بطريقة ملغزة على الرغم من أنها حكت لي عن تفاصيل حياتها، فذات ليلة أخبرتني في أحد اتصالاتها بأن مزاجها وصل إلى نسبة 0%.. وحين سألتها عن السبب قالت حين تأتيها الدورة الشهرية تكون هكذا، فطلبت منها أن تأخذ مسكنات، لكني كنت أخمن أن هذا ليس السبب الوحيد، فربما الأمور لها علاقة بالاتصال الذي جاءها عندما كانت معي في المطعم في أول يوم لقائنا، وهي تود أن تبوح بشيء ما لأنه يثقل عليها، لكنها لا تعرف أن تقوله مباشرة، لذا سألتها بطريقة مباشرة عمّا بها، صمتت قليلًا حتى ظننت أنها تركت الهاتف وذهبت إلى مكان ما أو دخل عليها أحد، لكن بعد لحظات جاء صوتها راويًا لي بقية حكايتها، إذ قالت لي: «أنا أثق بك. صحيح أنا لا أعرف عنك الكثير، لكن ما عرفته إلى الآن يدفعني إلى أن أمنحك ثقتي، مع علمي بأنك شخص غامض، لكنك طيب. وجهك، نظراتك، نبرة صوتك الدافئة تمنح الآخر ارتياحًا وشعورًا بالثقة والأمان، لذا سأفضفض لك، وأرجوك ألّا

تحكم عليّ فأنا أعرف نفسي متهورة، لكنني تائهة وأحس أنني بحاجة لمن يرشدني، لكن..» وصمتت مرة أخرى للحظات فقاطعتها بلهفة لأعرف المزيد، قائلًا: «أخبريني.. فضفضي». وعاد الصمت مرة أخرى وكأنها انتبهت للهفتي فأرادتْ ربما أن تثير اهتمامي أكثر، لكنها واصلت مع ذلك قائلة: «لقد رويت لك شيئًا عن تصرفاتي المتهورة حينما كنت في السادسة عشر وعن علاقتي بحبيبي الأول، إذ لم أعد مثابرة على الدراسة، ووقعت في عدة مشاكل بعد أن سمعتني والدتي أتكلم معه عبر الهاتف النقال وحينما تفاجأت أنني أمتلك هاتفا، فأخذته منى بالقوة و كسرته أمامي، لكنني المتهورة اشتريت هاتفا آخر، وطبعًا سرقت المال من والدي. لكن حبيبي تركني، وأنا لم أعد أهتم له، إذ تعرفت على شاب جديد، لكن لم أحبه كحبيبي الأول. لا أدري إن كانت أمي قد أخبرت أبي عن قصة التلفون أم لا، إذ أنه نقلني من مدرستي إلى ثانوية أخرى كي يبعدني عن صديقاتي لأنه لم يكن يحب احتكاكي بالفتيات وهن حسب رأيه ساقطات ولا يصلحن لشيء. لم أتقبل تغيير مدرستي، وكان وضعي النفسي سيئًا، وكنت أهرب من المدرسة لأزور صديقة لي من مدرستي السابقة، لذا فقد رسبتُ في الدراسة، وكان هذا كارثة بالنسبة لي، لأنني كنت ذكية ولم أتوقع يومًا رسوبي في الدراسة. في البيت وبّخني والدي أمّا أمي فقد بكتْ بحرقة. والدي لم يضربني لكنه عزم القرار بفصلي نهائيا عن الدراسة. لم أتألم لقراره بقدر ما تألمت لألم أمي نتيجة رسوبي وقرار أبي. حينها كانت العطلة الصيفية، واقترب موعد الدخول السنوي الجديد، بينما أبي لم يغير رأيه. كنت أتألم لرؤية بنات الجيران من النافذة يرتدين مآزرهن متوجهات للمدرسة. لم ينقذني سوى حضور جدتي التي سمعت بالخبر فجاءت لتطلب من والدي الصفح عني، مؤكدة له بأنني ذكية وأنني سأكون ذات شأن يوما ما، وطبعا لم يستمع لرجائها، فبكت جدتي لقسوة ابنها. ومع أن أبي يحب أمه كثيرًا ويحترمها لكنه لم يستجب لرجائها إلا بعد أسبوعين من التوسل، ليس هذا فحسب وإنما إدارة مدرستي بعد أن سمعوا برسوبي طلبوا من والدي بحكم مركزه الوظيفي الكبير إعادتي لمدرستي الأولى لأن نسبة النجاح فيها عالية، فاقتنع برأيهم، وهكذا عدت إلى صفي. وعادت مشاعري الاولى إزاء حبيبي الأول، خاصة بعد اتصاله بي والسؤال عني، طبعا أنا فرحت جدًا لكن فرحتي تلاشت حينما كاشفتي بأنه محتاج للمال، وطلب مبلغًا كبيرًا، فقمت مرة أخرى بسرقة والدي وإعطائه مبلغا أقل مما طلب، لكنه لم يتضايق إذ قال إن هذا المبلغ يفي بالغرض، وكالعادة بعد أسبوع انسحب ولم يعد يردّ على مكالماتي لأكتشف أن لديه حبيبته المتيم بها، وإمعانا بإذلال

نفسي ومعاقبتها على تصرفاتي المتهورة، ذهبت والتقيت بحبيبة حبيبي، وتحدثت معها مدّعية بأنني من عائلته، وأخبرتها بأنه يحبّها كثيرًا. طبعا تألمت كثيرًا، لكن أعجبني تهوري واتخاذي موقف الملاك المنقذ والمضحي!، لعبت دور العاشقة الرومانسية المضحية بحبها من أجل سعادة حبيبها!. وفي ختام ذلك اللقاء تمنيت لهما حياة سعيدة، لكن ما إن صرت لوحدي حتى وجدتني أنهار باكية من شعوري بالذل والخسران. أما في ما يخص حبيبي الجديد، فقد كان ثريا جدًا، وكنت أحسه صديقًا لا أكثر، لكن هذا لم يمنعني من تقبيله داخل سيارته. ومع أنه كان وسيمًا بيد أني لم أحبه كثيرًا، لأني اكتشفت أن علاقتي معه كانت دليلًا على أني كنت أهرب من نفسي، بينما هو كان يحب التحدّث معي لأن حواراتي كانت مسلّية له، وكان يحب التسلية والمزاح معي، بيد أن علاقتي معه ساعدتني على التركيز على دراستي، فتقدمت على بقية الطالبات وانتقلت إلى مرحلة البكالوريا. لم أهمل دراستي لأنني وعدتُ والدي أن أكون مجتهدة، وأردت أن أكسب الرهان، لأنه كان يقلل من قدراتي و يستهزأ بي أمام أخواتي وأمي، ويراني غبية لا أصلح لشيء، بل كان يعاملني بخفة واستهزاء على عكس تعامله مع أختيّ، فقد نصحهما بالتسجيل في الشعبة العلمية بينما فرض عليّ التسجيل في شعبة الأدب والفلسفة، وكان هذا ينسجم مع تفكيره لأنه كان يقلل من شأن الأدب، ويعتبر من يدرس في شعبة الأدب من الأغبياء والحمقى، وقد آلمني تعامله معي بهذه الطريقة، ومع ذلك أحبّ أبي جدًا، لكن قبل فترة امتحانات البكلوريا عدت لحبيبي الأول ولا أذكر كيف حدث ذلك، المهم عدتُ إليه. أنا أعرف أنني هوائية ومتقلبة ومتهورة، وهذا اللقب يليق بي حقًا، فقد صادف أن والدي سافر إلى خارج البلاد بمهمة عمل له، وفي عطلة نهاية الأسبوع وقبل اجتياز امتحان البكالوريا، اقترح حبيبي أن يزورني ليلًا في بيتنا، متحججا برفع معنوياتي قبل هذا الامتحان المصيري. رفضت في بداية الأمر ثم تراجعت فوافقت. المهم عصر ذلك اليوم الموعود ذهبت إلى السوبر ماركت، فاقتنيت بعض العصائر و الشكولا كضيافة مني لمقدومه، أخذت حمّامًا حلقت خلاله شعر جسمي وعانتي وتهيأت له، وهكذا كنت في كامل أنوثتي. لبست تنورة قصيرة. وضعت المساحيق و العطر الفرنسي. كنت أبدو جميلة. وبقيت انتظر قدومه بفارغ الصبر. ربما لم أوضح بأن في بيتنا طابقان، واحد سفلي وآخر علوي، عائلتي وغرفتي في الطابق العلوي، لكني بقيت في الطابق الأرضي بحجة الدراسة مدعية بأن الجو في الطابق الأسفل أكثر هدوءا.

فجأة علق آدم الأكويني وهو ينظر إلى صديقه برقة وفتور قائلًا:

- أتعرف أيها الغوريلا. الآن عرفت وجهك الآخر. فلم أتصور أنك عاطفي إلى هذه الدرجة، وأن هذا الغوريلا المفكّر، صديقي، يستمع لمغامرات ساذجة لمراهقة تروي عن تجاربها..!.

نظر آدم الغوريلا إليه بحزن وقال:

- أنت محق أيها الأكويني.. لكنّك تنسى تفاصيل رواية «لوليتا» لنابوكوف، وكيف أن الأستاذ الجامعي همبرت همبرت كان مهووسا بالفتاة دولوريس لوليتا البالغة من العمر إثنا عشر عامًا، وليس كما عندي، ففتاتي بالغة الرشد في الرابعة والعشرين من العمر، إلى جانب أن لوليتا كانت كتلة من الأكاذيب، بينما حواء المتهورة إنسانة صادقة في كلِّ بوّحها، فلماذا مجّدت البشرية تلك الرواية وتفهّمت زنا المحارم فيها، وكُتبت آلاف الدراسات عن رواية لوليتا وحولت لعدد من الأفلام، بينما أنت تجد علاقتي بالمتهورة والاستماع لها شيئًا مبتذلا ولا يستحق الذكر!. يا صديقي الحياة ليست قصصا درامية استثنائية دائما، وحوارًا فكريا وفلسفيا عميقًا، وإنما الحياة موجودة في أبسط التفاصيل وربما في أشدها عادية وابتذالا وتفاهة، الحياة هنا وهناك هي الحياة ذاتها، لكنها في إحداها حياة حقيقية ووجودا أصيلا وفي الأخرى حياة أو وجودًا مزيفًا كما يقول هايدغر..!

شعر آدم الأكويني بالحرج، فقد كان آدم الغوريلا محقًا، وحاضر البديهة في الرد عليه، ولكي يداري حرجه، ويطيب من خاطر صديقه ا قال له:

- أنت محق. الحياة تتجلى في اللامتناهي في الصغر وفي اللامتناهي في السعة والكبر. الحياة تتجلى في الورقة وهي تسقط عن الشجرة مثلما تتجلى في انفجار الشموس، وموت النجوم. كلها تشكل نبرة خافتة أو صاخبة في إيقاع الوجود. أعتذر إن كنت لم أستطع التعبير عن نفسي بشكل صحيح. أنت محق. حتى أني فكّرت قبل قليل أن أسألك إن كنت تود أن أكتب عنكما وأدخلكما في متاهتي الجديدة..!

صمت آدم الغوريلا، ولم يعلق على اعتذار صديقه مباشرة، بل إستاء من إحراجه لصديقه الأكويني، فهو يعرف حساسيته، ويحبّه، ولم يكن يود أن يحرجه، وها هو يسمع اقتراحه بزجه مع المتهورة في المتاهات، فقال له:

- أنت لم تسمع حكايتها بعد ولا حكايتي معها يا صديقي، فربما لا تروق وتنسجم مع متاهاتك..!

- إذن.. ها أنا أصغي لك..! أجاب الأكويني.

- روت لي المتهورة قائلة: «في الساعة الواحدة ليلًا جاء حبيبي. فتحتُ له الباب خلسة طبعا، وأدخلته إلى الصالون، وتبادلنا القُبل، وأخذته إلى الغرفة التي أدرس فيها، وهناك مارست الجنس لأول مرة في حياتي، علما كانت ملامسات فوقية، ولم يتجرأ على أن يولجه فيّ.. أحببت الجنس كثيرًا، وبقينا إلى الخامسة فجرًا، إذ تعبت ولم أعد أقوى على المواصلة، كما خفت أن تستيقظ أمي إلى الصلاة، فطلبت منه المغادرة. مرّ الأمر بسلام ولم ينتبه أحد من أهلي. وبعد فترة طلب حبيبي أن يعاود المجيء إليّ مرة أخرى، لكني كنت خائفة هذه المرة، لأنه لا يمكنني البقاء في الطابق الأسفل بحجة المراجعة للبكالوريا، فقد انتهت الامتحانات، لكنني متهورة وشبقة مثل كلبة، على الرغم من رزانتي وتحفظي وحجابي، لذا تشجعت، وتحممت، ونظفت جسدي من الشعر، واستلقيت، منتظرة حلول الليل ونوم عائلتي، لكن إحساسًا باللاطمأنينة كان يجتاحني، فقد كنت خائفة من شيء مجهول لا أعرفه. لا أدري كيف غرقتُ في نوم مؤقت، إلى أن أيقظني اتصال هاتفي من حبيبي قبل منتصف الليل بقليل، فنهضت مسرعة و نسيت أن أتفقّد وضع عائلتي. نزلتُ مسرعة، فتحت له الباب، ثم صعدتُ لأرى أهلي إن كانوا نائمين. اطمأن قلبي، فنزلتُ إليه، وأخذني بالأحضان مقبّلًا بلهفة، إلّا أنه من حسن حظي لم نبادر مباشرة إلى التعري وممارسة الجنس. وبينما كنا نتحدث عن علاقتنا وذكرياتنا. فجأة، سمعتُ حركة غير عادية تأتي من الدرج، فقلت له: «سينكشف أمرنا» فضحك مستهزءًا وقال: «لا تخافي لن يحصل أي شيء»، لكن حدث ما كنت خائفة منه وغير مطمئنة له، إذ نزلت أختي الكبرى إلى الطابق السفلي، فلمحتْ رتاج الباب الخارجي مفتوحًا، فسارعتْ بإخبار أمي، وبينما أنا كنت منهمكة في خلاصي من هذه الكارثة التي ستحل بي، انكشف الأمر بسرعة فائقة، فقد اختبأ حبيبي وراء سبورة كبيرة الحجم كانت لأختي تعتمد عليها لأنها كانت تقدم دروسا خصوصية في المنزل، وحينها دخلت أمي عليّ وسألتني ما الذي أفعله في هذا الوقت المتأخر وحدي، وفي تلك الأثناء تشممت أختي رائحة سيجارة لأن حبيبي كان مدمنًا على السجائر، وكان قد دخن سيجارة حينما كنا نتحدث، فانكشف أمري ووجدت نفسي في ورطة، فما العمل؟ خرج حبيبي بسرعة من وراء السبورة وهرب خارج المنزل، بينما أنا كنت بين الأقدام أُركل وأُضرب بقوة من قبل أمي وأختي.. شتمتاني بأقبح الكلمات، وصفتاني بالعهر والفجور وأنني لا أستحق كل ما تفعله أمي من أجلي!! لم أجبهما، ولم أرد، ولم

أتوجع. كنت متصلبة كخشبة، وأنظر في اللامكان. وبدون كلمات كبيرة لوصف المشهد كانت ليلة مأساوية بالنسبة لي. لم أنم الليل كله، كنت منهمكة في التفكير، ماذا سأفعل؟ أين المفرّ؟ لو وصل الخبر لوالدي فربما سيذبحني. وفي ساعات الفجر المتأخرة لا أعرف كيف غفوت. إلّا أني أستيقظت على ركلات أمي لتوقظني، فقد استدعتني إلى غرفتها، وطلبت مني الاعتراف لها والبوح باسم الشاب وماذا فعلت معه، وطبعا صارحتها بأنه أخو زوج عمتي، فندبت وجهها وصفعتني وبصقت في وجهي، وصرخت بي موبخة بأني جلبت لهم العار، إذ كيف أنني أقمت علاقة مع شاب من الأقرباء، فهذا الأمر فضيحة لو تسرّب، وطلبت مني رقم هاتفه لتتصل به وتطلب منه أن يأتي لخطبتي، وبالفعل اتصلت به لكنه تنكر للأمر ولم يقف معي كما كنت أتوقع، فقد ظننت أنه يحبني وأنه لن يتركني، لاسيما وهو يعلم تشدد عائلتي، أما أمي فطلبت مني بعد ساعات أن ألبس عبائتي لأذهب معها إلى طبيبة النساء لتتأكد من عذريتي، وذهبت معها. كنت متأكدة من عذريتي، لم أَخَفْ مطلقًا من ذهابي للطبيبة، لكنني شعرت بالخوف بمجرد صعودي لكرسي الفحص، حينها أحسست بجرم وهول ما قمت به، وبالموقف الذي وضعت نفسي فيه بسبب تهوري وحماقتي وضعفي أمام شهوتي، وعنادي الذي كثيرا ما يقودني إلى ما لا يُحمد عقباه، بينما حبيبي النذل ذهب لرحلة مع أصدقائه إلى مدينة أخرى، ولم يكترث لأمري، ومن حينها وعدت نفسي ألّا أبحث عنه، وأن أتحمل مسؤولية حماقتي كاملة.

- يا للمسكينة!!. تمتم آدم الأكويني.

لم يعلّق الغوريلا على ذلك وإنما واصل:

- عادت المسكينة، كما وصفتها، من عيادة الطبيبة النسائية إلى البيت يائسة حزينة، وراودتها مشاعر بلا جدوى حياتها، إذ لم يعد أحد في البيت يتحدث معها، وإذا ما خاطبها أحدهم فبشتيمة قاسية، بل لم يعد أحد يدعوها لتناول وجبات الطعام، بل وكانت تقوم بأشغال البيت دون أن تنطق كلمة واحدة، لا أحد يكترث لها، ووجدت نفسها في ورطة تجهل كيفية الخلاص منها. كانت تصلي إلى الله كي ينقذها من هذه الورطة، وجاء الخلاص من خلال إعلان نتائج امتحانات البكالوريا في التلفزيون، لكن قبل إعلان اسمها كانت تسمع أختها تقول لأمها: «لا تنتظري نجاحها، فالبكالوريا ليست للعاهرات»، ومع ذلك، أُعلن خبر نجاحها. حينها وقعتْ هي أرضًا باكية، إلى أن انحنت أمها عليها

لتحضنها وتبكي معها، وتحسنّ وضعها قليلًا في البيت، وكسبتْ الرهان أمام والدها الذي كان يائسا منها. وحين اقترب موعد الدخول إلى الجامعة أبدت الأم عدم رضاها من مواصلتها للدراسة، لكن والدها فرض عليها دراسة الأدب، بينما كانت هي تود دراسة التاريخ أو الفلسفة، وبدأ صراعها مع أبيها، لكنها لم تستطع أن تعارضه، وذهبت الى الجامعة مكرهة، وهناك في الجامعة لم تتقرب من أية طالبة، وكما قالت فهي لم تحب طالبات كلية الآداب، كانت تراهنَّ محافظات، متزمتات، قبيحات جدًا، ووجدت نفسها تقرأ الشعر الجاهلي مكرهة، فهي لا تحب الشعر كثيرًا، عزاؤها أن ذهابها إلى الجامعة كان أفضل حال من جلوسها في البيت والاستماع لشتائم أمها وأختها، لكنها روتْ كيف عاشت حصارًا إقتصاديا من قبل والديها، بل إنهم لم يشتروا لها ملابس جديدة كأية طالبة جامعية. كانت تكره تخصصها الجامعي لذا كانت تغيب عن المحاضرات، ولم تأبه لشيء، كانت تشعر بالوحدة والعزلة، وكانت تفتقد الحنان العائلي، وتبحث عن أي رجل يتباهّاها، وعن حبيب تشعر معه بأنها أنثى، كانت تحتاج لرجل يفهمها دونما كلام، ويشعر بكل ما تعانيه، ويهتم بها..!.

قاطعه آدم الأكويني بنبرة هادئة وكأنه يفسّر طبيعة العلاقة وسر تعلقها به وانجذابها إليه قائلا:

- ربما وجدتك فيك الأب والعشيق والحبيب..!؟

- ربما.. ليس هذا ببعيد.! بالمناسبة هي تحب الموسيقى، ولديها موهبة غنائية، وصوتها رقيق، فذات مرة أرسلت لي رسالة صوتية وهي تغني لي.

- طيب وماذا حصل لها في حياتها الجامعية..؟

- حكت لي بأن حبيبها الأول أخذ يبحث عنها في أروقة الجامعة لكنها تجاهلته، وأخبرتني أيضًا بأنها تعرّفت على الكثير من الرجال عبر وسائل الاتصال الاجتماعي (الفيسوك) و(السكايب) وأقامت معهم علاقات جنسية صوتية وكتابة، لكنها كانت تلهو وتهرب من نفسها لذلك، كانت تريد الفرار حسب تعبيرها، ولم تتعلق سوى بشخص واحد، لكنها كانت علاقة عابرة أيضًا لأنه صارحها بعدم رغبته في مواصلة العلاقة، وتألمت لفراقه. المهم، بعد علاقات عديدة تمنّت لو واحد من هؤلاء كان يريدها فعلًا ومخلص لها، لكنها لم تجد أحدًا على الرغم من أنها كانت تخضع لطلباتهم بل هي تبادر بإرسال صورها لهم،

وفي لا وعيها كانت تجذبهم إليها عن طريق إرسال صورها العارية، إلا أن جميع هذه العلاقات وصلت إلى طريق مسدود، فانزوت داخل نفسها. هي معقّدة ومزاجيّة ومتقلّبة. فكما اعترفت لي بأنها أحيانا تكون في قمة الشبق وأحيانا لا تطيق حتى قبلة بسيطة وبريئة، لكنها دومًا تفتقد الحنان العاطفي والاهتمام الأبوي الدافئ بها وبمشاعرها. هي تعترف بأن علاقتها بوالدها سيئة، وتحس أنه يكرهها ولا يطيق رؤيتها، وهي تفسّر الأمر بأنها البنت الثانية، بعد أختها، فحين ولدت كرهها لأنه انتظر مولودًا ذكرًا، وحينما ولدت أمها للمرة الثالثة بنتًا وصل الأمر إلى الطلاق لولا تدخل الجدّة. وكما عبّرت لا تطيق النظر إلى والدها، لأنه كان يضربها ويوبخها على أبسط التصرفات البريئة! لكنها بعد شكواها منه تقول إنها تحبه جدًا. أما عن علاقاتها العاطفية، فكما أخبرتني، أنها بعد سنوات من الانزواء، والتخرج من الجامعة، تعرّفت على شاب في دكان للحلويات، لم تعره في البداية اهتماما، لكن إلحاحه وتواصله معها أوقعها في الحب مرة أخرى. أعجبت به لأنه في رأيها كان مثقفًا و يحفظ بعض المعلقات، يحب التاريخ الإسلامي ويحبها أيضًا. كان يعمل شرطيا ويدرس في الوقت نفسه. استمرت العلاقة بينهما لستة أشهر، لكنه كالآخرين هجرها بعد أن شبع منها جنسا بالهاتف والسكايب، وفي النهاية تنصل من وعود بالزواج التي سخى بها في البداية، وكما أخبرتني فإن صدمتها به كانت عنيفة، وصفعة فاقت بعدها على نفسها، وعلى ابتذالها لجسدها، وهو السبب الرئيسي في ابتعادها عن العلاقات مع الرجال، لكنها مع ذلك تؤكد حاجتها إلى الحب والحنان والاهتمام والأمان. فبعد هذه العلاقة انتابها الحزن واليأس ولا جدوى الحياة، وقررت مع نفسها الهجرة من البلاد والزواج بأجنبي لتهاجر معه إلى أوروبا، بل وجدت في نفسها القوة بأن ترفض محاولات عشّاقها الذين ربما حينما يحتاجون للجنس في آخر الليل ولا يجدون واحدة يلهون معها فإنهم يتّصلون بها، فصارت لا تستجيب لمحاولاتهم، حتى هذا الحبيب الشرطي، فقد أرسل لها بعد ستة أشهر صورًا، واتصل بها فلم تستجب، لأن مشاعرها نحوه ماتت كما قالت، لكنها بعد شهر من محاولته الأخيرة اختفى، فصارت هي التي تبحث عن أية وسيلة للاتصال به، ولم تجد سوى الاتصال بصديق له، وبالفعل أخبرها الصديق بأنه في السجن بتهمة الانحياز للإسلاميين المتطرفين، وأنه تحت الرقابة الأمنية، إذ انتبهت الجهات الأمنية إلى أنه غالبا ما كان يشاهد مقاطع فيديو للتنظيمات الإسلامية، لكن الغريب أنها اعترفت لي بأنها صارت تحبه بعد سجنه، بل لقد أرسلت له رسالة وهو في السجن، وعدته فيها بأنها ستنتظره، لكنها تراجعت عن كل شيء لأنها

بذكائها اخترقت حسابه وقرأت كمًا من رسائله مع فتيات أخريات، لاسيما أنه أحب فتاة وهي شرطية مثله بجنون، وعادت إلى ذهنها ما قررته بالهجرة من البلاد والزواج من أجنبي، وبالفعل فقد وجدت لها أمها عبر أختها في باريس شابًّا فرنسيًا عربي الأبوين، مرّ بقاع المجتمع الفرنسي من مخدرات وما شابه، لكنه تحول إلى إسلامي ويريد الزواج من مسلمة تربت في مجتمع إسلامي، وبدأ التواصل بينهما.

قاطعه آدم الأكويني قائلا وهو منبهر بهذا التوصيف لشخصية حواء المتهورة من قبل صديقة:

- أتعرف ياصديقي الغوريلا. فتاتك المتهورة هذه تشبه شخصية «حواء السواد» في «متاهة العميان»، قصتاهما تكاد تكون متشابهة، وقد رويتُ حكايتها وبوحها في تلك المتاهة.

فجأة انتبه آدم الغوريلا وارتسمت ملامح الدهشة على وجهه وقال:

- صحيح.. أتعرف حين كانت حواء المتهورة تروي لي حكايتها أحسست وكأنني أسمع صدى لحكاية قديمة أعرفها، وربما لم أستجمع كل التفاصيل لأتذكر حكاية شخصيتك الروائية حوّاء السواد في «متاهة العميان»، لأن فتاتي المتهورة لم ترو لي حكايتها دفعة واحدة، وإنما روتها كما في قصص ألف ليلة وليلة، حكايات متقطعة على مدى ليالي متعددة. الآن أنت ذكرتني ببوح حوّاء السواد، الحمامة الشبقة، لكنك لم تكمل حكايتها في الرواية، وظننتك ستعود إليها لكنك لم تفعل!.

أحس آدم الأكويني بما يشبه الصدمة، لأنه ذكّره بأنه لم يكمل حكايتها فعلًا، وأنه تجنب ذلك عمدًا، من حيث أنه يعرف الفتاة التي هي في الواقع «حواء السواد» وما جرى معها، وأنه لو كتب عما جرى بعد حكايتها في «متاهة العميان» فأنه سيشوه الصورة الرقيقة التي ربّما تشكلت عنها باعتبارها إنسانة صادقة مع نفسها، مرت بالجحيم، وتطهرت منه، لأنها في الواقع ليست كذلك، بل تكشف أنها تعيش في متاهة وتسير إلى هاويتها مفتوحة العينين، لأنها في الواقع مزيفة ومخادعة، لاسيما في علاقتها الأخيرة مع رجل بعمر والدها. وفجأة انتبه هو أيضا إلى الشبه الكبير بين حوّاء السواد وبين حوّاء المتهورة، وارتبك في أن يروي للغوريلا حكايتها الحقيقية، والتي ستزيد من قلقه وإحباطه وشكوكه في علاقته مع حوّاء المتهورة.

انتبه آدم الغوريلا إلى أن صديقه الأكويني في حيرة، فلم يترك له فرصة للتراجع فقال له:

- ما الذي جرى لها في الواقع ولم تكتبه في الرواية؟

نظر إليه الأكويني متأملا قليلا ثم قال بعد لحظات:

- أنت لم تكمل حكايتك مع هذه المتهورة، لأني أراك غاضبًا ومحبطًا. احك لي وسأخبرك بحقيقة ما جرى مع حواء السواد..

صمت الغوريلا للحظات، وانتبه إلى أنه فعلا لم ينه حكايته مع حوّاء المتهورة وكيف تطورت علاقتهما، فقال بنبرة فيها بعض الفتور:

- ذات ظهيرة يوم صيفي، كانت الريح شديدة، وكنت أضع قبعة على رأسي اتقاء الشمس المنتصبة. كانت ريح سموم مليئة بالأتربة، وكنت أمشي في الشارع وبيدي منديل أمسح فيه العرق عن وجهي، طارت قبعتي، فأخذت أهرول خلفها، وكانت تستقر للحظات، وحين اقترب منها تطير متدحرجة ومبتعدة مرة أخرى. كانت القبعة وكأنها كائن عاقل يسخر مني. الناس المارة كانوا يبتسمون وهم يرونني أهرول وراء القبعة الساخرة، علما أن بعضهم رفعت الريح ثيابه إلى الأعلى وأجبرته على الانحناء ليغطي ما ظهر منه، لكني حين قبضت على القبعة بعد جهد، ورجعت مواصلًا طريقي لم أضع القبعة على رأسي وإنما مسكتها بقبضتي بشدة وكأني أريد معاقبتها، ولا أدري لماذا حنقت على المارة الذين كانوا يبتسمون وهم يرونني بذاك الوضع المضحك..!.

- طيب.. ما علاقته هذا المشهد بقصتك مع حوّاء المتهورة؟ سأل الأكويني صديقه بهدوء.

- لا علاقة له، ولا أدري لماذا انبثق هذا المشهد فجأة في ذهني!؟ يحدث لي أحيانا أن أفكر بأشياء غير مترابطة تنبثق في ذهني دون أن أستدعيها، فمثلا أفكر أحيانًا وبشكل لا إرادي بأن المدينة مليئة بالأطباء، لكنها مليئة بالمرضى أكثر! أية مهزلة هذه، وكأن الأطباء مهمتهم إدامة الأمراض والحرص على استمرارها، وليس معالجتها والقضاء عليها، أو كأن الناس يتمارضون ويتعاطفون مع أنفسهم كمرضى..!.

- لماذا تطرح أحيانا أسئلة أنت تعرف إجابتها مسبقًا!؟ سأله آدم الأكويني مازحًا.

- هذا صحيح.. يحدث ذلك أحيانا، وأفعل ذلك كي أجنب نفسي إطلاق الأحكام من عندي وإنما أريد سماعها من غيري..!

- طيب وماذا عن حواء المتهورة؟ بدأت تثير فضولي بصمتك عن سرد حكايتها..!

ابتسم آدم الغوريلا ابتسامة شاحبة يائسة وقال:

- مرعب أن تسير في علاقة كل طرف غير واثق من مشاعره فيها، وغير واثق من مشاعر الآخر أيضا بل ويشك فيها، ومع ذلك يمضي كلاهما في هذه العلاقة، وكل منهما ينظر إلى ما وراء الآخر. ينظر إلى النهاية، ولا يثق كل منهما بأية كلمة تصدر من الآخر!. لماذ يجد البشر أنفسهم عالقين في علاقات يتمنون الفكاك منها، لكنهم يعجزون عن ذلك، ويستمرون فيها برضاهم.

- إذن لماذا تمضي فيها! مع أني أعتقد في مثل هذه الحالة أن وعيك لطبيعة هذه العلاقة يمنحك بعض الراحة! علّق الأكويني.

- الراحة..؟ أية راحة؟

قاطعه الغوريلا مستغربًا وواصل بنبرة يائسة:

- إنها راحة تشبه راحة الذي ينتظر حكمًا بالإعدام لكنه يسمع القاضي ينطق بالحكم المؤبد وليس الإعدام. راحة مثل هذه!

- ومع ذلك لم ترو لي ماذا حدث..!

صمت الغوريلا للحظات، ثم قال:

- أتذكر قصة، أو رواية قصيرة، لأنطون تشيخوف عن ذلك الرجل المسكوفي الثري، الذي كان على مشارف الأربعين، والذي زار أخته المريضة في مدينة صغيرة جدًا بالأقاليم، وهناك اجتاحته مشاعر عاطفية نحو فتاة في العشرين، فتاة لا تحبه ولم تفكر به أصلًا، بل لم يعجبها شكله قط، ووجد نفسه منجذبا إليها بطريقة رقيقة، فظن أنها حلم حياته، ففاتحها بطلب يدها للزواج، وفوجئت الفتاة من الطلب، فرضت مستنّكرة في البداية هذا الطلب، لكنها عادت فقبلت، بيد أن

الغريب أن هذا الرجل الأربعيني، في اللحظة التي أعلنت الفتاة موافقتها على طلبه، أدرك لحظتها أن موافقتها ليست نابعة من الحب، بل من حسابات الربح والخسارة، ومن الملل في حياتها، ومن الرغبة في مغادرة بيت والدها والسفر إلى موسكو، لذا أيقن الرجل المسكوفي الثري أن موافقتها مليئة بالزيف، فأحس في تلك اللحظة برغبة في البكاء، وفي الهروب من الموقف، ليرحل على الفور راجعا إلى موسكو، لكنها في تلك اللحظة كانت واقفة أمامه ومرتبكة، وقريبة منه جدًا، بينما كان هو عاجزا عن اتخاذ أي قرار حاسم، حتى أنه لم يستطع السيطرة على نفسه، وفجأة، ومن حراجة موقفه وإدراكه بأن الأوان قد فات على التراجع، فلم يجد أمامه سوى أن يضمها إلى أحضانه ويقبلها. وفي تلك اللحظات بالذات، ندم كل منهما على موافقته بالزواج، وسأل كل منهما نفسه: «لماذا حدث كل هذا»؟؟ لكن لحظتها شعر كلاهما بأنه لا مجال للتراجع، وحينما سافرا بعد طقوس الزواج في كنيسة تلك المدينة الصغيرة، وأخذا مقصورة خاصة في القطار، جلسا في وضعين متقابلين، كلاهما كان يشعر بالتعاسة والقلق من المجهول، وهو يقول لنفسه: «ما الذي فعلت بنفسي»!؟ هكذا ربما كانت المتهورة تعيش علاقاتها.

استمع آدم الأكويني بمتعة إلى هذا الحضور الذهني الوقّاد لدى صديقه وسرده لهذه الحكاية التشيخوفية، فعلّق على ذلك قائلا:

- ربما حواء المتهورة كما قلت أنت إنها طيبة، ولكنها أيضا كما قلتَ ذكية! وربما هي مرتاحة وليست نادمة على علاقتها بك كما تعتقد.

- الطيبة والذكاء لا يكفيان لمنعنا وصدنا من اقتراف الحماقات..!

- نعم.. هذا صحيح.. وكأنك تتحدث عن حواء السواد أيضًا.

- في ما روته لي حواء المتهورة فإنها كانت صادقة في كل كلمة، لكن إلى أي حد كانت صادقة، وماذا أخفت من حكاياتها، هذا هو السؤال!. صحيح أنها تحدثت بصدق ولم تكذب لكن هذا جانب من الحقيقة التي أرادته هي أن أعرفه عنها، وربما أخفت أشياء أخرى لم تود أن أعرفها، المهم، ما رويته لك كان خلاصة لأحاديث واتصالات عديدة امتدت على مدى عدد من الليالي، وبعدما أحسّت أنها أطمئنت لي. وبما أنها كانت تتجنب المشي معي في الشارع، وتتحرج من جلوسها معي فكما أخبرتك قد دعوتها إلى شقتي، ولم تعارض. صحيح أنها في المرة الأولى كانت مرتبكة ومتوترة، لكننا طبخنا سوية وأكلنا.

وحاولت أن أجعلها تشرب شيئًا من النبيذ، وبصعوبة ارتشفت قليلا منه، رشفات غير مؤثرة، لكننا لم نفعل شيئًا حميمًا. وتكررت اللقاءات في شقتي. في المرة الثانية لم نفعل شيئا أيضًا سوى إعداد الشاي والطعام، ومع ذلك كنت أتوقع أنها تنتظر مبادرة مني. في المرة الثالثة حينما فتحتُ الباب لها، وحينما صارت داخل الشقة أخذتها في حضني برقة، وحينما أردت تقبيلها مالت برأسها مبتعدة من شفتي، فصارت شفتي على رقبتها، وتملّصت مني لكنها طوال الوقت كانت أليفة. في المرة الرابعة أخذتها بأحضاني وقبلتها من جبينها وحينما أرادت تحريك رأسها مبتعدة أمسكت بوجهها وقبلتها قبلة خفيفة من شفتيها، ولم تعترض، وحين غادرت في تلك المرة أخذتها عند الباب وقبلتها من شفتيها بحرارة شعرت فيها بقبولها وانتعاشها، بل وتحسست جسدها بذراعي في غمرة القبلة الحارة.. لكن في المرة الخامسة فاجأتها مختلقا مناسبة عيد ميلادي، شعرت المسكينة بعدم الارتياح لأنها لم تأت لي بهدية، لكني طمأنتها بأني لا أهتم لهذه المناسبة، وإنما أردت أن أحتفل بها معها، فأعددنا طعاما، أنا أعددت اللوبيا البيضاء مع الرز وهي أعدّتْ السلاطة، وكنت قد اشتريت تورتة لعيد ميلادي المزيف، وفتحتُ قنينة نبيذ فرنسي!. كان الوقت ظهرا، وكانت مرتاحة لي ومطمئنة. ولأني اختلقت مناسبة عيد الميلاد فقد اضطرت لشرب كأس النبيذ معي محتفيةً بتلك المناسبة. بعد مرور وقت قصير، تلمستْ هي خديها بكفيها وقالت: «لقد سخن خداي من النبيذ، يبدو إنني سكرت»، وضحكنا. ثم وضعتُ قرصًا مدمجًا لموسيقى رومانسية. كنا نشاهد التلفزيون، وكان برنامجًا عن عرض الأزياء والتجميل، فانتبهتْ هي له، وأثناء ذلك سكبت في كأسها الذي لم يكن فارغًا شيئًا من النبيذ، ورفعتُ نخبها. فرحتْ هي بذلك لكنها ارتبكت حين طلبت منها أن ترتشف رشفة كبيرة حتى تشعر بالاسترخاء، ابتسمت بارتباك وقالت هي تحتاج فعلًا إلى أن تسترخي قليلا. وارتشفت رشفة كبيرة. كنت أرى كيف تقاوم مرارة النبيذ المنعشة. حينما انتهتْ من جرعتها قالت باسمة: «يبدو أنني سكرت بشدة»، فقلت لها إن النبيذ لا يُسكر وإنما يُنعش الروح والجسد، لكن يبدو أن النبيذ أثّر فعلًا في جسدها الصغير، فمالت برأسها إلى الخلف متكئتة على حافة الصوفا. كنت لحظتها جالسًا إلى جنبها، فداعبتُ شعرها الجميل بكفي، وبالمناسبة هي في الشارع محجبة، لكن ما إن تدخل شقتي حتى تتخلص من حجابها ومن جلبابها. المهم لحظتها أزحت شعرها جانبا واقتربت من وجهها. كانت تنظر في وجهي وتركّز على عينيّ، فأمسكت بوجهها برقة وأطبقت على شفتيها بقبلة ناعمة ثم صارت حارة شيئًا فشيئًا، وكانت هي مسترخية.. فمددت كفي إلى

نهديها فلم تمانع. مصصت شفتيها، ثم لسانها، وغمرت وجهها بقبلاتي فأحاطتني بذراعيها. فجأة، وقفت ساحبًا إياها معي إلى غرفة النوم، فاستجابت دونما أية ممانعة. كانت خائفة قليلا لكنها غير ممانعة. وهناك أجلستها على حافة السرير، ومددت نصفها الأعلى حتى صارت مستلقية بالكامل على السرير، لكن نصفها الأسفل على حافته وساقيها تتدليان نحو الأرض خارجه.. (صمت الغوريلا للحظات وكأنه كان يستحضر المشهد ثم واصل..).. جلستُ مقرفصا أمام ساقيها. كانت هي تنظر للسقف مسترخية ومترقبة ماذا سيحدث. نزعت حذاءها بلطف، وبكفي داعبت بطة ساقيها، فأحسست بارتعاشتها قليلا، وبرقة بدأت أقبل بطتي ساقيها، وأتشممها، ورفعت ثوبها إلى سرتها، وشيئا فشيئا أخذتُ أصعد لأقبل باطن فخذيها وألحسهما. لم تكن تمانع لكنها ظلت صامتة. ساقاها جميلتان. انتبهت لثلاثة خطوط سود على أحد فخذيها. إثنان واضحان وبارزان وثالث غير واضح. تشممتها ككلب بوليسي. داعبتها. انتبهت لأنفاسها المكتومة بالشبق. بهدوء نزعت عنها سروالها الداخلي. لم تعارض وكأن ما يجري يرضيها ويمنحها المتعة! وفي تلك اللحظة بالذات رنّ هاتفها. فزّت وكأنها لم تكن هي التي تستلقي أمامي مفتوحة الساقين. قفزتْ عن السرير دون أن تعيرني انتباها. وأخذت سروالها وهي تتجه إلى الصالون. وعند باب غرفة النوم وقفت لحظة ولبست سروالها. في تلك اللحظات المفاجئة بالنسبة لي كنتُ مرتبكًا ومستغربًا، إذ سمعتها تتحدث مع الذي في الطرف الآخر بالفرنسية، ثم رأيتها وقد حملت حقيبتها الجلدية الصغيرة على كتفها وتستعد للمغادرة. أقبلت نحوي وكأن شيئا لم يكن، وقفت أمامي، احتضنتني وقالت: «لا عليك.. أعذرني.. عليّ الذهاب لأمر مهم.. سأحاول العودة هذا المساء، وإذا لم أستطع سآتيك غدًا وسأعوضك. أحس معك براحة كبيرة وطمأنينة». ودون أن تنتظر ردًا مني غادرت الشقة. لم أفهم تصرفها. رجعت للصالة، وجلست على الصوفا. سكبت في كأسي ما تبقّى من النبيذ في القنينة، وأخذتُ الكأس فارتشفت جرعة كبيرة، ولا أدري لِمَ ضحكت من نفسي في تلك اللحظات.. نعم.. كنت وحدي في الصالة لكني ضحكت بمرارة. لحظتها أدركتُ بأن المشهد قد تكشف أمامي، فلست أنا الرجل الذي دخل حياتها وتشعر أنها مرتبطة به. ووجدت نفسي بتأثير النبيذ أفسّر الأمر مع نفسي بأنها ربما كانت على علاقة قوية مع شخص ما وتقطعت أوصالها لكن ليس بالكامل، وهذه الاتصالات من بقايا تلك العلاقات، وأن ثمة شخص ما مهيمن على حياتها، إذ باتصال منه تترك المكان الذي هي فيه مهما كان لتلتحق به. وسخرتُ من نفسي وقلت لها: «عليك أن تصحو أيها الغوريلا العجوز،

فأنت رجل مسن بعمر أبيها، وعليك ألّا تأتمر بالسوء وتجعل من نفسك أضحوكة». لكن لافائدة، فقد صرت فضوليا لمعرفة كل علاقاتها.

- وهل عرفت؟ سأل آدم الأكويني.

صمت آدم الغوريلا وكأنه لا يريد الإجابة على سؤال صديقه، لكنه كان في وضع لا يمكنه ألا يجيب، فقال بنبرة مشوبة بغضب مكتوم:

- تقريبا.. ربما ليس بالكامل، لكني متأكد من أمر واحد هو أنها فتاة طيبة. ربما هي تكذب عليّ وتستغفلني أحيانا، وتعتقد أنني لا أعرف بأنها تكذب! أو لأقل على طريقة أحد آلهة الإغريق: قد لا أقول كل الحقيقة، لكني لا أكذب.

ارتسمت ابتسامة مُرّة على وجه الأكويني وقال:

- لا أريد أن أقول شيئًا قاطعا، لكن أنا الآن أخاف أن تُعاد معك حكاية حوّاء السواد على الرغم من اختلاف التفاصيل..!.

- كيف؟ سأل الغوريلا بفضول.

- في بحثي عن جوانب قصة حواء السواد الحقيقة لم أكتف بما روته هي لي، وإنما صار لدي الفضول لمعرفة أطراف أخرى من الحكاية، وخدمتني مصادفة غريبة جدًا. فقد كنت ذات يوم على موعد مع أستاذ جامعي زميل لي في الكافتريا نفسها التي تعود لصديقنا العربي، وحينما ذهبت إلى هناك في الوقت المحدّد تقريبا لم أجده، ومع ذلك جلست لأشرب القهوة، وإذا به يتصل ليخبرني بأنه سيتأخر لساعة أخرى وطلب مني انتظاره، فبقيت منتظرًا، لكني لمحت حول طاولة في الزاوية صديقًا كاتبا، آدم الأحمدي، لربما تعرفه، فدعاني لأشاركه طاولته. كنّا في الفسحة وسط الصيف حيث نراقب المارة على الجهتين.. المهم.. بعد حديث هنا وهناك عن الأدب والكتابة لمحتُ حوّاء السواد الحقيقية مقبلة ومعها رجل يكبرها في العمر. كانتْ بمواجهتنا، إذ أقبلت من جهة محطة قطار الأنفاق. لأول وهلة ظننت الرجل الذي معها والدها. نظرتْ هي نحونا وارتبكت جدًا لكن لثوان، إذ سرعان ما سيطرت على نفسها، وأومأت برأسها محيية دون أن ينتبه لها الرجل الذي معها، ثم أسرعت الخطى لتتوارى في الجهة الأخرى. أنا أومأت لها برأسي ردًا للتحية، لكني انتبهت إلى أن صديقي الكاتب أومأ لها وأشار لها بكفّه في إشارة سؤال: «أين أو إلى أين؟».. ففكرت

لحظتها أنها ربما أومأت له وليس لي، لكنه كما يبدو لمح هو نظرتي الخاصة المتلهفة لها، فسألني إن كنت أعرفها، فقلت له: «نعم. معرفة عامة»، وبدأت امتدحها باعتبارها مختلفة عن بنات جيلها، فهي فتاة جادة، تسعى إلى التحرر من القيود الاجتماعية، وتقرأ كثيرًا لأنها ترى في نفسها مشروع كاتبة، فارتسمت على وجهه ابتسامة هازئة، وقال لي إن فتيات هذا الجيل غريبات الأطوار، فما إن يقرأن رواية أو روايتين حتى يفكرن بأن يصبحن روائيات، ويقدّمن الكثير من التنازلات لكي يصلن، فأدركت أنه يعرف الوجه الآخر لها، يعرف ما لم تقله لي، فتلبّسني الفضول الروائي لمعرفة الجانب الآخر من الحكاية، فسألته: «يبدو تجربتك معها مرة، فكلامك يشي بذلك..»..

صمت آدم الأكويني وكأنه يريد أن يستجمع أطراف الحكاية، ثم واصل:

- أنت تعرف الروائي آدم الأحمدي معروف بمغامراته مع النساء، فسبق وأن عاش مع كاتبة معروفة تكتب نصوصا لا هي بالشعر ولا هي بالرواية، والحق يقال إنها أخذت بريقها من خلال علاقتها معه وارتباط اسمها به، إذ تزوجها لفترة قصيرة، لكن شهرتها الحقيقية كانت من خلال كتاب فضائحي نشرته عن علاقتهما، بينما انزوى هو عن الأنظار لمدة عامين أو أكثر. ويبدو أنه إلى الآن لم يتخل عن دون جوانيته، فقال لي عن حواء السواد، أقصد الفتاة الحقيقية، لكن بانكسار وحقد مكتوم: «هي لعوب مثقفة، أو مثقفة لعوب أو كلاهما!». فسألته بتعجب وفضول: «أنت تقول ذلك، وأنت المجرّب الخبير؟». نظر إلي بسخرية مبطنة وقال: «ولأني مجرّب وخبير أقول ذلك. أنت لا تعرفها. لا يغرنك طيبتها المصطنعة ولا البراءة التي تحاول تقمصها، فهي ثعبان أملس لكن لدغته مميتة!»، ثم حدثني عنها، فاكتشفت أنني ربما كتبت عن شخصية أخرى، فهذه تكاد تكون غريبة عن حوّاء السواد في روايتي. فقد عرفت منه أنها بحكم حبها للأدب والروايات ورغبتها في أن تكون مشهورة تواصلت مع مجموعة من المعجبات بأحد الكتاب المعروفين، لكن ذلك الكاتب كان على علاقة مع إحدى فتيات تلك المجموعة، وكانت هي تعرف ذلك جيدًا، ووجدت في نفسها الرغبة في التواصل مع كاتب آخر بعمر والدها وربما أكبر بسنة أو سنتين، وعشقته، أو هكذا أبدت له وأدّعت، بل ربما كانت صادقة أيضًا، فقد اختلطت الأشياء عند الكاتب آدم الأحمدي، فصار لا يعرف أي وجه هو وجهها الحقيقي. المهم، كان بين الفينة والأخرى ينفق عليها أشياء بسيطة ويحاول أن يجعلها سعيدة. كان هو يعرف أنها غير صادقة معه، لكنها كانت تؤكد له بأنها تريد أن تكون معه مثل أنايس

نن وهنري ميلر، علما أنها في بداية علاقتهما أخبرها عن فارق السن بينهما، لكنها أدعت أنها غير مهتمة بهذا الجانب، وأنها تريد من يفهمها ويساعدها ويحررها، لكنها كانت أكثر وقاحة من صديقتك حواء المتهورة!.

- كيف..؟ سأل آدم الغوريلا وكأنه وجد العزاء في الجملة الأخيرة.

انتبه للهفة صديقه في سماع الحكاية لأن فيها شخصية أكثر مخادعة وليست كحوّاء المتهورة، فقال مواصلا:

- طلبتْ من آدم الأحمدي أن ترافقه في أحد معارض الكتب التي تقام في بلد مجاور. وكان هو قد تكفّل بكل شيء من نفقات، كما طلب من ناشره أن يعمل لها دعوة رسمية كي يمكنها الحصول على تأشيرة دخول البلاد، وتم كل شيء، لكنها اشترطت أن يكون لها غرفتها في الفندق، ووافق، لكن هناك في البلد الجار تعرفت على شاب يكبرها بثلاث سنوات كان قد جاء من بلاد أخرى ممثلًا عن دار نشر في بلاده. في اليوم الأول كانت مع راعيها الكاتب آدم الأحمدي. تناولا فطور الصباح معا في مطعم قريب من الفندق، لكنها قالت له إنها تريد أن تكتشف المدينة الجديدة بنفسها، فلم يعترض فقد كان يعاملها بأبوية وكان يصدّق كلامها، ومرّ يومان لم يرها فيهما، وافتقدها ليلًا، فهو لم يلتقيها خلال يومين متتاليين سوى دقائق في كافتريا المعرض، بل إنها اتصلت به وقالت إنها ستذهب مع صديقة تعرّفت عليها في المعرض، وهي مهاجرة من بلد عربي آخر، وتعيش في البلد المجاور لاجئة، فلم يعترض بل وأعطاها مالا كي لا تُحرج عند الدفع، لكنه افتقد وجودها لليلتين متواصلتين، فاتصل بها من هاتف الغرفة فلم ترد من غرفتها، استغرب، نزل إلى الاستعلامات ليتأكد من وجودها في غرفتها، وهناك كانت المفاجأة، إذ قالت له موظفة الاستعلامات إنها لم تنم في غرفتها منذ ليلتين، وقد جاءت صباح الأمس الأول ومعها شاب وفتاة، صعدت لغرفتها وخرجت وقد غيّرت ملابسها ومعها كيس نايلون فيه قطع ملابس، وخرجت، ولم تعد من حينها. طبعا هو أدرك أنها تستغفله. وفي مساء الليلة التالية لسؤاله عنها، التقاها. قالت له إنها تكتشف المدينة وحدها. رافقته إلى مطعم قريب من الفندق، وأثناء تناولهما الطعام سألته ألا يتضايق منها لأنها لا تقضي الوقت معه، فقال لها إنه المسؤول عنها، وقد جاء بها سالمة وعليه أن يرجعها لبلادهما سالمة، فقالت له إنها محصورة في بلادهما وتشعر هنا بالحرية. هو انتبه إلى أنها صارت كائنا آخر، فهي ليست

تلك الفتاة التي كانت تعشقه بقوة وتتعلق به بشغف، هي الآن غريبة، مجرد سائحة صادفها في الطريق. بعد المطعم جلست معه في مقهى على الشارع العام، لكنها قالت له إنها اتفقت مع صديقتها أن تذهب معها إلى مقهى قريب، وشاءت الصدف أن تأتي الصديقة، فنهضت قائلة له إن عليها الذهاب، فنهض أيضا ليتجه إلى الفندق، لكنه أثناء عبوره الشارع رأى سيارة واقفة وتضيء بإشارة التوقف والإنذار، وحينما تمعن فيها رأى الشاب الذي تعرّفت عليه وكان مع شاب آخر صديق الفتاة اللاجئة، وكان قد تعرّف عليه خلال المعرض. وحين التفت رآها على الرصيف المقابل للسيارة مرتبكة مع صديقتها، ولا تعرفان كيف تتجهان إلى السيارة لتنطلق بهما، فاتصل بها هاتفيا وأخبرها بغضب بأن عليها أن تتجه إلى السيارة ولا تمارس هذه اللعبة القذرة كأية عاهرة مبتدئة، وأغلق الاتصال في وجهها، ولم يعد يسأل عنها. وقبل عودتهما بساعات التقى بها، وقال لها إنه سيسافر إلى بلد آخر، وإن عليه إيصالها للمطار، فقالت له لا داع لذلك لأن فلان وتقصد الشاب الذي تعرفت عليه سيوصلها. كان آدم الأحمدي يتحدث وكأنه كان يتحدث عن شخص آخر، لكني أدركت أنه يتحدث عن نفسه. كان يتحدث والغضب يتصاعد في نبرة صوته. وبالنسبة لي كنتُ استمع له وكأني أسمع حكاية عن إنسانة أخرى لا أعرفها وليست حوّاء السواد التي كتبت عن بوحها في روايتي «متاهة العميان»!، وانتبه هو لي، فقال لي: «يبدو إنها لعبت بك أيضا!» ولم أستطع أن أقول له إنها النموذج الأصلي لشخصية حوّاء السواد في روايتي، لذلك صمتُّ وقلت: لا. إن معرفتي بها معرفة سطحية، فقال لي إنه التقى ذلك الشاب في معرض آخر للكتاب ببلد آخر، وسأله بطريقة غير مباشرة عنها، فأخبره الآخر وكأنه كان يعرف بأنها سخرت منه، وأراد أن يكشف له عن حقيقتها، إمعانًا في إذلاله، فأخبره بأنها رخيصة، وماكرة، تريد أن تعيش على نفقات الآخرين، وهي تريد الحياة الجميلة والحرة وأن تحصل على كل شيء، ولا مانع أن تعيش مشاهد مبتذلة لا تجدها إلا في أفلام البورنو كمقابل لذلك، بحجة أنها تريد اكتشاف وتجريب كل شيء، بما في ذلك الممارسة الجماعية! لكن الذي أثار غضب آدم الأحمدي أنها بعد أن عادت إلى البلاد حاولت الرجوع إلى الرجل الذي تعشقه كما كانت تدّعي، لكنه لم يغفر لها ما فعلته به، وواصل الأحمدي حكايته عنها، فذات ليلة وصلته صورة شبه عارية لها وهي في فراشها، وكان هو في غرفة بفندق في دبي لحضور مؤتمر عن الرواية، فاستغرب، وانتبه إلى أنها أرسلت الصور عن طريق الخطأ، لأنها لم تكتب أو تعلق أو حتى تبرر إرسال الصورة، وبعد يومين وصلِته صورة تكشف فيها عن تاتو في جوانب من

جسدها، فعرف أنها تتراسل مع شخص ما وترسل له صورا من جسدها عن طريق الفايبر، وحينها أرسل لها كلمة تعليقا، ففزعت، لأنها أغلقت الفايبر مباشرة، لكنه بعد أشهر من القطيعة أعاد الاتصال معها بعد اعتذارها الشديد عما جرى في البلد المجاور، وذات يوم اتصلت به إحدى الصديقات المشتركات، وأخبرته بأنها في وضع نفسي صعب، فلمّا سألها عما بها اشتكت له بأنها، أي حوّاء السواد سرقتْ حبيبها، وأن حبيبها تركها وهو ينفق الآن عليها!. وهي ترسل له صورا شبه عارية، ولم يستطع الأحمدي أن يواصل حكايته عنها إذ وصل صديقي الأستاذ الجامعي.. عموما.. أنا أخاف عليك أيضًا أن تكون مع المتهورة في وضع مشابه.

كان الجانب الآخر من شخصية حوّاء السواد قد أرعب آدم الغوريلا، لكنه أجاب بنبرة حازمة وبثقة قائلا:

- لا.. حواء المتهورة ليست كذلك أبدًا. هي طيبة حقًا، وتحبني، لكنها مستغربة تعلقي بها، وهي أكثر صدقا من حوّاء السواد، فهذه المتهورة أحبتني ولكي تثبت لي حبها منحتني نفسها..

- ماذا تقول..؟ تقصد إنك..

فقاطعه آدم الغوريلا:

- نعم.. منحتني نفسها..

- وكيف جرى ذلك بهذه السرعة؟

- لا.. ليس بهذه السرعة كما تعتقد. لقد احتجنا إلى وقت ولقاءات وحوارات يومية كي نتعود على بعضنا ونحب بعضنا ونشعر بالأمان لبعضنا البعض، لكنها تبقى صبية متهورة تقوم بأشياء غريبة تشعرني بأنني لا أفهمها..

- هذه فتاة غريبة. كيف جرى ذلك؟ علّق آدم الأكويني

في تلك اللحظة بالذات رن هاتف الغوريلا.. وما إن ألقى نظرة على شاشة الهاتف حتى قفز عن كرسيه وهو يقول:

- إنها هي.. هل لي أن أذهب إلى غرفة أخرى كي أحدثها..؟

ابتسم آدم الأكويني له بطيبة وقال له:

- خذ راحتك، فالبيت بيتك. اذهب لغرفة نومي وأغلق الباب إذا أحببت أو اذهب لغرفة المساعدة قرب المطبخ.

- سأعود إليك حالًا بعد المكالمة..

وذهب مسرعًا إلى غرفة نوم صديقه بسرعة خاطفة، بينما ظل آدم الأكويني يفكر بصديقه العاشق دون وعي منه، والذي يتنقل من موضوع إلى آخر حتى نسي حكاية العراقية التي كان ينتظرها في المطار ولم يأت على ذكرها قط، بينما هي كانت سبب لقائه بالمتهورة، وقال لنفسه: «سأسأله عنها حين يرجع. ثم ما به يلعن الفتيات الشابات بينما حبيبته المتهورة منحته نفسها وصارت له مثل عشيقته أو زوجته كما قال. سأسأله عن سبب كربه وتذمره»، ورفع كأسه ليرتشف كأسه وحيدًا.

الفصل الرابع

عن الصداقة.. وحواء حسني.. وتيه الذئبة الفتية

بعد نصف ساعة عاد آدم الغوريلا. وكان قد أنهى مكالمته الطويلة مع عشيقته الصغيرة المتهورة، فلم يجد صديقه آدم الأكويني على كرسيه حول المائدة كما تركه حينها. تلفّت جانبا فوجده جالسًا على كرسيه حول المكتب وأمامه لوحة الحروف وقد فتح صفحة على شاشة الحاسوب. اقترب بهدوء فوجده كتب عنوانا كبيرا «متاهة العدم العظيم». وقف خلفه مباشرة. كان الأكويني غارقًا في تأمل بعيد فلم ينتبه له، فقرأ عنوان الفصل: «عن الظلام.. والكون المظلم.. ونور العدم». وواصل قراءة السطور الأولى:

«نحن في الواقع. في المدينة. على الأرض اليابسة، لا نختلف عن ركابٍ يسافرون على ظهر السفينة. لكن هذه الأمتار المتاحة على ظهر السفينة هي بمثابة جزيرة متحركة وسط هذا البحر الشاسع، وهذا ما يمنح الركاب شعورًا بالثبات والأمان ممزوجا بمشاعر الحصار والخوف من المجهول الغامض.

في النهار يمنحك البحر مشاعر شتّى، ويدفعك للانغماس في الحياة، كما ضوء النهار وضجيج المدن بالضبط، لكن البحر يختلف أحيانا لاسيما بالنسبة للأرواح الرقيقة التي تميل للتأمل. لكن في الليل حين تنظر إلى البحر وأنت فوق سطح السفينة فستشعر بالرعب الحقيقي، بالخوف الميتافيزيقي، إذ ترى فوقك ظلام وتحتك ظلام، وأمامك ظلام وخلفك ظلام.

الكون مظلم، ومادته مظلمة. الظلام، الظلام، كلنا نمضي في الظلام. المجرات تسبح في الظلام، وتجري هاربة في الظلام. هكذا فكر آدم التائه بعد أن أطلّ من شاشة الطائرة ليرى الكون المظلم، واستغرب من نفسه أنه يستذكر رحلته البحرية على ظهر السفينة «عايدة»، بينما هو الآن على متن طائرة!. التفت إلى حواء كازبلانكا التي أنقذته من محنته وحيرته، وأعادت له ذاكرته التي تشوّشت لأيام محدودة. وها هما يتجهان إلى فيينا، كما اتفقا، دون، أن تتصل هي بزوجها آدم جوردانو ولا بعشيقتها ابنته إيفا جوردانو، فقد قررا أن يعيشا معا في شقة مستقلة، وإذا ما واجهتهما الصعوبات فسيتجهان إلى ألمانيا.»..

- أنت سجين المتاهات يا صديقي..!

قال آدم الغوريلا ذلك، ففز الأكويني عند سماع صوته، والتفت إليه مندهشًا، إذ أنه لم يحس بمجيئه خلفه مباشرة، بل وها هو قد قرأ ما كتبه في روايته الجديدة «متاهة العدم العظيم»، فقال مرتبكًا:

- هل أنهيت اتصالك..؟ ظننتك لم تنته بعد..!

قال ذلك ونهض عن كرسيه متكئا على عكّازه ومتجها إلى المائدة حيث كانا. تبعه آدم الغوريلا. جلس كل منهما على كرسيه. نظر الغوريلا إليه متأملا وهو يراه يرتب وضع عكّازه على ظهر الكرسي، وقال:

- يبدو لي أنك مهووس بقضية العدم، فعنوان روايتك الجديدة يشي بذلك، لكن ألا تخاف أن تكون رواية فلسفية فكرية مملّة..!

صمت آدم الأكويني للحظات ثم أجاب على سؤال صديقه المهم وقال:

- ليس الوجود وعالم الذرة اللامتناهي وعالم المجرات اللامتناهي ما يشغلني. الوجود لا يثير لدي سوى سؤال واحد: لماذا وجد الوجود؟ وماذا كان قبل وجود الوجود والانفجار العظيم الذي يتحدث عنه العلم، ولحظة الخلق التي تتحدث عنها الأديان؟ ما يشغلني هو العدم. أنا مهووس بهذا العدم العظيم اللامتناهي الذي أوجد الوجود. أعرف أنني لن أعرفه ولن أحيط به ولا يمكنني حتى تخيله لكنني على يقين من وجود هذا العدم!. (صمت للحظات.. ثم واصل). العدم موجود وهو الذي أوجد الوجود، والوجود إحدى إشاراته ودليل وجوده، وليس كما يعتقد البعض بأنه لاشيء، فالعدم العظيم اللامتناهي بالنسبة لي هو الله في الأديان، لكنه بالنسبة لي خارج توصيفاتها له وتجسيداتها

الغريبة له، وأوصافه، وطرق خلقه التي تُرى بيقين!، حتى وإن صدر كل هذا عن حسن نية وتبجيل!.

صمت آدم الغوريلا لحظة ثم قال:

- لكن الفلسفة سبق لها وأن بحثت ذلك.

شعر آدم الأكويني بالنشاط وكأنه لم يشرب كؤوسًا من النبيذ، وقال:

- أعرف أن الفلسفة منذ القِدم، مرورًا بالإغريق، تحدثوا عن الهيولي، وعن الماهية. وانشقت الفلسفة بين الماديين والمثاليين، بين من يقول بأسبقية الوجود على الماهية وبين من يقول بأسبقية الماهية على الوجود، لكنني لست من هؤلاء، فأنا لا أعرف الماهية ولا الهيولي لأفترض أنها تسبق الوجود! أنا أحاول أن أدرك الجوهر الحر كما عند سبينوزا، كما العدم العظيم عند بعض علماء الفيزياء الكونية، وأنا على قناعة بأن الوجود تجلّى بإرادة العدم، فالوجود هو تمظهر للعدم! تجسيد لإرادته الحرة، جزء منه وليس الوجود منفصلا عنه. وحين أقول إن العدم موجود ليس بمعنى الوجود المادي وإنما أعني الحضور، أي إن كل هذا الوجود هو في موقف الحضور عند العدم العظيم المفكر، عند الروح المطلق كما أشار إلى ذلك هيغل. لكننا لن نعرفه، وكل حديث عنه ليس سوى ضرب من العبث والجنون! فهو القوة المطلقة التي بعضها متحرك من خلال الوجود وبعضها ساكن وراء الوجود!.

نظر آدم الغوريلا مندهشا ومتأملا لصديقه وقال له بنبرة تعاطف واضح:

- إنك تهذي يا صديقي.. ارفق بنفسك وبعقلك.. أنت على حافة الجنون..!.

أدرك آدم الأكويني أنه يمضي في طريق مظلم ليس من السهل أن يفهمه فيه أحد، لكنه على يقين من أن العدم العظيم يفهمه، لذا لم يبال بما سيواجهه من اعتراضات، ولا يعرف كيف تسرّبت إلى نفسه دفقات من فرح لطيف، وفجأة تذكر حكاية المطار فسأل صاحبه الغوريلا:

- اسمع يا آدم.. كما حدثتني فقد ذهبتَ إلى المطار لتستقبل امرأة عراقية تهبط في مطار المدينة وتبقى لساعات ترانزيت لتواصل رحلتها لاحقًا، لكنك قابلت حوّاء المتهورة أثناء انتظارك لها، ومضت ساعات تحدثني عنها بينما لم تذكر شيئًا عن المرأة العراقية!. هذا من جانب، ومن جانب آخر قلت لي إن حوّاء المتهورة كانت صادقة معك

وهي ليست مثل حوّاء السوداء الحقيقية وما فعلته بالكاتب آدم الأحمدي، بدليل أنها سلمتك نفسها، ومع ذلك أنت حانق وغاضب!.

أحس آدم الغوريلا بالحرج قليلًا، فصديقه محقّ، هو نسي حكاية المرأة العراقية التي حدثته بحكايتها وحكاية أختها الفظيعتين، فقد انهمك بحكايته مع المتهورة والتي قلبت حياته وألقت به في تيار المشاعر الفوضوية المتلاطمة، فقال بنبرة فيها ما يشبه الاعتذار:

- أنت محق. لقد نسيت ذلك، مع أن ما سمعته منها شخصيًا عن نفسها، ولاسيما ما روته عن أختها يصلح أن يكون عملًا روائيًا، بل إنني فكرت بك وأنا استمع لها.

حاجبا آدم الأكويني انكمشا تعبيرًا عن اهتمامه وقال له:

- ما هي حكايتهما..؟.

انتبه الغوريلا لاهتمام صديقه، وليعوّضه عن إهمال سرد حكايتها كل هذه الفترة منذ يوم تعرفه على حوّاء المتهورة، أخذ يسرد حكايتها بطريقة مؤثرة، فقال:

- بعد أن غادرت حواء المتهورة المطعم بقيت منتظرًا ضيفتي العراقية، إلاّ إن دائرة الطيران في المطار أعلنتْ عن تأخر طائرتها لساعة أخرى عن موعد هبوطها نتيجة لأسباب فنية.. المهم.. بقيتُ في المطعم لأطول فترة ممكنة، ثم قمت وتجوّلت في المطار وخارجه، وقضيت الوقت بمتابعة جدول وصول الرحلات الإلكتروني، إلى أن وصلتْ. اتصلت بي، فأخبرتها بمكان وجودي، فخرجت مع مسافرين آخرين ضمن رحلتها أيضًا. حين قابلتها اقترحتُ عليها أن نذهب إلى المدينة في سياحة قصيرة فلم توافق، كانت خائفة من أن يُعلن عن رحلتها وهي ليست موجودة!. وعلى الرغم من كل محاولاتي لإقناعها بأن لديها الوقت الكافي كي تزور المدينة وترجع إلاّ إنها لم توافق على الخروج من المطار، وطبعا أنت تعرف العراقيين وقلقهم المرضي والخوف من وقوع الأسوأ دائما، فهم كما تعرف حين يضحكون من قلبهم يستدركون ضحكتهم ولا يكملونها، داعين الله أن يجعل ضحكتهم خيرًا لأنهم ببساطة يتوقعون الأسوأ دائمًا..

هزّ آدم الأكويني رأسه موافقا وهو يقول:

- صحيح.. شعب ألف الحزن لذا صار يخاف الفرح..!.

واصل آدم الغوريلا حديثه بالنبرة المحايدة نفسها:

- لم يكن أمامي سوى أن أتناوب الجلوس ما بين المطعم والكافتريا، فأخذتها إلى المطعم أولًا.. وهذه المرة طلبت أشياء كثيرة احتفاءً بها وأيضًا من أجل أن نطيل الجلوس في المطعم. لكني انتبهت إلى لون ملابسها الأسود، وإلى ملامحها الحزينة، فقد كانت حزينة حزنًا عميقًا، فأدركت بأن أهوالا مرت بها، فسألتها عن أحوالها. وبالمناسبة كانت هي صديقتي الحميمة بل عشيقتي في أيام الشباب قبل أن تتزوج، بل وحتى بعد الزواج قبل سفري كنا معا، المهم، وقبل أن تجيبني لمحت إحدى رواياتك في حقيبتها. كانت رواية «متاهة الأرواح المنسية»، فأخبرتها، ولأسمّيها لك بحواء المسافرة كي أتجنب الضمائر الكثيرة، بأنك تعيش في هذه المدينة وتدرّس في جامعتها، فتمنّت لو أنها قابلتك، فهي تكنّ لك أعجابًا واحترامًا، وأضافت بأنها كانت تتمنّى أن تقابلك لتروي لك ما جرى لها ولأختها من مآسي، فربما كنت ستكتبها في متاهاتك!!.، ولكن وقتها الضيق حال حتى إن أتصل بك وأخبرك بوجود معجبة برواياتك وتتمنى لو استمعت لحكايتها!..

ارتبك آدم الأكويني تواضعا، لكنه قال ونظراته تشع حبورًا وفرحا:

- هذا شيء مفرح أن تقرأني امرأة وتجد الرغبة في أن تبوح لي بحكايتها. هذا يمنحني شعورًا بالارتياح بأن الناس يجدون أنفسهم في رواياتي..!.

نظر آدم الغوريلا لصديقه الكاتب بمودة وقال:

- أنت صادق في كتاباتك، وكل شخصياتك مستمدة من الواقع لذا يجدها القرّاء قريبة منهم. وقد روت لي هي كل تفاصيل حكاية أختها وكانت موقنة بأنك لو سمعتها ستتعمق في تحليل مشاعرها وتمنحها سردًا أدبيًا في إحدى متاهاتك، لذا فهي ذكرت لي تفاصيل وضع أختها إلى يومها الأخير.

صمت آدم الأكويني وارتسمت ملامح الاهتمام على وجهه وقال بهدوء وبنبرة جادّة:

- رائع.. إذن سأسمعك..!.

- أنا تذكّرت أختها التي شاهدتُها مرة في شبابي وكانت صبية جميلة بجدائلها التي تميل إلى الشقرة، حتى إن حواء المسافرة ضيفتي،

ذكرّتني بذلك اللقاء، وكيف أطلقتُ عليها اسم حواء حسني لتشابه نظرتها وابتسامتها مع ابتسامة الممثلة المصرية الشهيرة سعاد حسني، وقالت لي حواء المسافرة بأنها استمرت تطلق على أختها هذا اللقب حتى صار شائعًا بين الأهل فقد صاروا ينادونها به: حواء حسني!. والحقيقية فأن حكاية الأخت كانت مأساوية حقًا. فهذه الأخت الصغيرة حواء حسني قد كبرت، وصارت فتاة جميلة جدًا، وأحبّت ابن خالهما الذي كان حينها يدرس في كلية الشرطة ويكبرها بأربع سنوات، وكانت قصة حبهما مضرب الأمثال في رقتها وتناسبهما ووفائهما لبعضهما، ولم يكن الأمر مثيرًا للريبة فقد كانت الأم وأخوها متفقين على تزويجهما لبعضهما، لذا على خلاف الكثير من قصص الحب الفاجعة فقد تزوج الحبيبان برضى الأهل ومباركتهم، وكان حفل زفافهما لا ينسى، لاسيما في مدينة السعدية، تلك المدينة الصغيرة المكتظة ببساتين الفواكه والتابعة لمحافظة بعقوبة. حيث بنى لنفسهة وزوجته بيتا صغيرًا. كانت هي في العشرين وزوجها في الرابعة والعشرين حين تزوّجا، وكان لديه أخ في الرابعة عشر من العمر، وكان يعيش معهما في البيت نفسه وفي غرفة خاصة، وكان الأخ الكبير يرعاه كولده، ويعتمد عليه في تلبية طلبات المنزل وحماية زوجته حينما يكون هو في مناوبة الخفارات الليلية..

علّق آدم الأكويني بنبرة حزينة:

- ستبدأ الحكاية اللعينة ذاتها إذن..!.

- أية حكاية لعينة..؟

- حكاية الأخوات الثلاث وأختهن الكبيرة التي تزوجت ابن خالها أيضا وبعد متوته تزوجت أخاه الأصغر.. وانتهت الحكاية بقتلها، لكني وعدتهن بألّا أكتب عنهن..!

نظر آدم الغوريلا إليه مصعوقا.. وقال له:

- إنها تكاد تكون الحكاية نفسها..!؟

نظر آدم الأكويني إلى مكان خارج المكان وقال بنبرة فيها تأمل حكيم:

- نعم.. حكايات البشر في كل زمان ومكان متشابهة جدًا، لذا كل الرجال هم في الحقيقة آدم واحد، وكل النساء هن حواء واحدة،

والاختلافات تشبه اختلاف كرات الصوف في اللون والحجم لا أكثر، فكل الكرات هي من الصوف..!.

ثم التفت إليه وقال له:

- أكمل، فربما لكرتك الصوفية لون آخر..

هز آدم الغوريلا رأسه موافقا رأيه، وواصل بنبرته المحايدة:

- واصلت حواء المسافرة حكاية أختها، فقد أقبلت سنوات السعادة، وزرقت حواء حسني أطفال عدة. وأكّدت لي حوّاء المسافرة كيف أن أختها كانت تروي لها كل شيء دونما خجل أو ارتباك، وتحكي لها عن كل التفاصيل بجرأة، وكل ما كان يواجهها في حياتها اليومية والحميمية جدًا، فقد كانت الأقرب إليها من بين كل أخواتها، بل والأقرب إليها حتى من أمهما، لذا أخبرتها بأنها كانت غير راضية بالكامل من وجود الأخ الأصغر، لسبب بسيط حكته لها حينها، بأنه شاب مراهق، إذ انتهبت إلى أنه كان يتلصص عليها، بل إنها انتبهت ذات مرة حين دخلت الغرفة التي تنشر فيها الغسيل في الشتاء فرأته يتشمّم سراويلها وقميص نومها، وقد ارتبك حين رآها، لكنها لم تسأله ولم تخبر زوجها بعدم رضاها عن تواجد أخيه المراهق. ومرة أخرى، ذات ليلة كان زوجها في خفارة، سمعت صوتا خافتا، وكان من عادتها حين يغيب زوجها في مناوبة تترك النور الكهربائي في البيت كله، وفي تلك الليلة حين سمعت الصوت الخافت والحذر، أخذت تنظر إلى الباب مركزة بصرها على ثقب الباب الذي يكشف النور الموجود خارج الغرفة، لكن فجأة اختفى النور من ثقب الباب دون أن تسمع شيئًا، فخطر ببالها بأن ثمة من يقف وينظر من ثقب الباب فحجب النور، فصاحت: من هناك..؟ وسمعت حركة خافتة، ورأت النور من ثقب الباب، وحركة انطباق الباب، فحدست بأن الأخ المراهق هو من كان يحدّق من ثقب الباب، ولم تكن تشك بخطورة الأمر لأنها نفسها تكبر حماها بست سنوات، بيد أنها مرة أخرى وبعد سنوات، حين صار عمر حماها تسعة عشرة عامًا، وفي مساء صيفي ساخن، دخلت الحمّام لتتلخص من العرق الذي ضايقها، وخرجت وقد ارتدت ثوبا خفيفًا شفيفًا، ولم يكن هو في البيت لكنه لحظة خروجها من الحمام دخل هو، وتجمد في مكانه وهو يحدّق إلى المنطقة السفلى من جسدها للحظات طالت قليلًا قبل أن يصعد لغرفته في الطابق الأول إلى جانب غرفة الأطفال. ذهبت هي وغيّرت ثوبها، وأعدّت العشاء، لكنه لم ينزل، صعدت هي بصينية العشاء غلى الأطفال في غرفتهم،

وأرادت التأكد من استعداده للعشاء، وحين اقتربت من غرفته وقبل أن تطرقها سمعت لهاثًا شبقًا. لم تفتح الباب لكنها ذهبت بهدوء وأطلت من نافذة الغرفة، فوجدته منزويًا وفاتحًا بنطاله ويمارس العادة السرية. انزعجت من الأمر، لكنها لم تخبر أحدًا. وتذكرت حواء المسافرة بأن أختها أخبرتها بالأمر في حينها وأرادت أن تخبر زوجها، لكنها نصحتها بألّا تفعل ذلك، فربما لا يصدّقها زوجها، ولا يطعن بسلوك أخيه فتكون بموقف الملفق الكذاب، أو يصدّقها فتنشب مشكلة عائلية بين الأخوين، وهكذا أغلقت هذه السيرة.

صمت آدم الغوريلا قليلا، فسأله آدم الأكويني:

- طيب.. أنا إلى الآن لم أجد فعلًا تراجيديا. الحكاية التي أعرفها من الأخوات الثلاث تتصاعد حركة المأساة فيها.. هنا..

فقاطعه آدم الغوريلا بسرعة:

- لا أعرف تفاصيل حكايتك وأين جرت، لكني أروي لك ما سمعته من حواء المسافرة وما جرى في مدينة السعدية التابعة لمحافظة ديالى بالعراق.

- وماذا جرى..؟ عفوا عن المقاطعة..! قال الأكويني بنبرة اعتذار.

- لقد روت لي بأن أختها وزوجها كانا مثالًا في السعادة والوفاء الزوجي، لكن السعادة لم تستمر، إذ تم اغتياله ذات صباح أثناء خروجه منزله من قبل تنظيم القاعدة شبه المسيطر على محافظة ديالى ومدنها. ويمكنك أن تقدر هول الكارثة التي وقعت على ذلك البيت السعيد!. حزنتْ المدينة كلها عليه لأنه كان محبوبًا من الجميع، أما هي فقد خاف كل الأهل على حياتها، إذ توقعوا أنها ستنتحر بلا شك، أو ستجن، لما عرفوا عنهما من تعلقها بحبيبها وزوجها، لكن لم يحدث شيء من هذا، فقد كانت عاقلة إذ لديها ثلاثة أطفال! واستمرت أيام الحزن الأسود على ذلك البيت الذي كان يتوهج بالسعادة. وحينما انتبه الأهل إلى الوضع المأساوي التي ستعيشه هذه الزوجة الأرملة وهي في أوج فتوتها وشبابها الفياض، اتخذوا قرارهم، فما إن انتهى اليوم الأربعون حتى اجتمعت العائلة لتنظر في مصير حوّاء حسني، ولم يجدوا حلًّا سوى تزويجها من حماها، من الأخ الأصغر الذي كان يعيش في بيتها والذي تكبره هي بست سنوات، إذ كانت هي في الثامنة والعشرين وهو في الثانية والعشرين. الغريب أنه وافق

بحرارة تحت حجة أنه سيرعى أبناء أخيه المتوفى، لكنه في الحقيقة كان يحب حواء حسني ويشتهيها، وطبعا هي فوجئت بالقرار، لكنها وكما أسرّت بعد سنة لأختها، بأنها حاولت أول أيام سماعها للخبر بشتى الوسائل أن توقف الأمر، لكن لا تعرف ما الذي جرى لها ومعها، فقد أخذت تستعيد كل المشاهد التي يحضر فيها الأخ الصغير في ذاكرتها، وبرز في ذهنها نظراته الشهوانية لها، وتفاصيل جسده التي رأتها ذات مساء صيفي وهو يمارس العادة السرية، لذا وجدت نفسها تقتنع شيئًا فشيئًا، بل إنها صارت في الشهر الأخير الذي بقي من عدّتها تتحجج لطلب مساعدته، وتمنت لو تنقضي هذه الأيام بسرعة كي تنعم بشغفه وحبه وشبقه الجنسي نحوها. وهكذا. كان هو ينام خلالها عند أهله بينما حواء حسني استدعت أختها الصغرى لتكون عندها، وبعد ثلاثة أشهر تزوجا بصمت وبدون حفل زفاف، بل كان حفلًا متواضعًا كي لا يكسروا قلب الأخ الصغير فهذا زواجه في كل الأحوال، لكن غصّة موت الابن الكبير في العائلة ما زالت تهيمن على العائلة!.
وهكذا تزوجت حوّاء حسني الأخ الأصغر. صحيح أنها استمرت في البداية في تذكّر زوجها الأول، صدقًا أو مداراة للعادات والتقاليد، لكن فتوة الزوج الجديد وقوته وشبابه واقتحامه جسدها بقوة وشهوة وشبق فجّر فيها فرحًا ظنت أنه مات مع مقتل زوجها، بل أخبرتني ضيفتي حواء المسافرة بأنها زارت أختها بعد سنة من زواجها الجديد فانتبهت إلى غياب صور زوجها القتيل، حيث رُفعت صوره من كل الغرف، وحينما سألتها هل فعلت ذلك بسبب غيرة زوجها الجديد من أخيه، فقالت لا، بل هي من رفعتها كي لا تثير غيرته، ولا تريد أن تتذكر الماضي وإنما تعيش حاضرها، ولتؤكد له بأنه وحده في حياتها، وما فات فات. المهم. وبعد أقل من سنة ولدت طفلًا من زوجها الثاني.
ومع مرور الوقت صار زوجها الشاب الجديد هو عالمها، بل روت لي حواء المسافرة عن أختها حواء حسني بأنها صارت ولهانة بزوجها الذي يصغرها بست سنوات، وصارت تغار عليه من ظله، بل وكما أخبرتني حواء المسافرة، بأن أختها روت لها بأنها كثيرًا ما كانت تبكي من شدّة غيرتها عليه، بل وصارت تقدم له تنازلات لم تتوقع أن تقوم بها لأي رجل في حياتها، حتى أنها كانت تمنعها عن زوجها الحبيب، حيث صارت تمنحه من الممارسات الغريبة عليها، وتفعل له كل ما يطلبه منها حتى لو كان ذلك مقرفا بالنسبة لها، بل وحينما سألتها حواء المسافرة، ذات مرة، عن حبها العظيم لحبيبها وزوجها الأول وهل تتذكره أحيانا، فاستاءت منها وقالت لها برجاء لكن بنبرة فيها غضب مكتوم، بأن لا تذكر اسمه أمامها مرة أخرى، وفلسفت الأمر

بأن الحياة للأبقى، وأنها تعيش الآن مع الأخ الأصغر وحياتها الحقيقية معه، وقد أنجبت منه..!.

كان آدم الأكويني يستمع له بانتباه شديد وازداد انتباهه حينما وصلت الحكاية إلى تحولات الرغبة ومشاعر الحب نحو الزوج الجديد، الفتي. صمت للحظات ثم علّق قائلًا:

- نعم. المرأة كائن غامض، وتحولاتها النفسية أعقد من التحولات النفسية لدى الرجل، لكن هل العامل الجنسي هو السبب الوحيد! هذا الأمر أمر يدعو إلى التأمل حقًا! ومع ذلك لحد الآن أرى تقاربًا مع حكاية الأخوات الثلاث، لكن واصل.

وافق آدم الغوريلا على تعليق صديقه وواصل قائلًا:

- بحكم علاقتي الخاصة والحميمة جدا مع حواء المسافرة أيام الشباب فقد حدثتني عن أختها حواء حسني بشكل مكشوف وبلا خجل، أخبرتني كيف أنها أخذت تهتم بجسدها، وشحومه الزائدة هنا وهناك، وتزهد في طعامها، وترتدي ملابس داخلية مغرية، وتجري عمليات تجميل خفيفة لنفسها، وتتبرج من أجل أن تنال حظوة عنده، لاسيما وأنها انتبهت لتغيرات تجري في سلوكه، فقد روت كيف أن غيرة حواء حسني أوصلتها إلى حافات الجنون، وأخذت تتشاجر مع زوجها، وصار الزوج يتجنب العودة إلى البيت لأن ذلك يعني مشاجرة مؤكدة، لذا أخذ يعود ومعه صديقه المقرب منه، آدم البستاني الذي كان يصغره بسنتين، اي يصغر حواء حسني بثمانيْ سنوات، وكانت هي تستاء من هذا الأمر، لأنها لا تستطيع أن تلقي غضبها على زوجها أمام صديقه، لكنها وبمرور الوقت وجدت نفسها تستلطف هذا الصديق لاسيما وأنه وسيم وماكر، حيث كان يقف إلى صفها ضد صديقه الذي هو زوجها ويدافع عنها أمامه، ويكشف عن تقصير صديقه أمام زوجته، بل ومرة قال لها بأنه مستعد لتلبية كل حاجاتها الخارجية إذا ما زوجها أهمل ذلك.

صمت آدم الغوريلا للحظات وكأنه يحاول أن يلتقط زاوية كاميرته الداخلية ليروى سير الأحداث كي تكون أكثر تشويقًا، لاسيما وقد رأى صديقه صامتًا لكنه منتبه جدًا لتفاصيل الحكاية، ثم واصل:

- حوّاء حسني بدورها فكّرت بطريقة لإثارة غيرة زوجها من خلال التقرب من صديقه آدم البستاني فأخذت تكثر من طلبه لمساعدتها،

وشيئًا فشيئًا تعودت فعلًا عليه، لكن ذلك الصديق كان واضحًا معها، إذ كان يريدها، بل دعاها مرة لزيارته في بيته بعد أن سنحت الفرصة له عندما سافرت أمه لبغداد، وقال لها: «اشتهي أن آكل طعامًا من يديك، وأن تطبخي لي في بيتي.. أريد أن أراك يوما ببيتي وتطبخين لي.. لي وحدي». ومع ما في ذلك الطلب من حسن نية في الظاهر، لكنه أيضًا دعوة واضحة ومباشرة بل ووقحة أيضًا. ترددت هي وماطلت بأنه سبق وأن أكل من يديها، وإذا ما أراد أن يأكل من يديها مرة أخرى فليأت إلى بيتها وستعد له ما يشتهي، لكنه أبدى زعلًا خفيفًا، وقال: «لا. لا. أريدك أن تأتي لبيتي، أريد أن أحس بوجودك في بيتي، وسأنتظرك غدًا صباحًا». تلك الليلة لم تنم حواء حسني، بل وجدت نفسها لا تسأل عن غياب زوجها في سهرته، ولم تتصل به وأنما باتت تقلب أمر هذه الدعوة الصريحة بأن يريد أن ينام معها، ووجدت نفسها لا تستنكر الأمر، وإنما تفكر كيف يكون الأمر أكثر أمنا وسريّة، وما هو الأسلم لها وأكثر خفية، أن يكون الأمر في ببيتها أم في بيته!؟. وصباحًا، بعد أن قدّمت الفطور للأولاد وذهبوا إلى المدرسة، دخلت الحمّام، تحممت ونظفت جسدها من الشعر وعطرت نفسها، ثم أخذت طفلها الصغير ومضت إلى صديق زوجها، وحين وصلت إلى باب بيته وقفت مترددة، لكنه كان ينتظرها عند الباب من الداخل، وما إن طرقت الطرقة الأولى حتى فتح الباب، وسحبها من يدها إلى الداخل. وضعت هي طفلها في الصالة وأعطته لعبة أخذتها معها، ودخلت معه إلى الغرفة آدم البستاني الذي أبدى شخصية أخرى تمامًا، فقد كان معها وحشيًا وبذيئًا، بل إن وحشيته وإهانته لها بالكلام البذيء قد صدمها، لكنه منحها راحة العقاب، فقد قال لها إنه يحبها ويعشقها، لكنه يريدها أن تكون قحبته، قحبته المفضلة، ولم يستخدم أية كلمة أرقّ من ذلك كأن تكون حبيبته أو عشيقته وإنما قحبته، ومع كل الإذلال الذي رأته وسمعته منه أحست أنها تنتقم من زوجها بل إنها تمشي على الطريق الصحيح!. وبمرور الوقت وجدت نفسها أنها صارت ليست عشيقته بل قحبته فعلًا، فقد صار يأتيها في أوقات غياب الزوج والأولاد من البيت باستثناء الطفل الصغير، ليمارس معها في بيتها وعلى فراش زوجها، وأحيانًا في الصالة أو حتى المطبخ، ومع أنها لم تشعر نحوه بالحب لكنها كانت تلبي طلبه في أي وقت يطلب منها! لكن المفاجأة كانت حين طلب منها ذات مرة أن تذهب إلى بيت آخر، مدعيًّا بأنه سينتظرها هناك. ترددتْ، لكنها صارت تخاف أن ترفض له طلبًا، حيث صارت لا تستطيع أن تستغني عنه جنسيًا، وصارت تغار عليه ونسيت أمر زوجها، إذ كانت أحيانًا تشتعل بنار الغِيرة إذا ما تأخر بالمِرور عليها في البيت ليمارس

معها، ليس لشبق أو رغبة جنسية و أنما لتحس أنه ملكها وحدها وليطفئ لهيب الغيرة في أعماقها!.

ارتسمت علامات التعجب والاهتمام على وجه آدم الأكويني وقال:

- هذه حالة غريبة من الغيرة والرغبة في التملك بحيث تمتزج بغريزة الموت والعدوانية وتدمير الذات..! لكن هل هذا تحليلك أم تحليل أختها.

- كلانا.. كانت أختها تروي عنها وهي تستذكر متاهاتك، بل وأثناء حديثها قالت إن في متاهاتك شخصيات تشبه أختها، وكم تمنت لو أنها روت لك كل ذلك لتستوحي منه شخصية روائية..!.

صمت آدم الأكويني للحظات مفكرًا وكأنه يستحضر شخصيات المتاهات، ثم قال:

- مع الأسف! عموما أن الحكاية التي أعرفها تختلف عن قصة حواء حسني، تشترك في الغيرة، لكن لم يصل الأمر إلى إذلال النفس والتحول إلى قحبة!. لكن تبقى الغيرة حالة شعورية ونفسية غامضة، فدوافعها حيّرت علماء التحليل النفسي، وأذكر أن مخرجًا سينمائيًا إسبانيا أنفق سنوات طويلة من عمره وهو يقدم أفلامًا هي تنويعات مختلفة عن الغيرة ودوافعها وأشكالها!. لكن واصل حديثك. لقد اثارتني الحكاية فعلا..!

أحب آدم الغوريلا أن يسأله عن المخرج السينمائي الإسباني، لكنه خاف أن يفقد خيط الحكاية، فواصل:

- ذهبت حواء حسني إلى البيت المحدد، لكن المفاجأة هو أن الذي فتح لها الباب كان رجلًا آخر. دعاها للدخول. ظنت أن عشيقها موجود في الداخل، وما أن دخلت حتى أغلق الباب. فوجئت بأن عشيقها ليس في الصالة، وأدركت أنه خدعها وأنها لن تخرج من البيت دون أن ينالها هذا الرجل الجديد، فشعرت بغضب شديد، بينما طلب منها الرجل أن يذهبا إلى غرفة النوم. لم تستطع الاعتراض.. سكتت. وضعت ابنها على الأرض ليلعب بلعبة يحبها وتحملها معها دائما. لكن الآخر كان عنيفًا وهي تحب العنف فهو يثيرها ويهيجها، ولا تريد أن تكون طيّعة، لذا حاولت مقاومته كجزء من تمثيل المشهد كي تدفعه إلى العنف معها، ولم تستطع مقاومة نفسها التي تثار في العنف الجنسي، وهكذا اخترقها الآخر أيضا. حين عادت إلى بيتها فكرت بالانتقام من عشيقها

بإثارة غيرته لإظهار الميل المصطنع لصديقه الذي أرسلها إليه، لكنها لم تكن تدري بأنها صارت مدمنة على الجنس والرجال، وتحولت لا إراديا إلى مومس تتنقل بين آدم البستاني وصديقه الذي صار عشيقها الجديد. والغريب كما باحت هي لأختها بأنها لم تعد تشعر بالمتعة واللذة الجنسية وإنما صار الجنس مثل الواجب الروتيني!. أما زوجها فكأنه حدّس ما يجري بين زوجته وصديقه ولم يعترض، وأنما خفف عليه شجاراتها وصار مدمنا على الحشيش والمخدرات التي تصل من البلد المجاور.!.

صمت الغوريلا للحظات وكأنه تعب من الكلام، لكن مع ذلك واصل:

- لكن كل هذا بكفة والوضع السياسي بكفة أخرى، فقد كان بيتها عند نهاية شارع بأطراف المدينة وكان على مقربة منهما موقع سيطرة عسكرية لقوات الجيش والحرس الوطني، وكثيرًا ما كانوا يطرقون الباب طالبين ماءً باردًا في الصيف. المهم. مع توتر الوضع السياسي وظهور القاعدة وداعش وسيطرتها على مدينة ديالي فقد تفجّرت الأوضاع في المدينة ذات الميول الطائفية والمتمردة على الحكومة، و تتصاعدت الاغتيالات للشخصيات العامة وغير العامة، وتنوعت التفجيرات من ألغام وسيارات، وحدثت اضطرابات في المدينة، ومن بينها حدث الهجوم على نقطة الجيش قرب بيتها وتم تدميرها بقاذفات الآربيجي، و كان بيتها أيضًا عرضة للقصف الصاروخي، وهكذا قُتلت هي وأبناؤها، بينما كان زوجها يدمن المخدرات في بستان قريب، فقد كان الناجي الوحيد من العائلة، وقد جن حين رأى ما جرى لعائلته وأطفاله..!.

ارتسمت ملامح الحزن على وجه آدم الكويني وقال بنبرة حزينة:

- عجيب.. كم تتشابه أقدار ومصائر البشر، وكأنما هي تتكرر لكن في أزمان وأماكن مختلفة.. فحكايتي التي عرفتها تنتهي بمصير مشابه جدًا تقريبا، لكن هل تم التأكد من القتلة..؟ الإرهابيون أم الجيش قام بذلك ليّتهم الإرهابيين بهذه الجريمة..!.

نظر آدم الغوريلا إلى نقطة بعيدة وكأنه كان يفكر بشيء ما وقال:

- أنت تعرف ما يجري في العراق. إذا أراد أحد الأحزاب أو الشخصيات المتنافسة بأن يقضي على غريم له فأسهل شيء يتم اغتياله واتهام الإرهابيين بذلك، وطبعا هذا لا ينفي ما يقوم به الإرهابيون، لكن هؤلاء

عادة يعلنون في بياناتهم بأنهم اقتصوا من الخائن فلان بن فلان، أو إذا ما حدث حراك مسلح في مكان ما فأنهم يعلنون عن ذلك..!

- هل هذا يعني أن الحكومة وأفرادها قاموا بذلك..؟ سأل آدم الأكويني.

- لا أحد يعرف الحقيقة، لأن الإرهابيين لم يعلنوا مسؤوليتهم عن الهجوم. أنت تعرف أن التاريخ كله مزيف والمعلومات مشوشة جدًا، ومن السهل اليوم خلط الأوراق كلها، وليس هناك مشكلة فالشعارات متوفرة للتغطية على الجريمة ومنح القتل مشروعية دينية، والأخلاق جاهزة لتبرير كل شيء..!.

صمت آدم الأكويني للحظات. كان يتوغل فيها في أعماق نفسه وذهنه، ثم قال للغوريلا:

- هذه حكاية فيها ما فيها من كشوفات نفسية ودوامات من المشاعر النفسية! كم تمنيت لو كنت حاضرًا لاستمعت لها بنفسي وسألتها عن أشياء ربما تساعدني لاكتشاف الخطوات الأولى لو فكرت بالكتابة عنها! مع الأسف لم أكن موجودًا، لكن ماذا عنها، وعن حكايتها؟

فجأة سأل آدم الغوريلا صديقه:

- هل لديك شيئًا آخر نشربه!؟

- لديّ نصف قنينة من الكونياك الأرمني.. أرارات.. هل تفي بالغرض؟

- ياه.. أرارات.. جبل الثلج المشتعل!ولِمَ أنت ساكت عنها كل هذا الوقت..!

قام آدم الأكويني عن كرسيه واتجه إلى المطبخ. بقى الغوريلا وحده حول المائدة، فمدّ يده لصينية السلطة وأخذ بعض أوراق الخس ليلتهمها بلذة، وحين رأى الأكويني مقبلًا وبيده القنينة وصحنا فيه بعض شرائح الليمون المقطعة ابتسم له وقال:

- أتعرف أيها الأكويني أن شقتك هذه أشبه بحديقة أبيقور..!

ابتسم الأكويني وهو يضع ما بيديه على الطاولة ويجلس على كرسيه، وقال بنبرة مسترخية:

- أبيقور حاضر بيننا أيضا حول هذه المائدة ياصديقي، لكن ما هي قصة ضيفتك، فلم ترو عنها شيئًا.

صمت الغوريلا للحظات، بدا وكأنه يسترجع شيئًا ما، ثم قال:

- أتعرف. إنني الآن استرجع ملامح وجهها وهي تروي لي ما جرى لأختها ولها، واستغرب لماذا فصّلت في تشريح مشاعر أختها وفضائحها الجنسية، بينما صمتت عن ذلك حين تحدثّت عن نفسها.

- كيف..؟ لم أفهم..! سأل الأكويني.

- العين مرآة الروح كما يقول ليف تولستوي، لكن المرايا أنواع: مستوية، محدبة، ومقعرة.. وعيون الناس هكذا، لكن تبقى مقولة تولستوي صحيحة، فكل مرآة تعكس روح صاحبها. لقد كنت أحدّق في عينيها وهي تروي لي عن أختها ثم عن نفسها. كانت العين مختلفة في الحكايتين، وأعتقد إذا أردت أن تعرف حقيقة ما يقال فأنظر إلى عينيّ المتحدث ونظرته فهو سيكشف عن نفسه شاء أم أبى..!

- ليس دائمًا.. فهناك ممثلون بارعون يجيدون الأدوار كلها بمصداقية فنية عالية! ولن تستطيع أن تشك في صدق ما يرونه، ولا صدق نظرتهم. رد الأكويني بهدوء.

- نعم أنت محق. فاتني هذا. لكني لم أصدّق ما روته عن نفسها، ليس بمعنى أنها كانت تكذب، وإنما لم ترو كل الحقيقة. كنت أشعر بذلك. ربما خجلت أن تروي ما فعلوا معها، أو ما كانت تشعر به. المهم. سأروي لك عنها في مرة أخرى. دعنا نسمتع بهذا الكونياك الأرمني الراقي.

- وماذا عن حواء المتهورة..!

قال آدم الأكويني ذلك وهو يسكب الكونياك في قدحين كريستاليين فارغين كانا على الطاولة. تدفقت الحيوية في كيان الغوريلا حين جاء ذكر حبيبته الصغيرة، فقال بلهجة خطابية وهو يرفع كأس الكونياك و كأنه يلقي شعرًا:

- «هناك أغلال ثقيلة تثقل على صدري وروحي، تمنعني حتى من الضحك بصوت عال، أو مضغ العلكة وفرقعتها، لأن هذا عيب وتصرف العاهرات في عائلتنا، ماذا تنتظر من فتاة يضربها والدها بشدة حين

تضع أحمر الشفاه. الجغرافيا تحاصرني. عشت في منطقة حارة، جوها كئيب، صحراء، الزوابع الرملية كل حين وآخر، الأوساخ تحيط بنا، لا وجود للمساحات الخضراء. نحن في ورطة.. مهانون. أنا أعيش روتين، لا جديد في حياتي، أقضي معظم أوقاتي في البيت، أقضي وقتي بأعمال المنزل التي لا تنتهي»، هكذا قالت لي المتهورة حينما جاءتني في المرة الأخيرة التي منحتني فيها نفسها..!.

وارتشف جرعة كبيرة من الكونياك، انكمش وجهه على أثر حدّتها، فأخذ شريحة خيار من الصحن ليداري مرارة الكونياك وحدته، بينما سأله الأكويني الذي ارتشف كمية أقل منه سائلًا:

- وكيف جرى ذلك.. بسهولة أم بتعقيدات.. وهل قاطعتكم اتصالات الهاتف؟.

- لا. لا. أول ما دخلتْ أغلقتْ الهاتف. كانتْ نفسيًا مهيئة لذلك، فما إن فتحت الباب لها حتى احتضنتني بذراعيها ووضعت رأسها على مقدمة صدري، فكما قلت لك هي قصيرة بالكاد تصل بقمة رأسها إلى صدري. رفعت رأسها نحوي وكأنها تتوقع أن أقبّل شفتيها. وهكذا فعلت. وكانت مستسلمة للقبلة ومشاركة فيها، وطبعا كنتُ قد هيأت المائدة بما تحب، من عصائر ونبيذ، وتشبس، وجبنة محلية لذيذة، وما تيسر من الأغذية الأرضية!. وجلسنا على الصوفا، وارتشفنا الكأس الأولى من النبيذ الذي كانت لا تستسيغ طعمه بالكامل. وأخذت أقبلها. ويدي تجوس في حقول جسدها الصغير والمكتنز بالثمار. فجأة، عانقتني وقالت أريد أن أكون معك حرة حرية مطلقة!. أنت تعرفني جيدًا، لا أمرر الأمور هكذا والتعابير بلا تفحص، هذه لعنة سبينوزا التي تلاحقنا، فقد علّمنا التدقيق في كل كلمة وكل تعبير، فأوقفتُ التقبيل وبدأت بمناقشة ما قالته عن الحرية المطلقة..!.

ضحك آدم الأكويني وقال مازحا:

- ههه.. حتى في النيك تتناقش أيها الغوريلا. سبينوزا نفسه لا يرضى على ذلك، فهو يمنح الحب مكانة سامية..!.

ابتسم آدم الغوريلا وقال:

- هل تصدق ذلك!. أنا نفسي ضحكت من نفسي لاحقًا. حينها توقّفت عن تقبيلها وسحبت يدي من بين فخذيها وقلت لها:.. مهلا مهلا.. الحرية وهمنا الجميل، كل ما موجود في الوجود والكون خاضع

لقانوني السببية والضرورة، بما فيه الإنسان، نحن مقيّدون بضرورات كونية وبايولوجية وجسمانية وتاريخية وجغرافية واجتماعية، والفهم العام للحرية يكاد ينحصر في حرية المعتقد والفكر والسياسة، لكننا لا نستطيع أن نغير من تتابع الليل والنهار ولا الفصول ولا موقع الأرض في المجرة والمنظزمة الشمسة، ولا نستطيع أن نغير من الدورة الدموية ولا نستطيع التدخل في نظام تكاثر خلايا الدم في الجسم ولا أن نتدخل بعملية الهضم والتمثيل الغذائي، لا ولا نستطيع أن نرى أكثر مما محدد للعين أن ترى ولا أن نسمع أكثر ما محدد للأذن أن تسمع، ولا أن نختزل الزمن في تطور الجسد فلا المرأة تستطيع أن تكمل نمو جنينها كما تشاء في شهر واحد أو ثلاثة أشهر وإنما في تسعة أشهر، كما أننا لا نستطيع أن نعيش في زمان غير زماننا مهما عرفنا عن تفاصيل القرون الغابرة.. و. و. و. وبالتالي فإن حريتنا في هذه الجوانب معدومة. حريتنا تكون في الفكر والتخيل وليس دائما في الفعل، أي نريد أشياء وأحيانا نعجز على القيام بها، كما حريتنا تبقى في أن نحرك هذا الشيء باليد اليمنى أو اليسرى ونأكل التفاحة أو البرتقالة ونلبس الثوب الأبيض أو الأسود ونتزوج هذا الشخص أو ذاك، ويمكننا أن نناضل ضد الطغيان والاستبداد لنغير المنظومة السياسية بأخرى، هذه حدود حريتنا، وعدا ذلك وهم، هكذا علمنا العقل الجبار سبينوزا، أن نتوقف الآن عن التقبيل أو نستمر بل ونمضي أكثر!!.

أخذ الأكويني يقهقه بصوت عال وقال له وهو مستمر في القهقهة:

- لقد أرعبت البنت المسكينة، وربما سألت نفسها: مع من تورطتُ، هل هو نيك أم فلسفة..!!؟ ما فعلت بالفتاة أيها الغوريلا المفكر.. ههههه.

شارك الغوريلا صديقه بضحكة قصيرة وقال:

- هذا ما جرى.. صدقًا.. لكنها كانت أكثر حكمة مني، إذ التقطت جملتي الأخيرة حين قلت «أن نتوقف الآن عن التقبيل أو نستمر بل ونمضي أكثر»، إذ مسكت بيدي وقالت بدلال: «بل نستمر ونمضي أكثر، ودعنا الآن عن الفلسفة، أريد أن أكون لك، فهل تفهمني أيها الغوريلا!! لا تتفلّسف وإلا سأخاف وأتراجع عن قراري الذي هيئته بعد طول نقاش مع نفسي!». وقامت ثم أخذت بيدي، فطوقتها بذراعي ومضينا إلى غرفة النوم. كنت حريصًا في تهيئة كل شيء لهذا اللقاء، حيث وضعت منديلا أبيض ليمتص الدم إذا ما نزل منها الكثير. ومضى كل شيء كما رتبت له. وكانت هي مسترخية، محبة، معطاء، متجاوبة، وكأنها قررت

مع نفسها بأن تمنحني نفسها كقرار قدري، لكنها طيلة فترتي معها تلتذ وتترقب لحظة فضها، فقد قالت لي إنها سمعت بأنه يؤلم، فهدأتُ من روعها بأن كل ذلك له علاقة بالطريقة التي يتم بها الإيلاج والتهيج والرغبة الذي تعيشهما المرأة في تلك اللحظات، فإذا كانت متهيجة فالألم بالكاد تشعر به..!.. وكانت هي كذلك!.. طوّلت معها ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وهيئتها بحيث هي همست لي: «أنا مستعدة» وجرى كل شيء طبيعيا. قطرات نزلت منها. لكنها لم تشعر بها لحظتها. لم تصدق بأنها صارت امرأة بالمعنى الاجتماعي. قالت لي إنها كانت تشعر معي بالأمان والراحة وبإحساس جديد يغمرها الآن، فهي تشعر بأني صرت أهم رجل في حياتها الآن، وهمست لي بأنها الآن تنظر للوراء تجد أن كل علاقاتها السابقة كانت تافهة ولا معنى لها. لكن حينها ولأول مرة حدثتني عن الشخص الذي ترتبك حين يتصل بها، إذ قالت إنه شاب عربي يعيش في فرنسا واسمه آدم أيضا، لديه أخ متزوج من بنت عم أمها، وقد كان مدمن مخدرات، لكنه مرّ بدورة علاج، بعدها توجه للدين، وهو يريد فتاة مسلمة ليتزوجها، لا يريدها من فتيات فرنسا لأنه يعتقد أنهن على الرغم من الحجاب والبكارة فإنهن يمارسن من الخلف أو يمارسن الجنس الفموي! وأخبرتني بأن أمها ألحّت عليها في التواصل معه، لكنها تقول بأنه يقسم لها بأنه يريدها، وهو جاد معها في العلاقة، وهي بدورها لم تبد له أية رغبة في الهجرة، لذلك هو مطمئن من أنها صادقة معه، وقد أرسل لها هدية وبعض مستحضرات التجميل، وهي تعترف بأنه لطيف معها. لكنها غير متأكدة من نفسها ومنه، وهي لست مستعدة لإحباط جديد مهما كان نوعه، وفي الوقت نفسه هي خائفة وحريصة على علاقتها معه، إذ يمكن في أية لحظة أن تأخذه مني ذئبة أذكى وأدهى مني!. طبعا تحدثت معها بصراحة دون أن أثير مخاوفها بأن هؤلاء الشباب المتدينين الذين يسعون إلى الزواج من فتيات متدينات يجلبوهن من بلداهن يكذبون باتهام الفتيات المسلمات هناك بالفجور، فهذا أمر طبيعي في تلك المجتمعات التي وسائل الإغراء فيها كثيرة وقوية، لكنهم يريدون الزواج من فتيات لا يعرفن اللغات الأوربية ويكون وضع إقامتهن مرتبطا برغبتهم هم، وإلا سيتم الطلاق ويرجعن لبلدانهم إذا لم تستمر الفترة الرسمية للحصول على الجنسية، وهؤلاء معظمهم شباب معقد يشعر بالضعف أمام الفتاة المسلمة المولودة في أوروبا لأنها تعرف اللغة ودرست في تلك الدول حتى لو لم تكمل، وليس لديها مشكلة إقامة وتعرف حقوقها، لذا لا يستطيع أن يمارس هيمنته عليها، على العكس من الفتاة المسلمة التي يأتي بها والتي تتحول إلى خادمة ولا تستطيع أن تتواصل مع الآخرين بحكم الحاجز اللغوي. لحظتها صعدت

على جسدي العملاق كقطة صغيرة.. وقالت لي: «أين كنت؟ لماذا لم أتعرف عليك قبل سنوات؟». وتحدثنا طويلا عن النساء وخيباتهن، وأوضحت لها بأن بعض النساء من كثرة خيباتهن يتحولن مثل هؤلاء الأوغاد الرجال، فيقمن علاقات مع أكثر من رجل، ويخدعنهم، ويصورن لكل منهم بأنه هو الرجل الوحيد في حياتهن، يخدعن الجميع، لأنهن لا يحببن أي أحد وإنما يركزّن على أنفسهن، تقودهن رغبة غامضة بالانتقام لخيباتهن، ويحدث أحيانا أن يصادفن الحب، وكثيرًا ما لا يصادفنه!. وقلت لها: «أتمنى أن تكوني واضحة مع نفسك، وأعتقد إنك أخبرتني بوعي برغبتك في الزواج لأنك تريدين الهجرة، مع إنك لا تبدين لآدم الفرنسي ذلك، وإنك لا تحبين هذا الزوج المستقبلي الفرنسي بالنسبة لك لقطة سماوية، مخلّص كما سميته، وربما تأملين بالحب بعد الزواج، يعني إنك واضحة مع نفسك، لديك هدف هو الهجرة والعيش في فرنسا، وأتمنى أن تجري الأمور كما تشتهين بلا منعطفات درامية»، فقالت لي بأن ذلك لم يعد يهمها لأنها منذ ثلاثة أيام لم تعد تجيب على اتصالاته، بسببي، إذ تحس بأنها تعشقني، وقالت بأنها تريد أن تكتشف نفسها معي لأنها تجهل نفسها، وأنها من خلال علاقتها بي بدأت تعي ذاتها وتعي ضعفها أمام الرجال ويقظتها الجديدة التي انتبهت لها معي، وشجاعتها بالاعتراف كأية مومس في حضرة القس في الكنيسة، وهي تشعر بأنها كل حواءات العالم، لذلك فهي لا تعرف من تكون تمامًا.

كان آدم الأكويني يستمع له بمتعة وفضول شديدين، وأعجب بشخصية تلك الفتاة الشابة التي تسعى لوعي ذاتها عبر سلسلة من المواجهة والصراعات الخاسرة أحيانا، وقال لصديقه:

- يبدو لي أنها تعاني من إشكالية العبد والسيد في أعماقها، هي تبحث عن الاعتراف، ليس من الآخر كالعادة وإنما من نفسها بنفسها..!.

انتبه آدم الغوريلا لما قاله صديقه العميق كما يسميه أحيانًا لغرابة أفكاره، فقال معقبًا:

- أعتقد أن إشكالية العبد والسيد عادة تكون بين الشخص والآخر، صراع الذات مع الآخر. وحوّاء المتهورة ربما في اعتقادي تعيش ما قبل هذا الصراع، أي أنها بحاجة لأن تكون تصوّرها عن نفسها ومن ثم تدخل في صراع من أجل فرضه على الآخر.. أليس كذلك؟

صمت آدم الأكويني للحظات مفكرًا في الجواب المناسب لهذه الطرح المهم من قبل صديقه ثم قال:

- ربما أنت محق.. وعليك أن تساعدها في أن تنتصر الذات السيدة في أعماقها على الذات العبدة التي تعيها وتحس بها، لأنها إذا لم تنتصر في صراعها مع نفسها من أجل انتصار الذات السيدة في أعماقها وتحظي باعتراف نفسها بنفسها فستبقى عبدة، مهانة، مذَلّة، وتشعر بدونية طوال عمرها.

صمت آدم الغوريلا للحظات وعلى وجهه علامات تفكر بما قاله صديقه الأكويني ثم قال:

- أنت تعرف أن لاكان بحث في هذه الإشكالية مؤكدًا في جدل السيد والعبد من ناحية التحليل النفسي والسوسيولجي بأن السيد بعد الانتصار يصل إلى طريق مسدود لأنه لا يعمل بينما العبد يعيش التحول من خلال عمله ومن خلال محاولته التخلص من عبوديته، أي حين تكون حواء المتهورة سيدة نفسها ستقع في إشكال آخر هو ضبط المعادلة «التحرر من.. والتحرر في».. أي ستواجه مشكلة الحرية كما طرحها إريش فروم في كتابه «الهروب من الحرية»..

كان آدم الأكويني يستمع له بانتباه، فقال له:

- من هنا عليك مساعدتها حتى لا تهرب من الحرية وترضى بعبوديتها تحت تبريرات نفسية شتى.. وأعتقد حينها سيبدأ صراعها معك. صراع العبد والسيد لأنك مهيمن عليها!. ستعيش معك صراعا ذاتيا من أجل الحصول على الاعتراف التام، وهون عليك، فصراعها معك لا يعني القضاء عليك، فالاعتراف يتم بين أحياء، لأنه ينتفي بالقضاء على الآخر..!

صمت الغوريلا متأملًا للحظات، علّق قائلًا:

- أنت تعرف أن الاعتراف الذي يحصل عليه السيد هو اعتراف ناقص لأنه يأتي من عبد، من حيث أن السادة لا يعترفون ببعضهم، لأنهم لا يخضعون لبعضهم، والاعتراف يعني الاستسلام!لكنه يبقى محاول وعبودية مبطنة للإبقاء على الهيبة الذاتية..!

ابتسم آدم الأكويني بطيبة وقال:

- يبدو أننا ذهبنا بعيدًا في التحليل ووضعنا المسكينة حواء المتهورة مثل فراشة تحت الميكرسكوب وبدأنا نحلل طبيعة ألوان جناحيها..!

حدّق الغوريلا في وجه صديقه الأكويني للحظات، انتبه الأكويني له وهو يرى شارد الذهن قليلًا، فسأل مبتسمًا:

- ماذا..؟ هل قلت شيئًا صادمًا.

أحس آدم الغوريلا بالارتباك فأجابه قائلا:

- لا أبدًا، وإنما أنت طيب جدًا، وربما أنت تعيش في عالم المُثل، حيث البشر وعلاقاتهم المعقدة تبدو لك وكأنها مجموعة من النظريات والقيم الأخلاقية والمفاهيم الفلسفية في عالم المثل!. لكني سرعان ما أنفي ذلك لما أعرفه عنك من خبرتك العميقة في الحياة ونظرتك الواقعية للكائن البشري، ومع ذلك وبصراحة ومحبة أشعر بالخوف عليك من الجنون!. أتعرف أحيانا أقضي الليل وأنا أفكّر فيك وأفكّر كيف أحميك من الآخرين وربما من نفسك! أحس نفسي وكأني مسؤول عنك..!

ترقرقت الدموع في عيني آدم الأكويني فجأة وقال:

- أنا سعيد بمشاعرك هذه، فهي تمنحني فرحًا خاصًا. أقدّر صداقتك العظيمة. إنها تمنحني الأمان.. فأنا أحيانًا أحس نفسي مثل نعجة تائهة في فيافي الليل والخوف وزمهيرير الريح السوداء..!

حين سمع آد الغوريلا كلام صديقه الأكويني أحسّ برعشة في قلبه حينما سمعه يصف نفسه بالنعجة التائهة في فيافي الليل والخوف وزمهرير الريح السوداء، كما مسّ شغاف قلبه بهذه الرقة والحفاوة لصداقتهما، وراودته رغبة بالقيام لاحتضانه بصداقة وود، لكنه أحجم عن ذلك فهو يكره أن يبدو عاطفيا جدًا، ناهيك أن هذا الفيض العاطفي ربما لم يخرج بسلاسة لولا كؤوس الكونياك التي ارتشفها!.. لذا أراد أن يغير من سير هذا الدفق العاطفي بينهما فهو يشعر ببعض الإحراج، فقال:

- أتعرف ياصديقي. أعتقد أن المتهورة صارت عشيقتي من دون أن ترغب في ذلك حقًا، أو حتى تفهم لماذا..! ففي الواقع هي لم تفهم كيف حدث ذلك، ولا أنا، فأولا إن فارق السن بيننا كبير جدًا، كما أنني لستُ من الناحية الجسدية بجاذبية من يحيط بها من الشباب، لذا استبعد أن تكون شهوتها الجنسية ما دفعها إلى ذلك! ومع أنها منحتني

جسدها برضى وقناعة لكن دون ما رغبة واضحة في الجنس، ولا تحت ضغط شهوتها، و كأن ذلك تحصيل حاصل أو هدية لإنسان صديق جدًا..، وربما هو نوع من محاولة اكتشاف الذات أو حسم الصراع ضد ضعفها ومحاولة امتلاك القرار للتصرف بحياتها بحد ذاته وليست مدفوعة لاتخاذ هذه الخطوة كزواج بالإكراه ووفق التقاليد! وربما هو استسلام أمام محاولاتي المستمرة لامتلاك جسدها، بحيث انتصرتُ عليها وصرتُ سيدها وسيد جسدها. وأعتقد أيضا بأن خيباتها السابقة جعلت حياتها فاترة، وخالية من الشغف والحب الحقيقي، لذا فإن غياب هذا الشغف بحد ذاته أرعبها، فهو يعني ربما بالنسبة لها بأنها ليست سوى ظل امرأة، لذا ألقت بنفسها في أتون مغامرة لم تحسب لها حسابًا جيدًا.. وربما بدافع من أحلامها المشوشة، المليئة بهذا الشغف والتوق إلى أن تعيش قصة حب استثنائية مع رجل يحتويها وتجد نفسها ضعيفة أمامه، والحقيقة أنها من المرة الأولى التي كنت معها في غرفة النوم، وجدت نفسها قد أنها صارت عشيقتي بل زوجتي، أي لم يراودها الشعور بالذنب، بل صارت تعتبر منحي جسدها نوعا من الواجب نحوي وتعبيرًا عن الحب، حتى تحوّل إلى طقس مثل الذهاب إلى الكنيسة للصلاة أو على الأقل القيام بالحركات اللازمة أمام المذبح. هكذا صارت علاقتنا. حب جارف وعشق دون اعتراف واضح وصريح، ليس لأننا لا نعي بأننا نحب بعضنا وإنما نتحاشي النهايات والجوانب الأخلاقية والاجتماعية التي تحيط بهذا الاعتراف.

انتبه آدم الأكويني إلى أن صديقه الغوريلا جعل من علاقته بحوّاء المتهورة قضية فلسفية أشبعها تحليلا وتفكيكًا، فأراد أن يقول له ذلك لكنه أعدل عنه، وقال شيئًا آخر:

- كل الاحتمالات ممكنة! فرأيك صحيح في كل جانب من جوانب تفسيرك لطبيعة علاقتها بك..!

ابتسم آدم الغوريلا على مضض وقال:

- الاحتمالات..؟ وفق رؤية مَن!.. باشلار يؤكد بأنه لا يمكن تكوين معرفة صحيحة على مجموعة آراء شخصية وحدوس مشوهة، أو كما يذهب هايدغر إلى أن الرأي الشخصي، والظن والاعتقاد، والاحتمال، هو وهم..، ولا يمكن حتى أن نضعها في مواجهة الحقيقة..!

نظر الأكويني إليه بمحبة وقال:

- لماذا تعذب نفسك أيها الغوريلا الرقيق.. أولَا: لا تنسى بأن لايبنتس كان يؤكد أن الاحتمال يمكن أن يكون أحد مصادر المعرفة العلمية، وثانيًا: أن كانط كان يؤكد أن الرأي الشخصي هو درجة أولى من درجات المعرفة، الرأي أولًا، ثم الإيمان، ثم الحقيقة.. لكن الرأي لا يمكنه أن يكوّن معرفة إلّا من خلال التجربة، ناهيك أن العقل الجبار سبينوزا كان يؤمن بالمعرفة الحدسية..

صمت آدم الغوريلا للحظات وكأنه يفكّر بكلام الأكويني، وبعد لحظات ابتسم له بطيبة وقال:

- أتعرف أيها الأكويني الجميل.. يعجبني أنك تفلّسف كل شيء..، لكن ماذا لو أن التجربة نسفت كل احتمالاتي، كما تعرف أن صديق حواراتنا هايدغر كان يقول بأن الحقيقة هي ليست مطابقة الفكر للواقع وإنما مطابقة الواقع للفكر..!

ابتسم الأكويني لصديقه وقال:

- أتعرف أيها الغوريلا أن من يشاهدنا الآن أو يقرأ عنّا، كما يقرأ في رواية، وينتبه لهذه النقاشات حول المائدة سنذكّره بمائدة أفلاطون وأرسطو والنقاشات حولها. الحقيقية أنا أسكر من هذه النقاشات فهي تنعش روحي أكثر من الكونياك والنبيذ، فهي كالصوّان تقدح الشرار في ذهني.. وبمناسبة هايدغر، فهو قد وضع الوجود والحياة والعدم في دوامة لا حل لها. فالحقيقة هي حق الشيء إذا ثبت قطعًا، الشيء المستقر في محله، فمن سمات الحقيقة هو الثبات والاستقرار والقطع، وبالتالي فإن الوجود بالنسبة له حقيقي، والعدم خطأ..، لكن إذا وضعنا العدم بمقابل الوجود فهذا يعني أننا نقر بوجود العدم، ونقر بعدم ثباته واستقراره، لكنه موجود مع أنه غير حقيقي..! ولا يعنيني الآن أنه غير حقيقي وإنما يعنيني أنه موجود..!

نظر الغوريلا لصديقه متأملا، فقد كان يعجبه أن ينظر إليه وهو يتحدث وكأنه كائن خرافي خارج الزمان والمكان، ثم بعد لحظات ابتسم له قائلا:

- أتعرف.. أنت مجنون رسمي يا صديقي.. أولا أنت دفعتني للابتسام مع أني جئتك غاضبا ومحبطًا، وثانيا، أنا أتحدث عن حبيبتي حواء المتهورة، وها أنت أوصلتني لموضوعك الأثير.. وجود العدم..!

ثم رفع كأسه وقال له:

- بصحتك يا صديقي الغالي.. يا أخي ومعلمي ومفكّري المجنون! صرت أخاف عليك حقًا وليس من هواجس تنبثق من هنا وهناك، انتبه يا صديقي. لا تفتح الباب لأيّ كان، ولا تسمح حتى لطلبتك بزيارتك، الأجواء مكفهرّة هنا في هذا البلد الجميل..!

لم يجبه الأكويني مباشرة. غرق في تأمل حزين مفاجئ، ثم رفع رأسه مبتسما بارتباك قائلًا:

- أنا سعيد لهذه الابتسامة على وجهك وسعيد لأنك صديقي.

فجأة رنّ جرس الباب الحارجي. انتبه كلاهما وكأنهما أفاقا من نشوة مسكرة. توجس كلاهما. نظر الغوريلا إلى صديقه وسأله:

- أتنتظر أحدًا..؟

- لا..

قال الأكويني بارتباك، وتردد أن يروي له بأنه وفق الرجل المتصل من العالم الآخر ينتظر وصول مساعدته في البيت حواء سرّ الختم.

- أبق أنت جالسًا.. أنا سأفتح الباب.

قبل أن يفتح الباب نظر الغوريلا من العين السحرية الموجودة في وسط القسم الأعلى من الباب بواجهة مسقط النظر المستقيم، فرأى شابًا عشرينيًا، طويل الشعر، ظنه مباشرة أنه أحد طلبة الدكتور آدم الأكويني ففتح له الباب وهو يفكر بأن يخبره بعدم وجود الدكتور، لكن ما حدث جرى بشكل غامض ومريب. فتح الغوريلا الباب فرأى الشاب العشريني أمامه:

- السلام عليكم.. قال الشاب

- وعليكم السلام.. رد آدم الغوريلا

- أنا آدم سرّ الختم.. الميت منذ أربعين يومًا، جئت من العالم الآخر لأخبر الدكتور آدم الأكويني شيئًا..

ذهل آدم الغوريلا مما سمعه من الشاب الذي بدا متعبًا وأدرك الغوريلا فورًا بأنه من مدمني المخدرات، فظن أنه يهلوس، لكنه سمع أطراف هذا الأمر من لسان الأكويني ولم يعره انتباها، فسأل الشاب مرة أخرى:

- ماذا قلتْ؟ من حضرتك..؟

- قلت لك أنا آدم سرّ الختم، الميت منذ أربعين يومًا، والآن جئت من العالم الآخر لأخبر الدكتور آدم الأكويني شيئًا.؟

بقى الغوريلا يحدّق في الشاب للحظات طويلة.. ثم قال له:

- انتظر. سأخبره بوصولك..!

حين عاد إلى الصالة حيث المائدة لم يجد صديقه الأكويني، فالتفت ناحية المكتب فوجده يكتب على السريع شيئًا وأنامله سريعة على مفتاح الحروف. اقترب منه وقال له بلهجة فيها سخرية مبطّنة:

- عند الباب شاب يقول إنه ميت منذ أربعين يومًا وأنه قادم من العالم الآخر ليقول لك شيئًا..

- ماذا..؟

فزّ آدم الكويني عن كرسيه.. وقال:

- أين هو..؟ معقول ما أسمع..!؟

أسرع الأكويني بالتقاط عكّازه واتجه إلى الباب بما يستطيع من سرعة مع عكّازه الذي صار يصدر صوتا غير رتيب كالعادة، بينما ظل آدم الغوريلا واقفا، مبهوتا، مما يجري أمامه، ثم سمع صديقه الأكويني يرحب بشخص ما لكنّه يستخدم ضمير المؤنث..

- أهلًا وسهلًا بكِ. متى وصلتِ..؟ تفضلي

- وصلتُ قبل لحظات وضغطت على الجرس. وجاء صديقك ففتح الباب لي..

- تفضلي. قال الأكويني بارتباك.

دهش آدم الأكويني حينما سمعها تخبره بأن صديقه الغوريلا فتح لها الباب بينما هو أخبره بوجود شاب يدّعي إنه ميتٌ منذ أربعين يوما وجاء من العالم الآخر..!.

حين صارا في الصالة استغرب آدم الغوريلا أن يرى امرأة ناضجة مثيرة الملامح وبيدها حقيبة جلديةِ صغيرة ربما تضم ثيابًا قليلة!. في تلك اللحظة قدّم

الأكويني المرأة لصديقهِ قائلَا:

- السيدة حوّاء سرّ الختم.. مديرة المنزل.. ستستقرْ في الشقة، في الغرفة المقابلة للمطبخ.. وهذا صديقي الوحيد آدم الغوريلا..

طأطأت المرأة رأسها بانحناءة رقيقة احتراما وقالت:

- أعرف أنه صديقك. لقد تقابلنا للتوّ عند الباب، فهو مَن فتح البابَ لي..

بهتْ آدم الغوريلا وسأل بغرابة:

- أنا من فتح الباب لكِ؟

- نعم.. أنت.. قالت المرأةُ بثقة.

شعر الغوريلا بأن ثمة شيء ما غامض وغير طبيعي يجري معه، وظن أن ذلك من أثر الشرب، فقال لصديقه الأكويني:

- سأذهب الآن. أحسّ بأنني مشوش قليلًا.. سأراك غدًا..

ثم نظر بتركيز في وجه السيدة التي أمامه وقال لها:

- تشرّفتُ بحضرتكِ سيديتي.. وأوصيك بصديقي آدم..

ولم ينتظر جوابها إذ غادر الشقة وكأنه يهرب منها.

الفصل الخامس

جحيم حوّاء المستكفي

حينما غادر آدم الغوريلا الشقة شعر آدم الأكويني للحظات بالإحراج من بقائه مع حوّاء سرّ الختم، فقد غادر صديقه منذهلًا ومصدوما، وهو يتذكر جيدًا أنه أبلغه عن شخصٍ اسمه آدم سرّ الختم يقول إنه جاء من العالم الآخر ويريد مقابلته!، وحين قام هو بدوره منذهلًا ليتحقق من الأمر، فوجئ كلاهما بأن الذي عند الباب هي حوّاء سرّ الختم!!؟ فمن ترى يقف الآن في صالة الشقة، هل هو آدم الميت منذ أربعين يومًا أم حوّاء سرّ الختم؟

حاول إقناع نفسه بأن آدم الغوريلا كان قد شربَ كثيرًا وكان منفعلًا ومتأثرًا، وبالتالي فمن المؤكد أنه سمع حديثه عن آدم سرّ الختم الميت الذي اتصل من العالم الآخر مرات عديدة، لكن أهذه المرأة هي حوّاء سرّ الختم حقًا؟.

نظر إلى المرأة الواقفة أمامه محرجة والتي كانت لا تعرف ماذا تفعل. انتبه هو إلى ذلك فقال لها:

- اجلسي.. خذي راحتك أولا. وكما اتفقنا ستكون غرفتك تلك التي مقابل المطبخ، وهي جاهزة ولا ينقصها شيء، وإذا ما احتجّت شيئًا فالمطبخ بمقابلك.. ارتاحي الآن وضعي حقيبتك في الغرفة، وبعدها يمكننا أن نتحدث إذا كانت لديك أسئلة ما..

اختفى الحرج بشكل مفاجئ من حوّاء سر الختم وقالت بحيوية:

- أكون شاكرة لك، سأضع حقيبتي فقط، وأعدّ لك فنجان قهوة أم لا تفضل ذلك في الليل..!؟

- أنا مدمن على الشاي.. الشاي الثقيل..

- إذن.. سأعّد لك الشاي..!

حين تحركتْ من أمامه نظر إلى قامتها بشكل عام ثم وجد نفسه مدفوعا للنظر إلى قدميها فقد انبثقت من أعماق لاوعيه خاطرة بأن قدميها ربما تكونان بلا أصابع وإنما بأظلافِ معزةٍ كما في الأساطير عن الأشباح..!.

ما إن ذهبت إلى غرفتها حاملة حقيبتها حتى توجه متكئًا على عكّازه إلى طاولة الكتابة. جلس على كرسيه حول الطاولة، ولم يضع عكّازه جانبًا وإنما وضعه على الطاولة، ثم حرّك فأرة الجهاز وفتح صفحة خاصة بكتابة النصوص.

كان كل شيء جاهزًا في ذهنه لكن ما إن مدّ أصابعه إلى لوحة مفاتيح الحروف حتى أحس بأن كل ما خطط له منذ أيام وليال قد تلاشى مثل ضباب أمام شمس الصباح، وها هو مكتظ بمشاعر مكثفة ووجْدٍ شعري، صوفي، روحاني، وبلا أيّما تخطيط أو قصدية وجهد في الكتابة انهمرت الكلمات والصور عليه فوجد نفسه ليس أكثر من مدّون لفيض لا يعرف مصدره، ووجد نفسه يكتب: أيها العدم... أيها العدم العظيم

أيها العدمُ

أيها العدمُ العظيم

نحنُ غرانيقك التائهة

الغرانيق التي أطلقتها في السماء

غرانيقك التائهة فوق بحر الوجود

لا سواحل نلوذ إليها

ولا شواطئ تعرف الرحمة

الموجُ العاتي يشلّ أجنحتنا المتعبة

والخيبةُ تلاحقنا مثل غيوم سوداء

بحرُ الوجود المدلهم

ينتظرُ سقوطنا المحتوم

ينتظرُ خطيئتنا المقدسة

لا نعرف من آين؟

لا نعرف إلى أين؟

فوقنا سماء سوداء

تحتنا بحر مدلهم

أيها العدمُ

أيها العدمُ العظيم

ارحم قلوبنا الضعيفة

ارحم البريق الآفل في نظراتنا المنكسرة

لا ضوء في الأفق

السماءُ مظلمةٌ ومكفهرة

السماءُ التي تنحني بخوف على الهاوية

ليس سوى بحر الوجود المظلم

والهاوية السوداء

دواماتٌ هائلةٌ تهددنا

دواماتٌ تطلقُ هديرا مرعبًا

ثمة ضوء أسود

يطل من قلب الهاوية

ضوء أسود يدعونا إلى السقوط البريء

أيها العدمُ

أيها العدمُ العظيم

لِمَ أطلقتنا فوق بحر الوجود؟

ها نحن نهوي

نهوي

نهوي

ظلامٌ.. ظلامٌ.. ظلام.

لا يدري كم استغرق من الوقت لكتابة ذلك، لكنه حين أراد أن يواصل الكتابة سمع وقع خطى خفيفة خلفه فخمّن أنها أتت بالشاي فتوقف عن الكتابة.

حين وضعتْ الصينية على الطاولة التفتَ هو إليها وهو على طرسيه حول المكتب. انتبه إلى أنها لم تصنع كوبا واحدًا من الشاي وإنما قامت بعمل الشاي في دورق من البورسلان (قوري)، دورق يحتفظ به لصنع الشاي في المناسبات.

سحب عكّازه من فوق الطاولة وقام من مكانه متكئا عليه متوجها نحوها. جلس بالقرب منها على الصوفة نفسها. صبّت له الشاي، وأخذتْ ملعقة السكر لتضع له في كوبه شيئًا منه. وفي اللحظة التي مدّ هو يده ليأخذ الكوب تلامستْ كفّاهما. ومع أن اللّمسة كانت عفوية وغير مقصودة لكنها أيقظت الرغبة في جسديهما، ومثلما يفتح التمساح عينيه وهو تحت الوحل والطين والأشنات، هكذا فتحتْ الرغبة عينها في أعماق جسديهما.

ارتبك كلاهما. كل منهما ارتبك بطريقته وتداعياته، لكن ثمّة توتر وجاذبية حصلت بينهما. لحظتها فكرّ آدم الأكويني أن يكرر المصادفات غير المقصودة، لكن بقصدية، للاحتكاك بها.

كانا يشعران بأن المسافة القصيرة والقليلة بين جسديهما على الصوفة الجلدية مشحونة بالرغبة. سألته بنبرة فيها توتر وارتباك مكتوم: - كم ملعقة سكّر تحبّ أن أضع في الشاي..!..

لا إراديا قال لها وهو يمد يده إلى قندون السكّر:

- لا عليك أنا أضع السكّر..

لكنها أرادت أن تواصل لطفها في الخدمة وقالت:

- لا. لا. لا مشكلة فقط قل لي كم ملعقة تود..

في تلك اللحظات مسكَ بكفّها ليمنعها من أن تقوم بذلك وأيضا ليأخذ الملعقة من كفّها، فصار تشابك خفيف مقصود بطريقة لا مقصودة حول أخذ الملعقة والممانعة في تسليمها، ومسك أصابعها بطريقة ذات دلالة فهمتها فورا لكنها لم تستنكرها، بل بعثت الدفء في جسدها ونفسها، لكنها مع ذلك وبمرح أخذت قندون السكّر بكامله وأبعدته عنه وقالت باسمة: - لا يمكن.. أنا من سأضع السكّر.. فقط قل لي كم ملعقة..

نظر إليها وانتبه لتجاوبها معه على الرغم من الخفر الذي تبديه ومحاولتها وحرصها التهرب من أن تشي أية حركة منها على موافقتها المبطنة، فقال لها: - كما تشائين.. لكن كم ملعقة من السكر كما تعتقدين أنت تجعل الشاي حلوًا..!.

أحسّت أن في كلامه مغزىً غير ظاهر لكنها لم تفهمه بالضبط، فقط أدركتْ أنها دعوة غامضة لها، فشعرت بالخوف من المغامرة والإجابة التي ربما ستفهم على غير ما تقصد، فسعت للعودة إلى قوقعتها الحلزونية، لكن الرغبة بدأت تنتشر في أنحاء جسدها، ولم تتمكن من الاختباء داخل قوقعتها الآمنة، فقالت: - لا أعرف.. شدّة المرارة هي التي تتحكم بالحاجة لكمية السكر ليتحول الشاي حلوًا..

انتبه لحذرها في الإجابة فقال لها مستسلمًا:

- ضعي تسع ملاعق إذن!

- تسع..!؟ قالت بدهشة.

- نعم.

نظرتْ إليه مستغربة وسألت:

- هل أنت متأكد..!

- نعم...

- لكن.. كيف، ولماذا، فهذه الكمية تشكل خطرًا على الصحة!؟

- أفعل ذلك تيمّنا بالمتاهات التسع..! قال بنبرة بين المزاح والجد.

- لم أفهم..!!. قالت مستفهمة.

- وربما لن تفهمي. أنا كتبت ثمانيَ متاهات، روايات، وها أنا الآن بدأت كتابة المتاهة التاسعة.

صمتت للحظات. كانت مترددة في أن تناقشه نقاشًا مصطنعًا يكشف دون إرادة منها عن جهلها بعالمه وكتبه، فقالت بصراحة الذي يجد في الصراحة راحة ونجاة: - سمعت أنك كاتب. ورأيتك في الأيام التي كنتها في البيت، لاسيما بعد الحادث، تجلس ساعات حول مكتبك تقرأ أو تكتب في الكمبيوتر.

وأرى مكتبتك الضخمة، وأعرف أن لديّك كتبًا وروايات، لكني لم أقرأ لك أي شيء. طبعا أنا لا أدّعي بأنني قارئة نهمة. ربما أُعدّ جاهلة قياسًا إلى الآخرين. أقرأ أحيانًا، وعادة في الليل. هل كتبك موجودة هنا؟ هل استطيع أن أقرأها..؟!.

ابتسم لها بمودة وأعجبه نبرة الصدق في كلامها، فقال بمودة:

- طبعا تستطيعين، لكن أخاف عليك من التوهان فيها.. أفضّل ألّا تقرأيها..

- لماذا..؟ سألت باستغراب.

- لا أعرف.. ربما لأنها ستضعك في مواجهة مع نفسك، وأعماقك، ورغباتك، وجسدك..

صمتت للحظات. أحست برغبة في البوح أكثر عن نفسها لكنها ترددت، ثم عقّبت:

- لا أدري. أنا أكره جسدي. وأكره كل ما له علاقة به، لاسيما العلاقة مع الرجل. أنا أشمئز من ذلك. أكره الرجال قاطبة..!

نظر إليها مستغربًا وقال بنبرة مازحة:

- يعني أنت تكرهيني أيضا..!

فوجئت هي. شعرت أنها قد تسرّعت قليلًا، فهي تكنّ له مودة عميقة منذ لقاءها الأول به. ارتاحتْ له ولرؤيته، ومع مرور الأيام التي كانت تدير فيها المنزل أخذت تشعر بنمو مودتها له، وتحولت المحبة إلى حب عميق صامت دون أن تنتبه لنفسها، فقد تغلغل في أعماقها بشكل يومي كلما نظفّت غرفة نومه ومكتبته ورتبت طاولة الكتابة، بل كانت تحس أنها منذورة له. كانت تستمتع حين تعدّ له الطعام، وكانت تتخيل وجهه ونظرات الارتياح والاعجاب والتلذذ بطبخها، مع أنها لم تشاهده يوما وهو على مائدة الطعام إلّا منذ شهر تقريبا..، أي منذ حادث الاصطدام الذي تعرض له. لقد انتبهتْ إلى أنه مع الأيام صار وبشكل غامض أهم إنسان في حياتها! لذلك أحسّت بأنها أخطأت حين أطلقتْ هذا الحكم اللاواعي بأنها تشمئز من الرجال قاطبة! فهي تدرك أنه أحبّ رجل إلى نفسها وتضعه في موضع سامٍ في حياتها. لقد منحته لا إراديا المحبة كلها التي يمكن لامرأة أن تمنحها لرجلٍ، فكيف تقول في محضره إنها تكره الرجال! بينما هو رجلها هي ولو في الأعماق المكتومة، لذا قالت بارتباك:

- لا. لا. لا أقصد ذلك. كنت أقصد أنني أحتقر الجنس، اشمئز منه، ولا أطيق التفكير فيه..

انتبه آدم الأكويني لحديثها، وشعر بأنه أمام امرأة تعيش اغترابا عن جسدها وتقمعه بقوة وعنف تحت قناع السمو والتعالي على الغريزة..! فقال لها محاولا جرّها للفضفضة في هذا الجانب: - لكنك كنت متزوجة وكان لديك ابن كما أعرف..!

شعر بأنها تأثرت من مجرد ذكر لفظ «لديك ابن»، فقد انكسرت نظراتها وصارتْ أكثر رقّة. وفعلا فقد تذكرت هي ابنها البعيد الذي يعيش مع والده في مدينة أخرى، وشعرتْ بأن هناك اثنان فقط في حياتها تحبهما أغلى من نفسها وتضعهما في المستوى نفسه: ابنها وهذا الرجل الذي يجلس إلى جانبها، مع أنه لا يعرف شيئًا عن هذا الحب، فقالت بارتباك: - نعم أنا متزوجة.. وربما كان خطأ حياتي أنني تزوجت! لكنني على الرغم من ذلك سعيدة بابني وأشتاق له..

وترقرقت الدموع في عينيها وارتجفت شفتاها وسرت مسحة من الحزن على وجهها.. فسأل:

- كم عمره.. ولم هو ليس معك؟!

- أربع سنوات.. لكنه مع أبيه..

- هل أنتما منفصلان؟

- تقريبًا..

- ما معنى ذلك!؟

- حياتنا من الخارج وأمام الناس رائعة بل ومثالية، فهو وسيم الطلعة وميسور الحال ومهذب، لكن حياتنا معا في الحقيقة مأساة. لا تربطني به أية مشاعر ولا رغبة. نحن في عالمين مختلفين، كل يوم يمر أشعر بثقل الخطأ الذي ارتكبته بحق نفسي. كانت لديّ خيارات أفضل من اختياره هو بالذات. أنا أخطأت بحق نفسي، تعجّلت في زواجي منه، ربما لأني كنت أريد تجاوز مشاعر الدونية التي رافقتني منذ طفولتي. عموما هذه قصة طويلة، لكن حياتي في ما بعد وكل وجودي تمحور حول ابني. هو لا يهمني، ولا أي رجل. لم أشعر يوما بأنوثتي معه، ولا يهمني ذلك، بل ما يحزنني الآن هو ابتعادي عن ابني..

وانهمرت الدموع لا إراديا منها. ارتبك هو، ولم يعرف ماذا يفعل أمام دموعها الصادقة ومعاناتها الحقيقية. اقترب قليلا نحوها ومسك كفها بكفه فمنحته كفها طائعة. كانت تحتاج لدفئه وتعاطفه معها، وسمعته يقول لها: - أرجوك لا تبكي.. كفكفي دمعك.. ما كان يجب أن اثير أشجانك. لم أكن أعرف بوضعك..

أخذ يضغط على كفّها، وانتبهت لنفسها وهي تضغط على كفّه أيضا، وسرتْ الحرارة في كفّها وجسدها، فارتعبت من نفسها. ماذا تفعل؟ «هل أنا مبتذلة إلى هذا الحدّ» سألت نفسها، وفجأة، قامت من مكانها هاربة إلى غرفتها..!

بقي هو للحظات جالسا في مكانه، فجأة كمن أفاق من غيبوبة، فقد تذكّر بأنها ترآت له سابقا وحكت له عن ابنها وزوجها اللذين ماتا بحادث وما جرى لها مع ابن أخيها الغامض آدم سّر الختم الذي مات منذ أربعين يومًا! لكنها الآن تتحدث عن زوج وطفل صغير في الرابعة!! ومع ذلك اعتبر كل تلك الحكاية عن حواء سرّ الختم كوهم من أوهامه الروائية!! وغمرته مشاعر التعاطف الجارف مع هذه المرأة، لكنه سأل نفسه: «من هي هذه المرأة إذن؟». وكمّن أزاح ستارة عن نافذة فرأى المنظر، فقد أحسّ بأنه يعرفها، فهي إنسانة قريبة منه وغالية على نفسه فعلًا، ولم يكن منتبها لهذا الأمر سابقًا، لكنه انتبه أيضا إلى أنها تعيش صراعًا نفسيا وكبتًا لا تعيه، فهي امرأة لم تعرف الحب الحقيقي في حياتها ربمّا، وأن تربيتها الدينية المتزمتة شكّلت سلوكها الطهراني ونظرتها الأخلاقية والدينية المتطرفة في تزمتها، والتي تدفعها إلى الاشمئزاز من الجنس، والرجال بشكل عام، لكنه يعرف أن هذا ليس حقيقة، فبقوة وعنف الرفض الأخلاقي باسم المقدّس تكون الرغبة خفية في المدّنس. ووجد نفسه ينهض من مكانه متكئا على عكّازه ويتجه إلى غرفتها.

طرق باب غرفتها فلم تجب. طرقه مرة أخرى ولم تجب أيضًا، فدفع الباب بعكّازه. رآها جالسة على أطراف السرير مطأطأة الرأس إلى الأرض. لم ترفع رأسها إليه. أحسّت بالخوف مما سيأتي. كانت تريد أن تطلب منه مغادرة غرفتها لكنها لم تستطع. شُلت حنجرتها، وتجمّد تفكيرها بحيث كان من الصعب عليها أن تنطق بشيء. كانت تخمّن ما سيأتي وتراه كحلمِ يقظةٍ يمرق أمام عينها الداخلية، لكنها كانت عاجزة عن الرفض!.

جلس إلى جانبها بعد أن وضع عكّازه على طرف السرير. جلس ملتصقًا بها بحيث مس فخذه فخذها، فشعر بحرارة تسري في جسده. لم يعرف بماذا

كانت هي تحس في تلك اللحظات، لكنه انتبه إلى أنها لم تبتعد عنه لتبعد فخذها عن فخذه.

أخذ كفّها بكفّه. كانت كفّها في حجرها فأبقى كفّه هناك. أحس بالدفء المتصاعد يسري في جسده من خلال كفّه التي مسّت فخذيها من وسطهما. حاولتْ سحب يدّها لأنها شعرتْ بكفه قد صارت تمس ما بين فخذيها مسًّا خفيفًا، لكنه أمسك بها بقوة. أحستْ بشيء كانت تهرب منه طيلة عمرها.. مشهد لا تحب أن تجد نفسها فيه. استجمعتْ شتات نفسها ورفعتْ رأسها إليه مستفسرة. نظر إليها بشغف، وبحركة مفاجئة لها قرّب وجهها منه وقبّل شفتيها قبلة كانت تحلم بها من الرجل الذي تحب، لكنها في الوقت نفسه ترفض أي رجل حتى لو كان الرجل الذي تحبه حبا عظيما مثل محبة ابنها.

انتبهت إلى تجاوبها ولو للحظات مع قبلته. ولمّا أفاقت من تلك اللحظات وأرادت أن تبعد وجهها عنه كان هو قد أمسك بوجهها بكفيه الاثنين وأخذ يلتهم شفتيها بشبق وحرارة، ثم أخذ يقبل وجهها، خديها وعنقها الظاهرة، وأزاح الشال الذي يغطي رأسها وغمر وجهها ورقبتها وتحت أذنيها بقبلاته المتهيجة..!

لم تستطعْ أن تصدّه فقد كان قويًا. كانت تشعر بأنها تغطس في أعماقٍ مظلمة رخوةٍ، ولا تستطيع التنفس. حاولت أن تقاوم، بل تخيلت نفسها تقاومه وتبعده عنها، لكن ذلك كان في تخيلها لما يجري معها، أرادت أن تصرخ: لا.. بل صرخت من أعماقها: «لا..»، لكنّ الصرخةَ ماتتْ في أعماقها ولم تخرج من بين شفتيها. انتبهت إلى ذراعه تحيطها ويده الأخرى تجوس في جسدها بحرية.

لم تستطع أن تقاوم قبلاته لكنها كانت تدفع يده الأخرى بذراعيها. وها هو يمد جسدها على بقية السرير، بينما يده تجوب في جسدها. ها هو يمسك نهديها ويعصرهما، بل ويمدّ يده من فتحة الثوب ليمسك بهما عاريين تحت يده. ها هي مستلقية لكنها كانت تتابع حركاته وكأنها تراقب مشهدًا بعيدًا لا علاقة لها به. ها هو يداعب حلمتيها ويعصر نهدها، وها هو يخرج يده من تحت ثوبها ويمدّها على جسدها. يمسّد بطنها.. يهبط بكفه إلى ما بين فخذيها. لحظتها أحست بالانهيار. أرادت أن تنتفض، بل انتفضت فعلًا.. ودفعته دون أن تقول شيئًا وعادت إلى جلستها الأولى.

وقفَ هو أمامها ينظر لهذا الصراع ما بين إرادتها وجسدها المتعطش. لمحها مثل غزالة في الأسر. أحسّ أنها تصارع نفسها. تقدم إليها. دفعها إلى الخلف فصارت متمدّدة على ظهرها. وبخفة رفع ثوبها إلى الأعلى، إلى ما فوق سرتها، واقترب منها.. كانت تحاول الدفاع عن نفسها دفاعًا يائسًا، وفي

أعماقها صراع القبول والرفض. وانتبهت إلى مشاعرها في تلك اللحظة، فهي لا ترفضه بقدر ما هي ترفض فكرة الخيانة حتى وإن كانت بعيدة عن زوجها وغير مرتاحة معه. ووجدت نفسها تعيش في تلك اللحظة التي سمعت أنها تُسمى: صمت الحملان.

كان هو منشغلا بأسفلها. وكانت هي مستسلمة. وفجأة أحسته في داخلها. غمرتها تيارات من الخدر ولم تجرّب مثل هذا الشعور مع زوجها قط.. وسمعته يقول لها: - أحبك..

ومع نفسها قالت له:

- وأنا أحبك أيضا..

ولم يخرج الصوت منها.. وسمعته يسألها:

- هل أنت مرتاحة.. هل تشعرين باللذة؟

صمتت ولم تقل شيئًا.. كانت تخجل من أن تقول ذلك.. لكنّه ألحّ عليها.. فقالت:

- لا تسألني عن ذلك.. أرجوك..

وضمها إلى أحضانه بقوة، ودفع نفسه في أعماقها. فجأة، أحس بها تمسك بذراعيه وهي تكتم آهاتها. ظل في داخلها للحظات، وتدفق الماء فياضًا.

في أعماقها أحسّت أنها صارت له، ملكه، امرأته هو، هو الآن رجلها الحبيب، لكنها أيضًا تشعر بأنها صارت نجسة وخائنة.

بعد لحظات سحب نفسه منها. مدّ يده إلى عكّازه. غطّت هي بسرعة منطقتها السفلى بثوبها. التفتت إليه وقالت متسائلة بخوف: - ماذا فعلتْ..؟ هل تحتقرني الآن..!

نظر إليها بحب وقال بنبرة مشحونة بالحنان:

- أنت مجنونة فعلًا! أنا أحبك بينما تقولين لي هذا..!

ثم قام مغادرا الغرفة متكئا على عكّازه، تاركًا إياها مع نفسها لتكتشف نفسها.

* * *

حين غادرها دخل إلى غرفة نومه. فتح خزانة ما، وأخذ منشفة كبيرة وملابس داخلية ثم توجه إلى غرفة الحمام، بينما تكوّرت هي في سريرها على نفسها وهي تعيش مشاعر متضاربة ما بين الشعور بأنها اقترفت إثما وأنها سقطتْ في بئر الخيانة، وبين نشوتها بأنها احتضنت الشخص الذي تحبه وشعرتْ به نابًضا بكل عنفوان ذكورته في أعماقها، بل إنه حطم أسوارها المنيعة بجرأته واقتحامه لها.

بعدما اغتسل آدم الأكويني توجه بهدوء متكئًا على عكّازه إلى الصالون. سكب الشاي الذي في الكوب إلى داخل الدورق البورسلان لأنه قد برد، وصبّ لنفسه شايًا مرة أخرى، ووضع بضعة ملاعق من السكّر، ثم حملَ كوبه ومضى متكئا على عكّازه واتجه إلى طاولة المكتب.

أعاد قراءة ما كتبه من نص على شاشة الكمبيوتر. ضغط على أيقونة اليوتيوب واختار موسيقى هندية كلاسيكية كانت تمنحه تأملات روحية وترتقي به إلى عالم غامض. أخذ يرتشف شايه ويفكّر بما جرى بينه وبين حوّاء سر الختم، واستعاد كل الذي حدث خلال تلك الأمسية، منذ اتصال الرجل الغامض آدم سر الختم ومجيء صاحبه آم الغوريلا، وما رواه من قصص وأحاديث عن صغيرته الذئبة حوّاء المتهورة وعن الضيفة العراقية التي روت حكاية مؤلمة ومأساوية عما يجري في بلاده. وها هي حوّاء سرّ الختم.. المرأة الغامضة.. لا. هي ليست حواء سرّ الختم! لكن شكلها هو نفسه الذي تعرف عليها فيه منذ يوم مجيئها الأول للعمل! قبل قليل ظن أنها امرأة أخرى يعرفها!! بيد إنه متأكد من أنها حواء سرّ الختم..!. هي المرأة البندول المتأرجحة بين أقصى صعود وسمو روحي وبين أقصى حدود الشبق والتلذذ الجنسي والتهور فيه، المرأة الحلزون التي تطلّ برأسها قليلا مبدية شجاعة نادرة تثير الإعجاب لكنها سرعان ما تخاف نفسها فتنسحب إلى قوقعتها.

وفكّر في الحكاية التي روتها له حين ظهرت عن ابن أخيها الفاسق القواد، آدم سرّ الختم، الميت منذ أربعين يومًا لكنه يتصل به هاتفيا من العالم الآخر، ثم فكر في اختفائها الغامض فجأة وعودتها من جديد بشخصية جديدة لا علاقة لها بتلك الأولى، لكنه انتبه إلى أنه لم يسألها عن ظهورها واختفائها ذاك، ولا عن ظهورها الآن. انتبه لتأخرها لكنه خمّن ربما هي تتحمم.

كانت الموسيقى الهندية قد شحنت ذهنه بروحانية يعرفها جيدًا. وبرغم المتعة والنشوة التي شعر بهما من خلال التحامه الجنسي بحواء سرّ الختم شعر بكآبة عقلية تهيمن على ذهنه وروحه. أحس بالتيه، ووجد رغبة في الكتابة، لكنه انتبه إلى أن ما كتبه وما يضج الآن في ذهنه وأعماقه يكاد يكون ليس من عنده.. وكأن هناك من يدفعه للكتابة دفعًا. وضع كوب الشاي على

الطاولة وفتح صفحة من برنامج وورد لكتابة النصوص، وانهمرت الكلمات عليه من حيث لا يدري من أين: فانوس الندم

الموتُ فضيحةُ الحياة المجلجلة،

ثعبان رابض في قاع بئر الزمن،

وحكمتي جثةٌ

ترقد كمومياء فرعونية

تحت تلال من تراب الفجيعة.

أنا راهب العزلة السوداء

وقربان الخديعة...

ألاحقُ أيامي

حاملًا فانوسَ الندم

لا أرى غير خنازير برية

منفلتة في حديقة الورد

لا أرى سوى أبقار في مقبرة

تقضم زهور الموتى الذابلة.

ليس لديّ سوى نبيذ اليأس

في جرار الذاكرة..

حيثُ الظلال المريبة

حيثُ الأشباح

حيثُ المستنقعات الخضراء للوحشة.

الظلام يهبط على الغابة كنسر أعمى

وفانوسي

فانوس الندم الشاحب

لا يضيء سوى بعض وجهي

بينما أسمع وقع خطىً على الورق المتراكم على الأرض

أغصان تلتوي وتتكسر

صليل الآفاعي ذوات الأجراس

وبريق عينيّ فهد أسود

متأهب في أعلى الشجرة

ربما سينقض عليّ

فانوسُ الندم لا ينير الدرب

سأطفئ الفانوس

وأحتمي بالظلام

يا خيبتي..

لم جئتُ إلى الغابةِ حاملًا فانوس الندم؟

«ياه.. ما هذا؟ من أين انهمرت هذ الصور والكلمات!» قال لنفسه مستغربًا لأنه لم يتعب ذهنه عند الكتابة فقد كان يدوّن شيئًا بدا له واضحًا. الصور والموسيقى الهندية تداخلا أثناء كتابته. فجأة، انبثقت في ذهنه خاطرة بأن يقرأ النص الذي كتبه لحوّاء سرّ الختم. استبطأ خروجها من غرفتها، ظنّ أول الأمر أنها في غرفة الحمّام، ومن مكانه ألقى نظرة على غرفة الحمّام فرأى الباب منفرجًا والمكان غير مضاء، فانكمشتْ نفسه، وتملّكه هاجس بأنها ربما صُدمت بما فعله معها أو أنها في وضع نفسي سيء، لكنه تذكر بأنها وأن لم تبد تجاوبًا واضحا معه إلاّ إنها لم ترفض صراحة، بل وتمسّكت بذراعيه حينما ارتعش جسدها من اللذة!. وبهدوء سحب عكّازه ووقف متكئا عليه.

حين صار في الممر انتبه إلى باب غرفتها الذي كان مفتوحًا. دخل الغرفة فوجد ورقة إلى جانب مغلف على السرير. فوجئ! هل يمكن أن يكون كل ما مرّ به من أوهامه الأدبية!؟. ألقى نظرة سريعة على الورقة. كانت هناك أسطر قلقة مكتوبة قرأها مصدومًا: «أنا لست أنا. وأنت لستَ أنت. أنت مثلي موجود وغير موجود! أنت وهم وشخصية روائية بيد الكاتب الأعمى يا آدم الأكويني! هو يكتبني ويكتبك، كلنّا ظلال العدم، كلنا حضور الغياب، كلنا حضور للعدم». وسأل نفسه: «ما هذا؟ ماذا تعني بذلك..؟»!.

أخذ الورقة والمغلف بيده وغادر الغرفة وهو مكتظ بالمشاعر والأفكار الغامضة. اتجه لا إراديا نحو جهاز الكمبيوتر فوجد أن الشاشة مفتوحة على نص جديد عنوانه «ارقصي أيتها الأفعى» تتبعه نصوص أخرى.

فجأة أحس بارتجاف في قلبه ودوار في رأسه وطبقة ضبابية تغطي أفق الرؤية أمام عينيه وعرق بارد بدأ يغطي جبينه. أحسّ بما يشبه الانهيار الجسدي الكامل، فانتظر للحظات كي تمر الحالة الغامضة، ثم مشى بتؤدة إلى غرفة النوم، وهناك ألقى بنفسه على السرير. راودته لثوانٍ فكرة أنه سيموت، وأنه تعرض لأزمة قلبية. ولم يكن بإمكانه أن ينادي على حواء سّر الختم، وأحس بعرق بارد يبلل كامل جسده. أحسّ بالغياب عن الوجود.

لم يعرف آدم الأكويني كم مرّ عليه في الغياب عن الوعي أو النوم. لم يكن باستطاعته التحديد هل كان نومًا أم غيبوبة. شعر أنها لم تتجاوز اللحظة، لكن شيئًا مؤكدًا أحس به بعدما عاد لنفسه، هو أنه عاد شخصًا آخر!. حين فتح عينيه على السقف أحس بالارتباك. كان سقف الغرفة وكل ما يحيطه قد فقد ألوانه. كل شيء يبدو له بالأسود والأبيض.

ظل للحظات مستلقيا إذ اعتقد بأن الأمر له علاقة بالزوغان اللوني في عينيه. نهض من رقدته وجلس على حافة سريره. اطمئّن إلى أن أزمته القلبية قد مرّت بسلام فهو لم يمت! لكن عالمه تغير من العالم المليء بالألوان إلى عالم مثل الأفلام القديمة، عالم بالأسود والأبيض.

وبهدوء تهض عن سريره متكئا على عكازه. غادر غرفة النوم متجها نحو طاولة الكتابة. جلس حولها على كرسيه. نظر إلى الشاشة فوجد أنها سوداء الخلفية وليست زرقاء، كما أن صفحة النص بيضاء والكتابة عليها بالأسود، لكن الأمر لم يتوقف عند هذا وإنما كل الأشياء حوله هي بالأسود والأبيض.. بلا ألوان. أحسّ أن الأمر ليس عارضًا وإنما صار يرى العالم بالأسود والأبيض..!!.

سأل نفسه إن كانت عيناه وحاسّة البصر لديّه قد تعرضت لضربة ما!. وخاف أن يفقد بصره أيضا.. لكنه سرعان ما أجاب نفسه لا. إنه يرى بدقة ووضوح فلا مشكلة في رؤية الأشياء ولا في البعد والقرب، وإنما المشكلة في رؤية العالم بالأسود والأبيض فقط..

وانبثقت الجملة التي قرأها في الرسالة المتروكة والموجهة إليه: «أنت مثلي موجود وغير موجود! أنت وهم وشخصية روائية بيد الكاتب الأعمى يا آدم الأكويني! هو يكتبني ويكتبك. كلّنا ظلال العدم. كلّنا حضور للغياب. كلّنا حضور للعدم». وسأل نفسه مرة أخرى لكن بانفعال: «ماذا يعني هذا؟ هل أنا غير موجود؟؟ هل مقدر لي أن ألعب دور الأستاذ الجامعي! ومن تراه هذا المؤلف الأعمى الذي يكتبنا؟ لا. لا. هل أنا سكران!؟ ثم ما هذا المكتوب هنا؟». ولا شعوريًا أخذ يقرأ النصوص المكتوبة التي أشارت لها الرسالة: ارقصي أيتها الأفعى

أوراق الورد الأصفر،

ورماد الموتى المنسيين

وبقايا العظام غير المحترقة،

كلها

تلوث نهر أيامي.

القارب الوحيد

ينساب في النهر عند الغروب

والشموعُ المتقدةُ

وحدها

تبتهلُ في أعماق المعبد المهجور.

الأفعى تلتف حول الشمعدان

بينما كاهنات المعبد

يأخذنني من ذراعيّ نحو المذبح

أنا لا أعرفهن

ولا أعرف أين أنا

لا.. لستُ بوذيًا

غير أني

فكرت بالأحلام التي راودت تمثال بوذا الجبلي

الراقد في ظلال الأبدية..

ارقصي إذن أيتها الأفعى

وفق نغمات ناي الإله الأزرق كريشنا

ارقصي أيتها الأفعى

واتركي بوذا في حلمه الأبدي

اتركي حلم الحجارة الجبلية..

كاهنات المعبد

يصبغن وجهي بالألوان

ويحرقن البخور

إذن..

عليّ أن أنثر الرز خلفي

حيثُ تجلس العزلة مبتسمة

وأن أدلق جرة الحليب

حليب وحشتي الأسود.

ارقصي أيتها الكوبرا المقدسة

فالثلج ينهمر خارج المعبد

والسبايا بأغلالهن الحديدية

يدبّبن مثل خيط أسود،

الثلجُ المنهمر يغطي آثارهن

الثلجُ يدفنهن

الثلجُ المنهمر يدفنُ كلَ شيء

لا شيء سوى الثلج الأبيض ينهمر

وينهمر

لا شيء سوى الحليب الأسود

يندلق من جرتي النحاسية.

انتبه إلى أن الألوان التي ورد ذكرها في النصوص لم يحس بها بل كانت تتجسد في ذهنه سودًا أو رصاصية اللون، فلا الورد كان أصفر ولا الإله كريشنا الأزرق كان أزرق، لا ولا كاهنات المعبد كن يصبغن الوجوه بالألوان، ولا الجرّة النحاسية كانت نحاسية اللون!. وسأل نفسه بخوف: «أيعقل أنني لستُ أنا كما جاء في الرسالة.!؟». وأحس بقلق وعدم ثقة ولا يقين في الأشياء كلها يجتاح روحه وذهنه.

فجأة، انتبه للمغلّف على الطاولة. قلّبه من الجهتين، لم يجد عليه أية كتابة. فكّر بأن المغلف ربما يحوي شيئا يفسر له ما يجري وجرى معه.

وبهدوء فتحه، فوجد بضعة صفحات مكتوبة بخط واضح: «السيرة المفترضة لحوّاء المستكفي». ابتسم مع نفسه حينما قرأ العنوان واللقب، لكنه

لم يمنع نفسه من فضول القراءة، فواصل قراءة تلك الوريقات: السيرة المفترضة لحوّاء المستكفي

أنا حوّاء المستكفي. أكتب إليكَ يا آدم الأكويني سيرتي عسى أن تكون مادة ملهمة لشخصية روائية تكتبها في روايتك الجديدة «متاهة العدم العظيم». أنا يا آدم ابنة العدم العظيم. عشتُ حياةً مليئة بالخيبات. لم يكن هناك ممنوعات حقيقية أمامي، لأنه حتى تلك الممنوعات والمحظورات الدينية أو الاجتماعية كنت أتجاوزها أو أستطيع تجاوزها بسهولة لو أردت، لكن في الوقت نفسه لم أُمنح حرية معلنة ولم يُقال لي هذا مسموح!! فقد اختلطت الأمور عليّ، لذا أنا التي كنت أقرّر ما هو مسموح وما هو ممنوع. أنا القاضي والمتهم المخطئ..!.

ولدتُ في الصيف في مدينة شرق البلاد. ولدتُ في البيت على يدِ مولدة عجوز. كان ذلك كما قيل لي عند الفجر. كنت الطفل الأول لأبي وأمي، والثالثة لأبي الذي كان متزوجا ومطلقا! أخوتي من أبي هما: أخ يكبرني بأربع سنوات وأخت تكبرني بسنتين.

حين ولدتُ كان أبي في السجن لأسباب سياسية، لكني ولدتُ ومعي ولدتْ الشُبّهة، لأن أبي كان متزوجًا قبل أمي من ابنة عمه والتي له منها ولد وبنت كما أسلفت، لكنه كان حينها على علاقة مع أمي، التي هي بدورها كانت قبل أبي على علاقة برجل آخر! وحين ولدتُ كنت في الشهر السابع من الحمل الرسمي، فولدتْ معي الشُبهات بأني ربما ابنة الرجل الذي كانت أمي مرتبطة به..!.

قيل لي بأنني كنت طفلة عليلة، ولأني ولدتُ في الشهر السابع لذا غسلّوني بالملح ووضعوني تحت غطاء شفيف كي تصلني أشعة الشمس، ولذا أنا ابنة الشك وابنة الشُبهات، أنا ابنة الملح والشمس.

ذاكرتي كريستالية. أتصدّق أنني أذكر بوضوح ما جرى ما بين الثالثة والخامسة من عمري!!. طفولتي كانت قاسيةً جدًا. تلك السنوات حينما وجدَ والدي عملًا في العاصمة تحضر في ذاكرتي، مثلما لا تغيب عنها مشهد كيف ولدتْ أمي طفلًا ومات يوم ولادته!، وولدتْ آخر بعد شهور، لكن لن أنسى قساوة أمي التي كانت تضربني ضربًا شديدًا ممّا دفع والدي إلى أن يُدخلني روضة للأطفال كي يخلّصني من قساوتها، بل وكان بعد انتهاء فترة الروضة يأخذني معه إلى مكان عمله وليس إلى البيت كي يجنّبني قساوتها التي دفعتني للشكّ بأنها ليست أمي وإنما هي زوجة أبي لا أكثر! وإلا لماذا تقسو عليّ؟ لا أعرف إلى الآن..!.

وعلى الرغم من صغر سني كنت منتبهة لغرابة ما أملكه بين فخذي. مرّة قبضتْ أمي عليّ متلبّسة بالجرم وأنا أداعبه فانهالت علي بالضرب، ما زلت أتذكر ذلك المشهد إلى الآن، ولا أدري إن كان ضربها لي وعنفها معي سببًا لشراستي ووقاحتي منذ الطفولة.

بعد سنوات انتقلنا من مدينتنا الصغيرة إلى العاصمة ملتحقين بأبي. كان هذا الانتقال يعني لي تغييرًا جذريًا مثلما ارتبط في ذاكرتنا بالهجرة، بيد أني كنت أقضي أشهر العطلة الصيفية في بيت خالتي التي تعيش في بلد عربي آخر..!.

كان لدى خالتي أبناء عديدون، وكان اثنان منهما هما الأقرب إليّ، أحدهما يكبرني بسنتين والآخر يكبرني بخمس سنوات، وكانا يتشاجران ويتنافسان على أي منهما ينام إلى جانبي على الأرض في الليل، ومن هنا بدأت أعرف الفرق الحقيقي بين البنت الأنثى والولد الذكر.

كلاهما تحرشا بي، لكني، ولا أعرف لماذا، كنت أميل لابن خالتي الأكبر، بيد أني انتبهت لطبيعتي وتصنيفي الجنسي من خلال تحذيرات خالتي التي كانت تلحّ عليّ بأن ابتعد عن ابنيها..!!.

أتذكّر أول تحرش بي كان من ابن خالتي الأكبر الذي ذات مرة مسك بيدي وأدخلها في بيجامته لأقبض على عضوه! كنت حينها في حدود السابعة وكنت لا أفهم ما يعنيه الجنس، بل كنت أضحك، ولم يثر فضولي حتى، لكن اهتمامه بي كان يعجبني. وتكررت حالات التحرش بي، لكن لم يكن تحرشا بالمعنى الصادم، كان أقصاه هو محاولة تقبيلي أو وضع الذراع على كتفي، لذا فإن هذه التصرفات لم تترك أثرًا سلبيًا على نفسيتي، بل كانت تسعدني لأني كنت اعتبرها من باب الاهتمام الخاص.

كنت الأجمل بين بنات العائلة الكبيرة، لكني لم أكن أميل للتميّز بينهن لجمالي وإنما لكوني الأذكى، فقد كنت أميل للألعاب الذهنية، بل إن أبي علمني الشطرنج وأنا صغيرة، وكنت أرفض، حتى من أصدقاء والدي، أن يطلقوا عليّ اسم البنت الحلوة، والأدهى من ذلك كنت ومنذ السابعة من عمري أميل إلى لبس ملابس الصبيان، ألبس القميص والبنطلون وأرفض التزين بوضع الحلق والأقراط في أذني..، وأميل لأشياء عادة لا تميل لها البنات كالميل للطبيعة، للزراعة، لصيد الحشرات، وكنت أركض مسافات وراء الفراشات لاصطيادها.

أجمل فترات طفولتي كانت حينما زرنا بيت جدتي في قريتهم. هناك بقيت لفترة ستة أشهر. كانت منعطفا في حياتي. هناك بدأت أتعرّف على مفردات هويتي. لم أكن قد بدأت القراءة لكني كنت متوقدة الذهن لاستيعاب واختزان كل ما أراه وأمر به أو أسمع به.

هناك انطلقت شقاوتي وصبيانيتي أكثر. كنت أتسلق الجدران وأغصان الأشجار القوية العالية، وأجلس لأشاهد كرة القدم في التلفزيون، وأفكر في الجنود الذين أراهم في الشوارع وأسال نفسي لماذا نخافهم.. انتبهت إلى أن القانون الذي يحكم البشر هو الكراهية قبل الحب، والخوف من الآخر قبل الثقة فيه..!.

وكان ثمة شخص عربي من أصدقاء أبي درس في أميركا، وكان يحدّثني في السياسة وكأنني ندّ له في العمر والفهم، أثار فضولي لتعلم اللغات، كنت أجلس مع أبي حين يكون مع رفاقه ويتحدثون في السياسة.

أتذكّر جيدًا أنني لم أكن أهتم بنفسي ولا في شكلي، فلم أكن أسرّح شعري كما تفعل أختي ولا أشارك أمي وبقية العائلة الاهتمام بما تشتريه من ثياب وغير ذلك مما يثير الأناث، ولم أفكر قط بأنني أنثى..!! والغريب أن جسدي قد تأخر في نموه الأنثوي، فقد انتظرت إلى الرابعة عشرة من العمر كي تأتيني الدورة الشهرية، بينما أختي الأصغر مني جاءتها الدورة وقد تعدت العاشرة..!.

تعرّفت على عالم الجنس من خلال أفلام البورنو التي كان أخي وأبي يشاهدانها. كما كانت أختي الأكبر تحدّثني عن عالم الرجال والجنس لكن لم يستهوني ذلك أبدًا. كنت أشاهد كل شيء بعيون مفتوحة إلى آخرها لكنها لم تكن تثير فيّ شيئا أنثويا خاصًا. لم أكن أعرف ما هي اللذة الجنسية، ولم أجد في جسدي اندفاعاته. كنت أتقزز من منظر ولوج الرجل في المرأة، بل ازداد التقزز حينما بدأ الشعر ينمو تحت أبطي ومنطقة عانتي. كنت أكره أن أنظر إلى فرجي الذي بدأ الشعر ينمو عليه. كنت أكره شعر عانتي، وظل هذا الأمر يرافقني طيلة عمري، لكن سبب كرهي لشعر عانة الرجل والمرأة كان بسبب أن أخي من أبي كان يدعوني لمشاهدة فيديو جنسي معه، وكان يطلب مني أن نقوم بمثل ما يقوم به أبطال الفيلم، و كان يظهر لي عضوه المغطى بشعر عانته، فكنت أتقزز، وتكرر الأمر إلى أن وصل الأمر بي إلى أن أغرز سكينا في كتفه.

لكن بعد سنوات، ربما في السادسة عشر من عمري بدأت الرغبة تسري خفية في جسدي. لم تكن رغبة قوية، لكني بعنادي حاولت أن أكتشفها،

فأخذت أمارس العادة السرية لاسيما حينما استحم وأكون تحت الدش، لكني كنت أقوم بذلك وأنا مرعوبة. كان ثمة إحساس قوي بأن هناك من يراقبني، وأن عين الله مفتوحة وتراقب ما أفعل، وهو يقول لي إن ما تفعلينه شيء وسخ وحرام.

الغريب أنني حتى بلوغي السادسة عشر لم يكن نهدي قد تفتح، ربما كان انتفاخ صغير حول حلمتي لا أكثر، على خلاف أختي الأصغر مني التي كانت تطفح بالأنوثة، لكن هذا لا يعني أنني كنت بلا مشاعر، فقد عشت في خيالي قصة حب مع ابن الجيران وأنا في السنة الثانية عشرة، وأقصى ما كان يجري في هذه القصة الخيالية أن أراه يبوسني من خدي، إذ لم أكن أجرؤ على أكثر من ذلك، علما أنا كنت مغامرة وأعشق المخاطرة، فقد كنت أمشي على سور السطح العالي وأتباهى بذلك، لكني لم أكن أجرؤ أن أتخيل أن هناك من يلمسني من بين فخذي.

كنت مولعة بالمغامرة والغرابة، فربيّت قردًا، وكنت أسير في الشارع والقرد معي، ربما رغبة لاواعية لإثارة الدهشة وانتباه الآخرين..!!.

أبي كان يرسلني لشراء علب السجائر له لأنه لم يكن يثق بأخوتي. ومع ذلك كنت أحيانا أدخن من وراء ظهر الجميع. كانت لدي رغبة أن أكون صبيا، لذا كنت أرتدي ملابس الصبيان بل وأتَلَثم لإخفاء ملامحي الأنثوية وأتصرف كالصبيان متمنية أن يعاملني الآخرون كصبي، وفي فترة ما سيطرت عليّ فكرة أن ألبس ثيابًا عسكرية تشبّها بالمناضل تشي جيفارا ببيريته ذات النجمة الحمراء.

علاقتي بالأدب والقراءة بدأت حينما كنت في الرابعة عشرة من العمر. في دروس اللغة العربية حيث كنت ممتازة في اللغة والإعراب حتى أنني كنت أصحح لمدرّستي ما كانت تخطئ كثيرا في قواعد اللغة. ومن هناك بدأ التعبير الأدبي يستهويني، فبدأت بكتابة الخواطر. كنتُ محطّ تشجيع المدرّسات، لكني كنت أعشق مادتيّ التاريخ والجغرافيا فكنت أقرأ كتبا خارج المنهج المقرر، وكنت أقرأ جغرافيا البلدان وأحفظ أسماء المدن والعواصم وعدد سكان كل بلد، إلى أن أصل بخيالي الجغرافي إلى السماوات والكون ويبدأ السؤال عن الخالق: أين الله؟ ومن هو الله؟ وأين يسكن؟ وهل هو موجود حقا؟

ذات مرة تعرّضت لموقف خطير. ففي قاعة الدرس سألتُ المدرس: «أستاذ، حضرتك تقول إن الملائكة والروح تنزل في ليلة القدر بأمر الله!؟ طيب وفق أي توقيت تنزل الملائكة إلى السماء الدنيا، بتوقيت مكة المكرمة أم بتوقيت غرينج العالمي!!؟ ففي ليلة القدر عندنا يكون النهار في الجانب

الآخر من العالم فهل هذا يعني وجود أكثر من ليلة قدر!؟». ولولا سماحة الأستاذ لرحتُ في داهية. ومع ذلك كان سؤال الله يشغلني كثيرًا، وكذا تفاصيل العقيدة: أين تقع الجنة؟ وأين تقع جهنم؟ هل هي في كوننا هذا أم في كون آخر؟ ولماذا الله في السماء وليس في الأرض؟ ولماذا نرفع رؤوسنا إلى السماء حين نتوجه إليه!؟ أليس هو أقرب إلينا من حبل الوريد، وهذا يعني أنه هو معنا فلماذا ننظر للسماء!؟ ثم أليس لديه بيت يسمى بيت الله الحرام، فهل هو هناك؟ كنت صبية مليئة بالوسواس، بل كانت رغبتي في معرفة الله أقوى من رغبتي بأن أكون صبيًا..!.

كنتُ فتاة مهملة لا تعتني بنفسها، ولا تنظف جسدها أو أسنانها وتزيل ما ينمو من شعر على جسدها وأماكنه الحساسة. كنتُ غارقة في القراءة وكتابة الخواطر، فلا يمرق الحب في خاطري أبدًا، بل كنت أعتبره ميوعة لا تليق بي. كنت فتاة منطوية على نفسها، فتاة لا تشعر بأنها فتاة..!

علاقتي بأبي كانت سيئة. صحيح أنه كان يحبّني ويثق بي أكثر من أخوتي وأنه في طفولتي أنقذني من عنف أمي، لكنه ضربني حينما كنت في السابعة، وحينما أتى بأخي من امرأته الأولى كرهته أكثر، لكن كرهي الحقيقي تجلّى بشكل واضح حينما ضرب أمي أمامي، مع أنها كانت قاسية معي، فصرتُ لا أنظر إليه كأب وإنما كوحش قاس.

تهشّمت صورة الأب المثال. كنت ألصق به كل شيء سيء، بأنه وسخ، وكذاب، ووحش، وأنه كافر لأنه لا يصوم في رمضان وإنما يقفل الباب في غرفته ويبقى مع كتبه، وأنه يأتي بالأفلام الجنسية التي يشاهدها أخي أيضا.. و. و. و.!.

سقط المثال، بينما انقلب موقفي في مشاعري نحو أمي، إذ وجدتُ فيها المرأة المسكينة، المُذلّة، المُهانة، التي تُضرب مرة بسبب وألف مرة بلا سبب، فهي الخادمة التي لا ترفع رأسها من كثرة الأشغال اليومية، المرأة الحزينة التي يموت لها ولدان لكنها تعوضهما بولادات جديدة..!!.

ومع ذلك صارت هي طاغية أيضا. فهي لا تستطيع أن تراني وأخواتي جالسات أو منهمكات بأشيائنا، إذ تصرخ بنا كي نقوم لننظف البيت. كانت مصابة بفوبيا التنظيف، ليس لديها سوى التنظيف.. التنظيف، التنظيف. وانتبهت للغتها ولمستواها الفكري الهزيل، وعجبت كيف أن أبي المتعلم والسياسي والمثقف تزوج من هذه المرأة الجاهلة والمتخلفة..!؟

كنت في السابعة أو الثامنة حينما ترسخ في ذهني كرهي لأنوثتي، فمعرفتي المبكرة بالفرق بين الرجل والمرأة، ورؤيتي لمصير أمي دفعني للشراسة في رفضي للخنوع الأنثوي، وهذا ما زاد من تعرّضي للضرب بشكل يومي من قبل أمي وأبي! حتى وصل بي الأمر إلى تخيّل قصص رومانسية عن نفسي تبعدني عن هذا الجو العائلي الرهيب.

كنت أتخيل حكايات ومغامرات.. مثلا أتخيل قصصًا متشابكة اكتشف فيها بأنني لست ابنة هذه العائلة التي أعيش بينها، وإنما ابنة عائلة محترمة.. عائلة بشر.. فقد كنت أحتقر عائلتي واعتبرها عائلة وحوش قساة لا يشرّفني أن أكون منهم.

كنت أجلس لساعات أمام النافذة. أتحدث مع عصافير الحديقة والقصص التي تتسلق الجدران. وكنت أتخيل أنها تفهمني وتفهم ما أقول، وأفسّر أية حركة منها باعتبارها جوابًا أو ردًا على ما أقول! كنت أشكي لها وأسألها لماذا أنا الوحيدة في هذه العائلة أتلقى الضرب المبرح؟ فلا أختي الأكبر ولا الأصغر ولا بقية الأبناء يتلقون ولو صفعة واحدة، فلماذا أنا وحدي من يتم ضربها! بل كانوا يضربوني ضربًا مبرحًا، حتى إنني كنت أتخفى عن الضيوف لأن وجهي ويديّ دائما كان فيها كدمات، وكنت أسأل العصافير: إذا كانا، أمي وأبي، يكرهاني إلى هذا الحد فلماذا جاءوا بي إلى هذه الدنيا؟؟

كان أبي يضربني وينتظر مني أن أصرخ أو أتوجع كي يكف عن ضربي، لكني كنت أتحداه ولا أصرخ..!! إلى أن يكفّ عن ضربي لحاله. وكنت لا أكلمه على إثر ذلك لأسبوع أحيانا، فكان يحاول استرضائي بطريقة غريبة، إذ يسألني أتعرفين لماذا ضربتك؟ وكان ينتظر مني أن أقول شيئًا، لكني لا أسأله لماذا ضربتني! كنت أهز كتفيّ لامبالية ولا أسأله: لماذا..؟ فيشعر بالخجل والغضب أحيانا لعنادي.

لكني مع غير أبي وأمي كنت أرد الضربات على كل من يضربني. حتى أخي الكبير حينما كان يضربني كنت أرد عليه الضربات. كثرة الضرب مع نمو جسدي وعقلي صيّرني جسدًا نفورًا مستفزًا. صرتُ أنفر من كل من يمسني حتى ولو ببراءة مثل أبي..!!.

كان نوعًا من التحدي والرفض لعائلتي. كنتُ منعزلة عن العائلة وكأني لا انتمي إليها. كنت لا أجلس للأكل معهم. أحيانا كنت أضرِب عن الطعام لأيام. ومع ذلك لم أكن أشعر بأني مظلومة بل متعالية عليهم، لأني كنتُ متفوقة دائمًا. كنت الأولى في صفي ومدرستي، والأولى الفائزة في المسابقات،

وكنت أشارك في عروض الأزياء المدرسية. كانت لدي ثقة عمياء بنفسي وتفوقي على الآخرين..

أذكر حين كنت في الثالثة عشر. وكنت على سطح البناية التي نعيش فيها، تحرش بي حارس المبنى، وأراد اغتصابي، لكني كنت شرسة فرددت عليه بالضرب. لم أكن أفهم أنه يريد اغتصابي بالمفهوم الجنسي. وتخلصت منه. وحين رأتني خالتي وأخبرتها بالتفاصيل أخذتني إلى الطبيبة لتفحص بكارتي، ولم أكن حينها أعرف شيئًا عن البكارة وعن هذه التفاصيل، بعد ذلك جاءت لي خالتي ببعض الكتب المبسطة لتوضيح ذلك..!.

لم أعش أية قصة حب سوى أنني في الرابعة عشر كنت محط اهتمام ابن الجيران لكن حتى هذه العلاقة لم تكن علاقة لأننا لم نتحدث مع بعضنا أبدًا.

ومع أني كنت أفكر في الله وحقيقة وجوده، وأشكك في ذلك، بيد إني كنت متدينة جدًا، أقرأ القرآن وأختمه لمرات في رمضان. كان هو ملاذي من وضعي الملتبس الذي أنا فيه.

لا أدري إن كنت كائنا مغرورا ومتعاليا بشكل مرضي أو لا!؟ لكن أتذكّر أن أبي وأمي كانا يحاولان دوما أن يشعراني بدونيتي. أمي مثلا كانت تلسط الضوء على نواقصي. تعيب عليّ نحافتي وصغر عينيّ وجسدي الطفولي، لكني لم أكن أبالي، فقد كنت معتدّة بنفسي فأنا الأجمل والأذكى، بل والأبرز ليس بين أخواتي وأخوتي وإنما بين عشرات بل مئات التلاميذ.

في الثامنة عشر تزوجت من رجل تقدم لطلب يدي فوافق أهلي. ولم اعترض لأسباب سأرويها لاحقا. المهم.. حينها لم أفقه شيئًا من أمور الزواج. حتى إن زوجي أخذ بكارتي وأنا بملابسي وسروالي الداخلي.

لم تكن الشهوة والذروة تهمني. كنت أسمع وأقرأ عن العادة السرية وكنت أمارسها لكني لا أصل للنشوة. ولم يزعجني ذلك، لأن ما يهمّني كان هو أن أكون جميلة الجسد ورشيقة. ومع ذلك، ومع اهتمامي بجسدي بعد الزواج لكني كنت أخجل أن أنظر لجسدي، أو أن أتعرى أمام المرآة مثلًا.

لم أتعرف على شهوتي إلاّ من خلال تعرفي على رجل ما من خلال وسائل الاتصال الاجتماعي. أخذ الرجل يتوغل في جسدي ويعلمني معنى الشهوة واللذة، كنت أتعرى له بالسكايب وفيديو المسنجر، ومعه تعلمت الاهتمام بنفسي وبجسدي وملابسي. فأخذت انتقي الألوان. كنت أحب الألوان: الأصفر والأبيض والأحمر كثيرًا، كما صرتُ أهتمّ بالعطور والمكياج، لكن مع ذلك كنت أنفر أحيانا من انعطافي نحو أنوثتي بشكل يهين شخصيتي، لذلك

كنت أسعى أن يكون مكياجي خفيفا وغير ظاهر. وأقولها بصراحة، كان هذا نفورًا مزيفًا هو من بقايا شخصيتي الغلامية السابقة، لأنني اكتشفت هوسي بجسدي. صرت أهتم به بشكل مبالغ فيه. أهتم بأظافري، أظافر كفي وقدمي، وكنت أسأل نفسي ما هو الشيء غير الجميل في جسدي كي أخفيه وأتستر عليه فلا أجد شيئًا!! أرى في هذا غرورًا كبيرا..!؟

لا أدري إن كنت إنسانة طبيعية! كنت أسعى أن أخفي سمات طبقتي الفقيرة، فكنت أتابع مجلات الأزياء والعطور، وصرت مولعة بالأزياء، حتى وصل بي الأمر إلى أن أقوم بتصمم الثياب التي علي أن ألبسها، كي أبدو متميزة بارتداء ملابس مخاطة لأجلي وليست جاهزة.

حتى طبيعة أكلي صارت مختلفة. أنا أحب الحلويات، لكن لا أحب الفواكه وإنما أحب الخضروات. أحب الطماطم والخيار والفلفل الأخضر مع ملح وماء!. كنت نباتية أكره اللحم وروائحه!. الآن ربما أجرّب السمك والدجاج مرة في الشهر، لكني لا أملّ من أكل الفول والعدس.

غريبة الأطوار أنا، فأحيانًا ألتهم السكر الأبيض بالملعقة، لكني أشرب القهوة مرّة، أو أشرب الشاي بالحليب.!.

حينما نضجت وتزوجت تعرضت للتحرش من قبل بعض النساء المتزوجات والفتيات، ولم يستهويني ذلك، لكني كنت أفكر في سرّ الشهوة بين ملامسة امرأتين لبعضهما!. بيد إني أميل للعلاقة العاطفية بين امرأتين تودان بعضهما بعضا لكن دون دوافع جنسية..!

ربما من الغرابة أن أقول إنني كنت أحلم بل وأرغب أحيانا أن أكون، ولو ليلة واحدة فقط، عاهرة، قحبة، شرموطة، فتاة ليل تنام مع ألف رجل. وكانت هذ الخواطر تراودني لاسيما بعد مشاهدة بعض الأفلام المصرية عن فتيات الليل، خاصة فيلم «بئر الحرمان»! وكنت أسأل نفسي: لماذا يباح للرجل بأن ينتقل من امرأة لأخرى حتى لو كان متزوجا بينما تبقى المرأة حبيسة رجل واحد، وما زالت رغبة أن أعيش دور العاهرة مترسخة في أعماقي..!.

أنا معقدة حتى في الجنس. وبالمناسبة أنا لا يثيرني جمال الرجل وإنما قوة صوته ونبرته ورغبته فيّ، صوت الرجل ونبرته هي التي يمكنها أن تثيرني.

بعد فراقي عن زوجي لأسباب يطول شرحها، تهافت الرجال حولي، رجال وسيمون، تذللوا وبذلوا الكثير لإغرائي واغوائي لكني لم أستجب لأحد. أنا أستجيب لرجل يقنعني بجدوى المغامرة معه، لكني بشكل عام حذرة من الرجال..!

زوجي كان يضربني، بل وأحيانا يربطني من ذراعي وساقي بقوائم السرير. صرت لا أصدّق مشاعر الرجال. أحسّهم يكذبون دائمًا. من الصعب أن أصدّق رجلًا، لاسيما لمن ينظر لي كجسد مهمته الاستيلاء عليه واختراقه، حتى أنني صرت أعشق الموت وأتمناه لكي يخلصني من شيء اسمه الرجل. لكني مع ذلك لا أستطيع إذا ما واصلت العيش أن أكون من دون رجل.

أحب الحياة، أحب الطبيعة، أحب الحيوانات، كما حاولتْ الانتحار مرات عديدة، لكني أخاف الدم.. لذا كنت أحاول الانتحار من خلال تناول الأدوية السامة ويبدو من كثرة المحاولات الفاشلة صار لجسدي مقاومة وممانعة ضد السموم. أعيش حياتي هكذا، أحس بالضياع وباللاجدوى.

لم أتحدث عن زواجي، لأنه رحلة عذاب وذكريات يتعالى دخان حرائقها، فهي مسيرة من الألم والمعاناة والسادية. زوجي كان يعذبني ليس بالضرب فقط وإنما بالحرق، كان يشدّ وثاقي على السرير كي يضاجعني بعنف وسادية كما سبق وأن قلت، ولقد فقدت الوعي مرات من شدة الضرب..!.

كان يسكر فيتحول إلى وحش. كان يطردني بالليل فكنت أنام الليل بطوله عند العتبة، والغريب أنه حينما يفيق نهارا من سكرته ينسى ما فعل بي، وكلما أهدّده بالرحيل عنه يهددني بقطع رقبة ابني لو رحت عنه..!. زوجي كائن متوحش ومريض. أقول إنه كائن وليس إنسانا لأنه ليس إنسانا. أمومتي نقطة ضعفي.

لست طيبة، ولا أدّعي بأنني ملاك، لكنني حساسة جدًا، وأتأثر بسرعة فائقة، وأنفعل بسهولة أو تترقرق الدموع في عينيّ وربما أرتجف غضبًا أو أقشعر حزنًا، فأتعاطف بتهور يثير الإعجاب!. البعض يعتقد أنني أفعل ذلك من طيبتي، لكني لستُ كذلك، لأني بعد ذلك أحسّ بالندم لما قمت به من تعاطف متهور، أنا مثل المحسنة في القرية، في قصة قرأتها يوما ما، والتي كانت تملأ جيوبها بالقطع النقدية الصغيرة لتوزعها على الفقراء والشحاذين بباب الكنيسة لتشعر بالرضى عن النفس ولتؤكد لنفسها بأنها طيبة وخيّرة.. لكن حين صارت غنية وصارت كلما تذهب للكنيسة تتمنى ألّا ترى متسولًا أو شحاذا ليسألها إحسانًا، لأنها لم تعد تحمل القطع النقدية الصغيرة، وإنما الأوراق النقدية الكبيرة، وهذا كثير على هؤلاء الشحاذين، وإذا ما اضطرت إلى منح قطعة ورقية لأحدهم فأنها تظل الأمسية كلها تأكل بنفسها وتندم لأنها ذهبت للكنيسة أو لأنها خوفا من اللياقات الاجتماعية لم تمتنع من الإحسان.

أنا أحب أن أكون محاطة بالنيران على ألّا أحترق، أو أن انظر إلى الثلج من النافذة وهو ينهمر ليغطي الأشياء، من دون أن أخرج للتعرض للبرد

وانهمار الثلج! أكره حياتي الرتيبة الساكنة الميسورة حيث كل رغبة يمكن أن تتحقق، وكل ما تتمناه امرأة من اكسسوارات لحياتها بمتناول اليد، إلّا الحياة نفسها، إلّا الإحساس بإنسانيتي وأنوثتي العميقة الغامضة وليست الظاهرة، إلّا الحياة التي تضج بالرغبات، والمغامرة. أحب أن أعيش حياتي مغامرة كبطلة في رواية، بطلة تمر بالجحيم وبدروب الآلام، لكن بشرط ألّا تفسد عليّ سكون حياتي المملة وتقلب حياتي الزوجية رأسا بحيث ينهار كل شيء.

زوجي لم يكن رجلا أصيلا وعفويا بحيث يقوم بالأشياء مهما كانت صغيرة أو مهمة أو عاطفية بشغف، وإنما هو رجل تقليدي يرغب ويحب وهو في ذلك يسعى لتقليد الرجال الآخرين في الحب والرغبة. هو رجل متحذلق لا أكثر. رجل يرغب أن يكون كما يرغب الآخرون أن يكونه، لا ذائقة خاصة به. تهيمن عليه ذائقة الآخرين. رجل يفتقد الأصالة.

زوجي الذي يحسده الأخرون على زوجة جميلة ولطيفة مثلي، كان يسكر ويدخن الحشيش ويسهر مع أصدقائه برفقة العاهرات، واكتشفتْ أنه لم يكن راضيًا عن نفسه، لا عن سكره وعربدته ولا عن ضربي، وحين أسأله لماذا يسكر الليالي ويعيش حياة الفسق فيتألم ويعترف بأنه لا يريد ذلك وإنما يبغي أن يثبت لأصدقائه بأنه ليس أقل منهم رجولة، وأنه رجل حر لا تتحكم به زوجته، حتى لو كانت لطيفة وجميلة وعاقلة مثلي!. يا للرجال التعساء.!.

ضربة القدر التي حطّمتني أو ساعدتني بالتخلص من حياتي الزوجية الخالية من الحب هو وجهي الآخر، وجه الأنثى اللعوب الخبيثة! ألم أقل إنني لست طيبة.

التاريخ يعاقبنا أحيانا من خلال تصرّفات بسيطة غير مقصودة لكن يمكن لها أن تشتت حياتنا من حيث لا ندري. وهذا ما حصل. ففي فترة مراهقتي كان هناك شاب معجب بي، يتبعني في طريقي إلى المدرسة أو السوق. كان جريئًا. مرة اقترب مني وقال لي: أحبك. وأخذ يكتب لي رسائل عاطفية ويرميها إليّ عبر شباك غرفتي. استمرت هذه المغامرة لأشهر. كنت في السادسة عشرة من عمري، ثم اختفى هذا الشاب. بعد فترة جاءتي اتصال في تليفون البيت الأرضي، وكنت قريبة من الهاتف فأخذت سماعة الهاتف فجاء صوت رجل عرّف بنفسه، فأدركت أنه أخو حبيبي، وأخبرني بأن حبيبي مات!. لم تكن صدمتي كبيرة. تأسفت له، لكن الأخ أخذ يهاتفني. كنت أحسّ بالتشتت، لكن عناد الأخ وإصراره دفعني إلى أن أتقبله لا إراديا، وهكذا بدأت علاقتي مع الأخ الذي صار حبيبي الحقيقي.

أخذنا نتهاتف. حبيبي هذا كان انتقالة كبيرة في حياتي كامرأة، فقد علّمني كل ما له علاقة بالجسد. كان عنيدًا وجريئًا، لكنّه كان صادقًا، فقد تقدم طالبًا يدي لكن أهلي رفضوا، من دون أن يخبروني بالأمر، وسبب رفضهم هو أنه يتيم ولديه ستة أخوة وأخوات، رفضْ أهلي له دفعه لمغادرة المدينة. وبعد سنتين تقدم زوجي لخطبتي. لم أره، لكن أمي قالت: «جاءنا بعض الناس طالبين يدك لشاب من العائلة الفلانية»، وهو لقب عائلة حبيبي نفسها، وذكرت عمر الخطيب وبأن لديه ست أخوات وأخوة، فظننته حبيبي نفسه فأبديت الرضى وعدم الاعتراض، إذ لم يكن لدي علم برفض حبيبي الحقيقي قبل سنتين من ذلك، ولم تتكشف لي المصيبة، ولم أفق من ورطتي إلّا حينما اتصل بي حبيبي مباركًا بسخرية وشماتة على الخطبة..! فعرفت أن خطيبي هو ابن خالته وروى لي ما جرى معه، لكنه أخذ يشاكسني ويتهمني بالخيانة. وعنادً له واصلت الخطوبة والزواج.

خلال السنتين التي اختفى فيهما حبيبي تزوج من امرأة أخرى، لكن صدمته في زواجي من ابن خالته دمرته فطلّق زوجته وأخذ يتبعني كظلي!! وكنت أنا قد تزوجت وأنجبت، لكنه لم يكفّ عن ملاحقتي. كان يزور مدينتنا ليقضي الوقت في متابعني، بل وصار يبحث عن أية فرصة أو مكان أكون فيه كي يراني. واشتعلت رغبته في امتلاكي حينما رآني وقد تحوّلتُ إلى امرأة ناضجة ومثيرة. وبطريقته الذكية حاول الحصول على رقمي، وأخذ يتصل بي حينما يتأكد بأن زوجي غير موجود في البيت، فيحدثني عن حبه، وكيف أنني سأكون له وحده مهما طال الزمن، بل وأنني زوجته مع أني متزوجة من ابن خالته، وأخذ يحدثني عن جسدي ورغبته فيّ، وبصراحة أيقظ الرغبة في داخلي من جديد. صرت مجنونة به، حتى صرت أخاف أن أردد اسمه في النوم.

كان يمتلكني بصوته، يثيرني. أشعر بالبلل والشهوة، أرفض زوجي، فيضطر زوجي لاغتصابي. كان صوته يطفئ لهيب شهوتي، بينما كان هو يستمتع بشهوتي المكبوتة..!! الغريب كان هو يحكي كل التفاصيل وأنا استمع فقط، ومع ذلك كنت أبتّل وأرتعش، إلى أن حصلت الكارثة، إذ عرف زوجي بطريقة ما من نفاق العوائل وخبثهم بالقصة القديمة، بأنه طلب يدي وأهلي رفضوه، فبدأت الشكوك في ذهن زوجي.!

يوم سمع زوجي بخبر خطبة ابن خالته ورفضه من قبل أهلي قبل سنوات طلقني طلقة واحدة، وفي اليوم التالي ردّني إلى عصمته، وقال معتذرا ومبررًا بأنه لا يستطيع العيش من دوني، وإنه واثق مني، مثلما واثق من أن ابن خالته سافل وحقير ونذل.

لكن حدث بعد ذلك أن التقيا، زوجي وحبيبي، في مناسبة عائلية، فبصق زوجي على حبيبي أمام الجميع، وتبادلا السباب والشتائم الفاحشة واللكمات، وتحوّل الأمر إلى فضيحة أنا بطلتها الغائبة، صارت حكاية مليئة بالشائعات، فبات البعض يتهمني بالخيانة، والبعض الآخر يروي قصصًا عن شقق وهمية وبيوت ولقاءات وخيانات وآهات، بينما في الحقيقة أنا كنت أتجنب الانفراد بحبيبي في أية خلوة. كنت واثقة من أنه سيغتصبني، فقد كان شرهًا وشبِقًا وأنا كنت أخاف من ضعفي أمامه، وقد كنت أبتل من صوته تليفونيًا فكيف إذا انفردت به..!؟

وعلى الرغم من أنني متزوجة منذ أكثر من عقد من الزمان إلّا أن خبرتي الجنسية لا ترتقي لخبرة امرأة متزوجة وأم بعمري، فزوجي بعد ولادة ابني صار لا يقترب مني قط، ربّما مرة في السنة أو السنتين، فتوجهت بشراهة إلى العادة السرية لكنها لم تحقق لي السلام النفسي، لأني لا أعرف أن أتخيل. كنت مستعدة لأي رجل يمكنه أن يضاجعني في الحقيقة وليس في الخيال، كنت أريد اللحم الحي أن يخترقني ويغمرني. ذهني فقير وخيالي شحيح، لذا تعبت من العادة السرية، وصرت أبحث عن سبب عدم استحابتي وتلذذي بالعادة السرية!! فذهبت لعيادة طبيبة نسوية، وكانت صدمتي كبيرة حينما عرفت بأن غشاء بكارتي لم يفض تماما، حتى هي استغربتْ حين عرفت بأنني أم فأخبرتها بأن ابني ولد بعملية قيصرية.

بعد الفضيحة التي جرت في تلك المناسبة العائلية فارقت زوجي، ولم يعترض هذه المرة، لكنه احتفظ بابني. ومع أنني أم وأشتاق لابني لكنني أعرف أن بقاءه مع أبيه أفضل له، فعلى الأقل هناك بيت يأويه وخادمات في المنزل يخدمنه، ويأكل أفضل الأكل، ويلبس أحسن اللبس، فهو وحيد أبيه.

ومع أني مررت بصعوبات كبيرة بعد انفصالي عن زوجي بيد أني واجهت نفسي على حقيقتها.. صرت لا أعرف تلك الفتاة التي كنتها طفلة وصبية مراهقة. لم أعد أثق بنفسي كما كنت سابقًا، لاسيما بعد تجربة الحب التي مررت بها بعد الانفصال، حيث عرفت اللذة، فصرت لا أقبل بالكلمات ولا الصوت أن يحركني. الإيلاج وحده هو راحتي ونشوتي، لكنّي أيضا معقّدة في هذا الأمر، فعلى الرغم من ثورتي على عالم الرجال ومقتي لهم، وبحثي المخلص عن أناي وذاتي لكني قبلت أن أتزوج سرًّا زواجًا عرفيًا كزوجة ثالثة، زواجا غير موثق ومسجّل في المحكمة..!

نعم.. هذه حقيقة. وقد قبلتُ بهذا الزواج راضية وغير راضية، فأنا غريبة الأطوار، أنا أرى أن الزوجة الأولى قد انزاحت عن مكانتها بأن تكون مركز مشاعر زوجها وولعه ورغبته. هو حب فارغ قائم على الالتزام فقط! بينما

الزوجة الثانية مركز ولعه وشغفه، أما الثالثة فهي الأقرب لأن دافعه ليس الشهوة فقط وإنما الشغف الممزوج بالالتزام! بقية الاجراءات الشرعية شكلية..!.

المهم.. إن زوجي الجديد على الرغم من أنه قانوني بارز وشخصية مدنية وحقوقية بارزة، لكنه في مسألة الجنس ورغباته الجنسية لا يختلف عن أي إمام مسجد أو مفتي زواج أو شيخ متعة. أكل رأسي باسم حرية المرأة وحقي في التحرر الجنسي والاختيار، بينما كان كلّ هدفه أن يجعلني عشيقته، ولما واجه رفضي لهذا الدور، اقترح عليّ الزواج العرفي! وأنا المرأة المتمردة التي أبحث عن حريتي وأناي وذاتي والتي تعتقد أنها مثقفة وافقت صاغرة تحت ضغط الشعارات التي وضعتها لنفسي!. وافقت أن أكون مع زوجتين أخرتين، واحدة هي السيدة المعترف بها رسميا وأخرى مثلي..!.

أنا امرأة معقدة ومريضة!. أمر أحيانا بحالة أحتقر فيها نفسي. كنت أعتقد نفسي امرأة قوية رومانسية تتسامى فوق الشهوات، إذ قد تراكمت في داخلي طبقات من مشاعر النفور والاحتقار والاشمئزاز من الرجال ومن الجنس بالتحديد، لكن هذا القانوني الذي يلوي عنق الحقائق والقوانين، محامي الشيطان هذا، تمكّن مني. أنا لا أعرف من هذا الزواج سوى لحظات النيك. لاتستغرب من ألفاظي التي تبدو مبتذلة، الابتذال ستجده لدى هؤلاء الذين يتحدثون بلغة صوفية تقطعها آيات الله أو أحاديث نبيه أو مقولات المفكّرين لكنهم كالخنايز يتشممون الفروج..!!.

دعني أتحدث براحتي وبصراحة. لا رومانسيات ولا حب. هو يأتيني خاويًا من المشاعر، فقد استهلكها مع النساء الأخريات، بل حتى الجنس صار يقوم به معي وكأنه واجب، وأنا بدوري أدّعي أنني وصلت معه للذروة، فقط من أجل استرضاء رجولته!. لا أشعر بالأمان معه، أتوقع الانفصال في أية لحظة. أحيانا أحس أنني أكرهه وأكره كل دقيقة عرفته فيها.

أنا لا أعرف شيئًا عن زوجته الرسمية والأخرى العرفية. هو قد برّر ذلك وكأنه المتفضل على هاتين الزوجتين، وأنه تزوج الأخرى الثانية بينما كان بإمكانه أن يتخذ منها عشيقة وحسب، لكنه أراد حمايتها اجتماعيا لذا باسم الشرع المستمد من الدين الذي هو لا يعترف به ويحتقره تزوجها وتزوجني أيضًا..!

إلى أي حد أنا متناقضة بإدّعائي التحرر!. هل هناك امرأة متحضّرة، معتدّة بذاتها ومتمسكة بحريتها، تركت عائلتها وانفصلت لتجد ذاتها تقبل أن

تكون زوجة ثالثة في زواج عرفي من شخص كذّاب تكتشف كذبه في كل لحظة وكل يوم!! زوجة ثالثة!! والحقيقة أنا قد تعبت معه..!.

الغريب حين التقيه أشعر نحوه بالكراهيه، فهو كذاب دعيّ، لكن ما إن أفارقه حتى أشتاق إليه. الشيء الوحيد الذي أشعر فيه أنني أحبه حينما أكون معه في السرير، خارج السرير هو إنسان غريب عني..!..

والغريب حين أكون معه في السرير أحس أنني أعشقه. أفعل له كل ما يطلبه مني حتى لو لم أستسغ ذلك. أحيانا أشعر أنني أنام معه فقط كي لا أخسره، فلم أعد استمتع معه!. تجربتي معه أثبتت لي بأن معظمنا رجالًا ونساء نستخدم الحرية والثقافة والأفكار التحررية لإشباع غرائزنا، للتصالح مع أنانيتنا وشهوتنا للتملك، لتملك الآخر..!.

سأقول لك شيئًا أيها الأكويني: إنني على الرغم من كل ما مررت به من معاناة وإهانات وأذى، ومع أنني لم أقابل في حياتي إلّا الوحوش من البشر لاسيما الرجال، فأنني أحاول أن أجد التبرير لكل شيء.. وأن أقنع نفسي ألّا تفقد إيمانها بالإنسان، وأفلسف الأمر مع نفسي بأن هناك البشرية وهناك الإنسانية، فقد أفقد إيماني بالبشرية لأن البشر قبل كل شيء حيوانات لا يعرفون سوى الأكل والشرب والنيك، وهم أوغاد وقتلة ومشعلو حروب، منافقون أشرار، كذابون، مستغلّون، مرضى، بينما الإنسان هو حامل الروح في هذا الكائن البائس، وهو الحامل لقيم الخير والعقل والفكر والجمال، البشر بشر، يحتاجون إلى عصور كي يصلوا إلى مرحلة الإنسان والإنسانية..!

وسأقول شيئا آخر...».

وانقطع النص. ووجد آدم الأكويني نفسه وكأنه في قفص خانق، وسأل نفسه: «من هي هذه الحوّاء المستكفي!؟ ولماذا تركت لي هذه الأوراق وهذه السيرة الغامضة؟ وما علاقتها بحوّاء سرّ الختم؟ كيف جاء المغلف إلى الغرفة في شقتي؟ وأين اختفت حوّاء سرّ الختم؟ هل كانت موجودة أم لا؟».

لم يجد بارقة ضوء في عتمة هذه الأسئلة. أحس بانقباض نفسه، فقام بتكاسل متّكئا على عكّازه.. ومضى إلى غرفة النوم ليستلقي قليلا على سريره.

الفصل السادس

الليلة الغامضة

فزّ آدم الأكويني من نومه فزعًا وهو في غرفته المظلمة. أحس وكأن الدنيا تدور، وثمة أصوات هائلة وصفارات إنذار تأتي من النافذة، بل وأحس إنه لا يستطيع الثبات مستلقيا على سريره، فالسرير يتأرجح يمنيا وشمالًا. وكان لا يدرك بعد ماذا يجري، فنهض عن سريره مرتبكًا، وذهب متأرجحا إلى زرّ الكهرباء.. ضغط عليه، فأضاء الغرفة نور أبيض، إذن هو فقد حاسة الألوان. انتبه إلى أن المصباح المتدلي من السقف يتأرجح كالبندول. عرف أن المبنى تعرض إلى هزة أرضية..!

وما إن غادر الغرفة حتى مدّ يده إلى زرّ الضوء الخاص بالصالة عند باب الغرفة، لكنه وجد أن جهة المكتب مضاءة بضوء الشاشة الفضي، وحين اقترب وجد نصًا يتضمن إعلانا على الشاشة:

«نحيط المواطنين الكرام من سكان حي (الجحيم - أونفيرنو) وبالأخص سكان الحي التاسع علمًا بأن البركان القائم على قمة الجبل ربما سينفجر خلال تسع ساعات، لذا نهيب بالجميع مغادرة بيوتهم والابتعاد عن المدينة للساعات المقبلة»...!.

فجأة اهتزت الشقة. تأرجحت قليلًا مرة أخرى، لكن بعد لحظات استقر كل شيء. فكّر مع نفسه «عليّ مغادرة الشقة فربما ستتعرض البناية لهزة أرضية ارتجاعية، ثم إن الإعلان لم يشر إلى احتمال الهزة الأرضية وإنما يشير إلى احتمال انفجار البركان في الساعات التسع المقبلة، لكن كم مضى على

الإعلان؟»، ودقّق في الوقت الذي وصل فيه الإعلان فانتبه إلى أنه أرسل قبل نصف ساعة.

فجأة رنّ هاتفه النقال. نظر إلى الشاشة واستغرب الاتصال، فاستجاب للمكالمة فورًا وقال بنبرة انفعال واستغراب:

- الأستاذة حوّاء العاقل! ياأهلا وسهلا. خيرًا. (بعد لحظات صمت)، ماذا؟ تريدين أن تستشيريني في أمر أطروحتك!؟ ماذا؟ (لحظات صمت) أنت جادة في أنك تريدين أن تبحثي في هذا الأمر؟ هذا أمر غير مسبوق فعلًا. «بونافنتورا والطريق إلى الله - مقارنة بينه وبين توما الأكويني-». طيب، يشرفني ذلك. متى!؟ اسمعيني أستاذة حوّاء، أنا في إجازة مرضية، أُصبت في ساقي، فهي مجبّرة بالجبس، وأتحرك على عكّاز. لا يمكنني المجيء إلى الجامعة، كما أن الإعلان عن ترقب انفجار البركان ومغادرة السكن والمدينة يجعل من اللقاء غير ممكن حاليا. لحظة. ثمة إعلان جديد. لحظة رجاء..

في تلك اللحظات قرأ وهو يقترب برأسه من الشاشة إعلانا عاجلًا جديدًا:

«نهيب بجميع المواطنين بأن اللجنة الجيولوجية التابعة لوزارتي الزراعة والدفاع تؤكد زوال خطر الانفجار الذي كان مرتقبًا، لذا لا يجب مغادرة البيوت والمدينة.. وسنفيدكم بأي تغييرات لاحقة.».

ثم واصل حديثه:

- للتو قرأت إعلانا جديدًا عن زوال خطر انفجار البركان، لكن هل يمكنك التفضّل بالمجيء إلى هنا حيث أعيش، سيسرني أن نتحدث بهدوء، فلقد أثارتني جرأتك في رغبتك التوغل في عالم فلاسفة العصر الوسيط المسيحي، وأتمنى لو ربطت ذلك بما كان يجري في بلاد فارس من طروحات فلسفية عند ابن سينا والرازي الكبير!.. ماذا؟ ماذا قلتِ؟ طيب، غدًا سأنتظرك في الساعة الحادية عشرة.. ماذا؟ نعم، أسكن في حي (الجحيم - أونفيرنو).. جحيم دانتي طبعا. نعم، في الحي التاسع، المنطقة التاسعة، المبنى التاسع، الطابق التاسع، الشقة التاسعة.. يبدو قدري هو مع الرقم تسعة هذه المرة..!. أسعدني سماع صوتك.. إلى اللقاء.

كان آدم الأكويني قد ابتعد عن طاولة المكتب أثناء حديثه الهاتفي لاإراديا.. ووجد نفسه في وسط الشقة. فكّر أن يذهب إلى غرفة حواء سرّ الختم، فربما هي هناك كما تعود من ظهورها وغيابها.

حين صار في الممر إلى الباب الخارجي وجد باب الغرفة مفتوحا على آخره ولا أحد هناك. لم يأبه للأمر كثيرًا ولم يستغرب، فقد اعتاد الحضور والغياب لحواء سرّ الختم..!.

توجّه إلى المطبخ. فتح إحدى الخزانات المثبتة على الجدار وأخرج علبة مسحوق الشكولاته مع دورق نحاسي، وبهدوء وكأنه يقوم بعمل آلي اعتاد عليه، فتح باب الثلاجة، وأخرج علبة حليب. سكب منه في الدورق النحاسي. أشعل الطباخ ثم بدأ يسخّن الحليب، وبحركة آلية فتح خزانة أخرى وأخذ كوبا كبيرًا. وضعه على الطاولة، ووضع فيه أربع ملاعق من مسحوق الشوكولاتة! لكنه كان طوال الوقت هذا يفكّر في المحادثة التي تلقّاها من حواء العاقل.

حينما أعدّ لنفسه كوب الشوكلاته الساخنة واجه مشكلة كيف يحمله بكف واحدة وهو يتكئ على العكّاز، فجلس على كرسي حول الطاولة الصغيرة في المطبخ مستغرقا في استعادة الحديث الهاتفي الذي غمره بمشاعر دافئة وفرح فكري نادر.

أخذ يستعيد صورة هذه المرأة التي أثارت اهتمامه منذ رؤيتها للمرة الأولى في مكتبة الجامعة. استعاد مشهد تعارفه بها، وتذكّر الآن بمحبة ذلك اليوم الذي رآها فيه للمرة الأولى. كانت المكتبة فارغة من روادها من الطلبة والأساتذة، وهي بشكل عام شبه فارغة. تذكّر ذلك اليوم بتفاصيله المملّة جيدًا حين قابل أمين المكتبة عند بابها فحيّاه، وحينها قال له الأمين إنه سيعود بعد قليل! فدخل هو المكتبة. كانت فارغة، لكنه لمح عند أحد أرففها الخاصة بالكتب الفلسفية فتاة محجبة ببنطلون جينز، ترتدي بلوزا تتقاسمه ثلاثة ألوان نعم. يتذكر التفاصيل كلها: الأسود من القسم الأعلى وفي الوسط اللون البرتقالي الفاتح الذي هو بلون شالها الذي تتحجب به بصرامة، واللون البني الفاتح المائل للأبيض والذي يغطي القسم الأعلى من بنطالها، وانتبه حينها إلى أنها تلبس حذاء عاليا بخيوط كثيرة لكنه بلون شال حجابها.. يتذكّر الآن بأنه أعجب بالتناسق اللوني لاسيما لون الحذاء مع حجاب الرأس. كانت طويلة القامة نسبيًا وتميل للنحول.

فجأة، انتبهت لوجوده فالتفتتْ إليه. التقت عيونهم. ابتسمت له بارتباك وضياع كامل. شعر نحوها بعاطفة مفاجئة ولطف يغمره نحوها. أحبّ نظراتها وابتسامة الموناليزا الغامضة على وجهها. لا يعرف لماذا ركّز عليها، فهي هادئة

لحد الارتباك. بل إنها لو كنت بين عشرات الناس فهي ستبقى وحيدة وهادئة ومرتبكة. ابتسم لها بلطف ومودة. ولكي تخفي هي حرجها واصلت البحث بين الكتب. كانت تقف أمام الكتب الفلسفية المختصة بفلسفة العصر الوسيط في أوروبا وهو العصر الذي تخصص هو فيه، فراقه ذلك أكثر، ووجد في نفسه الرغبة في أن يسألها عمّا تبحث، لكنه بطبعه لا يحب التواصل مع الآخرين، لذا استغرب رفيف قلبه لهذه المرأة التي تميل إلى النحول. وجد الفرصة حينما رآها تسحب كتابه عن فلسفة توما الأكويني. التفتت إليه مبتسمة حينما رأته ينظر إلى الكتاب وعلى وجهه فرح طفل. وقبل أن يبادرها بالكلام قالت له:

- دكتور آدم.. لقد قرأت كتابك عن توما الأكويني، وهو الذي صار لقبًا لك، لكنّك في رواياتك لا تتبنى فلسفته.!

أحس بفرح غامر واجتاحته تيارات من شعور لذيذ وقال لها:

- هذه ملاحظة دقيقة، لكنها تعني أنك قد قرأتي كتابي هذا عن توما الأكويني وكذلك متاهاتي، أليس كذلك..؟

رمشت عيناها بسرعة ارتباكا وخجلًا، وقالت بصوت خافت:

- نعم.. قرأت كل كتبك..

وطأطأت رأسها حياء وكأنما قد اقترفت إثمًا. مرّت لحظات صمت بينهما، لحظات قصيرة ومعددوة، لكنها كانت وكأنها أمد طويل، فقد كان كل منهما ينتظر الآخر أن يقول شيئا. هي كانت تنتظر تعليقه على ما قالت، وهو كان ينتظر منها أن تواصل كلامها. فجأة قال لها:

- هذا أمر مثير..! هل لنا أن نجلس قليلا لنتناقش. لقد أثرت فضولي بملاحظتك لاسيّما وأنت قد قرأتي كل كتبي.

يتذكّر الآن كيف أشار بيده إلى الكراسي التي تحيط بطاولة المكتبة الطويلة والتي تمتد لأمتار عديدة. نظرت هي إليه نظرة خاطفة ومشت أمامه إلى حيث الكراسي مطأطأة الرأس فلاحت منه نظرة خاطفة إلى هيكلها من الخلف.

ومع أنه كان يعرف أن المكتبة فارغة إلّا منهما فقد تلفّت محترزًا أن يكون هناك من يراقبهما، علمًا أن الأمر طبيعي جدًا في هذه البلاد، فهو لا يثير الريبة فحتى الأستاذ المتدّين يمكن أن يجالس طالبات محجبات، فالمكان

مفتوح وعام وليس خلوة، لكنه يحترز لكونه أولًا ليس من أهل البلاد، وثانيا لأن سمعته العلمانية مثار شائعات مريبة.

يتذكّر الآن أنهما جلسا حول الطاولة على كرسيين متقابلين. ما زال ذلك اللقاء حيًّا في ذاكرته وها هو يستعيده كشريط سينمائي. يتذكر كيف كان هو ينظر إليها كامرأة أعجبته أكثر بدرجات من اهتمامها بما ستقوله. يتذكّر أنه انتبه لخجلها لكنه أدرك بأن خجلها ليس بسبب من ضعف شخصيتها بقدر ما هو جزء من جماليات أنوثتها وطبيعتها الباطنية التي تخفي في أعماقها أكثر بكثير مما تبدي.!

بعد لحظات رفعت إليه وجهها ونظرت في وجهه بشكل صريح وقالت بصوت خافت بالكاد يُسمع:

- أقدّم لك نفسي.. أنا حوّاء العاقل. لديّ ماجستير في الفلسفة، وسجّلت على الدكتوراه. اجتزت امتحانات القبول، لكني ما زلت في طور تحديد عنوان الأطروحة، أستاذي المشرف على مذكرة الماجستير كان الدكتور آدم الموصلي، أكيد تعرفه فهو من بلدك، ومذكرتي كانت فلسفة العصور الوسطى المسيحية، وقد استفدت كثيرًا من كتابك عن توما الأكويني كمرجع ومعلومات.

كان يتأمل وجهها بتركيز محاولا ألّا يثير انتباهها، بينما انتبهت لذلك، لكنها كانت تظن أنه يستمع إليها بتركيز محاولا تتبع أفكارها من خلال قراءة ملامحها، لذا واصلت بنبرة فيها مودّة وقالت:

- تابعت محاضرات لك في الفصل الدراسي السابق مع أني لا انتمي للصفوف التي تحاضر فيها. كنت أثناء كتابتي لمذكرة الماجستير قد قرأت كتابك. حاولت مرة أن أناقشك فيه لكني لم أتجرأ، بل أعجبني لقب «الأكويني» الذي اتخذته لنفسك، فهو يناسبك فعلا، وحينما سمعت بأنك تكتب روايات سعيتُ لاقتناء رواياتك. كنت أنتظر دومًا أن أطلع بشكل كاف عليها لأتحدّث معك، وهذا الحديث يعطيني دافعا لتكون البداية قريبة. قرأت متاهاتك الصادرة إلى الآن.. وبصراحة أنا منجذبة جدًا لها، ومنذ أن قرأتها تحضر أحداثها وشخصياتها في ذهني من زوايا عدة، وأعيد التفكير فيها كثيرًا. أحببت الشك الذي كان يجتاح الشخصيات، وتلك اللا طمأنينة إزاء كل شيء. أجدني لا أجيد ترتيب الحديث حول شكوكي وأجدني متخبطة بشأنها. هل تصدّق كنت أتخيل مثل هذا اللقاء كي أحدثك عن المتاهات لكني الآن لا أجد ما أريد قوله!.

لا يذكر ماذا قال لها في تلك اللحظات وإنما كان متأكدا بأن نظراته قالت لها كل شيء. وتركها تتحدث عن وجهة نظرها في توغله في فلسفة القديس المفكر توما الأكويتي وتبنيه لآرائه في ذلك الكتاب وعن أطروحة الماجستير، ثم عادت إلى «المتاهات». ملاحظاتها صرفت انتباهه عن تأمل جمال وجهها الذي بدا له شاحبًا قليًلا، ذلك الشحوب الذي يمنح ملامحها لمسة رومانسية، وركّز على حديثها..!.

يتذكّر الآن أنه التقاها مرات أخرى في المكتبة، بل صار يذهب إلى المكتبة لا لشيء وإنما لمجرد رؤيتها.. ويحصل أنه لا يجدها فهي ليست دائما هناك! لكنه يتذكر بأنه خلال تلك اللقاءات لم يكن يعرف عنها شيئًا خاصًا! وذات مرة اختفت لشهر تقريبًا. ويتذكر أنه كان يطلّ من باب المكتبة فيجول بنظره في قاعة القراء وحينما يتأكد من عدم وجودها ينسحب راجعًا، وأحيانا كان أمين المكتبة يسأله إن كان يبحث عن أحد أو يحتاج كتابًا محددًا فيختلق عنوانا هو متأكد أنه غير مترجم فيعتذر أمين المكتبة.

يتذكّر الآن جيدًا أنه كان يفكر بحواء العاقل كثيرًا فترة غيابها، إلى أن أطل من باب الكتبة ذات يوم فرآها تجلس وبين يديها كتاب. أحس بعودة الروح إلى عالمه. وتقدم نحوها. رفعت رأسها إليه وتدفق الدم إلى وجهها، فكما يبدو أنها كانت تود أن تراه أيضًا. وحينما سألها عن غيابها قالت له إنها مرّت بظروف صعبة، وتجرأ بأن دعاها لمغادرة الجامعة والالتقاء في مقهى بعيد نسبيا عن الأنظار والأجواء الجامعية، وافقت، وعندها حكت له بعض جوانب قصتها.. يتذكر أنها قالت وكأنها تسرد فصلًا من رواية:

- في الشهر المنصرم لم أكن بخير أبدًا، ثمة فجوة أحسست أنها تشكلت بيني وبين زوجي ومحيطي وتوسعت بحيث صارت تنذر بخطر العزلة والانفصال إذا لم أمدّ الجسور بيننا، ولتجاوز هذا الفراغ الذي صار يتسع سعيت إلى تحقيق مكسب ضمن حياتي الزوجية، ألا وهو عزلتي. نعم سعيت إلى عزلتي. من حقي أن أعيش عزلتي ما دمت لم أخلّ بواجباتي البيتية والزوجية والعائلية الأخرى.. وعندما وجدني زوجي حازمة في ذلك تراجع عن عراقيله التي لا يلبث يضعها أمامي، ووافق على شروطي التي طلبتها منه، وأولها وآخرها أن أمارس حياتي بحرية، في أن أخرج بمساحة أنا أحددها، وأن أفتح نوافذ بيتي التي يرفض حتى فتحها وكأنني في سجن. الآن صرت أفضل كثيرًا. وأرجو ألّا تفكر بعيدًا في طلبي منه بالحرية، فأقصى ما أطلبه من حرية في ظل العقلية التي أتعامل معها، ألا يمنعني من الخروج مثلًا إن أردت أن أشتري كتبا أعزّز بها مكتبتي..! أحيانا يطالبني أن أكون

مثل الأخريات، مثل أمه وأخته، بل ذات مرة قال لي: «لقد ارتبطت بك لأنك كنت ملتزمة دينيا، ومحترمة..»، يعني هو متفضّل عليّ. أعرف أنني منطوية ومترددة وخائفة. نعم، أعلم، بل وغير جريئة مثل بطلات رواياتك. منذ طفولتي كنت أحاسب على الكلمة التي تخرج بتلقائية، بل حتى الآن كل شيء يحدث داخلي، أما خارجي فهادئ تمامًا، كأن ما من براكين وعواصف وزلازل تمحقني من الداخل. أنا كالسلحفاة التي تنكمش تحت درعها، هكذا أشعر بالأمان.. أحيانًا أفكر، ماذا لو تمردت بشكل كامل. أفكر فقط في طفلي، كيف ستكون العواقب، هذا ما يقلقني جدًا. لا أريد أن أقنن حريتي، وأن أمتثل للطاعة الزوجية العمياء».

يتذكر وهو الآن في غرفة المطبخ يرتشف الشكولاته الساخنة بأنه قال لها حينها جملة أربكتها، وكأنه عرّاها نفسيا، حين قال:

- أنت متمردة في داخلك وأعماقك، لكنك مطيعة في سلوكك اليومي.

صمتت حينها هي للحظات وقالت:

- لدي شعور قوي دائما بأنني لست محبوبة ولا مرغوبة. ربما لأني لست ثرثارة وحيوية وأشارك نساء عائلتي في النميمة والغيبة والأحاديث التافهة عن الجنس والرجال وأحوال نساء الجيران ويعتبرون هذا ترفّعا مني، والحقيقة إن رأيهم لا يهمني، لذا وجدت الحماية في عزلتي، لكن الأمر لم يدم لأني ولدت طفلًا، وصرت مسؤولة عن كائن آخر، وربما هذا ما عزّز إلى حد ما علاقتي بزوجي.. أقصد في يوميات الحياة. أود أن أكتفي بذاتي.

تذكّر آدم الأكويني بأن ذلك اللقاء كان هو الأخير بينهما، ولم يرها بعد ذلك، لأنها ما إن قالت جملتها الأخيرة: «أود أن أكتفي بذاتي»، حتى تناولت حقيبتها الجلدية وغادرت المقهى دون أن تقدم له أي تفسير. بقى هو في حينها جالسًا للحظات يفكّر في تصرفها، وحين خرج ليلحق بها لم يجدها. كانت قد أوقفت سيارة أجرة وغادرت المنطقة.

منذ ذلك اللقاء لم يتواصل معها، لأنه ببساطة حين رجع من ذلك اللقاء تعرض لحادث الاصطدام الذي سبب له كسرًا في ساقه، وخسر سيارته التي تحطمت، ولولا تدخل صديقه آدم الغوريلا لكان الآن متعفنا في السجن، ليس لأنه المذنب ولكن لأنه ليس من أبناء البلاد، لاسيما وأن الذين تسببوا في الحادث فتيات ينتمن إلى عوائل متنفذة، فانقلب كل شيء ضده..!

يتذكّر الآن نتفًا من أقوالها وجملًا تكشف عن جانب من شخصيتها، فهي مهووسة بالثقافة، وتكتب أحيانا هنا وهناك لإحدى الصحف، لكنها كما أخبرته ليس بذي مردود يذكر، وهي تقوم بذلك حبًا بالثقافة والفن والفكر، ومحاولة لملئ الفراغ الذي بدأ يفتح شدقيه في حياتها، على الرغم من أن حياتها في المنظور العام لدى الآخرين تبدو سعيدة ومثالية، لكنها تعرف جيدًا أنها ليست كذلك..!.

بقي في ذهنه ما قالته له مرة في معرض حديثها حينما أراد أن يتوغل خطوة في عالمها: «لا أشعر دائما بالحاجة إلى وجود حبيب في حياتي، مع أن ذلك سيسعدني، لكن لا أحب الشعور بالنقصان. فالشعور بالنقصان من دون حبيب لا يريحني، لا أحب الشغف والتعلق بالآخرين، لأن هؤلاء إذا غابوا ستصبح حياتي بلا معنى!، وحينها أغضب من نفسي، إذ لا يبقى لي سوى مشاعر الغضب والحزن المشحون في داخلي، ناهيك أنني أخاف من أن أفتح نافذة لأحد على عالمي. أنا لا أحب أن أعرّي دواخلي حتى للمقربين جدًا مني سواء زوجي أو أخته أو أختي أو أي شخص مقرب عائليًا، وحينما أفعل ذلك ولو بشكل طفيف لا أكون مرتاحة، وربما هو الأساس في عدم قبول حضوري بالكامل معك والتواصل اليومي والدائم لأني أحس أنني معك أدخل في منطقة رمال متحركة!.». لكن كيف اتصلت الليلة..!؟ أحقا تريد أن تناقشني عن أطروحتها؟ هذا أمر غامض وغريب، وهذه ليلة غامضة..!» قال لنفسه.

انتبه إلى أنه ارتشف جميع ما في الكوب من شكولاته. رغب في أن يعدّ كوبًا آخر. نهض ليسخن الحليب في الدورق مرة أخرى. سكب بعض ملاعق الشكولاته في الكوب، ووقف قرب الطباخ منتظرا أن يسخن الحليب، ولم تمض سوى لحظات حت بدأ الحليب بالغليان. ما إن سكب الحليب فوق مسحوق الشكولاته حتى رن هاتفه فترك الكوب وأسرع ليرد على المتصل الذي ظنه هي، لكن لم تكن هي وإنما صديقه آدم الغوريلا.

جاء صوت آدم الغوريلا متوترًا. ولكي يواصل تجهيز كوب الشوكولاته الساخنة ضغط على زر السماعة المفتوحة ليسمع الصوت عاليا، وأخذ يتحدث مع صديقه وهو يعدّ مشروبه المحبب:

- هل أنت وحدك..؟

- آهلا أيها الغوريلا.. لماذا هربت وكأنك رأيت شبحًا، نعم أنا وحدي.. لماذا..؟!

- هل المرأة الشبح معك؟

- لا.. لكن ما بك! كيف عرفت أنها شبح..؟

- لأني حين فتحت الباب رأيت شابًا قال إنه ميت منذ أربعين يومًا وأنه جاء من العالم الآخر ليحدثك، لكنك حين فتحت الباب كانت تلك المرأة.

حمل آدم الأكويني كوبه وجلس على الكرسي حول الطاولة وهو يقول:

- لكنها اختفت أيضًا. لا أعرف ما الذي يجري. هذه ليلة غامضة! فخلال هذا اليوم ظهرت واختفت مرات، هي موجودة وغير موجودة، بل هي قالت شيئًا غريبًا، قالت ثمة كاتب ما يكتبنا وأننا لسنا سوى شخوص في رواية لم تنته بعد! لا أعرف.. أعتقد أننا كلانا قد شربنا كثيرًا، لذلك أخذنا نتخيل أشياء وأشياء. أنت كنت منفعلا بحكاية حبيتك الذئبة الصغيرة حواء المتهورة.. وأنا غارق في متاهة العدم العظيم..!

- نعم.. نعم.. صحيح.. وهذا هو الذي دفعني للاتصال بك الآن فقد أخبرتك أنني أشك بالمتهورة لأنها حين تتحدث مع شخص ما فإنها تتحول إلى عبدة ذليلة ومطيعة للشخص على الطرف الآخر من الخط. قبل قليل اتصلت بي وأخبرتني بأنها في ورطة. والقصة وما فيها أنها أحبت شخصا ما.. ويبدو أنها كانت تلتقيه، وكانت بينهما ملامسات جنسية، لكنها تصورت معه، وكانت تحادثه عبر المسنجر، لكن على الرغم من تحلله الأخلاقي فهو متعصب للمجاميع الإسلامية المتطرفة، وكانت بينهما محادثات جنسية كما خزنت صوره عاريا أمام المرآة وحفظت كل ذلك في خازن صغير (يوسبي).. ومن سوء حظها أن أخاها عثر على ذلك الخازن وفتحه فوجد المحادثات والصور العارية للشخص، وأخبر أمه وأخته الكبيرة، والآن هي في ورطة حقيقية لاسيما وأن أختها على وشك الزواج بعد أسابيع..!..

ارتشف آدم الأكويني رشفات طويلة من شرابه وسأل:

- وماذا ستفعل الآن؟

- لا أعرف.. أنت تعرف أنها منحتني نفسها، وهي تعترف الآن بحماقتها حين خزنت المحادثات والصور! وقالت إنها تحدّثني من هاتف صديقتها لأن أمها أخذت هاتفها! ولا تعرف متى تتاح لها إمكانية الاتصال مرة أخرى..!

- مسكينة، كما أنك أيضا مسكين يا صديقي.. وبدوري أود أن أقول لك شيئا..

- تفضل.. أتمنى ألا يكون له علاقة بالأشباح والعالم الآخر والرجل الميت منذ أربعين يومًا والذي تحول إلى امرأة برفة جفن..!

- لا. لا. لكني صحوت من رقدتي فوجدت نفسي لا أرى الألوان..!

- ماذا؟

- نعم.. أرى بكل وضوح، لكن كل شيء أسود وأبيض مثل الأفلام القديمة..!

- آدم.. أنت متعب، بل ومجهد. عليك أن ترتاح. نم نوما عميقا، وغدا ستعود لعينك قدرتها على رؤية الألوان..!

- أتعتقد ذلك..!؟ ربما أنت محق..

- سأتصل بك غدًا صباحا وتخبرني إن كانت الألوان رجعت لعينيك أم لا، وإلّا علينا الذهاب إلى طبيب العيون..!

- وهو كذلك..

- تصبح على خير

- وأنت من أهل الخير..

انتبه آدم الأكويني إلى أنه ارتشف كل ما في الكوب من شوكولاته ساخنة. أخذ عكّازه وقام عن الكرسي مغادرا المطبخ. أحس بشيء من الانشراح بتأثير الشوكولاته. وبتأثير تداعياته عن حواء العاقل اتجه نحو مكتبه. وما إن اقترب من طاولة المكتب حتى وجد إشارة لوصول رسالة. أخذ فأرة الحاسوب ليضغط عليها..!

قبل أن يفتح الرسالة وصلته رسالة على الهاتف النقال ففتحها بسرعة. رسالة من الطبيب الذي يخبره بأنه سيمّر عليه صباحا مع مساعدته لينزعا الجبس عن ساقه. شعر بدفق غامض من شعور الحرية، إذن يستطيع غدا التحرك بحرية، لكن ماذا عن رؤية العالم بالأبيض والأسود!؟ ربما صديقه الغوريلا محقّ، عليه أن يراجع طبيب العيون..!

جلس على كرسيّه حول الطاولة. وفي خضم أفكاره تلك فتح الرسالة التي وصلت على الحاسوب، فأصيب بالصدمة. كانت الرسالة من حواء كوناي، تلك الشخصية الروائية التي كتبها آدم التائه في الرواية الداخلية ب «متاهة آدم - المرأة المجهولة»، والتي تركها آدم البغدادي ولم يكتب عن مصيرها ثانية، مع أنه كتب سبع متاهات أخرى تالية، في هذه الرسالة تعاتبه حواء كوناي وتروي له شيئًا عن مصيرها.!.

استغرب آدم الأكويني من هذا الأمر وسأل نفسه: «كيف لشخصية روائية ليست رئيسية وإنما هي من نتاج شخصية روائية ليست واقعية، كيف لهذه الشخصية أن تتوجه إليه هو لتعاتبه؟ ولِمَ لم تتجه لآدم التائه الذي كتب قصتها؟ أو لآدم البغدادي الذي خلق شخصية آدم التائه كاتب سيرتها؟ من أين عرفت أنني الكاتب الذي خلق شخصية آدم البغدادي؟». وقطع تساؤلاته التي لا إجابة عليها بقراءة ما أرسلته له:

رسالة حوّاء كوناي

«أنت تعرفني بالتاكيد. أنا حواء كوناي المهندسة. لقد دفعتني عبر أقنعتك ووسطائك من الشخصيات الروائية إلى أن أبوح بتفاصيل حياتي. كانت رحلة عبر الجحيم، وأعتقدت أنني تخلصت من كل هذا بعد انتحار العم كوناي عقب موت ابنه آدم تورك، زوجي، وحملي من العم!، لكن الأمر لم يكن كذلك، فقد تحررت من الدائرة الشيطانية التي وجدت نفسي فيها، دائرة زوجي آدم تورك ووالده، لكني وقعت في دائرة أخرى. صحيح أنني تخلصت من الجنين عبر الإجهاض، لكن هذا لم ينه الأمر.

سأوجز لك تتمة حكايتي. أنهيت دراستي للهندسة. تزوّجتُ زميلا لي في الدراسة كان متقدّما عليّ بسنتين، تزوّجته عن مشاعر لا يمكنني أن أقول إنها حبّ وإنما ارتياح وشعور بالأمان، كما أننا كنّا ولا نزال منسجمين جنسيا، جنسيا فقط. شهوة ورغبة في الآخر دونما مشاعر وإنما استلطاف وتعود ورغبة. الكيمياء، الكيمياء المتجانسة، وما عدا ذلك اختلاف كلي. رزقنا خلال هذه السنوات بطفلين، ولد وبنت، لكنني تعرّضت لمرض خطير، ورم خبيث في الدماغ، تمّ استئصاله بعملية جراحية، ممّا غير مسار حياتي كليّا، فلم أعد تلك المرأة الطموحة التي تريد الوصول إلى أعلى المراتب والمواقع الإدارية كما عرفتني في أنتاليا بتركيا خلال المؤتمر الذي وصفته أنت بدقّة في روايتك «متاهة آدم»، بل إن فنجان قهوة مع موسيقى هادئة تسعدني وتجعل يومي جميلًا، وأن قراءة رواية أو ديوان شعر أفضل لديّ من محاضرات ومؤتمرات الهندسة المعمارية وخطط الشركات الكبرى!! لقد تغيّرت كلّيا!. ما بقيّ في حوّاء كوناي هو شغفها بالتمتع بأية لحظة دونما إرهاق النفس بالموانع

والحواجز! ومع ذلك أنا اكتب لك لأن الأطباء أكتشفوا بأن السرطان الخبيث والذي هو برجي وشخصيتي قد نهش جوانب أخرى من دماغي، وربما سينزل ليعميني ويشل لساني ويدي وبالتالي سأختفي من هذا العالم كما اختفيت من متاهاتك.

وبالمناسبة، لقد طلبتُ من صديق لي بأن يقوم بترجمة متاهاتك إلى اللغة الإنكليزية، وربّما ستصدر قريبا عن إحدى دور النشر! هل أقول لك وداعًا؟ لا أريد أن أختفي عن هذا العالم على الرغم من قساوته المخيفة. ما يؤلمني أنني سأفتقد طفلي كثيرًا، سيكون وحيدًا من دون وجودي. إن قلبي مليء بالحزن والكآبة تنهش روحي حينما أفكر بأنني لن أحظى باحتضان طفلي مجدًا، ولا ضمّه إلى صدري وتشمم رائحته العطرة، ولا الاستماع لجمله البريئة، اللوعة تقتلني حينما أتخيله يفتقدني ولن يجدني!.

سأفتقد لحظات الفجر حين يتداخل النهار بالليل. لقد عشت أشهري الأخيرة في فندق على البحر وكنت أخرج فجرًا، أجلس على الساحل وأتابع تداخل الألوان في الأفق من العتمة إلى لون الفجر الحليبي وحتى ظهور الشمس، متأملة حركة الموج في مدّه وجزره، فأرجع بعدها إلى غرفتي لأنام ساعات طويلة بعد حقنة مورفين! السرطان لعنة.

سأفتقد شخصياتك التي أحببتها. هل تصدّق لقد أحببت شخصياتك أكثر من أناس واقعيين حولي وأعرفهم!. آلمني أنك لم تسأل عني! أنا أكثر حواءاتك جموحا وخطيئة! لكني أسامحك لأني على ثقة بأنك كنت سترجع لي كما رجعت الآن.!

لكن هل أنا رجعت أم أنت أرجعتني أم هناك من أرجعنا نحن الاثنين؟ لا أدري.. وداعًا يا آدم الأكويني، وداعا للمتاهات التي سأفتقدها في متاهة العدم!». وانتهت الرسالة.

شعر آدم الأكويني بالحزن الشديد بعد أن انتهى من قراءة الرسالة! لكن دهشته ازدادت وتراكمت الأسئلة في ذهنه، فما معنى أنها ستفتقد الحواءات! من أين لها هذا العلم بأن المتاهات امتدت إلى ثماني روايات وعشرات الحواءات والأوادم، بينما هي شخصية روائية ضمن مخطوطة رواية داخلية كتبتها شخصية روائية أخرى! وما معنى أنها أقدمت بدعم منها على ترجمة المتاهات ورواياته الأخرى إلى الانكليزية!؟ كيف هي ضمن مخطوطة داخلية داخل رواية بينما هي خارجها أيضًا!؟ صار آدم الأكويني أقل يقينا بما يجري حوله!.

كان الليل يقتربُ من منتصفه. فكّر آدم الأكويني بهذا الحشد من الأحداث الذي مرّت به خلال ساعات! فمن الأحداث التي تحدّث عنها صديقه آدم الغوريلا، إلى تجلّيات واختفاء مساعدته حوّاء سرّ الختم، وسيرة حوّاء المستكفي الغربية، ثم الاتصال غير المتوقع من حوّاء العاقل، وها هي رسالة حواء كوناي التي ملأت قلبه بالحزن!.

فجأة، فكّر بالجملة الأخيرة من رسالة حواء كوناي. فتح الرسالة مرة أخرى على الشاشة وقرأ تلك الجملة التي أقلقته: «آلمني أنك لم تسأل عني.. أنا أكثر حواءاتك جموحا وخطيئة! لكني أسامحك لأني على ثقة بأنك كنت سترجع لي كما رجعت الآن، لكن هل أنا رجعت أم أنت أرجعتني أم هناك من أرجعنا نحن الاثنين؟ لا أدري.. وداعًا يا آدم الأكويني، وداعا للمتاهات التي سأفتقدها في متاهة العدم!»، وسأل نفسه إن كان هو فعلًا شخصية روائية، وإلّا ما معنى أنه يرى بوضوح لكن بالأسود والأبيض!؟. لا. لا. هو يرى ويسمع ويشم ويأكل ويشرب، إذن هو كائن حي وليس شخصية في رواية!. لكن الشخصيات الروائية أيضا تأكل وتشرب وتتحرك وتغضب وتنام وتتنقل وتموت وتحيا حسب سيرة الأحداث وما يريده الكاتب..!! بيد أن هذا لا ينطبق عليّ لأني أنا من كتب رواية «المتاهات»!. لا. لا. هذا الأمر سيضع كل سؤال حرية الشخصية الروائية في موضع الشك واللايقين، مثل مسألة حرية الإنسان في الحياة التي تضع مسألة العدل الإلهي في موضع الشك واللايقين والتناقض!!؟؟.

كان آدم الأكويني يعيش في حيرة، فالأفكار تتماوج في ذهنه، لكن من بين زبد الموج، ومن بين تلاطم الأفكار انبثقت صورة حواء العاقل ثانية، ولاشعوريا وجد نفسه يقارنها بسلسلة لوحات «فينوس» للرسام الفرنسي ويليام أدولف بوغيرو..!.

نهض عن الصوفا وتوجّه إلى غرفة النوم، مؤمّلًا نفسه بأن كل ما جرى له ليس سوى حلم وهو الآن مستمر في المنام ليستكمل حلمه بالذهاب إلى غرفة النوم لينام في المنام!!. وفعلا دخل غرفة نومه. تأمل الغرفة. ضغط على زرّ الكهرباء فغرقت الغرفة في الظلام. وبخطى هادئة اتجه نحو سريره. استلقي عليه بعد أن وضع العكّاز على جانب الطاولة الصغيرة عند رأسه، وأغمض عينيه وهو يأمل أن تنتهي هذه الليلة الغامضة، منزعجًا من كون اتصال حوّاء العاقل هو وهم كباقي أحداث هذه الليلة.

* * *

كانت الشقة مضاءة، فقد نسى آدم الأكويني وهو يتجه لغرفة النوم أن يطفئ النور في الصالة والمطبخ. وحده كان غارقًا في الظلام بغرفة النوم.

فُتح باب الشقة. دخلت مجموعة من الأشخاص الشفافين. ملامحهم واقعية جدًا لكن أجسادهم أثيرية. دخلوا بحركة منتظمة ورتيبة! تحركوا في الشقة والصالة وكأنهم يعرفون المكان جيدًا، فتوزعوا على الصوفا الكبيرة والمتوسطة وبقية المقاعد.

كانوا تسعة. مجموعتان تتألف كل منهما من ثلاث نساء ومجموعة تضم رجلين وامرأة، لكنهم بدوا وكأنهم لا يعرفون بعضهم البعض.!.

فجأة، تعالتْ موسيقة كلاسيكية خفيفة أخذت تصدح في الشقة. قالت الفتاة الشابة ذات اللون المشمشي اليت كانت تجلس مع امرأتين:

- هذه قطعة سرينادا لشوبرت.

التفتت إليها المرأة التي تجلس إلى جانبها وقالت:

- أنت يا إيفا جوردانو من عشاق شوبرت وهذه القطعة بالتخصيص، وأتذكّر أن آدم التائه كان يستمع لهذه المقطوعة أيضًا.!

التفت إليهما الشاب الذي كان يجلس على طرف الصوفا الأخرى وإلى جانبه فتاة شابة تبدو مرتبطة بالرجل الآخر الذي على جانبها الأيسر، وقال بانتباه شديد:

- هل تعرفين آدم التائه؟ تقصدين بطل رواية «متاهة آدم».

التفتّ الجميع بانتباه نحو الشاب الذي قال ذلك، وبدا أنهم جميعهم يعرفون آدم التائه، لكن نظراتهم كانت تشي بحيرة وتساؤل، فقال الرجل الذي يجلس على الصوفا نفسها إلى يسار الفتاة:

- لا تستغربوا.. نحن أيضا شخصيات روائية! هكذا قُدّر لنا. أنا آدم أبو التنك أعيش في دمشق منذ أكثر من ثلاثة عقود تقريبًا ويعرفني الجميع هناك، من عراقيين وسوريين وعرب، من المناضلين حتى رجال المخابرات، لكن لا أعرف لماذا وكيف تحولتُ إلى شخصية روائية افتراضية!!

فسارع الشاب الأول مقدّما نفسه:

- وأنا آدم الشبيبي وهذه حوّاء الفارسي زوجة صديقي آدم أبوالتنك! نحن شخصيات حقيقية، فأنا كاتب وشاعر وصحفي جئت دمشق هاربا من بغداد، لكني وجدت نفسي شخصية وهمية افتراضية تبحث عن خلاصها في المتاهة.

نظرتْ كل مجموعة من موقعها إلى المجموعتين الأخرتين بتفحص. الجميع اعترفوا بأنهم شخصيات افتراضية روائية، لكنها في الواقع شخصيات حقيقية أيضًا.

في تلك اللحظة التفت الجميع بدهشة إلى حوّاء سرّ الختم وهي تقبل من جهة المطبخ حاملة صينية كبيرة فيها دورقا للقهوة وآخر للشاي وأكواب من البورسلان. صمت الجميع وعلى وجوههم دهشة غريبة.

لم تلق عليهم التحية، بل بصمت وضعتْ الصينية على الطاولة التي في الوسط، ثم وزّعت الأكواب والصحون وسكبت الشاي في بعض الأكواب والقهوة في البعض الآخر. وظلت واقفة بصمت مثل التمثال.

فجأة، توقفت الموسيقى. فسألت إحدى النساء الثلاث الأنيقات اللاتي يجلسن على الجهة المقابلة لباب غرفة النوم:

- أنا حوّاء دمشقية وهاتان صديقتاي إيفا سميث وحواء ذو النورين، كلنا لا نعرف لِمَ دئنا إلى هنا؟.

وعلى غير توقع من الجميع قالت حوّاء سرّ الختم:

- أنتم جميعكم، الآن، في ذاكرة الأستاذ آدم الأكويني، وهو راقد في سريره في الغرفة المجاور ويحلم بشخصيات متاهاته، يحلم بكم. وأعتقد أنه قد استحضركم من أجل أن يقودكم إلى مصائركم!.

- مصائرنا..؟ قال آدم الشبيبي مستنكرًا.

- نعم.. وما إن يستيقظ الأستاذ آدم الأكويني حتى تتلاشون في العدم..!

- إذن علينا الانتظار. علّق آدم أبو التنك.

- نعم عليكم أن تنتظروا مصائركم.

ردّت حوّاء سّر الختم وغادرت الصالة متجهة نحو المطبخ، بينما غرق كل واحد من الجالسين في لجّة صمته الداخلي.

في تلك اللحظات بالذات فُتح باب غرفة النوم وخرج آدم الأكويني. كانت الصالة فارغة، واستغرب حين تذكر أنه نسيَ أن يطفيء النور. كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا.

الفصل السابع

حوّاء العاقل

استغرب آدم الأكويني حين خرج من غرفة نومه ورأى الصينية المليئة بالأكواب الفارغة. عدّ الأكواب فوجدها تسعة مليئة بالقهوة والشاي وكأنها لم تُمسّ. «ما هذا؟ مَن كان هنا؟ وما معنى وجود هذه الأكواب؟ ولماذا لم يشرب أحد ما فيها؟ ومن صبّ الشاي والقهوة فيها؟ أمن المعقول أنني قمت بكل هذا دون شعور مني؟ مستحيل!». ومع ذلك شعر بأن هناك مَن كان هنا بالفعل، لكن مَن؟ وكيف؟ هذا ما ظل غامضا وغائما في ذهنه وأعماق نفسه، وبهدوء توجه إلى غرفة الحمام.

لم يمض عليه وقت طويل في الحمام حين سمع رنين جرس باب الشقة. خرج على عجل متّكئا على عكاّزه، مسرعًا ما استطاع ليفتح الباب.

فوجئ بوجه الطبيب الباسم ومعه مساعدته النحيلة السمراء. تبادلا التحايا، ومشى أمامهما إلى الصالة، لكنه فوجئ بأن الصينية والأكواب لم تكن على الطاولة!. حاول أن يكتم استغرابه.

الطبيب طلب منه أن يجلس على الكرسي حول طاولة المكتب، وأداره عكس الاتجاه كي يمكّنه مع مساعدته من كسر قالب الجبس عن ساقه.

لم تكن مسألة إزالة قالب الجبس بالأمر الهين بالنسبة له، لكن خلال ساعة تقريبا كان كل شيء قد انتهى. نُزع قالب الجبس، وتم غسل وتدهين

ساقه التي تعرضت لإحمرار وحكة جلدية وتقشرات أشبه بالالتهابات بمواد معقمه، كما تمرّن بمساعدة الطبيب على الحركة في البيت بشكل طبيعي.

وقبل أن يغادر الطبيب طلبتْ مساعدته من آدم الأكويني نسخة من إحدى متاهاته المتوفرة لديه، فأهداها إحداها كانت موجودة على الطرف الآخر من المكتب، وحينها تذكر حالته البصرية، فشرح للطبيب حالته بأنه يرى الأشياء بلونين فقط، فأخبره الطبيب بأن الأمر ربما يكون نفسيًا، أو أنه زيغ بصري أو ضرر ما أصاب العصب البصري ونصحه بمراجعة طبيب العيون ليكشف على عينيه.

ما إن غادرا حتى دخل غرفة الحمام ثانية، فهو لم يستحم بشكل طبيعي منذ شهر تقريبا.

* * *

أنهى حمّامه، ثم توجه للمطبخ. تناول الفطور. لكنه ظل يترقّب بلهفة وصول حواء العاقل، وفكّر مع نفسه بأن اتصالها ربما كان حقيقيًا وليس وهمًا من أوهامه، وأخذ يستعيد ملامحها في ذهنه. واستغرب أنه أخذ يفكر بأشياء لم يفكر بها سابقًا عند تواصله مع الآخرين، إذ سأل نفسه: «كيف ستأتي؟ أكعادتها ببنطلون الجينز أم ستأتي بثياب أخرى؟ هل ستضع المكياج على وجهها أم تأتي دونما شيء خاص؟ هل ستكون طبيعية أم متحفظة كعادتها؟».

كان ينظر إلى الساعة الجدارية في المطبخ ليتأكد من الوقت، وكلّما تقدّمت قليلًا يزداد قلقه. انتقد نفسه على حالته النفسية التي تذكّره بحالات الحب لدى المراهقين. كان قد أعد لنفسه شايًا ثقيلًا، وأخذ يرتشف منه بتلذذ، محاولًا أن يشغل ذهنه بأي شيء إلى أن يحين الموعد، بل قبل الموعد بدقيقتين تحرك نحو الباب ووقف منتظرًا وصولها، وفي نصف الدقيقة الأخير وضع عينه على العين السحرية عسى يرقب وصولها، لكنها لم تأت في الموعد المحدد.

أحس بغضب يسري في نفسه بسبب تأخرها. فكّر مع نفسه «لماذا أنا متأكد من أنها اتّصلت فعلا وستأتي؟». ومرّت ثلاث دقائق ولم تظهر. وحينما أراد أن يرجع إلى طاولة الكتابة سمع حركة باب المصعد تأتي من بعيد. ظل واقفا في مكانه. وضع عينه مرة أخرى على العين السحرية للباب. وفي تلك اللحظة سمع رنين جرس الباب.! ففتح الباب. فوجئت هي بالسرعة التي فتح بها الباب، وفوجئ هو حين رآها.

بدتْ له في صورة مغايرة للمرأة التي كان يراها في مكتبة الجامعة، فأمامه سيّدة بكل المعنى الذي تعنيه هذه الكلمة، لكنه استغرب بل وذهل، فعلى الرغم من أنه يرى العالم أبيض وأسود فقط، فقد صار يراها بالألوان، هي فقط ملونة وسط محيط أبيض وأسود، وكأنما الصورة التي يراها قد تم تعديلها في جهاز كمبيوتر. هو يرى أمامه امرأة في ثوب أسود أنيق، مطرز بالدانتيلا في منطقة الصدر مع شال فيروزي من الحرير، تحمل حقيبة جلدية سوداء وسط فضاء بالأبيض والأسود.

تلعثم وهو يرحّب بها، مثلما ارتبكت هي لاسيما حين رأته بلا عكّاز وليس كما قال لها. وبلمح البصر أدرك هو ما راودها من خاطر غير مريح، فمشى أمامها إلى الصالة وهو يقول، وكأنه يبرر لنفسه ذنبا قد اقترفه: - البارحة بعد اتصالك وصلني مسج من الطبيب أكّد بأنه سيمّر عليّ صباحا لينزع الجبس عن ساقي، وفي الساعة التاسعة وصل هو ومساعدته. وخلال ساعة تقريبا تم نزع الجبس عن ساقي، لكنني أحتاج لبعض الوقت كي أعتاد المشي بشكل طبيعي جدًا.

أدركت أنه قرأ خاطرها فقالت بنبرة وكأنها تعتذر:

- الحمد لله على سلامتك دكتور آدم..

حين صارا في الصالة قال لها محاولا كتم انفعاله وهو يشير إلى الصوفا: - تفضلي..

جلست هي على الوسط من الصوفا وجلس هو في المقعد المقابل لها، وقال لها: - هل تودين أن تشربي شيئًا.. قهوة.. شاي.. شوكلاته ساخنة.. كابيتشينو.

- لا أبدًا دكتور.. لقد شربت قهوتي قبل أن آتي.. ربّما في ما بعد..

- لا يمكن..

- إذن ماءً باردًا إذا أمكن ذلك..

- تكرمين..

ونهض عن مقعده. مضى إلى المطبخ. لم يكن حرًا في الحركة لأنه لم يتعود بعد على المشي بدون عكّاز.. ومع أنها لم تطلب شيئًا لكنه أعدّ القهوة لكليهما. بقي هناك إلى أن صبّ القهوة في فنجانين ووضعهما مع قدحين فارغين وقنية ماء بار في صينية، وغادر المطبخ.

حين عاد وجدها لا تزال على جلستها، لكنها أكثر استقرارا وهدوئا. وضع الصينية على الطاولة وقدّم لها فنجان القهوة وصب لكليهما الماء في القدحين ثم أخذ لنفسه فنجانه، وجلس على مقعده وهو يقول لها بمودة: - ألف مبروك على اختيارك للموضوع..

- شكرًا لك دكتور آدم..

- كيف لي أن أساعدك..؟

ارتبكتْ هي قليلا. لم تكن تعرف كيف تبدأ حوارها معه على الرغم من أنها قد استعدت له وتخيّلت مساره كيف سيكون طول الليل وقبل مجيئها، بل لحد وصولها إلى باب شقته، ووجدت نفسها تقول: - الحقيقة لا أعرف كيف أبدأ. أنا اخترت موضوع (بونافنتورا والطريق إلى الله - مقارنة بينه وبين توما الأكويني). وقد قرأت كتابك عن توما الأكويني. ولديّ أسئلة لك تقف في دربي، ومن أهمها: رأيك أنت بهذا القديس المفكر بونافنتورا؟ ولماذا لم تتناوله بشكل موسع في كتابك.؟!

كان آدم الأكويني خلال حديثها يتأمل ملامحها، يتأمل عينيها، نظرتها الشاردة، فمها الشهواني، ابتسامتها الغامضة وطريقة شدّ الشال الذي يوحي بشخصية محافظة ومتزمتة جدًا، وكذلك فستانها المغلق بحيث يبدو الشال والثوب وكأنهما قطعة واحدة، وصدرها الذي يوحي بوجود نهدين صغيرين أو متوسطي الحجم، وبطن رقيقة تهبط بإثارة إلى منطقة الحوض وإلى ردفيها المتناسقين. حينها ابتسم لأفكاره، فبينما هي تتحدث عن بونافنتورا الفيلسوف القديس كان هو يتأمل جسدها من تحت الثوب، لكنه مع ذلك كان منتبها لكل ما قالته، لذلك علّق معجبًا باهتمامها وسؤالها الذكي، فقال: - أنا لم أتناول بونافنتورا لأني لم أكن مقتنعا بآرائه، إلى جانب أن علمه لم يحرّره من دوغمائيته وعنفه الديني أو لأقل لا تسامحه، بل قسوته، فهذا القديس المفكّر الذي يدعو إلى التسامح المسيحي وإلى الإيمان بالله من خلال كتابه الشهير «رحلة العقل إلى الله» لم يكن متسامحًا أبدًا مع من يخالفه الرأي، فقد حكم، حينما كانت بيده السلطة من خلال رئاسته للطائفة الفرنسيسكانية في وقته، بحبس الراهب المفكر «روجر بيكون»، أربعة عشر عامًا، لأنه كان رياضيًا وكيمائيًا وباحثًا في علوم الطبيعة، دعى إلى اعتماد التجربة كوسيلة لليقين العلمي فاتهم بالسحر والشعوذة، انتقل بعدها من الحبس إلى القبر وهو في الثمانين من عمره.

كانت حواء العاقل منتبهة لكل كلمة يقولها، وحينما بيّن لها سبب رفضه لبحث فكر بونافنتورا ندّتْ عنها آهة وردة فعل رافضة: - أوه.. يا للقساوة.. لم

أقرأ عن هذا التفصيل.. ألهذا رفضتَ البحث في فكره..!

- نعم.. ما قيمة فكره وإنسانيته النظرية والمنادات بالتسامح إذا كان هو قاسيًا إلى هذه الدرجة مع راهب وعالم في الطبيعة والرياضيات مثل «روجر بيكون». تبًا له ولفكره وقداسته!. أتعرفين لماذا أحبّ ستندال.؟

لم ينتظر جوابها وأنما أخذ كأس الماء وارتشف منه قليلًا، ثم تناول كوب القهوة بتمهل وارتشف منه رشفة، ثم نظر إليها وكأنه يعتذر عن انشغاله عنها بارتشاف القهوة، وقال: - أحب ستندال لأنه يفضل البساطة والطيبة ورقة الشعور والحنان على الذكاء!.

أحسّت حوّاء العاقل بشعور من الراحة يغمر روحها وذهنها، فقد استرخت من أعمق أعماقها إذ اكتشفت وجها إنسانيا لهذا الرجل المثقف، أستاذ الفلسفة والروائي الفضائحي، وشعرت أنه قريب من نفسها، وأحبّت أن تكون قريبة منه ومن فكره وعالمه. تناولت هي بدورها كأس الماء وارتشفت منه قليلًا دون أن تمس فنجان القهوة، وقالت: - أذكر أنك في إحدى رواياتك استشهدت بشيء من هذا القبيل من أقوال ستندال..!

ابتهج الأكويني لأنها ذكّرته بعالم المتاهات، فقال بحرارة محاولا كتمان انفعاله: - نعم. أنت محقة، ففي «متاهة حواء»، وفي مخطوطة «وادي الظلمات» اقتبست من ستندال النص الذي يقول: إني أفضّلُ الحيوان على الأحمق، وأفضّلُ الرجل الرقيق الشعور على الرجل المرهف العقل. وأفضّلُ المرأة الحنون على المرأة الذكية، وأفضّل السذاجة على التصنع، وأفضّل القسوة على التملق، وأفضّلُ بل وأحبّ قبل كل شيء وفوق كل شيء البساطة والطيبة، ولاسيما الطيبة. فهي الفضيلة التي يجب أن يتحلى بها الجميع. فالطيبة هي محبة الروح، وبهذه الفضيلة نحب كل ما يتألم وكل ما هو تعيس.

تألق وجهها وقالت بحرارة:

- ياه.. يا لروعة ستندال..

فابتسم لها بطيبة، وقال:

- إذن أنت طيبة وحنون..!

- لا أدري..! ردّت بخجل وارتباك..!

انتبه إلى وجهها الذي تماوجت عليه انفعالات تشي بأنها تفكّر بأشياء أخرى تعتمل في أعماقها، وأحسّ أن من واجبه أن يوضح لها أكثر موقفه من بونافنتورا فقال لها: - طبعا ليس هذا هو سبب في عدم تقبلي النفسي والفكري للبحث في فكره فحسب، وإنما لأنني كما قلت لك إنني لا أتفق معه، فهو يبدأ من العقل للبحث عن الله وينتهي إلى التصوف والمعرفة الحدسية، بينما توما الأكويني يبدأ من الإشراق والمعرفة الحدسية لينتهي إلى العقل!.

- كيف..؟ سألت بانتباه.

- بونافنتورا كان يسعى إلى جرّ الناس إلى حظيرة الإيمان حتى وإن كان ذلك لا ينسجم مع أسئلة العقل والمنطق، بينما توما الأكويني على العكس كان لا يخاف الشك ما دام منسجمًا مع أسئلة العقل.

- لكن كلاهما سمّي قديسًا من قبل الكنيسة؟. سألت باستفهام.

- نعم.. لكن تجربة بونافنتورا هي تجربة روحية تصل إلى الإشراق الإلهي كالمتصوفة الإسلاميين، بينما تجربة توما الأكويني روحية أيضا لكنها تصل إلى جوهر العقل الكوني، مثل الرازي الكبير وسبينوزا في ما بعد..!

- فهمت..

- أتعرفين أن فلسفة بونافنتورا في جوهرها، مع تعصبه المسيحي، هي أقرب إلى البوذية.

- كيف؟ لم أفهم.؟. سألت.

كانت منسجمة معه ومسترخية نفسيًا ولم تعد بذاك التحفظ والتزمت الأنثوي، فقد كانت تتجاوب معه في النقاش بشكل تلقائي مليء بالمودة والتفهم، ومن جانبه ابتعد هو عن مشاعره الذكورية نحوها، وسعى إلى أن يقترب منها روحيًا وفكريًا، فقال لها بنبرة فيها الكثير من الاهتمام: - بونافنتورا يؤكد بأن الرغبات الحقيقة للكائن البشري ثلاث: الرغبة في العلم، والرغبة في السعادة، والرغبة في السلام..!

- صحيح.. قرأت هذا عنه. قالت موافقة.

- لكنه يؤكد بأن الإنسان حين يكون خاليا من الشهوات فإنه يصل إلى درجة الطمأنينة التي يستطيع من خلالها أن ينعم برؤية الله، وهذا في الجوهر هو موقف البوذية من قضية إماتة الشهوات فِي الجسِد

والتحرر منها، على العكس من آليات التحرر التي نادى بها أبيقور مثلًا، الذي لم تكن تشغله الآلهة بل كان يرى في اللذة سبيلا للتحرر من الخوف والوصول إلى السعادة الأرضية.. لكن دعينا من كل هذا الآن وحدّثيني عن نفسك: ما الذي دفعك إلى دراسة بونافنتورا..؟ من يراك لا يفكر بأنك تهتمين بكل هذه الأسئلة المقلقة..!

فجأة، تغيرتْ ملامحها. أحسّ بغمامة حزن هيمنت على ملامحها وكيانها، وسمعها تجيب: - أنا في الحقيقة أبحث عن نفسي..

امتدت بينهما لحظات صمت.. فسألها:

- ما بك؟

تماوجت الانفعالات بشكل مفاجئ وأكثر وضوحًا على وجهها وكأنه أزاح قناعا عنه فرأى وجهها الحقيقي بلا أقنعة. امتد الصمت للحظات، ثم قالت: - آسفة إذا ما كان حديثي سيغير من اتجاه حوارنا الفكري..

- لا ضير.. يمكننا أن نتحاور في أي وقت، المهم أن تأخذي راحتك في الحديث. ردّ عليها بلطف.

بدا له وكأنها تفكر إن كان عليها الاندفاع بالبوح عن نفسها أم تتحفظ كعادتها، لكنها وجدت في نفسها رغبة في أن تبوح له هو، تريده هو أن يفهمها فقالت: - كنت في وضع نفسي سيء، ربما منذ حوارنا قبل قليل صرت أفضل..

نظر إليها بتفحص وقال لها بهدوء ونبرة فيها اهتمام وتعاطف:

- هل هناك شيء ما قد حدث لك؟ رأيت كيف اكتئبت فجأة..

- لا.. لا شيء محدد.. سحابة من الكآبة ستنجلي..

نظر إليها وكأنها يستحثها ويشجعها للبوح:

- كيف لاشيء محدد..؟ هل هي كآبة الفقدان أم التوهان، لاسيما حين تفقد الأشياء والمشاعر بريقها..!.

نظرت إليه نظرة فيها استغراب وتعجب من فهمه وغوره لأعماقها بهذه البساطة، فقالت بعد لحظات: - يمكن أن يكون التوهان، إذ لا شيء يمكن القبض عليه بشكل واضح..، فالمشاعر المختلطة تأتي دفعة واحدة، ربما

بسبب انعدام تقدير الذات والشعور بظلم الحياة، فالأسئلة تشتبك فجأة في فضاء نفسي ويشعرني بلا جدوى كل شيء..

- أعتقد أنك إنسانة عميقة، وأسئلتك هذه عن اللاجدوى ليست اعتباطة ياحوّاء.

طأطأت رأسها ونظرت إلى الأرض وكأنها تستعيد أحداثا مرت بحياتها وقالت: - الحياة ظالمة. هي تظلم بلا رحمة، لكن ما هي الحياة؟ أليست هي حركة وجودنا البايولوجي والنفسي في الزمان والمكان، والظلم يأتي ممن حولنا ومعنا..!

- نعم.. أحيانا يتجسّد ظلم الحياة في ظلم من معنا لنا، ظلم الظروف التي وجدنا أنفسنا فيها عند طفولتنا، وظلم الأهل، ظلم الأصدقاء بسبب سوء الفهم. كل شيء يحدث بسبب سوء الفهم والتعجل بإطلاق الأحكام، لكن كل هذا في جهة ومشاعرنا الذاتية من خلال تقمصنا لدور الضحية في جهة ثانية، ناهيك عن أخطر المشاعر وأهمها، وأقصد الشعور بتكرار الأشياء وبالملل والضجر..!.

صمتت للحظات وكأنها كانت تحاجج ما قال في أعماقها، وقالت مؤكدة:

- نعم.. ما تقوله صحيح.. شخصيا أكره التكرار والروتين، ربما لا أصطدم بذلك في بعض مشاغلي الكتابية لكني أصطدم بذلك في حياتي اليومية..!

نظر إليها متأملا وجهها الرقيق الذي يحيطه الشال الفيروزي وسألها بشكل مباغت: - هل أنت سعيدة يا حوّاء..؟

صمتت وكأنها كانت لا تزال تناقش ما قاله سابقًا إذ قالت له، ليس جوابا على سؤاله الأخير وإنما على ما قاله لها سابقا: - أنا لست عميقة كما تعتقد، وكذلك لست كئيبة، لكن مشكلتي أنني أتوقف أمام تفاصيل من الماضي والحاضر، وهذه التفاصيل ترهقني في كثير من الأحيان، لكن سؤالك الأخير يدفعني للتساؤل: ما معنى أن أكون سعيدة..؟ أنا راضية عن كثير من مناحي حياتي، لكني لا أرضى عن نفسي أبدًا..

أطرق آدم الأكويني محاولا تفسير ما وراء كلامها، وبعد لحظات قال لها: - بلى.. أنت عميقة. والحقيقة هذه ليست ميزة شخصية فحسب، وإنما لأن العمق النفسي موجود عند كل إنسان، من الفلاح البسيط إلى ربة البيت، إلى

الموظفة، إلى الكاتبة، والأستاذة الجامعية، رجالا ونساء، فالتفكير في الذات يولد عمقًا، فالعمق يأتي من قيامنا بموضعة ذواتنا، إذ أن الوعي الإنساني بدأ مع محاولتنا لتحويل ذواتنا لموضوع التفكير، وتحويل الأشياء إلى موضوع للتفكير، ودخولنا في الثنائية، ثنائية الذات والموضوع..، ومع ذلك عودة لسؤال السعادة، فأعتقد أن البعض يرى السعادة في الرضى، فما هو الذي لا يرضيك في نفسك وعن نفسك مثلا..!

نظرت إليه للحظات. كانت تحدّق في وجهه، ثم قالت بهدوء وكأنها حسمت مع نفسها أمرًا: - هذا النوع من العمق غير محمود دائمًا كما أظن. أذكر قصة قرأتها قديمًا لتوفيق الحكيم كانت بخصوص هذه المسألة، شخص يفكر في الانتحار مرارا ثم عندما يفكر في السبب الذي دفعه لذلك يصل إلى أنه يعقّد الأمور أكثر مما ينبغي، أشياء وتفاصيل بسيطة لو انتبه لها لوصل إلى جانب كبير من السعادة..

استغرب طريقة إجاباتها، فهي تدور حول السؤال باحثة عن طريق لتصل إليه لكنها لا تجيب عليه مباشرة، فقال لها: - في قضية الانتحار وسؤال إنهاء الحياة بإرادتنا علينا البحث عن الدوافع. وكثيرًا ما يكون وعي التكرار والملل هو جزء نتيجة الوعي الشقي والتعيس الذي يرافق بحثنا ووعينا للعبة الحياة شئنا أم أبينا!، وهو الذي يفقدنا شعورنا بالسعادة..!

- لكن ما هي السعادة..؟ أنا بهذا المعنى لست سعيدة..

صمت هو للحظات وهو يتأمل وجهها الذي ارتسمت عليه علامات التساؤل وقال: - لا أريد أن أفترض شيئًا غير حقيقي، لكن حدسي يخبرني بأنكِ مللتِ التكرار، مللت الدوران حول الساقية، لكنك محكومة بألف خيط وخيط يشدّك إلى واقعك. أحيانا تحاولين أن تقنعي نفسك بأن ما لديك يُعد نعمة قياسًا للأخرين، وأحيانا لا تقتنعين بشيء، بل تجدين كل هذا ممل ومكرر، بما في ذلك حياتك الشخصية والعائلية، وتسألين نفسك بشكل غامض: إلى متى سيستمر الأمر كذلك؟ وتحاولين إقناع نفسك بأفراح أرضية ما..

بهدوء مدت يدها إلى كوب القهوة. أخذته وكأنها تقوم بطقوس ما. ارتشفت شيئًا من القهوة وقالت: - نعم.. أعتقد أن هذا فرع من أصل يكشف عن الفرق بين الواقع والمثال، وهذا ما يزعجني من نفسي والآخرين كثيرًا، لكن السؤال الجارح حقا كما تفضلت: إلى متى سيستمر كل هذا؟ عليّ أن أغير من نمط حياتي وقواعدها الأخلاقية والدينية الثابتة كشاهدة القبر..!.

انتبه لتعبيرها الصادم في تشبيه القواعد الأخلاقية والدينة كشاهدة القبر وأعجبه كثيرًا، فسأل بهدوء: - في هذه الحال كيف تجترحين التجديد والتغيير، على الأقل على المستوى النفسي، دون أن يشعر من حولك بما يجول في أعماقك..؟

ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت:

- لا أعرف.. هناك مسكنات من آن لآخر تعطي بعض الرضا..

فقال لها وهو يحتضنها بعينيه:

- أعرف تلك الأفراح الأرضية أو الأغذية الأرضية حسب تعبير أندريه جيد، كالأطفال، اللذة الجنسية، الدفء العائلي، النجاحات الصغيرة، الاستماع للمديح من الزوج أو أم الزوج أو الأب، وأشياء أخرى، كلها أفراح تمنحنا بعض المسكنات على المواصلة وتفرض علينا شعور الرضا..

- لا تنسى العمل.. العمل مهم أيضًا. بعض النجاح يكون كافيًا لفترة طويلة.. أضافت بهدوء.

- بالتأكيد.. العمل يمنحنا الشعور بالأهمية الوجودية، لكن كل هذه الأفراح في النهاية تتكشف عن كونها أفراح زائفة، فسواء الرجل أو المرأة، الحبيب والحبيبة، الأم أو الأب، كل يذهب إلى النوم وحده، ويواجه عالم اللاوعي وحده، فحتى بعد كلمات الحب والشغف الجسدي والتداخل الجسدي والوصول إلى ذرى اللذة.. يخمد كل شيء، ويدير كل واحد جسده ليذهب إلى النوم وحده، وإلى عالم اللاوعي وحده، كما يذهب كلّ منّا إلى الموت وحده، وإلى التغوط والتبول وحده..!

كانت منتبهة لكل كلمة يقولها، ونست أنها جاءت لمناقشة أطروحتها أصلا، ووجدت حوارهما الآن أشدّ أهمية ومتعة، فواصلت الحوار معه، قائلة: - صحيح.. لكن يا تُرى ما هو الفرح الحقيقي الذي تقصده إذا كانت كل هذه الأفراح التي يستقتل الناس من أجل الحصول عليها تتكشف عن أفراح مزيفة؟ قد يكون الفرح الحقيقي غير موجود أصلا سوى في خيال..

نظر إليها بعينين تشعّان مودة وقال:

- الفرح الحقيقي هو السلام الداخلي ووعي الذات، وليس الرضا بالأشياء. تعرفين نظرية غوستاف يونغ عن جبل الثلج..؟

- نعم.. أنت تحدثت عنها في إحدى متاهاتك، عن جبل الثلج، عن القمة التي تشكل الوعي وبقية الجبل الغارق تحت سطح الماء الذي يشكل اللاوعي.

ابتسم لها بمودة وقال:

- أنت قارئة ممتازة.. نعم بالضبط، كلما غصنا تحت السطح ونزلنا إلى اللاوعي فسنحوله أثناء الغوص إلى وعي بحيث نكشف عن ألاعيب اللاوعي معنا، ناهيك أننا لو أدركنا مبدأ الضرورة ووعيناه، عندها نشعر بحرية نسبية لوجودنا..

فسألته:

- هل وعي اللاوعي، أو بدقة أكبر تحول جزء من اللاوعي إلى الوعي هو بالضرورة الضامن للسلام النفسي؟

- نعم.. حين تلتقي نقطتا قطب الدائرة! فحين ننزل إلى اللاوعي، فتلك النسبة من النزول تعني انخفض الماء بقدر تلك النسبة، وصارت تلك المنطقة جزءًا من الوعي، أي نحيل اللاوعي إلى وعي، لكن محور الدائرة، نقطة الروح ونقطة الغريزة حينما تلتقيان تكتمل الدائرة النفسية، وحينها نتحول إلى كائنات أخرى، بحيث لا نخاف غرائزنا بل نتعالى بها، ولا نعيش روحانية رومانسية وإنما روحانية جسدية، أي مادية روحانية، فالسلام النفسي ليس بإماتة الرغبات والغرائز بحكم الأخلاق والدين والشريعة، وإنما الارتقاء بها، وهنا نقترب من أبيقور كثيرا ونبتعد من بوذا وبونافنتورا أيضا.. لا أدري إن كنت قد وضحت فكرتي..

- نعم.. أفهمك، لكن التطبيق دائما أصعب من الحديث..

- جربي..!.

- أنا جبانة. أخاف أن أجرب. أحس ثمة قيود تكبّلني من الداخل. أشعر على الرغم من عدم قناعتي بذلك بأننا نعود للحيوانية..

نظر إليها ورأى الخوف الحقيقي في نظراتها فقال لها:

-

- كما قلت لك.. في محور دائرة النفس الغامضة نقطتان تبدأ منهما دائرة النفس وتكتمل، نقطة الجسد التي تلتف لتلتقي بنقطة الروح، وتكتمل الدائرة حينما تلتقي نقطة الروح بنقطة الغريزة.. حينها لا نخاف غرائزنا بل نتعالى بها ولا نعيشها بابتذال، كما لا نعيش روحانيتنا برومانسية أو بهاجس الخوف من العقاب، وإنما روحانيتنا تكون جسدية، أي مادية روحانية، وبالمناسبة، إن الروحانية لا تعني احتقار الغرائز..!

في تلك اللحظة رن هاتفه النقال. نظر إلى شاشة الهاتف. رفع رأسه إلى حوّاء العاقل واستأذنها للرد فأومأت برأسها إليه، فضغط على زر الرد وتحدث: - أهلا أيها الغوريلا العاشق.. (صمت للحظات).. ماذا؟ ماذا تقول؟ حاولت الانتحار؟ من قال لك ذلك.!(صمت).. وماذا ستفعل أنت؟ طيب.. اطمئن عليها وأخبرني.. أنا في البيت. اتصل بي حين تتمكن من الحديث.. إلى اللقاء..

كانت على الرغم من محاولتها أن تبدي لا مبالاتها وانشغالها عما يقول إلّا أنها كانت تتنصتْ على كل كلمة قالها، وكم كان بودها أن تسأله عما جرى لأنها لاحظت الصدمة على وجهه، لاسيما والحديث يدور عن محاولة انتحار، إلّا أنه بادر بشرح الوضع وتوضيح الأمر: - هذا صديقي آدم الغوريلا.. صديقته انتحرت لأسباب عائلية، وهي الآن في المستشفى..

- كان الله في عونها..

كان متأثرا حقا بما سمعه. صمت للحظات ثم قال:

- أتعرفين..، فكرة الانتحار ناقشها الكثيرون من الفلاسفة. بعضهم اعتبرها قمة الجبن والخذلان والهزيمة أمام الواقع والحياة،.. وبعضهم اعتبرها قمة الشجاعة لأننا نتحكم بوجودنا في الحياة ولا نترك الأمر للإله، أي هو تجسيد لإرادتنا الحرة، وربما يكون دافعه في أحيان كثيرة العمق والتوهان في التفكير والقطيعة غير المرئية بين الإنسان وبين يوميات حياته، سواء كان المرء متزوجا ولديه أطفال أم كان وحيدًا، فالكل يذهب إلى وحشته بطريقه الخاص به!. أنت مثلا، أرى أنك تدورين مثل قمر حول كوكب اجتماعي، عائلي، محكومة بجاذبيته، تريدين الانفلات عن هذا المدار، لكنك لا تستطيعين، لذا تدورين حول نفسك بسكون ضمن دورانك في مدارك الأكبر، ويُخيل إليّ أنك تعيشين عزلتك وأنت وسط الآخرين، أي مثل هؤلاء الناس الذين يعيشون عزلتهم وهم في أشد حالاتهم حميمية، حيث تمرق لحظات

يظنون أن ما يجري حولهم لا يجري معهم، وكأنهم ينظرون لأنفسهم وأجسادهم في حركاتها الحميمة والشبقة وكأنهم ليسوا هم وتلك ليست أجسادهم..!

نظرت إليه بتمعن وقالت:

- أنت تخيفني.. كيف أمكنك أن تعرفني بهذا الوضوح..!؟

ابتسم ولم يجيبها وإنما واصل:

- لقد انتبهت لابتسامتك أيضا، فحتى حين تبتسمين تبقى نظرتك تائهة..!

حاولتْ أن تحتمي من قراءته لها فقالت:

- قد تكون نظرتي نظرة جينية ولدت بها هكذا ولا حيلة لي بها..

- مهما يكن، فأنت تبتسمين، بيد أنك موجودة وغير موجودة، ولا تنسي أن تولستوي قال إن العين مرآة الروح..

فقالت بنبرة سوداوية ممزوجة بغضب:

- لا أحب أن أكون واضحة للآخرين، أحس حينها بالعري..

صمت للحظات.. نظر إليها بتمعن وسأل:

- مم أنت غاضبة؟

شعرتْ بالإستياء من نفسها لإجابتها غير المهذبة وقالت:

- أنا غاضبة من نفسي..

- لماذا..؟

- لأني على الرغم من انغلاقي على نفسي وشعوري بالراحة بسبب ذلك، لكني أيضا أحس بالحاجة إلى أن أفتح كل الأبواب المغلقة داخلي، وأراني كيف أبدو! أتدري يا أستاذ آدم، أحيانا كثيرة أشعر بأنني لست حرة أبدا في التحكم بذاتي، ابتسم ابتسامة ساخرة الآن، فمع ظهوري الواثق جدًا وثقتي بذاتي أحيانًا، من ناحية شكلي وأناقتي وثقافتي، لكني أجلد نفسي دائما وأقول إنني «لا شيء». أحدّق أمامي

فأرى هوّة شاسعة وواد بيني وبين واقعي بأكمله، كثيرًا ما تنتابني حالة لا مبالاة تجاه أي شيء، فلتمض الأمور كيفما شاءت، وكأنها لا تعنيني، بما في ذلك شؤون الزوج والأطفال، فكأنني أترك كل شيء خلفي وأمضي، بل أحيانا ألازم الفراش وأنام طويلا، ولا أرغب بفعل أي شيء، وأفقد الرغبة في أي شيء حتى الأشياء التي أحبها، أحس بأنني مرهقة ومتعبة من الداخل، أحتاج لتغيير يهزني، يقلعني من أعماقي ليعيد جذوة الحياة والفرح في نفسي..

نظر إليها وقال دون محاولة لصد بوحها الذي انطلق:

- اللامبالاة تأتي من الوعي الشديد بالأشياء بحيث تنقطع رغبتك في التواصل معها وكأنك تعرفين ماذا يأتي وإلى أي شيء ستؤول الأشياء، لذلك كل شيء يفقد طعمه..

كانت تستمع له لكنها لم تسمع شيئا وإنما كانت تصغي لصوتها الداخلي فواصلت: - أحيانا كنت أفكر بالموت. عادة تصدمني أخبار الموت، حتى لو كان الميت غريبا لا أعرفه، لأني أساسًا أفكر بفعل الموت وليس بالميت. للموت وجهه البشع، والتفكير في ما بعد الموت مخيف لأنه مجهول! حتى الحب لا يستطيع أن يخفف من هول التفكير في الموت!. أعتقد أن واقعي شوّهني كثيرا، وشوّه علاقتي بنفسي، أحب أن أعيش قصة حب، ربما عشتها مع زوجي، لا أدري، لكن الزمن أفقدها بعدها الوجودي، ووضعها كحكاية في إطار العائلة والدين والتبعية لاسيما وقد دخلت الأمومة على هذا المشهد! طبعا لا أريد أن أهدم وأكسر هذا الإطار، لكن فكرة أن أكون عاشقة ومعشوقة تسحرني..

- كلنا هكذا نحب أن نكون موضوعا للحب، سواء كنّا العشاق أو المعشوقين..!

- لكن أنا لديّ مشكلة مع نفسي، فكثيرا ما يحدث حينما يقترب مني أحدهم وأشعر تجاهه بمشاعر وجاذبية أيضا، أجدني أبتعد وأقول إنني لم أجد من يعجبني إلى درجة العشق، أبحث عن كل حاجز أمام أعجابي وعشقي.. أبحث عن كل شيء، شكله، مظهره، جسده، بل أقلل من قيمة نفسي وأجد أنني لا أستحق اهتمامه، وأبحث عن أي سبب لكي أبعده عن نفسي وعن انطلاق مشاعري نحوه، وأول تلك الأسباب وأقواها هو أنني متزوجة ولدي طفل، وكأن ذلك يعني إعدام مشاعري من الحب والإعجاب والانجذاب لرجل ما، رجل لا يؤثر على إطاري العائلي وسلام إيقاع يوميات حياتي.

نظر إليها متأملا للحظات وسأل:

- وزوجك..؟

- زوجي..! أحببته.. وأظن أني أحبّه، لكنه مع تحرره الظاهر إلا أنه في أعماقه أصولي سلفي.. صحيح أنه لا يدري ذلك، ويحاول أن يبدو عاشقًا معاصرًا لكنه في أعمق أعماقه رجل شرقي بكل معنى الكلمة، وربما يعجبني ذلك، بل ربّما أنا سلفية دون أن انتبه لنفسي.. لا أدري.. هو ملتزم بالعادات والتقاليد، أحيانا يرى في جموحي الفكري مشاكسة، صحيح أنه يفتخر أمام أصدقائه بأنني جريئة ومشاكسة، لكنه لا يرغب في أن أشاكسه وأتمرد على قوانينه!!.. يريد لحياته أن تستمر وأنا فيها كديكور اجتماعي. أحيانا أشعر أنني أحبّه، وأحزن بعمق لأنني لا أستطيع أن أفتح كل أعماقي له، وكم حاولت أن أقرّب المسافات بيننا، وأن أناقشه في أمور شتى، ولكني أعود خائبة وأصطدم بجدار تصوراته. في داخلي أريده، وأشفق عليه، وأسانده كإنسان ربما لم يعرف الحياة، مع أنه غارق في همومها وروتينها كآلة. مشكلتي معه أنه بدلًا من أن يمد يده إليّ، إلا أنه يسحبني للأسفل، للموت وللجمود، وللانصهار في الجموع. يسألني بحدة كثيرًا: «فيمَّ تختلفين عنهم، كوني مثلهم»، ويقصد أمه وأخته وعائلته، بل وعائلتي، فأقول له: «لا أستطيع الانكماش، سأختنق، أشعر بغصة!». طبعًا هو واثق من أنه لن يفقدني مهما تعامل معي، ومهما كانت ظروفي، ليس لأني أحبه وإنما لأنني هكذا، لا أهتم في دنياي إلا بطفلي وأن أقوم بواجبي كزوجة.

صمت آدم الأكويني لحظة ثم سأل بشكل مباغت:

- ألديك رغبة بتمثيل دور الضحية..؟

لم تجبه مباشرة حاولت أن تشغل حالها بتفتيش شيء ما في حقيبتها. أخرجت هاتفها. فتشت إن كانت قد وصلتها رسالة ما. لم تجد شيئًا. أعادت الهاتف إلى الحقيبة، ثم أجابت: - ربما.. ربما في أعماقي رغبة لا واعية بتمثيل دور الضحية! لكن أتعرف، أستغرب جدًا من نفسي، فأنا مع ذلك ابتعد عمّن يحبّونني بصدق ويهتمون بي، دائما أبعدهم عني، أقول لهم بأنني لا أستحق اهتمامهم وسؤالهم ومحبتهم، إلى أن يصل الأمر بهم في أن يعترفوا هم قائلين: بأنني لا أستحق محبتهم واهتمامهم..

حدّق آدم الأكويني في وجهها للحظات وكأنه يريد أن يكتشف شيئًا، وقال بصوت خافت: - ربما هي مازوشية خفية.. حب الألم..

نظرت إليه وكأنها على كرسي الاعتراف وقالت بهدوء واسترخاء واستسلام:

- ربّما.. إذ يحدث أحيانا أن أفكّر في تحطيم صورتي الجميلة عند الناس. عادة في البداية أسعى لتشكيل صورة جميلة عني، صورة باهرة، ثم حين أتيقّن من ذلك أسعى إلى تحطيم تلك الصورة، لاسيما عند الأصدقاء المقربين. أغضب حينما يبالغ أحد في مدحي، لا أصدّقه، بل كلما بالغ في مدحي اهتزت ثقتي به! أقول له بأنني أعرف ميزاتي ونواقصي، وإن الإنسان ليس هو ما يظهر، فنحن نحكم من خلال الأشياء الخارجية، أفلّسف الأمور لأني أشعر بوجود يد خفية بداخلي تريد دائما محو صورتي الجميلة لدى الآخرين وتشويهها.

- ربما هي نزعة عدوانية لتدمير الذات وإهانتها والتقليل من شأنها. علّق بهدوء.

- نعم.. ربما.. فأحيانا كثيرة أنهار بداخلي وأبكي شفقة على نفسي، وأقول لنفسي بأنني أعلم أني لست سيئة، لكني بمجرد أن أقول ذلك لنفسي حتى أبدأ بمهاجمتها من جديد مبررة ذلك تحت ستار الأخلاق والالتزام الديني ومفاهيم الإخلاص والوفاء، بل وتمثيل دور العاشقة المسكينة..!! لا أعرف.. ربما هذا الأمر يعود لطفولتي التي زرعت عدم الثقة في نفسي بحيث صرت لا أحب المديح، ليس تواضعا وإنما عدم ثقة بنفسي لأني في أعماقي أنظر لنواقصي!. نعم.. أتذكر مواقف كثيرة، في نشأتي وقعت في تناقض كبير، بين حب أهلي وحنانهم وعطائهم، وفي المقابل قسوتهم لعدم معرفتهم في أساليب التربية الصحيحة. التمست لهم أعذارًا كثيرة. أحيانا انتقد نفسي على كرهي لمواقفهم..

ظل ينظر إليها دون أن يقول أي شيء. مرّت لحظات حتى انتهت هي لذلك فسألته ببراءة: - ماذا..؟ لماذا صمتّ ولم تقل شيئا؟

تردد قليلا ثم قال بهدوء:

- أنت متناقضة..!

فجأة رنّ هاتفها. فتشت بعجالة وارتباك عن الموبايل في الحقيبة، وضغطت على زر المكالمات وأجابت بهدوء وبصوت أقرب للكتمان قالت: - ماذا؟ أنا في المكتبة.. لا أستطيع رفع صوتي.. سآتي.. سآخذ تاكسي وأمر على روضة الأطفال لآتي بآدم وأعود إلى البيت..

أدرك آدم الأكويني أن المتصل هو زوجها، وأنها كذبت حين قالت إنها في المكتبة. لم يسألها لكنها أدركت أنه فهم أنها لم تقل الحقيقة، فابتسمت بحزن بما يشبه الإعتذار وقالت: - أعتذر.. لقد كان زوجي، ولم يكن بإمكاني أن أقول له إنني في شقة أحد الأساتذة وحدي، لن يقبل ذلك، ولكن عودة على كلامك بأني متناقضة.. نعم.. أنا أدرك ذلك وأتعذب بسبب هذا التناقض..

- عليك بالتحرر النفسي، واللغوي قبل كل شيء، على الأقل مع نفسك..

- أأنت ترى في ذلك حلًّا وعلاجًا..! بأن أهبط إلى القاع اللغوي والقاموس المبتذل..!! أنا أشعر بالتقزز من الحديث المفضوح، ومن كل شيء يقترب من الجنس، أشعر حينها بالرغبة في الصمت والتلاشي!. أحيانا كثيرة أود أن أشتم وأسب بشتى الكلمات ولكني أمنع نفسي بكل قوة عن ذلك..! يعني أنني أعي أن لديّ رغبة أحيانا في التعبير عن غضبي بالسباب، ولكني لا أعي رغبتي في التلفظ بكلمات داعرة! نعم.. هذه هي تربيتي الطهرانية.. أحلم بحياة هادئة رومانسية، ومسالمة لأبعد حد، ومنعزلة ولا شيء أكثر، أنا مليئة بالتناقضات، أعرف، لكنني صادقة جدًا وأمقت الأقنعة، وهذا ليس مديحا لنفسي. أنا امرأة تسير في مفترق طرق، وإذا ما تراءى لها طريق وغامرت بالسير فيه وجدته سرابًا، لتعود أدراجها، وهكذا مع كل طريق يظهر سرابا، حتى جلستْ وقد أعياها المسير، أنا أتوق إلى السلام والاستقلال والسكينة التي لم أستطع الوصول إليها..! أنا أقدّس العقل والروح، وربما أميل للحب الأفلاطوني أيضًا. الجنس مهم، لكنه ليس المحرّك لحياتي. أشعر أحيانا ببعض التناقض، ما بين ما أريده، وما يدور بداخلي. بين ما أصبو إليه عن ذاتي وما يحدث فعلا، أسمو بروحي، فيجذبني الجسد إلى قاعه المنحط، وهذا يدفعني أكثر للإيمان بالحب الذي يسمو فوق الغريزة، لا.. الغريزة شيء يجب تجنبه، لكن طبيعة الرجل الاصطيادية تجعل من النادر أن يحبّ الرجل المرأة لذاتها، ويصغي إلى أعماقها، عليّ أن أذهب الآن، أنا لم أحظ أبدًا بحوار مع نفسي وعن نفسي مثل هذا الحوار بيننا..

- أنا سعيد بك.. لقد منحتني سعادة بمجيئك.. قال بمودة.

- وأنا سعيدة لأنني منحتك السعادة. هذا يفرحني..

- أتمنى أن تبقي دائما هكذا..

- سيسعدني ذلك..

ونهضت عن الصوفا. ابتسمت قائلة:

- أنا جئت من أجل بونافنتورا.. لكنني تحدثت عن نفسي..

- هذا شيء رائع..

- سأتصل بك ونلتقي..

- سأبقى أنا ليومين آخرين في البيت..

- هل يمكننا أن نلتقي غدا..؟ سألت بارتباك.

- أين..؟

- مثلما تحب.. في المكتبة.. أو حتى هنا.. فقد شعرت بأننا هنا دون عيون تراقبنا كما يحدث في المكتبة من متابعة ورقابة الإسلاميين الذين يسمعوننا التعاويذ والحوقلة كلما مرّ أحدهم من قربنا قالت بلهجة تبريرية..

- إذن سنلتقي هنا.. سأنتظرك غدا الساعة التاسعة

وبدون توقع منه مدّت يدها لتصافحه وقالت:

- عادة لا أصافح الرجال.. لكني أرتحت لك..!

وغادرت الشقة مثل حلم، ولم يبق من حقيقة وجودها سوى العطر الذي خلفته في الصالة.

الفصل الثامن

آدم الأكويني وأشباحه

لم يعرف آدم الأكويني كيف مرّ الوقت منذ أن غادرت حواء العاقل شقته. فقد كان في حالة انجذاب تشبه الذهول. استغرب من أنها وحدها كانت بالألوان، بينما كل ما يحيطها كان كما في الأفلام القديمة غير الملونة.

يتذكر أنه بعدما غادرت دخل إلى غرفة النوم. استلقى على سريره وغطّ في نوم عميق لم يذق طعمه منذ شهر تقريبًا بحكم ساقه المكسورة والتي كانت في الجبس. لا يذكر كم استغرق في النوم لأنه حين استيقظ كان كل شيء حوله غارقًا في الظلام.

وفي عتمة الغرفة المظلمة نظر إلى ساعته المنضدية وإلى عقاربها الفسفورية المضيئة فقفز مستغربًا، إذا كانت الساعة تشير إلى التاسعة، بينما غادرت حواء العاقل في حدود الساعة الواحدة بعد منتصف النهار، ولحظتها لم يكن يدرك هل الوقت كان التاسعة مساءً أم صباحًا.

نهض عن سريره ولا إراديا فتش عن عكّازه، لكنه سرعان ما تذكر أنه الآن سليم الساق ولا يحتاج الى العكّاز، بيد إنه لم يتعود بعد على الحركة التلقائية.

حين صار عند باب الغرفة من الداخل سمع أصواتا تأتي من الصالة. تردد في أن يفتح الباب. كانت الأصوات هي لغط من أصوات رجال ونساء. أحسّ بالخوف وسأل نفسه: «من هؤلاء؟ وكيف دخلوا إلى الشقة؟ من فتح لهم الباب..؟ هل يملكون مفاتيح شقتي..؟».

قرفص جالسًا عند الباب من الداخل ونظر من ثقب المفتاح فرأى مجموعة منهم فعرفهم فورًا.. «كيف وصل هؤلاء إلى هنا..؟ ومن جمعهم معًا؟» سأل نفسه مستغربًا.

أحس بحبيبات من عرق بارد أخذت تتجمع على جبينه، وخيط من العرق البارد ينزل من رقبته عبر عموده الفقري، وقال لنفسه «لا. لا استطيع مواجهتهم»..

سمع أحدهم يقول:

- أنا لا أعرف لماذا رسم لي مثل هذا المصير..؟

- من أنت..؟ وكيف كان مصيرك؟ سألتْ إحدى الجالسات.

- أنا آدم الشبيبي.. كاتب وشاعر وصحفي، حضرت في متاهة قابيل، وكنت صديقا للمغدور قابيل الفهد، وأحببت حواء الكرخي فتبعتها إلى دمشق، لكنها لم تكن تحبّني. ظهرتُ مرة أخرى في دمشق برواية متاهة إبليس، وحين تم اغتيال حواء الكرخي حاولت مغادرة الشام عبر التهريب، لكن تم إلقاء القبض على المهرب، فبقيت في بيت صديقي هذا آدم أبو التنك وزوجته هذه حواء الفارسي، وهما الآن يجلسان إلى جانبي على الصوفا، المهم في «متاهة العميان» تعرفت على مغربية جزائرية مهووسة بالتصوف وبشيخ الإشراق السهروردي المقتول، وقد سافرتْ هي إلى حلب لتزور ضريحه، وفي «متاهة الأنبياء» كان آخر حضور روائي لي، فقد سافرت إلى حلب ملتحقا بخطيبتي التي أرادت مساعدتي عن طريق الزواج بي، لكن انقطعت أخباري، وقد علمت أن آدم البغدادي الذي حملت المغدورة حواء الكرخي مخطوطاته معها إلى دمشق، بعد اغتيال صديقتها حواء الزاهد، بأنه ليس المؤلف الأصلي للمتاهات وإنما آدم الأكويني الذي ينام في الغرفة المجاورة الآن، كما علمت أيضًا أنه حلم بنهايتين لي، إحداهما أن يقبض الإسلاميون المتطرفون عليّ، ويخرجوني من سيارة التاكسي التي ركبتها من دمشق متجها إلى حلب، وهناك على قارعة الطريق يقتادني شخصان يشد أحدهما ذراعيّ إلى الخلف بينما يذبحني الآخر بسكين حاد شعرت بنصله وهو يقطع أوردة وشرايين رقبتي، وغبت في الظلام.

وجاء صوت امرأة لمحهاآدم الأكويني من فتحة الباب، وكانت تجلس مع امرأتين أخرتين على الصوفا المقابلة:

- والنهاية الأخرى..؟

صمت آدم الشبيبي للحظات، ثم قال:

- النهاية الأخرى هي أن أصل إلى حلب، التقي بخطيبتي حواء الزياني، وحينما نقرر الرجوع إلى الشام نعرف أن الطريق صار خطِرًا، فنبقى عالقين في حلب، لكن بفضل ما تحمله خطيبتي من مال نستطيع الوصول إلى تركيا ومنها نعبر إلى أوروبا. وبعد مغامرات لا مجال لذكرها نصل إلى ألمانيا حيث مصيري المأساوي، إذ يتم إسكاننا في مخيم يكتظ باللاجئين من سوريا وأفغانستان، ويجري شجار عنيف بالسكاكين في معسكر اللاجئين بين السوريين والأفغان بسبب خلاف على من يكون أميرًا وإماما في المعسكر، فيسقط قتيلان وستة وعشرون جريحًا. أنا كنت أحد القتلى، علما أنا لست من أي طرف لكنني كنت شاهدًا على صراعهم، وأردت التفريق بينهم، فأقبل نحوي إثنان من الطرفين شتموني وأخذوا يصرخون بأنني علماني ملحد، ومزقوني بطعنات سكاكينهم، لذا جئت اعترض على هذا المصير الأسود.

فقالت المرأة التي تجلس إلى جانبها بنبرة احتجاج:

- هذان مصيران مخيفان، من حقك أن تعترض، لكن هل كتب هو هذا المصير في روايته الجديدة؟

فأجاب آدم الشبيبي مبررًا وموضحا:

- لا. لا. لم يكتب ذلك بعد، لكنه حلم ليلة أمس بهذا المصير لي، لأن هذا الحادث جرى فعلا في أحد معسكرات اللجوء في ألمانيا، وفكّر به، كما أنه فكر بمصائركم أيضا..!

فجاء صوت امرأة لمحها تجلس جانبيا وعرفها مباشرة، إنها حواء ذوالنورين، التي قالت:

- هذا صحيح جدًا، فأنا جعلني أمر بالجحيم. رسم لي حياة عائلية تعيسة، طفولة بائسة ومليئة بالآلام والإهانات، وجعل زوجي يُقتل وابني ينتحر، وأنا اضطر لأضاجع خنزيرًا مثل آدم الشامي من أجل أن يساعدني في الحصول على جواز مزور، ولم أجد في حياتي سعادة سوى سعادة الصداقة، مع الصديقة إيفا سميث المسيحية اللبنانية الفرنسية، ويضطرني للسفر إلى مراكش بالمغرب هربا من

تحرّشات آدم سميث زوج صديقتي الذي سعى أن يجعلني عشيقته، ولأن صديقتي تعرضت لوضع خاص واكتشفت خيانة زوجها في لحظة موته بحادث مع ابنها الحبيب الصغير بحادث اصطدام سيارته، فقد كنت مضطرة أن أرجع إلى باريس مرة أخرى بعد أن غادرتها إلى مراكش، لكن المؤلف فكّر لي بنهاية مروّعة أيضًا، وقد جئت لأحدثه بأن يتركني أذهب إلى صديقتي وأواسيها على مصابها الجلل. طبعا هو وضع احتمالًا آخر لنهايتي بأن أرجع إلى باريس وأصير عشيقة لمحامي شركة آدم سميث الذي مات في حادث اصطدام السيارة وصارت زوجته صديقتي إيفا سميث هي الوريثة لأمواله وحصته في الشركة، بل وصارت صديقتي عشيقة لآدم زاباتو أيضا، على الرغم من رفضها لما تقوم به معه واحتقارها له، لكنها أيضًا تدخل في صراع مع صديقتها حواء دمشقية من أجل آدم زاباتو..، ويصل الأمر إلى الشجار اللفظي والقطيعة، وبطريقته ونتيجة لهذه القطيعة يبحث آدم المفتي حبيب حواء دمشقية في أصل الصراع وخلفياته ويصل إلى علاقة حبيبته آدم زاباتو، وتساوره الشكوك في حملها منه، فيتجسس بطريقته مفتشا في أوراقها وهاتفها فيعرف من خلال رسالة بينها وبين آدم زباتو بأنها حامل منه، لكن الآخر أجابها بسيل من الشتائم بأنها عاهرة وساقطة، وعليها أن تفكر جيدًا وتعيد حساباتها وحسابات دورتها لتتأكد من الذي نام معها وحبّلها، فيغضب آدم المفتي ويطلب منها أن تجهض الجنين مرة أخرى..!

فجاء صوت آدم أبو التنك الساخر الذي عرفه على الرغم من أنه ليس في مجال النظر إليه من ثقب الباب:

- كل شيء يبدأ من الجنس وينتهي إليه، بينما الناس مرعوبة من ذكره.

- لكنه اختار لي مصيرا آخر أيضا أشد رعبًا..

- ما هو؟

تعب آدم الأكويني من جلسة القرفصاء أمام ثقب باب غرفة النوم والتي امتدت لساعات وهو يتنصت لحوار شخصياته المتمردة. كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل. فكّر مع نفسه بأن هذه هي ليست كل الشخصيات الحية الموجودة في المتاهات، لكنه لم يكمل الروايات فقد ظلت هذه الشخصيات واقفة في محطتها تنتظر أن يكتب لها حياتها..!

صحيح أنه فكّر بأن يكتب من خلال مخطوطات آدم البغدادي رواية تلم هذه الشخصيات وتقودها إلى مصيرها، وصحيح أنه فكر في احتمالات تلك المصائر، لكنه لم ينه روايته بعد! فكيف عرفتْ هذه الشخصيات بما فكر هو به حولهم؟ وهل من حق الشخصية الروائية أن تعترض على مصيرها الذي يقرره كاتبها!؟

توقف الحوار الذي يصله من ثقب الباب، وحين حدّق من ثقب الباب مرة أخرى لم يجد أحدًا. فتح الباب وخرج إلى الصالة. كانت الصمت يهيمن على الشقة.

ذهب بهدوء إلى المطبخ. كان جائعا. فتح الثلاجة، وأخرج تسع حبات كبيرة ومتوسطة الحجم من الطماطم، كما فتح خزانة تحت المطبخ وأخرج مقلاة، وفتح خزانة أخرى حيث كان يحفظ البصل والبطاطا، فأخذ تسع بصلات، وهكذا أخذ يعّد لنفسه وجبة من الطماطم المقلية بالدهن مع البصل والبهارات وهي أكلة اعتادت عائلته عليها في طفولته لشدّة فقرهم، لكنه بقى يحب هذه الأكلة حتى بعد أن صار ميسور الحال، بل هي من وجباته المفضلة.

* * *

حين انتهى من الأكل. توجه إلى طاولة الكتابة. دخل على روابط الموسيقى واختار سوناتات لشوبان أخذت تصدح بنعومة وكأنها أمطار من الأنغام الرقيقة. فتح صفحة جديدة في روايته الجديدة، لكنه وجد نفسه لا إراديا يفكر في حواء العاقل: «كيف لي أن أساعدها، فهي ذكية وذات تفكير فلسفي عميق يحتاج الرعاية والدعم، مع الأسف أنني لست المشرف على أطروحتها، لكنت رفضت عنوان أطروحتها عن بونافنتورا، أو لجعلتها تقارنه بابن سينا». ولا إراديا أحس برغبة في أن يجري الوقت بسرعة كي يأتي يوم الغد الذي ينتظر فيه مجيء حواء العاقل، فنهض عن كرسيه وتوجه إلى غرفة النوم بعد أن أغلق حاسوبه وأطفئ الأضواء في الصالة.

* * *

نهض في تمام الثامنة والنصف. أخذ حمّامًا ساخنًا. ارتدى ملابس أنيقة على بساطتها، بنطالا من الجنس بلون بيجي وقميصا من مخمل أزرق خفيف، وتعطر بعطره المعتاد والذي لا يغيّره منذ سنوات.

توجه للمطبخ. أعدّ لنفسه شايًا ثقيلًا وقطعًا من جبن الحلوم المملح. أنفق الوقت بغسل الجبن بالماء الساخن كي يذهب منه بعض راحته الدهينة ويطريه، وصب لنفسه شايًا وجلس يأكل بهدوء.

حين رنّ جرس الباب أحس بهفيف في قلبه، فقد كان متأكدًا بأنه قد أحبّ هذه المرأة. صحيح أنها متزوجة ولديها طفل صغير، لكن الحب قدر وليس اختيارا.

كانت صورتها أمس بثوبها الأسود وحجابها الفيروزي يتوهجان في خلفية الأبيض والأسود التي تهيمن على رؤيته البصرية.

حين فتح الباب رآها في ثياب اعتيادية أنيقة. كانت تضع حجابًا أسود على رأسها وترتدي سترة طويلة حمراء وتحت بنطال جنز أزرق. ابتسمت له بطيبة. واجتازت الباب نحو الصالة، فقد صارت تعرف الشقة وأين تقع الصالة استغرب ثانية حينما تأكد بأنه يراها هي فقط بالألوان وليس ما يحيطها من مكان.

واستعدادا لوصولها فقد أعد دورقا من الشكولاته الساخنة التي يحبها كما حمل دورقا للماء الساخن الذي أعده بالغلاية الكهربائية، مع كوبين إلى جانب علبة النسكافية وقنينة حليب صغيرة، لذلك ما إن جلست حتى حمل الصينية وجاء إلى الصالة.

رآها قد نزعت معطفها الأحمر، فبدت في بنطال من الجينز الأزرق مع قميص حريري أبيض. كانت أكثر استرخاءً وتحررًا في حركتها الجسدية ونظراتها وإشعاعها الأنثوي الصادر منها.

صبّ لنفسه شكولاته ساخنة وسألها عما تحب فقالت إنها تحب القهوة بالحليب، فصب لها القهوة في كوبها وسكب ماء ساخنا وأخذ يدير الملعقة في الكوب فشكرته. قرّب الكوب منها، حينها تشممت عطره الزكي.

عاد لمقعده وبيد كوب الشوكلاته التي ارتشف منها شيئًا، فجأة سألها:

- هل استقر رأيك على بونافنتورا..

لم تجب مباشرة. كانت تفكر في إجابة، لكنها لم تجد سوى قولها:

- وهل لك رأي آخر، علمًا أن كلامك عنه أمس بنى حاجزًا نفسيًا بيني وبينه..!

نظر إليها بمودة وقال مبتسما:

- أنت عاطفية مثلي.

لم تكن تعرف هل هذا مديح أم ذم فسألت بتوجس:

- ماذا تقصد.؟

عرف أن هذا القول أربكها فأراد التوضيح:

- أقصد أننّا عاطفيون، فحتى في أفكارنا التي يفترض أن تميل إلى التجريد نتعكّز على مشاعرنا..!

فقالت بنبرة فيها احتجاج مبطن:

- لكني لا أبدو في حياتي عاطفية، أنا أفكر كثيرًا، بل أحيانا أوصف بالبرود العاطفي. العقل والاتزان السلوكي هو ما يميز حياتي اليومية وعلاقاتي مع الآخرين، وكذا الأمر مع اختياري لعنوان أطروحتي، لكن كلامك عنه ونفورك الشخصي منه ونظرتك بلاقيمة أفكاره وفلسفته التي يعارضها في سلوكه المتعصب واللامتسامح لاسيما مع عالم راهب مثل روجر بيكون دفعني أن أفكر في تغيير مسار الأطروحة وعنوانها.

استمع لها بانتباه وقال:

- لكن في العلم علينا ألا نخلط الأمور، دراستنا للشر لا يعني أننا نميل للشر، ولا دراستنا للخير تعني أننا أخيار، لكني فضلت أن توسعي الأطروحة وتوجهيها إلى جانب آخر..

- وما هو؟ سألت بلهفة.

- أعتقد يمكنك المقارنة بينه وبين ابن سينا..!

- كيف..؟ لقد أشرت لذلك لكننا لم نتحدث فيه، وأنما كان الحديث كله عن نفسي؟ قالت بخجل.

ارتشف ارتشف مرة أخرى من كوبه رشفات كبيرة، وأراد أن يمتص خجلها، فقال:

- لقد عارض بونافنتورا نظرية الفيض التي قال بها ابن سينا وغيره من الفلاسفة المسلمين، مؤكدا أن العالم لو كان فائضا عن الله بالضرورة، لكان مماثلًا له في طبيعته، فالعالم إذن لم يصنعه الله بالطبع بل بالإرادة الحرة.

أغرتها الفكرة ووجدتها تنسجم مع أعماقها اللاواعية، فسألته وكأنها تنتظر رأيه الذي سيحسم خياراتها:

- وأنت ماذا ترى..؟

فقال بتلقائية:

- أنا أميل في هذا الموقف إلى الاثنين. يعني أنني أرى أن الوجود قد وجد بإرادة القدير والبارئ، وفي الوقت نفسه هو من فيوضه وتجليات العدم العظيم.

امتدت لحظات صمت وكأنها تفكر في كلامه ثم قالت:

- في متاهاتك تشير بهذا الشكل أو ذاك من خلال نقاشات الشخصيات إلى هذا الأمر..

أحس بفرح طفولي يغمره لملاحظتها وقال:

- نعم.. أنا أحاول أن أعيد النظر في مفهوم الله والخالق بعيدا عن الأديان. فالأديان خلقت إلهًا بشريا لديه كل أوصاف البشر، الجيدة والسيئة، الحميدة المنفرة، فهو رحيم، ومنتقم، هو عليم وهو ماكر، بينما البارئ القدير، العدم العظيم، لا علاقة له بكل هذا، فالوجود تجل له، لإرادته الحرة والعظيمة، وفي الوقت نفسه من فيوضه جوهره الحر، وإلا سنقع في الثنائية، يعني هناك الله.. وهناك الوجود، وهي الثنائية التي وقع فيها الفلاسفة، ثنائية الوجود والعدم، لكن العقل الجبار سبينوزا قد تجاوز هذه الإشكالية، فالله ليس منفصلا عن الطبيعة، والوجود نفحة من نفخات الله، أي الوجود أحد تجليات إرادة العدم وليس قطبًا منافسًا، وكما ذهب توما الأكويني فإن الله عدم لا ندركه، الله ليس موضوعًا للعلم حتى، لأن العلم يدرس شيئًا موصوفًا، والموصوف مُدرك، بينما نحن لا ندرك القدير ولا نحيط به وبوجوده، وإنما ندرك آثار تجليه في الوجود، لأننا ببساطة لا ندرك ما وراء الوجود، وماذا كان قبل لحظة الخلق، وكيف كان، نحن نتأمل الخالق مع لحظة الخلق، ونتحدث بحدسية ونعتقد بوجود من خلال الوجود وليس بانفصاله عن الوجود، لأننا ببساطة لا نستطيع تصور وتخيل العدم وشكل العدم!! هذا من جانب، ومن جانب آخر لو افترضنا أن الوجود منفصل عن الله، عن العدم، عن الله بالتسمية الدينية، فإننا نعترف دون إرادتنا بأن الله القدير البارئ هو ناقص وليس لا نهائي ولامتناه، لأنه يعني أنه مطلق لكنه ناقص الوجود!؟ وبعبارة أخرى، إذا

ما فصلنا الكون عنه فسيكون ناقصًا وليس مطلقا لأن الكون يشغل حيزًا. أي إذا قلنا بأن الكون لا علاقة له به ومنفصل عنه، فهذا يعني أنه ليس مطلقا وليس لامتناهيا، لكننا لو اعتبرنا الوجود أحد تجليات العدم، لألغينا هذه الثانية، فالوجود تجل لإرادة العدم العظيم وجزء منه، مثل شعلة اللهب فهي لا تعني النار بالضرورة، لأن النار موجودة في حجر الصوان أيضًا، لكن شعلة النار هي تجلي للنار الكامنة في حجر الصوان! لا أدري إن كنت قد أوضحت فكرتي.

كانت تنظر إليه نظرات فيها إعجاب وعاطفة ونشوة، فهي تتألق حين تسمع فكرًا مختلفًا رصينًا حتى لو لم تكن مقتنعة به. كانت معجبة بهذه القناعة الراسخة التي كانت في نبرة صوته والتألق الذي كان يبرق من نظراته، وفكرت كم ذهب بعيدًا هذا الرجل، لذا لم تجبه مباشرة مع أنها سمعت سؤاله الذي جاء في صيغة استفسار، إلاّ إنها انتبهت إلى أنه كان ينظر إليها منتظرا جوابها، فقالت له وهي تبتسم بمودة:

- أتعرف دكتور آدم.. أنا أشعر بالسعادة حين استمع لك. أحس بأنني في عالم آخر، عالم المثل والأفكار والتجليات، لكني استغرب أحيانا وأنت بهذا التسامي الميتافزيقي تتوغل في أعماق النفس والرغبة والجنس والشهوات الغريزية، وأقول ياربي كيف يهتم بهذين القطبين المتناقضين..؟ المقدس الجليل والغريزي المبتذل..!

نظر إليها بطيبة وعلى وجهه ابتسامة وسأل:

- كيف؟ ماذا تقصدين..؟ وأين؟

ارتبكت قليلا فهي لم تشأ أن تقطع انسيابية ذلك الحوار العميق بينهما.. ارتشفت شيئا من القهوة وقالت:

- في كتاباتك دائما أجد أن العلاقة بين الذكر والأنثى تنحى منحى جنسيا. ليست هناك علاقات صداقة مثلا دون انجذاب جنسي. كنت اسألك أهكذا تكون العلاقات بين الرجل والمرأة في المطلق، هل من غير الممكن أن تكون العلاقات لا انجذاب جنسي فيها.

في تلك اللحظة التي همّ فيها أن يجيب رنّ هاتفه النقال. نظر إلى شاشة الهاتف فارتسمت على وجهه علامات الخوف والانزعاج الممزوجين بالغضب، وقال ردًا على المتصل:

- نعم.. هذا أنتَ مرة أخرى. (صمت للحظات). اسمع يا أخي. أنت تريد أن تدفعني للجنون! ما معنى أنك ميت منذ أربعين يوما، وأنك تتصل من العالم الآخر؟ أفي العالم الآخر موبايلات وهواتف نقالة؟ سأتصل بمركز الهواتف والبدالة لأعرف رقمك، أنا أحذرك، كف عن إزعاجي...

وضغط على زر إنهاء المكالمات. صمت للحظات كي يهدأ غضبه، ثم رفع رأسه إلى حواء العاقل التي انتبهت لغضبه لكنها استغربت من الذي سمعته منه، وسألته:

- خيرًا دكتور.. هل حصل شيء..؟!

صمت للحظات محاولا كبح جماح غضبه وقال:

- منذ يومين اتصل بي شخص مجنون وقال لي بأنه ميت منذ أربعين يومًا، وإنه يتصل بي من العالم الآخر ليوصي بعمته التي تعمل عندي مساعدة في البيت..

- ماذا..؟ سألت حواء العاقل باستغراب

أحس هو بأنه ربما بالغ في غضبه، وحاول الرجوع إلى حوارهما الشيق، فقال:

- لنعد إلى حوارنا. سؤالك عن علاقات الحواءات والأوادم في متاهاتي وكيف أنها تنتهي بالجنس..! وسؤالك إن كان من الممكن أن تكون هناك صداقات دون جنس، أصحيح فهمته منك؟

- صحيح.. هذا هو جوهر سؤالي..

حاول آدم الأكويني أن يكون أكثر هدوءً، لكنه كان في تلك اللحظات مستاءً من نفسه لأنه غضب أمام هذه المرأة الحبيبة إلى نفسه، ومع ذلك قال:

- ما سأقوله هو رأي شخصي لا علاقة له بأية أحكام أو استنتاجات علمية أو نفسية، ولكن من خلال فهمي للحياة. (صمت لثوان ثم واصل). إذا تحدثنا في المطلق فهذا الأمر يبدو غير ممكن، لأنه في الحياة تحدث أحيانا صداقات في الوظيفة والعمل والدراسة والجامعة وهي صداقات اجتماعية لا يتخللها أي انجذاب جنسي بالضرورة، لكن أيضا لو توقفنا عند هذه الصداقات وعدم وجود العامل الجنسي لوجدنا أن الاثنين، تلك الحواء أو ذاك الآدم الذي لا ينجذب إلى صديقه في المواقع التي ذكراها فإنه في الحقيقة لديه شريكه الجنسي الذي

يروي هذا الجانب الجنسي في عالمه النفسي والجسدي، وإذا كان أحدهم يفتقد هذا الأمر لوجدناه يبحث في الآخر عن شيء ما، لكن الآخر مكتف، لذا يكون الانجذاب من طرف واحد.!

كانت حواء العاقل تستمع له بانتباه شديد، فقاطعته سائلة:

- يعني لا يمكن أن تكون بين الرجل والمرأة علاقة صداقة روحية كتلك بين الجنس الواحد، كصداقة الرجال في ما بينهم أو صداقة النساء.!.

صمت للحظات وكأنه يفكر في الإجابة ثم قال:

- بلى ممكن حينما يكون هذا الشخص مكتف وفي علاقة شخصية مع شخص آخر، لذا تكون علاقاته الاجتماعية عادية، لكني شخصيا أعتقد، أنه يحدث أحيانا بأن أحدهما ربما مرتبط بعلاقة زوجية أو عاطفية لا تشبع رغباته، لذا يبحث عنها في الآخرين، وأحيانا يكبتها.

انفعلت حين سمعت جملته الأخيرة، فقالت بنبرة متوترة:

- أنا اختلف معك في أن العلاقات بين الجنسين إن لم تأخذ المنحى الجنسي تكون فيها الرغبات والمشاعر مكبوتة، لا أظن ذلك، إلّا إذا اعتبرتَ أن هيمنة العقل على الغريزة يُعد نوعا من أنواع الكبت، وهنا أقصد الهيمنة الطبيعية وليس الضغط والقهر..!.

نظر آدم الأكويني إليها محاولا أن يتوغل في أعماقها ليفهم نبرة الغضب الخفي والتوتر في صوتها، وبعد لحظات قال لها:

- أنا لم أقصد بأن أية علاقة صداقة يجب أن تكون جنسية بالضرورة، فالجنس رغبة، والرغبة حاجة، وقد تكون حاجة نفسية وليس غرائزية بالضرورة، فمثلا هناك ملايين النساء والرجال المتزوجين لكنهم غير مرتوين جنسيا وغير متوازنين نفسيا لأسباب مختلفة، علما أنهم لا يفتقدون الممارسة الجنسية.

بدا التوتر واضحا على وجه حواء العاقل فقالت بنبرة احتجاجية حاولت أن تكتم الغضب فيها:

- حرية الانسان في التعبير عن نفسه بدون قيود ذاتية ليست حرية وإنما ردّة وعودة إلى الحيوانية..

أحس أنها تضايقت وأنها تعبر عن توتر داخلي ربما ناتج عن وضعها كما خمّن هو، لكنه لم يود أن يكون عنيدا معها فأراد توضيح الأمر بهدوء فقال:

- لا.. لا.. الأمر ليس كذلك.. لا ارتدات نحو الحيوانية ولا أي شيء من هذا القبيل. لنتناقش بهدوء. الحياة الجنسية بحد ذاتها امتداد لتطورنا البايولوجي الحيواني، والحيوانات المتطورة لديها البناء الفسولجي نفسه، قصيب عند الذكر ومهبل عند الأنثى، ومهما اختلفت طبيعة الكائن الحيواني.. والتناسل يتم من خلال دخول العضو الذكري في العضو الأنثوي، من الزواحف مرورا بالثدييات إلى الطيور والجوارح والكواسر، ومن الأفاعي مرورا بالعقارب وصولا إلى الحصان والثور والبقرة والفيل والجمل والقرود والغوريلا، والإنسان حيوان مثلهم، بل إن الإنسان يتشابه حتى في الأوضاع أيضا!. الجنس يا مدام حوّاء لديه وظيفتان كما يبين العبقري فرويد وكل الفلاسفة والمفكرين، واحدة حيوانية، وهي التناسل والتكاثر، وأخرى يختلف فيها عن الحيوانات وهي المتعة التي تحفظ الحياة النفسية للكائن الانساني، لذلك للحيوانات مواسم السفاد والتكاثر الجنسي، بينما الانسان يواصل الجنس، حتى بعد أن تلد المرأة ويتحقق التكاثر، لأن الحياة النفسية للإنسان مختلفة، وعميقة، وخاضعة لقوانين الوعي واللاوعي، لكن الجنس باعتباره وظيفة للتناسل ركّزت عليها الأديان وجعلتها الأساس، بينما الجنس للمتعة وللتوازن النفسي تم النظر اليها بريبة باعتبارها خطيئة..!!. هذا لا يعني أن الأديان لم تفهم الجانب الآخر للجنس باعتباره لذة، لكنها أجّلته كهدية الله للمؤمنين، وأقصد الجنس في الجنة، حيث يكون للمتعة فقط!. الجنس في وظيفته ضروري للإنسان بدليل أن الإنسان يدرس ويتخرج ويبحث عن المال والوظيفة وبالتالي يبحث عن الزواج، سواء الرجل أو المرأة، ولم نصل إلى المرحلة التي لا يتزوج الرجل والمرأة فيها، أو أن المرأة لا تتزوج وتعيش حياتها الجنسية ليس من أجل التكاثر وإنما من أجل المتعة والراحة النفسية، وطبعا الكثيرون من المفكرين وقفوا عند سؤال الغريزة، وبالتالي الأمر ليس له علاقة بالردة إلى الحيوانية، وإنما لأننا لا نعيش في المجتمعات الإنسانية الحرة حيث الحب الجنسي حرًا..

كانت هي قد هدأت قليلا، لكنها وجدت نفسها في وضع لا يمكنها أن تتراجع فيه عن رأيها فقالت:

- حرية الفعل الجنسي دون وجود قيود ذاتية نوع من الانحلال..

نظر إليها بمودة دون أن يبين لها بأنها تعاند أكثر مما تناقش بشكل علمي، فقال:

- القيود الذاتية!! قيود كلمة أخلاقية واجتماعية ودينية وفقهية، الأفضل أن نتحدث عن التّقبل..

- وما هو التّقبل..؟

- التّقبل يعني تطابق الإرادة والرغبة، العقل والعاطفة، لكن إذا انعدم التّقبل فهذه مشكلة، ففي الحياة الزوجية يكون هذا الأمر شائعا، لاسيما بعد سنوات من العلاقة الزوجية، بحيث تتحول العلاقة إلى واجب روتيني، كليلة الجمعة عند المسلمين والسبت عند اليهود وليلة الأحد عند المسيحيين، بل هناك ملايين الزوجات يعشن كبتا جنسيا بسبب سوء العلاقة والأنانية الذكورية.. والجهل بالجسد وتدخل الدين والفقه والشرائع في الحرية الجسدية التي تعمّق حالة الكبت على الرغم من الزواج، بل يدفع النساء إلى الهستيريا والرجال إلى العصاب..!

لم تقل شيئا. أراد هو أن ينهي هذا الحوار الذي ربما سيوتر الأجواء بينهما فقال لها:

- هل تجيدين الطبخ؟

فوجئت بهذه الانتقالة، فابتسمت وقالت:

- لا أجيده. صحيح أنا أطبخ معظم الأكلات، لكن لا أظن إن لي بصمة خاصة في الطبخ، فأنا أساسًا أكره أشغال المطبخ، الطبخ يحتاج درجة من الصبر وأنا لا أطيق قضاء الساعات في المطبخ..

- خسارة..

- لماذا..؟

- أردت أن نطبخ سوية شيئا نأكله..

نظرت إليه لثوان، وفجأة ابتسمت وقالت بحماس وهي تقوم:

- هيا إذن.. وريني شطارتك في الطبخ..!

توجهت هي قبله إلى المطبخ.. كان ينظر إلى قامتها المثيرة من الخلف.. شعر نحوها بألفة ومودة عميقة.

***

أعدّ هو أكلته التي يبرع فيها. تبسي الباذنجان، والرز البسمتي، بينما هي غسلت الخضروات وأوراق الخس والفجل والفلفل ووضعتها في صينية.

عندما كانت هي تغسل الخضروات كان هو يريد بزل الرز في الحوض نفسه، ولأن قِدر الرز بمائه كان ساخنا ويتصاعد منه البخار فأسرع هو نحو الحوض، ودونما قصد منه مسّ كتفها وذراعها.

كلاهما شعر بخدر لطيف يشبه حركة رقيقة خلفت ارتعاشة غير منظورة في جسديهما، فاعتذر لها. ارتبكت هي جدًا وشعرت بالخجل.

كان الفضاء النفسي بينهما مشحوًنا، فهي وحدها في شقة رجل يُعد غريبًا ومحرما عليها، وزاد من توترها بأن كل ذلك يجري سرًا دون علم زوجها الذي أخبرته أنها في المكتبة ما جعل أي حركة تأخذ تأثيرًا مبالغا فيه.

وعلى الرغم من أنهما جلسا يأكلان في المطبخ وأعجبت بطبخة وامتدحت بإخلاص الطعام اللذيذ الذي أعدّه فقد كانت تتجنب نظراته، لكنه من جانبه التقطها وهي تنظر إليه وكأنها تدرسه.

بعد الانتهاء من الطعام غمرتها موجة من النشاط والمرح فطلبت منه أن يجلس وأن تقوم هي بلملمة الصحون وغسلها وإعداد الشاي له، فأخبرها أنه يحب الشاي ثقيلا.

كانت تقوم بكل هذه الأشياء بفرح ولذة واضحة، وبين لحظة وأخرى تنظر إليه نظرات متأملة فيها إعجاب أنثوي خفي ممزوج بمودة وقرب نفسي غامض. انتبه هو لنظراتها الخاطفة تلك وقرر مع نفسه أن يخطو نحوها خطوة جريئة.

كانت تقف قرب حوض الألمنيوم تغسل الصحون، بينما هو جالس يتأملها. وكانت قد نزعت معطفها الأحمر حينما جلست في الصالة، وها هي في بنطال الجينز الأزرق وقميصها الأبيض، حيث تبدو له تقاسيم جسدها الفتي، لكنه انتبه لنظراتها السريعة الخاطفة إليه وعلى وجهها ابتسامة طيبة وكأنها تفكر فيه مع نفسها.

فجأة رنّ هاتفها. التفتت إليه وقالت وعلامات الانزعاج واضحة على وجهها بأنه هاتفها الذي تعرفه من نغمة الرنين الخاصة.

غادرت المطبخ. بقي هو جالسًا، لكنه كان يسمعها تتحدث بتوتر، خمّن أنه زوجها. حين عادت كانت قد ارتدت معطفها الأحمر وتحمل حقيبتها وقالت له وهي تقف عند باب المطبخ:

- عليّ الذهاب الآن.. آسفة.. وددتُ أن أبقى فترة أطول. هذا يوم سعيد بالنسبة لي.. شكرا لك..

لم يعرف ماذا يقول. لقد انكسرت أحلام يقظته، لكن كلماتها الأخيرة منحته أملا بأنهما سيكونان قريبين من بعضهما، ويكفيه وجودها في حياته.

تمتم بارتباك وبنبرة حاول أن يخفي فيها خيبته من مغادرتها فقال:

- وددتُ لو بقيت أطول. أنا لم اتحدث بتلقائية مع امرأة هكذا. أسعدني ذلك حقا..

- وأنا أيضا. أنا كتاب مغلق أمام من لا يعنيني ومنفتحة مع من أرتاح لهم ويعنيني التواصل معهم. أنت تعني لي الكثير دكتور، بعيدًا عن كونك أستاذًا مرموقًا، لكنك كإنسان تعني لي الكثير، شكرًا لك..

لم يكن آدم الأكويني يتقبل فكرة أنها ستغادر هكذا بعد هذا البوح الصادق إذ وجد نفسه منشدًّا لها بخيوط قوية لامرئية، لذا لم يتحمل أمر مغادرتها..

عند الباب وهو يمد يده لها مصافحا جذبها إليه قليلًا محتضنا بمودة بحركة مباغتة. أحس بجسدها للحظات يمس جسده، لكن هذا الأمر لم يدم سوى ثوان إذ دفعته عن نفسها وفي عينيها نظرة مذعورة، وغادرت الشقة وهي تطبق الباب خلفها.

أحس أنه فقدها. وانتقد نفسه على هذه الحماقة غير المقصودة. لكنه أدرك أنه يحبها فعلا..!

الفصل التاسع

البندول

حين جذبها آدم الأكويني إلى أحضانه بشكل مباغت وأطبق جسدها على جسده أحسّت بأنها تسقط في هاوية فارغة، لا ارتطام موجع ولا شيء سوى راحة الفراغ والرعب منه. نعم، أحسّت بالرعب من فقدانها لجسدها الذي خذلها لثوان، لفقدان الأرض من تحت قدميها، فأنقذت نفسها مرعوبة من جاذبية هذا الفراغ المخيف، هذه الهاوية الغامضة.

وما إن أطبقت الباب خلفها حتى أحسّت بالراحة من أنها تخلّصت من موقف لا تعرف كيف تتصرف فيه، موقف على الرغم من أنه لم يستمر سوى لثوان إلّا أنها وجدت نفسها عند حافة هاوية لا تعرف ما هي لأنها خافت النظر إليها.

أسرعت الخطى في الممر نحو المصعد، فقد كانت توهم نفسها بأن آدم الأكويني ربما سيلحق بها ويضمها مرة أخرى عنوة، لكنها كانت تخاف من نفسها المغامرة بحيث ستعود بحجة الاعتذار عن تصرفها الغريب لكنها بذلك تلقي بنفسها في حقل المغامرة المجهولة.

تأخر المصعد. كانت متوترة بل خائفة ومذعورة، ليس من وهمها في ملاحقته لها وإنما من نفسها. ولكي تحسم أمرها أسرعت إلى جهة سلّم الطوارئ وأخذت تنزل مسرعة.

حين صارت في الشارع شعرت بالراحة النفسية وكأنها هربت من القفص الذي كانت تتربص فيه أفعى قد التفّتْ حول نفسها ورفعت رأسها

نافخة شدقيها محركة لسانها الذرب متأهبة لتنقض عليها. لكنها سرعان ما ردت على نفسها بنفسها قائلة: «لكن الأكويني ليس أفعى، وربما هو تصرف بتلقائية ومودة».

وفي طريقها نحو محطة قطار الأنفاق شعرت بدفق من الفرح الأنثوي يغمرها، فقد تأكدت من أن الدكتور آدم الأكويني يكن لها مشاعر لطيفة ومنجذب نحوها، وما حركته عند الباب إلّا للتعبير عن ذلك.. ومع أنها ذعرت في تلك اللحظة لكنها استاءت من نفسها، لأنها لم تترك نفسها بين أحضانه لفترة أطول..!

»لا.. لا.. حسنا فعلت بهروبي من الموقف كي لا يشعر بأنني سهلة ويمكنه أن ينالني بهذه البساطة كما ينال النساء العديدات في رواياته» قالت لنفسها، وأضافت وهي تحاور نفسها بصمت «ومع ذلك أعجبتني أيها الأكويني الماكر».

في تلك اللحظات كانت قد وصلت إلى السلّم الذي يقود نفق القطار تحت الأرضي فهبطت في ظلام النفق الذي يؤدي إلى المحطة التي تقودها إلى منطقتها.

حين جلست في مقصورة القطار لم تكن تنتبه إلى الآخرين من الركاب. كانت تحاور نفسها وتستعيد كل ما له علاقة بآدم الأكويني وسرّ انجذابها له، وتذكرّت كيف سمعت باسمه أول مرة في الجامعة، فقد كانت مع بعض الطالبات اللاتي كن يراجعن أمورهن الإدارية في مكاتب عمادة الكلية حينما مرّ هو فتهامست فتاتان محجبتان بينهما وقالت إحداهما: «ها هو الفاسق الذي يجب أن ينهوا عقد عمله مع الجامعة ويرجعوه لبلاده»، بينما أيدّتها الأخرى قائلة: «رواياته فسق وفجور. لعنة الله عليه وعلى أمثاله..». تلك اللعنة والشتيمة قد شدّتها له فبحثت عن رواياته وقرأتها، وحينما حملت روايته الأولى، وقرأتها، أخبرت زوجها عنه، وقالت له هذا كاتب جريء يعرف كيف يتوغل في أمور الجنس واللاوعي، لكن زوجها أبدى امتعاضًا منه ومن هذه التوجه الذي ينشر الفسق والفجور ويسعى للشهرة من خلال إثارة الغرائز، فتذكرت تعليق وشتيمة الفتاتين في مكتب العمادة، ثم صارت تتسقط أخباره. ومرة حضرت إلى قاعات المحاضرات لتستمع إلى محاضرة في العنف والمقدس فأحست بأنه مختلف، بل وصارت تتجنب الحديث عن رواياته مع زوجها لأنها تعرف أنه يمتعض منه ومن أعماله الروائية. ولا شعوريًا استعادت حياتها مع زوجها.!

هي تعرف نفسها، فليس الخوف ما يمنعها من مواجهة نفسها والاعتراف بكل ما تحسه في حياتها الزوجية والاجتماعية وإنما الخجل، نعم الخجل من أن تفتح قلبها وفكرها وتواجه كل مشاعرها الحقيقية، فهي تخاف التعري، لذا هذا الخوف انعكس حتى على ثيابها وحجابها الذي لا يفتح سينتمرًا واحدًا مكشوفًا من جسدها! فحتى وجهها المكشوف هو ليس وجهها وإنما هو قناع مشابه لوجهها الحقيقي، نسخة من وجهها، لكنه ليس وجه نفسها وأعماقها.

ومع ذلك كان وجهها في تلك اللحظات مثل مرآة صافية يعكس انفعالاتها الداخلية ومشاعرها. وفكّرت مع نفسها أن حياتها الزوجية من الظاهر مليئة بالسعادة والاستقرار، فزوجها ينام معها، ويلجها باستمرار، وهذا من مقومات الزواج الناجح بغض النظر عن متعها فهو يؤكد من خلال ذلك بأنه يحبها وأنه يقوم بواجبه تجاهها. ومع أنها لم تكن راضية ولا مستمتعة بعلاقتها الجنسية مع زوجها إلا أنها لم تكن تشعر يوما بأنها محتاجة إلى عشيق.

كانت في منظار أهلها وأهل زوجها بل وحتى في قناعة زوجها تُعد امرأة سعيدة تماما، فلديها زوج يحبها، وطفل، وتتمتع بشكل عام بحياة هادئة، لكن هذا كله هو الظاهر بينما في أعماقها كانت هي تعيش عزلتها. كانت تعيش رتابة إيقاع الأيام والزمن ودورة الأشياء ذاتها، لاشيء متحرك، مثل سطح بحيرة صافية ونائية لا يعكر صفوها ولا رمية حصى، فالوجوه ذاتها، تزداد أو تقل حسب المواسم والأعياد والمناسبات، والأحاديث نفسها، والأطعمة نفسها، والزيارات إن حصلت فهي نفسها، بل الطريق هو نفسه لا يتغير وسيارة النقل العمومي هي نفسها ورقمها هو نفسه، بل وحتى خط القطار هو نفسه لا يتغير.. التكرار ثم تكرار التكرار.

لقد شبعت من التكرار والروتين، وملّتْ تلك الحياة الفاضلة، الباردة، البائسة روحيا، وأحست برغبتها لشيء يهز حياتها، لحجر يحطم مرآة تلك البحيرة الصافية الساكنة ويُحدث دوائر موجية على سطحها بينما ينزل هو بثقله إلى قاع أعماقها. تريد شيئًا جديدًا يخرجها عن هذا الإيقاع الممل لحياتها، تريد أن تشعر بأنها تعيش، وليس أن تشعر بنبض الحياة وحركة الزمن عند قراءة الروايات فقط.!.

لقد ملّت كل شيء، لكنها جبانة لا تواجه ولا تبدي شيئًا من مللها، فكل هذه الرتابة التي يعدها الآخرون سعادة يضرب بها الأمثال تخنقها، فأمها تدعو الله شاكرة على هذه النعمة التي أنعم الله بها على ابنتها، وأختها تتبرم أحيانا من سوء حظها مقارنة بها، وأهل زوجها يشعرون بالتفضل عليها لأن ابنهم وفّر لها هذه الحياة الكريمة والهادئة والمستقرة. وهي تجد ذلك في نظرات

الآخرين من أصدقاء زوجها وعائلتيها أيضا، حيث الجميع يتعامل معها بلطف، بحيث كان تريد أن تصرخ عاليا على الطريقة المصرية: ياعالم.. ياهو.. أنا لست سعيدة!، أتوق إلى شيء لا أعرفه، أتوق إلى شيء يهز حياتي ويشعرني بذاتي ويمنح حياتي معنى أكثر من هذا المعنى الباهت المتجسد في الاستقرار العائلي.

***

حين دخلت شقتها وجدت أمها في المطبخ. قبّلت أمها كعادتها حين تدخل إلى البيت وتكون هي موجودة. سألت عن ابنها فقالت أمها إنه نائم قرب أبيه، فاستغربت وجود زوجها في البيت، فسألت عنه فأخبرتها أمها أنه عاد من الدوام مبكرًا، لكنه كان طوال الوقت عصبيًا لا تعرف لماذا، ربما لأنه صائم لوجه الله، فحينما سألته إن كان يود أن تعدّ القهوة أخبرها بأنه صائم، ففوجئت هي بأنه صائم فهو لم يخبرها بأنه سيصوم اليوم التالي قربة لوجه الله أو تعويضًا عن يوم مطلوب ومؤجل.

بعد أن غادرت أمها الشقّة توجهت هي بهدوء إلى غرفة النوم لتلقي نظرة على ابنها وزوجها. لم تدخل إلى الغرفة وإنما فتحت الباب وألقت نظرة سريعة لتطمئن عليهما. ودّت لو ذهبت لتقبّل ابنها وتتشممه كعادتها لكن خافت أن توقظهما إذا ما قامت بذلك.

توجهت للصالة التي في جانب منها طاولة كتابة وجهاز حاسوب وخزانة ذات بابين تصطف فيها مجموعة من الكتب الدينية الإسلامية التي تحتل رفّين كاملين من الخزانة، إلى جانب كتب في الإدارة وتطوير المهارات ودواوين شعرية لشعراء كلاسيكيين في التراث العرب، فكل الكتب المختلفة في الفلسفة والأدب الروائي تستعيرهما من مكتبة الجامعة وتكاد تقرأها سرًّا بعيدًا عن تعليقات زوجها، وكثيرًا ما تقرأها بالصيغة الألكترونية.

كانت لا تزال تحت تأثير زيارتها لآدم الأكويني. صحيح أنها قرأت رواياته وكتابه الفكري والفلسفي عن «توما الأكويني» وناقشته لمرات في المكتبة وخرجت معه إلى مقهى حيث تناقشا حوله أفكاره، بيد أنه لم يطرأ في خاطرها ولم تتخيل بأن علاقتها معه ستصل إلى هذا القرب، بحيث تزوره في شقته، وتناقشه بكل حرية، بل وتعد معه الطعام، ويأكلان معا، والأهم من ذلك في كلا الزيارتين كنت تكذب على زوجها، وتدّعي بأنها في المكتبة.. «لماذا هذا الخوف لو لم أجد أن علاقتي بآدم الأكويني قد صار غالية ومهمة بالنسبة إليّ بحيث لا أريد الاستغناء عنها، وخوفي من أن الإخبار عن زيارتي له سوف تؤّول

على غير مقاصدها، بل إنها مع زوج كزوجي ستكون بالتأكيد موضع جدل وشجار لا يُحمد عقباه».. هكذا فكرت مع نفسها.

ولأول مرة أحسّت بالضيق من وجودها في شقتها. استغربت هذا الشعور الجديد عليها، بل إن ما جرى عند الباب في شقة آدم الأكويني لم يغادرها، وأخذت تستعيد كل ما جرى في ذلك النهار، واستغربت أنه من كل الحوارات العميقة التي دارت بينهما لم يبق متوهجا في ذاكرتها سوى تلك الثواني التي ضمها هو فيها إلى أحضانه، فالآن صارت ترى ذلك بشكل آخر، فقد تقبّلته بل وفرحت به، وأعجبتها جرأته في مباغتتها بتلك الحركة.

صحيح أنها تعي حالة الروتين والتكرار والممل التي تقبض على عالمها، لكنها لم تكن تشعر بالضيق وهذا الإحساس بالاختناق لتواجدها في شقتها، بينما كانت سابقًا إذا ما مرت بحالة كآبة تقضي الأيام والأسابيع دون أن تغادر باب الشقة.. فما الذي يجري معها!؟

كانت تحاول أن تفهم نفسها ومشاعرها وما يطرأ في داخلها من تحولات، ودون إرادة منها تذكرت شيئًا كانت قد قرأته للكاتب الروسي أندرييف عن الساعاتي الأعور العجوز الذي كان يعيش في غرفة ساعة البرج حيث ساعة المدينة الهائلة ذات البندول الهائل، والذي كان يوميًا يرى التروس المسننة وبندول الساعة الذي يشق الهواء بحركة انسيابية عريضة، فإذا بلغت حركة البندول ذروتها كان هو يقول:

- هذا ما كان..!

ثم حين يبهبط البندول ليرتفع إلى الذروة من جديد في الجهة المعاكسة كان يقول:

- وهذا ما سيكون..!

ويظل يردد مع نفسه:

- هذا ما كان.. وهذا ما سيكون..، هذا ما كان.. وهذا ما سيكون..!

وهكذا كان هذا الساعاتي الأعور يترجم الصوت الرتيب والغامض الذي يصدر عن البندول وكأنه حكم قدري وكشْفٌ عن إيقاع الحياة وحكمتها الغامضة.

ولا شعوريًا رددتْ مع نفسها وهي تفكر في وضعها الحالي: «هذا ما كان..»، ثم تخيّلتْ شقة آدم الأكويني وتلك الألفة التي نشأت بينهما لاسيما

حينما أعدّا الطعام،ورددت مع نفسها: «وهذا ما سيكون.!».

لا تعرف من أية أعماق مظلمة وغامضة انبثق هذا المشهد من قصة الساعاتي الأعور في ذهنها..! وراودها هاجسٌ بأن الأمر هو رسالة غامضة أُرسلت إليها: «هذا ما سيكون!»، وسألت نفسها: «أيمكن أن يكون الأكويني قدري الذي سيعيد إيقاع حياتي؟ إيقاع البندول: هذا ما كان، وهذا ما سيكون، كما كان يفسّر ذلك الساعاتي الأعور!». وتخيلت الأكويني وهو يباغتها محتضنًا، وتمنت لو أنها لم تذعر وأنه ما ارتبك لذعرها وضمها أكثر وبقوة أكبر. إنها تحتاج الآن لمن يعيد ترتيب ايقاع جسدها.

إذن عليها ألّا تتراجع. وشعرتْ بفيض من السعادة يغمرها. ولأنها قررت أن تتوغل في علاقتها مع آدم الأكويني فإنها أرادت أن تعوّض زوجها عن هذا القرار الخفي الذي اتخذته مع نفسها ليشكل حياتها السرية الأخرى، لذا راودها خاطر بأن تكافئ زوجها، فاتجهت إلى المطبخ لتعدّ له فطورًا شهيًا.

* * *

في تلك الليلة كانت لطيفة ورقيقة مع زوجها، حتى أن زوجها انتبه لذلك وسألها إن كانت الموافقة على أطروحتها قد تمت، فنفت ذلك، فقال لها إنه رآها سعيدة فظن إنهم وافقوا، فقررت مع نفسها أن تنتبه لحركاتها وتعابير وجهها وكتم مشاعرها كي لا تثير انتباهه.

بعد أن نام صغيرها جلست مع زوجها يتابعان الأخبار المحلية والعالمية، لكنها وجدت نفسها مشتاقة للحديث والتواصل مع آدم الكويني، وأرادت أن تعتذر عما بدر منها من رعب، لكنها فكّرت ربما سيفهم ذلك بعقليته الذكورية بأنها تلهث خلفه، بيد أنها لم تستطع أن تقاوم رغبتها في التواصل معه، فأخذت هاتفها النقال معها إلى غرفة النوم بحجة الاطمئنان على صغيرها، ومن هناك كتبت له رسالة هاتفية سريعة: «مساء الخير.. أشكرك على دعوة الطعام اليوم.. وبودي معرفة طريقة طبخ نوع الطعام الذي أكلناه اليوم وأعددته أنت فقد كان لذيذا. سيأتونا ضيوف وأود أن أعدّه لهم.. طبعا إذا كان ذلك ممكنا.. سلام».. وتمنت لو أنه قريب من الهاتف وانتبه لرسالتها ليجيبها فورًا، فهي لا تستطيع الانتظار طويلا في غرفتها فربما سيأتي زوجها.

ولم تمض سوى أقل من دقيقة حتى وصلت منه رسالة: «لقد كان يومًا سعيدًا بالنسبة لي.. إذا أحببت أن تتفضلي عندي فسنعيد إعداده، وسأكون سعيدا لرؤيتك مجددا». أحست بنفسها وكأنها مراهقة، فقد شعرت بفرح غامر وهيجان عاطفي، فكتبت له: «أنا سعيدة لأنني كنت سببًا في سعادتك.. سيسرني أن نجرّبه ثانية.. وهذا ما سيكون.. سلام». وأغلقت الهاتف.

الفصل العاشر

عين الظلام

رقد آدم الأكويني تلك الليلة بشكل مضطرب. لم يكن يتوقع رسالتها، فقد ظن أنها ربما ستختفي من عالمه، إذ أربكه ذعرها وهروبها بتلك الطريقة، ظن أنه فقدها، الآن اكتشف بأنه لم يفهمها جيدًا، فهي امرأة تعيش تناقضا بين ما تريده ولا يمكنها تحقيقه، ومالا تريده وهو مهيمن على حياتها، لكن كيف عليه أن يتعامل معها..؟ سأل نفسه، وظل الليل كله يخطط ويضع السيناريوهات المتخيلة لهذا اللقاء.

في الساعة التاسعة صباحا رنّ جرس الباب. كان هو تحت الدش قد انتهى للتو من حمّامه. أخذ المنشفة الكبيرة ونشّف جسده من البلل، ثم أخذ منديلا آخر فجفف رأسه به، بينما كان رنين الجرس يتواصل. رشّ العطر على وجهه وصدره العاري ومنطقته السفلى، ثم لبس البرنس وخرج ليفتح الباب.

حين فتح الباب رآها أمامه. كانت على وجهها ابتسامة مرتبكة. لمح في عينيها المتقدتين نظرة مليئة بالود وبرغبة خفية غامضة. كانت ترتدي بلوزة صوفية زرقاء وبنطال جينز أزرق وتلف على رأسها وجانبي وجهها شالا بيجي اللون أضافت إليه شالا آخر قهوائي اللون ومخطط بشريط أسود لفته حول رقبتها. وخلال ثوان أدرك من خلال خبرته في التعامل مع الناس عامة والنساء خاصة بأن هناك رضى داخلي وقبول في أعماقها لأي شيء قد يحدث بينهما، وأنها لن تهرب هذه المرة وإنما جاءت لهذا، ومع هذا فقد ارتبك هو أيضا لأنه كان في البرنس وتحته جسده عاريا.

دخلتْ الشقة. صارت عند الباب من الداخل. مرّت لحظات صمت بينهما كانا ينظران فيهما لعيني بعضهما بتركيز وكأنهما يقرأن ما يدور في أعماق كل منهما. كانت لحظات قصيرة لكنها كانت حوارًا صامتًا حاسمًا بلغة العيون انتهى بالقبول والتفاهم الصامت بينهما.

كانت المسافة بينهما قصيرة جدًا والهواء يحمل أنفاسهما الحارة مشحونًا بالرغبة التي انتصرت على خجلهما وعقلانيتهما الباردة. وبطريقة مباغتة كما في المرة السابقة سحبها إليه، ورفع وجهها، ملتمهما بقبلة حارة شفتيها.

لم تذعر هذه المرة ولم تتمرد بل شعرت بحرارة جسده الذي تتوق إليه، لكنها لم تعرف كيف تتواصل معه في قبلته.

انتبه إلى أنها أخذت تتنفس بشكل متقطع. أخذ يقبل وجهها وعينيها وجبينها، وخلال ذلك كان يقول لها:

- لا أصدق وجودك بين أحضاني.. لقد شعرت بأنني فقدتك.. اشتقت إليك..

شعرت بتيار خدر دافئ يغمرها من كلماته أكثر مما من قبلته النهمة، وأحسّت هي وكأن ارتعاشة انبثقت من بين فخذيها، وقالت بخجل:

- أعتذر عن تصرفي البارحة.

خلال هذه الأثناء احتضنها بذراعيه ومشي بها إلى الصالة. كانت هي طبيعية وتبتسم في أعماقها لأنها الآن بدأت خطواتها في التجربة الجديدة التي تتوق إليها، وترآى لها أن هذا المشهد عند الباب وما يمكن أن يكون مشهدًا مستعادً ربما قد رأته في أعماقها ذات زمان، كما انتبهت إلى أن دفقات لا إرادية من مشاعر اللطف والمودة أخذت تغمرها نحو هذا الرجل، وسألت نفسها سريعا: «أيمكن له أن يكون حبيبي السري.!». وفي تلك اللحظة بالذات، وبسرعة خاطفة، تذكّرت فرحة «مدام بوفاري» حينما عادت من أول لقاء لها في مغامرتها الأولى وصرخت مع نفسها بحبور: «الآن عندي عشيق»..

أحسّتْ خلال تلك اللحظات القصيرة ما بين احتضانه لها عند الباب وقبلته لشفتيها التي حسمت أمرها الجسدي، وبين جلوسها على الصوفا بأنها صارت له وهو الآن يخصها، وشعرت بألفة وحميمية وحب نحوه، مع أنها تعرف نفسها بأنها بلا تجربة جنسية وعاطفية متميزة، وأنها لا تزال تحتاج للوضوح مع نفسها، ولجرأة أكبر كي تعبّر عن نفسها ورغبتها الصريحة ومشاعرها نحوه.

حين جلستْ تردد هو في الجلوس وقال لها معتذرا:

- أعتذر منك.. سأذهب لأغير ثيابي.. دقائق وأرجع.. خذي راحتك وكأنك في بيتك..!

ابتسمت له وقال بنبرة واثقة:

- خذ راحتك.. أنا أشعر فعلا وكأني في بيتي..

لم تكن تجامله حين قالت تلك الجملة، فقد شعرت وكأنها في المكان الأليف والمريح لها. وحين توجه هو إلى غرفة النوم أخذت تتعرف على الشقة بفضول محبّب، وشعرت أنها ترى الأشياء وكأنها تخصها، بل وفكّرت خلال ثوان كيف لها أن تضع بصمتها أيضا على هذه الشقة!!، «الشقة تحتاج إلى مزهرية وباقات ورد لتزينها».. هكذا قررت مع نفسها، وراودها إحساس عميق بأن هذه الشقة ستكون شقتها أيضا، وعالمها السري الخاص، «وهذا ما سيكون»، ستكون حياتها الحقيقية.!.

عاد هو بعد قليل وقد ارتدى فانيلة زرقاء مخططة بنقوش إغريقية وبنطال جينز بيجي اللون. وقبل أن يجلس إلى جانبها وصلها عطره الزكي المثير لحواسها.

جلس أولا على طرف الصوفا حيث تجلس هي، تبادلا نظرات مليئة بالرغبة المكتومة، اقترب منها، بل صار ملاصقا لها. أحبت ذلك منه. تمتم قائلا وهو يأخذ كفها بكفه:

- أنا لا أصدق أننا وجدنا بعضنا..!

ابتسمت له بدلال لم تعهده في نفسها وسألت:

- أكنت تبحث عني؟..!

- نعم.. ومنذ عصور..

اقترب منها أكثر. قرّب وجهها منه وأخذ يقبل شفتيها بينما يده امتدت إلى بين فخذيها من فوق البنطال. فتحت هي لا إراديا ساقيها قليلًا كي يلامسها براحته، بينما صعدت كفه لتفتح سحاب البنطال وتفك حزامها وزر البنطال.

كانت هي مستسلمة وكأنها تراقب ما يجري معها بمتعة كبيرة ومشاعر تقبّل مكثفة. فجأة، جلس مقرفصا أمامها. وأخذ يسحب بنطالها نازعا إياه.

نظرت إليه برغبة مشوبة بخجل وحياء لكن دون رفض أو اعتراض، بل ساعدته بأن رفعت مؤخرتها قليلا كي تسهل له سحب البنطال.

صارت أمامه عارية الساقين بسروالها الأسود وبلوزتها الزرقاء وحجابها. ولا إراديا فكّت هي الشال الذي يحيط برقبتها ونزعته عنها.

تأمل ساقيها الرشيقتين واللتين تميلان للنحول. كانت ملساء ومصقولة الفخذين. نظر إلى ما بين فخذيها فرأى سروالها يبرز ما تحته قليلًا، توجه برأسه إلى هناك، وأخذ يتشممها، ثم صعد إلى الأعلى.

شعرت بقليل من الخجل، فهي تخجل من عريها، لاسيما ما بين فخذيها، لكنها الآن تشعر وكأن كل كيانها ينطلق من هناك، وخلال تلك اللحظات انبثق من أعماق ذاكرتها مشهد كانت هي فيه تحدّث زوجها عن الحياة الجنسية بين الزوجين مؤكدة بأنها يجب أن تكون صريحة ومنفتحة، وحين حدثته بما يُكتب من دراسات نفسية وروايات وما تقوله بعض صديقاتها من ممارسات وأوضاع متنوعة مع أزواجهن امتعض وقال لها إنه يشمئز من الحديث في هذه الأمور القذرة، فهذه ممارسات وثنية قبيحة ينشرها الصليبيون في أوساط المجتمعات الإسلامية ليدّمروها، فامتنعت من الحديث معه في مثل هذه الأمور لاحقا، ولم تقترب من أمور الجسد قط، بل هي لا تذكر أنها حتى في لحظاتها الحميمية مع زوجها إن كانت قد نطقت بكلمة تعبر عن شبقها!!.. وتعجبت من تذكرها لهذا الأمر، والآن، وفي هذه اللحظات بالذات، ووجدت في نفسها رغبة أن تجرّب ذلك الآن، ولا شعوريا وجدت نفسها تتجاوب معه، بينما تيارات من اللذة تجتاح جسدها.

رفع آدم الأكويني رأسه قليلًا ونظر متأملا وجهها ليتأكد من مشاعرها وتجاوبها فوجدها مغمضة العينين وكأنها تحلّق في عالم اللذة. كانت أمامه مسترخية وتفوح منها رائحة طيبة.

شعرت بدغدغة حين بدأ يقبل بطنها. بحيث لم تستطع سوى أن تنهض بجسدها قليلا من كثافة الدغدغة. مسكت كفاه بجسدها فأحس بهشاشة جسدها وليونته. صعد بكفّيه إلى صدرها فعرف أنها جاءت دون أن ترتدي سوتيان، فمسك بنهديها الصغيرين وأخذ يعصرهما، ورفع بلوزتها حتى الكتفين.. فقالت له انتظر.

وأخذت تنزع عن رأسها حجابها الذي بدا له معقّدا.. وأخيرًا، ألقت بشال الحجاب وما تحته وكشفت عن شعر جميل..، ثم نزعت بلوزتها الزرقاء. هي

الآن عارية أمامه إلا من سروالها. وبلا تردد سحب سروالها نازعا إياه، ثم وقف أمامها. نزع تي شيرته الأزرق وسحب بنطاله نازعا إياه، فبدا لها عاريا بالكامل.

سحبها من يديها فصارت واقفة أمامه. ضمّها إلى صدره. جسادهما العاريان يلتحمان. وبهدوء ورقة توجه معها إلى غرفة النوم القربة بينما ظل شال حجابها وبقية ملابسها على الصوفا.

كانت تحس بحبه ورغبته فيها، وأحست أنها الآن ولأول مرة تحب بوعيها وإرادتها وليس بتأثير ظروف عائلية وقرابة وصداقات. هي الآن بكامل وعيها ورغبتها تحبّ، حتى وإن كان حبا سريًا محرما، لكنه حب بعيد عن تطفل الآخرين وتشويشهم، واستغربت من نفسها أنها تفكر بهذه الأشياء وهي بين أحضانه في المسافة بين الصالة والسرير.

ألقى بها على السرير. استلقت على ظهرها بينما دخل هو فيها بكل شبقه. كانت تتأوه من اللذة. تطلق صوتها مكتوما وكأنها تخجل أن تعلن عن كامل متعتها وشبقها.

كانت تستمتع بتلك اللحظات، تستمتع ليس شعوريًا وجنسيًا فقط وإنما كانت تفكر في ما تقوم به وما يقوم به هو معها. وأرادت أن تقول له بصوت صامت مع نفسها: «أنا أحبك.. أحبك جدًا على الرغم من عقلي المعارض.. لقد كان ما كان، وأنت ستكون ما يكون»، لكن هذه الكلمات والجمل لم تخرج من بين شفتيها بل ظلت تجوس في أعماقها بصمت.

وفي خضم تلك المشاعر والخدر اللذيذ سمعته يسألها: «أين أقذف.؟».. فتمتمت: فيّ.. فيّ.. في الداخل.. املأني بمائك».

في تلك اللحظات حدثت المعجزة. فمع تدفق مائه الوافر في رحمها شعر بغمامة تخشي عينيه، وحين فتح عينيه كانت المعجزة، فقد رأى الأشياء كلها بالألوان كما في الواقع، وليس جسدها فقط.. أعادت له الألوان في الحياة.

ولم تمض إلّا ثوان حتى همد كلاهما وانهارا من كثافة اللذة. كانت هي مستلقية على بطنها بينما كان هو يغطيها بجسده.

* * *

- أنا جائعة.. قالت وهي مستلقية إلى جانبه.

- وأنا أيضا، فمنذ ليلة أمس لم آكل شيئًا، اكتفيت بما طبخناه..

- هل كنت تكتب..!

- لا.. كنت أفكر فيك وبوصفة الطبخ التي تبغينها..!

ابتسمت له بمودة وقالت:

- وهل صدقتني بأني أريد وصفة الطبخ!! ألم تفكر بأنني رأيتك تطبخها أمامي..!

ابتسم لها وقال وهو يضمها إليه:

- ليس أنني لم أصدق..، وإنما افترضت أنك لا تقولين شيئًا لا تعنيه، لكن بما أنك جائعة، فلنقم لنعدّ لنا شيئا نأكله.

وقفزت عن السرير وهي تلّف شرشفا على جسدها. وغادرت الغرفة.. سمع صوت باب الحمّام فعرف أنها ذهبت لتنظف نفسها، وبعد دقائق من ذلك سمع صوتًا في المطبخ فعرف أنها في المطبخ، فقام وارتدى ملابس أخرى غير تلك التي نزعها في الصالة، والتحق بها في المطبخ.

* * *

كانا قد أعدّا الشاي وقطّعا الجبن ووضعا الزيتون في صحن صغير وسخّنا خبزًا. كانت هي متوهجة، وكأن وجهها قد ارتوى بماء الحياة، فاختفت تلك النظرة المتوترة المذعورة والتائهة من عينيها، بل ثمة بريق لطيف يشع من عينيها، بريق امرأة مرتوية من النشوة. تأملها بحب وسألها:

- حوّاء.. حدثيني عن نفسك أكثر..

نظرت إليه بهدوء. لم تُحرج من سؤاله، لأنها أدركت أنه يريد أن يعرفها أكثر، وهي لا تريد أن تخبئ عنه شيئا، فقالت:

- ليس لدي الكثير كي أقوله، ربما حياتي أكثر من عادية، أقصد هي نسخة مكررة وتقليدية وطباعتها سيئة، فهي دورة متلاشية ولا أهمية لها من دورات الحياة، دورة من دورات القطيع. هل رأيت الأبقار التي تساق إلى المسلخ كيف يتم تشتيت انتباهها بحصرها في ممرات دائرية تظل تلف فيها لساعات إلى أن تنهك وتفقد القدرة على المقاومة والاحتجاج، ثم يدخلونها إلى المسلخ كي تذبح، هكذا أنا وهذه هي حياتي. ولا أشتكي، فهذه حياة الملايين، لذا قلت لك حياتي عادية، لكننا نحن البشر مكابرون، كل منا يعتقد أن حياته متميزة ومختلفة

عن الآخرين وأنه مركز الكون والأشياء، مع العلم أن كل كائن بشري، وكل إنسان هو مركز الوجود فعلا، حتى لو أنه لم يدرك ذلك.

كان آدم الأكويني ينصت إليها بانتباه وهي تتحدث عن العابر والمتحول في دورة الحياة. وحين صمتت ليس لانتظار تعليقه وإنما لحوار داخلي في أعماقها، علّق هو:

- كلامك يؤكد بأن لديك ما تقولينه..!.

صمتت للحظات قبل أن تجيب. ابتسمت بحزن وقالت:

- أتعرف ياآدم.. أحيانا أفكّر بالناس، بالبشر، شعوبًا وحكامًا، وأجد العائلة الصغيرة هي نموذج لعلاقة الحاكم بالشعب، فهناك الحاكم بأمر الله وهو الزوج، وهناك الشعب المتذمر عادة وهي الزوجة، والذي يربطهما هو قانون الطاعة، الطاعة بالرضى أو بالشدة، و كل ذلك باسم الدين والشريعة والعادات والتقاليد، لذا نجد الكثير من البيوت غارقة في الظلام، حتى وإن كانت المصابيح فيها متقدة!. هكذا هو الوضع البشري، كما في المسرحيات الهزلية حين يضعون التيجان على رؤوس الحمقى والقتلة والمهرجين!، وهكذا هو الوضع البشري حينما منحت السلطة للرجل، بل اعتقد حتى الطبيعة نفسها لعبت هذه اللعبة الهزيلة، بحيث تكون الأنثى تحت الذكر..!

أعجبته تشبيهاتها الأدبية والاستعارية، لكن أفكارها المتمردة أثارته أكثر فقال:

- إن البشر بهذه الممارسات والغرابة في الممارسة الجنسية يحاولون تمييز أنفسهم عن الحيوان الثديية التي انحدروا عنها، فالحيوانات الثديية لديها وضع واحد تمارس فيه مثلما لديها وقت واحد هو وقت السفاد. نحن البشر نتفنن في الممارسة الجنسية، بل لا توجد أنثى حيوان تستلقي وترفع ساقيها بمسافة لتسمح للذكر بولوجها، فكل الحيوانات المتطورة يركب الذكر فيها أنثاه من الخلف. نحن حيوانات متطورة، نحن لعبة الطبيعة المليئة بالألغاز. أتعرفين أنني تمنيت لو لم أكن إنسانا وإنما شجرة.!!.

نظرت إليه بفضول ومودة ولم تعلق وكأنها تريد منه أن يبوح أكثر ويتحدث عن نفسه بعيدا عن التنظير الفلسفي فواصل:

- تمنيت لو أنني شجرة. الأشجار تلتهم الضوء وتتنفس الهواء وتشرب الماء ولا تتغوط ولا تتبول.. وتمنح الفضاء والكون الأوكسجين وتنقيه من المواد الفاسدة. في إحدى متاهاتي تحدثت عن كوكب الخراء. أتعرفين أن على الارض يعيش 7 مليار إنسان، ولو كل إنسان تبرز بنصف كيلو غرام يوميا فهناك 3 مليار كيلو من الخراء يوميًا، ولو بال لترا فهناك 7 مليار لترًا من البول يوميا، ولو حسبنا ذلك سنويا، وعلى مدى مئات بل آلاف السنين لعرفنا أن هذا الكوكب هو كوكب خرائي..! أتعرفين كم نحن البشر قساة، فهذا الكوكب لا يعود إلى الإنسان لأن هناك عشرات المليارات من الأشجار مئات المرات أكثر من عدد البشر، وفي البحار هناك مئات المليارات من الأسماك وما بين الفضاء والأرض هناك مئات المليارات من الطيور، بل الوطاويط وحدها أكثر من البشر على سطح هذا الكوكب، فلمن الأرض؟.. ناهيك أنه كوكب مائي وليس ترابي..!؟

- أفكارك مظلمة وصادمة، لكنها واقعية. جعلتني أحتقر البشر وأحتقر نفسي. كم مغرور هو الإنسان.!

- نحن حيوانات جميلة، متطورة، لكننا في البايولوجيا والجنس ما زلنا ننتمي لمملكة الحيوان..! حيوانات متطورة، وعلاقتنا مع بعضنا، سواء مع أنفسنا أو مع الآخر هي علاقة جنسية في الجوهر، بمعنى إذا لم نجد طاقتنا الغامضة طريقها لتتسرب في جداولها الطبيعية فإنها تنحصر، وحينها يحتفي الإنسان بذاته وجسده، وإذا تزمت في ذلك سيعاق نفسيا..

نظرت إليه بتأمل وهي ترتشف شيئًا من الشاي وقالت:

- لا أعتقد الأمر بهذا الحسم، فهناك نساء لا يمثل لهم الرجل تحررًا أو خلاصًا من أزماتهن مثلا، أليس كذلك؟!!

- هل تشربين الشكولاتة الساخنة!؟ سألها بشكل مباغت.

ابتسمت وظنت أنه يتهرب من الإجابة والاعتراض.. وقالت:

- إذا أحببت ذلك فسيسعدني مشاركتك! لكن أجبني..

نهض هو عن كرسيه وأخذ يعد الشكولاته الساخنة. فتح الثلاجة، وأخذ علبة الحليب ليسخنها أولا، ثم فتح خزانة جدارية وأخرج علبة الشكولاتة، وقال:

- لم أقل أن الجنس هو الخلاص، لأن مسألة الخلاص هي مسألة وجودية لها علاقة بالسؤال عن معنى الحياة وجدوى الوجود فيها!. فحتى الجنس ليس خلاصًا، وإنما هو يوفر الراحة والاسترخاء والتوازن النفسي للإنسان، لكن الإنسان كائن ملول، والجنس متعة قصيرة لا تستمر سوى دقائق، لكننا لو تأملنا الأمر من جانب آخر..!.

- ما هو الجانب الآخر..؟ أنت تثير فضولي..!

لم يجبها مباشرة وإنما انهمك بالكامل في إعداد الشكولاته الساخنة. وبينما كانت هي تنظر إليه ومشاعر حب تتدفق في أعماقها انتبهت لبساطته ولتدفق الأفكار من ذهنه وأعماقه وكأنها ليست أفكارًا وإنما فيض من القناعات وقوانين تشكل عالمه، ورأته يصب الشكولاتة في كوبين ويحملهما إلى الطاولة. جلس على كرسيه وقال لها مبتسما:

- تفضلي مدام..

- مدام؟ لا أحبذ هذه الكلمة، نادني حوّاء فقط..!

- طيب حوّاء..!

- لم تجبني! ما هو الجانب الآخر الذي يحدد الرغبة الجنسية في رأيك.!؟

- لم أنس، مهلا عليّ، ثم هو ليس رأيي وإنما هو رأي مدرسة مهمة في التحليل النفسي، وهي تؤكد بأن القضية برمتها لها علاقة بالوعي واللاوعي وهيمنتهما على تشكيل عالمنا النفسي وتيسير مسارات الرغبة في سلوكنا اليومي..!

- أنا لا أنكر أهمية الجنس كجزء أساسي في حياة الانسان وتكوينه، لكن هناك خيارات إنسانية أخرى فليس الجنس خيارًا وحيدًا، المهم أن تجد ذاتك أولا وليس أن تفني ذاتك في الآخر، المهم أن تصل لذاتك أولا بوضوح وتفهمها ثم تسعى لأن تربطها بالآخر لتحقيق رغباتها.

صب الشكولاتة في كوبين. كان قد استمع لحديثها وهو منشغل بصب الشكولاته الساخنة، حمل الكوبين ووضعهما على الطاولة. جلس على كرسيه وقال:

- الخيارات الإنسانية التي تحدثتي عنها كلها مقدمات للجنس، وكلها تسعى مِن أجل أن تسهل الوصول إليه لأن الجنس مرتبط بغريزة

الحياة. أتعرفين لماذا في الحروب حينما يهجم جيش ما على مدينة أو قرية فإن أول ما يفعلوه هو اغتصاب النساء، وهذا ما فعله حتى الأنبياء حينما فتحوا البلدان والمدن والأماكن إذ سبوا النساء، لأن الجنس هو قرين الحياة والحافظ عليها بمواجهة الموت.. الجنس تحد للموت..

فقالت بنبرة شبه منفعلة:

- الخيارات الانسانية كلها مقدمات للجنس!؟ لا أقتنع.. إلى هذا الحد تتحكم البيولوجيا في الإنسان وتسيّره؟ إذن هناك مشكلة في تعامل الانسان مع ذاته وخياراته.!

نظر إليها بهدوء، وقال بنبرة أراد فيها أن يخفف من انفعالها المكتوم:

- نحن كائنات مبرمجة يا حواء. هل تستطيعين أن تجعلي من دورتك الشهرية كل أسبوعين وليس كل أربعة أسابيع؟ هل تستطيعين أن تغيري من مسار الدورة الدموية الكبرى والصغرى!؟ هل تستطيعين أن تبصري لبعد يمتد عدة كيلو مترات؟ هل تستطيعين أن تتدخلي في التمثيل الغذائي؟ ثم حين تصابين بفقر الدم، وهو نقص في كريات الدم الحمر، هل تستطيعين أن تأمري جسدك بأن ينتجها بكثرة ويسد النقص؟.. ثم حين يوجعك رأسك ألا تأخذين حبة صغيرة ليهدأ؟ ولو عندك إسهال ألا تأخذين شرابًا أو حبة ليتوقف كل هذا الهدر؟ ولو عندك إمساك ألا تأخذين حبة أو مسهلًا سائلا ليجري كل شيء؟ الإنسان معادلة كيماوية مبرمجةلا دخل له فيها..

توقف قليلا. كانت تنتظر أن يواصل، لكنه ابتسم وقال:

- ومع ذلك كل هذا النقاش لأني طلبت منك أن تتحدثي عن نفسك..؟

ابتسمت قليلا ثم قالت:

- حسنا.. ماذا تريد أن تعرف..!

- لا أدري.. تحدثي ببساطة..

- حسنا.. أنا لديّ عالمي الخاص، أو بدقة أكبر لدي عالمان.. عالم عائلتي وملحقاته من عوالم تتداخل معه مثل عالم العائلة الكبيرة أهلي وأهل زوجي، وعالم العمل الشارع والجامعة. ربما عالمي الداخلي هو ما فتح المجال لتأثير العوالم الأخرى عليّ، حيث من خلال

صديقتي في الجامعة تعرفت على زوجي التي هي أخته، ثم تدخل أهله وأهلي، فصار الزواج. لا أنكر أنني شعرت باهتمامه وحبه لي، وربما أنا أحببته أيضًا.. أتعرف.. أنا الآن لست أنا التي كانت في ذلك الحين، فلقد نشأت في عائلة محافظة، وتشكّل عالمي النفسي من جدران أخلاقية وموانع وجدت فيها حمايتي من اندفاعات العالم وأشباحه المخيفة. لقد تمّ تلقيني بأن العالم وسخ ولا يجب أن نأتمن أحدًا، لا نثق بأحد، لاسيما نحن الإناث، فالكل يفكر بالأخذ دون العطاء، والكلّ يغدّر وينهش في أية لحظة سانحة. مع زواجي بدأت رحلتي. ربما كان أهم قرار في حياتي، وأول خطوة حقيقية نحو جسدي، ونفسي، وأول خطوة مني لاكتشاف ذاتي. لكن قرارنا باكتشاف الذات ليس كلامًا يُقال وقرارًا نظريًا، وإنما هو تجارب وأفعال وانكسارات وخيبات وأفراح وأتراح. أتعرف أن أول ما اصطدمت به خلال هذه الرحلة هو مفهوم الطاعة، الطاعة العمياء، لا ليست عمياء، وإنما الطاعة التي هي الاستسلام الكامل باسم الدين والشريعة والأخلاق والواجب. الطاعة للزوج، الطاعة للأب والأم والجيران والمجتمع والقوانين، الطاعة لإشارات المرور، الطاعة اللاشعورية للون الأحمر والأصفر والأخضر، والخيبة في كل شيء.. التكرار، التكرار، التكرار، التكرار يفقد الأشياء طعمها. أعترف أنني معقدة، وأنني صموتة، كتومة، مترددة، وحواراتي مع نفسي أقرب إلى الثرثرة. نعم أنا أثرثر مع نفسي طوال اليوم، لكن بصمت. الضجيج في رأسي فقط، وحينها أشعر بأني في الواقع لست أنا التي تفكر، فهناك أكثر من شخص في داخلي، حتى أحيانا أحس بأنني ممسوسة.

كان ينصت إليها وعلى وجهه علامات الانتباه الكامل، فجأة سألها:

- وكيف تنامين..؟ هل تراودك الكوابيس..!

فوجئت بسؤاله. صمتت لحظة ثم أجابت:

- أنا أصلي، وملتزمة بالشريعة حتى وإن عبّرت في داخلي عن عدم قبولي بالكثير من الأساطير الدينية، لكني ذات وسواس.. تأتيني الكوابيس أحيانا. عادة تأتيني الكوابيس حينما أتعرض لبعض التحرش في قطار الأنفاق وفي سيارة الباص، وحينها أجد نفسي تائهة في وديان مظلمة، وأعرف أن هناك قوة وحشية في الظلام تتربص بي لتنقض عليّ. لا الصلوات لحظتها تفيدني ولا تلاوة الأدعية، فحين تقبض قوة الظلام بك فأنت لا تراها، لا ترى كيف هي، ومن هي، وما شكلها، ولا ينفعك أحد، لا الزوج، ولا الابن، ولا الأم أو الأب أو الأخ

والأخت، فأنت وحدك بين مخالب الظلام وأسنانه القاسية..، لكني مع ذلك أحدّق في الظلام فأرى عين الظلام يشع منها ضوء أسود، عين الظلام التي تلفني بقسوة باردة، لأصير جزءًا منها، وأصير أنا عينًا تحدّق في الظلام، وأفز لحظتها على شخير زوجي.

في جملها الأخيرة ارتسم الخوف على وجه آدم الأكويني وقال بهدوء:

- ما هذا، أية قيامة هذه؟ وأية كوابيس؟ ألم تقاومي الظلام..؟

شعرت بامتنان داخلي نحوه لأنه أبدى تعاطفا معها وقالت:

- حاولت أن اتجنب الظلام، أو ذلك الوحش الذي أحسه يتنفس في الظلام. لا أدري إن كان ذلك يُسمى مقاومة، فأنا كتلة من الخوف والتردد رزعتها تربيتي ومخاوفي الدينية بالعقاب والإثم والخطيئة، بل إن منظومتي الأخلاقية شوهت كل ما هو لا ينسجم مع ايقاعها الملل والمميت والتافه، فلم أعد أنظر إلى جمال الأشياء إلا من خلال الطاعة والتسبيح والتعاويذ والعودة إلى البيت.!

- ما معنى العودة إلى البيت..؟ سأل بفضول.

- العودة إلى بيت الطاعة الزوجية وتقبل كل شيء باستسلام قدري، وسحق الرغبة في المغامرة والحلم باعتبار ذلك طيشًا وانحلالًا أخلاقيا!! أتعرف كم عانيت من أجل أن أحسم أمري معك.. وأكون معك!؟ بل إنني إلى الآن أشعر باللاثقة واللاأمان ليس فيك وإنما في نفسي! لا أعرف.. أنا استمد القوة منك الآن، لكني لا أعرف ماذا سيكون معي حين أكون وحدي وأسترجع كل ما جرى بيننا..!.

ولا إراديا مدّ يده وأحتضن كفها بدفء تعبيرًا عن دعمه ومشاعره نحوها وقال:

- هذا ما سيكون، بلا شك، فأنتِ في صراع ما بين وعيك وكل هيمنة اللاوعي الذي يشكل بهذه الطريقة وعيًا زائفًا لديك! أنت تخافين الإله الزائف وكل ما ارتبط به، إله الأديان بجحيمه وظلامه وقسوته ومكره أكثر مما تخافين الإله الرحيم!. أتعرفين.. أنت الآن أمامي مثل طفلة صغيرة تخاف الظلام وتتخيله مليئًا بالأشباح..!..

فقالت بانفعال:

- أنا كذلك حقا، لكن ليس كطفلة وإنما امرأة عاقلة وناضجة ومتزوجة ولديها طفل لكنها في دومة نفسها وفي قاع الظلام الذي تعتقده واهمة أنه جنة المأوى والسلام الروحي، لكنه ليس سلامًا، بل هو سجن أوهم نفسي به بأنه العالم الفاضل الوحيد، بينما كل العالم ليس سوى مستتنقع قذر، وأنني كلما تمسكت بزوجي وأمي وأمه وأختي وأخته وعشت في دائرتهما فإني في أمان، مع شك عميق يقول لي أنت لست في أمان..!.

أحس برعشة كفها في كفه وتخيل رعشة الخوف التي اجتاحتها. وفجأة، وعلى غير توقع منه نهضت عن كرسيها وقالت بخجل وارتباك:

- أريد أن أذهب..!

صُدم هو من كلامها، فقال لها مستغربا:

- ماذا؟ هل حدث شيء؟ هل قلت شيئًا صادمًا..؟

قالت بتوتر وارتباك:

- لا.. كل شيء كان رائعًا، وكلامك هزني بل وهو الآن يجوب في أعماقي، لكني أشعر باندفاعات أخاف التفكير فيها والنظر إليها..

- ما هي..؟ سأل بلهفة.

- غير مهم الآن.. علي مواجهتها وحدي، فقد صرت أخاف من نفسي، أحس أنني أنزلق في عالم جديد لست متعودة عليه.. عليّ الذهاب الآن، وسأكلمك بالتأكيد..

نظر إليها بتعاطف وحب، ولم يسع إلى إبقائها مع أن لديه رغبة عارمة في أن أن يلوذ إلى جسدها ويلجه ليس برغبة شبقة وإنما عودة للرحم الأول ولظلام العدم الأول، لكنه تركها هي أيضا تقرر ما تراه وتحسم صراعها مع ذاتها وكل وعيها الزائف.

عند الباب أحتضنا بعضهما بحب وسلام ومودة. لم تكن تخاف منه، لكنها كانت تريد أن تكون وحدها، ففي داخلها تفجرت ينابيع مجهولة تخافها.

الفصل الحادي عشر

أشباح الأعماق

حين خرجت من شقته وصارت في الممر اجتاحها الندم وأخذت تلعن خوفها من نفسها. هي تعرف أن الاندفاعات التي اجتاحتها كانت اندفاعات جسدية، فحديثه والمودة الكبيرة التي تشع من عينيه حين كان ينظر إليها، ونبرة صوته الدافئة التي تشعرها برغبة دفينة، كل ذلك أشعرها بأمان غريب وأيقظ شهوتها في أن تلتحم به وتتكور في حضنه مثل جنين يتكور في رحم أمه. لكنها كانت تخاف تلك الاندفاعات، تخاف إدمانها عليه بحيث سيكون ذلك كارثة على سلامها وأمانها العائلي والاجتماعي.

وطوال طريقها إلى محطة قطار الأنفاق كان تستعيد كل ما حدث بينهما، بل أخذت تستعيد لقطات خاصة جدا وتفاصيل من جسده، ونظراته، وشفتيه وهو يتحدث، لقطات مكبرة وتفصيلية وعامة، لكنها أدركتْ شيئًا واحدًا هي على ثقة صارمة منه، وهو أنه وكل ما جرى وما له علاقة به سيبقى سرًّا، وهي متأكدة من شيء واحد آخر هو أنه لا أحد قد استطاع أن يكون معها عاريا هكذا، هو وحده من سمحت له بذلك وكانت معه كذلك، هو وحده من سمحت له أن يلج أعماقها برضاها ورغبتها! لكنها امرأة متزوجة ولديها طفل وعائلة تُعد مثالية في نظر أهلها ومن يحيطها، وهي في كل الأحوال تستمتع بنظرات التقدير والاحترام لها من الجميع، ولا تريد أن تفقد ذلك، بل وليست على استعداد لهذه التضحية! فالنظرة التي ينظر بها الآخرون لها تهمها جدًا حتى وإن كانت مزيفة، هي تريد أن تمسك بكل التفاحات في يد واحدة، هل تقدر على ذلك؟ عليها أن تكون بهلوانة في سيرك كبير وتتعود أن تتناول التفاحات دون أن تسقط واحدة منها! لكنها الآن في مفصل مهم من حياتها؛ فهذا الرجل

قد دخل حياتها بقوة وتغلغل في أعمق أعماقها ومعه وجدت روحها عارية، وتحس بأن هناك شيء يهتز، وربما لن تستطيع مسك التفاحات كلها بثقة!

حين وصلت إلى مدخل المحطة ودرجها الذي يهبط في النفق الذي يقود إلى المحطة توقفت عن المشي لا شعوريا وبشكل مفاجئ بحيث ارتطمت بها امرأة محجبة كانت تمشي خلفها مباشرة. اعتذرت لها. ومن دون أن تقرر شيئًا حاسمًا وجدت نفسها تعود إلى شقة آدم الأكويني.. أحست برغبة في أن تكون معه، في أن يلجها بقوة وعمق.

* * *

حين وصلت إلى باب الشقّة راودها خاطر بأن ترجع أدراجها كما غادرت قبل قليل. فكّرت في ما سيظنه وكيف سيفسر ذلك، فهي يهمها نظرة الآخر لها. لايهمها أحيانا كيف تشعر، وماذا تريد، وإنما يهمها أن تكون صورتها مثالية في نظر الآخرين، وقد تعبتْ فعلا من هذا الأمر. ليكن ما يكون فهو في كل الأحوال خارج القطيع ولا يأبه لنظرات الآخرين. وهكذا ضغطت على زر الجرس. وللحظة شعرت بالندم لأنها فعلت ذلك، لكن سرعان ما اختفى هذا الشعور كمّن قفز إلى الماء وهو يفكر خلال المسافة بين القفز عن المنصة وملامسة سطح الماء.

فُتح الباب. لثوان لاحظت الدهشة على وجهه لكنها اختفت لتحل محلها ابتسامة طيبة ودافئة مسحت عن نفسها كل الحرج والتوتر الذي كان يجتاحها قبل دقيقة.

لم يسألها لأنه كان يدرك أنها ما عادت إلا لتوضح شيئًا أو تستكمل حوارًا دار ويدور في ذهنها، وفجأة، ألقت بنفسها بين ذراعيه فضمها هو أيضا ليهدأ ما في نفسها من اضطراب. أحسّت هي بالأمان مجددا وكأن كل اضطراباتها هدأت في أحضانه، ثم بمرح قال لها: - لقد أعددت لنفسي هذه المرة كابتشينو. هل لك رغبة في كوب من الكابتشينو أم أعدّ لك شيئًا آخر، فالماء المغلي لا يزال ساخنًا.

مشى أمامها إلى المطبخ بينما تبعته وهي تقول: - سأشاركك الكابتشينو أيضا.

أعدّ لها كوبا من الكابتشينو ووضعه أمامها وجلس على الكرسي المقابل لها، كانا يجلسان وكأنها لم تغادر قبل قليل وعادت. لم يقل هو شيئًا ولم يسألها لِمَ عادت وإنما تركها لتتحدث بنفسها، وهذا ما كان، فبعد رشفتين

كبيرتين من السائل الساخن في كوبها قالت: - أتعرف يا آدم لِمَ رجعت بعدما ذهبت قبل قليل..؟

لم يقل هو شيئا فواصلت دون انتظار جواب وقالت: - الحقيقة أنا مضطربة، أعيش تحولات كبيرة في نفسي. هل شاهدت في البرامج العلمية عبر شاشة التلفزيون كيف تنهار جبال الثلج في القطب الشمالي أو الجنوبي، تلك الانهيارات العظيمة لكتل الثلج الجبارة، أنا أعيش تلك الانهيارات منذ البارحة. كنتُ حين التقيتك أشعر بزحف بعض كثبان الثلج، لكن منذ الأمس أحس بالانهيارات وتحطم كتل الثلج في أعماقي، وهذا يخيفيني، هل تفهمني..؟

نظر إليها نظرة متفحصة وقال بهدوء:

- أفهمك.. نعم.. أتخيل ذلك..

فواصلت:

- أتعرف.. كنت سعيدة بزواجي، ومحيطي، وبروتين حياتي. لكن حدثت هزة كبيرة خلخلت الجبال في أعماقي. أتعرف أن زوجي يحبني لكن حبه لي يأتى من إدراكه لسيطرته عليّ، هو يحبني لأنه هو مسيطر عليّ، على حياتي وجسدي ومصيري، يحبني لأنني مطيعة وهادئة ولست جامحة أو مشاكسة، لأنني مستسلمة له، ولو تمردت عليه لأبسط شيء حتى لو طبخت شيئًا غير الذي طلبه لأنتفى ذلك الحب، بل لتحوّل إلى غضب وعدوانية معلنة أو مكتومة، ومع ذلك ينتظر مني بأن أقدم طقوس الاعتراف بالجميل لحبه لي لأنه يسيطر عليّ..!

فقال آدم الأكويني بهدوء:

- لكن يحدث أن نسيطر على شخص دون أن نحبه، أو أن نحب شخصًا دون أن نسيطر عليه! أفهم ما تقولين وأجد أن ولادتك الجديدة وتحررك الحقيقي يكمن في رفض الحب القائم على السيطرة، فالحب الحقيقي هو أن يقبلك الآخر كما أنت ومن خلال تحررك منه وليس من خلال تبعيتك له! لكننا البشر لسنا أحرارا مع الأسف، فالدين والتربية الأبوية ترضعنا الخوف من التمرد وتغذينا بفضيلة الطاعة. في الدين العبودية والطاعة فضيلة الفضائل! فالحب الذي تتحدثين عنه هو علاقة تواطئ بين الطاغية وتابعه، بين العبد والسيد، وهي كما تبدو علاقة وعبودية بلا شروط وإنما هي عبودية طواعية واختيارية! وكأنما أعداء اتفقوا على عداوتهم بحيث صارت هذه

العداوة جزءًا من محبتهم لبعضهم، مثلما تتبادل الدول الأعداء المساعدات وقت النكبات، لكن دون إلغاء للعداوة.

- إنك تشوشني أكثر، لكن ما الحل..!

- النظر.. يجب أن تحدّقي في حياتك بعيون مفتوحة على وسعها، أن تحدقي بثبات في الآخر، فإذا كان حبه قائما على السيطرة فسيرتبك وسيبدأ بالكلام، سيبرر لك هيمنته وسيطرته على حياتك من أجل حمايتك من نفسك ومن الآخرين، أو حينها سينهار ويرد عليك بعنف لفظي أو جسدي لأنه في الكلام والتبرير ضعفا.! قال ذلك بهدوء وهو ينظر في نقطة بعيدة.

صمتت هي للحظات ثم قالت:

- إذن أنا في دوامة! كلامك يكشف لي الصورة كما هي، لكني ما كنت أرى ذلك، فالستارة كانت تغطي النافذة وتحجب المشهد. أتدري، أحيانا كنت أفكر بالانتحار لا لسبب سوى حرمانه من التمتع بجبروته ونشوة سيطرته عليّ وعلى حياتي وجسدي لأني عاجزة عن اتخاذ أي فعل يهدم ولو كان بسيطا من جرف طغيانه الناعم. الانتحار ربما سيحطمه ويكون رفضًا وسخرية من جبروته، لكنني جبانة، أولا ذلك حرام دينيا، فأنا مهما كنت مثقفة بمفاهيم الحداثة أجدني لا إراديا أفكر بأحكام الدين ومفاهيمه أحيانا، لذا وجدت في إيجاد عشيق لي هو الطعنة له ولرجولته وطغيانه، لكنه من جانب واحد لأنه لا يعرف بالأمر، وإنما هو يحقق لي راحة نفسية وتعويضا خاسرًا، أي أن علاقتي بك على الرغم من أنها تشكل لي عبئًا نفسيًا وشعورًا ثقيلًا بالذنب والخجل والإثم لكني أرى فيها نوعا من الخلاص، ولادة جديدة لي. أتعرف أن زوجي هو أبي الثاني؟

فوجئ بجملتها الأخيرة والتبس عليه الأمر، فقال: - كيف؟

فقالت بنبرة فاترة وكأنها تقول شيئا لا تود قوله: - أبي مارس في طفولتي هينمة وجبروتا على حياتي كطفلة وصبية. ليس عليّ فحسب وإنما على أخواتي وأمي، لم أجده ضعيفا إلا مع أخوتي، فقد كان متساهلا معهم لدرجة كبيرة، لذا فإن قبولي بزوجي كان في الجوهر هروبا من طغيان الأب، لكنني في ما بعد اكتشفت أنني لم أهرب منه وأنما قمت باستبداله، فقد رأيت أحيانا ظل أبي في زوجي، لذا قرفت كل شيء، لاسيما في السرير!

كان ينظر إليها بحب ويعرف أنها تجالد نفسها خلال بوحها هذا، فقال لها: - أتعرفين.. أنتِ تمارسين فعل القول، فعل الكلام. إنه فعل صامت، طاقة نفسية وأفكار ومشاعر تتحول إلى فعل لفظي لكن بدون حركة في الواقع، ثرثرة في الهواء، طبعا هذا لا يعني أن كلامك غير صحيح، لكن أقصد كأن كلامك هنا هو ردة فعل على فعل في الذاكرة أو في الواقع، فحتى الممارسة الجنسية صارت تثير قرفك. إنك تجسدين الاغتراب النفسي والجسدي حتى على مستوى اللغة.

صمتت لحظات وارتبكت وكأنها ستبوح بشيء معيب.. إذا قالت: - أنا أحس بالخجل والقرف من الألفاظ الجنسية، هي خادشة للحياء..

في تلك اللحظة أصدر هاتفه النقال صوت إشارة لوصول رسالة هاتفية. قرأ الرسالة وقال لها: - إنها من صديقي آدم الغوريلا، سيمر عليّ مساء.

وضع الهاتف جانبًا وقال لها مواصلا حوارهما: - مرة قرأت بأن السمة الأبرز لحياة الإنسان الجنسية هي نموها في مرحلتين، يفصل بينهما فاصل زمني، فما بين السنة الرابعة والخامسة تصل الحياة الجنسية ذروتها الأولى، ثم لا يلبث هذا الازدهار المبكر أن يتوقف، لذا فكل ما يحدث من صبوات يتم كبتها، وهي مرحلة يطلق عليها علماء التحليل النفسي اسم مرحلة الكمون وتستمر حتى مرحلة البلوغ، وخلال ذلك تتشكل الارتجاعات كالأخلاق والحياء، والقرف الجنسي، وطبعا هذا ناتج عما يواجه كل إنسان في طفولته من تجارب بسطية وتحرش من قبل الأقارب أو الأغراب، وما يلقن من مفاهيم وثقافة تخص الجسد.

نظرت إليه بتوجس وقالت:

- هل تريد أن تقول إنني مريضة!؟ ثم أنني معك لا أشعر بالقرف، بل بالفضول لمعرفة الأشياء ومعرفة الجسد بل وحتى لا أجد أنها مقرفة كالسابق!

ابتسم لها وقال:

- لم أقل إنك مريضة، لكنك الآن تتحدثين معي بوجهك، وما إن تبتعدي خطوة خلف باب الشقة ستضعين قناعك المحافظ مباشرة، وتظلين تمارسين حياتك، بل وتواصلين فعل الكلام من وراء هذا القناع.

أسبلت جفنيها للأسفل وقالت:

- نعم.. هذا صحيح، وأعتقد أنك كذلك، فأنت مضطر أيضا أن تضع القناع، ربما تنزعه هنا أو حين تكتب..

- هذا صحيح أيضا.

ابتسمت له ابتسامة حزينة وقالت:

- أتمنى أن أن أتحرر معك لغويا، أريد ذلك، لكني غير قادرة فهو يكلفني طاقة نفسية وأخلاقية كبيرة.

مدّ كفه ووضعها على كفها الممدودة على الطاولة وقال بدفء ومودة:
- ستقدرين.. التحرر اللغوي أول خطوة نحو الحرية، اللغة هويتنا كما يقول الفلاسفة.

فجأة قامت عن كرسيها وقالت عليّ الذهاب الآن، كانت مرتبكة ومشوشة الذهن والنفس، فهي تريد الحرية لكنها في الوقت ذاته تخافها. لم يبد عليها الارتعاش لكن روحها كانت ترتعش. تحس وكأن وجوه من تعرفهم، زوجها، والدها، أمها، أختها، أخت زوجها، وصديق مقرب لها يعمل أستاذا مساعدًا في الجامعة كلهم ينظرون إليها شزرا وبغضب ويصرخون لكنها لا تسمع صراخهم وإنما تدرك أنهم يصرخون، غاضبين لأنها سقطت في الوحل، ولوثت سمعتهم، وللحظة أحست أنها ضعيفة.

عند الباب قالت له:

- علينا أن نتحدث عن أطروحتي أيضا. لم نعد نتحدث سوى عن أنفسنا، أو بالأحرى عن نفسي، على الرغم من أهمية ذلك..

نظر إليها متأملًا لثوان ثم ابتسم قائلا:

- ما بك حوّاء، وكأنك خائفة من مواصلة المواجهة مع نفسك، إنك تخافين الحرية وتهربين منها بالقوة نفسها التي تريدين فيها أن تتحرري!

نظرت إليه بارتباك وخجلت من ملاحظته التي كانت دقيقة جدًا في وصف ما يجري في أعماقها من صراع، وقالت: - ربما، لا أدري.. ثمة ضجيج وأصوات في داخلي! فوضى غير واضحة الملامح، مثل قرية هجم عليها الأعداء في الليل وحرقوا منازلها الخشبية وخيامها فعمت الفوضى لدى سكانها المرعوبين الذين لا يعرفون ما الذي جرى، هكذا أنا، أحس وكأني استيقظت على كابوس! علي مواجهة ذلك لكنني خائفة.

لم يقل شيئًا. احتضنها بين ذراعيه بقوة. ارتاحت لأحضانه وضغطه القوي عليها، وأحست أن ذلك كان جوابا.

وغادرت الشقة.

الباب الثاني

آدم المجنون

الفصل الأول

نشيد الذئاب والزهور.. وفانوس آدم المطرود

في التاسعة صباحا دخل القطار إلى محطة السكك المركزية. نزل آدم المجنون من مقصورته التي كان هو راكبها الوحيد. انتبه إلى أن المحطة فارغة. لم ينزل من القطار غيره.. لا.. ها هي امرأة تغطي رأسها بحجاب حريري فيروزي اللون وترتدي ثوبا أسود طويل تنزل من مقصورة أخرى.

كان هو في حالة تيه وضياع، لا يدري من أين أتى ولا إلى أين يتجه؟ ولِمَ هو هنا في هذه المحطة وهذه المدينة التي لا يعرف اسمها، بل ولا في أي بلاد تقع، ولا حتى في أية قارة أرضية..!؟

دخل مبنى المحطة فوجد نفسه في صالة فارغة والمحلات وزاوية المقهى مغلقة، فلا نأمة ولا صوت في الصالة، حتى رقّاص ساعتها الكبيرة ثابت لا يتحرك ويقف مشيرًا إلي الساعة التاسعة سواء كانت ليلا أو نهارًا.

ومع أن السيدة في الثوب الأسود كانت تمشي أمامه ودخلت الصالة قبله لكنه لم يجد لها أثرا في الصالة الكبيرة وكأنما ابتلعها صمت القاعة الفارغة المهيب.

خرج إلى الشارع فرأى رجلا مسنًا يرتدي ثيابًا رثة ويحمل لافتة صغيرة مكتوب عليها «الكاتب آدم المجنون». شكّ في أول لحظة بأنه هو آدم المجنون، كما أنه لا يعرف أنه كاتبٌ أصلً، ا لكنه أدرك أنه المسافر الرجل

الوحيد الذي نزل من القطار الغامض، وهذا يعني أنه هو المقصود!. توجه إليه. كان الرجل شبه نائم وهو يحمل لافتته الكارتونية الصغيرة المكتوبة بخط في كل الأحوال ليس أنيقًا، لكنه مقروء، وما إن رأى الرجلُ آدمَ المجنون حتى عرفه مباشرة، إذ يبدو أن مواصفاته قد أُخبر بها.

لم يكن لدى آدم المجنون سوى حقيبة ظهر جلدية مفتوحة وتبدو أنها محشوة بمخطوطات وأوراق وكتب. ومع أنه كان تائهًا ومشوشًا، لكنه أدرك أن هذا الرجل الذي يحمل لافتة باسمه جاء خصيصًا ليقله، لكنه لا يعرف إلى أين؟ لذا تقدّم إليه.

الرجل السائق وبلا مقدمات فتح له الباب الأمامي، إلّا أن آدم المجنون بقيّ واقفًا ففهم السائق بأنه لا يريد أن يجلس إلى جانبه في المقعد الأمامي، ففتح له الباب الخلفي، فأنزل آدم المجنون الحقيبة الجلدية عن كتفه. ألقى بها على المقعد الخلفي ودخل.

جلس السائق خلف المقود. فجأة لمح آدم المجنون المرأة التي بالثوب الأسود تخرج من المحطة. استغرب آدم المجنون بأنه لم يرها في الصالة بينما هي تخرج الآن بعده! «ربما كانت في الحمّام؟» قال لنفسه، ثم رآها تتجه نحو سيارة سوداء عالية ومظللة النوافذ. لم يستقبلها أحد، هي فتحت الباب ودخلت. انطلقت سيارتها بسرعة جنونية، بينما شغل السائق الذي معه سيارته، فأخذت تتهادى مثل حصان رهوان.

سارت السيارة في الاتجاه الذي سارت فيه السيارة المظللة السوداء التي صعدت إليها المرأة بالثوب الأسود، لكنه أدرك بأنهما لن يلحقا بها، فسيارتهما كانت تسير ببطء شديد.

كان الشارع مبلّطا بالإسفلت لكن حرارة الشمس وعدم تسويته قبل تبليطه جعل منه ما يشبه المرتفعات والمنخفضات، إلى جانب مطبّات تجعل السير فيه بطيئا جدًا، واستغرب آدم المجنون أن الشارع فارغ.

كان آدم المجنون يحس نفسه وكأنه سائر في النوم، فالأشياء لا يمكن أن تكون ساكنة وغير منطقية إلا في الأحلام. هو يتذكر إن لا أحد نزل من القطار سواه والمرأة في الثوب الأسود الطويل، بل لا أحد كان على رصيف المحطة، حتى صالة المحطة كانت فارغة، والساعة جامدة على الرقم تسعة، وكذلك خارج المحطة لم تكن هناك حركة قط إلا من وجود السيارتين اللتين إحداهما سوداء كبيرة مظللة صعدت إليها المرأة وسيارته وسائقها النعسان، بينما بدت كل شوارع المدينة حين اجتازتها السيارة فارغة، فلا وجود للبشر أو

السيارات فيها، وحتى السيارة السوداء المظللة تحركت بسرعة واختفت. وها هو في هذه السيارة التي وكأنها لا تتحرك لا يعرف إلى أين يتجه، وما الذي ينتظره؟

فكّر مع نفسه بأن من المؤكد أن هناك من يعرفه وإلّا ما كانت سيارة وسائق لتقلّه؟ لكن إلى أين؟ ومن هو؟ وأراد أن يسأل السائق لكن بدا له السائق إنسان غير طبيعي. فقد كان جامد النظرات، وعيونه لا ترمش، وكأنه صنم مغطى بجلد بشري، لذا كان شبه متيقن بأنه يرى نفسه في حلم.

ظلت السيارة تتهادى لساعات طويلة. كان آدم المجنون يغفو خلالها بل ويغط في النوم، ويصحو، ليرفع رأسه قليلًا، ينظر إلى جانبي الطريق باحثًا عن أثر للحياة فلا يجد. لكنه انتبه إلى أنهما خرجا من المدينة، وهما الآن في فيافي على مدّ البصر لا أثر فيها للحياة سوى براري ترابية قاحلة. وكلّما كان يغفو ثم يفزّ من غفوته أو نومه ينظر إلى السائق فيواجهه جموده المريب وكأنه ميت لا حياة فيه أيضا. وفي المرة الأخيرة انتبه إلى وجود حاجز زجاجي بين المقعد الأمامي والخلفي وكأنهما صارا في عالمين منفصلين تقريبا.

حين صحا في المرة الأخيرة وجد أن الليل قد هبط على الأرض والظلام يعمّ كل شيء، ولا شيء واضح في لجّة الظلام هذه سوى مصباحي السيارة اللذين يبثان ضوءهما الشاحب على الطريق الإسفلتي لمسافة أمتار قليلة.

فتح هو النافذة فهب نسيم عليل بارد برودة منعشة، وتناهى إلى سمعه نباح كلاب. وبعد لحظات خرجت السيارة عن الطريق واتجهت جانبًا وتوقفت بينما تصاعد نباح الكلاب. سُمع صرير باب، وبان ظل رجل يحمل فانوسا.

نزل السائق فأدرك آدم المجنون بأن عليه أن ينزل أيضًا، إذ أحسّ برغبة شديدة لشرب الشاي، وحينها سمع صوت رجل يصيح بالكلاب أن تهدأ فتوقفت عن النباح وكأنها تعرف لغته.

حمل حقيبته الجلدية معه، ومشى خلف السائق في العتمة. انتبه إلى الكلاب التي شعر بأنها تحيطهما، لكنه لا يراها وأنما يحس بها، وسمع الرجل الذي يحمل الفانوس يرحب بهما ويدعوهما للدخول إلى البيت الذي يبدو غامضًا في هذه الفيافي المعتمة.

دخل آدم المجنون خلف السائق الذي بدوره تبع الرجل حامل الفانوس. في البداية ظن آدم المجنون أنهم يدخلون بيتا ريفيًا بائسًا في هذه البراري القفر، لكنه ما إن صار في الداخل حتى أصيب بالدهشة، إذ وجد نفسه في صالة كبيرة وواسعة مفروشة بالسجاد الوثير ومحاطة ببسط ومتاريس وثيرة

ووسائد ومتكئات على طول الجدران، وقد قُسمت الصالة إلى قسم على جهة اليمين أثث وكأنه مطبخ ومخزن للغذاء وفي الجهة المقابلة من الصالة أصطفت خزائن مليئة بالكتب. وكانت الصالة مضاءة بمصابيح غازية قوية الإنارة لذا استغرب ظهور المضيّف وهو يحمل فانوسا شاحب الضوء.

طوال الوقت كان السائق صامتا. حتى المضيّف رحب بهما بكل لطف ثم اختفى، لذا لم يتمكن من النظر إليه ومعرفة ملامحه.

جلس هو على الأرض ومدّ رجليه على طولها متكئًا على إحدى الوسائد الوثيرة. أحسّ بتعب غريب مع أنه لم يفعل شيئا سوى الجلوس في المقعد الخلفي من السيارة، وعلى الجهة المقابلة جلس السائق متربعا وقد وضع وسادة في حجره اتكأ عليها ووضع رأسه على كفه، لكنه كان قد غط في غفوة عميقة.

لم يكن آدم المجنون يفكّر بشيء محدد، فثمة كسل وجمود يهيمن على ذهنه، لكنه بعد قليل سمع حركة تأتي من قسم المطبخ. وفجأة، ظهر المضيّف وهو يحمل صينية كبيرة يتصاعد منها البخار وروائح الطعام المتبل بالبهارات الشرقية الزكية.

وبهدوء وصمت قام السائق العجوز وكأن رائحة الطعام أيقظته، فذهب إلى عمق الصالة وأتى بطاولة قصيرة القدمين مستديرة ووضعها في منتصف الصالة المفروشة بالسجاد، فوضع المضيّف الصينية فوقها. وجلسوا حولها.

نظر آدم المجنون إلى المضيّف نظرة مواربة لكنها متفحصة. عرفه مباشرة، لكن المضيّف لم يعرفه. كانوا يمدون أياديهم إلى صينية الطعام ويتناولون منها لكنهم ما كانوا يشعرون بمذاق للطعام وكأنهم لا يمضغون شيئا، بينما كان الطعام يتناقص في الصحون شيئا فشيئا. أكلوا بصمت دون أن ينطقوا بكلمة واحدة. وحين انتهوا من الطعام قام السائق رافعًا الصينية، وذهب بها إلى زاوية المطبخ. المضيّف تتبعه بنظراته، فرأى السائق وهو يعدّ الشاي، وبعد أن وضع دورق الشاي على النار عاد ليجلس في مكانه حول الطاولة الخشبية. انتبه آدم المجنون إلى أن المضيف بدا وكأنه يعرف السائق معرفة جيدة، إذ ما إن جلس حتى بادره بسؤال دون حرج وبألفة:

- ما الجديد أيها السائق الأخرس، ياسائق الأشباح؟

نظر السائق نظرة سريعة على المضيف وأشار بيده نحو آدم المجنون. نظر المضيّف نحو آدم المجنون نظرة متفحصة وقال مبتسمًا موجها كلامه إليه وهو يشير برأسه نحو السائق العجوز:

- إنه أخرس لا يتكلم، لكني أفهمه جيدا، بل أفهم بلاغة الصمت ولغة الإشارة والهمهمة.

حينها أدرك آدم المجنون سر صمت السائق طوال الطريق، وبعد لحظات من الصمت قال آدم المجنون:

- الآن فهمت لِمَ لم يجبني عندما سألته في الطريق عن وجهتنا وعن هوية الشخص الذي أرسله لكي يستقبلني في المحطة..!

- ألا تعرف إلى أين تذهب؟ باستغراب.

- لا.. أجاب آدم المجنون.

- ولا مَن هو الشخص الذي أنت ذاهب إليه؟.. سأل المضيّف باستغراب.

- لا..

- ولا أين أنت الآن؟ سأل المضيّف بدهشة متصاعدة.

- لا.. أعرف أنني هنا في بيتك الآن..!

- وهل أنت متأكد من أنك الآن في بيتي؟ سأل بغموض.

صمت آدم المجنون للحظات ثم أجاب:

- لا أحد يمتلك اليقين..

نظر المضيّف نحوه للحظات نظرة غامضة ثم قال:

- نعم.. أنت محق.. لا أحد يمتلك اليقين. بالمناسبة، نحن لم نتعارف بعد، أنا المهندس والكاتب آدم المطرود!

ابتسم آدم المجنون ابتسامة متشجنة، وقال بنبرة فيها شيء من الحزن:

- أعرفك.. أنت المهندس الذي أًعدم بتهمة باطلة، تهمة تطورت من اتهام بقتل حواء الصايغ إلى جريمة سياسية! أنت الشخصية الروائية التي كتبها الدكتور آدم التائه! والذي بدوره كتبه الكاتب آدم البغدادي،

وكلكم كتبكم الكاتب آدم الأكويني، والذي هو أيضًا كتبه أحد ما، أظنه أنا. زوربما لست أنا.. صح أم أنا غلطان!

صُدم المضيّف من هذه المعلومات فقال له بتوتر:

- بعض المعلومات صحيحة. أنا المهندس والكاتب آدم المطرود. أُتهمت فعلا بمقتل السيدة حواء الصايغ.. حبيبتي.. وتطورت التهمة إلى جريمة التآمر على الحزب الحاكم والقيادة السياسية الحكيمة والثورة. هذا ما أعرفه عن نفسي، أما أنني شخصية روائية فأعتقد أنك تبالغ وتعيش في عالم الفنتازيا. لا أعرف شخصا اسمه الكاتب الدكتور آدم التائه، ولا الكاتب الذي أوجده والذي اسميّته أنت آدم البغدادي، لا ولا الكاتب الآخر آدم الأكويني. ربما أنت مشتبه، لكن معلوماتك عني صحيحة!؟ لكن مَن أنت؟

نظر آدم المجنون إليه بارتباك وقال:

- أنا آدم المجنون..

- المجنون..؟ قال المضيّف مستغربًا

- نعم.. المجنون..!

- هل أنت مجنون فعلًا..؟

- وهل يعرف المجنون أنه مجنون..!؟ غريبٌ أنت..!

- لكن من أين عرفت أنني آدم المطرود، وأنني أعدمت؟

- لا أدري.. كل هذه المعلومات انبثقت في خاطري الآن وأنا اتحدث معك، ولا أعرف كيف ولا من أين؟ لكني ما إن رأيتك حتى عرفتك؟ لكن لماذا أنت هنا في هذه البراري المقفرة وحدك..؟ لا أثر للحياة هنا، بينما أنت تبدو تعيش في بحبوبة، صالة مفروشة بالسجاد الثمين ومكتبة عامرة بالكتب ومطبخ فيه مؤون لا تنتهي، لكن لا أنيس لك.. وحدك.. كيف هذا!؟.

ارتبك المضيف آدم المطرود وكأنه كان محتارًا في أن يجيب أم لا، وأخيرًا قرر الإجابة بعد أن ألقى نظرة على السائق الأخرس، وقال:

- ظننتك عرفت كيف، مادمت عرفت من أنا بشكل غامض! ظننتك عرفت أين أنت وأين نحن الآن..!

ارتسمت ملامح الارتباك على وجه آدم المجنون، وقال:

- من أين لي أن أعرف!!؟

- مثلما عرفتني..!أجاب آدم المطرود بغموض.

- أنا عرفتك لأن هناك ما يشبه الذكريات استيقظت في ذهني. وكل المعلومات الأخرى اتضحت لي وكأنما كتاب يفتح لي كيف أراه. لا أعرف كيف أفسّر لك ذلك، أما أين أنا؟ وإلى أين أتجه؟ فهذا ما لم يُكشف لي عنه ولا أعرفه أنا شخصيا، فهلا أخبرتني..!

- أولا أخبرني، هل تعرف شيئا عن حبيبتي حواء الصايغ..!؟

كان السائق الأخرس يتابع الحوار بلا مبالاة. قام من مكانه واتجه نحو زاوية المطبخ ليأتي لهم بالشاي. نظر آدم المجنون إلى المضيّف آدم المطرود بغرابة وقال:

- قبل أن تسألني عن حبيبتك حواء الصايغ لم أكن أعرف شيئًا عنهًا، لكن ما إن سألتني حتى عرفت عنها كل شيء وكأنني وضعت اسمها في مشغل بحث على النت فظهرت لي سيرتها ومصيرها!. وهي كما علمت الآن لم تمت ولم تُقتل، وأن اعتقالك بتهمة قتلها كان بتدبير من زوجها آدم الولهان ومن خلال علاقاته بمسؤولين للأمن والاستخبارات في السلطة العراقية. فعل ذلك بدافع الغيرة منك لأنه لاحظ ميل زوجته الواضح نحوك، وميلك نحوها. وقد اتفق مع أصدقائه المسؤولين وأعطاهم الكثير من المال كي ينفذوا هذا الاعتقال بهذه التهمة، لكن عدم وجود أدلة ضدك، إلى جانب أن أحد المقاولين الذين تعاملوا معك وأعتقد أنه آدم الحلي، كانت عليه شبهات سياسية فوجدوها فرصة لتحويل القضية إلى قضية سياسية ولكي يتم حبك المؤامرة ضدك جاءوا بأشخاص أبرياء مثل زوج سكرتيرتك حواء اللهيبي وصديقك آدم الصاحب، وتم إعدامكم جميعًا، أما هي فقد رحلت إلى باريس تفتش عن ابنها، وبعد سقوط النظام الدكتاتوري واحتلال البلاد من قبل أميركا فقد تم إعدام أو اغتيال زوجها آدم الولهان، وقيل أن ابنها قد اختفى من المدرسة الداخلية في جنوب ألمانيا مع صديقه من أميركا اللاتينية بطريقة غامضة.. لم تعثر على ابنها، لكنها التقت بصديق ابنها في باريس بعد سنوات عديدة وقد صار

شابًا في بداية العشرينات، وقد اخبرها بأن أربعة رجال هبطوا ذات ليلة بمركبة فضائية وأخذوا ابنها بالذات باعتباره المخلص، وهي الآن في باريس.

كان السائق الأخرس قد صبّ الشاي في الاستكانات الزجاجية وقدّمها لهما، لكنه ظل ينصت بفضول إلى حديث آدم المجنون وهو يروي مصير حواء الصائغ.

كان المضيّف آدم المطرود ينصت أيضًا وكأنه يستمع لحكاية قديمة، قديمة جدًا، ومع ذلك ارتسمت ملامح الحزن على وجهه وقال بهدوء ونبرة فيها حزن مكتوم:

- ماذا تنتظر من البشر!! إنهم كالذئاب، يركضون ويركضون ولا يعرفون غير الركض. إنهم مطاردون من الموت، ومن الزمن الذي لا يرحم. يهربون من أنفسهم، يطلبون الحب المستحيل والسلطة والهيمنة والثروة والوجاهة الاجتماعية والوظيفية والسياسية. يركضون ويركضون، لكن في النهاية سواء وصلوا أم لا، فإن الرحلة لا بد وأن تنتهي، وسيجدون أنفسهم يقفون عند الحافة المطلة على الهاوية وقد أنهكم الجري وتعب الأيام والليالي. سيلتفتون إلى الوراء وسيجدون المشهد ضبابيا، ولا مجال للعودة، وسيدركون عبث الجري واللهاث كل تلك الأيام والليالي والسنين التي نهشوا فيها الحملان، وقتلوا الغرماء، ونافقوا الأقوياء، وتحلّوا بالفضائل المزيفة، وحرموا أنفسهم متعة الاسترخاء تحت شمس الحقيقة، لأن الحقيقة تعني الثبات والاستقرار والقطع واليقين، اليقين في الشك الذي يكون يقينًا آخر..

- لم أفهم ما ترمي إليه..!؟ سأل آدم المجنون بأسى.

- لاضير.. أنا خرجت من معادلة الربح والخسارة..

- زدتني إبهاما..، لكن ما هو غير مفهوم لديّ كيف أنهم أعدموك مع صاحبيك، وها أنت هنا تعيش في هذا المكان الذي برغم عزلته فهو دافئ ومنشرح..!

تبادل المضيّف آدم المطرود والسائق الأخرس نظرات ذات معنى لم يفهمها آدم المجنون. وفي تلك اللحظات تعالى عواء الذئاب، بل جوق عواء صادر من حشد ذئاب، فارتسمت ملامح الخوف على وجه آدم المجنون، انتبه له المضيّف آدم المطرود، ابتسم له وقال:

- لا تخف، هؤلاء ضيوفنا، خرجوا من الحفر التي كانوا يرقدون تحتها، عرفوا بوصولك وجاءوا ليحيّوك..!

- ماذا تقول.. الذئاب تحييّني!؟

- نعم.. ما الغرابة!؟ في عالم البشر الواقعي ربما هذا غريب ومستحيل، لكنه هنا اعتيادي، ليس الذئاب وحدها تريد أن تحييّك وإنما زهور البراري، هي أيضا تريد أن تحييّك..

وفجأة قام من مكانه ومعه السائق الأخرس.. نظرا إليه وقال:

- قم معنا لنردّ التحية..!

- أنا..!؟

- نعم أنت..

فقام معهما بارتباك. مشيا أمامه. وخلال تلك اللحظات رآهما وهما يتحولان شيئا فشيئا إلى أجساد ذئبية. صار خلفهما حينما وقفا في عرض فتحة الباب. كان المضيّف بجسده الذئبي يقف على قائمتيه وبيده الفانوس، ومن خلفه رأى ليس حشدًا وإنما شعبًا من الذئاب يقف بانتظام وهو يعوي عواءً كوراليًا. كان الظلام أمام عيني آدم المجنون لكنه كان يرى العيون الفسفورية المتقدة وكأنها مئات المصابيح التي تمتد في أفق غير محدود.

انسحبا إلى الجانب ليعطياه المجال كي يقف بينهما. تعالى العواء في لحن سيمفوني لم يسمع به. وبعد دقائق انطفى كل شيء، انطفأت العيون وعمّت العتمة في المكان، وبلمح البصر تحول المضيّف والسائق الأخرس إلى جسدين آدميين. وقبل أن يستديرا أضيئت الأنوار أمام العتبة وإلى مسافة تمتد إلى أقصى الأفق المعتم، وظهرت سجادات طويلة وعريضة من الورد، وتعالت موسيقى السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، في أحد ألحانها المجيدة الذي صار النشيد الوطني لاوروبا، واستمر الأمر لدقائق قليلة، وفجأة اختفى كل شيء.

دخلوا الصالة. قال المضيّف لنشرب الشاي قبل أن يبرد.

جلسا على السجاد الوثير وفي يد كل منهم استكانة. أخذوا يرتشفون الشاي بصمت. وخلال لحظات أحس آدم المجنون بالنعاس. تبادل المضيّف والحارس الأخرس النظرات. فجأة أطفئت المصابيح في الصالة. وخرج المضيّف مع الحارس الأخرس مغادرين الصالة وغابا في العتمة التي تغطي البراري المقفرة والغامضة.

***

أفاق آدم المجنون من نومه على صوت عاصفة تضرب السيارة. انتبه إلى أن الحارس العجوز كان خارج السيارة يزيح الرمل المتراكم على واجهتها الزجاجية الأمامية. كان كل شيء حوله أصفر، أرض ترابية صفراء وعاصفة رملية صفراء، وحتى الأفق بدا له أصفر، وكأنه كان يرتدي نظارة بزجاج ملون أصفر.

أحس ببعض التشنج لأنه نام غير مستلق وإنما كان رأسه متكئًا على المقعد الأمامي. نظر من خلال النافذة فلم يجد سوى كوخا صغيرا بباب من الصفيح الصدئ وقد تم قفله بسلسلة على مسمار في أعلى الباب.

«كيف هذا..؟ أين المضيّف آدم المطرود..» سأل نفسه.

بعد لحظات دخل السائق الأخرس إلى السيارة وأخذ مكانه خلف المقود، نظر نظرة خاطفة إلى آدم المجنون وكأنه يريد أن يعرف بماذا يفكر، أدار محرك السيارة وانطلق في طريق ترابي يمتد في السراب الذي يلتمع في الأفق.

الفصل الثاني

صوت كوكب زحل المخيف

كانت الظهيرة ساخنة والريح عاصفة والأفق يتلألأ بتموجات السراب. البراري قفر، فلا أثر لشجرة أو حتى عاقول الصحراء. أرض صفراء ترابية و كثبان رملية، لاشيء سوى هذا الفضاء المقفر الأصفر. لاشيء سوى هذا الجحيم الأصفر، هذا الكوكب الموحش الأصفر. فجأة، سأل آدم المجنون نفسه: «أيمكن أن أكون على سطح كوكب المريخ المعروف برياحه العاصفة وأرضه الصفراء التي تميل إلى الأحمر دون أن أعرف!؟ لا. لقد كنت في قطار وفي محطة داخل مدينة، والمريخ كوكب غير مأهول وميت منذ ملايين السنين»! وسخر من تداعياته وخاطرته تلك. «كيف وصل بي الأمر بحيث أفكّر بحيث افكر بهذا اللامعقول؟ لكن كيف أفسّر ما حدث ليلة أمس، فلقد بت ليلة أمس في الكوخ - الصالة، ومن ثم استيقظت صباحًا لأجد نفسي داخل السيارة!؟ أكنت أحلم؟ أف.. أنا بالكاد أتنفس، الهواء فاسد وخانق داخل السيارة».

لم يكن بإمكان آدم المجنون أن يفتح النافذة ليغيّر من الهواء داخل السيارة، فقد حاول أن يفتح النافذة المجاورة له، لكنه لم يتمكن من ذلك، فما إن حاول فتح النافذة من خلال المقبض الأسفل حتى هبّت ريح عاصفة رملية أعمته مباشرة مع صفير حاد بحيث إنه لم يستطع الرؤية فأغلق النافذة فورًا.

نظر إلى السائق العجوز فرآه وقد وضع نظارة سوداء مغلقة الحواف على عينيه وشدّها بحزام بلاستيكي حول رأسه. «متى فعل ذلك؟» سأل آدم المجنون نفسه.

كان الجو خانقًا داخل السيارة. وكان آدم المجنون مشتّتًا. شعر بأن حرارة الجو والهواء الفاسد ستخنقه، وهو لا يستطيع أن يفتح النافذة، وأن وجهه ورأسه قد ابتلّا بالعرق. ونزل العرق إلى داخل جفنه فأخذت عيناه تحرقانه. وشعر بأنه يفقد قواه، ولم يعد يتماسك. وغاب عن الوعي.

* * *

حين فتح آدم المجنون عينيه كان يشعر بشيء من الراحة والاسترخاء، لكن كل شيء حوله كان مظلمًا، بينما السيارة تمضي بهدوء في طريقها اللانهائي. وانتبه إلى أن نافذتيّ السيارة من جانبيها مفتوحتان، وثمة هواء عليل يغمر جو السيارة.

رأى نفسه ممددًا على المقعد الخلفي، فأدرك أن السائق قد مدّده بعدما رآه يغمى عليه. جلس على المقعد الخلفي وألقى نظرة على السائق الأخرس فانتبه إلى أنه كان أيضا ينظر إليه بانتباه في المرآة التي أمامه، لكنه كان قد نزع نظارته التي كانت تقيه زغللة السراب عن الظهيرة.

لم يقل السائق شيئًا. فجأة تعالت موسيقى كمان كلاسيكية من راديو السيارة. شعر برومانسية حزينة وهو يستمع لموسيقى الكمان في سيارة غامضة مع سائق أخرس في ليل البراري المقفرة. فجأة أحسّ بالجوع، ولم يسأل السائق لأنه يعرف مثل هذا السؤال هو ضرب من العبث مع هذا السائق الغامض وهذه الرحلة المليئة بالألغاز.

ظلت السيارة تسري في هذا الليل الكوني المظلم. انتبه إلى أن السماء بلا قمر أو نجوم، لا شيء يضيء سوى المصباحين الشاحبين للسيارة اللذين كانا يضيئان الطريق لأمتار قليلة أمام السيارة.

ومن عمق الظلام لاحت أضواء في الأفق البعيد. وكلما اقتربت السيارة اتقدت الأضواء أكثر، وحينما صارت السيارة على بعد مائة متر تقريبا تبيّن أنه مبنى. ولم يمض إلا وقت قليل حتى تبيّنت لائحة ضوئية مكتوب عليها «فندق الأرواح التائهة»، وبدت جميع نوافذ الفندق الكبير المؤلف من تسعة طوابق مضاءة، بينما بوابة الفندق تلقي الضوء على مساحة عريضة أمام مدخله. وبهدوء اصطفت السيارة في موضع أُعد كموقف لسيارة واحدة إلى جانب مدخل الفندق.

نزل السائق الأخرس وأغلق بابه منتظرًا خروج آدم المجنون، وحينما خرج حاملًا حقيبته الجلدية تقدمه متجها نحو بوابة الفندق غريب التسمية.

لم يكن أحد في مكتب الاستعلامات ولا في اللوبي الأنيق للفندق، بينما كان يُسمع صعود ونزول المصاعد وصوت الأجراس بنغمتها اللطيفة معلنة توقفها بين الطوابق التسعة.

تقدّم السائق الأخرس نحو مكتب الاستعلامات، ووقف عند سجلّ مفتوح. أخذ ينظر في جدول الأسماء والحجوزات، ثم توقف محدّقا بتركيز في الدفتر وكأنه عثر على الاسمين.

كان آدم المجنون يراقبه مستغربا هذا التصرف التلقائي وهذا الاسترخاء وكأنه معتاد على هذا الفندق، بل ولم يستغرب السائق عدم وجود أي موظف في الاستعلامات. ومما زاد استغرابه أن السائق استدار داخلا مكتب الاستعلامات ليأتي بمفتاح مشدود إلى قطعة نحاسية تحمل رقم الطابق والغرفة.

فجأة التفت السائق الأخرس نحو آدم المجنون وأشار له بأن يتبعه. ومضيا إلى حيث المصاعد. الاستغراب والدهشة المشوبة بغموض هيمنت على ذهن آدم المجنون، فهذا الكم من المصاعد المتحركة والتي تصعد وتنزل بينما لا أحد في الفندق، بل لا أحد يخرج من المصاعد حتى وإن فُتحت أبوابها، بينما يصله صوت توقفها بين الطوابق مما يعني دخول بعض النزلاء إليها، لكن حين تصل إلى الطابق الأرضي، لا أحد يخرج منها.

واستيقظ الفضول في نفس آدم المجنون فأخذ يعّد المصاعد فعرف أنها تسعة مصاعد، كما انتبه إلى أن المصاعد تحمل أرقاما تبدأ من أبعد مصعد لتصل إلى المصعد التاسع الذي يقفون أمامه.

نظر آدم المجنون إلى اللائحة الالكترونية المضيئة فوق باب المصعد فرأى أن المصعد الذي يحمل الرقم تسعة يهبط إلى الأسفل، وبعد لحظات وصل وانفتح. دخلا إليه وضغط السائق الأخرس زر الرقم تسعة. ولم تمر إلا لحظات قليلة لا تتجاوز الثواني التسع حتى توقف المصعد. ووجد آدم المجنون أنهما وصلا إلى الطابق التاسع. ضغط السائق الأخرس على زر ايقاف المصعد عن الحركة وأعطى المفتاح لآدم المجنون.

أخذ آدم المجنون المفتاح ونظر إليه فوجد أنه يحمل رقم الغرفة التاسعة. وحين نظر إلى السائق الأخرس وهو لا يزال يضغط على زر الإيقاف، حرك رأسه كإشارة منه بأن يتوجه إلى غرفته.

خرج آدم المجنون من المصعد. ولم يكد يلتفت حتى أغلق باب المصعد ونزل المصعد كالبرق إلى الأسفل.

ما إن صار آدم المجنون خارج المصعد حتى وجد نفسه يقف أمام ممر طويل مفروش بسجاد أحمر وثير وجديد. مشى في الممر وهو يقرأ أرقام الغرف إلى أن وصل الغرفة التي تحمل الرقم تسعة، وحينما وضع المفتاح في رتاج الباب حانت منه التفاته لنهاية الممر ففوجئ بالمرأة في الثوب الأسود في عمق الممر وقد خرجت من غرفتها وأخذت تقفل بابها. وقبل أن تتم إقفال الباب وتتوجه لتجتاز الممر وتراه، كان هو قد فتح بابه ودخل قافلًا الباب خلفه.

حين دخل لم يجد نفسه في غرفة اعتيادية، فهي ليست رباعية الجدران وإنما معينية بستع جدران وأضلاع متداخلة بزوايا غريبة. كانت أرضية الغرفة من خشب الصندل وجدرانها كلها مغطاة بشاشات تلفزيونية كبيرة، بل حتى سقفها ليس أكثر من شاشة كبيرة، بينما يتوسط الغرفة سرير وثير.

لم يكن في الغرفة أزرار إضاءة وإنما الأضواء تأتي من توهج الشاشات. تلفّت مندهشا في الغرفة فانتبه إلى وجود غرفة للحمام عند مدخل الغرفة. ذهب إليها وفتح بابها ليتأكد منها. أعجبته غرفة الحمام لنظافتها وسعتها وأناقة الدش وحوض الغسيل وبقية المرفقات من مناديل وعلب الشامبو وبخاخة للعطور وترطيب الأنفاس داخلها.

مشى إلى وسط الغرفة، ألقى حقيبة الكتف الجلدية إلى جانب السرير. تقدم نحو الشاشات الهائلة وأخذ يشاهدها ليتعرف على ما تبثه. استغرب أن معظمها تعلق شارة واضحة على القسم العلوي منها مكتوب عليه «مباشر» وليس هناك لوغو أو اسم لأية قناة. لم تكن هناك أحداث وإنما البث المباشر يأتي من كاميرا متحركة يبدو أنها مركبة على سيارة أو عربة أو ربما من مقصورة فضائية تصور براري الكواكب المختلفة. كانت الشاشات صامتة، وأمام كل شاشة منضدة صغيرة عليها جهاز التحكم عن بعد.

انتبه إلى إحدى الشاشات فعرف أنها تنقل بثا من كوكب المريخ الذي يعرفه مسبقا من خلال متابعاته العلمية. وتقدم ببطء مأخوذا بتلك المناظر الغامضة، فأخذ جهاز التحكم عن بعد وأطلق الصوت فجاءه صوت كوكب المريخ في الفضاء. كان صوتًا خافتًا يشبه صوت الريح التي كانت تعصف أثناء الطريق، فضغط على الزر الذي يكتم الصوت فعاد الصمت إلى الغرفة.

انتبه إلى شاشة أخرى أدرك أنها تبث من تلسكوب هابل وهو يقترب من حلقات زحل وأخذ جهاز التحكم عن بعد (الريموت كونترول) وضغط ليستمع لصوت الكوكب المخيف، فأرعبه الصوت وكأنه ريح عاصفة تخترق كهفا أو نفقا غامضا، فضغط لإيقاف الصوت المخيف.

الشاشات الأخرى مستمرة في بث وقائع حياة الكواكب الأخرى. فجأة شعر بالتعب، فمرّ على جميع المناضد الموجود أمام الشاشات وضغط على زر الإطفاء فتوقف البث في جميع الشاشات ولم يبق سوى شاشة السقف التي لم يجد جهاز التحكم فيها. وبدون تفكير مسبق نزع حذاءه وجواربيه ثم نزع عن نفسه ملابسه كلها وألقاها إلى جانب السرير بالقرب من حقيبته الجلدية إلى أن تعرى تماما. أحس برائحة العرق العطنة تتصاعد من جسده. أخذ سرواله وفانيلته وقميصه مع جورابيه وتوجه إلى غرفة الحمام وأغلق الباب خلفه.

* * *

بقى آدم المجنون تحت دش الماء الفاتر فترة طويلة. ظل واقفا دون أن يفعل شيئا. الماء ينزل على قمة رأسه وكأنه يحرك له ذاكرته ويعيده لنفسه. غسل جسده جيدًا بما تواجد من مطهرات وشامبو. وحين خرج من تحت الدش وجد مناشف كثيرة، استخدمها في تجفيف جسده، ولبس بُرنسا قطنيا كان موجودًا، اقترب من المرآة فوجد أدوات حلاقة كاملة.

قبل أن يحلق ذقنه قام بغسل ملابسه الداخلية وجواربيه بالصابون المعطر والماء. عصرها ثم نشرها على مسند المناشف والمناديل.

حين انتهى من حلاقة ذقنه أخذ يغسل وجهه مما علق به من رغوة الصابون أثناء الحلاقة، وفي تلك اللحظات سمع طرقا على الباب، فجفف وجهه بسرعة وخرج من الحمام ليفتح الباب. وقف عند الباب من الداخل وأخذ ينظر في العين السحرية ليتأكد من هوية الطارق، ففوجئ حين رأى المرأة المحجبة في الثوب الأسود.

كانت هي تنظر في العدسة وتعرف أنه ينظر إليها. ارتبك من الموقف الذي هو فيه فأسرع إلى وسط الغرفة، خلع البرنس ولبس ثيابه القديمة مرة أخرى. وعاد ليفتح الباب.

حين فتح الباب لم يجد أحدًا، تلفّت إلى جانبيّ الممر فرأى ست نساء مقبلات من عمق الممر الطويل. اثنتان في ثياب الراهبات، وواحدة محجبة دونما عباءة، وأخرى تلبس العباءة العراقية واثنتان سافرتان، بملابس أوروبية. عرفهن بشكل غامض، لكنه استغرب اختفاء المرأة المحجبة في الثوب الأسود التي نزلت من القطار معه.

مرت النسوة من جانبه وهو لا يزال عند فتحة الباب. لم يلتفتن إليه، مررن وكأنه غير موجود. تتبعهن بنظراته حين تجاوزنه. وبهدوء أغلق الباب وعاد إلى سريره. نزع عن جسده ملابسه وتمدد على السرير عاريا.

انتبه للشاشة الهائلة التي تمتّد على مساحة السقف كله، والتي تجسد فيها مئات الشاشات الصغيرة التي تبث لجميع قنوات الأرض. ركز على الشاشات التي أمام عينيه مباشرة. ثمة شاشات تعرض انفجارات بركانية، وأخرى تعرض نمورًا تطارد ثورًا وحشيا، وأخرى تعرض إعلان عن «فندق الأرواح التائهة» من خلال مشهد فتيات مثيرات الأجساد في حوض سباحة الفندق. وأخرى عن اغتيال كاتب ملقى على رصيف مدينة ما، وشاشة أخرى تعرض ريبورتاجا عن مقابر جماعية وجدت في جنوب العراق، وشاشة أخرى تنقل وقائع احتفالات الألوان في الهند، وأخرى عن المقابر الفرعونية في وادي الملوك بالأقصر، ولم يستطع أن يتابع جميع الشاشات. فجأة انطفأت جميع الشاشات وصارت هناك شاشة كبيرة في مواجهته، وظهر فيها رجلان بمواجهته.

لأول وهلة لم يعرفهما. لكن كما حدث معه في الليلة السابقة حينما سأله المضيف آدم المطرود! انبثقت المعرفة مثل زر ضغط في ذهنه فأناره، فعرف أنهما آدم اللبناني وصديقه قابيل اللذان ماتا بحادث السيارة في «متاهة حواء».

على وجه آدم اللبناني بدت بعض الكدمات وبقايا جروح وعلى وجه صديقه قابيل آثار حروق. كانا يتحدثان إليه لكنه لم يسمع شيئا، إلّا إنه من خلال ملامحهما عرف أنهما غاضبان ويهددانه. لحظتها شعر بالانزعاج والضيق، لكنه لم يعرف كيف يطفئ الشاشة، فمد يده إلى الأعلى، بيد أن السقف كان عاليا، وفجأة، وجد أن يده تمتد طويلا إلى الأعلى لا إراديًا لتصل إلى السقف. ضغط على موضع الإغلاق، فانطفأت الشاشة وغرقت الغرفة في ظلام دامس. استغرب مما جرى، وحين تحسس يده، كانت كما هي في الواقع.

وخلال ثوان غاب كل شيء حوله في الظلام، شعر وكأن سريره يطفو على سطح بحر مظلم، وسقف الغرفة تكشف عن مجرة درب التبانة. كان يسبح في بحر الظلام، كان جزءًا من المجرة، ثم أسرعت الكاميرا لتستعرض ظلام الكون.. لا شيء غير الظلام.. محيط لا نهائي من الظلام!

* * *

أفاق آدم المجنون. فتح عينيه على سعتهما. نظر إلى سقف الغرفة فرأى سقفا جبسيا إعتياديا يحيط الغرفة بنقوش جميلة. وتتدلى منه ثريا هندية التشكيل بأذرع كثيرة تنتهي بمصابيح من النوع التي تسمى شيفا لتعدد أذرعها التي تنتهي بمصابيح، وكان النور يأتي من النافذة المفتوحة على شرفة واسعة، بينما هو كان عاريا كما رقد.

بهدوء تلتفت في الغرفة فرأى أنها رباعية الجدران وليست معينة بتسعة جدران كما رآها حين دخلها ليلة أمس، وهي خالية من الشاشات، بل ومزينة بلوحات مأخوذة من قصص رومانسية وتراث أسطوري.

نهض باسترخاء. كان عاريا بالكامل. ذهب بخطوات متوجسة إلى الشرفة. أطل منها ففوجئ بوجود بحر يمتد إلى أفق لانهائي يلتصق بالسماء في تماهي الزرقة، وسأل نفسه بدهشة «من أين أتى البحر ونحن كنا نمشي منذ يوم في البراري المقفرة والكثبان الرملية؟». انتبه إلى عريه فغادر الشرفة إلى غرفة الحمام.

حين خرج من الحمام كان قد ارتدى كل ملابسه التي جاء بها بعد أن غسلها، فلبس حذاءه ثم حمل حقيبته وغادر الغرفة.

استغرب حين رأى السجاد الذي يغطي أرضية الممر الطويل قد تغير لونه، فهو الآن أزرق لازوردي محاط من أطراف جانبيه بشريط برتقالي يميل إلى الوردي.

حين فتُح باب المصعد واجهنه النساء الست اللاتي رآهن في الممر ليلة أمس. لم ينتبه فاصطدم بهن، لكنه لم يشعر أنه أصطدم بأجساد مادية، فقد اخترقنه واخترقهن وكأنهن أجساد شفافة هوائية وهلامية. وحين صار في المصعد وبمواجهة الباب مباشرة لم يجد لهن أثرًا في الممر المقابل.

ما إن أغلق المصعد بابه وبدأ بالهبوط حتى أطفئت الأضواء فأحس آدم المجنون أنه يهبط داخل كهف مظلم يرافقه ذلك الصوت المخيف لكوكب زحل.

واستغرقت رحلة الهبوط من الطوابق التسعة في هذا الظلام فترة طويلة جدًا، وكأنها عمر بكامله. وطيلة الرحلة كانت رياح كوكب زحل المخيفة ترافقه.

وأخيرًا توقف المصعد وفُتح الباب. وجد نفسه في صالة الفندق الغامض، لكن صدْمته كانت كبيرة حين رأى النساء الست جالسات في لوبي الفندق. لم يكنّ يتحدثن في ما بينهن بل كن كتماثيل جامدة لا تتحرك. التفت إلى جهة الاستعلامات فرأى سيارتهما أمام باب الفندق، ولمح السائق الأخرس يجلس خلف المقود وهو ينظر إليه وكأنه ينتظره ويحثه على ركوب السيارة. خرج مسرعًا وحقيبته الجلدية على كتفه وكأنه يهرب من المكان.

ما إن أغلق الباب حتى انطلقا في طريقهما الغامض. استدارت السيارة في طريق حول الفندق من جهة الشرفة التي أطل منها على البحر، لكن الغريب أنه لم يرَ بحرًا، فالبراري المقفرة تمتد على مدّ البصر وتحيطه من كل جانب، وبدا الفندق كنتوء غامض في وسط هذه الصحراء الغريبة.

الفصل الثالث

الكلاب الآدمية.. وأنين قابيل الفهد

ساعات مرت وهم يقطعون الطريق في هذه الأرض المقفرة الجرداء. لم تكن الريح عاصفة ورملية هذه المرة. كان ثمة هواء ساخن يلفح وجهه، وكان راديو السيارة يبث موسيقى. فجأة، انقطعت الموسيقى ليبُث خبرًا عاجلا عن انفجار صهريج محمّل بالغاز عند أحد الأسواق التجارية الكبرى في منطقة الكرادة ببغداد واحتراق المئات داخل السوق وتلاشيهم بطريقة غامضة.

أثار الخبر في ذهن آدم المجنون انهمار صور وتداعيات مختلفة. تصور المكان لكنه لا يدري إن كان هناك! ففي ذهنه صور مختلفة لقارات مختلفة وهو لا يعرف بالضبط من أين جاء؟

فجأة، هبت روائح كريهة وعفونة، ولاحت أمام السيارة على بعد عشرات الأمتار نخلتان عجفاوتان وخرائب.

حين صارت السيارة على بعد أمتار سُمعت أصوات أنين تأتي من جهة الخرائب، فأوقف السائق الأخرس السيارة. نزل منها. توجه إلى جهة الأنين. سمع آدم المجنون الأنين لذلك نزل هو أيضًا. نظر السائق الأخرس إليه نظرة مستفسرة وكأنه يستنجد به، فتبعه هو، وحين وصل إليه تجاوزه وسار أمامه وهو يقول:

- هذا أنين بشري..!

هزّ السائق الأخرس رأسه موافقا وتبعه.

كان للخرائب بابًا خشبيًا محطما لا يحدّه سقف من الأعلى، لكنه يقود لغرف مهدّمة السقف. رفسّ آدم المجنون الباب بقدمه فانهار على الأرض. دخل بهدوء والسائق الأخرس خلفه. التفت إلى السائق قائلًا:

- انتبه من الأفاعي والعقارب، فالمكان مهجور، وهو خير مكان لها.

ولأول مرة ارتسمت ابتسامة مودة على وجه السائق الأخرس.

توغلا في المكان الخرب، كانت الروائح العطنة تملأ المكان، وكانت هناك أكثر من غرفة، بعضها مهدم السقف وبعضها عامر البناء. كانت الغرف مليئة بقضبان وآلات تعذيب، وحلقات لتعليق البشر وسلاسل، وأنواع من المناشير الحادة المختلفة الأحجام، ومطارق، ومسامير، وآلات كهربائية لقطع الخشب والحديد والعظام، ودماء جافة تلوث الأرض والجدران. وسمعا أنّات تأتي من الغرف الأخرى. ذهبا إلى هناك بتوجس لكن الغرف كانت فارغة، لا أحد فيها مع أن الأنين يصدر منها. شعرا بارتعاشة الخوف تسري في جسديهما فغادرا المكان.

حين صارا خارج المكان سمعا أنينا يأتي من جهة النخلتين العجفاوتين. اقتربا، فلم يجدا أحدًا لكن الأنين كان يأتي من بالوعة تطلق رائحة عفنة وكريهة، وثمة كفّ تعلو فوق سطح البالوعة.

ارتعبا أول أول الأمر. كانت الكف قريبة من حافة البالوعة. تردد آدم المجنون قليلًا، لكن ثمة جدحة سرت في مخيلته، فعرف من هو صاحب اليد، وبلا تردد أمسك بالكف الظاهرة وسحبها فخرجت من الوحل الآسن جثة رجل. وحين صارت الجثة على الأرض توقف الأنين في المكان كله.

التفت آدم المجنون إلى السائق الأخرس قائلا بحزن:

- هذا هو قابيل الفهد، مدير المدرسة الذي تم اختطافه وقتله تحت التعذيب بتهمة باطلة! مجرد تلفيق تهمة بأن له علاقة بإحدى النساء والتي هي زوجة أخ الذي قام باختطافه وقتله تحت التعذيب وإلقاء جثته هنا.. علينا أن ندفها.

هز السائق الأخرس رأسه موافقا. فسأله آدم المجنون وكأنه نسي أنه أخرس:

- هل لديك مسحاة أو رفشًا يمكننا أن نحفر له قبرا هنا وندفنه؟

هزّ السائق رأسه بنعم، وذهب نحو السيارة فتبعه آدم المجنون. فتح السائق الأخرس الصندوق الخلفي، فأخذ رفشًا صغيرًا، وبحث عن شيء ما ليمسح آدم المجنون يده، لكن آدم المجنون انتبه إلى أن يده غير ملوثة بوحل البالوعة، فقد اختفى الوسخ والوحل!

وحينما عادا إلى مكان الجثة لم يجدا شيئًا، نظرا كل منهما نحو الآخر بخوف، وعادا بسرعة إلى السيارة. صعد كل منهما إلى مكانه وانطلقت السيارة في حركتها المتهادية.

حين التفت آدم المجنون إلى الخلف لم يرَ النخلتين العجفاوتين ولا الخرائب والأطلال.

***

التعاطف الإنساني الذي أبداه كل منهما حينما سمعا الأنين كسر الحواجز النفسية بينهما. كان السائق الأخرس ينظر من خلال المرآة التي أمامه إلى آدم المجنون الذي كانت نظراته تائهة في اللامكان والزمان، بل كان واضحًا إنه لا يرى شيئًا، لأن عينيه تنظران لأعماقه.

ظلت السيارة تسير لساعات آخر، كانت الأرض حامية والشمس عامودية، وموجات الهواء تتكّسر مرئية في أمواج على مدى الأفق. فجأة انتبه آدم المجنون إلى مجموعة من الكلاب الشرسة الكريهة المنظر وبأحجام كبيرة تركض إلى جانبي السيارة على مسافة أمتار منها. عاد من سفر أعماقه إلى الواقع الخارجي، وركّز انتباهه على الكلاب الشرسة التي تركض على الجانبين.

كانت الكلاب تتشكل بشكل هلامي، فرؤوسها تبدو كلبية وفي لحظات تتشكل كوجوه بشرية شرسة بأجساد كلاب كبيرة الحجم على غير المعتاد.

كان السائق الأخرس ينظر للكلاب على الجانبين بلامبالاة. وكأنه اعتاد عليها أو أنه لا يراها، بينما كلما أمعن آدم المجنون النظر إليها كلما تعرف إليها وعرف أصحابها. فالكلاب التي تركض من جهة اليومين يتقدمهم الأمير وضابط المخابرات السابق قابيل العباسي، أما من جهة اليسار فها هو الحاج هابيل وخلفه آدم الأسير وكلاب أخرى. وكان لعاب الكلاب يسيل ويتطاير.

فجأة، ضغط السائق الأخرس على دوّاسة البنزين ليزيد من السرعة قليلًا. ومع أنها لا تسرع حتى بالضغط على دوّاسة البنزين إلآ إنها اجتازت السيارة الكلاب من الجانبين. التفت آدم المجنون ليرى من الزجاج الخلفي

للسيارة ما يجري، فانتبه إلى أن الكلاب توقفت عن الجري. تقابلت، وقفت للحظات تنظر لبعضها ثم فجأة قفزت كل مجموعة على الأخرى لتنهش بعضها بعضا.

ابتسم السائق الأخرس وهو ينظر إلى آدم المجنون من مرآة السيارة الداخلية. أحس آدم المجنون بالإرهاق. فكّر بما يستلم من رسائل غامضة عن أحداث ومصائر الشخصيات الافتراضية في «المتاهات»، وسأل نفسه: «هل هي حقيقية فعلًا بحيث من يُقتل في هذه الرواية تظل روحه هائمة إلى أن يتم خلاصها، كما جرى مع مدير المدرسة قابيل الفهد الذي كانت جثته قد أُلقيت في بالوعة موحلة بعد قتله؟ ثم كيف كان المهندس آدم المطرود يفكّر في حبيته حواء الصايغ وهو في العالم الآخر؟ ولماذا وأنا الذي لا أعرفهم ولم ألتق بهم، بينما حين أقابلهم وأفكّر فيهم تنبثق المعلومات عنهم في ذهني مباشرة؟ أأنا كاتب المتاهات الأصلي، بينما أعيش الآن حالة تشوش وفقدان ذاكرة؟ لا. هذا مستحيل، فربما أنا نفسي شخصية في رواية؟ فأنا لا أعرف أية بداية لي ولا سيرة تخصني. حياتي تبدأ بنزولي من القطار في محطة مجهولة، ولم يكن في القطار سوى سيدة في ثوب أسود! من هي يا تُرى؟ وإلى أين تذهب؟ وكيف كانت موجودة معي في القطار ثم اختفت فجأة؟»

تعب من التفكير وأرهقته الأسئلة. مدّ الحقيبة جانبًا واستلقى متخذًا منها وسادة وغط في نوم عميق.

الفصل الرابع

قاتل في محطة مهجورة

لم يصدق آدم المجنون حينما فتح عينيه أنه يسمع صوت قطار هادر يمر على سكّة حديدة. رفع رأسه قليلا لينظر من النافذة فوجد أن الليل قد هبط على هذا الكوكب الغريب، وأن السيارة تمر بجانب محطة قطار في الصحراء تضيئها بعض المصابيح الشاحبة، لكن لم يكن هناك أي قطار. والمحطة شبه مهجورة. ولولا وضعها غير المتآكل نسبيًا لظن أنها أطلال محطة.

خرج السائق قليلا عن مساره ليقف هناك. نزل عن السيارة. نظر إلى آدم المجنون نظرات من يطلب منه الخروج أيضا.

نزل آدم المجنون من السيارة، أخذ حقيبته الجلدية وعلقها على كتفه، وتبع السائق. حين صارا على رصيف المحطة لم يجدا أثرا لمخلوق أو لأيّ شيء يشي بأن المحطة تستقبل القطارات وأنها ليست مهجورة.

كان رصيف المحطة يمتد لتسعين مترا طولا وتسع أمتار عرضا. مسقفة بصفائح بعضها تخلخل وتهدل للأسفل. وفي وسط الرصيف ثمة غرفة مستطيلة، ربما كانت مكتبًا لإدارة المحطة أو قاعة انتظار أو كافتيريا صغيرة.

فجأة تلفّت آدم المجنون حوله فلم يجد أثرًا للسائق الأخرس فخمّن أنه في الغرفة، فتوجه إلى هناك.

حين دخل الغرفة المستطيلة دهش عندما رأى السائق الأخرس لم يكن وحده وإنما هناك رجل آخر يجلس صامتًا على كرسيه حول طاولة كبيرة تتوسط الغرفة. رجل وسيم، أنيق، كأنه أحد نجوم الدعاية في مجلة نسائية

إيطالية، بلحية خفيفة، يرتدي بلوفرا فاخرًا أصفر اللون وسروالا أسود، ولا يفعل شيئًا سوى الجلوس منتظرًا.

كانت الغرفة أشبه بكافتيريا. في زاوية تمتد مسطبة خشبية مفروشة بالسجاد الوثير بحيث يمكن الاستلقاء عليها. وفي عمقها مطبخ صغير لإعداد القهوة والشاي وبعض الأكلات الخفيفة.

انتبه إلى أن السائق يعدّ لنفسه قهوة ساخنة بالحليب. تبادل هو النظرات مع الرجل الوسيم الغارق في تأملاته. كان المكان دافئًا.

خلال ذلك جاء السائق الأخرس إلى حيث الكراسى حول الطاولة الكبير فصفّ ثلاثة منها وشكّل منها ما يشبه السرير واستلقى عليها مسترخيًا، بينما وضع هو حقيبته الجلدية على كرسي في الجهة المقابلة للرجل الوسيم، وجلس على كرسي المجاور. انتبه الرجل الوسيم له فتبادلا النظرات. فجأة سأله الرجل الوسيم: - هل أنت أيضًا جئت تبحث عنها..؟ أتريد أن تنتظرها هنا مثلي؟

استغرب آدم المجنون السؤال فرد مستغربا:

- أنتظر من؟

- حواء صحراوي.

- حواء صحراوي؟

- نعم..

- ولماذا انتظرها؟

- إذن أنت تعرفها..؟

- لا. لا أعرفها شخصيًا. أجاب آدم المجنون.

- لكنك لم تسأل من هي؟ يعني إنك تعرفها! قال الرجل الوسيم.

- أعرفها ولا أعرفها، أنا لم أقابلها، لكن ثمة حدس يخبرني بأني أعرفها، وأنها قُتلت، وجدت مقتولة في فندق ما بجزيرة إسكيا في إيطاليا..

صمت الرجل الوسيم للحظات وقال بنبرة باردة:

- نعم، وأنا الذي قتلتها.

لم يتفاجئ آدم المجنون، وإنما تأمل الرجل الجالس قبالته وسأله: - أأنت آدم دي ميتشي؟

- نعم، أو آدم أوستر في جواز سفري المزوّر! لكن كيف عرفتني؟

- لا أعرف كيف عرفتك! أنا لا أعرفك، لكن برق اسمك أمام عيني الداخلية الآن، لكن أخبرني.. لماذا قتلتها، وكيف؟

نظر الرجل الوسيم إلى آدم المجنون نظرة من يحاول أن يستذكر شخصًا لكنه لا يستطيع تذكره وقال: - سأروي لك كل شيء! ومع أمه لا رغبة لي بالحديث لكن أجد نفسي مدفوعا من قبل كائن ما بطريقة لا أفهمها كي أحدثك وأروي لك.. (صمت للحظات ثم واصل). ذات يوم جاءني رجلان عربيان، أحدهما اسمه قابيل الموسى والآخر اسمه آدم غضب الله، عرضا عليّ مبلغًا كبيرًا من أجل قتل امرأة ما، لكني لم أعرف إنني سأعشقها ومع ذلك قتلتها.

- كيف هذا؟ تعشقها ثم تقتلها!

صمت الرجل الوسيم ثم قال:

- سأروي لك ما حدث بيني وبينها، الحكاية طويلة. دعني أعدّ لنا كوبين من القهوة، فحديثي طويل.

ومن دون أن ينتظر رد آدم المجنون نهض عن كرسيه، غاب لدقائق في زاوية المطبخ، عاد بعدها وهو يحمل كوبين من القهوة المخلوطة بالحليب. وضع كوبًا أمام آدم المجنون وجلس هو على كرسيه حول المائدة ووضع كوبه عليها. ارتشف منه رشفة غامضة وقال: - الإنسان ذاكرة تمشي، بعض البشر ذاكرتهم شريرة، فهم نفوس لئيمة مهما أبدوا من لطف في التعامل اليومي. ذاكرتهم تنسى كل لطف وجمال قُدّم لهم! ولا تذكر سوى المواقف والأشياء التي يعتقدون أن الآخرين أساءوا لهم فيها! وبعضهم ذاكرتهم طيبة، متسامحة، ليس فيها سوى الجميل الذي أُسديّ إلهم، لذا ذاكرتهم تقودهم لتحسس الجمال والخير في الآخرين. بعضهم ذاكرته متعفنة. وبعضهم ذاكرته مخزن للأشياء القديمة والمهملة، فهي تضم جمل ومواقف من النادر الانتباه لها. وبعضهم ذاكرته مقبرة ليس فيها سوى الموتى وأشباحهم، بعضهم ذاكرته غابة، وبعضهم ذاكرته صحراء، وبعضهم جبال وبحار، بعضهم ذاكرته حديقة، وبعضهم ذاكرته مرحاض. بعضهم جحيمه هو الذاكرة. وبعضهم لا يعيش إلا في

فردوس الذاكرة. بعضهم ذاكرته غرفة وبيتا للكوابيس. بعضهم ذاكرته لم تغادر الطفولة. الذاكرة، آه من الذاكرة، بينما أنا ذاكرتي كابوس مرعب.

- لكنك وعدت أن تروي كيف التقيتها وكيف عشقتها وكيف قتلتها؟ سأل آدم المجنون بفضول مكتوم.

صمت الرجل الوسيم، وكأنه يحاول ترتيب حكايته في داخله قبل أن ينطلق في سردها، ثم قال: - كان أول اقتراب لي منها في ميناء مدينة ما، فقد عرفت أنها سافرت إلى إحدى الجزر. كنت معها على الطائرة نفسها، لكنها لم تلمحني، بل رأتني، ونظرت لي نظرة عابرة لكن فيها إعجاب. إعجاب أنثى بذكر، بيد أنها لم تكررها، إلى أن هبطنا في مطار تلك المدينة البحرية. ومن المطار تم نقلنا إلى الميناء الذي يقلنا إلى الجزيرة، الميناء كان مكتظا بالسائحين، بالكاد لمحتها، وفي الميناء حين اندفع الجميع للصعود إلى الباخرة التي تقلنا إلى الجزيرة وجدتها محصورة ضمن موجة الداخلين، فصرت خلفها بالضبط، وأطبقت بجسدي عليها بقوة من الخلف، استفزها ذلك لأنها ربما أحست بقضيبي يطبق على مؤخرتها. التفتتْ مستفزة إلى الخلف، نظرت إليّ كأنها تستفسر عن سر احتضاني لها بمشاكسة جنسية واضحة. كانت امرأة شهية، كنت أنظر لها بتصميم وسؤال غامض أن كانت توافق وتقبلني أم لا، لكنها لم تستطع أن تقول شيئًا، بل ولم تستطع أن تصمد أمام نظراتي الجسورة، لكن علامات الاستفزاز والنرفزة كانت واضحة على وجهها، فاستدارت بغضب، وحالما تحركت الجموع ثانية، وازدحمت أمام السلم القصير والضيق أكثر، حتى أطبقت عليها بالكامل، بل ضربت الشهوة في رأسي فأردت أن أمسكها في خضم الزحمة وأتلمس عريها وأتحسس نهديها، لكنها زحزحت نفسها قليلًا وانسحبت من أمامي فصرت أُدفع من قبل المتدافعين، وكنت مضطرًا إلى أن أصعد الباخرة، وهناك انتظرتها أن تصعد. لم أرها أول الأمر لكني في ما بعد وجدتها عند حافة الباخرة من الخلف، كان انغلاق السماء على البحر ورائحة الأمونيا والجزر المنتشرة التي تبدو كظلال قاتمة، والمدينة التي كانت تبتعد عن أفق الرؤيا، كل ذلك كان يهزني، لكني كنت مكتظًا بحضورها الأنثوي في اعماقي. حينها انتبهت إلى أننا كلما ابتعدنا عن الميناء تكشفت لنا معالم المدينة أكثر، فقد أخذت أرى قلعة المدينة القديمة، وانتبهت إلى أن المدينة تغفو على سفح جبل. فجأة رأيتها، كانت منحنية على السياج الخلفي للباخرة الصغيرة وهي تتأمل الزبد الذي يتشكل من حركة أجنحة الماكنات المغمورة تحت الماء للباخرة، وتتابع تلاشيه فوق سطح البحر شيئًا فشيئًا. كانت رغم صفاء البحر وانفتاح الأفق، تبدو ملامح الضيق على وجهها. كانت حزينة، لكنه ذلك الحزن الذي يمنح الوجه سموّا، وذلك الحزن الرومانسي الشفيف. كانت تتأمل الأمواج الهاربة والمندفعة نحو

الشاطئ الذي أخذ يبتعد شيئًا فشيئًا. فجأة، قلت لها: إن البحر جميل، فالتفتتْ بفزع نحوي وقالت بالإنكليزية: - عفوًا؟ ماذا قلت؟

- قلت إن البحر جميل لكنه يبعث على الحزن والوحدة.

نظرت إليّ دون رغبة حقيقية في أن تتواصل معي، ويبدو أنها وجدت نفسها مضطرة إلى أن ترد من باب اللياقة المفروضة، فقالت دونما اهتمام، وبشيء من الاستفزاز المبطن: - لكني لست حزينة.

ووجدت ذلك مدخلا جيدا للحديث فقلت لها:

- أعتقد إنك حزينة، لكنك لا تعرفين أنك حزينة.

- ماذا؟

ثم واصلت لترد عليّ:

- من أين جاءك هذا اليقين بأني حزينة، بينما قلت لك إني لست حزينة؟

ابتسمتُ مع نفسي لأني اقتحمت عالمها النفسي، وقلت:

- وجهك صريح.. صريح جدًا.

لم ترد عليّ بشيء، إذ كانت منشغلة مع نفسها، بل انتبهتْ إلى أنني قد انتبهت لانشغالها مع نفسها، فغضت نظرها متهربة من نظراتي الصريحة والمليئة بالرغبة. أحسستُ أنها تشعر بخوف ممزوج بضعف أنثوي لا إرادي فقالت دون أن تنظر إليّ: - ربما.. أقصد ربما وجهي صريح، مع أني أشك في ذلك، لكن من المؤكد بأنه لا يقول إني حزينة..

فقلت لها محاولا استفزازها:

- إنك تكابرين، وتهربين من نفسك، وأعتقد إنك جئت إلى هذه الجزيرة هاربة من نفسك، أليس كذلك؟

فردت بنبرة مستفزة وبغضب مكتوم:

- هذا غير صحيح.

قالت ذلك بنبرة مستفزة وبغضب مكتوم، ثم قالت وهي تنسحب من مكانها: - عفوًا، يجب أن أذهب.

استدارت مبتعدة عن المكان هابطة السلم وكأنها كانت تهرب من نفسها أكثر مما كانت تتهرب مني.

كنت مستمتعا بهذه المغارمة الرائعة. صحيح أنها مهمة قذرة وبشعة عليّ إنجازها، والمكافأة كبيرة جدًا، لكني شعرت بمودة وحب خاص نحو هذه المرأة التي تعيش عزلتها، وأنا أعشق الناس الذين يعيشون غربة وعزلة روحية، أحسهم أشقاء روحيين لي.

اتصالات زوجها المتكررة أرهقتني، ووضعتني أمام مسؤولية التنفيذ، بينما أنا على الرغم من مشاعري نحوها وجدت في هذه المشاعر ضعفًا لم أستسغه لنفسي، لذلك أردت أن أسحق هذه المشاعر وأقلعها من جذورها، وأصدّ هذا الجدول الرقيق من المشاعر الجميلة قبل أن يتحول إلى تيار هادر يجرفني، لذا قررت تنفيذ المهمة، وباليتني ما فعلت، وإلا ما رأيتني هنا انتظرها في هذه المحطة المهجورة إلى الأبد.

- وهل قتلتها؟ كيف؟ سأل آدم المجنون بنبرة فيها غضب مكتوم.

صمت الرجل الوسيم متقبلا نبرة الغضب المكتوم في صوت آدم المجنون بل ارتاح لها، ثم اندفع مسترسلًا: - نعم قتلتها، ويالبشاعة ما فعلت، ويا ليتني لم أولد أصلًا كي انتهي هذه النهاية البشعة! ذات ليلة قررت إنجاز المهمة، فانتظرتها بالقرب من باب جناحها، وحين خرجت من المصعد أطفأتُ الأضواء في الممر، ارتبكت هي، فأسرعت نحو باب جناحها. وما إن وضعت المفتاح في قفل الباب حتى قفزت من زاويتي وأطبقت عليها ماسكًا فمها. لا أعرف لِمَ راودتني رغبة عارمة في أن أخترقها، فما إن أطبقت عليها حتى أخذت يدي تجوس في جسدها اللدن. يدي امتدت إلى داخل قميصها لتقبض على نهديها وتعصرهما، وبأصابع كفي أداعب حلمتيها، ثم تنسحب كفي لتمتد إلى ما بين فخذيها وتداعبه بقوة. لم يكن بإمكانها أن تصرخ. أحسسّت بمعرفتي الغريزية أنها ترفض ذلك لكنها لا تقاوم. وخلال لحظات سحبت يدي وأدرت المفتاح، فتحت الباب ودخلت معها وهي في أحضاني إلى الجناح، ثم أغلقتُ الباب. قدّتها مباشرة إلى غرفة النوم في الظلمة، وألقيت بها على السرير، لم أتركها، وإنما ضغطت بكل ثقل جسدي عليها. أحسست برغبة عارمة، قضيبي بدأ ينتعظ، ووجدتُ وجهي قريبًا من وجهها بل وأنفاسي تلفح أذنيها. كانت تفوح منها رائحة عطر مثير. (صمت للحظات وكأنه يسترجع تفاصيل ما حدث ثم واصل).. لا أدري بماذا كانت هي تفكر في تلك اللحظات،

لكني انتبهت إلى أنها قررت ألّا تقاوم. أنا نفسي استغربت من نفسي. كنت وكأنني لست ذاك القاتل الذي قرر تنفيذ مهمته. أحسسّت بأن هذا الرجل الذي تحته ترقد امرأة مثيرة ويرغب فيها هو ليس أنا، وأنني تحولت إلى روح تطل من سقف الغرفة لتراقب هذا الرجل، الذي هو أنا، وما سيفعله مع هذه المراة المثيرة. كنت كما قلت لك قد تحولت إلى عينين تنظران من سقف الغرفة المظلمة لما يجري على السرير، وبسرعة رأيت كفّ الرجل الذي هو أنا ترفع ثوبها من الأسفل إلى الأعلى، ثم تمتد يده إلى سروالها من الأمام، وتسحبه إلى الأسفل. أذكر أنها كانت طرية، لكنها كانت أيضًا صامتة كصمت الحملان تنتظر اغتصابها. وفي لحظة انقلب كل شيء، فقدّتُ رغبتي في الولوج فيها. مرّت بضع دقائق دون أن يحدث أي شيء، حتى أحسست وكأن الأمر ليس أكثر من كابوس، إلا أن هذا الإحساس تلاشى فجأة أيضًا، انسحبت عنها، وقلت لها:
- رتّبي حالك، واجلسي أمامي، أريد التحدث معك.

قبل أن تستدير أدركت أنها عرفتني من نبرة صوتي على الرغم من الظلام الموجود في الغرفة. كنتُ في تلك اللحظات أمتلك القدرة على قراءة أفكارها، ولأنها عرفتني فلماذا أفعل ذلك في الظلمة؟ قمتُ نحو مصباح جانبي على الطاولة فضغط على زر فأضاء الغرفة بنور شاحب. حينها رأتتني. كنت بهذه الملابس نفسها، بلوفر أصفر اللون وسروال أسود. كنت جالسًا على المقعد القريب من السرير، في مواجهتها، وإلى جانبي على الطاولة المجاورة، مسدس كاتم للصوت بماسورة طويلة. انتبهتُ إلى رجفة سرت في جسدها المثير. ربما عرفتْ أنني لستُ مغامرًا أريد اغتصابها وإرواء رغبتي الجنسية فقط، وإنما أنا قاتل. ومع هول الموقف إلا إنها أخذت تتأملني بسرعة، فسألتها: - هل تعرفينني؟

- لا..

- انظري جيدًا..

أخذت تحدق بارتباك قالت متمتمة بخوف مكتوم:

- نعم، أعتقد أني رأيتك في الباخرة العبارة، وكنت معنا في الرحلة من لندن أيضًا.

- إذًا لقد عرفتني.

- نعم، تذكرتك، لكني لا أعرفك.

نظرتُ إليها باستغراب ممزوج بإعجاب، وقلت:

- أنت دقيقة جدًّا. تذكرتني لكنك لم تعرفيني. هذا دقيق جدًّا.

سادت بيننا لحظات من الصمت، أرادت هي أن تعبّر عن احتجاجها لما يجري، لكنها كما يبدو امرأة ذكية فقد أرادت ربما أن تتدبر الأمر بشكل أفضل. لا أعرف لماذا أشفقت عليها، إذ أحسسّتها لا تعرف شيئا عمّا ينتظرها، ولا ولماذا يجري كل هذا معها، وراودتني رغبة أن أكشف لها قبل موتها حقيقة ما يجري فسألتها: - هل سألت نفسك بأن لقائي معك في الأماكن التي تواجدنا فيها كان مجرد مصادفة؟
صمتت للحظة ثم أجابت بصوت هادئ مع شيء من الارتجاف:

- لا أعرف.. ربما، أفترض أننا مصادفة التقينا في هذه الجزيرة. أليس كذلك؟

- لا، ليس كذلك؟

- ماذا تقصد؟ سألت متفاجئة.

وقبل أن أجيب استرسلت بأسئلتها:

- من أنت؟ وماذا تريد مني؟ وكيف تجرأت أن تهاجمني هكذا؟ من أنت؟

قالت ذلك وهي تستقر بشكل أفضل في جلستها، وأرادت أن تقوم لإضاءة الغرفة من خلال المصباح الرئيسي فيها، إلا أنني أمسكت بالمسدس في يدي، وقلت لها بحزم وبلهجة آمرة: - أرجو أن تجلسي في هدوء، ألّا تقومي بأية حماقة تندمين عليها. ما ضر لو تحدثنا هكذا على ضوء هذا المصباح. أتحبين الأضواء إلى هذه الدرجة؟

نظرت إليّ بتوتر، وقالت:

- من أنت حتى تهجم علي وتقتحم جناحي وتفرض عليّ الجلوس بهدوء؟ أنا يمكن أن أصرخ طالبة النجدة وعندها يتم القبض عليك، أتريد أن أقوم بذلك؟

نظرت إليها مبستما وقلت لها متحديًا:

- أطلبي المساعدة، وستكونين قد اقترفت الخطأ الأكبر في حياتك.! هل تريدين الصراخ؟ اصرخي، إن استطعت. اطلبي المساعدة، إن استطعت.

وفعلا حاولت هي أن تصرخ إلا أن فمها بقي مفتوحًا دونما صوت. أحستْ بأنها عاجزة حقًّا عن القيام بأي شيء، فقالت باستسلام ونبرة فيها يأس واضح: - من أنت؟ وماذا تريد؟ أتريد مالًا؟ قل لي. سأساعدك.

نظرت إليها نظرات مليئة بالفضول والشفقة لأنها لا تدري ماذا ينتظرها أو من أرسلني لقتلها، وقلت: - لا أحتاج للمال، لدي منه الآن، أو سيكون لديّ منه الكثير.

- ماذا تريد إذًا؟ ومن أنت؟

نظرت إليها بتركيز، وقلت بهدوء:

- أنا قاتلك.

- ماذا؟

صرخت هي بصوت عال دون إرادة منها، وأرادت أن تقفز خارج الغرفة، إلا أنني كنت أسرع منها ووقفت في طريقها عند فتحة الباب. لحظتها فقط أحستْ بالخطر، وبرعشة هزت أعمق أعماقها، فقد رأت قسوة الموت البارد تشع من نظراتي، وأدركتْ أن هذه اللحظات الغامضة تختصر كل حياتها، لكنها لم تفهم لماذا.؟. لذلك رجعتْ بخطوات مرتبكة إلى الوراء وجلست على حافة السرير. جلستُ أنا على المقعد المقابل. نظرت إليها متأملًا جسدها المثير، ونهديها اللذين تمردا على الثوب فبرزا من حافته، ولكي أطرد رغبتي فيها سألتها: - من المؤكد أن تسألي نفسك: من هو هذا الرجل؟ ولماذا يريد قتلي؟

أحسستُ بارتعاشة جسدها وارتجاف ملامحها حينما سمعت جملتي: أريد قتلك، ولم تجب، لذا واصلتُ كلامي بهدوء شديد وكأنني مع صديق في جلسة عائلية، وقلت لها: - أنت لا تعرفينني، ولم نتقابل ونتحدث سوى هنا في هذه الجزيرة، لكنني أعرفك، وكنت أنتظرك، بل وجئت معك من لندن لهذا الغرض، وكان عليّ تنفيذ هذا الأمر أول وصولك، لكني لم أنفذ ذلك. هل تعرفين لماذا؟

لم تستطع حواء صحراوي أن تجيب، كانت كلماتي ترعبها، لكنها كانت تحاول أن تفهم شيئًا مما أقول وتفسره وفق تفاصيل حياتها وذاكرتها، لكني وفي لحظة ما قررت أن أبوح لها بمشاعري فقلت لها: - لأني أحببتك، وهذه أول مرة في حياتي أتعاطف مع ضحيتي.

- أحببتني.. أحببت ضحيتك؟

نطقتْ تلك الكلمة بصوت مبحوح، مخنوق، بالكاد يُسمع، وبنبرة ما بين الغرابة والسخرية. نظرتُ إليها، وقلت: - نعم ضحيتي، أنا القاتل المكلّف بقتل إنسان ما، وهذا الإنسان هو أنت. أنا القاتل وأنت الضحية، هذا الأمر لا يحتاج لتفسير طويل، لكنك ربما تريدين أن تعرفي لماذا أريد قتلك، أليس كذلك؟

فتمتت بصوت مخنوق وخافت ويائس:

- نعم

- لأن زوجك، أو بالأحرى طليقك العربي يريد ذلك.

- زوجي السابق؟ قابيل الموسى؟

قالت ذلك برعب. فنظرت إليها هازًّا رأسي بالتأكيد، وواصلت موضحًا: - نعم، هو، وقد التقيته مرات عديدة في لندن، قبل أسبوع، لقد كلّف هو جهةً ما للقيام بهذه المهمة، وهؤلاء فاتحوني بإنجازها، فقابلته، فأنا قاتل محترف.

فقالت في يأس:

- لكن لماذا؟ لماذا يريد قتلي؟ ألم يكتفِ بأن دمّر حياتي؟

- زوجك إنسان مريض نفسيًّا.

فقالت بنبرة حاسمة:

- إنه ليس زوجي، إنه طليقي.

- نعم، طليقك، على أي حال، لقد قابلته في مانشستر وليس في لندن، إنه إنسان صفراوي، لئيم، فظ، وتافه. خمّنت أنه يحقد عليك ويريد القضاء عليك لأنك عقدة حياته. إنه ضعيف أمامك. لحظتها لم أعرف لماذا هو ضعيف أمامك، لكني منذ أن رأيتك في المطار راودني إحساس وحدس غامض أشبه باليقين من السبب، لكن أسألك: أظن أنه لم يستطع أن يمتلكك كرجل، كان عاجزًا أمامك، وهذا ما أشعَره بضآلته أمامك؛ لأنه لم يستطع أن يمتلك جسدك، أصحيح حدسي؟

كانت هي صامتة. وبعد لحظات، وربما أحسّت بأن ثمة بارقة أمل بين ثنايا كلامي من خلال اعترافي بحبي لها، ولاحتقاري الواضح لطليقها وتشخيصي الدقيق له، فقالت بنبرة حزينة: - نعم. صحيح لحد ما، فقد كان محبطًا وعاجزًا في ليلة الزفاف، وأعرافنا تقتضي أن يكون هناك دم البكارة. ولم يستطع برغم محاولاته.

راودني الفضول حينها فاندمجت مع توضيحها فسألت:

- وكيف تم الخروج من المأزق؟

وبتلقائية قالت:

- لقد اخترقني بإصبعه.

ولا إراديا قلت:

- ياللتافه!

وربما أحست هي بنبرة الاشمئزاز في صوتي، فأرادت أن تكسبني إلى جانبها من خلال إخباري بقصتها هي وليس ما سمعته من طليقها عنها فقط، فقالت: - لقد دمّر حياتي، حوّل حياتي إلى جحيم، صرت أكره حياتي، إنه يتبعني مثل ظلي، بل إن ظلي يختفي في الليل وفي الظلمة، بينما هو يلاحقني حتى في الليل، بل يلاحق كل من أعرفه أو أتعرّف عليه، ويؤذي بعضهم لحد القتل، أنا مرهقة للغاية. في أعماقي روح هرمة، حتى أني صرت أتمنى الموت، وها هو جاءني، لكن ليس برغبتي بل برغبته هو، وهذا ما يضايقني.

كنت أنظر إليها بتمعن وأدرس نبرة صوتها وكلماتها وتعابير وجهها لأعرف صدقها من ادعائها، علمّا أن حدسي كان يمنحني اليقين بأنها صادقة، وأن ما تقوله مجرد كلمات لا توازي فعل المعاناة الحقيقي الذي مرت بها. واستمرت بيننا لحظات صمت، لكني مع ذلك كنت أمام مهمة، لذا قلت لها وكأنني أبرر لها نية قتلي لها: - اسمعيني أيتها السيدة. أنا قاتل محترف، لكني لستُ قاتلًا بطبعي؛ أقصد أنني اتخذت هذا الأمر مهنة بعد أن أردت أن أصل إلى سر الحياة ولغز الموت، لا تستغربي، أعرف أنك حاصلة على دكتوراه في الآداب ومتخصصة في شكسبير؛ لذلك قبلت هذا التكليف مباشرة، لأنه كان لديّ يقين غامض بأن هذه المرة الأمر مختلف. شخصيًّا عرفت الأديان كلها، لكنها زادتني حيرة، بل سهلت عليّ القتل؛ لأن جميع الأديان تدعي امتلاك الحقيقة الكلية، وبالتالي لا قيمة لأبناء الديانات الأخرى، فهم حطب لجهنم، وقرأت الكتب المقدسة للأديان الثلاثة فصادفت فيها كمًّا هائلًا من الهراء واللغو والتناقض التافه، ولا أستطيع أن أفهم كيف أن مليارات البشر يؤمنون بها؟ أنا أجد أن الأديان صارت مهمتها إدارة الشر أكثر مما تسعى لتفجير ينابيع الخير في أعماق الإنسان كما تدعي، حتى الخير في الأديان ليس إلا صفقة تجارية تنجي الناس من عذاب أليم، وتبيعهم صكوك الغفران، وتعدهم بجنة الملذات، بالنساء والغلمان.. ثم توجهت إلى التصوف فرأيت أنه يدعو إلى امحاء الذات، إلى البلادة وعدم التفكير، وإطفاء الشهوات، بحيث يتحول

الجسد إلى آلة عفنة لعمليات التغوط والتبول، هذا جنون مطبق، ما الحياة إذن؟ أنا ضميري أعمى، بل هو أخرس، وأطرش، فهو لا يسمع شيئًا، ضميري يوحي إليّ أحيانًا بأن كل شيء مباح، فهو لا يؤمن سوى بالعدم، إنه مشدود إلى العدم، إنه يستمد معنى الوجود من العدم، ضميري يسخر من كل شيء اسمه الأخلاق؛ لذا لا أرى في القتل جريمة، إنما نقطة في نهاية سطر لحياة بشرية تافهة، وطي صفحة لصراع تافه. لا تستغربي، إذا ما قلت لك إنني أرحم ضحاياي، لكن ذلك يكون بإيجاد أسهل الطرق وأسرعها للموت، ولم يحصل قط أن تعاملت مع ضحاياي بشكل عاطفي، كما يحدث معي الآن، معك. لا أدري، أعتقد أن النساء كائنات غامضة، ليس كل النساء طبعًا، فهناك نساء تسكنهن الشياطين، إنهن كقطيع من ضباع نتنة تفتش عن الجثث العفنة كي يقمن ولائمهن الحقودة، لكنك امرأة مختلفة.

في تلك اللحظات قاطعه آدم المجنون قائلا:

- أعرف كل الكلام الذي قلته لها في تلك اللحظات، وأعرف أنك ومنذ ذلك اليوم وجدت نفسك هنا في هذه المحطة المهجورة تنتظر حواء صحراوي التي قيل لك إنها نزلت مع نساء أخريات في «فندق الأرواح التائهة»، وأنت الآن تنتظر القطار المجهول الذي عليه أن يأتي ليقِّلك إلى هناك.

- من أنت؟ سأل الرجل الوسيم مستغربًا.

- أنا آدم المجنون..

- يبدو أنني الآن صرت مجنونًا وليس أنت! إذ كيف تعرف كل هذا وكل ما حدث!؟.

- لا أعرف كيف عرفت!! كل ما رويته أعرفه وأعرف ما بعده..!

- أنت تخيفني.. إذن تعرف مصيري أيضًا وما جرى معي!؟.

- نعم..

- هل جئت لقتلي هنا أيضًا..!

- لا. لا. لست قاتلًا.. أنا آدم المجنون..!

صمت الرجل الوسيم لدقائق وفي عينيه خوف وتوجس. لم يقل شيئًا، وبحركة هادئة قام عن مكانه واتجه إلى الزاوية التي فيها المسطبة المغطاة

بالسجاد الوثير، واستلقى عليها. وضع ذراعه على جبينه مغطيًا وجهه، لكن عينه كانت تراقب آدم المجنون.

لم يكن أمام آدم المجنون سوى أن يصفّ بعض الكراسي كما فعل السائق الأخرس وأن يمدد جسده عليها، وضع الحقيبة الجلدية كوسادة له.

كان الليل ثقيلا، وبدأت عاصفة تهب وتضرب زجاج النافذة الوحيدة في الغرفة المستطيلة وتهز باب المدخل، فقام آدم المجنون ليغلق الباب لكنه صُدم برعب حينما وجد ذئاب فسفورية العيون تقف أمام باب الغرفة، فأغلق الباب بالرتاج الداخلي. وعاد إلى حيث سرير الكراسي الذي أعدّه لنفس وهو يغوص في عيون الذئاب الفسفورية في ذهنه.

* * *

حين أفاق آدم المجنون صباحا. سمع ضجيجا في زاوية المطبخ. نهض عن مكانه فوجد السائق الأخرس يعد قهوة بالحليب لكليهما، ولم يكن ثمة أثر للرجل الوسيم أو القاتل الفيسلوف. أشار للسائق الأخرس برأسه نحو مكان القاتل الفيلسوف الذي اختفى، فأشار السائق الأخرس إلى ورقة على الطاولة الكبيرة. أسرع آدم المجنون لأخذ الورقة فقرأ سطرا واحدًا: جاء قطيع الذئاب ليأخذني إلى حيث حبيبتي حواء صحراوي، إلى «فندق الأرواح التائهة».

لم يستمر بقاؤهما في المحطة طويلا، فبعد قليل من ذلك، غادرا الغرفة المحطة المهجورة. صعدا سيارتهما وواصلا السير إلى اللامكان.

الفصل الخامس

إيمانويل كانت والراهب في الدير الغامض

ظلت السيارة تقطع هذا الطريق المقفر دون أن تصل وجهتها. كان آدم المجنون مشتّتا ويحس أنه بلا ذاكرة، لكنه في الوقت نفسه يرى كل شيء وكأن وميضًا أو برقًا أو رسالةً تصله بكافة المعلومات والصور في المواقف المفاجئة عن الأشخاص والأحداث التي تواجهه في كل موقف.

فكّر مع نفسه بأن كل الشخصيات والأحداث التي يواجهها لها علاقة بسلسلة رواية «المتاهات» التي أعلن في قسمها الأول بأن كاتبها هو آدم البغدادي، لكنه في الحقيقة ليس آدم البغدادي، فالكتّاب الوهميون للمتاهات يتناسلون أيضا مثل شخصياتها، واحد يجر الآخر.

«لكن ما علاقتي بكل هذا..؟» سأل آدم المجنون نفسه! وفجأة، برقت في ذهنه خاطرة، فهو يحمل معه حقيبة مليئة بالمخطوطات، لكنه يجهل أي شيء عن هذه المخطوطات. وبلا تردد مدّ يده فأخرج مخطوطة سميكة قرأ عنوانها مباشرة «متاهة العدم العظيم»، لم يدوّن عليها اسم الكاتب، وقبل أن يتصفحها توقفت السيارة بشكل مفاجئ، فطوى المخطوطة وأرجعها للحقيبة الجلدية، ونظر إلى السائق الأخرس مستفسرًا. الآخر لم يجبه وإنما نزل وفتح غطاء السيارة الأمامي.

نزل آدم المجنون من السيارة أيضا ومضى إلى حيث السائق الأخرس فعرف أن السيارة ساخنة وتحتاج للماء كي تبرد.

التفّ السائق الأخرس حول السيارة وفتح الصندوق الخلفي وأخرج صفيحة متوسطة الحجم. هزّها فعرف أنها فارغة. ظل واقفًا للحظات والحيرة والضيق يتجسدان في نظراته ووقفته.

جاء إلى مقدمة السيارة ووقف بالقرب من آدم المجنون، وأخذا يدوران بنظرهما في الأفق. فجأة، أشار السائق الأخرس إلى ما يشبه البناء في الأفق، بناء يتلألأ وكأنه خداع بصري وسراب، لكن بعد لحظات اتضح أنه بيت مسوّر صغير وسط هذه القفار، بيت كالح كالقفار نفسها، فاتجها نحوه.

مشيا طويلا، أنهكهما التعب. التفتا إلى الوراء فاكتشفا أنهما ابتعدا بحيث لا يمكنهما رؤية سيارتهما، بينما المبنى لا يزال بعيدا. «كيف رأيناه من بعيد ونحن قرب السيارة بينما لم نعد نرى السيارة ونحن في منتصف الطريق؟» سأل آدم المجنون نفسه، لكنه فكّر مع نفسه ربما بسبب السراب الذي قرّب المبنى منهما وهو في الواقع ليس بقريب.

مشيا طويلا حتى بدأت الشمس تهبط إلى ما وراء الأفق، وأقبل الغروب بهدوء بينما المكان لا يبدو قريبًا، بل صار المبنى يميل إلى العتمة. ثم فجأة وجدا نفسيهما على مقربة أمتار منه. حين اقتربا أكثر تبيّن لهما وكأنه دير مهجور مبني من الحجارة الصخرية، واستغربا أن يكون هنا في هذه البراري المقفرة صخر وحجارة صلدة.

كانت بوابة السور العالي نسبيا خشبية ومرصعة بمسامير صدئة، ويتدلى من وسطها مقبض على شكل قرص حديدي. مسك آدم المجنون القرص وأخذ يطرق فيه على الباب.

لم تمض سوى دقائق حتى فتح الباب رجل يبدو أنه في الستين من العمر، يرتدي جلبابا أسود طرازه يشي إلى أنه راهب لكنه لا يضع صليب الرهبان حول عنقه ليتدلى على صدره إشارة لشخصيته، وبدا برغم العتمة أبيض الشعر ولحيته بيضاء وقصيرة جدا وكأنه لم يحلقها منذ أيام قليلة، مهموم الملامح لكن وجهه يشي بوسامة محببة، يبدو وكأنه يفكّر بأشياء بعيدة عن مسألة حضورهما، بل وكأن حضورهما عاديًا وأليفا ومكررًا لذا لم يستغرب رؤيتهما.

نظر الراهب إليهما متأملا لثوان، وكأنه عرفهما، إذ ابتسم لهما مرحبًا وهو يقول:

- أهلا بكما تفضلا..

اجتازا الباب فوجدا نفسيهما في باحة عريضة مكشوفة للسماء يتوسطها طريق حجري ليس بالعريض يقود إلى قاعة وحيدة في عمق المكان، وعلى جانبي الطريق الحجري تمتد حتى السور من الجانبين مزرعة صغيرة لمختلف أنواع الخضروات. ارتسمت علامات التساؤل على وجهي آدم المجنون ورفيقه الأخرس وكأنما كانا يفكران بشيء واحد هو: كيف يأتي هذا الراهب بالماء لسقي هذه المزرعة وسط هذه القفار؟.

انتبها إلى أن الراهب يقف منتظرًا وهو يبتسم وكأنه خمّن بماذا يفكران. شعرا بالإحراج وسارا خلفه. اجتاز الطريق الحجري الذي لا يتجاوز عشرة أمتار وصولا إلى باب القاعة الضيق، وهناك تمتم الرجل الراهب قائلا:

- «ادخلوا من الباب الضيق، لأنه واسعٌ البابُ ورحبٌ الطريقُ الذي يؤدي إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين يدخلون منه. ما أضيقَ البابَ وأكربَ الطريقَ الذي يؤدي إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه».

فالمتعت في ذهن آدم المجنون الصفحة التي ورد فيها هذا النص فقال موضحا:

- هذا من الإصحاح السابع، الآية الثالث عشرة والرابع عشرة من إنجيل متى.. أليس كذلك؟

التفت الراهب إليه وقال:

- أحسنت يا بني..

ودخلا إلى القاعة. كانت مضاءة إضاءة شديدة. انبهر آدم المجنون حينما رأى أنها لم تكن غرفة عادية وإنما قاعة فيها مكتبة ضخمة وواسعة أكبر من الحجم الذي بدت عليه من الخارج. كانت تمتد لعشرات الأمتار طولا، وكل الأرفف مرتبة ومنظمة. في مقدمة القاعة مساحة واسعة اتخذت كصالون حيث تتوزع الصوفات والمقاعد الجلدية الوثيرة، ولا شعوريًا تذكر كوخ المهندس آدم المطرود الغامض الذي صادفه في الطريق.

دعاهما مضيّفهما للجلوس فجلسا. ذهب هو إلى زاوية قريبة، وفتح ثلاجة كبيرة رصاصية اللون وأخرج منها قنينة ماء بارد، ثم فتح خزانة قرب حوض غسيل للصحون فأخرج ثلاثة أقداح وضعها في صينية وصب الماء في الأقداح ثم حمل الصينية وجاء إليهما، وخلال ذلك كان آدم المجنون يتابعه بنظره ويفكّر «من أين له الماء والثلاجة والكهرباء وهو في هذا البراري

المقفرة؟ ثم من أين جاء بكل هذه الكتب وهذه القاعة المضاءة إضاءة باهرة وهذا الأثاث الحديث الطراز، حيث يبدو وكأنه يعيش على سطح كوكب آخر؟».

وقطع عليه أسئلته الداخلية ابتسامة الراهب وهو يضع الصينية على الطاولة التي أمامهم. ارتشفا رشفات طويلة من الماء البرد الذي أنعشهما بعد أن قطعا ساعات من المشي. فجأة سأل آدم المجنون بفضول وتردد:

- هل تعيش هنا وحدك يا أبانا؟

ابتسم الرجل الذي في جلباب الراهب وقال:

- لم أعد أبًا لأحد..

- كيف؟ أرى أنك تلبس جلباب الرهبان!

جلس الرجل في جلباب الراهب قربهما وقال بلطف ومودة:

- كنت كذلك، لكن بعد أن قابلت الرجل الأشقر الوسيم، وغلبني بعد أن هزّ قناعاتي وزرع الشك في داخلي، تركت كل شيء، وجئت هنا لأعيش وحدي، بل مع أصدقائي (وأشار إلى المكتبة) من الكتاب والمفكرين والفلاسفة والعلماء.

- ومن هو ذلك الرجل الشقر الوسيم؟ وكيف غلبك وهز قناعاتك!؟ سأل آدم المجنون مستفسرًا.

- إنها قصة طويلة.

- بودي أن أسمعها، علما أنا الآن أرى ما يشبه الرؤيا بأنك كنت في فندق ما بمدينة دمشق، وقابلت ذلك الرجل الأشقر الوسيم، ودار بينكما حوار طويل، لكن لا أعرف بالضبط ما حدث.

نظر الرجل الذي في الجلباب الأسود إليه بتمعن وسأله:

- من أنت؟

ارتبك آدم المجنون من السؤال المباشر وقال بانكسار وكأنه يدفع عن نفسه تهمة:

- أنا.. أنا لا أحد.. أعتقد أن اسمي آدم المجنون أو هكذا أريد لي أن أكون.

- من أراد لك ذلك؟ سأل الرجل بتوجس.

ارتبك آدم المجنون أكثر وشعر وكأنه في جلسة تحقيق غير مستحبة فقال:

- لا أعرف.. وجدت نفسي أنزل من قطار مجهول لم يكن فيه سواي وسوى امرأة بثوب أسود، هي غادرت في سيارة سوداء مظللة، وأنا رأيت هذا الرجل (وأشار إلى السائق الأخرس) في انتظاري. لا أعرف من أين أتيتُ ولا أين أذهب. قابلت رجالا ونساء لا أعرفهم، لكن لحظة المواجهة معهم يحدث أن تهبط عليّ المعرفة بهم بطريقة تشبه الرؤيا كما حدث قبل لحظات معك! إذ ترآى لي وكأني رأيتك في بهو فندق مفتوح ومعك حول الطاولة رجل أشقر وسيم.

صمت الرجل للحظات وأطرق برأسه مفكرًا في ما قاله آدم المجنون. فجأة، نهض عن الصوفا وقال لهما بحيوية مفاجئة وبنبرة مرحة ودودة:

- من المؤكد أنكما جائعان. فقد قطعتما مسافة طويلة، وستبيتان الليلة عندي هنا، وصباحا تذهبان إلى سيارتكما. لحظات وسيكون الطعام جاهزا. الحقيقة لقد راودتني رؤيا أو هاجس بأن أطبخ لأكثر من شخص، وكأني كنت أتوقع حضوركما، ويسرني أنكما هنا! على الأقل أسمع صوتا بشريا، فأنا أعيش مع أصدقاء لا يتكلمون بالصوت وإنما بالكلمات.

كان السائق الأخرس قد تمدد بكل جسده على الصوفا المقابلة، بينما ذهب الرجل المضيف ليأتي بالطعام، ولم يكن بعيدًا عنهما. بقى آدم المجنون جالسا يتنقل ببصره في أرجاء المكان، فجأة، حانت التفاتة منه إلى طاولة صغيرة قريبة من نهاية الصوفا وعليها كتب، فاقترب منها. انتبه إلى أربعة كتب متوسطة الحجم. أخذ يتصفحها بصمت. فجأة، سمع صوت مضيفهما يضع صينية الطعام على الطاولة حيث كانت أكلاته الشهية كلها موجودة، الرز ومرق الفاصوليا البيضاء، وصحنا من الباذنجان المحموسة بالبصل والدهن والبهارات، وصحنا آخر فيه طماطم قد قطعت مع البصل والبهارات والثوم أيضا وأقراص رغيف ساخن.

ترك هو الكتب وأخذ يساعد مضيّفه في إعداد المائدة حيث وزّع الصحون على المائدة. وخلال ذلك جاء السائق الأخرس إلى المائدة أيضًا وأخذ يفرغ الصينية من صحون الطعام ويضعها على الطاولة العريضة التي أمامهم.

وحين أفرغت الصينية وضعها الرجل المضّيف على مبعدة منهم، وحرّك مقعده مقتربا من الطاولة بحيث صاروا يتقابلون عند الأكل.

بدأوا بصب الطعام لأنفسهم كل في صحنه، لكن قبل بدء الأكل قال آدم المجنون:

- لدي فضول لمعرفة كيف غلبك الرجل الأشقر الوسيم، ودفعك لهذه العزلة المخيف، بينما أنت رجل الله القابض على الحقيقة بقوة الإيمان.

نظر الرجل الآخر إليه وقال وعلى وجهه علامات تفكير لكن ليس بتجهم:

- أمامنا الليل كله. سأحكي لك. دعنا نأكل الآن.

لم يعلق آدم المجنون على كلامه وإنما انهمك فعلا بتذوق الطعام الذي يحبه.

* * *

- نعم كنت أجلس في باحة الفندق المفتوح وأمامي الكتاب المقدس. اقترب مني وسألني إن كان بإمكانه الجلوس. وافقت وقلت له بمودة: «تفضل، على الرحب يابني». ابتسم ابتسامة لمحت فيها بعض الاستخفاف وقال: «لست أبنا لأحد. لست ابن الله ولا ابن البشر». لم أدرك لأول وهلة من هو لكني رأيته ينظر إلى رواد الفندق باستهانة واستخفاف واضح، لاسيما حينما سمع جملة قالها شاب لزميله وهما يجلسان على طاولة قريبة مجاورة، ولم تكن الجملة تثير تلك الإبتسامة الساخرة والمتهكمة التي ارتسمت وجهه، فقد قال الشاب: «الإنسان أثمن رأسمال في الوجود».. وهي جملة شهيرة لأحد المفكرين. لم أسأله على الرغم من رؤيتي ملامح السخرية على وجهه إلّا بعد أن ردد الجملة بتهكم مع نفسه «الإنسان أثمن رأسمال في هذا الوجود»، حينها سألته بنبرة أبوية لفضول استيقظ في نفسي: «ألا تتفق مع ذلك؟ ألا ترى أنه أثمن رأسمال؟»، فالتفت إليّ بانتباه وتحفز وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة وقال: «مَن؟ الإنسان؟ تسألني عن الإنسان؟ ههههه.. الإنسان كائن كذّاب أشرّ، مخلوق وضيع، لا تغرّنك أقنعته البريئة، أقنعة الفضيلة والتقوى، فهو فاسد في أعمق أعماقه. ولا يغرنك الكلام الرومانسي، فحتى الرجل العاشق الذي يقدم لعشيقته الهدايا النفيسة من الذهب والجواهر لا يتردد أن

يضاجعها واقفًا، أو على الأرض الجرداء، ويتمرغ معها على التراب حتى لو كان كلاهما يرتدي الحرير، المهم لديه هو أن يولجه فيها. وكذا المرأة، تستجيب للغاية نفسها، فالمهم أن يحصلا على اللذة، على الرعشة الجنسية، لذا فأن كل النفائس والهدايا ليست سوى الطريق للوصول إلى ذلك، بل ليس هذا الأمر في الجنس فقط، وإنما في كل الرغبات والشهوات المحمومة، كشهوة المال وشهوة السلطة والهيمنة سواء سلطة وهيمنة الفرد أو سلطة وهيمنة طغمة طبقية ما. فمثلا نرى كل هؤلاء الذين ينادون ليل نهار بسلطة العدالة والحق والشعارات الإنسانية لا يتوانون عن إراقة الدماء، ويقومون بالاغتيالات لكل من يعترض طريقهم، بل يغتالون حتى رفاق دربهم، ولا يتوانون عن تملّق أعدائهم، ونفاق من كانوا يكنون لهم الاحتقار، بل ويغدرون بالجميع من أجل الوصول للسلطة أو من أجل الحفاظ عليها. السلطة والتلذذ بمشاعر الهيمنة التي يمنحها الكرسي تدفعهم لإراقة الدماء، وسحق المبادئ بعقبهم الحديدية من أجل الاحتفاظ بهذا الكرسي، لذا أنا أعتقد أن الشهوات جحيم، فلا شيء مضمون ومحقق من أفعال الإنسان سوى الألم». كنت منتبهًا لكل كلمة قالها الرجل الأشقر الوسيم. شعرت بكمّ القسوة والحقيقة الجارحة في كلامه لكني بحكم طبيعتي الأبوية حاولت أن أهوّن عليه فقلت له: «يبدو أن تجربتك مريرة مع الناس، فأنت تتحدث عنهم بحقد بارد»، حينها نظر إليّ نظرة مستفزة وقال بفتور لكن بحزم: «أتريدني أن أتظاهر بالحنان البريء على الإنسان، وأتظاهر بأني لا أعرف شيئا عن دواخله الدنيئة وعن ألاعيبه وخداعه، لا.. البشر مخلوقات مخادعة، والخداع يسري في دمهم، كما أنني أعتقد أنك نفسك تعرف البشر أيضا، أفلا يأتونك للاعتراف؟ ألا تستمع لآثامهم، لخطاياهم، لأكاذيبهم، لتفاهاتهم، للأذى الذي يسببونه للآخرين، لخياناتهم!! فلماذا تحاول أن تنظر إلى نصف الكأس المليان فقط؟». حينها شعرت أنني أمام كائن مختلف، معرفته شاملة، لكني حاولت ألّا أنجرّ مع رؤيته القاسية للبشر فقلت محاولا معارضته لاسيما معارضة جملته الأخير، فقلت له: «أنا لا أنظر إلى نصف الكأس، لا النصف المملوء، ولا النصف الفارغ. أنا أنظر للكأس، فهو يبقى كأسًا سواء كان فيه ماء أم فيه نبيذ. الكأس هو هكذا، فيجب أن ننظر للكأس». نظرا كل منّا إلى الآخر، وحدّقنا للحظات في بعضنا البعض. كنت أسعى أن أعرف ما يجول في خاطره، إلّا أن الرجل الأشقر الوسيم واصل كلامه: «اللذة و الألم هما وجهان للشيء نفسه، هما سر الوجود الإنساني، لكن كل لذة يجب أن تدفع مقابلها، تدفع مقابلها ألمًا، فكلما عظمت اللذة عظم الألم، لكن ليس عظمة الألم تعني دائمًا وبالضرورة عظمة اللذة

في ما بعد، ومع ذلك، أعتقد أن اللذة التي تجنى بسهولة تفقد قيمتها سريعًا».. كنت أحاول صد هذه الحقائق التي تأتي من الضفة الأخرى للحياة المطلة على الوضع البشري، فقلت له ملتزما بعقيدتي: «الرغبة هي أصل الخطايا»، فارتسمت على وجه الرجل الأشقر الوسيم ابتسامة ساخرة وقال: «الرغبة ليست أصل الخطايا أيها الأب، وإنما هي بحث محموم لمحو الألم والتوتر الداخلي والخوف من الوحدة والعزلة، حتى وهي في أشكالها المبتذلة»، فقلت له محاولة تشتيت إرادة اليأس من الرحمة الإنسانية في داخله: «أنت تخلط الأشياء يا بني. إن ما تتحدث به عن البحث المحموم لمحو التوتر الداخلي والخوف من الوحدة والعزلة هو الحب وليس الرغبة، فالرغبة أصل الألم، بينما الحب سعادة الروح»، حينها أقبلت امرأتان أنيقتان جدا وناضجتان. جلستا حول الطاولة المجاورة لنا بالضبط، وبدلا عن خفض صوته أخذ صوته يعلو وكأنه يُريد أن يُسمعهن كلامه، فواصل قائلا: «ومن قال إن الرغبة حينما تتحقق لا تمنح السعادة للروح والنفس والجسد، لكن البشر، أيها الراهب، مخلوقات تعيسة، فالإنسان يسعى إلى السعادة وهي هدفه في الحياة، فهو يتحمل المصاعب ويجتاز المخاطر آملًا الحصول على اللذة، التي ربما تكون لذة جنسية، أو لذة الحصول على المال، أو السلطة، أو نشوة الهيمنة ولذة السيطرة على الأشياء، وبالتالي فالسعادة هي إرواء الرغبة الملحة، قصيرة الأمد، لكن الإنسان كائن ملول أيها الراهب الجليل، أليس كذلك؟ أنت تعرف من خلال الكتاب المقدس أن الإنسان كائن شقي، يمل من اللذات طويلة الأمد، وأعتقد شخصيًا أن الجنة ستكون مضجرة له حقًا، سيملّ الإنسان من الجنة لأن كل شيء فيها متوفر، حينذاك، حتى اللذات تفقد طعمها. البشر كائنات لا تستطيع تحمل السعادة لكن من جهة أخرى، عدم إرواء الرغبات الملحة يجعل الإنسان شقيًا، يجعله مخلوقا تعيسًا»، حينها ومثل البرق أدركت حقيقة هذا المخلوق اليائس، وقلت: «أليست هناك من سعادة سوى التي تأتي من إرواء الرغبات الدنيئة، ألا يشعر الإنسان بالسعادة حينما يفعل الخير للآخرين؟ ألا يشعر بالسعادة حينما يبحث عن الجمال؟ ألا ترى في بحث الإنسان عن الجمال في البشر والطبيعة والكون أحد الأهداف الحقيقية للبشر في هذه الحياة؟»، فجأة، أخذ يقهقه عاليا، لكن لم تكن قهقهته ساخرة، وإنما قهقهة فيها نبرة من عدم الموافقة، ثم قال: «أنت تدافع عن البشر أيها الراهب، وتفترض أن الحب والخير والجمال هم هدف الإنسان. إنك تحاول أن تقرب الإنسان من الله، لكنه ليس كذلك يا أبانا»، وفجأة وبجرأة كبيرة وسلاسة التفت إلى الطاولة المجاورة ونظر بتركيز إلى إحدى

المرأتين وسألها: «وأنت سيدتي ماذا تقولين؟ أعتقد أنك سمعت حوارنا».. فوجئت المرأتان بجرأته وارتبكتا، إلا أن المرأة التي وجه إليها السؤال أجابت: «عذرًا إذا ما كنّا قد تنصتنا على حواركما رغمًا عنا، فقد كنتما تتحدثان بصوت عال ومسموع بالنسبة لنا، كما أنه حوار ممتع وعميق، لكن لو سمحتما لي بودي أن أقول، راجية أن تعذراني على ما أقوله، إنكما تعقدان الأمور كثيرا، فالإنسان ليس بالشرير المطلق وليس بالخيّر المطلق، ثم إن الحياة أبسط من كل هذه التعقيدات، فنحن نأتي إلى الوجود غير مخيّرين أبدًا، ونذهب غير مخيّرين أبدًا. وما بين الولادة والموت ثمة رحلة مليئة بالأفراح والأتراح.. مليئة باللذة وبالألم.. كما عبّرتَ حضرتك.. لكن ليس آلامنا بسبب رغباتنا فقط.. وإنما بسبب ظروفنا».. ابتسمتُ لكلامها الموزون، بيد أن الرجل الأشقر الوسيم نظر إليها وكأنه يخترق جسدها وقال بتلقائيته وجرأته في الحديث: «يشرفنا أن تتفضلا إلى طاولتنا لنواصل الإستماع إلى وجهة نظر جديدة». نظرتْ المرأتان لبعضهما. ابتسمتا، إلاّ إن التي تحدثت قالت: «لا داع، لكن لنوسع جلستنا».. ثم استدارتا بكرسييهما جانبًا، فصار المجال مفتوحًا بين الطاولتين، وصار بالإمكان تداول الحديث بيننا كل من مكانه.

نظر الرجل الأشقر الوسيم إلى المرأة، وقال بنبرة فيها بعض الاستفزاز والتحدي: «وما هي الظروف التي تتحكم بالإنسان غير رغباته الغامضة والواضحة؟» فوجئت المرأة من طريقة أسئلته المتلاحقة وقالت: «الغنى والفقر، الصحة والمرض.. مثلًا».. فطلب توضيحا بينما كنت أراقب ما يجري وأنا أكاد أخمّن من هو هذا الكائن: «لم أفهم! ما معنى ذلك؟».. فقالت المرأة بنبرة فيها شيء من الارتباك لكن بوضوح: «يعني رغبات الغني هي ليست نفسها رغبات الفقير، فالذي رغبته الحصول على بعض المال ليعيش، ليأكل ويلبس ويطعم أطفاله وينفق على تعليمهم، هي ليست كرغبات الرجل الذي لديه مال، وهو شبعان ومستور الحال ولا يعرف كيف ينفق ماله.. رغباتهما مختلفة. وكذلك رغبات الإنسان الصحيح الجسم تختلف عن رغبات الإنسان العليل. فالصحيح الجسم يريد أحيانا أن يخطف من الحياة أكثر مما تعطي، بينما العليل يعيش على الأمل بالحياة، وربما لو تحسنت صحة هذا العليل لعاش حياة أكثر أخلاقية وأكثر زهدًا، لأن المرض منحه القدرة على تذوق معنى الصحة وإدراك قيمة الحياة».. ابتسم الرجل الأشقر الوسيم حينها وقال بسخرية: «ههه.. أحيانا هؤلاء الذين يكثرون الحديث عن الأخلاق وعن حكمة العيش بتوازن وزهد يتحدثون هكذا لأنهم عاجزون وعندما تتاح لهم أول فرصة تراهم يرتكبون الآثام ويقترفون الموبقات التي لا يمكن تخيلها».. انتبهت إلى أن المرأة الأخرى كانت تنظر إليه بانبهار. فقد كان جميلا فعلا.. كانت

مأخوذة بجرأته أيضا. تنظر إليه بانجذاب واضح، لكنها لم تستطع أن تبدي رأيها كي لا تحرج صديقتها التي دخلت الحوار مع الرجل الأشقر الوسيم الذي انتبه لها، وابتسم لها ابتسامة جذابة، ناظرًا إلى أعماق عينيها نظرة جريئة، فارتبكت، فسألها: «وأنت سيدتي.. ما هو رأيك؟» ازداد ارتباكها أكثر لاسيما حينما أحست بأن جميع العيون توجهت نحوها. فقالت: «لا أعرف ماذا أقول. حينما كنت أستمع إليكم كان يراودني إحساس بأن لدي كلام كثير يمكنني أن أقوله حول هذه المواضيع التي تحدثتم عنها لكني الآن لا أجد الكلمات، بل إنني لا أجد الجرأة على قول ما تبقى في ذهني من أفكار»..

نظرتُ إليها وانتبهتُ إلى كم المعاناة في نبرات صوتها فابتسمت لها ابتسامة أبوية مشجعة، وقلت: «تحدثي يا ابنتي.. لا تترددي».. تشجعتْ قليلًا، لاسيما حينما نظرتْ إلى صديقتها التي شجعتها بنظراتها أيضًا، فقالت بصوت متقطع، موجهة كلامها إلى الرجل الأشقر الوسيم:

فجأة قاطعه آدم المجنون بفضول:

- أعتقد أنني أعرف كل ما دار بينكم من حوار، لكني أردت أن أعرف رأيك في الرجل الأشقر الوسيم.. من هو؟ أنت قلت إنك أدركت من هو؟

- إنه الشيطان.. إبليس..

- الشيطان.. إبليس؟

- نعم.. لكنه سخر من فكرتي عنه! وصدمني.

- كيف؟

- لقد قال لي: «اسمعني أيها الأب.. أنتم أبناء الديانات السماوية مشركون دون وعي منكم. أولا، السماء ليست مكتبة تتساقط منها الكتب، وليست قطعة قماش مثقوب حتى تسقط منها ثلاثة كتب في منطقة واحدة دون باقي بقاع العالم! ثانيا، أنتم تألهوني دون وعي منكم، إذ كيف يمكنني أن أملك هذه القوة الإلهية بأن أكون في مشارق الأرض ومغاربها وأكون لكل كائن من هذه المليارات السبعة من البشر أقرب إليه من حبل الوريد فأسوس له! أليست هذه من قدرات الخالق القدير! أنتم تشاركوني القدير في قدرته؟ إذا كنتم تعتقدون ذلك فأنتم تشركون. فهناك إذن القدير وأنا! وهذه ترهاتكم

ليست إلا محاولة يائسة وبائسة منكم للتخلص من ثقل الندم وتأنيب الضمير، فالخير والشر في أعماقكم، وأرواحكم في حركة البندول الأبدية بين ذروة السمو الروحي وذروة السمو الجسدي، كل منهما تجذبكم إلى ذروتها، لكنكم حين تصلون إلى ذروة السمو الجسدي الذي تسمونه الحيوانية والابتذال والانحطاط فأنكم تتذكروني، بل لكي تتخلصوا من تأنيب ضمائركم المهزوزة أوجدتموني لتصبوا لعناتكم عليّ. ثم قال لي أنت راهب أليس كذلك؟» وحينها أجبته: «نعم أنا كذلك»، ابتسم بطيبة وقال لي: «هذا هو الكتاب المقدس أمامك، افتحه على الإصحاح الثاني من سِفر التكوين، وفي الآيات 16- 17 واقرأه لي».. كنت أعرف الآيات والإصحاح، لكنه نظر إليّ وأشار برأسه لأن أقرأ، فلم يكن أمامي سوى أن أفتح الكتاب وأقرأ: «**وأوصى الربُّ الإلهُ آدمَ قائلا من جميع شجر الجنة تأكل أكلا. وأمّا شجرةُ معرفةِ الخيرِ والشّر فلا تأكلْ منها. لأنك يومَ تأكلُ منها موتا تموت**»، حينها ابتسم الرجل الأشقر الوسيم وقال لي: «إذًا.. الخير والشر موجودان في شجرة المعرفة في الجنة، فما علاقتي بالشر! أنتم حتى في أساطيركم تتناقضون! أما الأديان الأخرى فهي تبرئني من الخطيئة، ففي سورة يونس المرقمة 99- 100 تقول الآيتان: «**ولو شاء ربُكَ لآمن من في الأرض كلُهم جميعا أفأنت تُكرهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين. وما لنفس أن تؤمنَ إلاّ بإذن اللهِ ويجعل الرجسَ على الذين لا يؤمنون**»، وكذا وفي الآية 272 من سورة البقرة جاء: «**ليس عليك هُداهم ولكن اللهَ يَهدي من يشاءُ**». وفي سورة فاطر الآية 8 جاء: «**فإن اللهَ يُضلُ من يشاءُ ويهدي من يشاءُ..**»، وكذا جاء في سورة الأعراف في الآية 188 التي جاء فيها: «**قُلْ لا أملكُ لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء اللهُ**».. ويمكنني أن آتي بآيات أخريات بالمعنى نفسه، وكلها تؤكد بأنه لا علاقة لي بأن أضل الناس عن معرفة القدير.. هو القدير وحده يفعل بمقادير الناس!.. وواصل قائلا: «أنتم أيها البشر حين تخلقونني في أذهانكم فأنكم تشركون بربكم الذي تقرون له بالوحدانية، وتشاركونني في قدرته الإلهية، بل تمنحوني قدرة خارقة توازي قدرة القدير وتحكمه بمصائر الخلق!.»، وحانت مني التفاتة عفوية نحو بوابة الفندق، لكني حين التفتُ نحو جليسي لم أجد، فعدت لغرفتي مشتّتًا. لقد أدخلني إلى متاهة التفكير في الشر. كنت أعتقد بأن الشر ولد مع الشيطان، لكن النص في الكتاب

المقدس واضح، الخير والشر كانا في شجرة المعرفة في الجنة! وما ذكره الرجل الأشقر الوسيم من نصوص أخرى في الكتب المقدسة دقيقة أيضًا. وسألت نفسي أسئلة خفت منها: «لماذا خلق الله الشر في الجنة ووضعه في شجرة المعرفة؟ بل لماذا خلق الله للإنسان أعضاء تناسلية وجهاز هضم؟ الجنة مكان مقدس فكيف له إذا أكل آدم من كل الثمار وأراد التغوط؟ أيتغوط في الجنة؟ ولماذا خلق له أعضاء تناسل قبل أن يخلق حواء من ضلعه؟؟ أكان يعرف بأنه سيخلق أنثى لديها أعضاء تناسل أيضا وليستكملا التناسل؟ هل يعني أنه كان يعرف ماذا سيحدث؟ فلماذا العقاب إذا كان هو قد قدّر كل شيء؟ لا.. لا..» وتعبتُ من تيارات الأفكار والشك، خفت من نفسي وقررت أن أستريح في غفوة، وفعلا غفوت، لكني حين أفقت وجدت نفسي هنا، في عزلتي وسط هذه البراري المقفرة.

كان آدم المجنون حائرًا ومشتتًا أيضًا، فقد كان مشهد الراهب والرجل الأشقر الوسيم والمرأتين يتجسد صوريا أمام عينيه أثناء الحديث، واستغرب كيف هذا الانتقال من غرفة في فندق إلى الصحراء في غمضة عين.!

كان السائق الأخرس في تلك اللحظات قد غفى على الصوفا. وتعالى منه شخير خفيف. نظر الرجلان لبعضهما. ابتسما بتعاطف. في تلك اللحظات خطر في ذهن آدم المجنون سؤال فقال:

- هل تعرفه؟ وأشار برأسه للسائق الأخرس.

- لا.. لكني أتخيله مثل الرجل الأسطوري الذي يعبر بالأرواح من ضفة الحياة إلى ضفة العالم الآخر.

- ماذا تقصد؟

- لا شيء..

حانت التفاتة من آدم المجنون نحو الكتب القليلة على الطاولة القريبة والتي عرف أنها للفيلسوف إيمانويل كانت، وسأله:

- هنا.. في هذه البراري القفر وفي هذه العزلة الغامضة تقرأ إيمانويل كانت!

نظر الرجل في الجلباب الأسود له وابتسم بمرارة وقال:

- نعم.. منذ يقظتي في هذا المكان وأنا أحاول الاقتراب من فهمه للقدير، لكنه زادني حيرة، وصرت اقترب من فلسفته اللاأدرية، فنحن لا نعرف شيئًا مهما ادعينا ذلك!

- كيف؟ سأله آدم المجنون بفضول.

نظر الرجل الذي في الجلباب الأسود إليه للحظات مركزًا في وجهه، لكن نظراته كانت تشي بأنه يفكر في شيء آخر على خلاف نظراته، وقال:

- ربما الكثيرون مذهولين بفلسفته العقلانية.. «نقد العقل المحض» و «نقل العقل العملي» و «نقد ملكة الحكم» وغيرها، مما يشكل منظومة عقلية ونظامًا فلسفيًا معقدًا، لكنه بعد كل هذه العقود من الفكر والتأمل المنطقي والعقلي توصل إلى اللاأدرية، فليس لدى إيمانويل كانت أي تصور محدد عن الله، وكان لا يثق بكل الأوصاف البشرية التي أطلقت على الله. الله لديه فكرة، طبعا هذا لا يعني أنه لا يؤمن به، لكن كيف أوضح لك! إنه في هذا الأمر قريب من توما الأكويني.. فهو يرى أن كل شيء موجود يكون قابلًا للمعرفة والإدراك، وكل وجود هو وجود متعيّن في الزمان والمكان، وبما أن الله خارج الزمان والمكان وفق شروط المعرفة النظرية، لذا لا يمكن تطبيقها عليه، لذا فمستحيل أن يكون الله موضوعًا للمعرفة.

- لكني قرأت الكثير عن تمسكه الديني ومسيحيته!

أطرق الراهب المضيّف برأسه وكأنه يفكر بالأمر أيضا ثم مدّ يده إلى أحد كتب إيمانويل كانت الموجودة على الطاولة وواصل كلامه:

- هنا في هذا الكتاب «نقد العقل المحض» يؤكد بأن معرفة العقل المحض تُستمد من منبعين، الأول، ملكة الحساسية وهي القوة التي تتقبل الانطباعات والإحساسات والتي هي تمنحنا نوعًا من المعرفة الوهمية الفارغة، والثاني ملكة الفهم وهي قوة بواسطتها يمكن معرفة الانطباعات والاحساسات التي وصلتنا عبر ملكة الحساسية، وملكة الفهم هي قوة المعرفة وهي التي تشكل الانطباعات والاحساس في مقولات وحدوس، وبالتالي تتشكل منها عناصر المعرفة، بمعنى أن عملية المعرفة غير ممكنة بغير ملكة الإحساسات وملكة الفهم لأنه بدون الإحساسات لا يمكن أن يكون الموضوع مُعطى، وبدون فهم وإدراك الإحساسات لا يمكن بلورتها في مقولات

وحدوس، ولا نستطيع التفكير في الموضوع..، وبالتالي فإن المقولات بدون الحدوس تكون جوفاء والحدوس بدون المقولات تكون عمياء. هل تدرك ما كان يقصد..؟

كان آدم المجنون منتبها لكل ما قاله الراهب المضيّف، لكنه كان يفكر بالمشهد ككل. ففي ليل البراري المقفرة الغامض هو يجلس في دير غامض ليتناقش عن إيمانويل كانت ورؤيته للخالق وفكرة الله، وأعجب بوضوح أفكار الراهب وتمكنه من تبسيط فلسفة إيمانويل كانت المعقّدة، ووجد نفسه يشاركه الرأي ويدرك ما يريد الوصول إليه، فقال:

- أكاد أحدس ما يريد كانت الوصول إليه، فلأن الله خارج الزمان والمكان ولا يمكن لملكة الحساسية والانطباعات والأحاسيس أن تستقبله كوجود عياني، لذا فإنه من الصعب على ملكة الفهم أن تبلوره في مقولة أو موضوع..، وبالتالي لا يمكن دراسة الله حتى كموضوع.

ابتسم الراهب بحزن وهز رأسه موافقًا وقال:

- تقريبا.. لذلك كان إيمانويل كانت يؤكد بأن المقولات هي الشرط لإمكانية معرفتنا بالموضوع، أي إن الإحساسات والانطباعات هي خبرة الفهم التي يشكلّها في مقولات، ومن هنا فإننا لكي نفكر في الله علينا أن يكون لدينا خبرة قبلية بالموضوع، وهذا مستحيل، فهو يؤكد بأننا لو سلمنا بوجود موضوعات فكرية خالصة فإنه لا يكون لهذه الموضوعات معنى موضوعي حقيقي، ومن هذه الموضوعات فكرة الله.

- وبماذا كان يؤمن! سأل آدم المجنون

- تأملاته قادته إلى أن العالم هو مجموع مطلق لظواهر الطبيعة، وكذا فإنه عن طريق القياس تتم الوحدة المطلقة لجميع موضوعات التفكير بما في ذلك فكرة الله، وبالتالي فإن التصور المتعالي المحدد لله هو تصور عقلي لا يستطيع العقل أن يتأكد منه، وجل ما يستطيع العقل الوصول له هو فكرة الله وليس معرفة الله.

- إذن كيف كان مسيحيا ويزور الكنيسة؟

- هذا أمر ليس مسلّما به بالكامل، فالدين كان عند إيمانويل كانت فعلًا أخلاقيا، ولا يهمه الشكل العقائدي لهذا الفعل الأخلاقي، لأنه لا

يرى سوى دينٍ واحدٍ، فقد كان يرى الشعور الأخلاقي أسمى من العقائد والطقوس الشكلية والعبادات، ولديه أن أية عبادة دون شعور ومسلك أخلاقي هي عبادة زائفة وهراء ديني..

- وأنا أعتقد كذلك..

- وأنا أيضا..

- لكن ما علاقة الرجل الأشقر الوسيم بكل هذا الذي تحدثت عنه!

صمت الراهب وأطرق برأسه للحظات وكأنه يفكر في إجابة مقنعة، لكن كان واضحا أن ذهنه يضج بالأفكار، وأخيرا رفع رأسه وقال:

- الرجل الأشقر الوسيم كشف لي الخديعة، كشف لي أنني حارس للعبادات، أتحدث عن الله وكأنني أعرفه حق المعرفة، بينما أنا في الحقيقة لا أعرفه.

- ماذا تريد أن تقول؟ سأل آدم المجنون مستفسرا بتوجس.

- كما بيّنت لك من فلسفة إيمانويل كانت، بل أنا لم أتوقف عنده فقط، وإنما وجدت الفلاسفة والمفكرين لجأوا إلى العلل المادية وقوانين الفيزياء التي تمسك كوننا المنظور كالجاذبية والقوة القوية والقوة الضيقة والكهرومغناطيسية، لكن فهم العدم ومعرفة ما وراء حافات الكون بهذه القوانين مستحيلة وغير ممكنة، فلو ذهبنا مع علماء الفيزياء إلى نقطة البداية، إلى لحظة الانفجار العظيم كما يسميها علماء الفضاء، وسألنا ببساطة: ماذا كان قبل لحظة الانفجار العظيم؟ وهل هذا الجزيء الذي انفجر كان محسوسًا وماديًا!؟ وأين كان؟ في أي زمان ومكان؟ ومن أين جاء؟ ولماذا انفجر عن هذا الكون الدقيق الذي يتضمن كل المعادلات والقوانين الكونية الهائلة في دقتها؟ إذن نحن أمام محيط من الأسرار، فليس من ناحية المنهج الفلسفي أننا لا نعرف شيئًا وإنما علميًا ووفق الفيزياء النظرية الكونية اتضح أننا لا نعرف شيئًا كثيرًا أيضًا! أو كما قال آينشتاين ذات مرة بأن كل معرفتنا العلمية لا تساوي حصاة ملقاة على ساحل محيط لانهائي.. نحن لا ندري من؟ وكيف؟ ومتى؟ وأين؟ ولماذا؟ وبالتالي نجد أنفسنا أمام مهزلة الشرائع الدينية وقصص وأساطير الأنبياء، وأمام الحلال والحرام، بينما إنسانية الإنسان لها علاقة بشعوره الأخلاقي الذي ليس للدين علاقة به.

كان آدم المجنون يستمع إليه بمتعة، لكنه فجأة قال له:

- لا أدري.. لماذا يراودني إحساس وكأني استمعت إلى كلامًا مشابهًا، أو ترآى لي ذلك..

ابتسم الراهب بحزن وقال وكأنه تعب من ثقل الأفكار التي تحدث بها وقال:

- ممكن ذلك، على أي حال، أتعبتك بحديثي هذا، يجب أن تأخذ قسطًا من الراحة، فصباحا أمامكم سفر طويل.

- صحيح.. لكن ثمة سؤال خطر في بالي الآن: ألم تقابل الرجل الأشقر الوسيم مرة أخرى!؟

انتبه الراهب للسؤال المفاجئ وقال:

- نعم ألتقيه أحيانا.. هو يزورني بين فترة وأخرى، ويروي لي قصصًا عن البشر وأقنعتهم، مما جعلني ابتعد عن عالم البشر واحتفي بعزلتي.. طيب.. استرخ الآن.. سآتيك ببطانية لتتغطى بها.

ونهض عن مكانه متجهًا نحو خزانة في أقصى القاعة. فتحها، وحمل وسادتين وبطانيتين.

***

فز آدم المجنون على عواء ذئب رمادي يجلس متربعا على القسم الأمامي من السيارة ويتطلع إليهما بنظرات ناعمة وغير شرسة. كان هو في المقعد الخلفي من السيارة والسائق الأخرس نائم في جلسته حول المقود. في تلك اللحظة مدّ ذراعه وطرق بأصابعه على الحاجز الزجاجي بينهما، ففزّ الحارس الأخرس من نومه أيضا. ارتعب حين رأى الذئب قبالته من الخارج، فشغّل محرك السيارة، ومع انطلاقة هدير المحرك قفز الذئب الرمادي من مكانه وهرب نحو البراري واختفى عن نظرهما، بينما انطلقت السيارة في الطريق الطويل اللانهائي. كانت الشمس قد ارتفعت في الأفق.

نظر آدم المجنون في ما حوله مستغربًا، وسأل نفسه: «كيف نحن في السيارة وقد كنّا في الدير الغامض ليلة أمس؟». لكن لم يتعب نفسه بالتفكير كثيرا فالغوامض في هذه الرحلة أكثر مما يمكن التوقف عندها، لكنه استذكر مع نفسه كل ما تحدثت به الراهب، وشعر بأنه كان حقيقيا وكأنه سمعه فعلًا في مكان ما.

الفصل السادس

في حضرة العين.. والعدد الواحد..

كانت السيارة تبدو من بعيد كنقطة سوداء تتحرك ببطء على بساط من الحرير الأصفر، وكان آدم المجنون قد أقنع نفسه بأن لا بُدّ لهذه الرحلة الغامضة من هدفٍ ما سيعرفة في نهاية هذا الطريق، وأن رحلته هذه ليست عبثية، وفكّر مع نفسه بأن هذه الأحداث الغريبة والأماكن العجيبة التي يراها في طريقه والتي تبدو لا منطقية وغير معقولة لا تختلف عن لامنطقية وجوده ولا معقولية رحلته!!، وسأل نفسه «إذا كان معظم الذين التقيتهم ينتمون إلى أجزاء محددة من رواية «المتاهات»، وحضورهم له علاقة بمصائر شخصيات تلك الأجزاء من الرواية، وأنا الآن التقيهم وأحادثهم، فلِمَ لا أكون أنا، ربما، أيضا شخصية افتراضية فيها!؟، فقد بدأ حضوري كما تبدأ فصول الروايات، نزلت من القطار، لا أتذكر من أنا، ولا من أين جئت، ولا لماذا جئت، ولا إلى أين أذهب؟ بل ولا أدري أين أنا؟ هذا لا يحدث إلا في الروايات، لكن من تُرى هو الكاتب الذي صيرني شخصية روائية؟ بالتأكيد هو الذي من أوجد وكتب هؤلاء الشخصيات كلها؟»، ثم نظر إلى السائق الأخرس وفكّر مع نفسه «ربما هذا السائق شخصية روائية أيضًا؟ وقد تقصّد المؤلف بأن يجعله أخرس حتى لا أتكلم معه وأكشف النهاية ونحن في البداية؟ لا. من غير المعقول أن أكون أنا شخصية روائية! فأنا أحمل مخطوطات الروايات معي في حقيبتي الجلدية، ولو كنت شخصية روائية فلماذا أحمل هذه المخطوطات؟»، ولكي يقنع نفسه بفكرته الأخيرة مدّ يده وأخرج المخطوطة الضخمة التي قرأ عنوانها «متاهة العدم العظيم». تصفح المخطوطة وتوقف عند نص شعري، فقرأ المقطع الأول من نص القصيدة: أيها العدمُ

أيها العدمُ العظيم

نحنُ غرانيقك التائهة

الغرانيق التي أطلقتها في السماء

غرانيقك التائهة فوق بحر الوجود

لا سواحل نلوذ إليها

ولا شواطئ تعرف الرحمة

الموجُ العاتي يشلّ أجنحتنا المتعبة

والخيبةُ تلاحقنا مثل غيوم سوداء

بحرُ الوجود المدلهم

ينتظرُ سقوطنا المحتوم

ينتظرُ خطيئتنا المقدسة

لا نعرف من أين؟

لا نعرف إلى أين؟

فوقنا سماء سوداء

تحتنا بحر مدلهم..

أراد أن يواصل النص، فقد كان يشعر بأن النص يتحدث عنه ويعبّر عن أعماقه وأحاسيسه، ولم يكمل لأنه سمع أصوات غناء وموسيقة هندية تأتي من مكان قريب.

فجأة، توقفت السيارة عند سقفية غامضة من الأعمدة والبردي. لم يخرجا من السيارة لكنهما انتبها إلى مجموعة من العازفين الهنود يجلسون تحت السقيفة ويعزفون، بينما أحدهم يغني بصوت شجي غناء روحانيًا جميلًا، وبشكل غامض لا يعرف كيف كانت الكلمات تترجم في ذهنه: لِمَ لا تذهب أنت للبحث عنه

في أجماتِ غابةٍ وحيدة؟

كعطر يغلف فوحه زهرة،

فالرب العلي يتخلل الكون كلّه،

لكن هيهات للكون أن يحدّه..

ابحث عنه في ذات نفسك.

فحقًا، هو مقيم في كنهك.

فتجيبه المجموعة بصوت واحد بمقام منسجم آخر: صعب وصفه،

مستحيلة تسميته.

الإنسان، يحسه فقط،

الوجود الخفي لكامي.

أحس آدم المجنون بنشوة روحية وجمالية عالية. ظل ساهيًا عن وجوده وهو يستمع لهذا الغناء، إلى أن اختفى الغناء والسقيفة والمغنون الهنود. ووجد نفسه جالسًا في السيارة التي كانت تسير مثل حصان رهوان.

ظلّت السيارة تمشي لساعات دون أن يظهر لهما أي ملمح للحياة وللبشر في هذه القفار. وكلما توغلّا في الطريق كلما شعر آدم المجنون بزحف الليل والظلام على البراري المقفرة، بل انتبه لوجود مرتفعات جبلية تبدو في الأفق، مرتفعات بدت بنفسجية اللون وأخذت تميل إلى الزرقة المعتمة ثم إلى العتمة الكاملة كلما توغلا في الطريق واقتربا منها.

وحين صارا على مسافة قريبة منها كان الليل قد غطى البراري والجبال والسماء بجلبابه المعتم، لكنهما انتبها لوجود أضواء على الجبل أشبه بفوانيس كثيرة، وانتبها إلى أن الطريق يخترق المنطقة الجبلية ويصعد لكن بشكل سلس وسهل باتجاه الأضواء.

وبعد وقت ليس بالقصير وجدا نفسيهما في باحة واسعة تحيط بها ما يشبه الممرّ العريض بسقف على طول الجوانب الثلاثة وتتوزع في هذا الممرّ الثلاثي عدد كبير من الغرف، وانتبه آدم المجنون إلى أن أعلى كل باب ثمة فانوس زجاجي معلق.

حين خرجا من السيارة استغربا السكون الذي يعمّ المكان وكأنه مهجور، لولا أنهما سمعا أصوات تشبه الغمغمة أدرك كلاهما أنها أدعية دينية، وصوت غناء شجي يأتي من بعيد وكأنه من أعماق سرداب يجهانه موضعه، صوت مليء بالوجد والتوسل والإبتهال:

واللّه ما طلعتْ شمسٌ ولا غربت　　　إلا وحبّك مقرونٌ بأنفاسي

ولا جلستُ إلى قوم أحدّثهم　　　إلّا وأنت حديثي بين جلّاسي

ولا ذكرتُك محزونًا ولا فرحًا إلّا وأنت بقلبي بين وسواسي

ولا همَمتُ بشُربِ الماء مِن عطشٍ إلّا رأيتُ خيالًا منك في الكأس

ولو قَدِرتُ على الإتيان جئتكمُ سعيًا على الوجهِ أو مشيًا على الرأس

مالي وللنّاس كم يلحونني سفهًا ديني لنفسي ودين النّاس للنّاس

في اللّحظات التي استغرقها الغناء كان آدم المجنون وكأنه خارج الزمان والمكان، وكان السائق مأخوذًا بالغناء أيضًا، ولم يخرجهما من حيرتهما سوى ظهور شبح رجل بيده فانوس يشع بحيث يضيء ملامحه من بعيد ويرش ضوءً على المكان الذي يحيط به. ابتسم لهما وتقدم وهو يرحب بهما أجمل ترحيب.

- أهلا بضيوف الرحمن.. أهلا بالأرواح التائهة التي تبحث عن النور.

حين اقتربا منه اتضحت ملامحه، فهو رجل كبير في السن، بلحية بيضاء عنزية الشكل، ملامحه منغولية قليلًا لكنه يتحدث العربية بطلاقة، وجهه مهيب، فيه استرخاء العارفين الذين بلغو السلام النفسي.

وضع الفانوس على الأرض وأخذهما بالأحضان، فمنحهم ذلك شعورًا بالأمان والدفء الإنساني في هذه القفار الموحشة.

حمل الشيخ الجليل فانوسه وقادهما إلى حجرة بدا بابها ضيق بيد أنها كانت واسعة مفروشة بالسجاد الوثير من كل زواياها، كما كانت الوسائد تتوزع كمتكئات على جميع الجوانب.

وضع الشيخ الجليل الفانوس على دكة حجرية نصبت خصيصا لذلك، فأدرك آدم المجنون بأن هذه الحجرة هي بمثابة تكية هذا الشيخ الجليل.

جلس الشيخ الجليل على جانب بدا وكأنه مكانه الإعتيادي، بينما أشار لهما بالجلوس على جانبي الغرفة حيث السجاد الوثير.

ما أن استقر الجميع في جلستهم حتى أخذ جرسًا صغيرًا كان إلى جانبه وحرّكه بهدوء لكن صوت الجرس وكأنه ناقوس كنيسة رنّ في المكان كله، فدخل الغرفة فتى طويل القامة بشكل لافت، يلبس ثوبًا طويلا أبيض يصل إلى قدميه ويغطيهما أيضًا، وبدا بطوله الفارع وثوبة الطويل كشبح غامض.. وعلى الرغم من الضوء الجيد في الغرفة إلاّ إن آدم المجنون لم يستطع أن يحدد ملامح الفتى جيدًا ولا أن يقدّر عمره.

ألقى الفتى الطويل السلام والتحية على الجميع ووقف كالتابع المطيع أمام الشيخ الجليل وسأل بصوت مليء بالأدب: - أنا تحت أمرك شيخنا الجليل أبا الكرامات..

نظر الشيخ الجليل أبو الكرامات إلية بأبوية وقال له بمودة ولطف: - هذان ضيفانا قد وصلا للتو.. هما جائعان بالتأكيد.. لنقم بالواجب تجاههما.. هات ما مقسوم لهما أن يأكلاه ويشرباه.. وأعدّ لنا الشاي.. هل نام الجميع..؟

- سمعا وطاعة شيخنا الجليل سآتي بما يجود به الرحمن.. وبودي إعلامك بأن المجموعة التي حدثتهم أنت صباحًا قد ذهبوا إلى المغارة..!..

فقال الشيخ الجليل وكأنه يداري الأمر ولا يريد أن يفصح عمّا يجري أمام ضيفيه: - إسرع بما طلبته منك.. لنكرم ضيوفنا أولا.. لم أسألك عنهم..! إني أراهم الآن وهم في المغارة هنا.. أراهم حين أنظر في هذا الصحن (وأشار إلى صحن أمامه).. إذهب.

وغادر الفتى الغرفة. نظر الشيخ الجليل إلى ضيفيه وعلى وجهه الطيب ابتسامة بشوشة وقال وهو يوجه كلامه لآدم المجنون: - أهلا بكما..

السائق الأخرس بدا غير مستغرب وكأنه يعرف أين هو، وكان الشيخ الجليل يدرك ذلك، لذا وجه كلامه إلى آدم المجنون الذي ارتسمت على وجهه علامات الاستغراب والتعجب حين سمع كلام الفتى الطويل بالثوب الأبيض، وقال له: - أأنت في حيرة يا بنيّ؟..

وقبل أن يجيب آدم المجنون واصل الشيخ الجليل قائلا: - كلّنا في حيرة يا بني، ومن أدرك حيرته لا يحتار، وأنت كما أرى محتار وتدرك أنك محتار، لكنك مع ذلك محتار. لا تقلق فالأمر كله في جوهره حيرة في حيرة، لكن بحثُنا عنه ليس حيرة يابني وأنما عبادة، فهو واحد في كثرة وكثرة مردّها إلى واحد، وأضداد تجتمع في حقيقة واحدة، وحقيقة واحدة لا تعرف إلا بقبولها الأضداد، والحيرة يابني حيرتان، حيرة الجهّال وحيرِة العارف بالأسرار.

نظر آدم المجنون إليه بدهشة وسأل:

- عمّن تتحدث ياشيخنا الجليل. أشعر وكأنني سمعت مثل هذا الكلام، لكني لا أتذكره، وعلى العموم أنا لست محتارًا، لكني واجهت أشياء غامضة لا أعرف كيف أفسّرها..!

- أعرف يا بني.. هذا كلام شيخي الأندلسي بن عربي، كما أعرف يا بني بأنك واجهت بعض الألغاز والأسرار.

- أتعني أنك تعرف ما واجهت من أشياء غامضة أثناء رحلتي..؟ قال آدم المجنون بتساؤل مستغربا..

هز الشيخ الجليل رأسه وعلى وجهه ابتسامة طيبة، فبادره آدم المجنون بالسؤال: - وهل تعرف من أين أتيت وإلى أين أذهب..؟ وما معنى وجودي مع هذا الحارس الأخرس الذي كان ينتظرني في محطة قطار المدينة الغامضة..؟ هل تعرف لغز هذه الرحلة كلها؟

ابتسم الشيخ الجليل وقال:

- هناك حيرة الجهّال، وهناك حيرة الواقفين على سر الحقيقة، فهؤلاء يرون الحق متجليًا في كل صور الوجود، لذلك حيرتهم تأتي من تنقلهم بين كل هذه التجليات! لكن في الحقيقة هم عميان أيضا، فليس في الوجود من يراه غيره، وليس في الوجود شيء هو في باطنه فقط، فهو الظاهر لنفسه والباطن عن نفسه..!

- أكاد أفهمك.. ومع ذلك لا أفهمك..!

- ربما أنت تفهمني ولا تريد أن تفهمني، أو أنك فعلًا لا تفهمني وتود أن تفهمني! ومهما يكن يابني فأنا آدم الأمازيغي أقول لك من ظن منكم إنه رآه فما عرف..!..

شعر آدم المجنون أنه رآى هذا الشيخ الجليل لكن لا يعرف أين رآه!!. وكما في المرات السابقة، فقد تلقى رسالة غامضة تضمنت معلومات عن هذا الشيخ الجليل، فسأل آدم المجنون بفضول واحترام: - يا شيخنا الجليل.. ألم تكن في باريس..؟ أليست لديك شقة هناك؟ وأن هذه مدرستك على قمة الجبل..؟ وأن لديك فيها مئات من المريدين وطلاّب العلم الذين يأتون إليك من بلدان مختلفة ليقضوا هنا في هذا المكان بما يمتد من عشر سنين إلى عشرين سنة!! وهم غامضون لا يعرف أحد من أين جاءوا ولا أين يذهبون بعد السنوات

التي يقضونها هنا!، كما أنهم لا يخرجون قط من هذه المدرسة الغامضة!! من يزور المكان يشعر بوجودهم صباحًا، لكنهم يختفون في الليل!! أصحيح هذا؟ مع أننا سمعنا أصواتهم التي كانت أشبه بتلاوة وتسابيح غامضة، بيد أن المكان بدا لنا مهجورًا، وأرض منبسطة ولا جبل هنا، ولولا دخول الفتى الطويل بثوبه الأبيض لما اقتنعنا بوجود أحد غيرك.!.

كان السائق الأخرس ينظر مستغربا معلومات آدم المجنون الدقيقة عن الشيخ والمكان، وكان منكمشًا على نفسه في حضرة الشيخ الجليل، بل وينظر إليه وكأنه ينتظر كيف يرد على ما قاله آدم المجنون، بينما كان الشيخ الجليل منشرح القسمات وعلى وجهه ابتسامة رضا وقبول وتسامح وكأنه يسمع مشاكسات طفل صغير، وأراد أن يردّ عليه، إلّا أن دخول الفتى الطويل القامة وهو يحمل صينية كبيرة أوقفت الحديث.

تقدم الفتى الطويل ووضع الصينية على الأرض في وسط الغرفة بالقرب من الضيفين.. وخرج.

ابتسم الشيخ الجليل وقال بلطف شديد:

- تفضلا على بركة القدير..!

- وأنت.. ألا تأكل معنا؟ سأل آدم المجنون.

- أنا تناولت حبتين من التمر وشيئًا من اللبن..!..

انتبه آدم المجنون إلى أن هناك الكثير من صحون الطعام المتنوعة في الصينية، من الطعام الساخن إلى الخضروات إلى الفواكه إلى الحلويات والفطائر! وفكّر مع نفسه: «أن بعض هذه الأطعمة من الصعب الحصول عليه في مثل هذه الأماكن، لاسيما الفطائر والحلويات وبعض أنواع الفواكه الشتوية والصيفية معا كالعنب والبرتقال! فكيف حصلوا عليها ولا أثر لبساتين أو أشجار ولا لمدن قريبة! بل ولا أثر لثلاجات ومجمدات وتكنولوجيا حديثة في المكان؟»، ومع ذلك كان آدم المجنون ينتظر إجابة الشيخ الجليل الذي كان يستمع له وعلى وجهه ابتسامة طيبة. وقبل أن يبدأ آدم المجنون والسائق الأخرس بالأكل قال له الشيخ الجليل وكأنه كان يدرك ما يجول في ذهن آدم المجنون: - بعد أن تنهي أكلك سأجيبك..!

* * *

- لا أدري إن كنت أنا أم لا؟ شخصيًا أحس أنني كنت في باريس ذات يوم وكانت لي شقة هناك، لكن أأنا كنت هو أم ذاك الشخص الذي

كنته آنذاك؟

- ماذا تقصد أيها الشيخ الجليل..؟

مدّ الشيخ الجليل يده إلى صحن فيه لب جوز جبلي وأخذ قطعة ثم مدّ الصحن لضيفيه، وأخذ من صحن آخر بعض حبوب الزبيب الأسود ثم مدّ لهما بصحن الزبيب أيضا. إلتهم ما بكفّه من جوز وزبيب معا. نظر إليهما وهما يتناولان ما قدّمه إليهما، ثم قال بعد لحظات: - شيخي الأندلسي ابن عربي قال لي: العين الوجودية واحدة، ولكنها تختلف بالأحكام، أي تختلف بالصور التي يحكم عليها بما يميز كل واحدة منها عن الأخرى، فالصلة بين الحق والخلق كالصلة بين الواحد العدد وما ظهر عنه من الأعداد..، وكما أن الواحد العددي هو عين الأعداد الظاهرة فيه، كذلك الحق المنزّه هو الخلق المشبّه وليس التمييز بين الخلق والخالق إلا بالاعتبار، وإلا فالخلق هو الخالق، والخالق هو الخلق لأن العين واحدة..!

ارتبك آدم المجنون وقال بتساؤل خجول:

- لم أفهمك تماما ياشخنا الجليل.. هلّا أوضحت لي..؟

نظر الشيخ الجليل له وعلى وجهه ما يشبه الوجد الصوفي والنشوة الروحية وقال مواصلا حديثه: - قال لي شيخي الأندلسي: إذا نظرت إلى صورة الخلق دون عينه وجوهره فأنت هو لا هو وهو أنت لا أنت، أي أنت هو على الحقيقة وبالعين ولست هو من حيث صورتك ومظهرك، ولهذا وُصِفَ الحقُ بالأضداد، فقد أوجد الواحد العدد، وفصل العددُ الواحدَ، وما ظهر حكم العدد إلا المعدود، والمعدود منه عد ومنه وجود، فقد يُعدم الشيء من حيث الحس وهو موجود من حيث العقل، فلا بد من عدد ومعدود، ولا بد من واحد ينشئ ذلك فينشأ..

- لم أفهمك يا شيخنا..؟

- المتكلم واحد وهو عين السامع..، ومن رأى منكم إنه رآه فما عرف..!

ثم وقف ناهضا عن مكانه، وأخذ يرقص رقصة الصوفيين، وخلال حركته خرج من الغرفة وصار في الباحه فقام آدم المجنون والسائق الأخرس يتبعانه، وأصابهما الذهول حينما وجدا الباحة تمتد لمئات الأمتار على مدّ البصر، وهي مكتظة بشكل منتظم ودقيق بالمئات من الرجال بملابس بيض وهم يرقصون في نشوة صوفية ويتحركون بانتظام كما تتحرك الكواكب في دورة الفلك.

وبإنجذاب لا إرادي نزل آدم المجنون والسائق الأخرس إلى وسط الباحة وأخذا يرقصان تحت إيقاع الدفوف والأناشيد الصوفية. ويدوران ويدوران ويدوران.

* * *

فزّ آدم المجنون، فوجد نفسه في السيارة، والسائق الأخرس ينظر إليه من خلال المرآة الأمامية. والسيارة تسير في طريقها المجهول. نظر في ما حوله فلم يجد لا الشيخ الجليل ولا مدرسته وأنما هو والسائق وهذه البراري المخيفة.

الفصل السابع

القراصنة العميان

انطلقت السيارة في طريق يشبه أفعى عملاقة لا يتبين للناظر أين رأسها. ساعات طويلة والسيارة تمشي هادئة. استغرب آدم المجنون من هذا السائق الذي لم يُبد أيّ تذمر أو قلة صبر أو انزعاج من هذه الرحلة الغامضة والطويلة والتي تبدو بلا نهاية..! ولم يبد عليه أنه قد استغرب كل ما واجهاه من غرائب وأشياء غامضة، كالحضور والغياب، والشخصيات التي تظهر وتختفي، والأماكن التي تظهر بطريقة غامضة وتتشكل بحرية ثم تختفي بطريقة غامضة..! وكأنه يعرف سر ذلك.

فجأة توقفت السيارة وكأنها أصطدمت بشيء ما. نظر هو للأمام فلم يجد شيئًا. نزل السائق الأخرس مذهولا فهو لم ير شيئًا أمامه لكنه صُدم حينما رأى ذلك الشيء.

انتبه آدم المجنون لملامح الدهشة والخوف التي ارتسمت على وجه السائق الأخرس فنزل ليرى ما جرى.. وكانت صدمته لا تقل عن السائق..، فقد كان هناك سائلًا أخضرَ اللون وكائنًا شفافا غير مرئي وكأنه يتشكل من مادة جلاتينية شفافة ملقى على الأرض الأسفلتية. وخلال دقائق انكمشت هذا المادة وأعادت تشكيل نفسها وسحبت المادة الخضراء التي نزفتها قبل لحظات، ثم استقامت واقفة.

ذهل الإثنان حينما وقفت أمامهما قامة طويلة جدا لكائن بلا ملامح محددة، أشبه بمخلوقات الفضاء التي تعرضها السينما أحيانًا، لا يبرز منها سوى العينين الواسعتين والمتقدتين كقطعة فسفورية لازوردية اللون..!.

عبر هذا المخلوق الشفاف الطريق إلى الجهة الأخرى دون أن يعيرهما انتباها وكأنهما غير موجودين..! وحينما صار على الجهة الأخرى من الطريق ارتعب كلاهما من المنظر الذي أمامهما ولم ينتبها له، فقد كانت هناك حشود بالآلاف من هذه الكائنات الهلامية تمشي مطأطأة الرأس، لكن بهمّة، في طريقها نحو الجهة التي يمضيان هما إليها.

نظر آدم المجنون إلى السائق الأخرس وتخاطبا بلغة العيون معبران عن دهشتهما وخوفهما. وصعدا السيارة. ثم تحركا في طريقهما.

* * *

هبطت على الكون أشعة زرقاء حليبة شفافة، فلم يتبينا الوقت، هل هو الفجر أم المساء، فقد اختفت من الجانبين تلك المخلوقات الشفافة بالكامل ولم يتبينا سوى الضوء اللازوردي المنبثق من عيونها المتقدة إذ إن أجسادها اختفت في العتمة التي غمرت البراري الغامضة.

ومع أن السيارة كانت تمشي بهدوء وبلا سرعة استثنائية مهما حاول السائق أن يضغط على دواسة البنزين إلاّ إنها اجتازت تلك الكائنات الشفافة الغامضة. كان آدم المجنون ينظر ملتفتا عبر زجاج السيارة الخلفي إليها لكنه لم يعد يراها، بل اختفى الضوء اللازوردي المشع من عيونها أيضا.

كان الليل قد مدّ جناحه على تلك البراري. وكانت السيارة تمشي دون كلل وبرتابتها المعهودة، ولم يكن هناك ما يمكن لهما أن يتوقفا عنده، إلى أن لاحتْ من بعيد نقطة ضوء تتلألأ ما بين اللمعان والانطفاء، لكن بتقدمهم منها ثبت لمعانها، وكلما اقتربا لاحت المعالم أكثر. وحين اقتربها منها اتضح أنها فنوس معلق فوق باب صفيحي صدئ.

خرج السائق عن الطريق العام وأوقف السيارة عند باب الكوخ. فسمعا غمغة وأصوات تأتي من داخل الكوخ فعرفا أن هناك من يتواجد فيه. وقبل أن يدخلا وصلت إلى أنفيهما رائحة الشاي والخبز الحار. وكانا جائعين.

دخل آدم المجنون أولا، فهيمن الصمت على الكوخ. سكت الجميع. توجّهت الوجوه نحو الباب. بعد لحظات صار السائق الأخرس خلف آدم المجنون. انتبه كلاهما إلى وجود سبعة رجال، لكن كان واضحا أنهم عميان!، والكوخ كان غرفة تمتد على جوانبها مصاطب طينية فرشت عليها بسط وثيرة، وفي وسط الكوخ سجادة وثيرة ومدفئة نفطية وفي السقف عُلق فانوس شديد الإنارة.

كانت العيون مطفئة ولا يظهر منها سوى صُلباتها البيض، عيون بلا قرنية أو قزحية وأنما طبقة من البياض تغطي العين كلها.

امتدت لحظات من الصمت، إلى أن سألهما أكبر الرجال سنًا، والذي إلى جانب فقدانه البصر كانت إحدى ساقيه خشبية:

- من هناك؟

كان آدم المجنون مرتبكا فقد فاجئه مشهد العميان إلا أنه أجاب:

- نحن عابرا سبيل.. داهمنا الليل هنا.. ورأينا كوخكم.. فتوقفنا عندكم..!

- أهلا بكما.. من المؤكد أنكما تبصران ولستما مثلنا..!؟ سأل الرجل.

- نعم.. نحن نرى، لكننا مثلكم عميان في متاهة.. على الأقل بالنسبة لي.. أما رفيقي فهو سائق أخرس.. لا يتكلم، وربما هذه نعمة أيضا..!.

- يبدو لي أنك متعلم وتعرف القراءة والكتابة..!

- نعم..

- تفضلا..

كان الجميع ينصتون للحوار بين رئيسهم وبين الغريب، التفت إليهم وقال لهم بنبرة آمرة:

- افسحوا لهما المجال وضيّفوهما.. ليشربا الشاي مع الخبز والجبن والزيتون.!

تحرك العميان وكأنهم يرون كل شيء، إذ تم فسح المجال كي يجلس آدم المجنون والسائق على دكة قريبة. صمت الجميع للحظات. بينما انشغل أحد العميان بصب الشاي وتقطيع الجبن ووضعه في صحن وكما غرف بملعقة خشبية طويلة بعض الزيتون من صفحية بجانبه ووضعه في صحن.

كان آدم المجنون يراقب كل شيء ويستغرب كيف هم عميان بينما يتحركون كالمبصرين تماما، لاسيما الأعمى الذي يعد لهما الطعام. ثم انتبه للضوء في الكوخ وسأل نفسه: «إذا كانوا عميان فما حاجتهم إلى النور..؟».

أكلا بصمت دون أن ينطقا بكلمة. انتبه آدم المجنون وكأن العميان كانوا ينظرون إليهما بعيونهم البيض المخيفة وتعابير وجوههم الفضولية. وما أن انتهيا

من الأكل حتى قُدّم لهما الشاي فزاد استغرابه في مسألة العمى، ولولا عينوهم البيض لشكّ في أنهم عميان.! فجأة، سأل الرجل ذو الساق الخشبية أحد العميان وقال له:

- يا أنت.. أيها الأصلع.. أخرج لنا الكتاب الذهبي.. ليقرأ لنا ضيفنا شيئًا منه..!

استغرب آدم المجنون حين انتبه إلى الرجل الذي وُجه إليه الكلام إذ كان أصلعًا بالفعل، وسأل نفسه «كيف عرف أنه أصلع، وكيف وجّه الكلام له هو بالذات؟ وما هو الكتاب الذهبي الذي عليّ أن أقرأه لهم..؟»، وخلال لحظات سلّمه الرجل الأصلع كتابًا سميكًا مجلدًا بشكل أنيق. وما أن تصفح الكتاب حتى سمع ذا الرجل الخشبية يقول:

- هذا كتابنا نحن القراصنة العميان. نقرأه كل ليلة بصمت. نمدّ أصابعنا على صفحاته ونستحضر في ذاكرتنا البحار الزرقاء والجزر الساحرة النائية، لكننا كما ترى لا نستطيع القراءة، لذا نتمنى أن تقرأ علينا ما فيه.

كانت الرؤوس متجهة نحوه، حتى السائق الأخرس كان ينتظر القراءة. ووجد آدم المجنون نفسه يستجيب لا إراديا. فتح الكتاب. فوجئ بأن صفحة منه قد انتزعت، لكن لا أثر لأي تمزق في الكتاب. استغرب أن يبدأ النص هكذا لكنه مع ذلك أخذ يقرأ:

- كان في تلك الجزيرة ضباط ملكيون هربوا من أحكام بالموت صدرت بحقهم من محاكمهم العسكرية لتمردهم على الأوامر، وثوار متمردون هاربون من أحكام حكومات بلدانهم، وعمال متقاعدون عملوا في الأساطيل البحرية، ومعاقون فقدوا أطرافهم وأهُملوا وتم نبذهم من المجتمع فلم يجدوا الرأفة والاهتمام إلا من لدن أمثالهم من المحبطين بأخوة البشر وشعارات المساواة الإنسانية..!

صمت آدم المجنون للحظة وانتبه إلى أن الجميع أطرق برأسه منتبها لكل كلمة كان يقرأها لهم. صمت للحظات، إلّا إنه سمع ذا الرجل الخشبية يقول له:

- لا تستغرب. هؤلاء نحن. نحن القراصنة العميان الذين أمامك. كنّا أسود البحار المجهولة، وحياتنا أفضل من حياة كل مواطني هذه البلدان التي تدعي الحرية. أتعرف. أنا الذي أمامك برجل خشبية كنت يوما قبطان سفينة مهيبة، لكني مع ذلك لم أكن أملك حق اختيار

الطريق الذي ستسلكه السفينة ولا أن أقرر الإغارة إلا بموافقة بقية طاقم السفينة من القراصنة! اسألهم.. كل هؤلاء من قراصنتي وكانوا معي.

هزّ الجميع رؤوسهم موافقين على كلامه. أطرق القبطان رأسه وقال بحسرة:

- واصل القراءة..

أحس آدم المجنون بغرابة كل ما يجري هنا في هذا الكون النائي والذي يتلاطم بأمواج البحر ودواماته في ذاكرة هؤلاء العميان. في تلك اللحظة شعر بتعاطف معهم، فواصل القراءة بنبرة ودودة:

- وكان هناك إثنان ايطاليان وهما مناضلان ضد الظلم وثائران من أجل العدالة الاجتماعية. وحدث أنهما كانا قبطانين لسفينة وسيطرا على سفينة كانت تحمل عبيدًا تم أسرهم من أفريقيا، فجاءا بالسفينة ومن فيها إلى جزيرة في المحيط مقابل أفريقيا، وأعلنا أن هؤلاء الأفارقة أحرار مثلهم، والآن أنهم أخوة.. فصاروا جزءا من سكان الجزيرة، جزيرة المثل الإنسانية والأخوة والمساواة، بل أعلنوا أن الجزيرة اسمها «جزيرة الحرية».

انتهى الفصل. كانت هناك أوراق منزوعة منه، فواصل آدم المجنون القراءة في فصل مختلف في السرد لكنه كان مفهومًا من قبل القراصنة العميان:

- الشواطيء اللازوردية المجهولة والجزر المتوحشة وهذا الخليط من الكائنات البشرية التائهة والمحتفية بوجودها، كل ذلك يمنح لكل لحظة في الحياة دلالة الأبدية. لم تكن هناك قصور أو حتى بيوت تفرّق بين الناس طبقيا. لا فوراق بينهم لأن القبطان وبعض حاشيته من أوروبا بينما البقية من أفريقيا، فالكل هنا في هذه الجزرة سواسية، حتى في الدين والعقائد، فلا تبشير ديني ولا إرغام لاعتناق ديانة أو طقوس معينة، فكل واحد يحتفي بالقدير وفق مشاعره وقناعاته، فالقدير موجود في كل شيء..!.

ثم انتقل آدم المجنون إلى صفحة أخرى فقرأ:

- كانت تحدث زيارات بين أبناء جزيرة وأخرى، إذ تأتي مجموعة قراصنة لزيارة الجزيرة، لكن هذه الزيارات ليس زيارات قصيرة بل

هي إقامات تمتد إلى سنوات لا تقل عن ثلاث. وكانت اللغات والمفردات تتداخل الجزيرة بحيث شكّلت على مر السنين لهجة خاصة يتفاهم بها جميع سكان الجزيرة.

قاطعه القبطان ذو الساق الخشبية قائلا:

- بعض الكتّاب في اليابسة وفي القارات الهمجية المتحضرة كتبوا روايات خيالية عن عالم الجزيرة وحياة شعبها وقراصنتها، بينما الحكومات في تلك القارات أعدوا الأساطيل لمطاردتنا لأنهم يعتقدون بأننا نملك الذهب واللؤلؤ!. طبعا هنا في هذا الكتاب الذي بين يديك يدور الحديث عن «جزيرة الحرية»، لكن لم تكن حياتنا، حياة القراصنة، نزيهة بشكل مطلق، وأنما أيضا كانت قتلا ونهبا وعنفا دمويا دافعه غريزة التملك والعدوانية والخوف من غدر الآخر والشك فيه، لكن واصل القراءة.

قلب آدم المجنون صفحة بيضاء، ثم واصل القراءة في صفحات تالية:

- ذات فجر رستْ سفننا عند شاطئ جزيرة مجهولة. كانت هناك قرية.. وماعز.. وشياه.. وثيران بقرون معقوفة، وبيوت على الشاطئ.. وأطفال.. وبعض الرجال.. ونساء عديدات.. ويبدو أنهم كانوا يؤدون طقوس الميت، إذ أنهم كما يبدو قد ودّعوا عزيزا ميتا، فعادتهم أن يضعوه في قارب مع حطب كثير ويشعلون النار فيه إلى أن يحترق في عرض البحر. كان معنا على ظهر السفينة ضيوف من الذين جاءوا من جزيرة بعيدة ليقيموا بيننا، وكانوا يوسوسون في إذن قبطان السفينة بأن يهجم ويسلب النساء على الأقل ليكنّ متعة له وللقراصنة، وكنت كاتب حكايات القراصنة قريبا من القبطان، فقلت له ألآ يستمع لهم، لكن بعض القراصنة استمعوا لهم، بل وأيّدوهم، ولم يستطع القبطان أن يفعل شيئًا. رست السفينة على الشاطئ وأُنزلت القوارب، وحينما شاهد أهل القرية الساحلية السفينة أخذهم الفضول فاقتربوا أكثر من الساحل، ليستقبلوا الذين جاؤهم بالقوارب، وما أن صار القراصنة على الساحل حتى انقضوا على الناس المسالمين، فقتلوا الرجال والأطفال وسبوا النساء. كنت أراهم يغتصبون النساء على رمل الساحل. هرب منهم من استطاع الهرب..!! كنت ألّح على القبطان بأن ننسحب لكن بقية قراصنتنا كانوا كالمجانين، لأنهم وبعد أسابيع من السفر في الفيافي القاحلة والمحيط المائي الأزرق صاروا حيوانات شرسة..! كنت أراهم يعبون النبيذ من القرب الصغيرة ومن الدنان الممتلئة، وكانوا يذبحون الأغنام والثيران ذات القرون

المعقوفة، ويشوون اللحم على مواقد النار التي كانت قد أشعلت ضمن طقوس الدفن. كانوا لا يعيروننا انتباها، بل بعضهم يشير لنا بأن نلتحق بهم. وكنت أراهم بعد أسابيع الجوع صاروا يقضمون اللحم ويرمونه بعد قضمة أو قضمتين لوفرته. كنت على ظهر السفينة مع القبطان وبعض المريدين معه نراهم من بعيد، وكان الضيوف معهم، بل هم من قاد المذبحة على الشاطئ..! كنّا ننظر إليهم من بعيد بقلق وحيرة وترقب، وأخيرًا أخذ القبطان يصرخ عليهم مناديا أن يرجعوا إلى السفينة، لكن دون جدوى.. وفجأة، ظهر على التلال المطلّة على الشاطئ جيش من الفرسان على جيادهم. ولم يكن قراصنتنا مستعدين، لذا بعض قراصنتنا هرب بسبيته إلى القارب وبعضهم بقى يواجه القادمين. كانت مذبحة أخرى. قراصنتنا، الذين تعتعهم السكر والعربدة على الرغم من الظهور المفاجئ لجيش أهل الجزيرة، قاوموا بشراسة، لكن لم يكن من الممكن مواجهة أهل الجزيرة وفرسانها. كنّا نرى كيف كان رفاقنا يتساقطون ويذبحون بشراسة، إلّا نفر قليل تمكن من الهرب وصعود القوارب، لكن الغريب حتى هؤلاء لم ينسوا سباياهم من النساء.!.

توقف آدم المجنون عن القراءة لحظة، فقد كان المشهد يجري أمام عينيه، وذهل من نفسه. نظر إلى الآخرين فرأى كيف ارتسمت ملامح الحزن والوجوم على وجوه العميان السبعة لاسيما القبطان، ولكنه وجد نفسه مشدودا للنص فواصل القراءة:

- كان مشهدًا مريعًا حين ترى أصدقاءك يذبحون بلا رحمة وأنت ترى المشهد من ظهر سفينة ترسو على الشاطئ، ولا تستطيع أن تفعل شيئا لنجدتهم.. وهكذا، جللّنا حزن عميق على أصدقائنا الذين قتلوا على ساحل الجزيرة. كنّا حزانى، لكننا في قرارة أنفسنا كنا فرحين بنجاتنا نحن، وكنت شخصيا فرحا بسقوط ضويفنا الذين حرّضوا على المذبحة!. الغريب أن قبطاننا الطيب لم يبتعد بالسفينة عن الشاطئ إلاّ بعد أن نادى على رفاقنا التعساء الذين سقطوا قتلى في المجزرة ثلاث مرات كلًّا باسمه وودعهم؟ بينما نحن أشعلنا المشاعل تعبيرًا عن الحزن. وهكذا رحلت سفيتنا والحزن شراعها. لكن بمرور الوقت عادت الحياة إلى سطح السفينة لاسيما حينما انتبهنا لوجود النساء السبايا اللاتي كنّ ليس متعة لنا فحسب وأنما كن يغسلن الثياب ويطبخن!. وشهدّتُ مجزرة أخرى..

فجأة نطق القرصان ذوالساق الخشبية قائلا:

- أذكر تلك المجزرة. هي الآن أمام عيني، بل شهدّت مجزرة أخرى لا تقل بشاعة، لكن واصل.

سكت آدم المجنون للحظة. أدرك أن القبطان وهؤلاء القراصنة العميان هم جزء من الحكاية، ثم واصل:

- وذات مرة أراد قبطاننا ورئيس جزيرتنا أن نكتشف البحار البعيدة. ليس للقرصنة وأنما رغبة في معرفة ما وراء الأفق المائي.. أعددنا سبع سفن. وعيّن رئيس الجزيرة قبطانا قائدا وقبطانا على كل سفينة. حينها أقام أبناء الجزيرة من الوثنيين ولائم لستة أيام قبل الإقلاع. القبطان اختار رجالا أشداء مدجّجين بالسلاح. وفي الليلة قبيل فجر الإقلاع أقام وليمة كبرى على شرف الرحلة شارك فيها كل رجال ونساء جزيرة الحرية.. رقص وأكل ونبيذ وجنس وحب وكل ما وعد الله به عباده الصالحين في الأديان. ولم نكن نعرف بأن المأساة ستتكرر.. لا أعرف لماذا الرجال حين يهاجمون منطقة ما لا يفكرون بعقولهم وأنما بما يتدلى بين أفخاذهم، شهواتهم تتفجر بشكل وحشي ولا تقف أمامهم امرأة شابة أو عجوز أو طفلة إلا ويتم اغتصابها.. لماذا؟ لا أعرف..!.. وتكرر المشهد. فقد وصلنا ساحلا طويلا عريضا رمليا. لم نكن نعرف إن كانت تلك بلاد أو جزيرة مهجورة، ومع ذلك رست سفننا السبع على الشاطئ. كانت على الشاطئ كما يبدو قرية للصيادين. أنزلنا الزوارق، فانطلقت زوارقنا الخفيفة ببعض قراصنتنا إلى الساحل للاستطلاع. القائد بقي على ظهر السفينة يراقب الجميع، وكان قد وجههم بأن يبقى بعضهم لحراسة القوارب على الساحل وبعضهم يذهب لمراقبة التلال القريبة المطلة على الشاطئ، لكن الرجال حينما شاهدوا النساء السمراوات والرشيقات بملابسهن الخفيفة فقدوا عقولهم وانتبهوا للخيرات الوفيرة من حبوب وفواكه ولحوم ونبيذ، فأخذوا ينهبون كل شيء، ينهبون المواشي والدجاج بل وشهروا سيوفهم فقتلوا أي رجل يقف في طريقهم وبصورة وحشية، وسبوا الزوجات والبنات وحملوهن بسرعة إلى القوارب. تعالى الصراخ وعويل النساء. وبسرعة البرق ظهر أهل البلاد. جيش مدجج بالسلاح ومعهم أناس عاديون. انقضوا على رجالنا، وقتلوهم بوحشية وأسروا بعضهم. كنا نرى رجالنا أسرى، بل ورأينا كيف ساقوهم كالعبيد إلى ما وراء التلال!. قادة السفن السبع طلبوا من قائدنا القرصان أن ينتقموا لأصدقائهم ورفاقهم، لكن حكمته كانت أكبر من حزننا جميعا، فقد رفض أن تكون الجزيرة نهاية لحكاية وجودنا على هذه الأرض.

فجأة أطلق القبطان ذو الساق الخشبية زفرة. كان العميان قد أطرقوا برؤوسهم حزنا وارتباكا. صمت آدم المجنون لحظة.. قلب الصفحة، ثم واصل القراءة:

- القراصنة، بل حتى تجّار البحار عادة يبحرون بالأشرعة نهارا فقط، ويسيروا بمحاذات الشواطئ والسواحل حريصين على ألا تغيب عن أعينهم، وما أن يرخي الليل سدوله حتى يحتموا بواحد من الخلجان أو البطون الساحلية العديدة، لكن القراصنة كانوا يتحينون احتماء سفن التجار و حتى القراصنة الآخرين بالخلجان، وكانوا يتربصون بهم بين البطون الساحلية والثغور الصخرية ليهجموا في عمق الظلام بعد أن يكون التجار وبحارتهم قد هدّهم التعب والرغبة في الاسترخاء.. المباغتة قانون القراصنة..، لكن أفضل أشكال القرصنة حينما يكون هناك نساء وشبان وأحجار كريمة، إذ يتم انتقاء النساء واغتصابهن وبعد الملل منهن يتم بيعهن في أسواق المواني، أما الشبان فيتحولون إلى عبيد يقبعون في قاع السفينة وليس لديهم سوى التجديف وهم مكبلون بالسلاسل.. وكان القراصنة من ذوي الخبرة يبعدون سفنهم عن المدى المنظور للخلجان، بل عادة ما يرسون عند منعطفات بعيدة عن العين ويرسلون اتباعهم من القراصنة بزوارق ومجاذيف قد لفت بالقماش كي لا تطلق صوتا عند ارتطامها بسطح البحر. وكانوا يتجسسون أول الأمر ويتأكدوا من الآخرين وأخبارهم، إذ أحيانا كانوا يسرقون دون قتال.. في «جزيرة الحرية» كنا نعيش كل لحظة من لحظات حياتنا بوعي ومتعة واكتشاف، لكن المتعة ليست دائما بين أفخاذ النساء، ليس في رعشة الذروة الجنسية، وأنما في رعشة الوجود والمعرفة والكشف!. لكن أيضا هناك لحظات حزن عميق لا تمحوها أية متعة في الوجود، لأنها تستقر في أعماق النفس مثل صخرة هائلة قيدت بسلاسل وألقيت في قاع البحر لتمسك السفينة من الانحدار مع الموج. وهكذا كانت حكاية رئيسنا، فقصته حزينة جدًا، إذ كان قد أحبّ امرأة خلاسية، وعاش معها، وأخلص لها على الرغم من حريته في إقامة العلاقات مع نساء أخريات، لكن حدث إن تعرض أثناء إحدى المعارك إلى ضربة بين فخذيه أعاقت ذكورته، وصار غير قادر على أن يكون رجلا مع حبيبته، لكنها كانت قاسية وشبقة ولعينة، فهي لم تتركه وتغادر منزله، أرادت أن تحتفظ بحفاوة حبيبة القائد، لكنّها أهانته وذلته، حيث كانت أمام عينيه تأتي بأصدقائه وتدعوهم إلى فراشها بينما كان هو يسمع تأوهاتها وتوسلاتها إليهم بأن يخترقوها بقوة. كنا نتألم من أجله، لكنه كان يكابر بحبه

ويبالغ في تضحياته إذ اعتبر ذلك من حقها، وكنا نعرف أنه يتألم ويدمّر نفسه، ويتقبل تلك المعاناة بوجد وصبر الشهداء والقديسين.

فجأة قال القرصان ذوالساق الخشبية بنبرة فيها حزن وضيق:

- توقف.. لا تواصل..!

انتبه آدم المجنون إلى أن العميان أطرقوا برؤوسهم. وعلى الفور أدرك بأن حكاية القائد هي حكاية القرصان ذي الساق الخسبية، فأطبق الكتاب احترامًا.

وبلهجة آمرة قال القرصان الرئيس:

- حان موعد النوم. علينا أن نعود إلى جزرنا. الحنين يغرقنا لتلك الشواطئ اللازوردية ولتلك الجزر البعيدة عن متاهات البشر. أيها الأصلع اطفئ الفانوس، وأنتما أيها الضيفان الكريمان، يمكنكما الاستلقاء على مصاطب الآلهة هذه.

وبصمت قام الأصلع وأطفأ القانوس فغرق الكوخ في ظلام دامس. تمددا كلاهما على المصاطب الموجودة هناك. أخذ آدم المجنون يفكر بلعبة العمى والبصيرة، ولعبة النور والظلمة العجيبة في هذا الكوخ الذي تتلاطم فيه أمواج البحار اللازوردية وسط هذه الفيافي الصحراوية..

* * *

فزّ آدم المجنون صباحا فوجد نفسه مستلقيًا على مصطبة طينية مغطاة ببساط وثير. وانتبه إلى السائق الأخرس وهو يجلس على الأرض وأمامه دورق للشاي وكوبان وخبزًا حارا وجبنا وزيتونا. كان الأخرس ينتظره ليفطرا.

- ما هذا؟ أين نحن؟ أين العميان؟ وأين الكتاب..؟

وتذكر أن الآخر أخرس، لكن كل شيء كان حقيقيا، الفانوس المعلق، الأكل، الصينية، المصاطب..!

قام آدم المجنون عن مكانه، بينما السائق الأخرس صبّ له الشاي في الكوب، إلاّ إن آدم المجنون قال له بنبرة آمرة:

- دعنا نمضي.. أنا أخاف هذا المكان...

نظر السائق الأخرس إليه بعدم رضا. غادر هو الكوخ ونهض السائق ليتبعه.

الفصل الثامن

درب الرؤوس المقطوعة

انطلقا في طريقهما. كان آدم المجنون يحس برغبة عارمة في الوصول إلى خاتمة الرحلة، ووجد نفسه يفكّر في أشياء جديدة غير تلك الأسئلة المكررة عن نفسه، أو من أين جاء، وإلى أين يذهب؟، فقد أخذ يفكّر في الشخصية التي سيلتقيها، هل هو يعرفها؟ وهل هو الذي أرسل هذا السائق الأخرس إليه؟ بل من المؤكد أنه يعرفه وإلّا ما أرسل شخصًا لاستقباله؟، وربما سيفسر له كل ما واجهه في الطريق من مشاهد غامضة. ولا إراديا وجد نفسه يفكّر بالمحطات الثلاث الأخيرة التي مرّ بها، الدير الذي يعيش فيه الراهب الشكّاك، وتلك الصالة المليئة بالكتب، وفكّر مع نفسه كيف فاته أن يسأله عن الرجل الأشقر الوسيم الذي زعزع يقينه علما أن الراهب المرتد أكيد بأنه لا يزال يلتقيه بين فترة وأخرى؟، وكذا فكّر في ما يخص مدرسة الشيخ الجليل المليئة بالغموض وتلك النجوى الصوفية التي كان يسمعها حين وصل فناء المدرسة؟، بل حتى كلام الشيخ كان غامضًا فهو لم يفهم منه إن كان هو الذي لديه شقة في باريس أم شخص آخر غيره! وما هو سر المغارة التي ذكرها الشاب المريد عرضًا؟ وأخيرًا لغز القراصنة السبعة العميان والكتاب الغريب الذي قرأ شيئًا من صفحاته ولم يسألهم من هو كاتبه، بل ولغز علاقتهم بالنور والضوء ما داموا عميّان، إذ كيف يوقودون الفوانيس بل ويطفئونها كي يرقدوا!، أما ظهور واختفاء الشخيصات والأمكنة فقد اعتاد عليه منذ بداية رحلته.!

كانت انثيالات التداعيات الفكرية ومراجعة ما شاهده في المحطات السابقة يساعده على قضاء الوقت الذي يبدو أمامه طويلًا.

وبعد ساعات من السير في المجهول واجهتمها في الأفق جبال شاهقة ووعرة، جبال بدت أرجوانية اللون تميل إلى الوردي الوهاج، جبال تحيط بالطريق من جانبيها، وكأنها تشكل جسرًا أو نفقًا أو مضيقا ضيقا يمر بين جبلين شاهقين.

نظر إلى المرآة الأمامية فرأى السائق الأخرس ينظر إليه بقلق. أحسّ أن الطريق ليس آمنا. وكلما اقتربا من المضيق، حيث القطع الجبلي الحاد يسد الأفق ولا يبقي سوى فتحة من الوسط للطريق الضيق، كلما خفف السائق الأخرس من سرعة السيارة التي هي بطيئة بالأساس، وكأنه يتجنب الوصول إلى تلك المسافة القصيرة بين قطعي الجبل.

لم يكن أمامها إلاّ إن يسيرا في ذلك الاتجاه فلا طريق غيره يبدو في الأفق، وإذا ما أرادا الوصول إلى هدفهما الذي لا يعرفه سوى السائق الأخرس فعليهما السير إلى الأمام.

حين اقتربا من المضيق الجبلي بنحو كيلومتر انتبها برعب مشوب بالدهشة لرؤوس مقطوعة ومعلقة على ما يشبه الرماح المثبتة في الأرض، عشرات بل مئات الرؤوس المقطوعة..!.

وظلت السيارة تسير وسط الرؤوس المقطوعة والمثبتة على جانبي الطريق.

كلاهما شعر بالرعب. وازدحمت الأسئلة في ذهن آدم المجنون: «ما هذا؟ أين نحن؟ ولمن هذه الرؤوس المقطوعة؟ ومن قطعها؟ ولماذا عُلّقت ونُصبت على جانبي الطريق؟».

ومع ذلك ظلت السيارة تمشي بسرعة بطيئة جدًا، إلى أن تبيّن أن الطريق ليس خاليًا تماما من البشر، إذ ظهر من وراء الصخور تسعة رجال ملتحون ومسلحون بأسلحة نارية متطورة. كانوا في شراويل سود أفغانية الطراز وخلفهم راية سوداء كتبت عليها كلمات بالعربية.

أشرع الرجال الملتحون أسلحتهم، وسدّوا الطريق. تقدم واحد منهم نحوهما، فما كان من السائق إلّا أن يتوقف عنده. طلب الرجل الملتحي المسلح منه أن يصطف بسيارته على جانب الطريق، فقاد السائق الأخرس السيارة إلى جانب الطريق. توقفت السيارة. طلب الرجل الملتحي منهما أن ينزلا مرفوعا الأذرع فوق الرأس.

خرج السائق الأخرس وهو يضع كفّيه على رأسه وكذلك خرج آدم المجنون بعده مرعوبًا، فقد انبثقت الصور في ذهنه عن عمليات قطع الرؤوس. وضع كفّيه على رأسه. لكنه قبل أن ينزل ترك الحقيبة الجلدية في السيارة.

سأل الرجل المسلح السائق بالعربية:

- من أنتم..؟ وإلى أين تذهبون..؟

وحين لم يستطع السائق الإجابة وأخذ ينظر إلى الرجل المسلح بخوف دون أن يتمكن من الإجابة ضربه الآخر على جبينه بأخمص السلاح الذي بيده فسقط على الأرض والدماء تسيل منه، وسحله الرجل المسلح إلى حيث مكانه في السيارة وقال له:

- إجلس هنا قبل أن أعدمك! هل فهمت..؟

لم يقل السائق شيئا. دخل إلى السيارة بصعوبة واضحة وجلس على مقعده خلف مقود السيارة مثل صنم. في تلك اللحظة تجاوز آدم المجنون رعبه الذي هو فيه وقال له بنبرة محايدة:

- لماذا ضربته.. إنه أخرس لا يستطيع الكلام..!

فوجئ الرجل المسلح الذي ضربه وأحس بالإحراج لكن شراسته لم تغادره فقال له:

- ولماذا لم تتكلم أنت؟ أم تراك تشتهي الضرب أيضا؟ هيا أجبني.. من أنتم وإلى أين تتجهون؟

احتار آدم المجنون كيف يجيبه فقال مرتبكًا:

- أنا آدم المجنون.. والسائق بصراحة لا أعرف اسمه، فهو أخرس، وقد وجدته ينتظرني في المحطة..

نظر الرجل إلى أصحابه، الذين كانو يقفون على بعد تسعة أمتار ويشاهدون ما يجري، وقال ضاحكا:

- هل أنت مجنون حقا؟

- لا.. لا أعتقد أنني مجنون.. هذا لقبي حقًا. قال آدم المجنون بارتباك.

- ومن لقبك بالمجنون..؟ قال الرجل الملتحي ساخرًا.

- لا أعرف؟ أعتقد أن هذا هو لقبي..

قهقه الرجل الملتحي عاليا وكأنه سمع نكتة وقال له:

- تعتقد أن لقبك هو المجنون؟ لكنك لا تعرف من لقّبك بذلك؟ أنت مجنون فعلا، لكن إلى أين أنتما ذاهبان..؟

فأجاب آدم المجنون بارتباك:

- لا أعرف إلى أين نحن ذاهبان! لقد جئت لا أعرف من أين ولكني أتيتُ، ورأيت هذا السائق الأخرس في انتظاري بالمحطة، فركبت، وها نحن نسير منذ أيام وليال دون أن نصل إلى أي مكان، ولا نعرف إلى أين نتجه؟

كان الرجل المسلح يستمع إليه بانتباه شديد ومع مضي آدم المجنون بالكلام كانت ملامح الرجل تتغير إلى أن قال له:

- إذن أنتما من نحن ننتظركما منذ أيام؟

ثم التفت الرجل إلى اصحابة قائلا:

- هما من ننتظر منذ تسعة أيام..!

لم يفهم آدم المجنون معنى ذلك لكنه وجد نفسه يسأله:

- تنتظروننا..؟ لماذا تنتظروننا؟ هل تعرفني..؟

نظر الرجل الملتحي إليه بشراسة وقال:

- لا أعرفك.. ولا يشرّفني أن أعرفك.. وأنما بُلغنا بأن ننتظر شخصين، لا نعرف اسميهما لكن إذا سألناهما وقالا بأنهما لا يعرفان إلى أين يذهبان فهما المقصودان.. هل فهمت أيها المجنون؟

ثم أشار الرجل الملتحي لأصحابه ثم التفت إلى آدم المجنون وقال له:

- نحن ننتظركما..، عليكما حمل هدية إلى المحطة التالية، انتظرني هنا.

ومضى إلى حيث بقية الرجال المسلحون. اقترب آدم المجنون من السائق الأخرس، وأخرج من جيبه منديلا وأعطاه له كي يمسح الدم عن وجهه. نظر السائق إليه وكأنه لم يكن ينتظر مبادرته، وبحركة آلية أخذ المنديل ومسح الدم عن جبينه ووجهه، ثم أعاد المنديل لآدم المجنون الذي وضع المنديل بلا انتباه في جيبه وهو ينظر إلى الرجل الملتحي المسلح وهو يقبل إليهما حاملًا حقيبةً جلديةً سوداءَ بيده.

حين وصل إليهما أعطى الحقيبة إلى آدم المجنون وقال له محذرًا:

- عليك تسليمها لمن تجده ينتظرك في المحطة اللاحقة.. قل له هذه الهدية من آدم نعمتدار، وهو سيعرف، وإياك إياك أن تفتح الحقيبة في الطريق، هل فهمت؟ والآن.. تحركا قبل أن يقبل الليل.. هيا.

وضرب بيده على مقدمة السيارة إيذانًا لهما بالتحرك.

تحركت السيارة بهدوء كعادتها وسط الرؤوس المقطوعة التي كانت تمتدّ على مسافة الطريق إلى أن مرت السيارة في المضيق بين قطعي الجبلين واجتازتهما إلى ما ورائه.

وسارا مسافة وكأنهما لم يصدّقا بأنهما مرّا بسلام، ومن شدة الخوف لم ينظر آدم المجنون إلى الوراء إلّا بعد أن اجتازا مسافة تشعره بالأمان..، وحين التفت لم يجد أية جبال ولا طريق يمضي في مضيق بينهما.. والتفت جانبا فوجد الحقيبة الجلدية، فاستغرب مع نفسه وسأل: «إذا كانت الجبال والرجال الملتحين مجرد وهم، فمن أين أنت هذه الحقيبة الجلدية؟ ومن هو آدم نعمتدار؟»، ولم يستمر كثيرًا في تفكيره.

هبط الليل بكل عتمته على الكوكب، إلا أنهما واصلا السير لاسيما وقد لاحت من بعيد أضواء كثيرة. ظلت السيارة تسير في الليل وهي تبغي الوصول إلى تلك الأضواء. ساعات طويلة سارت السيارة بهما. لم يستطع آدم المجنون أن يقاوم النوم، ولا يعرف كيف دخل مملكة النوم.

حيت استيقظ مرة أخرى وجد أن ضوء النهار قد أنار الكون والشمس تلقي بأشعتها الكريمة البراري القاحلة، وانتبه إلى السائق الأخرس الذي كان يشير فرحا بيديه إلى الأمام، وفوجئ آدم المجنون بأنهما على مشارف مدينة ما.

مدينة غريبة على سفح جبل تتصاعد من قمته الأبخرة والدخان الأسود الكثيف وكأنه بركان على وشك الانفجار. المدينة حديثة المباني. وحين اقتربت

السيارة أكثر قرأ لوحة توضيحية كبرى مكتوب عليها:

أهلا وسهلا بكم في مدينة العدم العظيم»

لم يفهم شيئًا. حين وصلت السيارة المدينة قرأ في مدخلها على لوحة توضيحية أخرى:

«الحي التاسع - الجحيم»

وسارت السيارة في شوارع فارغة من المارة.

دخلت السيارة شارعًا يحمل اسم «الشارع التاسع»، ووقفت أمام مبنى يحمل الرقم تسعة. في تلك اللحظة التفت السائق الأخرس إليه وقال له بصوت مسموع:

- لقد وصلنا.. تفضل بالنزول.. أدخل هذا المبنى، ثم أصعد إلى الطابق التاسع، ومن هناك توجه إلى الشقة التي تحمل الرقم تسعة، وستجد هناك من ينتظرك.!

ذهل آدم المجنون حين سمع السائق الأخرس يتكلم.. وسأله:

- هل كنت تستطيع الكلام؟ لماذا إذًا مثلت دور الأخرس طوال رحلتنا..

فقال له السائق بنبرة جادة وصادقة وكأنه يعتذر له:

- لا.. كنت أخرسا بالفعل، صدقني، الآن فقطت أوحي لي بأن أتكلم فتكلمت، كأنما ثمة من جعلني أتكلم. والآن لا تضيّع الوقت.. هناك من ينتظرك في الطابق التاسع في الشقة التاسعة.!

غادر آدم المجنون السيارة مذهولا وهو يحمل حقيبتة المخطوطات الجلدية والحقيبة السوداء التي أعطاها له الرجل الملتحي. علّق حقيبته على كتفه بينما ظل ممسكا بالحقيبة الجلدية السوداء.

اتجه آدم المجنون إلى المبنى التاسع. دخل البهو. كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا، والتقويم المعلق أمام مكتب الاستعلامات المهجور يشير إلى اليوم التاسع من الشهر التاسع.

مشى نحو جهة المصاعد. وحين التفت نحو نحو الشارع لم يجد السيارة ولا السائق الغامض.

الفصل التاسع

كوابيس حواء الدفتري

حين خرج آدم المجنون من المصعد في الطابق التاسع وجد نفسه في مواجهة ممرّ لا نهاية له. واستغرب أن البناية حينما نظر إليها بعد خروجه من السيارة لم تكن تبدو فندقًا، وأنما مبنى من طوليًا يرتفع لطوابق عديدة، ولم يكن يتوقع أن يجد ممرّا بهذا العرض الغامض!، ومع ذلك سار في ذلك الممرّ وهو يفتش عن الغرفة التي تحمل الرقم تسعة، لكنه استغرب بأن جميع الأبواب لا تحمل أرقاما..!

ظل فترة ليست بالقصيرة يمشي في ذلك الممرّ الذي لم يجد فيه بابًا مرقّمًا، وحين التفت نحو بدايته وجد أنه بالكاد يرى المصعد.

مشى في الممر مئات الأمتار دون أن يجد الباب المقصود!! وفجأة، ودون عناء وجد أنه أمام الباب الذي يحمل الرقم (9).!.

ذهب إلى الباب الذي يليه ليتأكد من التسلسل فلم يجد إلاّ بابًا واحدًا يحمل رقمًا.. عاد إليه. وحينما أراد أن يضغط على الجرس وجد الباب مفتوحًا.

دخل بحذر شديد وباحتراس واضح، فقد وصل الى المكان الذي عليه أن يعرف فيه هدف رحلته؟ ويجد الإجابة على الأسئلة التي داهمته خلال تلك الرحلة: من أين جاء؟ ومن هو؟ وما معنى تسليم الحقيبة السوداء التي هي هدية من آدم نعمتدار؟ ولمن عليه تسليمها؟ وما سر السائق الأخرس الذي نطق عند الوصول فقط..؟

ما أن خطا آدم المجنون في الشقة، حتى نزع حقيبته عن كتفه ووضعها مع الحقيبة السوداء التي سُلمت له على الأرض وسط الشقة، لكنه فجأة أطبقتْ الباب خلفه بقوة، ووجد نفسه في اللامكان.

لم يستطع أن يرى شيئًا. كان كل شيء غارقا في الضباب، وكأنه في وسط غيمة هائلة، ومع ذلك خطا لا إراديا في ذلك الضباب واختفى فيه.

***

منذ اللحظة التي دخل فيها آدم المجنون إلى شقة اللامكان تشكلت مجرات وولدت نجوم وكواكب، وانطفأت نجوم وكواكب، وهوت في ثقوب مظلمة، ومع ذلك ظلت الشقة في ضباب اللامكان.

وحين وصلت المرأة التي في الثوب الأسود في ما بعد، والتي كان يفترض أن تصل قبله، كان قد مر تسعة قرون من الزمان.

المرأة في الثوب الأسود مرّت بالحيرة نفسها مع أرقام الشقق في الممر الطويل الطويل، واستغربت أيضا حينما لم تجد سوى بابٍ واحد يحمل رقمًا هو الرقم (9).

كانت أمام الباب. أرادت أن تضغط على الجرس، لكنه وقبل أن تمد كفها انفتح من تلقاء نفسه. دخلت المرأة في الثوب الأسود، بعد تسعة قرون، إلى الشقةَ.

كان ضباب اللامكان لا يزال موجودا. لم تتردد قط، بل خطت إلى وسط المكان، لكنها أثناء مشيها تعثرت بشيء ما أمامها فسقطت متدحرجة وارتطم رأسها بشيء صلب وغابت عن الوعي.

لم تعرف كم مرّ عليها وهي غائبة عن الوعي، لكنها حين فتحت عينيها وجدت نفسها في الشقة التي وُجّهت إليها، بيد أن الضباب قد انقشع فتبيّنت المكان.

حاولت أن تسترجع ما جرى معها منذ لحظة دخولها إلى الشقة لكنها عجزت من أن تتذكر شيئًا، فها هي ترقد مستلقية على الصوفا الجلدية في زاوية صالون الشقة..!! كيف هذا وهي لا تتذكر أنها استلقت على الصوفا!. ثم انتبهت لنفسها بأنها ترتدي ثيابًا غير الثياب التي جاءت بها ودخلت الشقة. هي الآن ببنطلون جينز أزرق وفانيلة بنّية اللون، وشعرها مصفوف للوراء ومشدود بحيث لا يتهدل على كتفيها.

تمعّنت مستطلعة في الشقة. راودها إحساس بأنها تعرف هذه الشقة، وانها كانت فيها في زمن ما، لكن أيضا يسيطر عليها إحساس وكأنها تراها لأول مرة..!.

ألقت نظرة على وسط الشقة فرأت حقيبتين متجاورتين. واحدة جلدية بحزام للتعليق على الكتف وتظهر منها مخطوطات كثيرة، وأخرى حقيبة جلدية سوداء. سألت نفسها من ترك هاتين الحقيبتين في وسط الشقة وكأن هناك من جاء من سفر ووضعهما في وسط الشقة لكنه اختفى؟! أيكون قد ذهب للحمام؟ لا. كيف يترك صاحب الشقة حقيبتيه هنا؟ وراودها فضول قوي بأن تتفحص الحقيبتين. وما أن أرادت النهوض حتى فزّت على صوت جاء من زاوية قريبة من الصالون. انتبهت إلى جهة الصوت فرأت طاولة للكتابة عليها جهاز كمبيوتر تعلن شاشته عن وصول رسالة، كما انتبهت إلى وجود بعض الكتب إلى جانب الجهاز. وكانت شاشة الجهاز تعطي إشارة أشبه بالإنذار أو النداء العاجل.

لا تدري كيف راودها هاجس بأن الرسالة موجهة لها وعليها معرفة مضمونها ومعرفة مرسلها. قامت بهدوء مشوب بحذر وتوجهت نحو طاولة الكتابة وضغطت بفأرة الجهاز على إيقونة الملف، فانفتحت بعد ثوان صفحة موجهة إليها، وقرأت بفضول واستغراب:

«من الصعب أن يكون المرء صادقا.. صادقا في كل شيء..!.. قد يكون صادقا في أمور لا تشكل خطرا عليه أو على عالمه.. لكن من الصعب عليه أن يكون صادقا في أمور تهدد وجوده..!.

أكتب لك ذلك لأنني أعرف أنك من كتب سلسلة رواية «المتاهات».. أنت من أوجد شخصية آدم البغدادي الذي بدوره اوجد شخصية آدمن التائه الذي بدوره أوجد شخصية آدم المطرود.. كما أنت من أوجد كل ذلك الحشد من الحواءات والأوادم، مثلما أنت من أوجد شخصية آدم الأكويني وآدم الغوريلا وحواء المتهورة وحواء سرّ الختم وحواء المستكفي وحواء العاقل، مثلما أوجدت آدم المجنون وألقيت به في الغياب..!.

أعرف أنك المؤلفة التي كتبت كل هذه الشخصيات، لكنك نفسك لست أنت..! فأنت حواء الدفتري وأنت في الوقت نفسه كل الحواءات التي كتبتِ!.. وطبعا لا أحد سيصدق بأن من كتب كل هذه الروايات وأوجد هذه الشخصيات كلها هو أنتِ، لكني أعرف ذلك..!.

أعرف أنك تعيشين كوابيس شخصياتك ورعبهم ووتتصورين أنك بكتابة تلك الحكايات المرعبة أنك ستتخلصين من كوابيسك، لكن لا.. أنت مخطئة. قومي افتحي الحقيبة الجلدية السوداء التي سلّمها الرجال التسعة لآدم المجنون!.. قومي افتحي لترى بنفسك..!»

توقفت المرأة عن القراءة وسألت نفسها بتوجس: «من تراه هذا الذي يكتب لي كل هذا ويعرف كل هذه التفاصيل عني..؟ وكيف عرف اسمي حواء الدفتري؟». ولا شعوريا لم تواصل القراءة مع أن الرسالة لم تنته بعد، واتجهت إلى وسط القاعة حيث الحقيبتين، حقيبة المخطوطات والحقيبة الجلدية السوداء..!

اقتربت من الحقيبة الجلدية السوداء وجلست لتفتحتها. وفي تلك اللحظة قفزت مرتدة للوراء، فقد رأت رأسين مقطوعين، وعرفت مباشرة لمن هما. كانا رأس إيفا مادهوري وحبيبها آدم بوناروتي!. وفي الحقيبة قصاصة كتب عليها: «إلى كاتبة المتاهات.. هذه هدية لك من آدم نعمتدار.. وإلى اللقاء.».

«ما معنى هذا؟ ما معنى «إلى اللقاء»؟ ثم أن الرسالته تشير إلى أنني كاتبة «المتاهات»؟»، سألت حواء الدفتري نفسها» من المؤكد أن الإجابة في الرسالة المرسلة لي».

تركت الرأسين في الحقيبة الجلدية السوداء واتجهت للشاشة كي تواصل قراءة الرسالة:

«هل رأيت ما في الحقيبة؟ هي الهدية المرسلة إليك من إحدى شخصياتك، من آدم نعمتدار، الذي فضحته في روايتك «متاهة العميان» مما أثار غضبه، فقرر أن يرسل إليك هدية.. أرسل إليك رأس إيفا ماريا مادهوري زوجته الشابة التي بعمر حفيدته ورأس عشيقها الفنان العراقي الايطالي المغترب آدم بوناروتي..!وقد هددك باللقاء..! أليس كذلك..؟!.»

توقفت حواء الدفتري عن القراءة منذهلة مما قرأت، وأخذت تتلفت في الشقة وتنظر للأعلى في السقف، فقد خطر في بالها بأن ثمة كاميرات موضوعة في الشقة تنظر إليها وتنقل تحركاتها، وسألت نفسها «كيف عرف كاتب الرسالة بأنني فتحت الحقيبة وقرأت قصاصة الورق المرسلة من آدم نعمتدار..؟».. لكن فضولها كروائية كان قويًا لذا تابعت القراءة:

«أحيانا نعيش في الحياة والعلاقات الاجتماعية والعاطفية أدوارًا مزيفة. نجد أنفسنا نؤديها بصدقٍ شديدٍ ومعاناة على الرغم من معرفتنا بأنها أدوار

مزيفة وهي لم تُعدّ لنا أصلا، وأن الاستمرار فيها سيرهقنا، ومع ذلك نواصل الأداء فيها!، وبالمناسبة هذا ينسحب على كل المهن والأدوار السياسية والاجتماعية والثقافية..!

هل تعرفين يا سيدتي حواء الدفتري بأنه يحدث أحيانا أن يتملكنا شغف لممارسة أشياء تافهة أو قراءة أشياء تافهة أو الاستماع إلى أغاني تافهة وحكايات تافهة حيث تمنحنا تلك الأشياء التافهة نوعا من الراحة والاسترخاء وتمنحنا شعور الانغماس اللاواعي في مجرى الحياة..!

ويحدث أيضا أن تختلط الأمور في أنفسنا فلا نعرف ماذا علينا نفعل؟ يحدث أن نحب الصمت لكننا في الوقت نفسه نثرثر إلى ما لانهاية، ونحب التسكع في الشوارع والجلوس في المقاهي وتأمل المارة وفي الوقت نفسه لا نغادر البيت..!؟

أنت الآن تفكرين من أنا؟ هل أنا آدم أو حواء؟ فكتابتي لا تشي بجنسي.. أعرف ذلك..!

في طفولتي كانت أجمل هواياتي أن أقبض على الهواء..! لا تستغربي. كنتُ حين أصعد في أية سيارة أحرص أن أكون قرب النافذة، وكنت أخرج كفي من نافذة السيارة وهي تسير لأحس بالهواء لصده، لأقبض عليه. كنت أطبق عليه بكفي لكنه كان يتسرب بسرعة مذهلة، أفتح كفي مرة أخرى فأحس به فأقبض عليه لكن دون جدوى، فأستسلم له وأبقي كفي مفتوحة لتشعر به وتلامسه، وحين كبرت وقرأت «سِفر الجامعة» في «العهد القديم» تذكر الجملة الهائلة: الكل باطل وقبض ريح...!

وكبرتُ.. هل تدركين أيتها الكاتبة حواء الدفتري ما معنى أن يستيقظ المرء صباحا ويشعر أنه مرهق.. مرهق من طول النوم، أو مرهق من قلة النوم، فيصحو المرء عكر المزاج ويكون طوال اليوم نعسانا ويتثائب في كل مكان.!!، ولكن على المرء أن يبتسم، فلا علاقة للآخرين بإرهاقه، وعليه أن يبتسم لا بدافع السرور وأنما لأن ذلك يرضي الآخرين، حيث سيقولون عنه أنه مرح ومتفائل، فيبقى طوال يومه تعيسًا يسعى لرضى الآخرين وليس لتحقيق ما في نفسه! لذا أقول لك لا تنخدعي بابتسامات الآخرين وضحكهم فتحتها ربما تجدين رغبة قوية للبكاء.

هل تؤمنين بالله يا حواء الدفتري؟ لو سألت أمي هذا السؤال لأجابتني: وهل هناك من لا يؤمن به؟ حتى الملحدين في لحظات الشدّة ومنعطفات

الموت والحياة يتوجهون إليه! ومع أن أمي امرأة بسيطة جدا إلّا أنها قالت شيئا عميقًا جدًا.

لا أريد الوضوح في حديثي معك، لآن الوضوح أحيانا لا يرحم، ونأسف لأنه لا يرحمنا ونندم على وضوحنا في الكثير من الأحيان والمواقف.

أتعرفين.. أحيانا أرى أمي في المنام وهي تناديني وتدعوني للصبر على عاديات الزمان.. عاديات الزمان تعبير عتيق. سأقول لك شيئًا: الجبن أحد سماتي، فأنا أتشبّث بهذه الحياة، بهذا الحضيض الذي نسميه الحياة، ويالها من حياة، فهي أشبه بحياة الخنازير، ومع ذلك نحرص على أن نتمرغ في نتانتها ونؤثث في حظيرتها...!

أتعرفين معنى أن نعيش بعالم الحلم ونحلم بالحب ونكتشف أنه خديعة كبرى ومصيدة وفخ شائك وموجع لك.!!

لا تعتقدي أنني لا أقدّرك وأقّدر موهبتك وأعمالك ورواياتك. البعض يأخذ عليك بأن حواءاتك يفكرن من بين أفخاذهن، بينما أنا أرى أن كبريائهم الجنسي هو الذي يدفعهم لتأكيد غريزة الجسد والتعالي بها، ومع كل هذا الصخب في العلاقات فأن شخصياتك منعزلة وكئيبة في أعماقها، ومع رقتها الظاهرة فهي قاسية في أعماق اللاوعي، والعكس صحيح، مع قساوتها الظاهرة فهي رقيقة في الأعماق..!.

لا أعرف أين قرأت ولمن.. ربما لدستويفسكي، بما يشبه الوصية، بأن لا تكرهوا الملحدين وأساتذة الشر الماديين، وحتى الشريرين منهم، لأن الكثير منهم طيبون، وخاصة في عصرنا..!

لكن لماذا أحدثك عن كل هذا؟

أنت تقرأين ما أكتب لكن فكرك كالحاسوب يفتش عن هويتي ليعرف من أنا.. أليس كذلك؟

طيب أتريدين أن تعرفي من أنا؟

ما أقوله سيصدمك بالتأكيد، لكنه أيضا لا يضرك ولا يصيبك بسوء، لأني أعرف عنك ما لا تعرفيه أنت عن نفسك؟

أنا قلت لك أنت الكاتبة حواء الدفتري كاتبة المتاهات.. هذا صحيح لحد ما.. لكن ليست الحقيقة كلها!، فأنت كمن يحاضر في الزراعة والبستنة من قاعة المحاضرات لكنه لم يكن في الريف والحقول والمزارع قط ولا يعرف

من الأرض والزرع سوى حديقة بيته الصغيرة التي ليس فيها سوى العشب وربما شجرة معمرة.. بمعنى أنت كتبت عن حيوات عشرات الحواءات والأوادم لكنك لم تعرفي عمق وهول كل هذه المعاناة بشكل حقيقي سوى معاناتك الشخصية.

أنت يا حواء الدفتري امرأة افتراضية! انت شخصية روائية أيضًا! قلتُ لكِ أنتِ لست أنتِ كما تعتقدين لكنك ربما لم تفهمي مغزى جملتي! ربما فهمتها فهما فلسفيا ووجوديا بأننا لسنا كما نشكل تصورنا عن أنفسنا لأننا نفكر بأن أنانا هي ذاتنا، بينما ذواتنا ليست أنانا، ذواتنا هي لاوعينا الذي لا نعرفه..!، لكني قصدت أنك لست حواء الدفتري كاتبة المتاهات التي ساقتْ خلفها شخصًا افتراضيا اسمه آدم المجنون لتروي من خلاله خلاصاتها مع محطات المتاهات، وحينما وصلت لمتاهتها التاسعة ألغت آدم المجنون وغيبته في اللامكان..!.

أنت الآن يا حواء الدفتري في منطقة اللامكان، فقد انتهى حضورك. أنت في الحقيقية لست كاتبة المتاهات وأنما أنت شخصية افتراضية، افترضتك بأنك كاتبة المتاهات، لكنك الآن شخصية روائية، أنا كاتبك آدم الأعمى..!

بعد قراءة هذه الرسالة ستختفين.».

حين وصلت حواء الدفتري إلى الجملة الأخيرة أحست بأن الضباب بدأ يملأ الشقة فجأة. غمر الضباب كل شيء. واختفى كل شيء.

الباب الثالث

آدم الأعمى

1

آدم اللاأحد

مر وقت طويل جدًا على اختفاء حواء الدفتري في الضباب. وحين دخل آدم الأعمى وهو يسترشد بعكّازه كان الضباب قد انجلى عن الشقة.

مشى آدم الأعمى في الشقة وكأنه بصير وعليم بها. توجه نحو المكتب. جلس على الكرسي حول طاولة الكتابة، ومسك عصاه التي طواها وداخل بينها فصارت بقبضة يده، ثم وضعها أمامه على الطاولة.

كانت الشاشة مضيئة ومفتوحة على صفحة رواية تحمل عنوان «متاهة العدم العظيم».

ومع أنه أعمى ويضع نظارة سوداء ليغطي عينيه إلاّ إنه مدّ يده إلى سلّة بلاستيكية موجودة إلى جانب جهاز الحاسوب، أخذ شريحة بلاسيكية مطاطية منقوش عليها رموز مختلفة، كانت تشكل مفتاح حروف لغة العميان.. أبجدية كاملة.. فرشها بين كفية ووضعها على لوحة مفاتيح الحروف أمامه فالتصقت بمفتاح الحروف. كان الجهاز مهيئًا بحيث هو يضرب على حرف فيظهر على الشاشة الترجمة العربية للحرف. حرك آدم الأعمى فأرة الجهاز ونزل إلى صفحة بيضاء وكتب:

«الخوف من المجهول هو من المخاوف الكبيرة والعديدة التي يتجنبها الإنسان في حياته. الإنسان يخاف ويتردد أن يخطو أية خطوة في أمر لم يحسبه جيدًا ولا يعرفه جيدًا. نعم الخوف من المجهول أقسى أنواع الخوف، لذلك نحن نخاف الموت..!.

لا. هناك ما هو أقسى من الخوف من المجهول، أقصد معاناة الوحشة، فالذي يعاني الوحشة يكون على استعداد بأن يقذف نفسه في هاوية المجهول هروبًا من وحشته وعزلته، وليس من السهل أن يتخيل المرء معنى الوحشة والعزلة والوحدة. لكنها درجات وطبقات من الشيء ذاته. ليس سهلًا أن يتخيل المرء نفسه وحيدًا، مريضًا، محبطًا من الآخرين، تراوده الخواطر بدنو أجله، إذ ليس أمامه سوى انتظار الفناء والموت! هذا أمر قاس جدا.

والوحشة أنواع. ليست هي بالضرورة أن تكون وحيدًا، فأنت كثيرًا ما تشعر بالوحدة وأنت مع الآخرين.. تعيش معهم في البيت الواحد أو تشاركهم مكان العمل أو الدائرة. ومنبع هذا الشعور أن من معك لا يقاسمك لحظات سعادته أو يهمه لحظات سعادتك، وكذا في لحظات الحزن والكآبة حينما تعيش مع إنسان ولا تعرفه وهو لا يبدي أي اهتمام لمعرفتك..!.

لقد عرفت صديقي آدم اللا أحد، ذاك الذي كان نحيلًا وعليلًا على الدوام، شاحب الوجه، فقيرًا، يبدو دائما وكأنه لم يأكل كفايته أو عاني من جوع لأيام، لكنه كان يتوهج بطاقة غير عادية، مع أنها طاقة مرضية، عصبية. فقد كان، أو يسعى لكي يكون، حيويًا وحاضرًا بقوة في النقاشات وفي حلقات الأصدقاء الصغيرة، لكن سرعان من تنطفئ تلك الحيوية وينزوي صامتًا، لا سيما حين لا يتم الاهتمام بما يقول ولا يثير اعجابهم وأنما يتم استقبال آرائه كشيء عادي..!.

كان آدم اللا أحد يشاركنا في جلساتنا وأماسينا على شارع أبي نؤاس، أو حين نكون في إحدى البارات. وكان يحاول أن يبدو شريبًا، بيد أنه كان يسكر من قنينة بيرة أو جرعة من العرق المستكي، وحينها يتحول إلى عربيد يهذي ويشاكس ويتجرأ في مهاجمة أشياء لا يتجرأ عليها عندما يكون صاحيا..!

ومع أنه يلّح في توثيق علاقاته الصداقية والاجتماعية مع الآخرين بل ويتشبث بهم، لكنه مع ذلك لم يكن محبوبًا من أحد، ولم يستطع أن يحضى بثقة أحد ناهيك عن مودتهم، بل لم يكن أحد يشفق عليه.. سواي..!. ومع أن حلقة الأصدقاء كان يجلّونه في أعماقهم، أو في غيابه، لأنه كان قارئًا نهما ولديه آراء نقدية متطرفة حول الكثير من الشعراء والكتاب النجوم بحيث إن جرأته في السخرية اللمّاحة منهم كانت محل إعجاب بل وغيرة الآخرين الذين لا يتجرأون على قول كلام واضح في قصيدة ردئية لا يفهمومنا كي لا ينعتهم الآخرون بأنهم لايفقهون شيئًا في الشعر، بينما كان هو لا يتردد في أن يقرأ رواية ويقول عنها إنها تافهة حتى لو كانت كاتبها اسما نجمًا، أو يقرأ مجموعة شعرية أو قصيدة ويقول عنها إنها ساذجة حتى لو عُدّ صاحبها شاعرًا مجددًا وطليعيًا.!.

كان متطرفًا في نقده، لذلك حين كان يحضر إلى المقهى في الكرادة، ويجالس حلقة الأصدقاء الذين يعدّون أنفسهم ممثلوا الثقافة في بغداد، مع إحساسة بعدم رغبتهم في ذلك إذ كانوا أحيانا لا يتورعون في التعبير عن عدم الرضى ذاك من خلال إهماله وعدم الالتفات إليه، لذا يظل صامتًا، لكن حين يدور الحديث عن أديب أو شاعر أو رواية كانوا يلتفتون إليه، وكان هو يعاندهم حينها فيبقى صامتًا، إلى أن ينفد صبر أحدهم فيسأله عن رأيه ليقول كلمته الساخرة وكأنها حكم قدري أو قرار قاض في محكمة.

حتى في حياته العاطفية كان متطرفا، فالنساء لديه أما قديسات أو عاهرات، باستثناء الرجال فكلهم أوغاد وأنذال، ومع ذلك كان على الرغم من نحوله وعدم جاذبيته الجسدية وتوتره العصبي لا يميل للنساء السهلات اللاتي يمكن الوصول إليهن دون مشقة، بل كان يخاف النساء السهلات. كان يعد نفسه محظوظا لو ابتسمت له امرأة عابرة حى لو كانت ابتسامة شفقة، لكنه لا يرضى بعلاقة تلقائية وبسيطة، وأنما كان يعشق النساء الصعبات، فكلما تمنّعت عليه المرأة عدّها الغاية والقديسة التي عليه تلاوة صلاة العشق في محرابها!. وقد صدمه أحد الأصدقاء الذي استمع إليه وهو يتحدث عن واحدة من ملائكته المتمنعات، فاستبان منه عنها بطريقة غير مباشرة، وبعد شهر جاء بالخبر اليقين بأنه أخذ تلك المتمنعة إلى شقة صديق وكشفت عن دعارة لا تجاريها العاهرات، وحين أخبرنا عن ذلك لم يصدّق صاحبي كلامه بل تشاجر مع ذاك الصديق، فما كان من الآخر سوى أن يدعو الجميع لكي يشهدوا على صدق ادعائه، واتفق معهم على أن يأخذ تلك المرأة إلى الشقة المعنية وهم يأتون على حين غرة ليروا الأمر بأنفسهم، مع ذلك اتهمه آدم اللاأحد بالكذب.

كان صديقي غريب الأطوار. يعبّر دائما عن أفكار غريبة تحتقر الدنيا والشهرة والمجد بطريقة فلسفية أحيانا، لكن الأصدقاء كانوا ينظرون إليه ويبتسمون ويدمدمون بأنه يعبّر عن حقدٍ طبقيٍ وعدمية نيتشوية، فهو متعطش للمجد والشهرة لذا هو يعبّر عن حقده على مَن حصل عليها. وذات مرة دخل المقهى شاعر معروف جدًا في العراق، شاعر صعد على أكتاف حزبه اليساري وما أن صار نجمًا حتى ترك الحزب مقتربا من السلطة الدينية، وجلس هذا الشاعر على أريكة بعيدة عنّا فتحلّق حوله عدد من المنافقين والأتباع بمن فيهم معظم أصدقاء حلقتنا الصغيرة، فنظر هو إليه من بعيد باستخفاف وقال لي:

- بعض الناس لا يقبل إلا أن يعيش تحت الأضواء.. لا تهمه طبيعة النظام، بعثيا كان أو شيوعيًا أو إسلاميًا، المهم أن يكون تحت الأضواء.. هذا البعض يعيش مجده في حياته بغض النظر إن كان

يستحق المجد أم لا!.. آه كم تحمل الأرض من بشر لا ضرورة لوجودهم على سطحها أبدًا.

ومع ذلك كان أحيانا يبوح لي بأسراره ويخبرني بأشياء مهمة تخصّه وتخص رؤيته الفلسفية، يبوح بشذرات فكرية مضيئة عن التغيير والحرية، لكنه كان مع ذلك يعجز عن اتخاذ أي موقف!. ومع أن لديّ تحفظ رزين من السخرية والهزء سواء من الشخصيات العامة أو الخاصة، لكني والحق يقال كنت ابتسم لتلميحاته وسخريته الذكية من الآخرين والمواقف والأشياء!. أما في السياسة فكان عدميًا ساخرًا ومستهزئًا، إذ كان يشبّه الأحزاب الحاكمة بعد الاحتلال وقبلها النظام الدكتاتوري، بأنهم مثل الديك بالضبط. رجلاه مطموستان في الخراء ومع ذلك يرفع رأسه متبخترًا بعرفه الأحمر ليصيح: كوكو كوكو.. أنا سيد العالم وحامل الخلاص لكم، جئت لأوقظكم من سباتكم أيها الغوغاء!..

كان يسعى أحيانًا ليضحك الآخرين بينما يبقى هو مكفهرًا، لكن إذا ما ضحك هو فمعنى ذلك هناك شيء مشؤوم..!.

كان مهووسا بالأدب الروسي وبدستويفسكي!. مرة وفي جلسة استرخاء عند ظهيرة صيف في المقهى وكان الحديث يدور عن دار نشر لبنانية أخذت تنشر روايات دستويفسكي دون ذكر اسم المترجم، فسأل الجميع بكل وقاحة وتحد:

- أنتم تدعوّن أنفسكم خبراء بعالم دستويفسكي، وتتحدثون بعشق وهيام عن راسكولنيكوف، فهل تعرفون ماذا فعل وهو يخطط لقتل المرابية العجوز إليونا إيفانوفنا..؟

صمت الجميع وبعضهم شعر بالإحراج وبالاستفزاز، وحين لاحظ أنهم تضايقوا قال لهم:

- طيب سأقول لكم ماذا فعل راسكولنيكوف وهو يخطط لجريمته، فقد قام بعد الخطوات منذ لحظة خروجه من منزله وحتى الوصول إلى باب بيت المرابية العجوز..!

استرخى الجميع من الإجابة وأبدوا إعجابا بنباهته، لكنه أفزعهم مرة أخرى بسؤال آخر:

- وهل تعرفون كم هي عدد الخطوات التي حسبها وعدّها راسكولنيكوف..؟

وأخذ ينظر إلى وجوههم وكأنه مفتش يبحث عن اللص، ثم قال بنبرة استعلائية تعليمية مشوبة بحس المنتصر:

- سبعمائة وثلاثون خطوة بالتمام.. لقد حسب ذلك ذات يوم وهو يحلم حلمه الدنيء، لكنه حين شرع في التجربة، وخرج لتنفيذ جريمته، كان يحس بثقل كل خطوة يخطوها. كل خطوة كانت رعبا.

ولمح بريق الإعجاب في نظراتهم، لكن أحدهم شاكسه سائلا:

- وهل كنت معه حين عدّها؟

فنظر إليه باحتقار وقال:

- لم أكن أنا معه يامولانا، وأنما الحاج دستويفسكي كان شاهدا على ذلك.

وضحكنا لأن لقب الحاج صار موضة هذا الزمان مع الأحزاب الإسلامية الحاكمة.

ومع أنه يبدو لا حول له ولا قوة، ومسالما بشكل عام، لكن لو كنت أؤومن بمنطق القلب لقلت إن له قلبا شريرًا.!. ولا أدري لماذا كنت أقارنه بشخصية راسكولنيكوف كما وصفها دستويفسكي، ربما لأنه كثيرًا ما كان يتحدث عنه بحماس.!. ويبدو لي أن راسكولنيكوف أكثر طيبة منه وأكثر رحمة. والحقيقة هو نفسه كان يشبّه نفسه بتلك الشخصية الروائية. فقد كان يقول عن نفسه إنه مثل راسكولنيكوف كما وصفه دستويفسكي، بل كما تركه وهو ينتقد نفسه ويبوح في لحظة تداعٍ نفسيٍ بأنه إنسان غيور، حسود، منحط، شرير، حقود يحب الانتقام، ومهيئ للجنون. ثم يتوقف ليعارض نفسه قائلا: لكني لست كذلك، فأنا لم أقتل لأسرق بل إنني أعطي المحتاجين آخر ما عندي».. وهذا صحيح وأشهد له به، وشخصيا لم أجد بينه وبين راسكولنيكوف سوى صفة واحدة هي أنه مهيئ للجنون فعلًا.!.

وفي شتاء عام ما من شتاءات هذه السنوات المرعبة اختفى لأسابيع. لم يقلق عليه أحد من الأصدقاء سواي. وحين امتدّ غيابه ذهبت أبحث عنه حيث يسكن!. وكان هو قد وصف لي منطقة البتاوين ووصف بالتحديد مطبعة هناك، وقال لي إنه يسكن الدار المجاورة للمطبعة من اليسار، وفعلا قررت زيارته لأتفقد أحواله وسبب غيابه. لم يكن الوصول إلى الدار صعبًا! فما أن وصلت إلى المطبعة حتى وجدت الدار. طرقت الباب فلم يجبني أحد، فدفعت الباب الذي لم يكن مقفلًا ودخلت.

كانت ثمة شجرة في وسط الباحة.. شجرة سدر عالية. استغربت أن تكون هناك شجرة عالية تغطي طابقي الدار. لم يكن ثمة أحد في الدار حتى بدا لي وكأنه مهجور، لكنني سمعت مواء قطة يأتي من غرفة مجاورة، ثم قفزت القطة خارج الغرفة من بابها الضيق، وسمعت صوت شيء يرتطم بالباب فخمّنت أن هناك من رمى القطة بنعال أو بشيء ما. وبهدوء تقدّمت من الباب وطرقت عليها طرقات خفيفة.. فسمعت صوت نسائيا يقول لي:

- أدخل..

فتحتُ الباب ودخلت. رأيت امرأة سمينة جدًا، تل من الشحم واللحم، تجلس على الأرض وهي ممدّدة الساقين للأمام وبينهما صينية كبيرة فيها مختلف أنواع الطعام المتناقض، مطعم متنوع الأطعمة.. برياني دجاج مع صحن فيه آيس كريم إلى جانب صحن فيه تشريب الدجاج، وصينية صغيرة عليها رغيف خبز يغطيه اللحم المشوي كفتة وكبابا، إلى جانب قطعتين من الشكولاته!!. وكانت لحظة دخولي تقضم قطعا من الشكولاتة.

فوجئتْ حين رأتني، فقد حسبتني حين طرقت الباب واحدًا من النزلاء، لذا خافت حين رأتني وقالت باستفزاز:

- من أنت وماذا تريد..؟

أدركت خوفها مني فقلت لها مهدئا:

- أنا صديق آدم.. آدم اللا أحد.. منذ فترة لم ألتقيه، فخفت أن جرى له مكروه.. لذا جئت أزوره..

كانت المرأة تحدّق في وجهي وكأنها تريد أن تتأكد من صدق قولي، ويبدو أنها اطمأنت لي قليلًا، لذا استرخت قليلا وقالت:

- المسكين.. هذا المقطوع من شجرة.. لا أحد لديه.. لقد نقلناه إلى المستشفى قبل أسبوع بعد أن أخذ يتقيء دمًا. بقي بضعة أيام هناك لكن الأطباء قالوا إن حالته منتهية وأيامه قليلة فالسل دمر رئتيه. كان هناك تحت رعايتهم، لكنه أصرّ على الخروج، فقد قال لهم إنه يريد أن يموت بين كتبه وأصدقائه. أنا أعرف أن لديه كتبًا لكن لم أعرف له أصدقاء سواك الآن.. اصعد إليه.. إنه في أول غرفة على اليسار.

حين استدرت أريد الخروج مدّت لي بصينية المشويات وقالت لي:

- خذ صينية الكباب له فربما لم يأكل شيئا. هو يسميني حواء المرابية، واحيانا يطلق عليّ اسما روسيا يقول إنها لعجوز في كتاب، ولا أتذكر اسمها الصعب.. مسكين.. ربما هو مجنون لا أدري.. هو رهن عندي ساعة يدوية قال إنها لأبيه، ووعد بأن يستعيد الرهان لكنه لم يفعل.. لكن أنا كما ترى يا بُني لا أستطيع الحركة ولا أستطيع الصعود إليه، ولا أعرف متى يأتي أو يخرج! أحيانا أريد أن أعرف هل هو حي أو ميت لكني لا استطيع الحركة..

أخذت صينية المشويات التي كانت دافئة ولم تبرد بعد وصعدت وأنا ابتسم في أعماقي من صديقي المهووس بدستويفسكي وراسكولنيكوف، إذ حتى صاحبة المنزل أطلق عليها اسما المرابية العجوز من رواية «الجريمة والعقاب».

طرقتُ باب الغرفة الأولى على اليسار. كانت شبه مفتوحة، فدخلت، ورأيته. فتح عينيه مرعوبًا ومتفاجئًا وفرحًا في الوقت نفسه. أراد أن ينهض، فأسرعت إليه وقلت له: «لا تتعب نفسك».. وجلست على حافة السرير من ناحية قدميه.

كانت الغرفة مليئة بالكتب. لم أصدّق أنه قد اشترى كل هذه الكتب، فهي تشكل ثروة لا بأس بها، بل ولا تتناسب مع البؤس والحرمان الذي يعيشه. كانت هناك ملصق يتضمن صورة لممثل روسي يحمل فأسا، فعرفت أن الملصق هو لفيلم «الجريمة والعقاب». وتذكرت على الرغم من الوضع الذي أنا فيه مقارنة صديقي لنفسه مع راسكولنيكوف، ورأيت أن الممثل لشخصية راسكولنيكوف كان وسيمًا جدًا مقارنة بصديقي المسلول، حين رآني أتأمل ملصق الفيلم ارتسمت، على الرغم من الإجهاد والشحوب، شبح ابتسامة على شفتية اليابستين ووجهه المليء بالعذاب.

لم أكن أعرف ماذا عليّ أن أقول. كل شيء كان صدمة لي، فلأول مرة أزوره، وهي المرة التي أراه وهو في أيامه الأخيرة!. أحسست أنني أحبّه بعمق، لم أكن منتبها لمشاعري السابقة حوله، لكني الآن، الآن بالذات، اكتشفت أنني أحبه كصديق وحيد، ويبدو أنه أدرك جوهر مشاعري نحوه فمسك كفي وحاول الكلام. ربتّ على كفّه التي تقبض على كفي وقلت له:

- لا تتعب نفسك بالكلام.. جارتك البدينة الطيبة، حواء المرابية، أرسلت لك صينية من المشويات! لكن لماذا لم تخبرني بوضعك؟ ولماذا لم تتصل بي؟!

ارتسمت على وجهه ابتسامة شاحبة جدًا أشبه بابتسامة الموت. وضعت صينية الكباب على طاولة قريبة من جهته. وفي تلك اللحظة بالذات تذكّرت بأنه لم يكن لديه جهاز هاتف نقّال لذا لم يكن بإمكانه الاتصال بي. كنا في حلقة الأصدقاء نعدّ عدم امتلاكه لهاتف نقال جزءًا من غرابته وليس بفعل الفقر والحرمان. ابتسم لي بجهد قال لي وهو يشير بنظراته نحو ملصق الفيلم:

- هل تتذكر اللحظة التي فكّ فيها راسكولنيكوف أزرار معطفه وسلَّ الفأس..! في تلك اللحظات لم يخرج الفأس تماما، لكنه كان يمسكها بيده اليمنى تحت المعطف، حينها اعترى ذراعه ضعف شديد، وقد كان يحس أنها تزداد تخدرًا وثقلًا لحظة بعد لحظة. خشي لحظتها أن يرخي الفأس وأن يتركها تسقط، وأخذ رأسه يدور، وحينها.. ما أن نطقت المرابية العجوز بجملة ما.. أحس هو أنه لم يبق متسع للحظة يضيّعها.. وها هو ذا يخرج الفأس، ويشهرها بكلتا يديه ويسقطها على رأس العجوز وهو لا يكاد يعي ماذا يفعل، ولا يكاد يبذل جهدًا، حتى بدتْ الحركة التي قام بها حركة آلية.. حركة تمّتْ من تلقاء نفسها دون أن تتدخل فيها قواه.. لكنه ما أن أسقط الفأس حتى عادت إليه قواه ووعى هول ما فعل!. نعم. هل تدرك عمق ورعب تلك اللحظة التي أدرك راسكولنيكوف فيها بأنه لم تعد هناك لحظة ليضيّعها..!

كنت منذهلا بصحوة ذهنه وكأنه يقرأ من الرواية.. فقلت له:

- إهدأ يا آدم.. لا تجهد نفسك..!أنت بأي حال الآن حتى تفكر براسكولنيكوف..!

فتمتم بإجهاد:

- أنت لم تفهمني ياصديقي..!

أراد أن يبتسم لكن وضعه الصحي كان صعبًا، فقد عجز عن الابتسام، فارتسمت على وجهه تكشيرة أشبه باتسامة الموت التي تبدو لنا حينما ننظر إلى الجمجمة..، ومع ذلك قال لي:

- لم تعد لديّ لحظة لأضيّعها. أريدك أن تنظر تحت سريري. سترى حقيبة جلدية ذات حزام للحمل على الكتف، هي حقيبتي، وفيها مخطوطات الرواية التي كتبتها والتي تحمل عنوانا واحدًا: «المتاهات»، وهي تسع روايات. هي هنا باستثناء المتاهة الأخيرة «متاهة العدم العظيم»، فقد أخذتها جارتي أمس لتقرأها، هذه

المخطوطات هي أمانة لديك، انشرها بعد بعد رحيلي، لكن مع المتاهة الأخيرة.

انحنيت تحت السرير وسحيت الحقيبة الجلدية المليئة بالمخطوطات وأنا مصدم مما قاله لي، وقلت له:

- لم أكن أعرف أنك مؤلف وكاتب روائي..

ابتسم ابتسامة الموت وأخذ يتلوى وقال لي:

- بالقرب منك حقنة مورفين.. هل لك أن تزرقها في جسدي..

التفتُّ مرتبكا. رأيت صحنا فيه حقنة جاهزة ومعدّة للزرق. اشرت له بها، فهزّ رأسه واستدار. وكنت أعرف زرق الإبر لأنها مهنتي قبل أن أطرد من عملي، فزرقته بها. أحسست بارتياحه. وقبل أن ينام قال لي:

- سأنام قليلا.. يمكنك أن تبقى.. وتأخذ ما تشاء من الكتب..

ولم يلتفت لي بل ولم يكن مهتما بما سأجيبه فقد غط في نوم عميق بعد لحظات. وفي تلك اللحظات بالذات سمعت خطوات تصعد السلم.. تنصّت.. اقتربت الخطوات من الباب.. وتوقفت.. ثم فوجئت برأس امرأة يطلّ من الباب. كانت تضع حجابا خفيفًا على رأسها وبيدها رزمة من الأوراق. هي أيضا فوجئت حين رأتني، فقلت لها:

- تفضلي..

فسألتني:

- أليست هذه غرفة آدم اللا أحد؟

- نعم هي.. وها هو نائم..

دخلت الغرفة بحذر، لكنها اطمأنت حين تأملت الوضع في الغرفة وجلوسي عند حافة السرير بهدوء وحزن، فقدمت نفسها موضحة:

- أنا حواء الضعيف.. جارته.. كيف حاله اليوم..

- كما ترين.. زرقته بحقنة مورفين.. فنام.. يبدو أن وضعه سيءٌ جدًا..

ظلت واقفة قبالتي وقالت بحزن:

- نعم.. كنت معه في المستشفى.. أنا الذي أخذته إلى هناك بعد أن نزف دمًا كثيرًا.. وأخبرني الأطباء بوضعه..

- الحقيقة أنا صديقه. لكني لم أعرف قط أنه مريض، وقد اختفى منذ أسابيع. أنا جئت على وصف عابر له لمكان سكنه، لكني فوجئت بمرضة الشديد والخطير، مثلما فوجئت بأنه كاتب روائي..

فقاطعتني بدهشة:

- هل هو كاتب روائي؟؟

- نعم.. هذا ما فاجئني حقا...

نظرت المرأة إليّ بدهشة وقالت:

- وماذا كتب؟

أشرت للحقيبة وقلت:

- كتب سلسلة روائية بعنوان «المتاهات». قال أنها تسع روايات، لكن خاتمة المتاهات تركها عند جارته..

- أنا هي الجارة المقصودة، لكنه ليس كاتب رواية «المتاهات» وأنما أنا هي الكاتبة. وها هي روايتي الأخيرة «متاهة العدم العظيم» التي لم أنهها بعد، إذ عليّ كتابة الفصل الأخير.

- أنت.. أأنت كاتبة المتاهات وليس هو؟؟.

قلتُ ذلك مستغربا، وانتبهت لعلامات الغضب بدأت ترتسم على وجهها وقالت بنبرة فيها توتر مكتوم:

- نعم.. أنا كاتبة المتاهات وليس هو! غلايب أمره.. هو يدقّق لي النصوص ويبدي لي فيها رأيًا أدبيًا فهو من العارفين بالأدب العالمي وأنا أحب آراءه وانتقاداته، لكن ربما هي هلوسات المرض التي دفعته لنسب الرواية له، أو هو تحدث عن رواية أخرى!؟..

- لا.. هو سمى لي الرواية المسلسلة ب «المتاهات». حقيقة لا أعرف ماذا أقول. ربما يمكنني أن أسأله عن ذلك حين يصحو.

في تلك اللحظات تحرك صديقي في نومه وقلب جسده، فارتاع كلانا، إذ كانت الوسادة مليئة بالدم، وكان الدم ينزف من جانبي فمه.

أخرجت المرأة التي اسمها حواء الضعيف جهاز الهاتف النقّال واتصلت بالإسعاف والطوارئ واعطتهم العنوان الدقيق، ثم نظرت إليّ وقالت:

- أرجو أن ينجو من هذه النكسة وإلا ستقضي عليه. ما كان عليه أن يخرج من المستشفى، هذه المرة عليه أن يبقى راقدًا فيها فعلى الأقل هناك عناية طوال الوقت..!

- هذا صحيح.. لكني الآن في ذهول.. هو كلّفني بحمل المخطوطات، ونشرها بعد رحيله.. وسواء هي لك أو له فبودي أن أقرأها.. ويمكن أن نحل مسألة كاتبها في ما بعد.. ممكن..!؟

نظرت إليّ متفرسة وكأنها تدرسني وقالت:

- لا ضير.. إذن خذ هذه المخطوطة أيضا لتقرأها مع أنها لم تنته بعد، لكن كيف أجدك..؟ وكيف اتحصل على مخطوطاتي..؟

مدّت لي بالمخطوطة التي كانت بيدها، أخذتها وأدخلتها في الحقيبة، ثم أخذت ورقة صغيرة من المنضدة القريبة وكتبت عنواني وشقتي ورقم هاتفي، وللتأكيد تبادلنا أرقام الهواتف..!

وبعد وقت ليس بالطويل دخل رجال الأسعاف إلى باحة الدار فخرجتْ إليهم وطلبت منهم أن يصعدوا..

***

كنت أرى صديقي جثة غائبة عن الوعي. لم يكن يقظان كي أودّعه أو أكلمه قبل أن يتداعى وضعه. المرأة التي اسمها حواء الضعيف قالت لي بأنها ستذهب معهم إلى المستشفى وستتصل بي لاحقا لتخبرني عن وضعه الصحي.

وقبل أن تنزل مع رجال الإسعاف انتبهتُ لها وهي تقفل باب غرفة صديقي بالقفل والمفتاح، فأدركت أن بينهما شيئًا خاصًا بحيث لديها مفتاح غرفته.

كنتُ عند الباب والحقيبة الجلدية التي فيها المتاهات على كتفي حينما غادرت سيارة الإسعاف بصوت تقشعر له الأبدان، لكن لحظتها انتبهتْ إلى

أنني لم أكتب اسمي وإنما عنواني ورقمي فقط..!!.

2

حواء الضعيف

غادرت منطقة البتاوين متجها إلى منطقة الصالحية حيث أسكن في الشقة التي ورثتها عن والديّ اللذين تم اختطافهما إبّان الحرب الطائفية في مناطق أطراف بغداد، حيث تم قتلهما ببشاعة.

وحدث قبل ذلك بأعوام إن كان أخي الذي يصغرني في طريقه إلى الأردن فتم إيقاف السيارة التي كان فيها من قبل مسلحيين على طريق طريبيل، وتم إنزاله مع بعض الرجال الآخرين بعد أن قرأوا مكان ولادته من خلال جواز سفره فخمّنوا هويته الطائفية. اختفى أخي ومن معه ولم نعثر عليه أبدًا، إذ لم تبق جهة رسمية وغير رسمية لم نتوجه لها إلى أن يأسنا وفقدنا الأمل، وفي النهاية قالوا لنا إن هناك محاكم شرعية فقهية تقام في أماكن بعيدة يديرها بعض شيوخ وأمراء القاعدة الذين جاءوا من بلدان عربية مجاورة، حيث يحكمون على الناس بالموت فيعدمون فورا وتدفن جثامينهم في مقابر جماعية.

هرم والداي بعد اختطاف أخي بشكل واضح.. انهارا نفسيا وجسديا.. ثم التحقا به بعد اختطافهما وقتلهما في منطقة فيها تناحر مذهبي مرعب حيث كانا في زيارة لتقديم العزاء لإحدى العوائل القريبة. وهكذا صرت أعيش وحدي في الشقة، وهي شقة جيدة في مبنى يُعد حديثا قياسا إلى غيره.

في ساعة متأخرة من الليل رنّ هاتفي. نظرت إلى شاشة الهاتف فعرفت أنها حواء الضعيف. توجّست خبرًا مشؤوما يخص صديقي آدم اللا أحد،

وفعلًا، فقد جاء صوتها باكيًا، وألقت الخبر المشؤوم دفعة واحدة: - آدم مات.. يا

- آدم.. أنا أيضا اسمي آدم.. لكن متى لفظ أنفاسه؟

فجاء صوتها حزينا:

- الآن رحل.. لكن قبل نصف ساعة تقريبا كان ينزف كثيرًا. حاول الأطباء أن يسعفوه لكنهم عجزوا عن إيقاف النزيف لاسيما وأنه دخل في إغماءة مع نزيف مستمر، لكنه صحى قبل موته بدقائق بعد توقف النزيف بشكل مفاجئ، استبشرت خيرًا، واطمأن الأطباء قليلًا لوضعه فتركوه ليرتاح. بقيت عنده. تحدّثنا حديثًا مهمًا. كنتُ استبشر خيرًا، لأنه تحدّث بهدوء حديثًا سأرويه لك حين نلتقي، لكن بعد الانتهاء من حديثه بدقائق انهار كليا، وتدفق الدم من أنفه وفمه مصحوبا بسعال فتّاك أسلم الروح على أثره قبل وصول الأطباء والممرضات. الآن احتفظوا بجثته في المستشفى، وها أنا عائدة إلى بيتي. لا أعرف كيف سأقضي ليلتي هذه.

كنتُ مصدوما من الخبر. وبكل تلقائية ودونما تفكير قلت لها: - تعالي عندي.. أنا أعيش وحدي..

صمتت للحظات، لا أدري كيف تقبلتْ جملتي، ثم جاء جوابها:

- لا. لا. لا أستطيع. سأمر عليكَ غدًا..

- كما تحبين. أنا عادة أكون صباحا في البيت..

- إلى اللقاء غدا. وآسفة أنني نقلت لك الخبر الآن، إذ كان عليّ أن انتظر إلى الصباح..

- لا ضير. حسنا فعلت. لروحه السلام الأبدي. كان إنسانًا نبيلا.

- نعم.. ويا له من إنسان..

وفي تلك الليلة الحزينة أخذت أسترجع كل ذكرياتي معه.

كان مهيئا للجنون والجريمة ربما، وربما لو استمر في الحياة لقتل حواء المرابية، تلك المرأة السمينة صاحبة الدار التي يستأجر غرفة لديها! هكذا كنت أتخيله، فمرة قرأ لي نصًا من «الجريمة والعقاب»، هو بوح راسكولنيكوف

لحبيبته سونيا ميرميلادوفا، واستغربت حينها ليس من مضمون النص، وأنما من قدرة صاحبي على حفظه بالكامل، حينها قال لي: - الجرأة كل شيء.. وقد وافتني عندئذ، لأول مرة في حياتي، فكرة لاشك أنها لم تخطر ببال أحد حتى الآن! لقد بدا واضحا لي وضوح النهار، على حين فجأة، أنه ما من أحد قد تجرأ ولا يتجرأ، حين رأى بطلان العالم العالم، أن يمسك الشيطان من ذيله ببساطة، فيرسله إلى جهنم! أما أنا.. أما أنا.. فقد أردت أن أجرؤ، فقتلت! إنني حين قتلت لم أرد إلاّ إن أجرؤ! ذلك هو السبب الذي جعلني أقتل..».

حينها ارتعبت منه، لأنه حين كان يكرر كلمات بطل الرواية «أما أنا.. أما أنا» فأحسست أن الكلمات تخرج من أعماق ذاته وأناه هو، وأنه يمكن أن يجرؤ، فيقتلنا جميعا وبلا رحمة!. وحينما زرته للمرة الأولى والأخيرة فكّرت بأنه مهيء لأن يقتل المرأة السمينة، حواء المرابية، لو استمر في العيش!.

والحقيقة كل هذه التصورات جاءتني بعد سماع خبر موته واستحضاري له بعد زيارته في غرفته في لحظاته الأخيرة. ولا إراديا توجهت إلى حقيبة المخطوطات فسحبت منها مخطوطا يبدو هو الأخير «متاهة العدم العظيم»، ولا على التعين قلبت صفحاته وتوقفت عن مقطع شدّني إليه، فقرأته. كنت وأنا أقرأ المخطوطة تغمرني الدهشةُ بأن صديقي آدم اللا أحد يفكر بهذه الطريقة العلمية أو يهتم بهذه الأسئلة عن الخلق والخالق، وفعلا تذكر ذات مرة حين سألته: - هل أنت مؤمن..؟

- بأي شيء؟ رد عليّ

- هل تؤمن بالله..؟

- أي الله تقصد.. الله الذي في الكتب المقدسة.. أما الله سبينوزا..!

وتذكرت موقفًا آخر حين دعوتُ الأصدقاء ذات مرة إلى شقتي. وانتبهت إلى أن آدم اللا أحد قد ذهب إلى المطبخ وتأخر هناك وكأنه يهرب من النقاش بين الأصدقاء، فذهبتُ إليه وسألته: - ماذا تفعل هنا..؟ عن أي شيء تبحث؟

التفت إليّ لحظتها وقال بجدية:

- أبحث عن الحقيقة..!

- وهل تبحث عنها في المطبخ..!؟ سألت مازحا.

- وأين يمكن أن أجدها غير المطبخِ.. والمرحاض.. والمكتبة..!

- ههه نعم.. صحيح.. وفي الطبيعة أيضا..!

فسكتْ لحظة وقال موافقا:

- نعم.. نعم.. ربما نجدها هناك أيضا.. بل هي هناك بالتأكيد..!.

حين طويت المخطوطة كنت أفكر بلغز كاتبها. الآن وقد مات صديقي، فمن تراه يؤكد أو يكذب بأن حواء الضعيف هي كاتبة «المتاهات»..!. وراودني خاطر بأنها ستزوني غدًا وسنتحدث بهدوء. وكنت أريد النوم بسرعة متمنيًا أن يأتي النهار مباشرة، لكنني لم أستطع النوم، فأخذت المخطوطة التي بعنوان «متاهة آدم» وأخذت ألتهمها.. ولا أدري متى غفوت..!

***

كنت نائما حين رنّ جرس الباب. كانت الساعة التاسعة صباحا. نهضت على مضض. لم أكن أتذكر أنني على موعد إلا بعد أن نظرت من عدسة الباب السحرية. كانت هي، حواء الضعيف بحجابها الشكلي على رأسها. تراجعتُ لأني كنت في السروال والفانيلة. قلت لها من الداخل: «انتظري دقيقة»، وأسرعت لارتداء بنطالي وقميصا ورديا لكنه مخطط بأشرطة زرق وبيض.

حين فتحتُ البابَ وصلتْ إلى أنفي رائحة الكباب والطماطم المشوية والسمّاق. دخلتْ مباشرة وهي تسلّم عليّ وتصرفت وكأنها ربة البيت، وسألتني أين المطبخ فأشرت لها. دخلتْ إلى المطبخ فتبعتها.. تخيّلتها وقحة وجريئة، لكني حين جلست قبالتها على الكرسي حول طاولة المطبخ انتبهت إلى أنها حزينة جدًا، وجلة، ومترددة، وأنها تصرفت بهذه الجرأة الظاهرة كي تخفي ارتباكها العميق.!

قالت بحزن محاولة أن تكون طبيعية:

- من السهل الوصول إلى شقتك.. العنوان واضح جدًا..

كانت تحاول أن تكون طبيعية وجريئة، لكنها مع ذلك كانت مرتبكة وكأنها كانت قد تورطت بالمجيء في لحظة تهور ما.

انتبهتُ لكفّها التي ارتجفت وهي تبعد الورق والغطاء النيلوني عن صينية المشاوي، وهي تقول بنبرة مشوبة بالأسى وكأنها تبحث عن شيء مشترك بيننا: - أتدري.. البارحة.. حين راودته إشراقة الموت، حين توقف نزيفه، وبدا وكأنه استرد استقراره قال لي وكأنه يلقي خطبة الوداع: «أنا إنسان شقي، بل ليس هناك من هو أشقى مني، أنا آدم اللا أحد، لا أعرف حقا

لماذا جئت إلى هذا العالم، ولا أعرف جدوى حياتي فيه، بل ولا أعرف لماذا عليّ أن أغادره بهذه الطريقة القذرة والأليمة. أنا لم أؤذ أحدًا، لم أقتل ذبابة أو اسحق نملة أو اصطاد عصفوا أو أنصب مصيدة لفأر حتى، فلماذا هذا العقاب!؟. الحياة لو تأملناها لوجدناها مسرحية تراجيكوميدية، فكل أفراحها تزول كرمال تهب عليها ريح قوية، وكذا أحزانها تختفي للأعماق مثل ماء يُسكب على أرض رملية عطشى. كل شيء قابل للزوال. الموت هو الوحيد الباقي في هذه الحياة. أنا أعرف بأنني سأموت ربما بعد ساعة وربما بعد أيام وربما بعد لحظات، لكني أرفض الإعتراف به. ومع ذلك فهو يسخر من رفضي، إذن عليّ أن أتقبله وأتصالح معه..!. أحيانا أفكر بكل الفلاسفة الذي قضوا عمرهم يحاولون أن يتحدوا الموت من خلال التفسير العميق للحياة وكشف العقل في الوجود، ماذا قالوا لأنفسهم وهم في لحظات التنفس الأخيرة؟». وسكت. حاولت أن أهدئه فقلت له: «أنت مؤمن.. إنها حكمة الله».. نظر إليّ نظرة زلزلتي، نظرة رجل على حافة الحياة ويطل على العالم الآخر، وقال: «أية حكمة هذه؟ لماذا خلقني تعيسًا وشقيًا هكذا؟ أية حكمة له في ذلك؟»، لكنه بعد تلك الكلمات بلحظات تدفق الدم من أنفه وفمه مصحوبا بسعال فتاك، وبعد دقائق أسلم الروح لبارئها.

كانت تتكلم وكنت أنظر إلى قسمات وجهها، وأنصت لنبرة صوتها محاولا أن أكتشف شخصيتها.. فأدركت أنها من هاتيك النساء اللاتي على الرغم من معرفتهن بنوايا الآخرين ومحاولاتهم المخاتلة للوصول إليهن، يعرفن أيضًا بأن أي شخص يمكنه أن ينالهن لو تجرأ، ولن يستطعن المقاومة العنيفة والصد، ليس رغبة منهن في ذلك وأنما لهشاشتهن الداخلية، لذا فأفضل طريقة لديهن هو الهروب من المواجهة مع الآخر من خلال الحركات التي تبدو جريئة ومن خلال الثرثرة، فإذا اقترب الآخر منهن خطوة يتراجعن ثلاث خطوات وينكمشن!، لكن من يفهمهن يستطيع اقتحام عالمهن بالصبر على ترددهن.!.

لم تكن جميلة كممثلات السينما، لكنها كانت مثيرة، رقيقة، وملامح وجهها تكشف عن شخصية انطوائية، تبطن أكثر مما تكشف سواء خلال الحديث أو التعبير الشعوري. ومن الواضح أنها ذكية، وتعرف الكثير، وقرأت الكثير، لكنها صامتة، بل ويبدو أنها مشوشة. كانت تتحدث ولكن كنت أدرك أنها تفكر في شيء آخر غير موضوع الحديث، ربما هي تفكر بالورطة التي وجدت نفسها فيها نتيجة تهورها في لحظة جرأة لاوعية!، وعليها أن تتخلص من الموقف بذكاء! لذلك قالت: - لم أستطع البارحة أن أنام. فكرت بأنك أيضا ربما لم تنم. ووجدت نفسي أخرج مبكرًا وأتوجه إلى مطعم المشويات وآتي بصينية من الكباب والكفتة كي نفطر معا، فتفضل الآن، لكن عليّ إعداد الشاي، ثم

عليّ بعد ذلك الإسراع بعد ذلك بالذهاب إلى البيت لتنظيفه وترتيبه فأنا انتظر مجيء زوجي من الخارج مساء هذا اليوم..!

ولا أعرف لماذا أحسست أنها تقصدّت بقول جملتها الأخيرة وتحديد الوقت «مساء هذا اليوم»؟. ربما كانت تريد القول بأنها حرة إلى المساء؟. خمّنت ذلك.. وأكلنا، وأعدّت هي الشاي، وخلال ذلك الوقت راودتني أفكار وسيناريوهات مختلفة، لكن ثمة خاطر ألّح عليّ وهو رغبتي في أن تحدثني عن نفسها وعلاقتها بصديقي الراحل آدم اللا أحد ومعرفة لغز «المتاهات»، فسألتها: - متى تعرفت بصديقي المرحوم آدم اللا أحد.. وكيف؟

فوجئت بسؤالي، لكنها انشغلت بصب الشاي لكلينا وربما أرادت أن تكسب بعض الوقت لترتب حكاية التعارف. وبعد أن وضعت كوب الشاي أمامي، تصرّفت وكأنني لم أسألها، وما أن بدأ كل منا يدير الملعقة في الكوب كي يذيب السكر في الشاي حتى أخذت تجيب على السؤال الذي ظننت أنها تجاهلته: - كنت أبحث عن غرفة لقريبة لي مع زوجها. جئت إلى المنزل الذي كان يسكن فيه، لأتحدث مع صاحبته السمينة، فأرشدتني إلى غرفة فارغة في الطابق الأعلى وهي الغرفة المجاورة له. وحينما صعدت وحدي، لأنها لا تستطيع بحكم السمنة أن تتحرك، وجدت الباب مفتوحًا، وثمة شاب منفوش الشعر يقرأ وعيناه متقدتان. كانت الغرفة تبدة وكأنها مكتبة.. انبهرت.. وتوقفتُ قليلًا فأنا أعشق الكتب ورائحتها، وفي تلك اللحظة رفع هو رأسه ونظر إليّ. هل تصدق إذا ما قلت لك إنني أحسست وكأن شرارة انطلقت من التقاء نظراتنا!. بعد أن توثّقتْ علاقتنا وصف لي هو أيضا تلك اللحظة حينما التقت نظراتنا!. أنت تعرف أنه مهووس بالأدب الروسي والعالمي وذاكرته مثل الكمبيوتر الذي يخزن كل شيء ويخرجه في ثوان، فقد كان وصفه لتلك اللحظة سببا لتعرّفي على الكاتب الروسي الكسندر كوبرين، إذ سألني حينها: «هل تعرفين فيرا نيقولايفنا بطلة قصة (سوار العقيق) لكوبرين؟. ولم أكن أعرفها أو أعرف كوبرين، فقال لي: حين استلمتْ فيرا نيقولايفنا سوار العقيق المسروق، هدية من عاشقها اليائس المجنون والمجهول!!. ففي تلك اللحظة التي لبستْ السوار وأستدارت بحركة عفوية موفقة أمام ضوء المصباح الكهربائي، غمر الغرفة فجأة ضوء أرجواني حي وقاتم الإحمرار شعّ من سطح ذلك الحجر الأرجواني الأملس. وفي تلك اللحظة قالت فيرا نيقولايفنا لنفسها: «كأنها دم» واعتراها قلق مفاجئ. هكذا أحسستُ حين التقتْ نظراتنا». طبعا أنا طلبت منه الكتاب الذي يضم تلك القصة لكوبرين وقرأتها.. وعرفت عمق الإحساس الذي راوده في تلك اللحظة.!

- وهل كنتِ حينها متزوجة..!؟ سألتها وكأني ألقي سؤالا عاديًا مع أنه كان فيه إشارة لئيمة كامنة.

- نعم.. كنت متزوجة..

- هل أنت متزوجة من زمان..!.

لا أدري لم راودني شعور خفيف من غيرة استبطنتها من حكايتها مع صديقي الراحل آدم اللا أحد.. فركّزت حديثي عن زوجها، لكن الأمر بالنسبة لها كان عاديًا إذ انتقلت للحديث عن زواجها بسلاسة إذ قالت: - أنا تزوجت بعد أن أكملت الإعدادية. أبي كان تاجر أخشاب، لكن بعد الحصار الدولي على العراق صار يتاجر بصفقات كبيرة مع الحكومة، لاسيما تحت برنامج النفط مقابل الغذاء. وكانت لأبي علاقات واسعة مع شخصيات في هرم السلطة. في شبابه كان يساريًّا، لكنه بعد حملة القمع على اليسار وقع تعهدًا بضغط من أجهزة الأمن بعدم ممارسة السياسة وإبداء الولاء المطلق للحزب الحاكم ورئيسه، ففُتحت أمامه الأبواب، وصار يتبادل معهم المصالح التجارية.. كان أبي كثير السفر، يعشق الحرية ويكره الالتزام، لكنه كان لا يستطيع البقاء في الخارج، وكأنه تعوّد على العبودية. فقد صار تاجرًا واسمًا بارزًا ولديه علاقات مع السلطة مع أنه كان غير راض على النظام، لكنه لم يفكر بالبقاء في الخارج وعدم العودة إلى العراق، حتى أنني سألته مرة: ما دمت يساريًا سابقًا، ولم تغيّر قناعاتك مع نفسك مع أنك تنكرتَ لها تحت ضغط الارهاب والتهديد.. فلماذا حين تذهب للخارج ويمكنك الخلاص من هذا الكابوس لا تبقى هناك»، فكان يجيبني: «أنا هناك لا شيء.. هنا أشعر بأنني جزء من منظومة القوة، ثم أنني إذا بقيت في الخارج سيعدّني النظام عدوًا له وسيعاقبونك ويعاقبون أخاك الذي يدرس في تركيا بجريرتي»، لكن تفسيري أنه كان يشعر بتأنيب الضمير لأنه خان مبادئه وكتبت تعهدًا يتنكر فيه لتلك الأفكار ويتعهد بعدم ممارسة السياسة، أي بالنسبة له التعهد بعدم ممارسة التفكير!. وربما فعلًا عبّر عن نفسه بأنه صار جزءًا من منظومة القوة!. لكن الكارثة كان لا بد لها أن تأتي، فالنظام غادِر، ولا اطمئنان حتى للأقوياء فيه.!

- ماذا حدث؟ سألت.

- حدث أنه عقد صفقة لا أعرف تفاصيلها، لكنها لم ترض أطرافًا في الحكومة. لا أعرف ربما دفع رشوة أقل أو أغضب أحدهم، المهم، تمت مصادرة كل البضاعة وألقي القبض عليه، وأحيل إلى محكمة الثورة. حينها كان النظام يقيم مسرحيات قانونية، فبين فترة وأخرى يبث التلفزيون محاكمات صورية لأناس متهمون بأنهم تجار تلاعبوا

بقوت الشعب، فتصدر بحقهم أحكام الموت ومصادرة الأموال!. لكن علاقات أبي هذه المرة نفعته، ومن بين هذه العلاقات علاقته بالرجل الذي صار زوجي واسمه آدم الضعيف. كان وقتها برتبة عسكرية كبيرة في وزارة الدفاع ويعمل في القصر الجمهوري مسؤولا عن الحمايات، وهو الرجل الذي وقف إلى جانب والدي، وصرتُ جزءًا من صفقة انقاذه، وفعلًا تمكّن هذا الرجل عبر علاقاته من إيقاف محاكمة أبي والاكتفاء بمصادرة أمواله فقط، لكن أبي جرّاء فقدانه كل شيء، ونتيجة للرعب على مدى أشهر، تعرض لجلطة قلبية، وبعد شهر من الجلطة الأولى تعرض لأخرى، ورقد في الفراش ولم يعد يقوى على الحركة. كما أن أخي أراد المجيء إلى بغداد لرؤيته إلاّ إنه رفض مجيئه لرؤيته رفضًا عنيدًا وقاطعًا، فقد كان لا يأمن للنظام.

وترآى لي أنني أستعيد حكاية ما، وتذكرت فجأة وسألتها:

- مهلا.. أنت تعيدين على مسامعي حكاية مشابهة، هذه تقريبًا حكاية حواء الغريب في «متاهة آدم»..!

نظرت إلي بوجل واستغراب وقالت:

- هل قرأت «متاهة آدم»؟

- نعم.. البارحة..

- أنا هي ولست هي! قالت بطريقة درامية لا مبالية.

- كيف؟ ما معنى ذلك..؟

- دعني أكمل لك حكايتي وستعرف الفرق بيني وبينها..!

- تفضلي..

كنا نتحدث ونرتشف الشاي إذ كانت لذة الحديث والكشف أكثر متعة، لاسيما وأن الحديث يجري مع شرب الشاي الذي أدمنه، وقلت لها: - دعينا نواصل الحديث وشرب الشاي في الصالة.

ودون أن تقول شيئًا قامت برضا ووضعت دورق الشاي وقندون السكر وكوبي الشاي في صينية وتوجهت إلى الصالة بينما كنت أتأمل قامتها الرشيقة من الخلف، ولم تترك فرصة لحديث آخر إذ واصلت: - في تلك الظروف الصعبة طلبني منقذ أبي، وزوجي آدم الضعيف، منه حسب اتفاق بينهما. والحق

يقال فأنا لم أكرهه ولم أحبه، إذ كنت متعودة على وجوده شبه الدائم في بيتنا، كما أن أبي كان يخاف أن يتركني وحيدة إذا ما غادر الحياة، علمًا كان لديّ أخ يدرس الهندسة في تركيا.. المهم.. وهناك عامل آخر هو أن أبي كان يخاف عليّ من أهله العشائريين، وهو يعرف أنني لا أحتمل العيش معهم لأنني لا أعرفهم أصلا فقد كان أبي مبتعدًا عن كل ما له علاقة بأهله وعشيرته منذ شبابه. وذات مساء أخبرني أبي بأن منقذه يطلب يدي، ثم شرح لي بأنه سيكون الرجل الذي سيطمئن هو بوجوده في حياتي، فوافقتُ بدون أدنى اعتراض. وحصل الزواج. المشكلة الأخرى أن أهل زوجي عشائريون أيضا، وكانوا يريدون له زوجة أخرى، ناهيك أنهم لم يتقبلوني زوجة لابنهم كوني أصغر منه بكثير، بل أكاد أكون ابنته لو كان قد تزوج، ومن جانبي لم أتمكن أن أكون زوجة، فقد كان بالنسبة لي صديقا لأبي لا أكثر. كنت طفلة برغم نضج جسدي وأنوثتي، لذلك كنت أخاف الليل، سواء بوجوده أو بغير وجوده، فكنت أخاف الظلمة فأبقي الأضواء متقدة في جميع غرف البيت بما فيها تلك الغرف التي لا أمر بها. كنت أعيش في بيت كبير وحراس ثلاثة أمام الباب، وطبعا كان هذا يعني: لا خروج ولا دخول لأي أحد!. حينما يكون موجودًا كنت أخافهولم تكن الأضواء تطفئ في البيت إلا حينما يكون معي في السرير!!. كنت أخاف المعاشرة الزوجية ولم أعرف معنى اللذة، لكني كنت مقتنعة بأن هذا حق الزوج بالتمتع بجسدي، ومن جانبه والحق يقال كان يهتم بي، لا أقصد في السرير، وأنما بشكل عام، لذلك أتى بامرأة كبيرة في السن، طيبة، ذات قلب حنون، لتساعدني، وهي التي تكفّلت برعايتي وعلّمتني الكثير.

- وأين قصة الحب التي عاشتها حواء الغريب من قصتك..!

- يبدو أنك كالمرحوم آدم اللا أحد مهووس بالروايات!. دعني أكمل حكايتي، الحياة ليست دائما مثل الروايات، أحيانا تكون أشد درامية وحزنا وشفافية من كل وصف أدبي..!

- عفوا.. واصلي.. لن أقاطعك..

- بعد زواجي، وفي السنتين الأولتين، كنا نعيش في بيت كبير. وفي الباحة الخلفية كانت لدينا حديقة كبيرة تطل على خلفية بيت الجيران، وكان بيننا وبينهم سور مبني بالطابوق. أذكر أنني طلبت من زوجي أن يشتري لي بعض الدواجن، بط ودجاج لأسلّي نفسي بتدّجينها، وكنت عادة بعد القيلولة أذهب إلى القسم الخلفي وأقضي وقتي في رش الحديقة بالماء وفي إطعام الدواجن. وحدث أن شجرتين من أشجار الجيران كانتا معرشتين على سورنا، وذات يوم رأيت ابن الجيران الذي كان قريبا من عمري يحاول قص الأغصان التي اقتحمت حديقتنا

من فوق السور، حينها رفعت رأسي ورأيته. هل تصدق أننا بقينا لعدة دقائق متسمّرين في مكاننا ننظر لبعضنا. كان هو يحملق في وجهي. لن أنسى تلك اللحظات مهما حييّت وكأنها بالأمس. وقد تذكرتها عند نظرتي للمرحوم آدم اللا أحد حين رأيته للمرة الأولى.. المهم.. سلّمت لا إراديا وببراءة عليه، فهذا من باب الأصول واللياقة بين الجيران، ورد هو السلام. وصار الأمر وكأنه اتفاق بيننا أن نلتقي في ذلك الوقت يوميا. لم يحدث شيء بيننا غير الأحاديث. كانت أفكاره وطبائعنا متشابهة. وهكذا استمر الحديث البريء بيننا، لكن دائما كنت أقف على بعد خمسة أمتار عن الجدار بينما كان هو يلتصق بالسور. كان طويلا والسور يصل إلى ما تحت كتفيه، وبقينا على هذه الحال لأكثر من سنة. لا أدري إن كان ذلك حبًا!؟. لكن بالتأكيد كان ارتياحا، وطبعا إذا ما قارنته بقصص منفلوطي وجبران فهو حب جارف. المهم استمر الحال إلى أن تم نقل زوجي إلى مدينة أخرى، وقرر أخذي معه. لم تكن بيننا أية مكاشفات عاطفية أبدًا، كنا نثرثر أكثر مما كنا نتحدث بشيء مهم وخاص، لكن في اليوم الذي سبق السفر لم أذهب على موعدنا المعتاد. كنت أراه من نافذة غرفتي يقف منتظرًا، ولم أطق المنظر الرومانسي، فنزلت إليه بعد الغروب. ولا أدري كيف تجرأتُ ومددت كفي لأوعه فمسك كفي بقوة حتى أحسست بالوجع. وفجأة، انتزع من رقبته سلسة ذهبية ووضعها في كفي. لا أدري لم أخذتها وهربت إلى داخل البيت بعينين مترعتين بالدمع. هذا كل ما حصل. لكننا بعد خمس سنوات رجعنا إلى بيتنا، وعرفت بأنهم ولأسباب طائفية باعوا البيت وهاجروا، وإلى الآن لا أعرف مصيره. أتصدق بعد سنوات صرت أبحث عنه في النت والفيسبوك ووسائل الاتصال الأخرى ولم أعثر عليه أبدًا، وكأنه لم يكن!. لكنه هو الذي دفعني للكتابة فأخذت أكتب النصوص الشعرية والخواطر والمشاهد القصصية. وهكذا..

صمتت هي للحظات.. فقلت لها:

- ولكن هذه الحكاية تختلف عن المصير المأساوي لحواء الغريب في الرواية..؟

- نعم.. ربما.. لكن في الواقع الأمور كانت أكثر مأساوية. معظم أحداث «متاهة آدم» كانت تجري في تسعينات القرن الماضي، بينما مأساتي الحقيقية بدأت بعد سقوط النظام البائد، واندلاع الحرب الأهلية الطائفية.

- كيف..؟

- لم أرزق بأطفال. كان السبب منه، ولم تكن هذه مصيبة بالنسبة لي، فقد كان هو يحبني ويعتني بي وكان هذا يغنيني فعلا عن الكثير من التبرم والشكوى. مصيبتي بدأت بعد اغتيال أخي المهندس الذي رجع من تركيا إلى العراق. ومع أنني ألححت عليه ألّا يرجع ويبقى في غربته، لكنه أصرّ، فقد نال أعلى الشهادات في الهندسة، وعمل مع شركات عقارات كبرى، تركية وألمانية وأخرى عالمية، وأراد العودة ليساهم في البناء كما كان يردد!. بعد شهر لا أكثر من عودته تم اغتياله لأسباب طائفية، ولك أن تتصور هول مأساتي. ربما عزائي الوحيد كان هو أن أبي مات قبل عودة أخي إلى العراق ولم يشهد اغتياله. وزاد هذه المأساة حدّة عندما تم استهداف زوجي لأنه يُعد من رجال النظام البائد. ومع أنه كان حذرًا جدًا، ومسلحًا على الدوام، إلاّ إنه تعرض للغدر إذ أطلقت عليه رصاصات في ظهره وسببت له شللًا كاملا في الجزء الأسفل. ولولا حالتنا المادية الميسورة لما استطعنا الانفاق على العلاج. لكننا مع هذا قد بعنا بيتنا بمبلغ بخس لأناس من طائفة أخرى أرادت السيطرة على منطقتنا سواء عن طريق التهديد أو التشريد والقتل للمناوئين والمختلفين معهم من الطائفة الأخرى. أحيانا كانت البيوت تصادر ببساطة من قبل قادة مليشيات طائفية، وأحيانا كانت البيوت تُشترى من الجيران بأسعار بخسة! المهم. لما يئسنا من العلاج في العراق جاء أخوه وأخذه للعلاج في الخارج، لكن يبدو أن الأمور لم تنفع.. وهكذا صار يبقى في البيت مستلقيا على السرير كجثة حية شهرين أو ثلاثة أما بقية الأشهر فيسافر إلى بيروت أو الأردن للعلاج بصحبة أخيه، وهذا حالنا منذ سنوات.

وصمتت وكأنها لا تريد المواصلة خوفًا من أن تكشف أشياءَ لا ترغب بالبوح عنها. احترمت ذلك لكن الفضول هيمن عليّ لمعرفة ذلك الشيء الذي تخفيه، ناهيك أنها لم تتحدث إلى الآن عن علاقتها بصديقي المرحوم آدم اللا أحد، كما أحسست نحوها بمشاعر رقيقة وكأنني أعرفها منذ فترة طويلة فقلت لها: - هل تعرفين الطبخ..؟

فوجئت للحظات من سؤالي ثم ابتسمت فجأة وقالت:

- نعم.. أنا طباخة ماهرة..

- ما رأيك أن تعدّي لنا الغداء. لديك وقت كثير إلى المساء..

نظرتْ إليّ وكأنها تريد أن تعرف ما وراء هذه الدعوة المفاجئة وعلى وجهها ابتسامة ذات خصوصية وكأنها تقول إنني أفهم ما يدور في رأسك، وقالت: - لا مانع.. ماذا تريد أن أطبخ لك..؟

- ماذا تجيدين..؟

فنظرت إليّ نظرة مغناج مع ابتسامة طيبة ومغرية وقالت:

- أنا أجيد كل شيء. هل لديك طماطم وبطاطا وباذنجان وبصل..؟

- نعم.. كلها موجودة..

- طيب.. سأعد لك صينية من تبسي الباذنجان، ما رأيك..؟

- رائع.. وأنا أعدّ الرز..

- اتفقنا..

- على أن تروي لي ما لم ترويه لي ولم تبوحي به إلى الآن..

نظرت إليّ وكأنها لبوة محاصرة.. وقالت:

- أنت ذكي. لقد عرفتَ بأن هناك أشياء لم أبحْ بها.. لكني سأبوح بها لسبب واحد هو أنني ارتحت لك وأشعر نحوك بثقة ما وجدتها في الآخرين بسهولة..!

- شكرًا لك..

انتبهت إلى أن دفقات من المشاعر قد غمرتها، لكني لم أعرف كنهها، ولكي لا تكشف عنها قالت بلهجة آمرة ومرحة: - هيا قم إلى المطبخ..!

حملتُ عدة الشاي في الصينية وذهبنا إلى المطبخ. وهناك لم تتحدث لفترة ليست بالقصيرة عن حكايتها، فقد كانت منهمكة كأية ربة بيت محترفة بإخراج المواد من الثلاجة وغسلها وتنظيفها، وإشعال الطباخ وكل ما له علاقة بإعداد وجبتها، بينما انشغلت أنا بغسل الرز وتسخين الماء في قدر الطبخ. طبعا كان يحدث بيننا حديث لكنه حديث وظائفي، عن الشقة، الجيران، أسعار المواد الغذائية التي ترتفع يوميا والوضع السياسي المتوتر وكأننا في طبقة من طبقات الجحيم. وبعد أن تمّ إعداد كل شيء تقريبا وتركه على النار كي ينضج أعدت لنا شايًا طازجا مرة أخرى وذهبتْ بالصينية التي فيها عدة الشاي

والأكواب إلى الصالة، وما أن جلسنا وصبت لنا الشاي حتى قالت: - أنت في لهفة لما جرى معي.. وما لم أقله بعد.. أليس كذلك؟

- نعم.. قلت بتوتر مكتوم.

- أتعرف أنه أحيانا يكون في بعض مظاهر الحب الكثير من المذلة، أقرب للإهانة..

- لم أفهم..؟

- يعني أن من يحبك يتصرف من شدّة حبه لك بتصرفات هي في الجوهر إهانة لك بينما هو يعدّها تعبيرًا عن الحب، بل عن الحب الشديد، لكنه بذلك يجرحك..!

- فهمت.. لكن ماذا حصل معك..!

- قلت لك.. نمَتْ خلال السنين بيني وبين زوجي ألفة وعشرة، وربما أكثر ما كان يساعدني على تحمل تلك العلاقة وأعبائها هو معرفتي ويقيني من حبه الكبير لي، ولطفه معي وعنايته بي..! لكن ربما شعوره بحرماني من الأمومة وعدم تذمري من الأمر قط هو ما جعل حبه يشوبه شعور بالذنب، وقد تصاعد هذا الشعور بعد أصابته وشلله، إلى أن دعاني إليه ذات ليلة، وأجلسني أمامه كتلميذة وقال لي بأنه إنسان واقعي وأنه يحبني لذلك يخيرني بعد أصابته أن أتحرر منه وأنفصل عنه، وقال لي بالحرف الواحد: «أنت في عز شبابك بينما أنا بدأت الستين، وأنا كما تعرفين صرتُ عاجزًا كليًا بسبب الشلل في منطقتي السفلى، ولا أستطيع أن أروي ظمأ جسدك، وهذا حقك»، لحظتها بكيت وأخذت أقبّل يديه، وقلت له إنه ليس زوجي فقط وأنما هو أبي وأخي وليس لي غيره في الدنيا، وهذه حقيقة. أخذ حينها يربتْ على رأسي والدمع يملأ عينيه، لكن بمرور الوقت صار يتذمر وتصدر منه تصرفات غريبة.. (صمتت للحظات وكأنها تفكر مع نفسها إن كان عليها أن تتوغل في البوح أم لا.. ثم فجأة واصلت).. ذات مرة اتصل بصديق له لا أعرفه، ودعاه إلينا، وطلب مني إعداد مائدة عامرة، فقلت في نفسي ربما دعاه ليسري عن نفسه بلقاء ذلك الصديق. وبالمناسبة. أنا لا أعرف أيّا من أصدقائه، فقد كان حريصا ألاّ يراني أحد، ربما منعا من الإحراج لتصور الناس أنني ابنته.. المهم.. في ذلك المساء طُرق الباب. وحين فتحته واجهني رجل وسيم في الأربعين.. سلّم علي.. وقال إنه جاء لزيارة زوجي، فدعوته للدخول.. وبدأت حكاية غريبة، فعلى المائدة انتبهت إلى نظرات صديقه إليّ، وارتبكتُ

وحين نظرت إلى زوجي وجدته مرتبكًا أيضًا، لكنه حاول أن يبدي وكأنه لم ينتبه لشيء، مع يقيني إلى أنه انتبه لذلك، لكنه لم يعترض، بل على عكس الرجال الغيورين فأنه أخذ يكرر دعوته لذلك الصديق، ويصرّ على تواجدي والسهر معهم، بل وصار يدعوه في النهار أيضا حتى صار حضوره اعتياديا، علمًا أن أخا زوجي، واسمه قابيل الضعيف، عبّر عن امتعاضه لوجود رجل غريب في البيت وتواجدي سافرة الشعر أمامه، فقد كان الأخ الأصغر لزوجي سلَفيا ومتعصبا دينيا، لكن زوجي أخرسه، وقال له ألآ يتدخل في ما لا يعنيه!. أنا كنت أشعر بأن ثمة شيء غير مفهوم لي يجري بين زوجي وصديقه، وانتبهت إلى أن زوجي كان يستبقي صديقه للسهرة بينما يطلب مني أن آخذه إلى السرير كي يستريح قليلًا، فكان يتركني مع صديقه في الصالة!. بيد أن صديقه أخذ يتجرأ في علاقته معي، فلم يعد يكتفي بأن يعريني بنظراته وأنما أخذ يمتدح جمالي من خلال الكلام، ويناقشني في الأدب، في والروايات التي كنت أعشقها، وكان يختار روايات محددة ليحدثني عنها أو يحملها لي لقرائتها، وكلها تدور حول الخيانة الزوجية والحب المحرم، مثل آنا كارنينا، مدام بوفاري، الأحمر والأسود، عشيق الليدي شاترلي، وغيرها، وناقشني مطولا عن الأخيرة. وجائني مرة بكتاب ربيع أسود لهنري ميلر. كنت أقرأ هذه الروايات وأعيش مشاعر البطلات والمشاهد الحميمة التي فيها، لكني مع الليدي شاترلي أحسست أن ثمة شيء ما يدور في ذهنه، فهذا الصديق يتقصد اختيار هذه الروايات. وحدث ذات يوم صيفي، إن كان زوجي مع أخيه عند الطبيب لإجراء مساج له فجاء هذا الصديق، ولم أكن أتوقع حضوره قط، إذ كنت في ثوب صيفي قصير فوق الركبة. وكنت في ذلك اليوم وذلك الوقت بالذات أشعر بضغط نفسي وغريزي كبير. رنّ الجرس حينها، فظننت أن زوجي وأخاه قد عادا، لكني استغربت الأمر لأنه لم يمض سوى وقت قصير جدًا على خروجهما، حتى أني ظننت أنهما ربما نسيا شيئًا في البيت فعادا، لكني فوجئت بل ارتبكت حين رأيت صديق زوجي. ابتسم ودخل حتى دون أن أقول: «تفضل» مجاملة، وسبقني إلى الصالة وهو يقول إنه عطشان جدًا. ذهبت إلى المطبخ وجئته بكأس ماء ومن هناك نظرت إليه وأنا مرتبكة. كان جالسا على الصوفا. اقتربت منه فأخذ كأس الماء وأثناء شربه للماء أشار لي بأن أجلس على الصوفا. لم أفهم الأمر فجلست. وحين انتهى من ارتشاف الماء في الكأس وضعه على الطاولة التي أمامه، وقال لي: - أريد أن أقول لك شيئًا..!

استغربت طبعا.. فقلت له وأنا في حرج لأن ساقيّ كانتا مكشوفتين إلى ما فوق الركبة عند جلوسي: - خيرًا.. أتمنى ألا يكون هناك مكروه قد حدث. زوجي وأخوه قد خرجا قبل قليل..!

صمت للحظات وهو يتأملني، ثم قال:

- ربما لا تعرفين بأنني كاتب روائي. وأنا الآن اكتب سلسلة روائية باسم «المتاهات»..

صمتت للحظات ثم قالت:

- طبعا ربما لم أذكر لك في البداية اسم هذا الصديق الذي اتضح أنه كاتب روائي.. اسمه آدم الجيزاني.

أنا من جهتي حاولت أن أتذكر كاتبا يحمل هذا الاسم فلم يحضرني أي أحد، فقلت لها: - لا أعرف كاتبا بهذا الإسم.. لكن واصلي..

نظرت إليّ وقالت:

- وأنا أيضا لم اسمع به، لكنه فيما بعد جائني برواية تحمل اسمه،.. المهم.. سألني عن كتاب«ربيع أسود» لهنري ميلر، وعن الشيء الذي استوقفني في الرواية.. فارتبكت ولم أجب، ثم سألني عن مشهد التعزية للأرملة الجميلة التي زوجها يغرق في البحيرة والتي اعتقد أن اسمها كورا. ارتبكت أكثر، فقد قرأت ذلك المشهد مرات عديدة، ولا أعرف ما حدث بعدها. فقد اقترب مني وجلس إلى جانبي بحيث التصق فخذانا. كنت أحس بسريان الكهرباء في جسدي، وكنت شبه مشلولة خوفا وارتباكا وشهوة، وإذا به يقف أمامي، يفتح بنطاله، وينزع كلسونه، ويدفعني إلى الخلف، يمددني على الصوفا، بحيث ارتفع ثوبي القصير لحاله إلى سرتي، وبسرعة خاطفة فتح فخذي وأولجه في، ودفعه بكل قوته. أذكر أنني كنت أقول له: لا.. لا.. لم أتوقع أن تفعل ذلك.. لكنه لم يستمع لي، بل أخذ يدقه فيّ بكل قوته، بينما أنا كنت غارقة في بحر من اللذة والخدر، ونزل ماء كثير مني، وفجأة سحبه مني، هل تصدق أنني كنت في تلك اللحظة أستذكر تلك الأرملة في كتاب ربيع اسود لهنري ميلر!، بل رددت في لا وعييّ كلماتها التي كانت تبربر بها بأن طلبتُ منه أن يكون عشيقي، ويخلص لي، ويحافظ على سري..! وفي تلك الظهيرة لا أدري عدد المرات التي مارسنا فيها. كنت أشعر بأنني قد سقطت وقضي الأمر..!.

- وزوجك..؟

تمتمتُ وأنا أشعر بالانتعاظ وسريان الدم في جسدي وتهيجي، وحينما تحركتُ قليلًا، فبدا وكأنها قرأتْ أفكاري، فقالت: - لا. لا. لا تكرر المشهد.. الآن.. عليّ الدورة الشهرية.. هذا يومها الأخير.

وشعرت أن كل الأسوار بيننا قد تهدمت، فالأمر يقتضي الانتظار قليلا! وسألتها: - وماذا جرى في ما بعد..!

- لا شيء.. لقد غادر قبل وصول زوجي، بل اتصل به هاتفيًا ويده تداعبني، وسأله عن المساج والعلاج، ووعد بأن يمر مساء، ولم يقل له إنه عندي في البيت، لذا كان يعرف كم من الوقت يحتاج زوجي وأخوه كي يرجعا إلى البيت.. المهم.. حينما أراد المغادرة أراد أن يقبلني فرضت. ولم أعرف لماذا، وكأنما لم يخترقني مرات قبل قليل من ذلك!. وحين غادر شعرت بشوق إليه، وشعرت أنني صرت عشيقته وملكه، وجسدي صار أخف، وكل ذلك خلال ساعة من الوقت تقريبا.. سنوات من العمر والوفاء الزوجي اختفت خلال ساعة!!، لكن كل هذا الشعور كان مشوبًا بشيء من الإهانة، إذ شعرت أنني صرت قحبته!. أتعرف أن المرأة كائن لغز. فعلى الرغم من عفتها وصرامتها مع رغبات جسدها تشعر بميل غريزي باطني نحو الفضائحية الجنسية، حتى ولو كان ذلك في أعماق أعماقه!. وأخذتُ أسأل نفسي عن تلك الفتاة الرومانسية التي كنتها..! عن العاشقة التي وقفت شهورًا على بعد خمسة أمتار من السور الذي يفصل حديقتها عن حديقة الجيران لتحدث مع ابنهم!. أين تلك الفتاة المثالية التي تربّت على قيم الوفاء والاخلاص والتضحية!، وكيف أن هذا الرجل ببساطة وكأنه يتناول جريدة أو يتناول شايا، مدّني على الصوفا ورفع ثوبي بل حتى أنه لم ينزع سروالي، وأنما ولجني بازاحته جانبًا، هكذا كأية عاهرة متمرسة، بل واستغربت حالة العجز التي انتابتني حينها فلم أصدّه قط، وأدهشني بأسى شعوري بأنني صرت له، ملكه، ونسيت أنني متزوجة!. لا، بل فكّرت كيف أحافظ على هذه العلاقة بسرية تامة!!

- وكيف استمرت العلاقة؟ وأين صديقي المرحوم آدم الا أحد من كل هذا..؟!

لم تجب مباشرة.. نظرت إلى المطبخ.. وقالت:

- أعتقد أن الرز قد احترق قليلا.

أسرعتُ إلى المطبخ وتبعتني، ولم يكن الرز قد احترق بعد، لكن لو تأخرت دقيقة لاحترقت قاعدته، لذا قلبته قليلا، لكننا لم نعد للصالة وانما جلسنا في المطبخ، وقلت لها واصلي حكايتك: - لا شيء. عشت لحظات جميلة مشوبة بإحساس مُرّ من تأنيب الضمير. هل تصدق أنني لأول مرة شعرت بالرعشة مع آدم الجيزاني، وهو علمني معنى الجسد واللذة، ودفعني للبوح بمفردات عمري لم أتخيل أنني سأنطقها، لكن الغريب أنه أخذ يتصرف بحرية، إذ حتى زوجي صار ينظر لي نظرات متفحصة. وانتبهت إلى أنه صار حزينًا وصموتًا. بينما كان آدم الجيزاني يحاصرني في كل زاوية، وانتبهت إلى زوجي حيث كان يتركنا عن قصد، فكان صديقه يتبعني إلى المطبخ، وهناك يرفع ثوبي ويولجه فيّ بسرعة، ولا يتركني إلا بعد أن يقذف في داخلي. وفي كثير من الأحيان لم أكن أمانع، رغبة مني وخوفًا من أن يحدث ضجة فاتركه ينهي ما بدأ، إلى أن حلّت الكارثة، إذ انتبهت لانقطاع دورتي، وأدركت أنني حامل. ولكي أقطع الشك باليقين تحججت باعتلال صحتي فبادر هو قائلا بأنه سيأخذني إلى عيادة الطبيب، ووافق زوجي برحابة صدر، وفعلًا أكدت الطبيبة الحمل، لكننا لم نرجع إلى البيت مباشرة وأنما أخذني إلى شقته، وهناك تكرر المشهد لكن بأوضاع وممارسات لم آلفها.. المهم.. في شقته اكتشفت اللعبة كلها، فقد اعترف آدم الجيزاني بأن زوجي يعرف كل شيء، وقد اتفق معه لامتاعي، لأنه من شدّة حبه لا يستطيع أن يتحمل حرماني من المتعة الجنسية، لكنه مثلي انتبه إلى أن زوجي صار حزينًا خاصة حينما أخبره بأنه تمكن مني، وصار عشيقي!! وفعلا أصابت زوجي كآبة سوداء، فمع أنه أراد أن يمتنعني مع رجل غيره، إلا أنه أيضا كان ينتظر رفضي وعدم انزلاقي وسقوطي في بئر الشهوة المظلم. كان يريد أن يرضي غروره وحبه المريض بأن يسمح لي بأن أتمتع وبرضاه هو ليثبت لي ولنفسه عظمة حبه، ومن جهة أخرى أدخلني هذه التجربة وكأنني في امتحان الإخلاص والوفاء له، إذ كان يريدني أن أنجح فيه بأن أرفض صديقه ولا أنجر لإغراءاته؟. أليس هذا حب مريض وإهانة وإذلال وقسوة؟.

كنت استمع منذهلا ومشوشا لهذا الحكاية التي ما كنت أتوقع أن تصدر من رجل شرقي، وقلت متمتمًا: - نعم.. كل هذا الذي قلته، لكن لا تنسي أن الإنسان كائن غيور..

فقالت بعتاب وغضب مكتوم:

- لماذا نظم هذه اللعبة إذا كان غير قادر على تحمل نتائجها..!؟

- ربما حبه المريض كما اسميته، لذا لم يستطع أن يصمد أمام غيرته وشعوره بالعجزفي الوقت نفسه.

فقاطعتني قائلة:

- المصيبة الكبرى أن آدم الجيزاني أخبره بحملي، بل والغريب أن زوجي وافق على استمرار الحمل وبقاء الجنين. وحين أخبرني آدم الجيزاني بذلك هدّدته بالانتحار إذا لم يأت معي إلى عيادة الطبيبة كي تجري لي عملية إجهاض!؟. ولأن آدم الجيزاني صار يحبني فعلًا، وأنا أيضا اعتبرته رجلي الحقيقي، فقد وافق على الإجهاض، وتفهم شعوري، وهكذا أجريت عملية الإجهاض، لكن الغريب أيضا أن زوجي فرح لإصراري على عملية الإجهاض مع أنه أعلن في البداية بموافقته على استمرار الحمل وعدم إجهاض الجنين. هذا ما أخبرني به آدم الجيزاني وهو مستغرب من تناقضات زوجي.

- وكيف انتهت هذه العلاقة..؟

سألتُ بغيض مكتوم من آدم الجيزاني التي قالت عنه بأنه صار رجلها الحقيقي، ولا أدري إن كانت قد انتبهت لنبرة الغيرة المكتومة في سؤالي، لكنها أجابت: - لا شيء. ذات ليلة جاء إلينا وهو يحمل حقيبة مليئة بالمخطوطات. تلك الحقيبة التي أخذتها أمس معك.. و
فقاطعتها مندهشا:

- أهي مخطوطات آدم الجيزاني؟ ألست أنت من كتبها؟ أو المرحوم آدم اللا أحد؟

- لا.. آدم الجيزاني أيضا ليس كاتبها..!

- ما هذا اللغز..؟ قالت مصدومًا.

- نعم.. جاء ذات ليلة وقال: «هذه الحقيبة تضم مخطوطات روائية لصديق اسمه آدم السعيد الذي يمر بوضع مالي صعب، وأراد بيعها لدفع أجور علاج ابنه، لكنه رفض مساعدتي له، وقبل بالمساعدة المالية بعدما اشترط رهن مخطوطاته لديّ. وهي هنا في هذه الحقيبة، وتحمل عنوان «المتاهات»، لكن في تلك الأيام كان آدم الجيزاني قد تلقى تهديدات جادة من جهات مختلفة لذا كان عليه مغادرة العراق. كان في تلك الليلة خائفًا ومرعوبًا ومرتبكًا، ولم يبق عندنا طويلًا.. واختفى. هكذا انتهت هذه الحكاية. طبعا عشت بعد رحيله فترة صعبة جدًا.. وسقطت عليلة في الفراش لأسابيع، فقد تعودتُ عليه وعلى ارتعاشة جسدي معه، وعلى تمتعي بتلفظ

الكلمات الفاحشة معه، كما أن وجوده كان يمنح حياتي لونا أنثويًا جميلًا.. المهم.. تغيرت الأمور بعده.

- هل كنت على علاقة مع المرحوم آدم..؟ سألت بفضول وبتلقائية..

- لا.. لا.. لو لم يكن مريضا لربما نشأت بيننا علاقة، لكنه كان مريضًا، كما أنه كان ينظر إليّ كملاك، وقد قال لي إن النساء أما قديسات أو عاهرات، وقد صنفني كقديسة. لم يكن يعرف عني أي شيء، ولا يعرف أنني أنظر لنفسي كقحبة، لكنه كان منذهلا بالمخطوطات، وكم تمنى لو أنه كاتبها.

- والآن كيف تعيشين..!؟

كان سؤالي حمّال أوجه، فانتبهت له وسألت بوضوح وجرأة:

- هل تقصد كيف أعيش بلا رجل؟

ابتسمت لها وقلت:

- نعم..

فأجابت بتلقائية وكأنها تسرد حديثا عن الخضروات في السوق: - سأقول لك شيئًا.. من تخون مرة فأنها تعتاد الخيانة وتكررها في أول فرصة متاحة، فمن جهة هناك شعورها باللذة ومن جهة أخرى هناك شعورها بالسقوط الذي يدفعها لاستسهال الفعل وتكراره كنوع من العقاب الذاتي، كالجريمة، كالسرقة، والتزوير، والقتل، فمن يسرق ويزور ويقتل مرة لا يتردد في تكرار ذلك مرة أخرى إلى أن يصير أمرًا عاديًا!، لذا بالنسبة لي وبعد فترة صرت عصبية المزاج، لكني انتبهت إلى أن زوجي أخذ يطلب من أخيه، قابيل الضعيف، أن يبات الليل عندنا ما أمكنه ذلك، ولم يخطر في ذهني أن يكرر زوجي اللعبة مع أخيه.. لا أدري فربما لم يفعلها، لكن حدث وأن تكرر الأمر، فقد كنت لا أشعر بالحرج أمام حماي. وذات ليلة ونحن نسهر ونشاهد فيلما يابانيا على إحدى القنوات العربية التي تبث من لندن، وكانت القصة عن امرأة مع زوجها في طريق الغابة ويتعرضهما قاطع طريق فيتقاتل مع زوجها وينتصر عليه ويشده بالحبال ويغتصب زوجته أمام عينيه، وهناك أربعة شهود لهذه الحادثة يلتقون في معبد لحظة هطول المطر، وكل منهم يتحدث عن الحادثة برواية مختلفة. واحد قال إن الزوجة ساعدت قاطع الطريق لينتصر على زوجها واستمتعت بمضاجعته العنيفة لها.. المهم.. كان زوجي حين كنت مع أخيه نشاهد الفيلم مستلقيا في غرفته، لحظتها انتبهت لتنفس أخي زوجي غير

المنتظم، كانت كفي مبسوطة على الصوفا في المسافة بيني وبينه، وكانت كفه هناك أيضا. ولا أعرف من بدأ منا بتحريك كفه نحو الآخر إذ تلامست كفانا، وشعرنا بحرارة التلامس، نظرنا لبعضنا بإحراج، لكننا واصلنا الملامسة، بل وقبض واحدنا على كف الآخر بصمت وكأن كفينا لا تنتميان لنا. كان خجولا وأحسست بارتباكه وتعرق جبينه بينما كنت أنا متهيجة، لكنه فجأة نهض مسرعا إلى الحمام.

- وماذا بعد..

- لا شيء.. احتجنا لأسابيع من اللقاءات اليومية والسهر في الصالة كي نتعود على بعضنا بشكل لاشعوري. تكررت الملامسات وصارت أكثر جرأة وصراحة، وصار يمد يده تحت ثوبي ونحن نشاهد التلفزيون، ثم وصلنا إلى القبل، ثم صار يأتيني ليحضنني في المطبخ، يضغط علي دون إيلاج، ثم يسرع إلى الحمام، وبعد ذلك يخرج ليؤدي الصلاة، حتى لو لم يكن وقتا للصلاة.. المهم.. هو الآن مع أخيه خارج العراق وسيرجعان مساء.. والآن دعنا نأكل لأذهب بعدها.. لدي شغل بيتي كثير.

قمت أنا بتوزيع الصحون على الطاولة وحين رأيتها منحنية لتفتح فرن الطباخ، احتضنتها من الخلف، أحسست بمؤخرتها بين أحضاني، فقالت لي بتلقائية: - قلت لك ليس اليوم. سأتطهر وآتيك غدا أو بعد غد..

وهذا ما حصل. أكلنا. وغادرتْ الشقة، لكنها لم تعد ولم تتصل. وحين اتصلت بالرقم جائني الجواب بأن الرقم خارج نطاق الخدمة، وكأنها شبح اختفى، لكن حقيبة المخطوطات موجودة! يعني أنها فعلا كانت موجودة.!!.

أخبرت أصدقائي بموت آدم اللاأحد فلم يتأثروا. ترحموا عليه فقط وانشغلوا بنقاشاتهم عن القيم الإنسانية الجليلة ومعنى الصداقة..!

وبعد مرور أيام ذهبت للدار التي كان المرحوم آدم اللا أحد يسكن أحد غرفها، والتقيت امرأة ناحلة صغيرة ومخيفة الملامح، تبدو وكأنها العجوز التي قتلها راسكولنيكوف حسب وصف دستويفسكي. ارتابت مني لكنها أجابت على استفساراتي حين سألتها عن حواء الضعيف التي جاءت ذات مرة تريد استئجار غرفة لقريباتها والتي اتصلت بالإسعاف لنقل صديقي المريض المرحوم آدم اللاأحد، فنفت صاحبة الدار وجود مثل هذه المرأة كما لم تسمع بهذا الاسم سابقًا، بل وأخبرتني بأن آدم اللاأحد يرقد في المستشفى ولم يخرج منها قط!. وأنها تراني لأول مرة.

3

آدم الأعمى يغادر المتاهة بكلمة: طز

أنا آدم الأعمى..

أنا الزمن الميت الحي..

أنا المبعثر في اللامكان..

لا ضفاف لفوضاي..

ولا سواحل لضياعي..

ما الذي جاء بي إلى هذه المتاهة..!!؟

وإلى أين مضيت بك يا عقلي..؟

من أنا؟

أنا الغابة المظلمة..!

أفكر في الله كثيرا..

أفكر في العدم العظيم..!!

ماذا لو لم يخُلق الله الوجود..؟

ماذا لو لم يُوجد الوجود.!.

في التوراة وفي الآية الرابعة من الإصحاح الأول من سِفر التكوين جاء: «وقال الله ليكن نورٌ فكان نورٌ» أي أن الله ليس نورًا كما جاء في القرآن..!!..

وكذا في القرآن: «ألله نور السماوات والأرض».. فماذا كان الله قبل خلق السماوات والأرض إذا كان هو نور السماوات والأرض!!.

وكذا في التوراة، إذ لم يرد فيها بأن الله خلق الظلمة، بل جاء في الآية 5 من الإصحاح نفسه: «ورأى اللهُ النورَ أنه حسنٌ. وفصل بين النور والظلمة. ودعا الله النورَ نهارا والظلمةُ دعاها ليلا. وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوما واحدا.»، بل على العكس أنه في الآية الأولى من سِفر التكوبن ورد التالي: «في البدء خلق الله السموات والأرضَ. وكانت الأرضُ خربةً وخاليةً وعلى وجه الغمرِ ظلمةٌ وروحُ اللهِ يرفّ على وجه المياه. وقال الله ليكن نور فكان نور»، أي أنَ الظلام كان موجودًا قبل النور! فماذا كان قبل خلق النور!!؟؟

آخ يا عقلي..!

أفاع وعقارب وأفعوانات تلتف فيك..!.

ثم، لماذا أجلس هنا في هذه الشقة الغامضة، الشقة التاسعة في الطابق التاسع من المبنى التاسع في الحي التاسع حي الجحيم؟. من أتى بي إلى هنا؟.. ومن هم هؤلاء الكتبة الدعاة الذين كلهم يؤلفون المتاهة: آدم البغدادي، آدم الأكويني، آدم المجنون، حواء الدفتري، آدم اللاأحد، حواء الضعيف، آدم الجيزاني، الرجل السعيد الذي رهن مخطوطاته. كل هؤلاء يدّعون كتابة «المتاهات»، بينما أنا، أنا آدم الأعمى من كتبها وأوجدتهم كشخصيات في روايتي..!. لا، أنا نفسي أيضًا لا أعرف لِمَ أنا موجود في هذه الشقة الغامضة..؟ ثم لماذا أنا أعمى؟. أنا لا أذكر أنني ولدتُ أعمى؟، بل لا أذكر أي شيء عن طفولتي..! ولا كيف صرت أعمى!، وأنما وجدت نفسي فجأة هنا في هذه الشقة أعمى..!. هل يعني أنني لست الكاتب آدم الأعمى الذي كتب المتاهات..؟

كان آدم الأعمى يكتب على الطبقة الشفافة التي تشكل أبجدية لغة العميان، والتي بدورها تتطابق مع توزيع الحروف في لوحة مفاتيح الحروف.

توقف عن الكتابة. فكّر مع نفسه: «ما هذه اللعبة التي اسمها (المتاهات)..!؟ أليست هي لعبة يقوم بها أحد يشعر بوحشته وعزلته وليسلي نفسه أو ليحس بوجوده الذاتي!؟، فلماذا أحس أنني كاتبها، وفي الوقت نفسه أحس أنني شخصية غير حقيقية بينما تراودني كل المشاعر الحقيقية التي تراود الإنسان الواقعي..؟»

قام عن كرسيه. أخذ عصاه بعد أن فتحها وسار إلى المطبخ، ومن إحدى الخزانات الجدارية أخرج قنينة نبيذ أحمر وقدحًا كريستاليًا. صبّ لنفسه.

ترك القنينة وعاد يحمل الكأس بيده. جلس على كرسيه حول طاولة الكتابة وكتب مباشرة: نخب الأشجار..

نخب الأشجار في الغابة..

نخب الشجرة الوحيدة في القفار البعيدة..

نخب الشجرة الوحيدة على التل الغارق في الضباب..

نخب الأشجار اليابسة والعطشى..

نخب الأشجار الوحيدة في الليل..

نخب الشجرة التي تلتف عليها أفعى..

نخب شجرة السدر التي صارت بيتا للعصافير..

نخبي أنا.. أنا الشجرة..!.. أنا الشجرة الوحيدة في صحراء الرمل الأحمر..

أنا الشجرة التي تحيطني كثبان الرمل التي تمنع الأفق عني..!

أنا الشجرة العمياء..!

ورفع كأسه وارتشف ما فيه حتى الآخر. هزّ رأسه حين شعر بشيء من المرارة في طعم النبيذ.. مرارة محببة. وفي تلك اللحظة سمع رنين جرس الباب. أخذ عصاه ومشى إلى الباب. نظر من العين السحرية التي تتوسط الباب. ابتسم من حماقته على هذا التصرف الساذج فهو أعمى!!. وفتح الباب وعلى وجهه بقايا ابتسامة.!.

لم يشعر بوجود أحد. عادة هو يستشعر الأشياء من خلال حاسة السمع المرهفة التي لديه، لكنه الآن لا يسمع صوت أنفاس شخص ما ولا الحضور المغناطيسي لشيء ما. وقف قليلًا منتظرًا ما يؤكد وجود أحد فلم يحدث ذلك فأغلق الباب. وعاد إلى حيث كان في زاوية المكتب. بقي لدقائق صامتا، عاجزًا عن التفكير، ثم فجأة أخذ يكتب: «تراودني رغبة في الاختفاء والعودة إلى العدم، والانتهاء من هذه اللعبة المملّة التي أجد نفسي فيها! من أنا؟ لا ذاكرة لي؟ كيف لإنسان عاقل أن يكون بلا ذاكرة؟ لستُ مريضًا ولا مصابًا بعطب في دماغي كي أكون بلا ذاكرة؟ بل وجدتُ نفسي هنا في هذه الشقة الغامضة فجأة، ولا أعرف شيئًا سوى أنني كاتب لرواية «المتاهات»، بل وأوجدتُ كل هذا الحشد من الأوادم والحواءات!. إذن، أنا كاتب روائي ولست شخصية وهمية روائية؟ لكن لماذا أنا بلا ذاكرة؟ لا طفولة لي ولا ذكريات؟. لا. لا. ليس هذا ما أردتُ قوله. صحيح أنا بلا ذاكرة لكني مليء بخبرة لا أعرف كيف حصلتُ عليها؟ أشعر بأنني خَبِرت الناسَ وسلوكهم وعرفتُ أقنعتهم دون أن أتذكر

لنفسي مواقفَ محددة وتجاربَ شخصية تمنحني هذه الخِبرة، فأنا أعرف أن السلوك النبيل، وكذا سمات الشموخ والكرامة وعزة النفس، ليستْ سوى أدوارٍ سلوكية وأخلاقية يتم تأديتها بشكل متقن من قبل أُناس أوغاد يخنقهم اللؤمُ والحقد وهاجس الخديعة.. بل هناك من يختفون في ملابسهم الأنيقة التي تمنحهم شيئًا من المهابة لكنهم في الحقيقة تافهون..!..

لكني كما يبدو أثرثر تجنبًا للأسئلة المحرجة والغامضة. فالحقيقية أنني فقدت الإيمان بكل شيء حتى بوجودي. والجحيم الحقيقي حين تفقد الإيمان واليقين بأي شيء، وأن تكون مفرّغًا كقنينة نبيذ فارغة..! إنني الآنا أواجه الباب المغلق. أعرف أن خلفه من أوجدني، سواء كان كاتبا إنسانًا أو شبحًا أو حتى إله. وعلاقتي به أيّا كان هي علاقة محايدة، علما أن أدرك الآن أن مصيري بيده، فلو شاء لجعلني بصيرًا، ولو شاء لجعلني شريرًا، أو تقيًّا مؤمنًا ورعًا، لكني لا هذا ولا ذاك، وربما أنا بيدق في لعبته الروائية..! لكن.!

نعم.. أصرّ على هذه اللكن، لأنه إذا أنا كنت شخصية روائية فما معنى وجود الحقيبة الجلدية المليئة بمخطوطات المتاهات!؟ وإذا كان كل شيء افتراضيًا ووهميًا فما معنى وجود رأسيّ إيفا مادهوري وآدم بوناروتي في الحقيبة الجلدية السوداء!؟ كيف يتواجد بشكل واقعي ما هو وهمي!؟ وإذا ما كنت أنا شخصية وهمية فكيف أكتب هذه الأشياء الآن في هذه اللحظة..!؟.

عموما، أنا أعرف أن لحظة الكشف وما قبل الوصول هي أهم من الوصول إلى الهدف المنشود والمدينة المنشودة والمرفأ المنشود، إذ قد يكون ما نصل إليه لا يمنحنا سوى الخيبة والإحباط، وقد يكون العكس.. لكن الرحلة هي المهمة، لذلك حتى حين يتحدث الناس عن حبهم يتحدثون عن لحظات اللقاء الأولى، وعن المساعي للتعارف والصعوبات التي واجهوها. وقلّ ما يتحدثون عن لحظتهم معا وربما زواجهم، لأن ما وصلوا إليه تحول بحكم التكرار إلى عدم اكتراث، وعدم الاكتراث بحكم التكرار هو الوهن الحقيقي في الكثير من علاقات الزواج أو المعاشرة العشقية بين رجل وامرأة. صحيح أنها تبدو مغلّفة بالاهتمام والحب لكنه في الحقيقة ليس حبًا وأنما هي مشاعر التعود والألفة بحكم التكرار.

ومهما يكن، فلقد تعلمت مبدأً واحدًا من كل أهداف الفكر والفلسفة والأدب ألا وهو: تبًا لكل شيء؟ تبًا للفكر والفلسفة، تبًا للآداب، تبًا للمتاهات، وتبًا لك أيها الكاتب الذي أوجدني في هذه الرواية الغامضة..!؟ تبًّا لي. ووداعًا أيها الكاتب المجهول يامن تكتبني.

سأختفي بإرادتي. لا أريد أن أكون في رواية غامضة ومحكومًا عليّ أن أكون فيها أعمى. أنا آدم الأعمى أقول لك: «يا كاتب المتاهات.. تبًّا لك».

ونهض آدم الأعمى عن كرسيه. مدّ عصاه بحيث تكاملت الأجزاء واستقامت. وتلمس خطاه إلى باب الشقة.. فتحها.. وغادر الشقة متجها نحو المصعد.

حين وصل المصعد تلمس باب المصعد بعصاه فعرف أنه مفتوح. دخل فيه وضغط على زر هناك.. أغلقت البواب. وتحرك المصعد.

في الشقة كان الكاتب آدم المجهول يواصل الفصل ما بعد مغادرة آدم الأعمى الشقة وهبوطه بالمصعد.

4

الحِداد يليق بحوّاء ذو النورين

كان آدم المجهول وحيدًا في الشقة الغامضة. وكان يراجع النص الذي أمامه ويحمل عنوان «متاهة العدم العظيم». لكنه بعد تمرد آدم الأعمى ومغادرته متن الرواية وأحداثها حذف سبعة فصول من تسعة مكتوبة من قبل آدم الأعمى، ومنها فصل عن استكمال حكاية حواء الضعيف التي أوجدها في فصل من الفصول، وكيف جاءته بعد أيام، وما جرى بينهما من غرائب وعجائب، ومنها فصل عن عشيقها وصديق زوجها آدم الجيزاني وما واجهه من تهديدات وتهم بالتعاون مع الإرهابيين وفق المادة 4 أربعة إرهاب، وهي تهمة وضعتها الحكومة للقضاء على كل من تريد إزاحته من المشهد السياسي أو من الحياة..!!.

وفصل عن أخي زوجها، الذي ذكرت اسمه قابيل الضعيف، ذلك الشاب المؤمن الذي يداعبها دون إيلاج ويذهب إلى الحمام ليداعب نفسه ثم يخرج ليؤدي ركعتين صلاة تخفيفا لذنبه، وعذابه النفسي والروحي الذي دفعه إلى محاولة الانتحار بقص شريان يده لكن تم إنقاذه، ولم يستطع ألّا يبوح لها بسر الانتحار لأنها صار يعشقها، وكيف دخلت غرفته ذات ليلة فغضب من دخولها الغرفة لكنها هددته هامسة بأنها ستفضحه أمام أخيه إذا رفض، فسكت، وهكذا نامت معه، وصار الأمر اعتياديا!.

ومن بين الفصول المحذوفة فصل عن عذابات الزوج آدم الضعيف وصراعه النفسي ما بين الحب والتضحية من أجل إسعاد زوجته الشابه الفياضة بالحياة وبين الغيرة المدمرة التي تنهشه من جرّاء لعبته الخطرة بأن جعل صديقه آدم الجيزاني أن يتحرش بزِوجته ويصير عشيقها، وحبه العظيم

الذي تحول إلى حقد عظيم نحو زوجته لأنها لم تقاوم وانهارت أمام شهوتها، ولم يتوقع أن هذه الملاك تكشّفت عن قحبة مبتذلة. ثم محاولته أن ينتحر من خلال مس كهربائي، لكنه تراجع لأنه لم يستطع أن يفكر بالموت والحرمان من رؤية زوجته التي على الرغم من حقده عليها فهو يحبها بجنون، ثم خيبته بأخيه الذي صار عشيقا لزوجته، من دون أن يستطيع مكاشفته بذلك..!.

وفصل آخر عن الأب الفقير والكاتب المجهول الذي باع المتاهات أو رهنها لدى صديقه آدم الجيزاني الذي ذكر اسمه آدم السعيد..!.

وفصل عن ذلك كاتب آخر اسمه آدم المحظوظ كان قد مات، لكن اتضح أنه هو أأتمن صديقه الأب الفقير آدم السعيد مخطوطاته..!

وفصل طويل جدًا يتألف من تسع ألاف كلمة ليس فيه سوى كلمة واحدة..: تبًّا.. وعنوان الفصل: تبًّا.

لم يعرف آدم المجهول الذي وجد نفسه في هذه الشقة وأمام الكمبيوتر لماذا حذف تلك الفصول!؟ هل لأن آدم الأعمى تمرّد عليه وغادر الرواية بإرادته؟، ولكن كيف بإرادته وهو الذي أوجده ومنحه شخصية كاتب روائي في رواية «متاهة العدم العظيم» ليكتب الفصول التسعة التي حذف هو منها سبعة!؟، وفكر مع نفسه بأنه هو نفسه لا يعرف كيف جاء ووجد نفسه هنا في هذه الشقة الغامضة وفي هذا الحي المشرف على بركان على وشك الانفجار!؟. أتراه قد تورط بكتابة رواية عن متاهة لا يزال بعض شخصياتها يدور تائهًا لا يعرف ما مصيره!؟. صحيح أنه ترك حواء ذوالنورين تعود لباريس من مراكش لأنها عرفتْ أن كارثة حلّت بصديقتها إيفا سميث حيث توفي زوجها آدم سميث نتيجة اصطدام سيارته في طريق سريع خارج باريس، لكنها حين وصلت اكتشفا الخديعة. فقد كان أن آدم سميث مع سكرتيرته الجزائرية التي اتّضح أنها زوجته الثانية سرًا، لكن مأساة إيفا سميث كانت ليس في موت زوجها وأنما في موت ابنها الصغير الذي كان يرافق والده في السيارة..!.

فكّر آدم المجهول بأن عليه أن يتوسع في رسم مصير حواء ذوالنورين، ليس على طريقة آدم الأكويني السريعة وأنما عليه أن يروي حكايتها بالتفصيل، ووجد نفسه يستحضر كل المعلومات التي لديه عما جرى لها.

* * *

حين وصلت حواء ذو النورين مطار ديغول أخذت القطار إلى وسط المدينة ومن هناك أخذت سيارة أجرة إلى بيت صديقتها، وقالت للسائق:

- لا ديفونس.. أفينيو غوتنبيرغ.

وحين مرت السيارة على مقربة من المنطقة السياحي (هوت دو سين) رأت برج أريفا AREVA فتذكرت كل التفاصيل التي عاشتها خلال فترة وجودها السابقة مع صديقتها، وتذكرت حينما زارت شركة زوج صديقتها في ذلك البرج بمعيتها.

حين التقت الصديقتان احتضنتا بعضهما بالبكاء. بكتا بحرقة وكأنهما كانتا تنتظران لحظة البكاء هذه، ولم يكن بكاء بل نحيبا يخرج من أعماق النفس. استمر نحيبهما المتواصل لعشرين دقيقة تقريبا، ثم هدأتا. أحسّتا أنهما تخلصتا من ثقل كانت روحيهما ترزح تحته. شعرتا بالتخفف وهدأتا كليًا. تبادلتا الأحاديث البسيطة عن الرحلة وطبيعتها، وكيف وصلت. بدورها لم تسألها حواء ذو النورين كثيرًا. انتظرت أن تحكي هي بنفسها ما جرى. وقامتا إلى المطبخ حيث أعدّت إيفا سميث القهوة لكليهما.

حين أقبل الليل كانت حواء ذو النورين قد سمعت من صديقتها الحكاية كلها. وشاركتها مرة أخرى حزنها على ابنها، لكنهما تحدثتا معا بجدية عمّا على إيفا سميث أن تقوم به وهو اهتمامها وتركيزها على وضع ابنتها، وألّا تترك أمور شركة زوجها سائبة، لاسيما وأنها عرفت بأن لزوجها أسهمًا كثيرة فيها، وأنه ليس مجرد المدير للشركة في فرنسا.!.

بعد شهر تقريبا اتّضحت الأمور أكثر، إذ لم تبخل الشركة الأم على إيفا سميث، لا بالمال ولا بالراتب التقاعدي الجزيل، وكذا شركة التأمين على الحياة!. وقد قدّمت عائلة الزوجة الثانية شكوى بأحقيتهم ببعض أموال التأمين والراتب التقاعدي لكن المحكمة ردّت دعواهم لأن زواج آدم سميث من سكرتيرته الجزائرية تمّ بشكل ديني إسلامي ولم يسجل في الدوائر الرسمية الفرنسية ولا يعتدّ به، إلى جانب أنه لم يخلف منها أطفالا.

ظلت حواء ذوالنورين تدعم صديقتها إيفا سميث نفسيًا، لاسيما وأن انشغالها بالعمل ومتابعة الأرث وتعويضات التأمين كان قد ساعدها في الانشغال عن شعور الفقدان، لكنها أبقت المبلغ الذي حصلت عليه على تأمين حياة ابنها في وقف خاص بحساب في البنك. لم تستطع تحمل فكرة أن تتنعم بالمال الذي هو ثمن لموت ابنها، ولم تكن حزينة على زوجها لأن مرارة الخديعة كانت أكبر من شعور الفقدان.

لكن حواء ذو النورين انتبهت إلى أن صديقتها تعيش تحولات نفسية متناقضة، فمن الكآبة السوداء والنظرة السوداوية وتخيل رؤية أرواح وأشباح

وتوترات أقرب للهستيريا، حيث تستمر هذه الحالة لأيام، بحيث بالكاد تنطق كلمة واحدة، ثم فجأة تصحو صباحا في يوم ما وهي مرحة ومزاجها رائق وتعتذر من صديقتها حواء ذوالنورين عن حالتها وكآبتها التي بالتأكيد تصيبها بالملل. ولكي تعوض صديقتها عن فترة الكآبة المؤقته التي تجتاحها تسعى للخروج معها إلى المدينة للتجوال في الشانزلزيه وتدور معها في صالونات المودة وتشتري لنفسها شيئًا بل ولصديقتها أيضا تعبيرا عن اعتذارها، لكنها ما إن تصل البيت حتى تتذكر ابنها الصغير فتبكي بل وتنتحب وتسقط أياما أخرى في كآبتها السوداء.

وذات ليلة وبعد منتصف الليل بساعات فزّت حواء ذو النورين خائفة على طرقات خفيفة على باب غرفتها، وسمعت صوت صديقتها يهمس لها سائلة إن كانت نائمة أو يقظة. كانت هي قد غفت، لكن طرقات الباب مع أنها كانت خفيفة قد أيقظتها، فسألتها بقلق إن كان قد حصل شيء طارئ، وطلبت منها الدخول، وفوجئت بأن صديقتها تخبرها بكل ثقة عن سماعها لصوت ابنها يبكي وهو في القبر، وأنه خائف من ظلمة القبر!، وطلبت منها أن ترافقها الآن إلى المقبرة..!.

حاولت حواء ذو النورين أن تهدّئ بالها وتبيّن لها بأن هذا وهم من أوهامها لكثرة تفكيرها بابنها لكن إيفا سميث لم تقتنع، وأنما كانت على يقين بأنها سمعت ابنها يبكي خائفا من ظلمة القبر، وأن عليها أن تذهب إليه، وقالت لها بحزم بأنها في هذه الحال ستذهب وحدها إلى المقبرة، لكن حواء ذوالنورين تذكرت ذات مرة حينما زارتها مقبرة دي باسي في شارع القومندان شلوينزغ بأن للمقابر في باريس أوقات دوام رسمي وأنها تفتح صباحا الساعة الثامنة كأية مؤسسة في البلاد!. حينها فقط اقتنعت إيفا سميث بكلامها وهدأت قليلا لكن لم تلغ فكرة الذهاب إلى المقبرة بحيث تكون هناك مع افتتاح أبوابها.

لكن السلوك الغريب لإيفا سميث صار يتكرر، إذا صارت تنهض ليلا لتجلس في الصالة، وفي الصباح تروي لصديقتها كيف أنها فجرًا رأت ابنها في الصالة. وصارت أحيانا تنام في الصالة عسى أن ترى ابنها. ولم يكن أمام حواء ذو النورين سوى أن تخبر أم إيفا بحال ابنتها، تلك السيدة اللبنانية القوية التي كرست كل الوقت لرعاية حفيدتها التي اسكنتها معها في شقتها القريبة تقديرا لوضع ابنتها النفسي..، لكنها بعدما سمعت ما سمعته من حواء ذو النورين قررت الانتقال للسكن مع ابنتها خوفا عليها من الجنون!، بيد أن حالة إيفا سميث تحسنت شيئًا فشيئًا، لاسيما بعد أن أخذت صديقتهما الأخرى حواء دمشقية بالظهور وتكرار زيارتها لهم في الشقة.

وبدأت الأمور القانونية تضيق على حواء ذو النورين أو إيفا بتروفنا تومانوفا وفق الجواز الروسي، لاسيما في ما يخص إقامتها. وطلبت إيفا سميث من محامي الشركة أن يساعدها في إيجاد مخرج قانوني للمسألة. و كان المحامي يعرف بالأمر لاسيما وأن آدم سميث في حياته أراد تعينها بعقد في الشركة كي يمكن استحصال إقامة لها على أساسه، لكنه حواء ذو النورين رفضت المقايضة حينها، ولم تود الحصول على الإقامة مقابل أن تكون عشيقته..!.

ولأن لآدم سميث حصصا وأسهما كبيرة في الشركة، ولأنها أرادت سحبها، فقد عرض مجلس إدارة الشركة الأم على إيفا سميث منصب الإدارة في الفرع الفرنسي للشركة بمكان زوجها.. وألحّ عليها المحامي بالموافقة، فوافقت، وأول ما قامت به هو إنجاز معاملة إقامة حواء ذو النورين في باريس باعتبارها موظفة في الشركة.

لم تستطع أن تعمل حواء ذو النورين كموظفة لافتقارها إلى اللغة الفرنسية، وبدل العمل أدخلتها إيفا سميث معهدًا لتعلم اللغة الفرنسية على نفقة الشركة. وعلى الرغم من ارتياحها للسكن مع صديقتها إيفا سميث إلاّ إنها أرادت أن تستقل بشقة منفصلة، حيث اتفقت معها بأن تنتقل للسكن وحدها في شقة الأم القريبة والفارغة، لاسيما بعد أن انتقلت الأم وحفيدتها للعيش مع إيفا في الشقة نفسها. وهكذا سارت الحياة بكل تحولاتها وما تمنحه من ترياق للنسيان.

ومع أن هيئة حواء ذو النورين يشي بشخصية قوية وذكية وانطوائية، إلاّ إنها كانت من ذلك النوع الذي لا يستطيع أن يرد الإساءة على من يسيء لها، بل تتحمل الإساءات والإهانة. وكثيرًا ما كانت ترد على أفعال وإساءات الآخرين لها في أعماقها ومع نفسها فقط. كانت قدرتها على تحمل الإساءة مذهلًا.. وهذا ما واجهته في معهد تعلم اللغة الفرنسية..!

فقد كان معها يدرس اللغة في الصف نفسه بعض العرب من شمال افريقيا ومن فلسطين، معظمهم من الرجال مع واحدة محجبة من سوريه. ولأنها سافرة وغير محجبة فأن هؤلاء العرب أخذوا يسيئون إليها بالكلام، ويسمعونها بأنها كافرة، وكانوا حين تمر يتلفظون بكلام بذيء يمسها بشكل مباشر أو غير مباشر. ومع أن الفتاة السورية المحجبة كانت تتحدث كثيرًا عن الشرف والأخلاق والفضيلة والشريعة الإسلامية السمحاء لكنها كانت أبعد الناس عن هذه الألفاظ والقيم التي تتحدث عنها، وقد رأتها في وضع مشين مع أحد هؤلاء الملتحين الذين يسمعونها أيضًا كلاما بذيئا، فقد نزلت السلّم ذات مرة بينما عادة بقية المتعلمين يصعدون وينزلون بالمصاعد، وفي الفسحة

التي تصير خلف المصعد وجدتها تجلس القرفصاء ورأسها بين فخذي الرجل الملتحي تلتقم عضوه بينما الآخر رافعا دشداشته البيضاء إلى الأعلى فارتعبت ورجعت لتصعد الطوابق من جديد، ولتقف أمام المصعد لتنزل به.

بعد فترة قصيرة من التحاقها بدورة اللغة، دخل القاعة شاب يشبه ابنها. شعرت بارتجاف في قلبها. كان الطلبة في بداية الساعة الأولى حينما دخل مدير المعهد ومعه الشاب الذي قدّمه المدير للمعلمة باعتباره طالبًا جديدًا قد التحق بالدورة. وشاءت الصدف أن يكون الكرسي الذي إلى جانبها فارغا فصار مكانه إلى جانبها. ومع الأيام تعارفا.

ومع انشغالها بدورة اللغة الفرنسية إلا أن حواء ذو النورين لم تنقطع قط عن صديقتها إيفا سميث التي تحسنت حالتها النفسية بعد عملها مديرة في الشركة وراعية لمصالحها واسهمها في الشركة. صارت تهتم بأناقتها، وتسهر أحيانا سهرات عمل، وبعض الأحيان كانت تأخذها معها لتلك السهرات، لكنها فوجئت ذات مساء حين دعتها للذهاب إلى إحدى المقاهي حيث التقت بحواء دمشقية وحبيبها آدم المفتي، وهناك ومصادفة دخل آدم زاباتو..!

انتبهت حواء ذوالنورين لتوتر المرأتين، ولأن حواء دمشقية كانت مع حبيبها فقد استطاعت أن تكتم مشاعرها، ألا أن إيفا سميث لم تتمكن من ذلك، فقد بدا أنها كانت متوترة ومستفزة، وتبادلت معه النظرات الغامضة. وحين توجهت إلى الحمامات تبعها هو..!.

عادت إيفا سميث وهي متوترة لكنها تحاول السيطرة على توترها، لكنها لم تكن مستفزة. وما إن رأت حواء دمشقية التغيير الذي طرأ على حالة صديقتها إيفا سميث حتى قامت هي وتوجهت إلى الحمامات التي كانت يفصلها عن المقهى - المطعم باب وهناك تنفصل إلى حمامات الرجال وأخرى للنساء.

* * *

توقف آدم المجهول عن الكتابة وسأل نفسه: «لماذا أشغل حالي بكتابة ما جرى مع هاتيك النساء فالأمر لا يتعدى مغامراتهن الجنسية ولهاثهن وراء من يخترقهن باحثات عن مختلف الأسباب والتمويهات والأقنعة والتبريرات من أجل ذلك، فحواء ذو النورين التي كانت تعشق ابنها القتيل وتمركزت حياتها بعد اغتيال زوجها حوله لم تستطع أن تنسى العذابات التي واجهها عند اختطافه ولا العذابات التي واجهها حينما رأى الفيديو الذي تم اغتصابها فيه، وربما هو انتحر دون أن يعرف بأن صديقه المقرب قابيل العباسي قد اغتصبها ثم تزوجها بالقوة والتهديد..!..

مالي وكل هذه التفاصيل. لقد كتبتُ عن تفاصيل حياتها في دمشق، ثم في فلورنسا، وباريس، ومراكش، وها هي ثانية في باريس، فهل أكتب عن رغباتها وصراعاتها النفسية!»، ومع ذلك واصل الكتابة عن حواء ذو النورين..!

* * *

لقد علمت حواء ذو النورين من صديقتها إيفا سميث بأن حواء دمشقية كانت وربما ما زالت عشيقة هذا الفتي من أميركا اللاتينية آدم زاباتو.. وعرفت في ليلة الاعترافات حين وصولها بأن صديقتها إيفا سميث انهارت أمامه أيضا. هي شخصيا لم تجد فيه شيئا مغريً، فابنها أجمل منه، وكذا زوجها الثاني قابيل العباسي أكثر وسامة وفحولة منه، لكن الوسواس دخل نفسها بأن لديه ربّما ما هو مغر فعلًا، لاسيما وأن امرأتين يتمنى الرجال أن يتحدثوا معهن ذهبن إليه بأنفسهن، وشعرت بنزوة تراودها بأن تثير هي انتباهه أيضا وتشارك صديقتيها فيه..!

في تلك الأمسية حين عاد من جهة الحمام ألقت عليه نظرة متأملة. انتبه هو لها. ولم يكن هو يفكر فيها أصلا في تلك اللحظات، فهو يعرف انها امرأة رزينة جدًا وتعيش حزنًا خاصا على موت ابنها، إذ سمع قصتها من صديقتيها، لذا لم يصدق أنها تنظر إليه متأملة. فهم هو من نظراتها الدعوة له، بينما هي كانت تتأمله باحثة فيه عن سرّ انجذاب صديقتيها إليه. لم يصدّق هو الأمر، ولكونه مغامر في شؤون النساء فقد غمز لها بعينيه مع إيماءة من رأسه بأن تذهب إلى قسم المرافق.

ارتعبت هي من غمزته الوقحة الصريحة، لم ينتبه لهما أحد إلّا أنها شعرت وكأن الجميع رأوا ما جرى بينهما. وخافتْ أن تكون صديقتاها قد انتبهتا فلم ترفع بعدها أية نظرة نحوه إلى نهاية السهرة. وطوال الليل كانت ترتعش من الخوف وتشعر بالذنب أمام صديقتها إيفا سميث، لكن الشهوة كانت قد تحركت في هذا الجسد الصائم.

ولا شعوريا وجدت نفسها تفكر في الشاب العربي المسلم واللاجئ السوري المتدين. وأخذت تسترجع يومياتها داخل الصف، واستذكرت كيف هو خلوق ومهذب ولا يبدي أي شيء يشي بنوايا ذكورية تخلق ردة فعل لديها..!.

بمرور الأيام آمنت له. وفي فترات الاستراحة بين حصتين كانت تجلس معه، فعرفتْ أنه كان من المقاتلين في إحدى الجبهات الإسلامية المتطرفة ضد النظام في سورية. توجست شرًا لأن ذلك يذكّرها بزوجها قابيل الموسى وعصابته الطائفية في مقابل العصابات الأخرى من الطائفة الأخرى!، لكن هذا الرجل بدا لها مهذبا وغير عدواني كما هو الحال مع معظم هؤلاء، وصارت حين

تخرج من المعهد بعد الانتهاء من الدروس تذهب معه إلى مقهى قريب أو تتجول معه في محلات المناطق الشرقية والأجانب..، وتذكرت المنطقة وشارع سانت دينيس المقابل والذي سكنت في شقة بالطابق السادس في إحدى مبانيه.

لم تخبر حواء ذوالنورين صديقتها المقربة إيفا سميث بعلاقتها مع الشاب السوري المتدين آدم أبو حمزة النبوي، إذ لم يكن بينهما أي بوح أو تقارب أو حتى وضوح في المشاعر بعد، فبالنسبة لها هي تميل له لأنه بعمر ابنها المنتحر، إلى جانب أنه لم يبد ما يوحي بنوايا جنسية واضحة نحوها، لكنه بمرور الوقت تعودت عليه وصارت تقضي معظم الوقت حين تكون في شقتها في الحديث الهاتفي معه، بل حتى زياراتها إلى صديقتها قلّت بحجة التمارين البيتية التي عليها انجازها، وحتى حين تكون معها في أمسية وسهرة تتحجج بكل الطرق كي تعود إلى شقتها من أجل الحديث الهاتفي مع آدم أبو حمزة النبوي.

المفاجئة بالنسبة لحواء ذوالنورين كانت حين غاب الشاب السوري عن درس اللغة ذات يوم. حينها لم تستطع أن تجلس بهدوء في قاعة الدرس. أحسّت أنها مشتاقة إليه وأن كل تفكيرها منحصر في سبب غيابه..، ووصل الأمر بها إلى إدعاء المرض فجأة وأخذت إجازه ذلك اليوم لتغادر الصف، لكنها لم تستطع أن تعود إلى البيت، فاتصلت به لكن هاتفه كان مغلقا. ولامت نفسها بأنها لم تسأله عن عنوانه، فهي تعرف أنه يعيش مع مجموعة من أصدقائه، لكن أين؟ هذا ما لم يخبرها به ولم تسأله!. وأخذت تتجول في المدينة. وذهبت إلى كنيسة نوتردام، وكانت المفاجئة حينما شاهدته مع مجموعة من أصدقائه الملتحين بثيابهم البيض الطويلة التي يبان من تحتها شراويلهم البيض الطويلة أيضا. كان الجميع يقفون أمام طاولات وعليها نسخ القرآن بالفرنسية، ورأته يمسك ببعض النسخ ويحاول اعطائها للمارة بإلحاح لاسيما من الفرنسيين. فوجئ هو حين رآها.. ارتبك.. وشحب لونه.

ارتبكت حواء ذوالنورين بدورها، ولم تود أن تحرجه لذا لم تكلمه وأنما استدارت راجعة. سلّم الكتب هو إلى صديق له ولحق بها. ناداها فلم ترد عليه أول الأمر، فلحق بها مسرعا وصار إلى جوارها، وأخذ يشرح لها. طلب منها أن تستمع له. كان مرتبكا. وترجاها أن يجلسا في مقهى كي يشرح لها، فلانت قليلا ثم وافقت، فدلفا إلى مقهى صغير قريب.

وضّح لها بأنه يناضل من أجل الإسلام، وأنه أحبّها، ويريدها زوجة على سنة الله ورسوله دون أن يعير اهتماما لفارق العمر بينهما، لكن بشرط أن تتحجب وتلتزم بالفرائض، فهو إمام مسجد وأمير جماعته.. فوجئت هي بعرضه

الزواج منها أكثر من مفاجئتها بأنه أمير لجماعته، وعقب قائلا: «خذي وقتك.. فكّري.. وغدا أعطني الجواب»، ثم نهض راجعا إلى جماعته تاركا إياها في المقهى ضائعة بين أمواج الرغب المتلاطمة.

ظلت حواء ذوالنورين لفترة قليلة بعد مغادرته جالسة في المقهى، ثم عادت إلى شقتها. وحين اتصلت بها صديقتها إيفا سميث داعية إياها إلى الخروج معها ادّعت بأنها متعبة ولديها امتحان عليها أن تحضّر له.

لم تنم تلك الليلة. أحسّت بعد الارتياح لأنها أخذت تكذب على صديقتها الوحيدة التي قدّمت لها خدمات لا تنسى حيث أنها صرفت لها مرتّبًا لا بأس به دون أن تعمل، واستحصلت لها الإقامة في باريس على ذمة الشركة، وساعدتها في التسجيل بمعهد اللغة، كما ساعدتها في الحصول على شقة والدتها مجانا، ناهيك عن مجيئها إلى فلورنسا خصيصا من أجل أن تأتي بها إلى باريس، كما فتحت لها ذهنها وقلبها وأسرارها الشخصية فحدثتها عن مغامرتها مع آدم زاباتو، بينما هي في أول تجربة عاطفية خاصة لها أخذت تكذب عليها، بيد أنها بررت لنفسها بأنها تعيش تجربة خاصة لم تتّضح بعد، وربّما ستخبرها لاحقا.

حين ذهبت صباح اليوم التالي إلى المعهد كانت قد حسمت أمرها. وحين بدأ الدرس الأول انتبهت إلى غياب أبوحمزة النبوي. شعرت بالإحباط. ثم قالت لنفسها ربما هذه إشارة إلهية لها بألاّ تتورط في هذا الارتباط، لكن لم تمض سوى دقائق حتى طُرق باب قاعة الدرس وظهر آدم أبو حمزة النبوي.

كان مرتبكًا. ما أن جلس إلى جانبها على كرسيه ووضع دفتره أمامه وكتابة اللغة الفرنسية حتى كتب لها على صفحة بيضاء كلمتين واحدة تحت الأخرى: «نعم.. أو.. لا»، وقدّم الورقة لها لتؤشر على الإجابة. قرأت هي ما كتب، وظلت للحظات لا تجيب أو تؤشر، ثم وجدت نفسها تأخذ قلمها وتؤشر علامة على كلمة: نعم.

في تلك اللحظة بالذات أحسّت بأنها أخطأت، وقالت لنفسها: «لقد تسرّعت. هكذا أبدو رخيصة، فكأنني أركض خلفه ولم أصدق زواجي منه لأنه أصغر مني بالعمر بحدود 15 خمس عشرة سنة..!»، لكن هذه المشاعر اختفت تحت خيالات جنسية شبقية. وفجأة شعرت بأنها تحبه..!

في أول استراحة بين درسين طلب منها أن يغادرا المعهد كي يتصل بأصدقائه كي يحضروا معه كشهود وبينهم من يستطيع عقد الزواج. كانت هذي

مذهولة، بل مسلوبة الإرادة ومخطوفة بإنجذاب وكأنها ما يجري لا يخصها هي ولا يخص حياتها، لذا تبعته لا إراديا دون أن تقول شيئًا، وفعلا غادرا المعهد.

خلال ساعة تقريبا كانت حواء ذو النورين متزوجة بعقد شرعي ديني، ولكي يتم ذلك شرعًا أخذها إلى فندق قريب يعمل فيه عربي جزائري من أصدقائه، وفي إحدى الغرف ودونما كلام احتل جسدها، أخذها بصمت إلى سرير الغرفة، ألقاها عليه.. كانت هي كالسائر في النوم.. كالمسحورة.. ترى كل شيء دونما ردة فعل أو مشاركة. ومع أنها كانت تؤمل نفسها بمتعة جنسية عارمة مع شاب في عنفوان شبابه، إلاّ إن خيبتها كانت كبيرة جدًا. لحظتها عرفت أي خطأ جسيم ارتكبت بحق نفسها، فقد اتّضح أنه لا يمتلك أية ثقافة جنسية، فأول ما دخلا الغرفة أخذها، ورفع ثوبها إلى الأعلى، ونزع سرواليها، حتى أنها خجلت لأنها كانت مشعرة ولم تحلق شعر عانتها، ومن دون أيما مداعبات أو مقدمات فتح فخذيها وأولجه فيها، بينما رائحة فمه كادت تدفعها إلى التقيؤ.. وبعد دقائق قذف فيها، بينما كانت هي تحاول أن تفهم ما يجري معها وتسأل نفسها: «أهذه هي أنا المرأة العاقلة، زوجة القاضي المغدور، وأم آدم المنتحر، التي تحملت ما تحملت وصددت من صددت من الرجال أسقط وأتهور وأنساق إلى هذا الإبتذال..؟ هل هذا ما كانت أحلم به..؟ أن يضاجعني هذا الجاهل كأية عاهرة في غرفة بفندق رخيص..؟».

حين قام عنها أسرعت هي إلى غرفة الحمام لتنظف ما علق بها من مائه تجنبا لأية كارثة مقبلة بالحمل.!. وحين غادرا الفندق كانت تشعر بالعار، وبالإحباط والانكسار. وجاءت الضربة الموجعة بعد ذلك مباشرة، فما أن غادرا الفندق حتى دخل بها إلى محل يبيع الحجاب والزي الإسلامي النسوي، وطلب منها شراء أكثر من ثوب وحجاب لها، بل وطلب منها أن تبدل ملابسها داخل المحل وتلبس الحجاب، فهي الآن زوجته وهو يريدها محجبة، فاشترت ثوبًا إسلاميًا وحجابًا لكنها لأول مرة تنطق بعد أن جرى ما جرى في الفندق بأنها سترتدي هذه الثياب بدءًا من الغد!.

طلبت منه أن تذهب إلى شقتها، فقال لها بأن عليها أن تستعد لكي يعيش معها في شقتها، وطلب منها العنوان فلم تفكر لحظتها بأي شيء سلبي، وذكرت له العنوان فسجله في دفتر صغير معه، وسمح لها بأن تذهب. وطلب منها ألّا تخرج إلا بإذنه.

حين نزلت حواء ذو النورين إلى النفق الذي يقود إلى قطار الأنفاق كانت تشعر بأنها ضاعت وضيعت نفسها. كانت تشعر بأنها لم تكن هي أبدًا، وفجأة راودها شعور وكأنها أفاقت من غيوبة وشلل في الإرادة، وقررت بحزم مشوب بشعور عظيم بالذنب بأن تنقذ نفسها بلا تردد وبشكل قاطع، وأن تلقي

بهذا الزواج إلى الجحيم، فقد شكليا وكأنه لعبة، زواج شفوي بحضور شاهدين وبدون عقد زواج خطي، ولا يوجد أي مستمسك على هذا الزواج حتى ولا يًعد زواجًا عرفيا!، ولكن كيف عليها أن تواجهه..؟ ولحظتها أدركت بأنها قد أخطأ بكتابة العنوان له، لكنها قررت أن تخبر صديقتها إيفا سميث بكل الذي جرى.

***

شعر آدم المجهول بالضيق من سرد هذه الحكاية. فهو في ما مضى كان يتعاطف مع حواء ذو النورين ويتفهم معاناتها، لكنه هنا لا يستسيغ كذبها على صديقتها وعلى نفسها، فهي هنا لا تفكر بالحب كشكل سامي للإرتقاء بالمشاعر، على العكس فهي كانت تسعى لإرواء شهوتها المكبوتة، لكنه احترم قرارها الأخير بمفاتحة صديقتها، علما أن هذا ليس من باب الصداقة وأنما لأسباب نفعية كي تنقذها من المصيبة التي وجدت نفسها فيها..!

لكن مع هذه المشاعر السلبية لدى آدم المجهول إلا أنه قرر أن يكون أمينا للحكاية وللشخصيات ويروي ما جرى فهو ليس سوى مدون للحكاية.. وهذا ما كان.

***

صُدمت إيفا سميث بالحكاية. أحسّت وكأن جردلًا من الماء المثلج قد سُكب على رأسها. وكلّما توغّلت حواء ذو النورين في حكايتها كلما شعرت إيفا سميث بأنها لا تعرف هذه المرأة، فهذه ليست صديقتها المعذبة التي تعرّفت عليها في الفندق بدمشق، ولا تلك التي سافرت من أجلها إلى فلورنسا لتأت بها إلى باريس بأمان، ولا تلك التي فتحت لها بيتها، ولا التي عيّنتها بشكل لا يستطيع أن يتصوره إنسان بحيث استحصلت لها الإقامة وأجرت لها مرتبًا جيدًا دون عمل وأسكنتها في شقة أمها مجانا!. وسألت نفسها: «من هذ المرأة التي أمامي؟ أنا لا أعرفها!! فمنذ شهر ونصف تعيش علاقة مع شاب بعمر ابنها وتزوجته بهذه الطريقة الغريبة!! وهي تعرف أنه إسلامي متطرف. لا. أنا لا أعرف هذه المرأة؟ بل عليّ الحذر منها». لكنها لم تستطع أن تواجه حواء ذو النورين بخواطرها تلك فظلت صامتة لا تنطق..!.

أحسّت حواء ذو النورين بعدم الارتياح من صمت صديقتها. وراودها شعور بالذنب وفكّرت مع نفسها بأنها تأخرت في بوحها لصديقتها ومشاركتها ما جرى معها لاسيما هذه العلاقة قد مرّ عليها شهر ونصف تقريبا، ناهيك أن صديقتها كانت تروي لها كل تفاصيل يومها مثلما روت لها كل مغامراتها السابقة، بينما هي أخفت عنها كل شيء والآن جاءت تطلب النجدة!. ومع ذلك

ظلت تنتظر إجابة أو تعليقًا، وأخيرا قالت إيفا سميث بنبرة فيها زعل مكتوم ولامبالاة مصطنعة:

- لا تزعلي مني حواء إذا عجزت أن أقول لك شيئًا مفيدًا. ماذا تنتظرين مني الآن أن أقول بعد أن قررت وحدك السير في هذا الطريق دون مشورة أو مشاركة أحد..!.

شعرت حواء ذو النورين بالخجل والارتباك لما في نبرة صديقتها من عتاب وزعل حاولت أن تكتمه أدبًا، وقالت بخجل:

- أعرف أنني مذنبة أمامك.. مذنبة بحق صداقتنا..

- أنت مذنبة قبل كل شيء بحق نفسك. ماذا دهاك؟ وبصراحة، كأنني لا أعرفك. أهذه أنت التي مرّت بدرب الآلام ذاك، كي توقعي نفسك هكذا، ومع مَن؟. أمن المعقول وأنت المتعلمة التي رأت الدنيا وقرأت ما قرأت.. ومررت بتجارب مع المتطرفين الإسلاميين في بغداد بل وفقدت ابنك بسببهم، وتزوجت أميرًا منهم.. وهربت عبر القارات منهم، بينما هنا ترتبطين بسلفي يطلب منك التحجب فورًا، ويتزوجك شفويًا، وينام معك في غرفة بفندق كأية.. كأية. استغفر الله.. والله لا أستطيع أن أتصور ذلك..!

- قوليها.. قوليها كأية مومس من الشارع تصعد إلى غرفة الفندق.. نعم. نعم.. هذا ما شعرت به أنا أيضًا. قولي ما تشائين.. اشتميني.. أنت محقة.. وأستحق ذلك. لكني أريد أن أتخلص من هذه الهاوية التي ألقيت بنفسي فيها في لحظة نزوة أو في لحظة غياب للعقل..!.

شعرت إيفا سميث بالإحراج من نقد صديقتها لنفسها بهذه الصراحة والقسوة، مثلما شعرت ببعض الارتياح كونها لم تجرح صديقتها بالكلام فقد قالت هي الأكثر وبوضوح، لذا صمتت لحظات ثم قالت:

- أنا امرأة مثلك وأدرك ضغط الجسد وفوران الدم الذي يوقظ الرغبة والشهوة. نحن يمكن أن نلبي في لحظات ما نداء الجسد ونستمتع، لكن أحيانا يكلّفنا ذلك الكثير من الندم واحتقار الذات. فزواجك هذا غير متكافئ في كل شيء.. عمومًا.. أنا أعتقد أن ما جرى لا قيمة له إطلاقا، فأنت رأيت في حالتي كيف أن حالة السكرتيرة التي تزوجت من آدم زوجي، فمع أن هناك ورقة رسمية بالزواج الديني المعترف به في كل البلدان الإسلامية إلاّ إن فرنسا لم تعترف به لأنه غير مصدق رسميا من أية جهة، فكيف بزواج مشبوه جرى لفظيا بينك وبين شاب

يصغرك بالعمر بحضور إثنين من أصدقائه، حيث لا توجد حتى ورقة دينية تشهد على هذا الزواج!؟ وبمعنى من المعاني هذا كله هواء في شبك، إذ لا يوجد إثبات قانوني، فهو غير رسمي ولا حتى شرعي حتى. هو مجرد نكاح برضا الطرفين، فليس ثمة عقد مكتوب بينكما.!.

شعرت حواء ذوالنورين بالراحة لاهتمام صديقتها بالأمر وتفهمها لها أكثر من دقة وصواب ومنطقية كلامها من عدمه، لذا علّقت:

- كلامك منطقي. وكم أشعر بغبائي وسذاجتي وأنا المرأة الناضجة..!! كيف اقتنعت وذهبت معه إلى الفندق. أنني أشعر بالعار، فقد تم كل شيء معي وكأني عاهرة عليها أن تلبي زبونا على عجلة من أمرها وأمره..!

تأملتها إيفا سميث للحظات وكأنها تريد أن تتأكد من مصداقية ندمها، فقالت لها:

- المهم ألا تحملي منه.. متى كانت دورتك؟

- قبل عشرة أيام تقريبا..

سكتت أيفا سميث قليلًا وقالت:

- سنرى.. عسى ألا يكون هناك حمل.. فالمصيبة وقعت في الفترة الحرجة التي احتمال يكون فيها حمل..

- أعرف.. وهذا ما يخيفني.. علما أن ذهبت واغتسلت جيدا بعدها مباشرة..

- مع ذلك يحصل الحمل أحيانًا، لكن الاحتمالات ضعيفة بحكم العمر وفترة انقطاع الممارسة..

شحب لون حواء ذو النورين ونظرت بخوف وارتباك، فقالت لها صديقتها:

- لا تخافي، حتى لو حصل الأمر فيمكننا إجراء عملية إجهاض..!

سكتت حواء ذوالنورين للحظات وقالت بعد تفكير:

- قررت ألاّ أذهب إلى معهد اللغة كي لا التقيه..

- هذا جيد. توجد معاهد أخرى لتعليم الفرنسية، وفي منطقتنا يوجد معهد ممتاز لتعليم اللغات.. ومن ضمنها الفرنسية لغير الناطقين بها. يمكن التسجيل فيه من اليوم.

***

توقف آدم المجهول عن الكتابة. فكّر بأن عليه أن يتجنب التفاصيل العادية التي تطيل الحكاية وتفككها بملل، وأن عليه أن يذهب إلى لبّ الأحداث.. فواصل الفصل.

***

بعد أكثر من أسبوعين بأيام من مباشرة حواء ذو النورين في معهد اللغة الجديد القريب. شعرت بعلامات نزول الدورة، فاستبشرت خيرًا. وحين جاءت الدورة شعرت براحة عظيمة واتصلت بصديقتها إيفا سميث تزف إليها البشرى، وقد فرحت صديقتها فرحا حقيقا لهذا الخبر.

لكن فرحتة حواء ذو النورين لم يدم طويلًا. فبعد أسبوع من ذلك، وذات مساء سمعت رنين جرس الباب، وكانت قد استحمت وأرتدت برنسًا حريريًا خفيفًا.

ذهبت نحو الباب وفي ظنها ربما هي صديقتها مرّت لتأخذها معها، إذ يحدث أحيانا أن تأتي إلى باب الشقة لتأخذها. نظرت من العين السحرية فلم ترَ أحدًا. استغربت. فتحتْ الباب. وفجأة، هجم عليها ثلاثة رجال ومن ضمنهم آدم أبو حمزة النبوي وصديقيه، وكان معهم رجل آخر ضخم الجثة، فارع البنيان وخشن الملامح.

شلهّا الخوف. لم تستطع الصراخ ولا طلب النجدة، وخلال ثوان صاروا في الصالة. صاح بها الذي يفترض أن يكون زوجها:

- أين اختفيتي؟ لماذا تركت المعهد..؟ أنت زوجتي على سنة الله ورسوله، وعليّ أن أعرف كل ما تقومين به. اتصلت بك مئات المرات، ويبدو أنك غيّرت رقمك! هل غيّرت رقمك..؟

لم تجب حواء ذوالنورين فقد كانت مشلولة الحركة حيث يحيط بها هؤلاء الرجال الملتحون عدوانيو الملامح، فصرخ بها صرخة فززتها:

- هل غيّرت الرقم..؟

فتمتمت بخوف وارتباك:

- نعم..

فصرخ بها:

- ولماذا لم تتصلي بي لتخبريني..

- ضاع موبايلي فضيعت رقمك.. قالت.

صمت هو للحظات.. وفجأة سألها:

- أين موبايلك؟

ارتبكت إذ عرفت سيكتشف حيلتها لأنه يعرف هاتفها وماركته وشكله، لكنها كانت مضطرة أن تأتيه به. أخذه منها وصار يقلبه بين يديه:

- هذا هاتفك القديم نفسه، فكيف تقولين إنك ضيعته..؟

- لا ليس هو.. لكني اشتريت له غطاء بنفس لون الغطاء السابق لذا يبدو يشبهه..

كان الرجال الثلاثة في المطبخ. أحدهم فتح الثلاجة وأخذ يشرب الماء، وآخر أخرج صحن زيتون وراح يتذوق حباته، والثالث الضخم الجثة كان ينظر من المطبخ إلى هذه المرأة المثيرة وزوجها الذي بعمر ابنها، وسمعه يقول لها بحيث انتبه الجميع له:

- لا نريد أن نبقى هنا كثيرًا. اسمعي جيدًا. الأخ الكبير الأمير آدم سيف الإسلام سيبقى هنا معك في الشقة، هو أمانتي عندك، عليك أن تخدميه كما تخدميني، حياته أمانة بين يديك، إذا مسّه الضرّ فهذا يعني أنك خنت الأمانة، وعقاب الخيانة ليس الموت فحسب، وأنما التعذيب حتى الموت. إذا مسه أيُّ ضرّ أو أمسك به أي مكروه فهذا يعني إننا سنسلخ جلدك وأنت حية، ونشوي لحمك ونطعمك منه، هل فهمت؟، وإذا ما صرت شاطرة وماكرة وفكّرت بإخبار صديقتك المسيحية إيفا سميث فسنقتلها ونقتل أمها وابنتها أيضا، فنحن من اليوم التالي لاختفائك نترصدك ونترصدها وعرفنا كل شيء عنكما.. هل فهمت..؟

لم تجب. كانت مرعوبة. نظرت للمدعو الأمير آدم سيف الإسلام الذي عليه الاختفاء في شقتها برعب، فصرخ بها آدم أبو حمزة النبوي صرخة قوية وهو يترجف:

- هل فهمت..؟

فتمتمت برعب:

- فهمت.. فهمت..

التفت الزوج المزعوم نحو رفاقه في المطبخ. نظر إليهم نظرة قلقة، وأشار لهم برأسه كي يغادروا، فخرج من المطبخ صديقاه وبقى الأمير آدم سيف الإسلام في الشقة. غادروا جميعًا. أغلقوا الباب خلفهم. ظلت هي في الصالة مرعوبة لا تعرف كيف تتصرف. واكتشفت الخطأ الرهيب الذي اقترفته والورطة التي هي فيها، وراودتها الأسئلة والخواطر المرعبة «ما هذا الذي صرتُ فيه؟ أأصبحت إرهابية تشارك في عمليات ضد القانون؟ ولِمَ..؟ وكيف؟ ما الذي حدث؟ هؤلاء مجموعة من الإرهابيين الذين يقتلون الناس ويفجّرون المحطات باسم الإسلام؟ كيف ولماذا تقبل هذه الدول بوجودهم على أراضيها وتستقبلهم وتوفر لهم المأوى وتعطيهم المال للعيش والمعاهد لتعلم اللغة؟ ما سيحدث لو أخبرت الجهات الأمنية عنهم؟ لكن كيف عرفوا كل التفاصيل عني وعن المسكينة إيفا سميث وابنتها؟ ربما كان خطئي أنني أعطيته عنواني، لكن ماذا عن معلوماته عن إيفا وابنتها؟». وقطع عليها الأمير آدم سيف الإسلام، الذي كان يتأمل جسدها من خلال البرنس الحريري الملتصق بجسدها، تداعياتها.

نظرت إليه ورأت نظراته الشبقة الوقحة إلى جسدها، فاستدارت ودخلت الغرفة لتغيّر ثيابها، بينما لاحقها هو بابتسامة صفراء ونظرات فيها شبق ووعيد.

حين صارت في الغرفة كانت في حيرة ورعب، ولا تعرف ماذا عليها أن تفعل!؟ وفكرت مع نفسها إن كان عليها أن تتصل بصديقتها وتشرح لها كل شيء؟ «لكن ماذا لو عرف هؤلاء؟ من المؤكد أنه يتنصت عليّ الآن، إذاً عليّ أن ألّا أثير شكوكه»، وغريزيا خطرت عليها الأفكار بأن تستخدم كل الهدوء واللطف في التعامل مع الأمير إلى أن يطمئن لها بحيث يمكنها تنفيذ خطتها.

وبعد دقائق خرجت إليه. مبتسمة وقد لبست الثوب الإسلامي الطويل، الدشداسة العريضة. ووضعت شالاً على رأسها. وكحلت عينيها. فنظر إليها بانبهار وشبق واضح.. وقال:

- ما شاء الله.. سبحان الله على بديع خلقه.. أنت حورية من حوريات الجنة.. ما شاء الله..!.

- شكرا لك أيها الأمير. قالت بنبرة متوترة لكن بلطف..

اعجبه صيغة خطابها له فأراد أن يبدي أريحيته فقال لها:

- لا تخاطبيني بالأمير وأنما بآدم سيف الإسلام فقط..!

فقالت بنفاق واضح:

- العين لا تعلو على الحاجب أيها الأمير. أنت أمير الجماعة وقائدهم، ولا يليق بك سوى لقب الأمير..

ابتسم حتى بانت نواجذه وقال:

- وأنت ما اسمك أيها الحورية..؟

- أنا حواء ذو النورين..

ابتسم وقال بنبرة ملغزة:

- أنت حواء.. وأنا آدم.. لكن ذو النورين لقب غريب. أتعرفين من كان يلقب بذي النورين؟

- قيل إن الخليفة عثمان بن عفان كان يلقب بذي النورين..

ابتسم الأمير لها وجلس أثناء ذلك على الصوفا بينما ظلت هي واقفة أمامه كالجارية وقال:

- ما شاء الله، جمال وثقافة. أنت نعم الأخت أيتها الحورية، لكني سأناديك بيننا بالحورية حواء. أما إذا جاءت الجماعة فنعود للخطاب الرسمي.. اتفقنا.

- اتفقنا.

شعرت حواء بأنها أنجزت خطوة ممتازة. ولكي تذهب أبعد في خطتها سألته:

- هل أنت جائع أيها الأمير..؟ دعني أطبخ لك شيئا..

- سيسعدني أن آكل من يديك..

أحسّت أنها وقعت في ورطة.. فليس لديها ما يمكن أن تعدّه له، لذا أخرجت طبق البيض والطماطم والمقانق وأعدّت طبقا مقليّا من كل هذه المواد، كما أعّدت الشاي وسخّنت الخبز التركي وأخرجت الزيتون والأجبان العربية التي اشترتها بالأمس، ودعته إلى المطبخ.

طلب منها مشاركته الطعام فرفضت قائلة بأنها تعشت. أصرّ على ذلك محاولة منه أن يكسبها إليه فقد كان في ذهنه أن يضاجعها وتكون له مهما كانت الحجج والسبل، ولكي يبدي لطفا أخذ قطعة من الخبز وشكلها مع البيض ومدّها إلى فمها. ارتبكت لكنها وجدت نفسها مضطرة إلى أن تفتح فمها فمس شفتيها بطريقة ما.! كانت هي في صراع نفسي هائل، واستذكرت أيامها مع زوجها الثاني الأمير وضابط الاستخبارات قابيل العباسي!..

وبعد أن شربا الشاي في الصالة أخذ يسألها عن الوضع في العراق فأخذ تتحدث بشكل سلبي عنه، ثم سألها عن زوجها فقالت له بأنه تم اغتياله، ولم تحدثه عن زواجها الثاني وأنما اكتفت برواية قصة اختطاف ابنها من قبل المليشيات التابعة للأحزاب الإسلامية الحاكمة في العراق، فأخذ يشتم، وقال بأنهم سيحررون بغداد ويبنون دولة الخلافة في العراق والشام..!

وعبّر عن رغبته في مشاهدة القنوات العربية عبر التلفزيون. وحينما تأخر الوقت رتبّت له سريره في غرفة الضيوف. كان هو يراقبها من الصالون، وحينما انحنت عند ترتيب الشرشف تكشّف شيء من ساقها، فلم يسيطر على نفسه، فأسرع إلى الغرفة بحيث هي لم تستطع أن تدير جسدها، فاحتضنها، وبسرعة خاطفة رفع ثوبها إلى ما فوق وأسرع بفتح بنطاله. أرادت أن تبعد نفسها فلم تستطع. وبكفه القوية أنزل كلسونها إلى الأسفل وأولج قضيبه فيها. أنّت وأخذت تقول له ماذا تصنع، بينما كان هو كالثور الهائج يدفعه إلى أعماق أعماقها، واستسلمت، إلى أن ملأ رحمها بمائه، بينما أحسّت هي بارتعاشات تجتاحها.! وسقطت بوجهها على السرير، وانهار هو فوقها، فأحست بالإنسحاق والإنهيار والضياع الكامل.

بعد دقائق انتبهت لنفسها وخطرت في ذهنها امكانية الحمل فارتعبت، وحركت نفسها من تحته وذهبت إلى الحمّام لتنظف رحمها من نجاسته.

ومن هناك ذهبت إلى غرفتها دون أن تلتفت إليه وأغلقت بابها. بينما ابتسم هو راضيا عن نفسه.

* * *

فكرّ آدم المجهول بلا جدوى سرد عدد المرات التي اقتحم فيها الأمير جسد حواء ذو النورين. ففي صباح اليوم التالي اقتحم غرفتها. أفاقت فرأته عاريًا بالكامل وقضيبه منتصب. فتحت عينيها لتجده قد قرب قضيبه من فمها ومن شفتيها وحين أرادت أن تبعد نفسها قبض على رأسها وأجبرها أن تفتح فمها لتمصه، واضطرت كي تنقذ نفسها من خلال مسايرته، فأخذت تمص، ثم سحبها إليه نازعا ثوبها بالكامل فصارت عاريةً بين يديه فولجها بشكل هائج.. ولم يتركها إلا بعد أن تعب منها بعد مرات عديدة.

أدركت هذه المرة بأنها لابد وأنها ستحمل، فقد قذف في داخلها مرات عديدة، ولم يعطها الفرصة كي تذهب لتغتسل، إلا بعد أن تعب. وحين غادرها كانت عاصفة الانتقام بدأت تتحرك في أعماقها.

اغتسلت، وكانت تؤمّل نفسها بألّا يحدث حمل، وأعدّت له الفطور، وارتدت ملابس الخروج الاسلامية.. استغرب هو مسألة خروجها، فأوضحت له بأنها إذا لم تذهب للدرس سيأتون هم إليها ويرسلون من يسأل عنها في الشقة. اقتنع قليلًا، فهو لا يعرف القوانين الفرنسية لأنه منذ سنة وصل أوروبا، وقد جاء من ألمانيا لأمر ما، وفاته بأنها يمكن أن تتصل وتعتذر عن المجيء بحجة المرض، لكنه قال لنفسه: «إلى متى يمكنها أن تتمارض، لا بد لها من الذهاب. هي الآن طوع يدي، فقد استمتعت هي بي أيضا.. كانت تعض كفها من الشهوة».

حين خرجت من بنايتها اتجهت إلى شقة صديقتها إيفا سميث، وحين فتحت لها الأم الباب استغربت. إذ لم تعرفها مباشرة بالزي الإسلامي. طلبت من الأم أن تتصل بإيفا لأنها لا تستطيع أن تتصل بها من هاتفها.

جاءت صديقتها بعد قليل، وبدورها استغربت حين رأتها بالزي الإسلامي، لكنها أحسّت بأن كارثة قد وقعت، وحينما رأت حواء ذو النورين منهارة أخذتها إلى غرفتها. وأغلقت الباب.

روت لها كل شيء دون خجل أو تردد. واتفقتا ألاّ تعود إلى شقتها، وتبقى معهم في شقتهم، ثم فكّرت إيفا سميث بإبلاغ الجهات الفرنسية الرسمية، وفعلًا هذا ما جرى. تحدثت مع ضابط كبير الذي كان في مكتبه يستمع إلى حديث إيفا سميث مع ضبّاط آخرين وبانتباه شديد، فطلبوا من حواء ذو النورين أن تنتظر، واعدين بالحضور فورًا.

وبعد أربعين دقيقة جاء ثلاثة ضباط بمراتب مختلفة. وبعد أن تأكدوا من وضع إيفا سميث وكل ملفاتها وملف زوجها وملف حواء ذو النورين حيث كانت

مضطرة بأن تحكي لهم عن جوازها الروسي وبأن أمها عربية ووالدها روسي كما أفهمتها حواء ذوالنورين، كما أعطت المعلومات كاملة عن آدم أ بو حمزة النبوي والأمير آدم يف الإسلام، فاتضح أنهما إرهابيان قاما بتفجير محطة قطارات ومقهى، وهم ينظمون الناس للذهاب إلى تركيا ومنها للإلتحاق بداعش. وطلبوا من حواء ذوالنورين أن ترجع إلى الشقة كي لا تثير أي اشتباه بانتظار وصول الجماعة الآخرين.!.

ومع أنها كانت خائفة جدًا، لكنها أرادت أن تنتقم للمهانة التي تعرضت لها، وتذكرت ابنها الذي عاش بينهم بحيث دفعوه للإنتحار!.

عادت حواء ذو النورين إلى البيت، بعد أن حملت معها طعامًا وفق الاتفاق مع أجهزة الأمن، وركبوا لها جهاز انصات مرتبط بكاميرا بحيث يرون ويسمعون كل شيء. وكم كان مزعجا لها حينما ضاجعها الأمير آدم سيف الإسلام وكان الضباط يسمعون لهاثة الشبق.. وهم يدركون ما يجري..!.

كانت المنطقة محاصرة لكن بهدوء وكتمان. وفي الليل جاء آدم أبو حمزة النبوي ووصديقاه. انتبه لنظرات الأمير المرتبكة التي تتجنب النظر إليه في وجهه.. حتى أن الأمير تجنب ذكر خروجها تواطئا منه معها، بل قال الأمير بضع جمل مديحًا لحسن استقبالها له والحرص على راحته. لكن لم تمض إلاّ دقائق قليلة حتى سمع صوت يطرق الباب ومكبّر صوت يناديهم بأن يسلّموا أنفسهم لأجهزة الأمن. ألقى آدم أبو حمزة النبوي نظرة من النافذة فرأى الشارع مكتظا بالسيارت المجنزرة وسيارات إطفاء الحرائق، فعرف أنهم انكشفوا. ومع أن لا أحد منهم شك في حواء ذوالنورين إلاّ إن آدم أبو حمزة النبوي قبض، فجأة، على حواء ذو النورين وجرّها من شعرها إلى غرفة النوم، وهو يتمها بأنها من أخبر عنهم بالتأكيد. بينما انشغل الآخرون بارتباك في تجهيز اسلحتهم الخفيفة.

انكسر زجاج إحدى النوافذ وأخذ الأمير آدم سيف الإسلام يرمي قوات الشرطة والأمن من مسدس يدوي كان يخفيه. وتدحّرجت في الشقة قنبلة دخانية، وصار هناك رمي رصاص كثيف إلى أن تم اقتحام الشقة بعد تدمير الباب.

تكشف الدخان بعدما اقتحم رجال المخابرات وشرطة مكافحة الإرهاب الشقة. حينها وجدوا أربع جثث قد خرمها الرصاص وامرأة مقطوعة الرأس على السرير في غرفة النوم.

هكذا ذبُحت حواء ذو النورين.

5

بوح حواء الأسواني

كان آدم المجهول منزعجًا من المصير الذي انتهت إليه حواء ذو النورين. أراد أن يغيّر من الأحداث لكنه عادة لا يتدخل في الحكايات ويفرض نفسه على مصائر وأقدار الشخصيات الروائية فهو مدوّن لا أكثر. أراد أن يواصل الحكاية ويروي ما جرى في ما بعد مع إيفا سميث التي كرّست حياتها لوضعها الوظيفي ولتربية ابنتها لاسيما بعد أن ماتت أمها. ولكي تخرج من كآبتها أخذت بتربية بعض الكلاب.

نهض من مكانه واتجه نحو المطبخ. حين فتح الخزانة الأولى المعلقة فوق الطاولة الطويلة المثبّتة بالحائط وجد قناني نبيذ فارغة. استغرب وجود شخص ما في الشقة قد شرب كل هذه الكميّة من النبيذ. سأل نفسه عمّن كان يسكن الشقة قبله، وأجاب على سؤاله بنفسه بأن لا أحد كان هنا غيره هو نفسه..!.

فجأة، رنّ جرس الباب. ذهب بخطى حذرة ليرى القادم غير المنتظر. نظر من العين السحرية. انتبه إلى أن هناك امرأة، بدت له غير غريبة. حاول تذكّرها، فعرف أنها كانت في نص الرواية مع آدم الأكويني، وقال لنفسه بصمت: «نعم.. هي تشبه حواء العاقل. لا. ليستْ هي بالضبط، بل ربما هي. لا أعرف.. سنرى».

وفتح لها الباب.

دخلت بمرح على الرغم من صرامة ملامحها. سلّمت عليه واتجهت إلى المطبخ وكأنها تعرف الشقة. كان ينظر إلى جسدها من الخلف وهي تمر أمامه.

فتحت الثلاجة. أخذت قنينة ماء. فتحت الخزانة. أخذت قدحين وغادرت المطبخ متجهة إلى الصالة، وحين لحق بها وجدها تجلس على الصوفا الجلدية. جلس على المقعد المقابل لها. لم يكن يعرف كيف يبدأ الحديث معها. انتبهت لارتباكه فسألته بتلقائية: - ما بك يا آدم تحملق بي هكذا وكأنك لا تعرفني.. أنا حواء الأسواني..

- أعذريني.. ظننتك حواء العاقل..

نظرت إليه متفحصة ثم قالت:

- ثم ماذا..؟ ما الذي تغيّر في الأمر. فسواء كنت حواء العاقل أو حواء الأسواني فالاختلاف في بعض جوانب السيرة لا يغيّر من الجوهر شيئًا، مثل المرايا المستوية والمقعرة والمحدبة، فالإنسان واحد لكن الوجوه مختلفة أو مثل الأناجيل الأربعة، تختلف في بعض التفاصيل، لكنها تتوحد جميعها في الجوهر.

صمت آدم المجهول للحظات مفكرًا بإجابتها التي وافقها عليها ثم قال: - أنت محقة.. في النهاية الإنسان هو ذاته.. آدم هو آدم.. وحواء هي حواء مهما اختلفت الوجوه والأماكن والأزمنة!، لكن كما يوحى لي أنك متزوجة من رجل متزمت لحد ما، لكنك كنت مختفية.. أين كنتِ؟

صمتت حواء الأسواني للحظات ثم صبّت لنفسها وله شيئًا من الماء. قدّمت الكأس له ووضعتها أمامه ثم قالت: - في الفترة الماضية لم أكن بخير أبدًا. سعيت للانفصال بشكل جاد عن زوجي، وعندما وجدني حازمة في ذلك تراجع عن عراقيله التي لم ينفك بوضعها أمامي، ووافق على شروطي التي طلبتها منه، وأولها وآخرها أن أمارس حياتي بحريّة، الآن صرت أفضل كثيرًا..

التقط آدم المجهول جملة وردت في كلامها فسألها: - تقولين طلبت بأن تمارسي حياتك بحريّة.. ما معنى ذلك..؟

ابتسمت له بمرح وقالت:

- يا عزيزي، يا آدم.. أقصى ما أطلبه من حرية في ظل العقلية التي أتعامل معها، ألّا يمنعني من الخروج، أو أن يمنعني من أن أشتري

كتبًا.. اتفقت مع صاحبتي أن نخرج لمشاهدة مسرحية بمسرح المدينة لفرقة مشهورة وصلت مدينتنا، ومع أنه عرف في حينها موعد المسرحية وتاريخ عرضها، إذ سمع حديثي مع صديقتي هاتفيا ولم يعلق لحظتها. لكن حين جاء الموعد وتهيأنا للخروج اصطنع مشكلة كبيرة ورفض أن نخرج!. وهكذا دائما وفي كل شيء يقول لا!. يلحّ بل ويطالبني أن أكون مثل الأخريات، مثل أمه وأخته، وزوجات أصدقائه.

- ماذا..؟ قال آدم المجهول متعجبا..

- أحس أنه سيقضي عليّ بعدم تفهمه أو تقبله لي.. تعبت حقا..!

أخذ آدم المجهول الكأس بين يديه ورجع قليلا في جلسته وقال: - نعم.. أتذكّر الآن أنني حاولت الاقتراب منك لكنك كنت منطوية ومترددة وخائفة.

فقالت باستلام ثم واصلت:

- نعم.. أعلم. أنا منطوية ومترددة وخائفة. وغير جريئة، هكذا أنا منذ طفولتي، فقد كُنت أُحاسب على كل كلمة تخرج من فمي بتلقائية، وحتى الآن كل ذلك يرافقني. كل شيء واقعي هجرته بروحي وعقلي، لأن كل شيء يحدث في داخلي، أما خارجي فهادئ تمامًا، كما لو أن لا براكين وعواصف وزلازل تمحقني من الداخل. مشكلتي أنني لم أتعود على أن أتكلم، كالسلحفاة تنكمش بداخلها، هكذا أشعر بالأمان!. أحيانًا أفكر، ماذا لو تمرّدت بشكل كامل؟ لكني أتراجع لأفكر في طفلي، كيف ستكون العواقب!؟ وهذا ما يقلقني جدًا. أنا ربما ألجم نفسي بنفسي، وربما أقنن حريتي. نعم. وأفكر في معنى الطاعة العمياء لكني أسأل نفسي: فيمَ ولمَ وكيف؟، وأفكر هل سيكون بإمكاني فعلًا أن استجمع شجاعتي وأجيب على أسئلتي؟ لكني قررت في النهاية أن أخوض التجربة ونرى. أود أولا أن أحكي شيئًا.. ممكن؟

- طبعا... تفضلي

- تتذكر الأستاذ الجامعي صديقي الذي حكيت لك عنه.. الذي أدعمه نفسيا ونتعلم من بعضنا البعض..!

- نعم.. أتذكر شيئا من هذا القبيل..

- لقد انقطعنا فترة، ثم عدنا. لا أعرف تحديدًا ما أريد قوله عنه، ولا أفهم مشاعري تجاهه، بيد أني أشعر بحاجة قوية إلى وجوده. نعم.

حاجتي له هذه تعذبني، وحاجتي له ليست جنسية، رغم أنه يعجبني. لديّ شعور مترسخ وقوي بأنني لست محبوبة ولا مرغوبة. أود أن أكتفي بذاتي، ولا أشعر بالحاجة إلى وجود حبيب على الرغم من أن وجوده بالتأكيد سيسعدني، لكن أن أكون ناقصة من دونه فهذا لا يريح كبريائي، لا أريد أن أشعر بأنني متعلقة إلى الحد الذي إذا غاب فيه تصبح حياتي بلا معنى، لا أريد التبعية لرجل، كم أغضب مني حين أكون في مثل ذلك الحال، إذ لم يعد هناك كلام يقال، وحده الغضب والحزن مشحون داخلي.

- مم أنت غاضبة؟ سأل بهدوء.

صمتت حواء السواني للحظات ثم قالت:

- أنا غاضبة من نفسي، لأنني بحاجة إلى أن أفتح كل الأبواب المغلقة داخلي، وأراني كيف أبدو، وأن أكتشف كل يوم شيئًا، فأحيانًا كثيرة أشعر وكأنني لست حرة أبدًا في التحكم بذاتي. ابتسم ابتسامة ساخرة الآن. فعلى الرغم من ظهوري الواثق جدًا وثقتي بأناي أحيانًا، لكني أجلد نفسي دائما وأقول إنني «لا شيء».. هوة شاسعة بيني وبين واقعي بأكمله. كثيرًا ما تنتابني حالة لا مبالاة نحو أي شيء، وأقول لنفسي: لتمض الأمور كيفما شاءت، وكأنها لا تعنيني، بما في ذلك شؤون الزوج والأمومة. أحس وكأنني أترك كل شيء خلفي وأمضي، بل أحيانا ألازم الفراش وأنام طويلًا، ولا أرغب بفعل أي شيء بما في ذلك تلك الأشياء التي أحبها. مرهقة ومتعبة أنا في أعماقي..

فجأة سألها وهو ينهض عن مقعده:

- هل تشربين القهوة أو الشكولاته الساخنة، الكابتيشينو أو الشاي، اختاري بينها، إني خيّرتك فاختاري..!

ابتسمت وقامت هي بدورها.. وقالت:

- أنا سأعدّ القهوة وأنت ستشرب الشكولاتة الساخنة.. هذا ما أعرفه..

وذهبا إلى المطبخ. أعدّا لنفسيهما ما أشتهيا. وجلسا حول الطاولة الصغيرة التي تكررت وجود الحواءات اللاتي جلسن حولها.. وقال لها وهو يرتشف الشكولاته الساخنة: - أتعرفين يا حواء، إن اللامبالاة تأتي في الغالب من الوعي الشديد بالأشياء، حيث تنقطع رغبتك في التواصل معها وكأنك

تعرفين ماذا ستأتي من أحداث وإلى أين ستذهب الأمور، لذلك كل شيء يفقد طعمه..!

قاطعته وكأنها لم تسمع ما قال وواصلت:

- كنت أفكر بالموت. صدمني خبر موت صديقة لي في حادث قبل فترة. كذلك أبي توفي في سريره، كنت أقول إنه سأم كل شيء ولم يتشبث بالدنيا أكثر فاختار الموت، لدرجة أنني كنت أعاتبه وهو في الغياب وأبكي أحيانا. أعتقد أنه غادر الدنيا لأنه شعر في لحظة ما أنه لم يعد بإمكانه أن يقدم أي شيء لنا، بعد أن فقد أمواله في بلاد عربية عمل فيها لسنوات وعاد بطلق ناري في بطنه. أشعر بالذنب تجاهه، أحيانا كنّا نواسيه ونستحثه على إيجاد بدائل للبدء من جديد، ولكنه يئس، فكأنه كان يشعر بفشله رغم أنه تعب كثيرًا من أجلنا، لهذا كنت أشعر أنه اختار الموت.. أما صديقتي، التي كانت بعمري، ولم تتزوج، فقد توفيت في حادث، لكنها لم تختر الموت. كانت تحلم أن تحب وتتزوج وتستمتع بالجسد وتكوّن عائلة، وهكذا كل من قتل في حرب وكل الذين ماتوا في تفجيرات. الموت وجهه بشع، وما بعده مخيف لأنه مجهول..

انتبه آدم المجهول لتعاطفها مع أبيها فسألها بفضول وبنبرة لا مبالية: - حدثيني عن علاقتك بأبيك..

نظرت إليه نظرات متفحصة. وانتبهت لطبيعة السؤال الذي بدا كأسئلة الطبيب النفساني لكنها لم تعترض بل أجابت قائلة: - أبي؟ كنت أحبه جدًا، وأحيانا كنت أكرهه. أتذكر مشاهد من طفولتي. مرة رفعني ثم أسقطني في الأرض بعنف، كان عمري 6 سنوات، لأنني رفضت أن أخرج لأشتري شيئًا. كان ديكتاتورا في فرض رأيه، وإذا ما خالفه أحد منا يضربه. كنت أكذب لأفرّ من عقابه. نحن أربعة أخوة.. حينما كان يساعدني في المذاكرة لم يمنحني فرصةً كي أفهم، أو أي حق في أن أخطئ.. يده كانت سابقة. كنت أكره ضعف أمي أمامه. كان يمنعها من الخروج. هي الآن تقسو علي إن تمردت.. تقول إنها تخشى عليّ لأنني سأتعذب ثم في النهاية سأستسلم، لكني رأيته يضربها بقسوة. بالمناسبة، وقبل أن تسألني أقول لك: تعرفت على عالم الجسد من زواجي فقط. لم أتحدث خلال حياتي كلها في الدنس، لا في المدرسة ولا خلال فترة المراهقة حتى، كنت كما يقولون فتاة مثالية، يضرب المثل بخلقها والتزامها..!.

ولأنها فتحت موضوع الجنس فقد تجرأ وسألها: - كيف تعرفت على جسدك..؟

- كنت استكشفه، ومارست العادة السرية كثيرًا، حتى ظننت بعد زواجي أنها السبب في عدم شعوري بأية متعة!. ولو سألت كيف اكتشفت العادة السرية فسأجيبك: لا أتذكر تحديدًا، ربما من صديقات أو توصلت لها أنا بنفسي.

- هل كنت تمارسينها بعد الزواج أيضا..؟

ارتبكتْ قليلا، لكنها بدت وكأنها تريد أن تلقي حملًا ثقيلًا فقالت: - أحيانا. لكني عزمت أن أتخلص منها تدريجيا، كي أعيش حياة جنسية طبيعية. بالمناسبة، أنا مختونة، وكم أكره تذكر ذلك، أمقتهم جميعا، ذلك المجتمع الغبي الذي يظن أن ذلك عفة وطهارة. شعرت أنه لم يؤثر في شيء سوى تشويه المكان، أشعر أن الختان لم يؤثر على شعوري باللذة بقدر التاثير النفسي الذي سببه التشويه في ذلك المكان، لكني مع ذلك بت أزهد في كل شيء. أحيانا يمضي شهر ولا أمارس لا مع زوجي ولا العادة السرية، وأحيانًا أكثر من ذلك، أتمنى أحيانًا لو كان زوجي على قدر من التسامح لمجاراة التغييرات في حياتنا، لكن عدم توافقنا الفكري، يؤثر بشكل كبير جدًا على علاقتنا. غالبا ما أشعر أنني أشمئز منه، كأنه رجل بلا عقل ولا فكر فلا أرغب فيه. لست سعيدة في حياتي معه، ففي داخلي رغبة بأن أعيش قصة حب قوية، مع رجل يقدّرني جدًا ويهتم بي، ويكون قريبًا لأفكاري، وإن اختلفنا سيتقبل ذلك ولا يهدم طموحي، وأن يكون متحررًا. هذه الحاجة تلح دائما بقوة، وأشعر بالخيبة من زواجي، وحتى من صديقي الأستاذ الجامع..

نظر آدم المجهول إليها للحظات مركزًا في وجهها ثم قال: - أنت لا تحبين أحدًا وأنما تحبين فكرة أن تكوني عاشقة ويكون لديك حبيب..

فقاطعته قائلة:

- ربما.. أعتقد أن واقعي هذا شوهني كثيرًا، وشوه علاقتي بنفسي.. أحب أن أعيش قصة حب..

- لا أدري.. أظن أنك تخافين أن تعيشي علاقة حب واقعية، وأنما تتمنين ذلك وتفضلين أن تعيشيها كأحلام يقظة. أنت انطوائية وليس لديك مشاعر حب وأنما تهيمن عليك فكرة ساحرة هي أن تكوني عاشقة وتكوني معشوقة..

نظرت إليه بحزن ورضا وقالت له بمودة وتلقائية:

- نعم نعم، لقد عبّرت عني جيدًا، فكثيرًا ما يحدث ذلك حينما أقترب من أحدهم وأشعر تجاهه بمشاعر حب، أجدني أبتعد وأقول إنني لم أجد من يعجبني إلى الحد بأن أعشقه. ابتعد. وبعد فترة أبحث عن حب آخر، وكأني بانتظار هذا الحب المستحيل.؟.

نظر إليها وهو يقرأ ملامحها وجسدها سريعًا وسألها: - وزوجك.. هل هو شاب وسيم؟..

ابتسمت بحزن وقالت:

- ربما. لكن ينقصه التحرر، والفكر والثقافة، ينقصه احترام المرأة كإنسان واحترام حقوقها، ينقصه أن يفهم أننا شريكان، وأنه ليس أفضل مني، وأنني لست مجرد خادمة وربة بيت. ملتزم بالتقاليد. يراني مثيرة للمتاعب، لكنه لا يطلّقني لأنه لا يحب أن يشذّ عن القاعدة بالطلاق، يريد لحياته أن تستمر، وجودي كزوجة هو ديكور اجتماعي. أتعرف، أحيانا أشعر أنني أحبه، وأحزن بعمق لأننا غير متفاهمين، كم حاولت ومازلت أن أقرّب المسافات بيننا، وأن أناقشه في أمور شتى، ولكني أعود خائبة وأصطدم بجدار تعصبه ورفضه. في داخلي أريده، وأشفق عليه، وأسانده كإنسان لم يعرف الحياة، غارق في همومها وروتينها كآلة، لكنه بدلًا من أن يمدّ يده إلي، يسحبني للموت وللجمود وللانصهار في الجموع. يسألني بحدة كثيرا صارخًا: فيم تختلفين عنهم، كوني مثلهم؟ أقول له: لا أستطيع الانكماش، سأختنق، أشعر بغصة..!.

نظر آدم المجهول إليها من طرف عينيه وكأنه يتوقع رد فعل غير موقن منه وسألها: - ربما لا يثق بنفسه.. ربما يفكر بأن تحررك سيكون سببًا في فقدانه لك..؟.

فقالت بحرارة غير توقع منه:

- نعم هو يعلم علم اليقين أنه سيفقدني. حتى إذا ما استمر بتزمته معي. هو يعلم بأنني إذا ما حققت استقلالًا ماديًا بشكل يكفي أن أوفر سكنًا لي ولأبني، سأتركه فورا..

- ربما يخاف حريتك..!

- بأي معنى؟ أيخاف مثلا أن أقيم علاقة مع أحدهم؟؟ لا أظن أن ذلك يخطر بباله..

- ربما يخاف أن تجدي بين المثقفين من تعجبي به..؟

- هو يعرف أنني لا أهتم إلا بابني وتربيتي له.......

امتد صمت بينهما، فجأة قال لها:

- أعتقد أن مشكلتك هي مع أبيك..

لم تفاجئ وأنما قالت باستسلام:

- أنا أيضًا أظن ذلك. نعم، وهنا فهمت لماذا لا أتمسك بالذين يحبونني..

صمت للحظات ثم سألها بهدوء ومودة:

- ربما تستمتعين في تمثيل دور الضحية؟

نبرته الطيبة جعلتها تجيب بلا استفزاز:

- ربما. أستغرب جدًا، كيف أعبد من كسروني، وابتعد عمّن يحبونني بصدق ويهتمون بي، بل وأبعدهم عني، وأدفعهم ليقولوا إنني لا أستحق اهتمامهم ومحبتهم..

ابتسم آدم المجهول وقال:

- هذه مازوشية خفية.. تلذذ بالألم..

نظرت إليه صامتة للحظات وقالت:

- أحيانًا أفكر في تحطيم صورتي الجميلة عند الناس، عند كل الأصدقاء. أغضب حينما يبالغ أحد في مدحي، أقول له إنني أعرف ميزاتي ونواقصي، وإن الإنسان ليس هو ما يظهر وليس هو سلوكياته وأفعاله. أفلسف الأمور، نعم صادقة في كل ما أقول، لكن ثمة يد خفية بداخلي تريد دائما محو صوري الجميلة وتشويهها...

- اذن هي نزعة عدوانية لتدمير الذات واهانتها.. عقب هو بهدوء.

- ربّما.. أحيانا كثيرة أنهار بداخلي وأبكي شفقة علي نفسي لأنني أعلم أنني لست سيئة، ولكني بمجرد أن أقول ذلك لنفسي حتى ينطلق صوت آخر بداخلي ويبدأ بمهاجمتي من جديد..

نظر آدم المجهول إليها وهو يرتشف رشفة كبيرة من الشكولاته التي بردت قليلا: - يبدو أن والدك حطّم شخصيتك وزرع في نفسك عدم الثقة، بحيث لا تحبين المديح لأنك في أعماقك تنظرين لنواقصك..

فوافقته قائلة:

- ربّما.. أتذكر مواقف كثيرة من نشأتي، لكن ليس والدي من حطّم شخصيتي فقط. مشكلتي أنني وقعتُ في تناقض كبير، بين حبهم وحنانهم وعطائهم، وفي المقابل قسوتهم لعدم معرفتهم في أساليب التربية الصحيحة. التمست لهم أعذارا كثيرة، لأن نفسي تؤنبني على كرهي لمواقفهم.

ابتسم لها وقال وكأنه يحسم النقاش:

- أنت متناقضة.. إنه الصراع الأبدي في الأعماق بين الملاك والشيطان.. بين القديسة والعاهرة..!

ارتشفت هي ما تبقى في كوبها من قهوة وقالت:

- تماما.. وبين كل ذلك أتعذب كثيرا.. أشعر حينها بالرغبة في الصمت والتلاشي، في حين أحيانا كثيرة أود أن أشتم وأسب بشتى الكلمات الداعرة والمبتذلة، لكني أمنع نفسي بكل قوة عن ذلك.. يعني أعي أن لدي رغبة أحيانا في التعبير عن غضبي بالسباب واستخدام المفردات الداعرة والبوح الفاحش عن مشاعري وجسدي، لكني أخاف رغبتي هذه في التلفظ بهذه الكلمات.. ربما بسبب التربية الطهرانية. أحلم بحياة هادئة رومانسية، ومسالمة لأبعد حد ومنعزلة، لا شيء أكثر. أنا مليئة بالتناقضات، أعرف ذلك، ولكني صادقة جدًا حتى في تناقضاتي، وأمقت الأقنعة. أنا كامرأة تسير في مفترق طرق، وإذا ما تراءى لها طريق وهمّت السير به، وجدته سرابًا، لتعود أدراجها، وهكذا مع كل طريق يظهر في الأفق، حتى جلست وقد أعياها المسير.. أتوق إلى السلام والاستقلال والسكينة التي لم أستطع الوصول إليها. أنا أقدّس العقل والروح، وربما أميل للحب الأفلاطوني أيضًا. الجنس مهم، لكنه ليس المحرك لحياتي. أشعر أحيانا ببعض التناقض، ما بين ما أريده، وما يدور بداخلي، بين ما أصبو إليه وما يحدث فعلا. أسمو بروحي،

فيجذبني الجسد إلى قاعه المنحط. هذا يدفعني أكثر للإيمان بالحب الذي يسمو فوق الغريزة، لا لأن الغريزة شيئ نجس ودنس يجب أن نتجنبه أو نخجل منه، إنما لطبيعة الرجل الاصطيادية، فمن النادر أن تجد الرجل الذي يحب المرأة لذاتها، ويصغي إلى أعماقها، نادر جدًا الرجل الذي يستحق المرأة..

في تلك اللحظات رن هاتفها. فتوقفت عن البوح. نظرت إلى هاتفها وتغيرت ملامحها. نهضت فورًا عن كرسيها على عجل وقالت: - علي أن أغادر وإلّا ستحل كارثة..

فسألها بقلق:

- ماذا حصل..؟

- لا شيء. سأحدثك لاحقا..

لم يستفسر أكثر. غادرت الشقة وكأنها تهرول هاربة، وسمع صوت انطباق الباب. لم يفهم آدم المجهول ما جرى.

6

حواء الأصلع.. جناح السرطان

فزّ آدم المجهول على ضجيج يأتي من الطابق الأعلى. صوت موسيقى صاخبة يتعالى ويخفت يرافقه أزيز طاولات مزعج وهي تُسحب فيصل الصوت عبر السقف مسببًا له رعشة غير محببة في أذنيه، ومع هذه الأصوات يسمع إيقاع كعب حذاء نسوي يمشي برشاقة، بل وصوت إيقاع كريات زجاجية تتقافز أو تتدحرج على بلاط أرضية الطابق الأعلى بشكل رتيب.. «إذن هي عائلة تحتفل.. هناك سيدات وأطفال. أو على الأقل سيدة وطفل!». هكذا فكّر مع نفسه، لكنه انتبه فجأة، وكأنه نسيَ ذلك، بأنه يعيش في الطابق التاسع والأخير في المبنى التاسع ولا طابق عاشر فوقه! فمن أين تأتي الأصوات إذن؟

توقف الضجيج. ظن أنه توهّم، وربّما جاءت الأصوات من الطابق الذي تحته!؟، لكنه مع نفسه ارتضى أن يكون واهمًا على أن يقبل بأن الضجيج جاء من الأسفل!، وابتسم في داخله قائلا بصمت لنفسه: «إلا إذا كنت مقلوب الجسد ورأسي على أرضية الشقة عندما سمعت ذلك..!».

نهض عن كرسيه. توجه للمطبخ. هناك رأى على الطاولة قنينة نبيذ لم تُفتح. استغرب وجودها. أخذها بكفه وأدارها ليقرأ ما مكتوب عليها، نبيذ «كندزماراولي؟» سأل نفسه. وبحكم خبرته في النبيذ عرف أنه من أجود أنواع النبيذ في العالم، ويأتي من بلاد جبلية بعيدة في القفقاس، لكنه سأل نفسه: «كيف جاءت هذه القنينة إلى هنا؟ من جاء بها؟ أيعقل أن تكون المرأة التي كانت هنا والتي عرّفت بنفسها بأنها حواء الأسواني هي التي جاءت بها؟ لا هذا غير معقول؟ لقد شربتُ أنا شوكولاته ساخنة وشربتْ هي القهوة، كما أنني

فتشت عن نبيذ قبل ذلك فلم أجد سوى القناني الفارغة!». كان آخر مشهد له في المطبخ يتداعى في ذهنه.

لم يتوقف عند تداعياته. أخرج مفتاح قناني النبيذ. فتح القنينة. سحب سدادة الفلين من فوهة القنينة. مدّ إصبعه الأوسط في فوهة القنينة ثم أطلقه خارجها فأحدث صوتًا خاصًا جدًا محبّبا لأذنيه. أخذ قدحًا خاصًا بالنبيذ وصب لنفسه كأسا.

وكأي خبير بالنبيذ ارتشف قليلًا منه، ومضمضه في فمه. أبدى ارتياحا لجودة النبيذ ومذاقه الحرّيف. ارتشف رشفة كبيرة منه. ومع أن الكأس لم تكن فارغةً إلّا أنه سكب فيها كمية أخرى من النبيذ. أخذ الكأس متجهًا إلى الصالون.

مرة أخرى تناهت إلى سمعة أصوات أكثر صخبا وضجيا من المرة السابقة. الأصوات أزعجته لكن إيقاع وقع كعب الحذاء النسوي حرك في أعماقه لقطات مكبّرة لحذاء نسوي وبطة ساق لامرأة مثيرة.

قرّر أن يتأكد من مصدر الصوت مبررًا لنفسه «ليس من المعقول أن يحدث ذلك وأنا أعرف إنْ لاشيء فوق شقتي سوى السطح المزدحم بالأجهزة غير دائمة الاستعمال والمولدات الكهربائية وخزانات الماء الكبيرة الحجم للمبنى. لذا لا بد من أن أتأكد من الأمر». ارتشف كل ما في الكأس من نبيذ. ارتسمت على وجهه رعشة مرارة خفيفة. وضع القدح على الطاولة وغادر الشقة.

حين صار خارج الغرفة وجد أن الممر يتحرك ويتمدد في ثوان بسرعة بحيث لم يعد يرى له نهاية. التفت إلى الجهة الأخرى فرأى الأمر نفسه. استغرب أن هذا التمدد يجري أمام عينيه وكأنه داخل لعبة كمبيوترية أو فيلم رعب وأشباح.

فجأة، وجد في الممرّ إشارة مكتوب عليها «مخرج» وباحة جانبية تقود إلى سُلّم يصعد إلى الأعلى فدخل.. وحين صار في الفسحة التي تقود إلى الخارج انتبه إلى أن السلّم لا يهبط إلى الأسفل، إلى الطابق الأرضي، وأنما يتجه صاعدًا. وحين رفع رأسه وجد أن السلّم يصعد إلى ما لا نهاية، بحيث لا يمكن لعينيه أن تراه. فاستغرب، إذ هو يعرف بأن المبنى يعلو إلى طوابق تسعة فقط، فكيف هذا السلّم يقود إلى اللانهاية.. هل المخرج يكون في السماء!!.

رجع إلى الممرّ. سمع صوت باب المصعد يُفتح، بل وبقيَ مفتوحا. لا إراديا توجه إلى المصعد. وما أن صار داخل المصعد حتى أغلق الباب. لم يكد

يمد أصبعه ليضغط على زر الطابق الأرضي حتى فُتح باب المصعد ثانية. لكنه انتبه إلى أنه الآن ليس في طابقه. وحين خرج من المصعد صُدم، إذ وجد قدميه تطمسان في الرمل، بينما تمتد أمامه صحراء برتقالية اللون تميل إلى الإحمرار، حتى أحس أنه على سطح كوكب المريخ. وسأل نفسه مستغربًا: «أين أنا..؟ كيف وصلت إلى هنا في ثوان بينما المصعد لم يتحرك نازلا؟ ثم كيف لفندق يُبنى على الرمال في هذه الصحراء المريخية.. أين أنا؟ بل من أنا؟».

راح ينظر إلى ما يحيطه. أمامه يعلو جبل على هيئى جرس صخري هائل الحجم يمتد في الأفق.. وانتبه إلى أن هناك بقعة كبيرة سوداء وسط الجبل، وحينما حدّق جيدًا عرفَ أنها مغارة كبيرة وعميقة في الجبل. كانت الريح عاصفة جدًا وعويلها مخيف. رجع خطوة للوراء فصار داخل المصعد. ضغط صاعدًا إلى الطابق التاسع. هذه المرة انتبه إلى حركة المصعد إلى الأعلى..!.

توقف المصعد. فُتح الباب فهبّت على وجهه نسائم ندية معطرة ومنعشة. حين نظر إلى الأمام وجد أنه في دوحة عطرة تمتد على أفق مفتوح، ولا وجود للممر في الطابق التاسع الذي فيه غرفته، وأنما كانت مساحة كبيرة تشكل سطح المبنى المفتوح على الأفق من الجانبين والأمام، حيث الأشجار النابتة في وسط اسطوانات اسمنتية مغطاة بالأعشاب الصغيرة تكاد تملأ السطح، وفي وسط المساحة الواسعة هناك ما يشبه القبة الزجاجية أو البيت الشتوي الزجاجي، وتبدو من خلال الزجاج بأنها مؤثثة بأفضل الأثاث.

خرج من المصعد. نظر إلى الأفق وإلى جانبي السطح فرأى الصحراء المريخية الحمراء تمتد إلى ما لا نهاية. أحس بغرابة ما يرى وسأل نفسه: «هذا أمر خارج حدود العقل». صوت البلابل والطيور الأخرى دفعه إلى أن يدخل في المشهد الذي يراه أمامه، مستغربا وجود الطيور بهذه التنوع هنا على سطح المبنى.

غادر المصعد ماشيا إلى ذلك البيت الزجاجي الغريب. وجد بابًا جانبيًا، فدخل.

ما أن صار آدم المجهول في المكان حتى أحسّ وخلال ثوان بأن كل ما رآه من الخارج كان وهما ورؤية غامضة، فها هو يرى نفسه في قاعة مستشفى غريبة. قاعة طويلة تصطف فيها الأسرّة على امتداد البصر. أسرّة فارغة من المرضى. ولا أثر لأحد، لا لممرضة أو طبيب أو منظف أو موظف إداري. لا أثر لحياة سوى الصمت البارد والسكون الصارخ.

وعلى غير توقع منه لمح حركة في عمق القاعة. انتبه لإشارة ما، لذراع نحيلة تتحرك في الفضاء وكأنها تشير إليه. أدرك أن ثمة إنسان ما هنا. توجه نحو السرير الذي ارتفعت الذراع منه. وكلّما اقترب من السرير كلما انتبه لحفرتين سوداوين في رأس أصلع. ظن أنه مخلوق فضائي غريب، وحين توقف عند حافة السرير شعر بارتعاشة باردة تسري في جسده.

أمامه فتاة صلعاء شاحبة كالموتى، في منتصف العشرينات. يختفي جسدها النحيل تحت الغطاء الأبيض. حتى ما بدا من ثوبها كان أبيض. سعت الفتاة إلى الابتسام، وتألقت عيناها وتوهجتا فرحا لوجود إنسان. حاولت أن تجلس بشكل طبيعي. اتكأت بظهرها على الوسادة بحيث صار نصف جسدها تحت الغطاء الأبيض ونصفه الآخر تحت ثوبها الأبيض أيضا.

ابتسمت له وحيته بإيماءة من رأسها. كان هو مرتبكا، فسألها بلطف:

- مرحبا.. كيف حالك..؟

ابتسمت ابتسامة شاحبة حزينة وقالت:

- كيف يشعر المصاب بالسرطان..! بل كيف يشعر من هو ملقىً كجثة في قاعة مخيفة بجناح السرطان..!

- هل نحن في جناح السرطان..؟ سأل بدهشة كبيرة وخوف غامض.

- نعم.. ألم تكن تعرف ذلك..؟ أجئت لتزور مريضا هنا؟ لا مرضى هنا سواي.

- لا.. لا.. جئت مصادفة.. لا لزيارة أحد وأنما وجدت نفسي هنا..! لكن: أين نحن؟ من المؤكد أنك تعرفين هذا المكان؟

انتبهت لرعشة الخوف في سؤاله التي طغت على فضوله بالمعرفة، فقالت له:

- نحن في اللامكان..! هل سمعت باللامكان.. نحن في قاعة لجناح السرطان في اللامكان..

- اللامكان؟ كيف هو اللامكان بينما نحن هنا في المكان؟ قال مستفسرا بدهشة.

- نعم هو مكان اللامكان..

- هل تقصدين إننا في عالم آخر.. عالم الوهم.. عالم افتراضي.. مكان في رواية؟

- لا. لا. أنا وأنت حقيقيّان..

- إذن كيف نحن في اللامكان؟

ابتسمت له بشحوب محاولة أن تكون ابتسامتها رقيقة لكنها لم تفلح في ذلك.. وقالت:

- ألم تكتب أنت من خلال شخصية بطلك آدم الأكويني بأن العدم موجود وأن الوجود هو تجسيد للعدم..!؟

صُدم آدم المجهول حين سمعها. هو نفسه لم ينتبه لذلك، فسألها بفضول ورقة:

- من أنت؟

- أنا حواء.. الصلعاء.

- تشرّفت بك.. لكن كيف عرفت عن آدم الأكويني ورواية «متاهة العدم العظيم»..؟

تمكنت هذه المرة أن تبتسم ابتسامة رقيقة. ابتسامة غير ابتسامة المرضى بالسرطان.. وقالت:

- من يدخل جناح السرطان في اللامكان يعرف..!

شعر آدم الأكويني بأنه في مكان غرائبي. ربما شطح ورؤيا أدبية تأتيه كأحلام يقظة، وأراد أن يتأكد أكثر فسألها:

- مرة أخرى.. من أنت؟ قصدي كيف جئت هنا؟ ولماذا أنت وحدك في هذه القاعة الفارغة..!

سحبت وسادة بيضاء ووضعتها على وسطها وكأنها تريد الإتكاء عليها. تدفقت حيوية في نظراتها وقالت:

- وراء الجسد الهش المريض الذي تراه كانت ثمة حياة حقيقة نابضة..!. هذا الجسد الذابل عاش كابوسا مخيفا في ذلك الفاصل الذي بين عدمين، والذي اسمه الحياة.. أما كيف جئت إلى هنا فلا

أدري، ويبدو لي أنني كنت قبل أن أولد.. ويبدو لي أنني دائمًا كنت وحيدة، مع أن القاعة تضم مئات الأسرة المفروشة، لكن لا أحد هنا، سوى في الليل، ففي الليل اسمع أنين المرضى. وحين أرفع الغطاء عن وجهي لأرى، فأنني لا أجد سوى هذه الأسرّة الفارغة على امتداد البصر. أنا هنا كما أنت هنا. لكني أتذكر الفتاة الشابة التي كنتها. أشعر بها وكأنني في حلم اسمه الحياة، لا لم تكن حلما بل كابوسًا..! هل تريد أن تعرف تلك الفتاة التي كنتها في كابوس الحياة..!.

- لا أدري.. ربما أرغب في ذلك حقا..! فربما سأفهم ما يدور هنا.

أشارت بيدها إلى السرير المجاور وقالت له:

- إجلس هنا. سأروي لك قصة تلك الفتاة البائسة التي اسمها حواء..!

جلس آدم المجهول على السرير المقابل. استدارتْ بجسدها قليلا نحوه، وبدأت حديثها وكأنها تسترجع شريطا سينمائيا:

- قبل كل شيء سامح ذاكرتي وعقلي على طريقة سردهما للأشياء.. فأحيانا أتوه عن نفسي.. سأروى عن تلك الفتاة التي كنتها.. سأتحدث عنها وكأنها أنا..

- لاضير فنحن نشعر بأن كل منا أناه ونفسه، وفي الوقت ذاته، هو أنا ونفس أخريان يفكّر فيهما وكأنهما خارجه..! علّق على كلامها ولا يعرف لماذا في تلك اللحظة فكّر بآدم الأكويني.

- إذن أنت تفهمني وهذا جيد. اسمع إذن، أنا الابنة البكر لأم وأب نزحوا من منطقة جبلية ليسكنوا مدينة كبيرة قريبة. لدي أختان من هذه العائلة المريضة. أبي كان إنسانا مريضا نفسيا، وهنا أنا لا أسيء إليه أو أبالغ حين أصفه كذلك. أمي امرأة عصبية ولكنها ضحية مثلي، فزواجهما كان تقليديا. أنجبا ثلاث بنات. لا أذكر أنني عشت يوما دون سماع شجارهما. ضرب وشتم وصراخ. ذات يوم أذكره جيدًا، رجعنا أنا وأختاي من المدرسة، فرأينا سكينة كبيرة من تلك التي تستعمل للذبح فوق منضدة غرفة الجلوس، وانتبهت أنا إلى أن زجاج الطاولة مكسور، وأبي وأمي يجلسان بشكل متقابل حول الطاولة. وحين رأت أمي الخوف في أحداقنا قالت بأن أبي كان يريد تقطيع الفاكهة بالسكين، ويالها من كذبة فاقعة. المهم، عرفتُ أننا جئنا في الوقت المناسب وإلا لشهدنا جريمة ولرأينا الدماء في كل أرجاء البيت، لأن أبي كان لا يتورع عن ضرب أمي حتى تسيل دماءها، فهو يتحول إلى

وحش لحظة الغضب، لكنه بعد ذلك بنصف ساعة يركع أمامها باكيًا ومتأسفًا، قائلا لها بأنه يحبها..!؟ أمي كانت تكتم احتجاجها ورفضها لاعتذاره لأنها كانت تفكر فينا نحن بناتها الثلاث، إلى أن طفح الكيل بها بعد عشر سنوات من الزواج. كنتُ حينها في العاشرة وأختايّ في الثامنة والسادسة، وكالعادة تشاجرا، وقام أبي بضربها ضربا مخيفا..؟ أخذ رأسها بكفيه ليضرب به الأرض من جهة الوجه، إلى أن غرقت بدمها وغابت عن الوعي، وحين رأى هو ذلك هرب إلى بيت أمه فقد ظن أنها ماتت. صرخنا وبكينا نحن البنات فجاء الجيران. النتيجة كانت كسر في الجمجة وجروح وكسور في الأنف والأسنان ورضوض في اليد، وكالعادة حينما عرف أنها لم تمت جاء باكيا ومتذللا وندمان، وأرسل الناس إلى بيت أخيها وأمها، لكن بعد ستة أشهر تعافت، فطلبت الطلاق، ولم ترجع إلى البيت. كانت تعرف أنه سيقتلها على قرارها طلب الطلاق، إذ ذاك يعني إهانة له، وحينها هجم على البيت حيث أمي ومعه سكين كبيرة أخذها من بيت عمي الذين هم جيراننا..

توقفت عن الحديث. نظرت إليه، وقالت:

- يبدو أنها قصة مملة لك، فقد شبعت أنت من القصص التافة والمتكررة للبشر لاسيما الحواءات.. هي قصة عادية وتافهة وليس درامية.. أليس كذلك؟

أحس بالارتباك من تعليقها الصريح على حكايتها، فقال لها بدفء وبنبرة جادة:

- كلنا عاديون.. لكننا في التفاصيل العادية نجد الأبدية.. ونكتشف سمات الوضع البشري وتكراره وعبثيته.. وفي الوقت نفسه نجد فرادته وتميزه.. فوراء الحياة العادية لكل منّا تكمن دراما وجودية.

نظرت إليه بمودة. ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت:

- بالمناسبة أبي لم يكن جاهلًا أو أميّا، بل هو مهندس وخريج جامعة وموظف له مكانته في دوائر الدولة.. المهم.. الجيران حينما رأوه وبيده سكينا اتصلوا بالشرطة وقبضوا عليه، وتم حبسه 22 يومًا، لكن أمي أسقطت الدعوى ضده خجلا وكرما منها لأنه أبونا ولكي تحتفظ بصورتها جميلة في مخيلتنا، كي لا نتصور عنها بأنها ألقت بزوجها وراء القضبان. لكن القانون انصفها وتم الطلاق، وطبعا بعد إجراءات الطلاق صار له حق حضانتنا لأربعة أيام وثلاثة أيام لها.. واستمر الحال

هكذا لمدة سنتين لكنه ومن خلال علاقاته ودعمه من قبل المسؤولين تجاوز على القانون لمدة تسع سنوات تالية. علما أن أبي بعد الطلاق بثلاثة أسابيع فقط تزوج امرأة أخرى، مهندسة تعمل معه في الدائر نفسها. كانت امرأة عانس تجاوزت السابعة والثلاثين ولم يمسها إصبع رجل. امرأة مليئة بالعقد الجنسية والخرافات والشعوذة والسحر الأسود والتزمت الديني المخيف.. المهم.. قبل ذلك بأسبوع كما أذكر وكنا جالسين نأكل قال لنا بأنه بعد أيام ستأتي أمكم الجديدة. غصت اللّقمة في حلقي، فقلت له: «نحن لدينا أمّ فلماذا ننادي غريبة بلفظ ماما»، وما أن أنهيت جملتي حتى ضربني على فمي الذي امتلأ بالدماء. لم أعرف ماذا أفعل. بكيت وأردت القيام فأجلسني غصبًا، وقال لي: «اتممي طعامك مختلطا بالدم»، ولم يسمح لي حتى بالبكاء. المهم جاءت معذبتي ومعذبة أختيّ. كانت تكرهني لأني من الناحية الشكلية أشبه أمي، والغريب كان أبي كالأرنب أمامها وصار لعبة بيدها. ومع أن أبي كان متزمتا دينيا أصلا، لكنه مع هذه المرأة صار كائنا متوحشًا دينيا..!..

- نعم.. المتعصبون كلهم بلا استثناء في العقيدة أو الدين أو المذهب أو الفكر، يتحولون إلى وحوش كاسرة على من يختلف معهم!.. علّق آدم المجهول.

- كانت حياتنا كابوسًا مخيفًا خانقًا، أشدّ رعبًا من وجودي وحيدة في هذه القاعة المخيفة في اللامكان دون أن أرى أحدا أو أتحدث مع أحد..!

- يمكنني تخيل ذلك الاستبداد العائلي الديني..!؟ سأل هو بتعاطف.

- لا. لا يمكنك تخيّل ذلك مهما حاولت. كان شيئًا فوق تخيل العقل. كانا يشتماني ويتهماني بالكذب وبأني ثعبان مسموم. أما أمي فلم يتركوا لفظا بذيئا ووسخا ومبتذلا إلّا ونعتوها به! وكان أبي يؤكد لنا بأن أمّنا سيئة السمعة. ولا أعرف لماذا خضعنا نحن بناتها بمرور الوقت لغسيل الدماغ ذاك.! أنا اعترف إننا وقفنا ضد أمّنا!. كنا نصدّق كل ما يقوله أبي وزوجته ضدها. كان يمنعنا من الحديث معها، حتى وصل الأمر إلى أنها حين تتصل بنا متلهفة لسماع صوتنا كنا نضع سماعة الهاتف البيتي ونغلق الخط في وجهها، بل أحيانا كنا نشتمها ونقول لها: «أنتِ لست أمّا لنا، أنتِ بعتِنا من أجل المال». وكانت تبكي وتقول كل هذا افتراء وكذب، لكننا حينها لم نفهم. كنّا نشتاق لها وفي الوقت نفسه لا نريدها لأنها سيئة السمعة وتركتنا من أجل المال، كما أفهمنا أبي وزوجته

وأهله. والحقيقة كنا في دوامة وفي ورطة، في مسخرة، فأبي يقول لنا: «أنا لا أمنعكم من الحديث مع أمكم، إذا أردتم أن تتصلوا بها اتصلوا»، وعندما نحاول ذلك، لاسيما من قبل أختي الصغيرة، فأنه يضربنا ضربا مبرحا صارخا بنا بأننا بلا إحساس لأننا تحدثنا مع امرأة سيئة السمعة وباعتنا. أحيانا حين يكون مزاجه رائقا فيقول لنا: «اتصلوا بها، لكن اتركوا السماعة مفتوحة عاليًا»، لكنه يقف قربنا. وحينما ننتهي يحاكمنا بتهمة أنه رأى بريق الفرح في عيوننا حينما تحدثنا معها..!

ومع أن المكان غريب وغامض إلا أن آدم المجهول وجد نفسه يندمج مع حكايتها. انتبهت هي لتعاطفه معها ورغبته الواضحة في الإصغاء لسماعها فواصلت:

- تصور أن أبي كان يسألي بحقد: «لماذا يخفق قلبك بشدة حينما تتصل أمك..!؟»، ولم أكن أعرف نوع ضربات قلبي، ولا أعرف كيف انتبه لذلك، بل ولا أدري إن كان ما يحدث هل هو بسبب الخوف أم الشوق أم هي لعنة عائلتنا..؟ أمّنا المسكينة كانت تأتي سرًا وخفية إلى مدرستنا لترانا..! لكنه هددنا بأنه سيشنقنا على طريق الأوتوستراد القريب من بيتنا إذا ما تحدثنا معها. لذلك حينما كنا نرى أمّنا نهرب منها راكضات. ومرّت السنوات. أتعرف، لم انتبه لنفسي ولا لأنوثتي ولا لتغيرات جسدي..! كنت جبانة جدًا، كنت مرعوبة من أبي الوحش، بل حتى إن أختي الصغيرة كانت تتبول على نفسها من الرعب..، لكن في الثواني القليلة التي كان أبي يدعنا فيها مع أمنا كانت توصيني بأن أدرس لأن في النجاح الدراسي خلاصنا. أذكر مرة أنني قلت لها بغيابه وسرًا: «إنني أحبك ياماما.. وسامحينا فالأمر ليس بيدنا»، كانت تلك اللحظات أسعد اللحظات في ذاكرتي.

- ياللأم المسكينة..! علّق آدم المجهول.

نظرت إليه نظرة فيها مودة وطيبة لتعاطفه مع أمها، وواصلت:

- كنّا نحن الأخوات الثلاث نبكي ليليًا وبلا انقطاع. نفضفض لبعضنا وننام. كنت أحمل وصية أمي بافتخار حين قالت لي يوم طلاقها بأنني صرت أمّا لأختيّ، وكنت فعلا أمّا لهما. المصيبة كانت ليس في أبي وحده وأنما في زوجته المهووسة، فقد كانت تكرهني كما قلت. أبي كان يبرر ذلك بأنها تغار مني لأني جيملة كأمي، وأيضا لأني متفوقة في مدرستي فقد كنت الأولى دائما. ومع أنها كانت تبذل المستحيل

كي لا أجد الوقت للدراسة، إلاّ أني كنت أنزل من تختي ليلَا، وعلى ضوء الفانوس الخافت كنت أدرس سرًّا. كانت لديّ إرادة لا واعية للتحدي، تحديًا لزوجة أبي وتكريمًا لا شعوريا لأمي. هل تصدّق أنني لا أذكر أنني صحوت ولدي شعور بأني قد شبعت نومًا. هنا في اللامكان لديّ من الوقت ما يوازي الأبدية. هنا صرت أخاف النوم لأني أرى أشباح المرضى حولي أما يئنّون في أسرّتهم أو يتجولون تائهين مثل كائنات خرافية في هذه القاعة المخيفة في سعتها..!.

- هل ترينهم في النهار أيضا أم في الليل..؟ سأل بتوجس.

- أراهم في الليل، لذا أخاف الليل، لاسيما في هذه القاعة الفارغة. أخاف النوم لأني أرى كوابيس مرعبة، وأصحو على أصوات أنين وصراخ المرضى، المرضى الذين لا يظهرون إلّا في الليل، بينما في النهار لا أحد في القاعة غيري.

أحس آدم المجهول برعشة باردة تسري في كيانه. ورأى الرعب في نظراتها حينما تذكرت الأشباح والمرضى اللامرئيين، فأراد أن يعيدها لنفسها وذكرياتها، فسألها:

- وماذا جرى لك ولأخواتك.؟

أدركت انه يريد أن ينسيها الأشباح، ابتسمت لنفسها وواصلت:

- شكرا لك.. المشكلة هي أن لعنة البنات كانت تطارد أبي. فقد ولدت له زوجته الثانية أربع بنات. وكانت مسؤولية خدمتهن تقع علينا دونما حق في الاعتراض أو التذمر. وكما قلت إن زوجة أبي كانت مهندسة وتعمل معه، لذا كل مسؤولية تنظيف البيت والأطفال وخدمتهم من إعداد الحليب وتغيير الحفاظات وتنظيف البيت تقع بالدرجة الأولى عليّ.. فقط الطبخ لم تكن تسمح لي بإعداده خوفا من أقوم بوضع السم لها ولبناتها.. أعتقد لو كنت تعرف زوجة أبي لكتبتَ عنها متاهة خاصة بها، «متاهة المهندسة المشعوذة»، ولكنت أوجدت شخصية روائية خالدة لا يوجد في الأدب العالمي شبيهة لها. كانت مرعبة في تزمّتها الديني. وأعتقد أنها لم تكن تحلم بعد أن تجاوزت منتصف الثلاثين أن تتزوج.. كان الهوس الديني قد أكل دماغها. فذات يوم دخل أبي علينا في غرفتنا وقال بأن تربيتنا فيها خلل، واليوم هو اليوم الموعود، وقال بأن أمكم، ويقصد زوجته الثانية ستتبنى أمر تأهيلنا وتربيتنا الدينية، وحينها دخلت زوجته المصون لتلقي علينا محاضرة

عن الجنس والحمل والاغتصاب.. وبدأت تقول لنا بأننا نزور أمنا في بيت خالنا أحيانا، وفي بيت خلنا يأتي أولاده، فيجب ألّا نمد أيدينا لمصافحتهم، لأنهم إذا لمسونا بإيدهم فسنحبل منهم!. ثم أخذت تحدثنا بعدم الاحتكاك بالصبيان في المدرسة وإلّا سنحبل منهم أيضًا، وهكذا أمتلأنا بالعقد من الجنس والذكور سواء كانوا صبيانا أو شبانا، بل إن أبي المهندس المثقف والمتدين وزوجته المهندسة المههوسة بالجن كانا يدفعوننا إلى الكذب، ومن جانب آخر حولونا إلى جواسيس على أمّنا وأهلها، فكان أبي يحقق معنا حين نزورها أحيانا، ويسألنا من كان هناك ومن زارها وماذا قالوا، وطبعا علينا ذكر ذلك كلمة كلمة. وذات مرة طلب أن نقول لأمنا بأنه إذا زرناها فيجب ألّا يكون أي ذكر حتى من أولاد خالي حاضرًا. يعني كان يريد من بعيد التحكم ببيت خالي، وكنت أخبر أمي بطلبات أبي، لكن حدث مصادفة أن كنّا هناك ودخل ابن خالي. كانت أمي وجدتي وخالاتي حاضرات، لذا قالت أمي لا تخبروا أباكم بهذا الأمر لأنه سيمنعكم من زيارتي، لكن الذي حدث أن أبي لما جاء ليأخذنا كنا خائفين، وقد انتبه هو لخوفنا، وشك في الأمر، فأخذ أختي الصغيرة معه للأمام وقال لي ولأختى الوسطى انتظرا هنا، وسأل أختي الصغيرة عمّن كان في البيت فخافت وقالت له بأن ابن خالتي جاء حينما كنا عند أمي، لكنها طلبت مّنا ألّا نخبرك كي لا تمنعنا من زيارتها، لكن أمّنا أخرجت ابن أخيها من البيت، وتوسلت أختي لأبي بأن يسمح لنا بزيارة أمّنا، بعد ذلك ناداني وسألني، فنفيت وجود ابن خالتي، ولكنه كان قد عرف الحقيقة من أختي الصغيرة، فأخذني من شعري، وألقاني على الأرض وأخذ يدعسني برجله ويصرخ: «أنت كذابة مثل أمك!»، ويضربني بشدة، ومنعنا لشهر من زيارتها. ليس هذا فحسب، فحينما كنا نرجع من زيارة أمّنا كانت زوجة أبي تنظر لنا وكأننا اقترفنا جريمة بشعة، أو قمنا بعمل مشين..، وكنّا نحاول تملقها كي لا تضغط على أبينا فيحرمنا من زيارة أمّنا، وحين كنا نرجع مرتاحين من عند أمّنا تقول لأبينا بأن أمّنا عملت لنا سحرًا، بل وتتهمنا بأننا نأتي بالسحر الذي تعمله أمي ضدها. وطبعا أبي يصدق كل ذلك، الغريب أنه كان كالقنفذ المذعور أمامها، بينما كان يبطش بأمي يوميا حينما كانت زوجته. لكن مصيتنا نحن البنات الثلاث صارت أكبر بعد أن تزوجت أمي بعد سنتين ونصف من الطلاق. وكرد فعل قرر هو بالمقابل أن يمنع ذهابنا إليها بشكل نهائي، لأنه كما قال يخاف من أن يغتصبنا زوجها ونصير حوامل. كانت عقدة الحمل تأكل تلافيف دماغه ودماغ زوجته. ومع كل هذه الكوارث والمعاناة كنتُ فتاةً مرحة، كانوا يسموني بالمهرّجة في الصف، لأني كنت أقلّد المدرسين والمدرسات، وأضحك كثيرًا، كما كنت متقدمة

في جميع الدروس والمواد الدراسية، سواء كانت مواد علمية أو أدبية، كما تمكّنت من بعض اللغات. كنت الأولى على مدرستي، ثم على محافظتي، إلى أن تم ترشيحي للمنافسات في العاصمة لكن زوجة أبي زرعت في رأسه بأنني سأرجع حبلى حاملًا بجنين!، فعارض أبي مشاركتي في المسابقة. وكلما تقدمت دراسيًا ازداد حقدها عليّ اكثر. وكان جدي لأبي يحبني ويحب ذكائي الدراسي، وقد اقترح على أبي أن أعيش عندهم، لكن زوجة أبي اعترضت وقالت: «أنا احتاجها لتساعدني»، فقال لها أبي بأن الأثنتين الأخرتين باقيتان، لكن تشاجرت وأصرت أما أن أبقى أنا أو تطلب الطلاق!. وكان أبي ضعيفا أمامها لذا بقيت خادمة لها. ومع ذلك نجحت وتقدمت على الجميع الطلبة في محافظتي، ومرة أخرى رشحتني المدرسة لتمثيل المحافظة في مسابقة أولمبياد مدرسي في المواد العلمية كالرياضيات والفيزياء والكيمياء، وكان الفائز يُرسل في بعثة لبلاد أجنبية. وهذه المرة لم تستطع زوجة أبي أن ترى نجاحي الباهر، لكنها لم تستطع أن توقف مشاركتي في المسابقة أيضًا، لأنه بأمر المحافظ، ومع ذلك هدّدت أبي بالطلاق إذا ما وافق على مشاركتي، ويبدو أنها أدركت عجزها على منعي، لذا جائتني ليلة الاختبار إلى غرفتي وهدّدتني بأني إن نجحت فعليّ ألّا أعود إلى هذا البيت، وقالت لي عليك أن تختاري الجواب الخطأ حتى لو كنت تعرفين الجواب الصحيح!. وهذا ما حصل. كنت أجلس أمام المفتشين وأبكي، فاستغربوا عدم قدرتي على الاجابة.!.

- هذه شخصية درامية سوداء حقا! علّق آدم المجهول.

- هذا لا شيء قياسًا لما عانيته في ما بعد! زوجة أبي دمرت حياتنا نحن الأخوات الثلاث، لاسيما أنا الأخت الأكبر، بيد أني إنسانة مريضة، معقّدة، متناقضة، جبانة، مستسلمة، إذ تحولت إلى عاشقة لعبوديتي. فقد كنت لا أعرف نفسي. فحين عدّت من المسابقة خاسرة ركضت إليها لأحضنها. ربّما تعوّدت على عبوديتي واستطبتها!!؟ ومع إدراكي لكرهي لها، وكرهها لي، لكني لم استطع أن أربي في نفسي مشاعر الانتقام، وأنما التحدي، وكان يتجسد بتفوقي الدراسي. ومع أن بيتنا لم يكن بيتا عائليا وأنما كان أشبه بمسجد، فأبي قد وضع لوحة على الباب الخارجي مكتوب عليها (**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**).. وفي الصالة لوحة كتب عليها (**العصا لمن عصى**). وكان علينا ترديد الأدعية المختلفة، فهناك دعاء لدخول الحمام وآخر عند الخروج

منه، ودعاء عند لبس الثياب، وآخر عند الاستيقاظ، ولا أبالغ أننا حتى لو أردنا التغوط فعلينا قراءة دعاء لأنها كانت تقول إن الشيطان سينظر إلى سوءتنا ويدخل فينا إذا لم نقرأ الدعاء. كانت زوجة أبي مهووسة بهذه الأدعية، وتقول من لا يردد هذه الأدعية يوميا فسيدخل جهنم، ولأني كنت متدينة ومتزمتة في تديني كما صيّرني أبي وزوجته، لذا لم أكن أعرف شيئًا عن العالم، حياتي انحصرت بين المدرسة والبيت وخدمة زوجة أبي، ولا خطوة أخرى خارج هذا الأمور. لكني لم أطق ذلك، ففي سنتي الأخيرة في الإعدادية أخذت استمع لأحاديث الزميلات والشباب عن الحرية. ووجدت نفسي روحيا معهم. لم أشاركهم نشاطهم، ولم أفتح فمي، لكني حين سمعت النداء للحرية استيقظت كل أوجاعي وهمومي وسخطي، ومع ذلك كنت أخاف أن أفتح فمي داخل البيت!. كنت أتمرد في صمت وبطريقتي. في تلك الفترة دخلت في علاقة مع شاب من مدينة أخرى عن طريق النت. كانت وسيلتنا الرسائل الألكترونية. كنت حينها في السادسة عشر. وكانت رسائلنا بريئة، بريئة جدًا، فقد كانت تخلو من بوح بالحب، وأنما كان يسأل: كيفك، فأجيبه: الحمد لله. لكن إحدى الطالبات أبلغت المديرة بأن لدي هاتف استخدمه في المدرسة، فأخذت المديرة هاتفي واتصلت بأبي. حين سمعت زوجة أبي بالخبر أخذت تصيح بأنها متأكدة من أنني حامل وأنني حبلت من خلال الرسائل مع هذا الشاب. أبي المثقف المعتوه صب جنونه وعصابة النفسي عليّ. أقسم أنني حتى سن السادسة عشر من العمر لم أكن أعرف شيئًا عن الجنس. ومن أين لي أن أعرف إذا كانت البيت كله بنات ولدينا أب وزوجته متهستران دينيًا. أقسمُ، أنا نفسي كنت من السذاجة وغسيل الدماغ بأن أصدق إذا قبّل الشاب فتاة فستحمل. ثقافتي الجنسية كانت صفر. حتى التغيرات التي طرأت على جسدي من نمو صدري ودورتي الشهرية وشعر عانتي كلها علامات شيطانية ومصائد ومكائد نبتت في جسدي، هكذا أفهمتني زوجة أبي، فكنت أخاف لمس صدري واعتبره فعلا معيبًا. لم انظر أبدًا لما بين فخذي. المهم. كان قرار أبي وزوجته التهديد بالقتل إذا تكرر الموقف. أبي فهم تواصلي مع الشاب أنني أريد الجنس، والجنس عنده يعني الزواج!. الشيء الجيد أنهم لم يسلبوني الهاتف. ذات مرة، وكان عيد ميلادي، جاء الشاب إلى مدينتي من مدينته، وطلب مني أن نلتقي في الحديقة. كان حينها عليّ

الذهاب إلى حضور فصل خصوصي للتقوية تقوم به الإدارة، لكني لم أذهب للدرس وأنما للقائه. وطبعا تأخرت عن موعد رجوعي إلى البيت، وهناك كان الغضب الساطع آت. كان يومًا ملعونًا، تحول ذلك اليوم إلى يوم نحس في حياتي، فقد سلخ أبي جلدي بحزامه. لم يعرف أحد في البيت بأنني التقيت الشاب، وأنما كل هذا لأني تأخرت على موعد الرجوع بربع ساعة، فكانت تلك الدقائق كافية ليوصمني أبي بأني صرت قحبة..!.

- وكيف جاء الخلاص؟ ثم كيف صرت هنا في اللامكان؟ سأل آدم المجهول بحزن مكتوم.

- في تلك الفترة المأساوية بالتحديد اتصل ابن عم أبي وهو يعيش في بلد مجاور، وقال له بأنه يريدني زوجة لابنه الذي يكبرني بعشر سنوات. وطبعا أبي لم يصدق الخبر من فرحته به واعتبر الخبر فرصة ذهبية للتخلص من هذه السافلة كما قال لزوجته!. لكن لا أعرف من أين جاءتني القوة لأرفض. قلت له بأني أريد أن أكمل دراستي، فأخذ يضربني ويصرخ بي بأن أوضاعه زفت ولازم اتزوج ها الشاب حتى يمكنهم مغادرة هذه المدينة اللعينة، وربّما سيلتحقون بالبلد المجاور أيضًا، وعجّلوا بالأمر، إذ اتصلت عمة خطيبي من المدينة نفسها التي يعيش فيها الشاب الذي كنت اتواصل معه وطلبت بأن أذهب إلى تلك المدينة لنختار المصوغات والثياب، فاتصلتُ به وأخبرته بأننا قادمون لمدينته للتبضع لأن أهلي يصرون على تزويجي. كان لي حينها سبعة عشرة عاما وهو في التاسعة عشرة عاما. التقيته في زاوية بعيدة عن المارة فقال لي بأنه سيخبر أهله بالأمر، فقلت له إذا لم تفعل شيئا سيزوجوني. المهم، وحتى لا أظلمه، فقد فعل ما وعد، إلّا أن أهله رفضوا، فالأخ الأكبر لم يتزوج بعد، فهدّد أهله بالانتحار إذا لم يتزوجوني. وبعد أيام قليلة جاء أهله لطلب يدي فلم يستقبلهم أهلي بما يليق، وأنما أغلقوا الموضوع مباشرة بطريقة فجّة. كنت أعرف أنهم لن يوافقوا. لكننا أحيانا نقوم بأفعال وخطوات جريئة بل ومتهورة مع علمنا مسبقا بلا جدواها وأنها ستصل إلى حاجز وطريق مسدود، لكننا مع ذلك نعيش لذة تمردنا وجرأتنا وتحدّينا.. يحدث ذلك، وأحيانا نكون مثل الحيوانات المطاردة التي تُحصر في زاوية لا نفاذ منها، وحين تحس بأنها هالكة لا محاولة تقفز على مطارديها قفزة تشبه القفز نحو الهاوية. هكذا كنت أنا..

- وماذا جرى..!؟ سأل آدم المجهول.

- لا شيء.. كانت الأمور مقرّرة سلفا ولا رأي لي فيها. فقد مضوا بإجراءات الخطوبة والزواج.. وجاءوني بصورة لخطيبي. حين شاهدت صورة خطيبي لأول مرة صُدمت، فقلت لهم لا يعجبني ولم يدخل قلبي، فهجمت عماتي عليّ وهطلت عليّ حكمهن العبيطة، بأن الحب يأتي بعد الزواج، لكنهن لا يدركن، أو كن يدركن لكنهن لا يتجرأن على البوح بجرأة فيكتمن في أعماقهن، بأن الحقد والكراهية يأتيان بعد الزواج أيضًا!. صحيح أن الحب قد يأتي بعد الزواج أيضًا، لكن هذا ليس قانونًا ولا أمرًا مقدرًا ومقضيا، فغالبا يحدث العكس، ينمو الحقد والكراهية والاحتقار المكتوم بمرور الوقت والسنين، كما أن خطيبي الآن رجل عادي بالنسبة لي ولا أحقد عليه، لكن بعد الزواج ربما سأمقته وأكرهه، وألعن اليوم الذي ولد فيه أو ولدتُ فيه، بل ولربما لعنت الأهل والأعمام والعشيرة وكل هذه التقاليد البالية والعفنة التي تجبرني أن أتزوجه، فقط لأنه ابن عمي، وقريب ومن العائلة، وله الأحقية بامتلاك جسدي!، لكن هذا ما حصل وأكثر.. تفو.. ما زلت أتذكر ذلك اليوم الذي جاء فيه صديقي مع عائلته لخطبتي، فما أن غادروا حتى اجتمع رجال عائلتي، أبي وأعمامي وعماتي. أحد أعمامي وهو طبيب، خريج إحدى جامعات أوروبا، قال لي بالحرف الواحد: «سأضع لك نقطتي سم في أكلك أو شرابك وأقتلك يا سافلة»!، عمتي الكبرى ألقت محاضرة عن شرف العائلة وكيف هي حافظت على غشاء بكارتها، ولم يستطع زوجها أن يخترقها إلا بعد أسبوعين من توسلات العائلة خوفا من الفضيحة. الغريب كانوا يخافون أن أهرب مع الشاب وهذا أمر شائع في مثل حالتي إذا كنت أمتلك الجرأة في ذلك، لكني كنت جبانة، فأرة ماكرة، لكنها فأرة في النهاية. كانوا يصرخو بي بأني أريد أن أمرغ رؤوسهم بالطين والوحل برفضي هذا الزواج، وهم لا يدركون بأن رؤوسهم ممرغة بالخراء عبر التاريخ، وجماجمهم مليئة بالديدان العنفة التي تعيش من امتصاص الدماء، فأي طين ووحل أمرغ رأسهم فيه، إذ الطين يكون رحمة لمثل تلك العقول المتزمتة العفنة. وأخذوا يحاكمونني صارخين بي لماذا جاءت هذه العائلة الغريبة لخطبتك؟ وأمام جميع الأعمام والعائلة مسكني أبي من شعري وشدّه وهو يصرخ بي: «اتصلي بالسافل الآخر الذي معك وقولي له إنك تكرهينه وإنك كنت تتسلي به» فرفضت، فصرخ بي: ساقتلك..! ظل الجميع ساكنين ولا يتدخلون وكأنهم يرون مشهدا يجري على خشبة المسرح.. فأخذت أبكي فازداد غضبه لأني أبكي من الألم والخوف والذل. كانت لديه مشكلة كبيرة أن يرى أحدًا يبكي، لذا كان يغضب ويعتبر ذلك ضعفا أو حتى استفزازا. وأمام الجميع شدّ ذراعي بحزامه وبطحني على الأرض ونادى على أخواتي. أختاي وأربع أخواتِ من

زوجته الثانية، وطلب منهن «البصاق على هذه الوسخة». أختاي رفضتا، لكنه هدد بأنه سيربطهما أيضا وسيسحق على رأسيهما، بل وضع قدمه بحذائه على رأسي وقال لهن دون أن يأبه لمن تواجد آنذاك: «إذا لم تبصقوا ساسحق رأسها». أختاي تعرفان جنونه لذلك بصقتا عليّ، لكنه لم يكتف بذلك، وأنما انهال عليّ بالرفس، ولم يكن مسموحا لي بأن أبكي، إلى أن تدخل عمي الطبيب وقال بلغة فيها موافقة على ما جرى وبشيء من الإشفاق بأن يكفّ، ويهدأ، ولا يخرب صحته وأعصابة من أجل سافلة مثلي، وأن عليّ الاعتذار. وطلب أبي بشدة بأنه لن يكف إذا لم أعتذر وأبوس حذاءه من الأسفل، وما كان لي إلا أن أمسك قدمه بيدي المرتعشتين وأقبل أسفل حذاءه بذل وإنكسار.. ذلك اليوم لم ولن أنساه طول عمري، بل وأنا هنا في اللامكان أتذكره بشكل خاطف، مع أن ما جرى لي في ما بعد لا يقل عنفًا، لكن ذلك المشهد وأمام الجميع وإذلال أختيّ بالبصاق علي لن أنساه!. بعد أسبوع من ذلك أخذوني كأسيرة وعن طريق التهريب إلى البلد المجاور، حيث خطيبي. وبعد أربعة أيام من وصولي صار زفافي ومأتمي. لم أكن قد رأيت زوجي على حقيقته، فالصورة التي رأيتها له ولم تعجبني كانت لوجهه فقط، لكن حين رأيته ارتعبت. كان طويلا وسمينا بشكل مرعب، وليس فيه أي ملمح من ملامح الجمال، فسميته مع نفسي بالوحش. كان هو اللعنة الكبرى التي حلت عليّ. لم يقام لي عرس وزفاف بالمعنى الحقيقي، بل إن أمه وعمتي لم تساعداني، ولم يفهماني ماذا يمكن أن يكون بين الرجل والمرأة، وأقسم أنني لم أكن أعرف ماذا يحدث بالضبط..!! بل كان عليّ أن أقوم بتهيئة نفسي، وأنا غشيمة وجاهلة وخبرتي صفر على الشمال كما يقال في مثل هذه الأمور بين الرجل والمرأة. أدخلوني غرفتي، ثم دخل هو. كان مرعبا ووحشيا ورائحته كريهة. وبعنف جردني من ثيابي، وحين رآني قال لي بسخرية بأني جاهلة لا أستطيع حتى أن أنظف نفسي. وحقيقة أنا لم أعرف التنظيف الأنثوي والعناية بالجسد لأن ذلك يعني وفق تربيتي أن الشيطان قد أغوانا. فقد آمنت من خلال زوجة أبي وأبي بأن الاهتمام بهذه الأمور يُعد من المحرمات! وحتى أخته وأمه لم يهتما بي من هذا الجانب. كنت أنا نفسي حين أجد كثافة شعر عانتي أقوم بتنظيف جواب المكان دون أن أنظر إلى ما لدي، كنت أتجنب أن ألمسه، بل أنا لم أنظر إليه يوما نظرة كشف واكتشاف حتى ولو من باب الفضول!. كنت أظن أنني إذا ما نظفت ما بين فخذي ولمسته سأفقد عذريتي. شعرت بالإذلال والمهانة كانت حين قال لي هذا الوحش: «نظفي حالك بالشفرة». أمه أعطتني شفرة للحلاقة وقالت لي: «دبري حالك!»، ولم أكن أعرف كيف أدبر

حالي.. المهم.. حين اقترب مني تخشبت، فأخترقني بالقوة. صرخت وأغمي عليّ، حتى هو من خوفه حين أغمي عليّ نادى أمه التي جاءت لتعيدني لنفسي وأعطتني ماءً لأشرب..!.

في الأيام التالية جرت الأمور بشكل أسوء. كان مهووسًا جنسيًا. يضاجعني أكثر من عشر مرات في اليوم. وبعد أن كان يسخر مني صار يقول لي بأنه يعشق ما بين فخذي، وكان يستخدم اللفظ الفاحش والمتعارف عليه!، أية لعنة هذه. الحمد لله بعد عشرة أيام جاءني الحيض لبضعة أيام وتخلصت من أنفاسه واقترابه مني.. ربما سيراودك سؤال عن مشاعري الجنسية!. سأجيبك قبل أن تسأل، لم أفهم معنى اللذة الجنسية ولا الذروة أبدًا.. المهم.. بعد شهرين وأسابيع تبين حملي.. وربما هو قد انتبه إلى أني لا أشاركه الحرارة الجسدية، لذلك حاول أن يخرجني من برودي فأخذ يحاول مداعبتي، لكني كنت أكرهه، وأكره كفه الغليظة فكنت أبعدها عني، وهكذا كنت أعيش التعذيب الجنسي، لكني استفدت من هذا التعلق الجنسي بي إذ طلبت منه أن أكمل الثانوية ولو من خلال الدراسة الخارجية من البيت والحضور عند الامتحانات فوافق.

المهم.. بانتهاء فترة الحمل ولدتُ طفلا ذكرا. المدينة التي انتقلت للعيش فيها مدينة مسالمة وفيها حريات لم أعرفها سابقا، لاسيما وأنا قد تخلصت من زوجة أبي، لكن حياتي البيتية صارت جحيما.. وبدأت أحاول أن أقنع زوجي بالسفر إلى بلاد متحضرة أكثر من أجل ضمان الحياة الكريمة لابني.. ولا أعرف لماذا وافق.

لا أتحدث عن حياتي معه في ما بعد، فقد كانت تتوزع ما بين الاهتمامي بطفلي وما بين التعذيب الجنسي في السرير. وباختصار، استفدت من تعلقه الجنسي من أجل السفر، ووصلنا إلى تلك البلاد التي ضمنت لنا الحياة الكريمة.. وكان كل أملي كان بأنه سيتغير بحكم المستوى الحضاري للبلاد الجديدة، لكنه لم يتغير، فصارت الممارسة اغتصابا، اغتصابا حقيقيا، وفعلا اغتصبني مرات عديدة، بل مرة أغمي علي وخلال إغمائتي اغتصبي، فهربت مع ابني إلى بيت النساء اللاتي يتعرضن للعنف.. وضمنت الطلاق عبر المحاكم أيضا...

- وأخيرًا.. حصلت على الحرية..! قال آدم المجهول متعاطفا بمودة.

نظرت إليه وظلال من الحزن ارتسمت على وجهها الشاحب وقالت:

- كنت شابة مندفعة في بلد حر يوفر لي الحماية والعيش الكريم، فأردت أن أعيش حياتي بعد أن تحررت، لكن كابوس الماضي مع ذلك ظل يلاحقني ويمد ظله عليّ. عبر وسائل الاتصال الإلكترونية أحببت رجلا مثقفًا. كنت أظن أنه سيفهمني، لكنه كان مريضا بنبش الماضي، مهووس بالسمعة وغشاء البكارة، لا يستطيع تخيل بأنني امرأة مطلقة وأن رجلًا آخر كان زوجي وفض بكارتي. كان هذا الرجل الحبيب لا يستطيع تخيل أنني كنت مع رجل آخر في السرير، وأن كل ذلك كان ماضيا. أنا لم أساله عن ماضيه، بينما هو بحجة التعرف عليّ أكثر أجلسني على كرسي الاعتراف وبدأ يحاسيني ويحاكمني على ما رويته له صدقا عن نفسي وماضيي. ظننته مثقفا وواعيًا، فهو فعلًا موسوعة علمية وأدبية، مكتبة تمشي، مجلدات ألكترونية من القراءات والكتب بضغطة زر يجيبك عن أي شيء..، لكنه صدمني كأي رجل قادم من قرون التزمت والرايات السود والكتب الصفراء. لا أثق بالرجال الشرقيين، فلديهم الماضي هو الأصل، لديهم غشاء البكارة هو عنوان الفضيلة والشرف. أنا مطلقة لكن هذا الرجل المثقف الذي أحببته هو في أعماق أعماقه يفكر بأن كل مطلقة هي امرأة مشبوهة وسيئة السمعة.. فهناك حكم مسبق بأنها لو كانت محترمة وسوية لما طلقها زوجها! ولم يفكر بأن هناك بعض الأزواج مجرد الاقتراب منهم يُعد خطيئة وعبء نفسي. أنا امرأة ملولة، فبعد كل هذه التجارب صرت لا أتخيل وجود رجل أعيش معه إلى آخر العمر. ربما لأني لم التق برجل يستحق أن أفكر بقضاء عمري كله معه. كلهم فاشلون. ومشلكتي أنني أنجذب للفاشلين. وبكل صراحة، الرجل الذي أفتقده وأبحث عنه لا يلتف لي لأنه مغرور ولا يراني ولا يبحث عني، بل يبحث عن محافظات لكن رخيصات!. لقد وجدت شخصا لطيفا وأعجبت به، لكنه لم يحمل لي أية مشاعر ولم يحبني قط، بل كان يحب فكرته عن نفسه بأنه رجل مختلف، بينما هو يخاف من النساء المتحررات الواعيات لذاتهن ويمتلكن طاقة على التمرد وتوجيه إرادتهن، ومن جانب آخر يحيط بي رجال كلهم يشتهونني ويريدونني عشيقة سرية، مع أني لم أفكر بأي منهم، بيد أنهم أيضا يخافون انفتاحي وتمردي. وعلانية يبحثون عن واحدة منافقة تتظاهر بالتدين والعفة والفضيلة، لكنهم يستطيعون الوصول إليها والتمتع بجسدها، ومع ذلك فهم في العلن يعتبرونها عفيفة وإنسانة راقية. خفافيش الظلام هؤلاء يخافون المرأة التي تمشي بوجهها تحت الشمس، فهي في نظرهم وقحة وجسورة وفاقدة للحياء والخجل، بل حتى النساء المنافقات المعقّدات يخافن المرأة المعاصرة المتحررة الواثقة من نفسها، فهي

في نظرهم غاوية الرجال.. المرأة عدوة المرأة.. الحواءات والأوادم حشد من المنافقين العصابيين والمتهسترات.

نظر آدم المجهول إليها للحظات نظرات متفحصة ولم يقل شيئا، فانتبهت لذا سألته:

- بماذا تفكر..؟ لماذا لم تقل ما تفكر به..؟

ارتبك هو قليلا.. ثم قال:

- لا شيء مهم.. لكني خمنت أنك بعد طلاقك عشت بعض التجارب.. الخائبة أيضا.

ارتبكت نظراتها، لكنها قالت بهدوء مشوب بحزن:

- لا أنكر أنني حاولت أن أنهل من الحياة وأعوض ما فاتني، فاقتربت من حلقات المثقفين. هؤلاء في البداية أبدوا الإعجاب بتمردي وتحرري، وربما بل المؤكد أنهم فكروا بأنني سهلة، لكنهم ما أن رأوا صدقي مع نفسي ومشاعري حتى اعتبروني مغرورة ومكتبرة وتافهة ومعقدة، بل وعاهرة مبتذلة يستطيع أي رجل أن يطويها تحته، علما أن هؤلاء العجزة الجبناء شوّهوا سمعتي لأن أي منهم لم يستطع أن يوقظ الأنثى في داخلي بحيث يسقط دفاعاتي وأمنحه ثمارة الجسد المعذب. لقد تعبت من كل شيء، من مسؤولية نفسي وابني والقراءة على الرغم من أني أجد نفسي بين طيات صفحات الكتب!. سابقا حينما كنت أواجه مشاكلي كنت أهرب لغرفتي وأفتح كتابي. كنت أواجه الدنيا وأهرب منها لأجد ذاتي في الكتب، لكني وصلت إلى طريق مسدود، فصرت أهرب من كتبي الى الهاتف، أهرب من الواقع المتحقق إلى الواقع الافتراضي، صرت افتقد تلك اللهفة القديمة التي كانت معي، فصار لا يهمني مع من اتحدث. أعدت علاقتي مع أمي لأني تخلصت من الرقابة، ومع ذلك أنا تائهة ومشوشة وضائعة. لم أعد أرغب في التعرف على أحد، لكني على الرغم من ذلك أبحث في اللاوعي عن أحد! حتى علاقتي مع المثقف الكبير المتخلف لا أعرف الآن إن كانت حبًا، صدقا لا أعرف، أحيانًا أشعر وكأنني لم أحب أبدًا، لأنني لا أعرف ما هو الحب.!. أحس أن الرجل الذي أتمناه لم يعد موجودًا، وأقول إنني مريضة عاطفيًا، وهذه كارثة في زمن مثل زمننا، ومع أنني أسعى وأبحث عن مثل هذا الرجل لكنني صرت أيضا أعيش عزلة داخلية.

- لكن كيف أنت الآن في جناح السرطان في هذه القاعة الغامضة..؟

- إنه حظي العاثر، فقد انتبهت إلى أنني أشعر بتعرق مفرط حيث كنت أصحو من النوم وأنا مبتلة بالعرق بل حتى وسادتي تكون مبتلة.. وكنت أشعر بتعب ووهن مع أني كنت لا أعمل شيئا ولا أبذل جهدا عضليا، إلى جانب فقداني لوزني دونما أي حمية أو ريجيم مني، وصرت أشعر بوجع وآلام في عظامي، فقررت أن أراجع عيادة الطبيب. وحين راجعت عيادة الطبيب أخذ عيّنة من دمي وقال إنه سيبلغني بعد ثلاثة أيام، لكن موظفة من العيادة اتصلت بي عصر اليوم التالي وأخبرتني بضرورة مجيئي إلى العيادة. ذهبت، فأخبرني الطبيب بأنه يشك وجود نقص في كريات الدم البيض، وأنه سيحيلني إلى مستسفى الجامعة بالمدينة، وهم سيتأكدون بشكل أساس، وكانت الضربة القاضية، إذ تأكد أكثر من طيبي أستاذ بدرجة بروفيسور بأنني أعاني من اللوكيميا أو ما يسمى بسرطان الدم..! أخذت بعض جلسات العلاج الكيمياوي. لكن يبدو أن جسدي لم يقاوم، فتساقط شعري وصرت صلعاء، وبعد أشهر من الرقود في مستشفى الجامعة وجدت نفسي هنا.

- وابنك؟

- أخذته أختي الوسطى. كانت قد تزوجت، ولم أذكر لك بأني سعيت بعد وصولي إلى البلاد الجديدة أن آتي بأختيّ أيضا، لكن أختي الوسطى معقدة أكثر مني في مسألة الجنس، فعلى الرغم من مرور سنتين على زواجها لكنها لا تزال عذراء، وقد طلبت من زوجها أن يتزوج عليها وسترضى بذلك، لكنه يحبها جدا، وهي باهرة الجمال حقا، المهم. أعرف بماذا ستفكر! أكيد ستفكر كيف يعيش زوجها حياته الجنسية معها، وكيف يصبر؟ وربما يذهب خيالك إلى تفسيرات حول الطرق المختلفة للتلامس التي تجعله حياته سعيدة معها!. هي لم تحدثني عن أية تفاصيل أخرى فالحديث فيه خطيئة ونجاسة بالنسبة لها، وقد أخذا، هي وزوجها، ابني إليهما، لاسيما وهو يألفها.

- لكن ألا تذكرين شيئا عن كيفية نقلك إلى هنا..؟

- لا.. غفوت.. وصحوت.. لأجد نفسي هنا.. في اللامكان!!؟

- ومن قال لك إن هذا المكان يسمى اللامكان؟ أنا شخصيا لا أعرف أين أنا، أأنا في مكان ما أو في اللامكان، لا أعرف، لكني فقد وجدت

نفسي في شقة بالطابق التاسع في مبنى يرتفع لتسع طوابق، ويفترض أن أكون في طابقي، لكن ما أن فُتح باب المصعد حتى وجدت نفسي هنا!.. أتعرفين أن المكان بدا لي من الخارج كقبة زجاجية أو بيت شتوي زجاجي، لكن ما أن ولجت الباب الرئيسي حتى وجدت نفسي في هذه القاعة التي تبدو وكأنها قاعة في مستشفى فهي مليئة بالأسرة التي توحي بأنها مستشفى، وأنت نفسك قلت إنها جناح السرطان..!

نظرت إليه بتأمل وكأنها تدرس كلامه، ثم قالت وعلى وجهها استغراب:

- ألا تعرف أين أنت فعلًا؟

- لا.

- ألم تسمع يوما باللامكان؟ أليست المتاهات لا مكان!؟. أنا وأنت لا شيء في اللامكان..

- لا أفهم كلامك، يبدو لي محملا بالألغاز والغموض.

- أغمض عينيك وستعرف اللامكان..!

أغمض آدم المجهول عينيه. كانت هي تنظر إليه مبتسمة. وحين فتح عينيه لم يجدها، بل وجد نفسه في شقته، يجلس على كرسية حول طاولة الكمبيوتر.

7

طز آدم العليل

كان الكاتب آدم العليل في غرفته بالطابق التاسع من فندق «ريو بلازا برلين» الواقع في بداية شارع مارتن لوثر شتراسة. لقد جاء من بغداد مع ابنته ليجري فحوصات على دماغه في مستشفى معروف في برلين. ترك بغداد أول أمس متجها إلى استنبول وبعد ساعات من الانتظار في مطارها الدولي واصل رحلته وابنته إلى برلين.

ليست المرة الأولى التي يحضر بها للعلاج. فهو مصاب بورم دماغي يسبب له آلاما. الأطباء يحاولون ألّا يجروا العملية وأنما يمارسون طرقا أخرى من العلاج والأدوية، لذا فهو يخضع لفحوصات دورية كل ثلاثة أشهر، لكن من أسوأ الأعراض التي يعانيها هو حالات النسيان وفقدان الذاكرة الغامض الذي ينتابه معظم الوقت. بيد إن ذهنه، وهنا ما يستغرب له الأطباء، يتوهج ويكون في أعلى حالات حضوره الذهني عند الكتابة.!. فحين يجلس أمام اللابتوب المحمول يتحول ذهنه إلى لؤلؤة كريستالية في داخلها عالم من الشخصيات والحيوات والآفاق الغريبة. لكن ما إن يخرج من حالة الكتابة حتى يتحول إلى شبه معتوه، ويفقد صلته بالواقع المحيط أو يكون صاحيًا لكن خامل الذهن ويميل إلى الصمت والتأمل، ولا يتحدث إلا إذا سُئِل عندها تكون إجابته مقتضبة.

ما إن حلّ في الفندق واستلم مع ابنته، التي كانت تقوم بتنظيم كل ما يتعلق به، مفاتيح غرفتيهما حتى قال لابنته إنه يريد الارتياح، لكنها تعرف أنه يقصد أريد العزلة من أجل الكتابة، فهي تعرف أنه كان قد بدأ في بغداد روايته

«متاهة العدم العظيم» وهو يتابع آخر ما كتبه بطله الروائي الكاتب آدم المجهول.

ولأنه كثيرًا ما يريد ابنته أن تكون حاضرة قربه وهو في سريره محاولا النوم، بل كثيرًا ما يأخذه كفها بيده مثل طفل يخاف أن يفقد أمه، إلى أن يغط في نوم عميق، لذا صار ثابتا لديها بأنه حين يطلب الارتياح فيقصد بذلك العزلة للكتابة.

حين أدخلته ابنته إلى غرفته الأنيقة طلبت منه أن يجلس على السرير. أخرجتْ اللابتوب الذي يخصه، فتحته ووضعته على الطاولة التي تتوسط الغرفة وخلفها مرآة كبيرة. قامت بتشغيل الحاسوب وإدخال كلمة السر للربط بالانترنيت الخاص بالغرفة والتي استلمتها من الاستعلامات. وبينما هي تنجز تلك الخطوات التقنية دخل موظف الخدمة الغرفة وهو يحمل الحقيبة الخاصة بالأب، فالتفتت إليه، وقالت بالإنكليزية ضع الحقيبتين كلاهما هنا. وأخرجت ورقة نقدية من فئة الخمسة يورو وأعطته فأخذها شاكرا.

التفت لأبيها وقالت له كل شيء جاهز. ثم قامت بفتح حقيبته وترتيب ثيابه في الخزانة الكبيرة في الغرفة. وأخذت الأشياء الكمالية من معجون الاسنان والفرشة وأدوات الحلاقة والعطر ووضعتهما في غرفة الحمام. وقالت له يمكنه الآن أن يرتاح، وستقوم هي بالاتصال بالطبيب المختص بحالته لتأخذ موعدا على الغد. وقبل أن تغادر قالت له إن غرفتها هي المقابلة له. يمكنها في أية لحظة أن يطرق عليها الباب إذا ما احتاجها، وفي كل الأحوال ستتركه يرتاح إلى أن تأتي فترة العشاء، فيمكنهما الخروج والتمشي قليلا وربما الجلوس في مقهى «نوح» القريب والذي أعجبه في المرة السابقة.

لم يعلق هو شيئًا. فقط تمتم شاكرا لك برقة، قائلا: شكرًا لك يا كنزي.

حين خرجت قام هو بهدوء. دخل الحمام. نزع قميصه الأزرق الشفاف ثم حذاءه ولبس نعليه، وجلس على الكرسي حول الطاولة الكبيرة، ثم فتح ملف روايته «متاهة العدم العظيم» وهو يتابع آخر ما كتبه آدم المجهول.

ضغط على ملف الفصل السابع من الباب الثالث وكتب:

كان الكاتب آدم العليل في غرفته بالطابق التاسع من فندق «ريو بلازا برلين» الواقع في بداية شارع مارتن لوثر شتراسة. لقد جاء من بغداد مع ابنته ليجري فحوصات على دماغه في مستشفى معروف في برلين. ترك بغداد أول أمس متجها إلى استنبول وبعد ساعات من الانتظار في مطارها الدولي واصل رحلته وابنته إلى برلين.

ليست المرة الأولى التي يحضر بها للعلاج. فهو مصاب بورم دماغي يسبب له آلاما. الأطباء يحاولون ألّا يجروا العملية وأنما يمارسون طرقا أخرى من العلاج والأدوية، لذا فهو يخضع لفحوصات دورية كل ثلاثة أشهر، لكن من أسوأ الأعراض التي يعانيها هو حالات النسيان وفقدان الذاكرة الغامض الذي ينتابه معظم الوقت. بيد إن ذهنه، وهنا ما يستغرب له الأطباء، يتوهج ويكون في أعلى حالات حضوره الذهني عند الكتابة.!. فحين يجلس أمام اللابتوب المحمول يتحول ذهنه إلى لؤلؤة كريستالية في داخلها عالم من الشخصيات والحيوات والآفاق الغريبة. لكن ما إن يخرج من حالة الكتابة حتى يتحول إلى شبه معتوه، ويفقد صلته بالواقع المحيط أو يكون صاحيًا لكن خامل الذهن ويميل إلى الصمت والتأمل، ولا يتحدث إلا إذا سُئِل عندها تكون إجابته مقتضبة.

ما إن حلّ في الفندق واستلم مع ابنته، التي كانت تقوم بتنظيم كل ما يتعلق به، مفاتيح غرفتيهما حتى قال لابنته إنه يريد الارتياح، لكنها تعرف أنه يقصد أريد العزلة من أجل الكتابة، فهي تعرف أنه كان قد بدأ في بغداد روايته «متاهة العدم العظيم» وهو يتابع آخر ما كتبه بطله الروائي الكاتب آدم المجهول.

ولأنه كثيرًا ما يريد ابنته أن تكون حاضرة قربه وهو في سريره محاولا النوم، بل كثيرًا ما يأخذه كفها بيده مثل طفل يخاف أن يفقد أمه، إلى أن يغط في نوم عميق، لذا صار ثابتا لديها بأنه حين يطلب الارتياح فيقصد بذلك العزلة للكتابة.

حين أدخلته ابنته إلى غرفته الأنيقة طلبت منه أن يجلس على السرير. أخرجتْ اللابتوب الذي يخصه، فتحته ووضعته على الطاولة التي تتوسط الغرفة وخلفها مرآة كبيرة. قامت بتشغيل الحاسوب وإدخال كلمة السر للربط بالانترنيت الخاص بالغرفة والتي استلمتها من الاستعلامات. وبينما هي تنجز تلك الخطوات التقنية دخل موظف الخدمة الغرفة وهو يحمل الحقيبة الخاصة بالأب، فالتفتت إليه، وقالت بالإنكليزية ضع الحقيبتين كلاهما هنا. وأخرجت ورقة نقدية من فئة الخمسة يورو وأعطته فأخذها شاكرا.

التفت لأبيها وقالت له كل شيء جاهز. ثم قامت بفتح حقيبته وترتيب ثيابه في الخزانة الكبيرة في الغرفة. وأخذت ألشياء الكمالية من معجون الاسنان والفرشة وأدوات الحلاقة والعطر ووضعتهما في غرفة الحمام. وقالت له يمكنه الآن أن يرتاح، وستقوم هي بالاتصال بالطبيب المختص بحالته لتأخذ موعدا على الغد. وقبل أن تغادر قالت له إن غرفتها هي المقابلة له. يمكنها في أية لحظة أن يطرق عليها الباب إذا ما احتاجها، وفي كل الأحوال ستتركه يرتاح

إلى أن تأتي فترة العشاء، فيمكنهما الخروج والتمشي قليلا وربما الجلوس في مقهى «نوح» القريب والذي أعجبه في المرة السابقة.

لم يعلق هو شيئًا. فقط تمتم شاكرا لك برقة، قائلا: شكرًا لك يا كنزي.

حين خرجت قام هو بهدوء. دخل الحمام. نزع قميصه الأزرق الشفاف ثم حذاءه ولبس نعليه، وجلس على الكرسي حول الطاولة الكبيرة، ثم فتح ملف روايته «متاهة العدم العظيم» وهو يتابع آخر ما كتبه آدم المجهول.

ضغط على ملف الفصل السابع من الباب الثالث وكتب:

كان الكاتب آدم العليل في غرفته بالطابق التاسع من فندق «ريو بلازا برلين» الواقع في بداية شارع مارتن لوثر شتراسة. لقد جاء من بغداد مع ابنته ليجري فحوصات على دماغه في مستشفى معروف في برلين. ترك بغداد أول أمس متجها إلى استنبول وبعد ساعات من الانتظار في مطارها الدولي واصل رحلته وابنته إلى برلين.

ليست المرة الأولى التي يحضر بها للعلاج. فهو مصاب بورم دماغي يسبب له آلاما. الأطباء يحاولون ألّا يجروا العملية وأنما يمارسون طرقا أخرى من العلاج والأدوية، لذا فهو يخضع لفحوصات دورية كل ثلاثة أشهر، لكن من أسوأ الأعراض التي يعانيها هو حالات النسيان وفقدان الذاكرة الغامض الذي ينتابه معظم الوقت. بيد أن ذهنه، وهنا ما يستغرب له الأطباء، يتوهج ويكون في أعلى حالات حضوره الذهني عند الكتابة.!. فحين يجلس أمام اللابتوب المحمول يتحول ذهنه إلى لؤلؤة كريستالية في داخلها عالم من الشخصيات والحيوات والآفاق الغريبة. لكن ما إن يخرج من حالة الكتابة حتى يتحول إلى شبه معتوه، ويفقد صلته بالواقع المحيط أو يكون صاحيًا لكن خامل الذهن ويميل إلى الصمت والتأمل، ولا يتحدث إلا إذا سُئِل عندها تكون إجابته مقتضبة.

ما إن حلّ في الفندق واستلم مع ابنته، التي كانت تقوم بتنظيم كل ما يتعلق به، مفاتيح غرفتيهما حتى قال لابنته إنه يريد الارتياح، لكنها تعرف أنه يقصد أريد العزلة من أجل الكتابة، فهي تعرف أنه كان قد بدأ في بغداد روايته «متاهة العدم العظيم» وهو يتابع آخر ما كتبه بطله الروائي الكاتب آدم المجهول.

ولأنه كثيرًا ما يريد ابنته أن تكون حاضرة قربه وهو في سريره محاولا النوم، بل كثيرًا ما يأخذه كفها بيده مثل طفل يخاف أن يفقد أمه، إلى أن يغط

في نوم عميق، لذا صار ثابتا لديها بأنه حين يطلب الارتياح فيقصد بذلك العزلة للكتابة.

حين أدخلته ابنته إلى غرفته الأنيقة طلبت منه أن يجلس على السرير. أخرجتْ اللابتوب الذي يخصه، فتحته ووضعته على الطاولة التي تتوسط الغرفة وخلفها مرآة كبيرة. قامت بتشغيل الحاسوب وإدخال كلمة السر للربط بالانترنيت الخاص بالغرفة والتي استلمتها من الاستعلامات. وبينما هي تنجز تلك الخطوات التقنية دخل موظف الخدمة الغرفة وهو يحمل الحقيبة الخاصة بالأب، فالتفتت إليه، وقالت بالإنكليزية ضع الحقيبتين كلاهما هنا. وأخرجت ورقة نقدية من فئة الخمسة يورو وأعطته فأخذها شاكرا.

التفت لأبيها وقالت له كل شيء جاهز. ثم قامت بفتح حقيبته وترتيب ثيابه في الخزانة الكبيرة في الغرفة. وأخذت ألشياء الكمالية من معجون الاسنان والفرشة وأدوات الحلاقة والعطر ووضعتهما في غرفة الحمام. وقالت له يمكنه الآن أن يرتاح، وستقوم هي بالاتصال بالطبيب المختص بحالته لتأخذ موعدا على الغد. وقبل أن تغادر قالت له إن غرفتها هي المقابلة له. يمكنها في أية لحظة أن يطرق عليها الباب إذا ما احتاجها، وفي كل الأحوال ستتركه يرتاح إلى أن تأتي فترة العشاء، فيمكنهما الخروج والتمشي قليلا وربما الجلوس في مقهى «نوح» القريب والذي أعجبه في المرة السابقة.

لم يعلق هو شيئًا. فقط تمتم شاكرا لك برقة، قائلا: شكرًا لك يا كنزي.

حين خرجت قام هو بهدوء. دخل الحمام. نزع قميصه الأزرق الشفاف ثم حذاءه ولبس نعليه، وجلس على الكرسي حول الطاولة الكبيرة، ثم فتح ملف روايته «متاهة العدم العظيم» وهو يتابع آخر ما كتبه آدم المجهول.

ضغط على ملف الفصل السابع من الباب الثالث وكتب:

من يكتب عن من؟ هل أنا أكتب عن آدم المجهول، أم هو يكتب عني أنا آدم العليل... وسواء هو كتب عني أم أنا أكتب عنه فتبًّا لكل شيء فطز. طز.. طز.

توقف آدم العليل عن الكتابة. ظل يفكر بآدم المجهول الذي تركه في الفصل السادس بعد أن زار جناح السرطان في اللامكان. وسأل نفسه «لماذا وضعته في ذلك الجناح؟ ألأني ربمّا مصاب بالسرطان وبفقدان الذاكرة المؤقت والغامض؟ ومن هم هؤلاء الحشد من الكتاب للمتاهات؟ أيمكن أن أكون واحدًا منهم أيضا، أي شخصية وهمية افتراضية؟»، وابتسم مع نفسه وهو يقول بصوت داخلي: «سواء كنت أنا الكاتب الحقيقي أو كنت شخصية روائية كبقية كتاّبها، فطز بكل شيء. عليّ أن اسمتع بلحظات الحياة فهي تتسرب كالساعة الرملية ولن تعود، عليّ أن أخرج من متاهاتي.».

وبهدوء قام عن كرسيه توجه للسرير القريب واستلقى بكامل جسده عليه. ظلّ يفكر في هذه المتاهة التي كلما وجد الطريق للخروج منها يجد نفسه في التيه مرة أخرى، وظلّ يحدّق في سقف الغرفة وكأنه قد رأى شيئًا هاما يستحق التركيز.

مضى وقت ليس بالقصير وهو في تأمله الغامض. فجأة، قام عن السرير وكأنه قرر شيئًا. جلس أمام اللابتوب وأخذ يكتب وكأن أشباحًا كانت تملي عليه.

8

آدم الأثري.. آدم العليل.. متاهة آلهة سومر..

والسروال الأسود

حين أخذ آدم الأثري حقيبته من الحزام الدائر في قاعة الواصلين بمطار تيغل ببرلين وصار في القاعة بدأ يبحث عن صديقه الدكتور آدم شوبيرت الذي يفترض أن يستقبله، فقد جاء هو من بغداد بناء على دعوة لحضور ندوة علمية استشارية خاصة جدًا حول بعض الرُقُم والألواح الطينية التي كانت ضمن اللُقى التي عثر عليها الآثاريون في المناطق الأثرية للسومريين في جنوب العراق في الربع الأول من القرن العشرين، إلاّ إن هذه الألواح لم تُفك رموزها إذ كانت مهملة في صندق صغير بمخزن اللُقى والحاجات التي تحتاج لتصنيف وتوضيح وقراءة علمية، وبما إنه من المتخصصين باللغات العراقية القديمة فقد دُعي إلى هذه الندوة.

فتش عن ضيفه لدقائق، ولما لم يجده قرر الذهاب إلى الفندق بالتاكسي فلديه العنوان، لذا غادر قاعة المطار، وتوجه إلى حيث سيارات التاكسي التي كانت تنتظم في استقبال المسافرين خارج القاعة. كان ثمة طابور قصير وقف فيه، وقبل كان رجل وزوجته صعدا إلى التاكسي وبعدهما مباشرة تقدمت السيارة التالية فصعد إليها وأبلغ السائق باسم الفندق «ريو

بلازا برلين» في مارتن لوثر شتراسة، فهزّ السائق رأسه موضحًا بأنه يعرف المكان.

كان كل شيء منظمًا. الغرفة محجوزة له. إنها الغرفة التاسعة في الطابق التاسع. ولم يمض سوى دقائق في غرفته حتى رنّ الهاتف حين رفع السماعة سمع صوت الدكتور آدم شوبرت مرحبًا، وقال له إنه تأخر عليه قليلًا، واعتذر منه على التأخير، واتفق على أن يمر عليه مساءً داعيًا إياه إلى العشاء، حيث سيمرّ عليه مع زوجته الكاتبة الروائية إيفا شوبيرت.

في غرفته نزع الدكتور آدم الأثري ملابسه كلها وألقى بها على السرير. صار عاريًا إّلا من لباسه الداخلي. وتوجه إلى الحمام.

وهو تحت الدش أخذ يفكر مستغربًا وجود ألواح طينية سومرية لدى الألمان وإلى الآن لم يعملوا على فك رموزها ولغتها وترجمة نصوصها إلى اللغات المعاصرة الحديثة، علما هو يعرف أن معظم ألواح سومر قد تمت ترجمتها من قبل الآثاريين الأجانب وتمت ترجمتها إلى العربية.

كان متلهّفًا للندوة، فهو يعرف أن متحف برلين ولندن يضمان أهم الآثار العراقية القديمة، لكنه لم يسمع بوجود ألواح لم تصنف بعد، على الرغم من مرور كل هذه العقود من السنين.

ومع أن الدكتور آدم الأثري مهتم بالآثار واللغات القديمة، بل هي تخصصه الأكاديمي إلّا إنه كان كاتبا روائيا، أصدر رواية مسلسلة باسم «المتاهات» وكان على وشك الانتهاء من جزئها الأخير حين وصلته الدعوة لحضور هذه الندوة في برلين. ومع أنه من الناحية المهنية أكاديمي وأستاذ في اللغات القديمة فهو كاتب روائي، وهو لا يقيم وزنًا كبيرًا للقبه الأكاديمي وأنما يرى أن هويته الذاتية كونا كاتبًا.

حين استلم الدعوة كان يكتب في الفصل السابع من الباب الثالث في روايته الأخيرة «متاهة العدم العظيم»، لذلك اتصل بصديقه الدكتور آدم شوبيرت طالبا منه تأجيل الموعد إلّا إن الأمر بدا غير ممكن، لأن الدعوات قد أرسلت إلى علماء آخرين في بلدان أوربية كفرنسا وبلجيكا وبريطانيا وهنغاريا إلى جانب عالمة آثار روسية، لذا لم يكن أمامه سوى المجيء إلى برلين.

كان آدم الأثري واقفًا تحت الدش والماء ينهمر على رأسه بينما الخواطر والصور تنهمر في ذهنه، وفجأة، أوقف انهمار الماء بإدارة مقبض التشغيل، وخرج من الفسحة المغلقة بالزجاج. أخذ منشفة كبيرة وغادر الحمام مسرعًا. كان لا يزال مبتلًا حينما أخرج جهاز اللابتوب وربطه بقابس التيار

الكهربائي وشغل الجهاز. وبينما الجهاز ينظم حاله وفق برنامج التشغيل قام هو باستكمال تنشيف جسده، ثم جلس على الكرسي حول الطاولة وضغط على الفصل السابع الذي كتبه في بغداد، وانتبه لما جاء فيه. فقد كان الفصل معنونًا: «طز آدم العليل» الذي يتحدث فيه عن مجيء كاتب اسمه آدم العليل إلى برلين مع ابنته لمراجعة مستشفى السرطان، وأيضا مستشفى للأمراض النفسية، لأنه يتعرض لفقدان ذاكرة غامض الأعراض، وأن آدم العليل هذا نزل في فندق «ريو بلازا برلين» وفي الغرفة التاسعة من الطابق التاسع.!! يعني نزل في الغرفة التي هو فيها؟؟ واستغرب متوجسًا هذا التطابق الغريب الذي هو ليس من باب المصادفة ولا من باب ظاهرة الديجافو.! فكيف كتب وهو في بغداد بأن الكاتب آدم العليل نزل في هذا الفندق «ريو بلازا برلين»، وفي هذا الطابق، وفي الغرفة نفسها التي يجلس هو فيها الآن؟؟.

انتبه لنبرة العبث في الفصل السادس الذي كتبه آدم العليل عن آدم المجهول بعد زيارته لجناح السرطان في اللامكان وكوابيس حواء الصلعاء، وانتبه لمزاج آدم العليل العبثي واليائس. وفكّر بالأوادم والحواءات الذين تناوبوا على الادّعاء بتأليفهم للمتاهات بدءًا من الكاتب الأول آدم البغدادي الذي أطلقه هو ككاتب للمتاهة الأولى وصولا إلى المتاهة التاسعة حيث أدخل كاتبا آخر هو آدم الأكويني، ثم حواء الدفتري، ثم آدم المجنون، وآدم الأعمى، وآدم اللاأحد، وحواء الضعيف، آدم الجيزاني، وآدم السعيد الذي رهن مخطوطات المتاهات، وآدم المجهول، وآدم العليل، ثم تذكر أن آدم الأعمى أيضا غادر المتاهة بكلمة: طزز... لكنه يعرف بأنه هو الذي أوجد كل هؤلاء الأوادم والحواءات من الكتّاب الافتراضيين للمتاهات، بينما هو وحده من كتبها، هو آدم الأثري، ومع ذلك لم يفهم كيف أنه قد تنبأً بأحداث تجري بالضبط في الواقع، حيث كتب الفصل السابع الذي تجري أحداثه في هذا الفندق نفسه. وأحس بدفق من الهواجس والأسئلة الغامضة تجتاحه وسأل نفسه: «أأنا آدم الأثري حقا أم أنا آدم العليل، وهو لا يزال مستغرقا في شروده وفقدانه لذاكرته ويستحضرني الآن وهو في الغياب، و كأني في أعماق ذاكرته العاطفية!؟ لا. لا. هذا غير معقول!. أمن المعقول أنني شخصية روائية وأن آدم العليل الذي اعتقدت أنني أوجدته وكتبته في الفصل السابع هو الآن من يكتبني في فصل جديد!؟ كيف لي أن أتحقق من ذلك؟».

بهدوء قام عن كرسيه توجه إلى السرير القريب واستلقى بكامل جسده عليه. وظل يفكر في هذه المتاهة التي كلما وجد الطريق للخروج منها يجد نفسه في التيه مرة أخرى. ظل يحدّق في سقف الغرفة وكأنه قد رأى شيئًا هامًا يستحق التركيز. ولم يعرف كم مرّ من الوقت عليه لأنه غط في نوم عميق لم يوقظه منه سوى رنين هاتف الغرفة.

حينما أفاق من غفوته الطويلة وجد أن العتمة قد تسرّبت إلى الغرفة، فضغط على المصباح الجانبي قرب السرير فأضاء جانبًا من الغرفة، ومدّ يده إلى سماعة الهاتف فجاءه صوت موظف الاستلامات ليخبره بأن السيد والسيدة شوبيرت ينتظرونه في اللوبي. فقال له: سأنزل خلال دقائق. وأسرع بارتداء قميص أبيض وبنطال رمادي وسترة زرقاء مع حذاء جلدي أسود، وتذكر الزي الجامعي الموحّد في العراق إبّان السبعينات. وقبل أن يخرج رش على نفسه عطر «روما» الرجالي الذي لا يغيره إلا نادرًا لكنه لا يستغني عنه.

* * *

حين فُتح باب المصعد ألقى نظرة على صالون الفندق، فالتقت عيناه بعيني امرأة بدت له في بداية الخمسينات. كانت تجلس على مقعد بمواجهة المصاعد، ويبدو أنها عرفته فورًا لأنها تمتمت بشي التفت على إثره الرجل الذي يجلس قبالتها فعرف أنه صديقه الدكتور آدم شوبيرت الذي قام إليه مرحبًا.

تصافحا واحتضنا بعضهما البعض على الطريقة الغربية بتلاحم الأكتاف. كانا يتحدثان بالإنكليزية. وبعد تبادل التحايا قدم الدكتور آدم شوبيرت المرأة التي معه بأنها زوجته الكاتبة إيفا شوبيرت فتبادلا التحيات والترحيب، وقبل أن يجلس انتقل الزوجان ليجلسا على الصوفا الجلدية فجلس هو على المقعد المقابل.

ومنذ أول وهلة لتقديم آدم شوبيرت زوجته له أدرك فارق العمر بينهما. فهو في منتصف الثلاثين، بينما بدت له بعد أن تأمل وجهها وكأنها قد تجاوزت الخمسين بقليل، لكن لاحت منه نظرة سريعة وخاطفة إلى جسدها وساقيها، بينما كانا هما يتحدثان مع موظف الخدمة في الفندق عن أمر يخص الحجز والجهة المتكفلة، فأدرك أنها أقل عمرًا مما يبدو عليه وجهها المليء بالتجاعيد. التفتت هي اليه مبتسمة فجأة وقالت وكأنها تجامله وتريد بناء جسر تواصل بينهما:

- أخبرني زوجي آدم أنكم متخصصون باللغات القديمة، وأنكم تكتبون الروايات أيضا. أهذا صحيح؟

- صحيح.. قال بتواضع

- هذا ممتع. أتكتبون روايات تاريخية عن العصور القديمة كالعصور السومرية وطقوس السحر وعالم المعابد، بحكم تخصصكم!؟.

- لا. لا. أنا أكتب روايات معاصرة عن الانسان الحديث وهو تحت ضغط القيم الأخلاقية واللّياّقات والمواضعات الاجتماعية التي جاءت بها الحضارة..

ابتسمت وقالت:

- إذن أنتم من المؤمنين بالتحليل النفسي أو من المهتمين بالفلسفة..

- إلى حد ما صحيح..

في تلك اللحظة التفت الدكتور آدم شوبيرت إليهما وابتهج حينما رآهما يتحاوران بانسجام، فقال:

- إذن التقى الكتاب والأدباء..

ابتسم الجميع، ثم وجه حديثه نحو آدم الأثري وقال موضحا:

- بالنسبة لإيفا فهي كاتبة روايات سيرة، يعني روايات بيوغرافيا متخيلة للشخصيات وطبعا معتمدة على كل الوثائق الحقيقية المرتبطة بحياة تلك الشخصية موضوع الكتاب، وقد أصدرت خمسة كتب في السيرة عن جاك لاكان، ماجلان، شتيفان تسفايغ، فونتانة، وعن الشاعر تراكل..

فقاطعه آدم الأثري وهو يوجه كلامه إلى السيدة إيفا شوبيرت:

- رائع جدًا، كما أن اختياركم للشخصيات رائعة حقًا. هل كتبكم موجودة بالإنكليزية؟.!

- نعم.. وحتى كتابي الذي لم انته منه بعد، قد اتفقت دار النشر على ترجمته إلى ثلاث لغات أوربية إلى الآن..!

وقبل أن يعلّق آدم الأثري على ما قالته قاطعه الدكتور آدم شوبيرت بلهجة مرحة وحازمة:

- أيها السيدات والسادة علينا الذهاب إلى المطعم الآن، فأعتقد أن ضيوفنا ينتظروننا هناك... وإكراما لك صديقي فقد اتفقنا أن نلتقي في مطعم عربي اسمه «مروش«

قام الجميع. غادور الفندق متجهين إلى المطعم الذي لم يكن بعيدًا عن الفندق.

* * *

حين وصلوا مطعم «مروش» وجدوا أن الضيوف جميعهم قد وصلوا باستثناء الأستاذة الروسية والأستاذ الهنغاري لم يكونا قد وصلا بعد، كما قامت سكرتيرة الدكتور آدم شوبيرت بتمثيل الدكتور شوبيرت لحين وصول، لكنها قبل أن يجلسوا اقتربت منه وهمست في أذنه شيئًا.

أحس آدم الأثري بالارتياح لأجواء المطعم الفرعونية، فهناك الكثير من التماثيل لحورس أو لوحات ليوم الحساب المصري، وتمثال رأسي لتوت عنخ آمون.

انظموا إلى البقية وتم التعارف بينهم. وجلس هو إلى جانب السيدة إيفا شوبيروت بينما توسط زوجها الجلسة لأنه يعرف بقية الضيوف شخصيًا، وهو من قام بدعوتهم، فجلس على طرف المائدة بينما جلست سكرتيرته على الطرف الآخر المقابل.

منذ اللحظات الأولى وبنظرة سريعة وبفضول الروائي الذي في داخله أدرك آدم الأثري بأن ثمة توتر بين السكرتيرة والسيدة إيفا شوبيرت، إذ كانت نظرات السيدة شوبيرت فيها برود وغيرة مكتومة سعت ألّا تبدو واضحة، ويبدو أن السكرتيرة تعرف ذلك، ولكي تتجنب كل منهما الافصاح عن التوتر بينهما قامتا بممارسة المجاملات والنفاق الاجتماعي بالسؤال بعضهما البعض وعن أخبارهما ومزاجهما.

السكرتيرة رشيقة وتميل إلى النحول لكن بتناسق جسدي مثير، وتضع نظرات طبية على وجهها، ترتدي ثوبا أسود طويلًا ومغريًا، وكانت تدرك تأثير أنوثتها وشبابها مما منحه قوة نفسية وشعورًا بأن غريمتها أضعف منها، لاسيما وأنها تعرف معظم الضيوف وليست كالسيدة شوبيرت لذا بدت أكثر حيوية.

أعجبت آدم الأثري مع نفسه ملاحظاته عن هاتين السيدتين، وفكر بطبيعة البشر، لاسيما جنس النساء، خاصة في مشاعر الغيرة.

وعلى حين غرّة مالت السيدة شوبيرت نحو آدم الأثري وهمست له قرب أذنه:

- هذه سكرتيرة زوجي، وربما هي عشيقته، هي تسعى دائما أن تبدو بأنها الذكية المرحة وبمستوى هؤلاء العلماء، لكنها في الواقع امرأة

كئيبة ومملة مثل خيال المآتة. وأنا أعرف أنها هي من تلاحق زوجي آدم، لكن ما يحيرني كيف هو يطيق توددها المقرف إليه.

لم يشأ آدم الأثري أن يبدي ملاحظة ما تخص السكرتيرة التي وقفت في تلك اللحظة لتستقبل اتصالا هاتفيا فتبين له جسدها الرشيق والتواءات مؤخرتها المثيرة وحدود ساقيها، فشعر بغيرة باردة من الدكتور آدم شوبيرت لتمتعه بهذا الجسد الرشيق، إن صح ما قالته زوجته عنها.

وغادرت السكرتيرة المائدة إلى خارج المطعم، بينما لاحقها بعينيه متأملًا بطة ساقيها. ولأن السيدة شوبيرت كانت تنتظر تعليقه، فلم يجد سوى أن يقول:

- أعتقد إن الدكتور شوبيرت يحبك أنت ولا أعتقد واحدة مثل هذه تغريه، لكن ربما هي تقوم بواجبها بشكل جيد..

- اعترف هي كذلك، ومع ذلك هي تقوم بذلك من أجل أن تتقرّب منه.

ولم يواصلا الحديث أكثر إذ عادت السكرتيرة ومعها الضيفة الروسية التي بدتْ امرأة في الخمسين لكنها تحتفظ بقوام وشخصية وإثارة أنثوية مشعة. وما إن أقبلت حتى قام الدكتور شوبيرت مستقبلا إياها بمودة ولطف واضحين معتذرًا عن عدم استقبالها في المطار لأن معلومات المطار أن طائرتها تتأخر لساعتين عن موعدها، فأكدت له أن المعلومات الأولية صحيحة، إذ كان هناك تفتيش شديد على الطائرة بعد وصول معلومات مقلقة عن وجود متفجرات في إحدى الحقائب، لكن اتضح أن المعلومات كاذبة. ثم عرّفها على الجميع، لكنه أكّد بأن الدكتور آدم الهنغاري اعتذر لسبب طارئ جدًا وهو تعرّض ابنته لحادث مؤسف.

مضى وقت جرت خلاله المجاملات التقليدية عن السفر ومخاطره بسبب الإرهاب وصرامة التفتيش في المطارات، ثم عن الوصول والفندق، إذ اتضح أن الروسية نزلت في الفندق الذي نزل فيه آدم الأثري، بينما الثلاثة الآخرون نزولوا في فندق يخص ضيوف الجامعة، وقد أوضحت السكرتيرة بأن السكن الجامعي محجوز كله، و الغرف الثلاث الأخيرة كانت للضيوف الذين صباحًا، لذا اضطروا إلى حجز غرفتين للضيفين العراقي والروسية في فندق «ريو بلازا برلين» بعد أن تأكدوا من عدم حضور آدم الهنغاري.

قطع هذا الحديث مجيء المقبلات العربية أولا، فانهمكوا بالأكل وكأنهم لم يأكلوا منذ أيام، فعلّق الدكتور آدم بأن الوجبة الرئيسة لم تأت بعد، لذا عليهم ألّا يكثروا من المقبلات. ولم تمض سوى عشر دقائق حتى جيء

بصينتين كبيرتين فيها مشويات متنوعة من كباب وكفته وأضلع لحم وبصل وطماطم وفلفل أخضر مشوي، كما تم فتح قنينتين من النبيذ، وقُرعت الكوؤس بصحة اللقاء. وبعد الكأس الأولى صار المزاج أكثر استرخاء.

السيدة إيفا شوبيرت استلطفت آدم الأثري وصار هو رفيق حديثها الوحيد تقريبًا على الرغم من أنها زوجة المضيّف، لكنها كما يبدو كشفت من حيث لا تدري عن الهوة التي بينها وبين زوجها الذي من الواضح أصغر منها عمرًا، فقد كانت السكرتيرة أكثر منها حيوية ومجاملة للضيوف.

فجأة تعالى صوت قادم من مايكريفون المطعم بأنه بعد قليل ستنزل الراقصة إيفا ماريا لتقدم وصلة من الرقص الشرقي. وتعالت الموسيقة الشرقية الراقصة، وعلى غير توقع اندفع امرأة شقراء جميلة الجسد يميل إلى الامتلاء مندفعة برقص على إيقاع موسيقى مصرية مخصصة للرقص الشرقي.

كان جميع رواد المطعم بمن فيهم الضيوف ينظرون إلى الراقصة بدهشة. وكانت السيدة إيفا شوبيرت تتابع خلسة نظرات زوجها وسكرتيرته وتقرأ نظرات الضيوف التي تاهت في تفاصيل جسد الراقصة.

أخذت الراقصة فاصل استراحة وسط تصفيق رواد المطعم، وعاد الجميع ينظرون إلى صحونهم أو يتحدثون في ما بينهم.

خلال ذلك همست السيدة إيفا شوبيرت وهي تنحي قليلا نحو آدم الأثري قائلة:

- هؤلاء الأوربيون بكل تهذيبهم في اللياقات الاجتماعية وبكل عقلانيتهم الباردة في التفكير المنطقي، وبكل فردانيتهم وذاتيتهم التي تعلو فوق كل شيء، تجد في أعماقهم كبت جنسي يتفجر مع كل ما هو شرقي حريمي فهم يحلمون بعالم الحريم والجواري والرقص الشرقي، فألف ليلة وليلة ولوحات الفنانيين المستشرقين أكلت أدمغتهم، فهم يحلمون بالساحات التي تباع فيها النساء عاريات وحليقات العانة كما في لوحات الاستشراق، وبحمامات النساء التركية، وبالخيم المفروشة بالسجاد والتي لا تخلو من الجواري والغلمان.. أهذا هو عالمكم حقا؟

- لا أدري ماذا أقول لحضرتك، فعالمنا الشرقي ليس كما تعتقدون. نحن شعوب ابتليت بالأمية والجهل والأمراض الفتاكة والفقر. النساء لدينا لا تباع في سوق العبيد كما تعرض السبيات في لوحات المستشرقين، علما أن السبي مباح دينيًا وبنصوص موثقة فلم يمنع أو

يحرّم في القرآن، لكن الزمان اختلف، فالمرأة الآن تباع بطريقة أخرى بسبب الفقر الذي يجبر الكثير من العائلات في بعض البلدان بتزويج بناتهم القاصرات، وهو غطاء لعملية بيع مقرفة، أو تتزوج الشابات رجالا مقتدرين ماديًا لأن عشاقهن الشباب بالكاد ينفقون على أنفسهم. ربما وهم عالم الحريم أيضا كان دافعا خفيا لحروب الاستعمار الأوربي في بلداننا.. لا أستبعد ذلك.

- نعم.. نعم.. التخيلات والأوهام والصور المزيفة كان لها دور في قيادة التاريخ، ودائما كانت هذه التخيلات عن الآخر كارثية، إلا في حالات نادرة، كرحلة الكسندر المكدوني التي كانت تقوده فكرة لقيادة العالم واكتشافه، وكذا ماجلان الذي كانت لديه فكرة وأوهام عن طريق مزعوم يصله إلى الهند..! وقد تحدّثتُ عن ذلك في كتابي..

في تلك اللحظة سمعا الدكتور آدم شوبيرت يتوجه إليهما قائلا، ومقاطعا ما كان من حديث يجري بين بقية الضيوف:

- يبدو أن حديثكما عميق وشيق، لِمَ لا تشاركونا به ليكون الأمر أكثر متعة..!

ابتسم آدم الأثري وقال:

- الحديث مع السيدة شوبيرت ممتع بلا شك، فهي تحدّثني عن التصورات الزائفة عن الآخر والأشياء، ومع كل ما تحمله من خيبات، لكنها تقودنا إلى كشوفات جديدة أحيانًا، مثلما فعل ماجلان حين كانت كل خرائطه تخلق لديه تصورًا عن طرق أقصر إلى الهند، وإذا به يكتشف قارة جديدة وعالمًا جديدًا!.

نظر الدكتور آدم شوبيرت إلى ضيوفه، وقال مبتسما:

- ما رأيكم أيها الضيوف الأعزاء؟ ألا يشبه هذا الأمر ما نحن فيه؟ أليس لدى كل منا تصور ما عن تلك الألواح التي لم تُصنّف وتفك لغتها إلى وقتنا هذا؟ أليس من المحتمل ما سنكتشفه لا يكون له علاقة بكل ما نفكر فيه الآن حولها؟

فغمغم الجميع بكلمات وجمل قصيرة تشير إلى الموافقة على هذا الطرح. انتبه آدم الأثري إلى أن السكرتيرة التزمت الصمت ورمقته بنظرة متفحصة سريعة، نظرة خاصة فهمها بأنها انتبهت لوجوده الخاص. التقت نظراتهما. كانت نظرتها حائرة. السيدة شوبرت همست له قائلة:

- شكرا لك على ما قلته عني.

- هذه حقيقة. ربما قدمتها أنا بطريقة قول أخرى.

قطع حديثهم دخول الراقصة إيفا ماريا مرة أخرى إلى حلبة الرقص وعلى رأسها شمعدان كبير عليه ثمان شموع وشمعة تاسعة في الوسط، وأخذت ترقص وتتلوى والشمعدان ثابت فوق رأسها، فنالت تصفيقًا حماسيًا من الحاضرين. وظلت ترقص والعيون مشدودة إليها لدقائق أخرى، ثم نزعت الشمعدان ووضعته على الباحة الخشبية المخصصة لها، وصارت تقترب من موائد الجالسين وترقص قربهم وكأنها تخص كل طاولة باهتمام خاص ولم تبق مائدة قريبة من باحة الرقص إلّا ورقصت قربها، ثم رجعت إلى الباحة وأنهت رقصتها بحركات أفعوانية والتواءات مثيرة، وأخيرًا انحنت للجمهور وهي تحييه. تعالى التصفيق. انحنت وأخذت الشمعدان واختفت.

أُفرغت القنينتان. انتبه الدكتور آدم شوبيرت إلى نظرات سكرتيرته التي أشارت بنظراتها للقنينتين فانتبه هو لفراغهما، فنادى على عامل الخدمة مشيرًا بأن يأتي بقنينة نبيذ ثالثة.

فجأة، قالت الضيفة الروسية بأنها مع فكرة بأن الصور المرسلة عن الرقم الطينية والألواح السومرية ربما ستكون خارج كل التوقعات عنها، لكنها بقولها هذا كأنها أشعلت شمعة في زاوية مظلمة إذ دار النقاش بين الضيوف وتقاطع لكنهم اتفقوا بأن معرفة ذلك سيتم في الغد.

أحست السيدة إيفا شوبرت بغيرة مكتومة من السكرتيرة التي شاركت في النقاش بحيوية فقالت لهم:

- أنا لست متخصصة في اللغات القديمة ولا تصورات علمية خاصة لديّ عن تلك الألواح، لكني أظن أن لحظة الكشف هي المهمة. فربما ما تكتشفونه مخيبًا لتوقعاتكم، وقد يكون متطابقا مع تصوراتكم المحتملة، لكن في أية رحلة أجد أن اللحظة التي تسبق الكشف وتكون مطلة على حافاته هي المهمة، لأنها تكون حدًا فاصلًا بين بين التصور والواقع الجديد، لذا ليس عبثًا إن جعل هوميروس طريق الأوديسة يستمر لعشر سنوات.

فعلّق الضيف آدم البريطاني قائلا لها:

- هذا طرح شاعري، لكنه حقيقي، وكل منا مر بتلك اللحظة لاسيما حينما نجد مدخلا لمقبرة، أو نعثر على تابوت أثري فنعيش تلك

اللحظات قبل فتحه.

ثم دار حديث عن المطعم وما فيه من لوحات وتماثيل فرعونية، فأوضح الضيف البريطاني بأن المتحف التاريخي في لندن يحتوي على الكثير من الآثار التي تخص الحضارتين الفرعونية والعراقية القديمة.

السيدة إيفا شوبيرت لم تشارك في النقاش كثيرًا لكنها كانت منتبهة وحاضرة كمستمعة، ومع أن الضيف الآخر آدم الفرنسي المجاور لها كان يحاول أن يتحدث معها لكنها لم تتبادل معه إلّا بعض جمل، إذ انتباهها ومركز اهتمامها الشخصي كان آدم الأثري، وقد انتبهت السكرتيرة لذلك فظلت بين فترة وأخرى تلقي نظرة خاصة مستفسرة ومتفحصة على آدم الأثري لتتأكد من شيء ما في نفسها.

لم تطل السهرة، فبعد تذوق الحلوى اللبنانية والتركية أشار الدكتور آدم شوبيرت إلى أحد موظفي الخدمة في المطعم بما يعني أن يأتي بالحساب. وبعد دقائق جاء بدفتر جلدي وفيه فاتورة الحساب. قرأ المبلغ وأخرج محفظته ووضع المبلغ مع بقشيش قليل وطلب من موظف الخدمة أن يعد فاتورة من أجل تقديمها ضمن نفقات ضريبية.

غادر الجميع المطعم. وفي الشارع توزّعوا. الضيوف الأوربيون ذهبوا مع السكرتيرة في سيارتها، بينما صعد الدكتور آدم شوبيرت إلى سيارته وصعدت زوجته في المقعد الأمامي، وصعد آدم الأثري والضيفة الروسية في المقعد الخلفي. وانطلق الجميع.

** * *

عند باب الفندق قالت السيدة إيفا شوبيرت لآدم الأثري بأنها سعيدة لتعرفها إليه وأنها تتمنى أن تلتقيه مرة أخرى لكن في بيتهم، ثم سلّمت بلطف على الضيفة الروسية وكذا فعل الدكتور آدم شوبيرت ووعدهما بأنه سيمر عليهما الساعة العاشرة والنصف صباحًا ليذهبوا إلى المعهد. تبادلوا التمنيات بليلة هانئة.

حينما صارا في اللوبي سألت الضيفة الروسية آدم الأثري إن كان يود الآن أن يأوي إلى الفراش، أم بمقدوره أن يتناول معها شيئًا من بار الفندق، فوافق.

توجها إلى البار في زاوية من اللوبي يشير إلى حانة الفندق. وقبل أن يدخلا مدّت يدها معرّفة بنفسها: «أنا إيفا فيليبوفنا بوشكينا». فصافحها وقدم

نفسه: «آدم الأثري». ابتسمت له وقالت بأنه تم تقديم الجميع لها في المطعم لكنها لم تركز حينها على الأسماء ولا تحفظ الألقاب فهل يمكنها أن تناديه باسمه الأول «آدم» فقط، فابتسم وقال: طبعا أنا آدم..!

كان البار شبه معتم. وفوق كل طاولة مصباح بإنارة شاحبة. لم يكن في البار سوى ثلاث طاولات مشغولة.

جلسا حول طاولة قرب الباب. جاء النادل إليهما فطلبتْ هي كأسًا من الفودكا فطلب مثلها. كانا مرتبكين قليلا، لكنها كانت امرأة ذات شخصية مهيبة، وجمالها رومانسي وتسريحة شعرها تذكره بممثلات السينما في فترة الخمسينات.

جاء النادل بكأسي الفودكا مع شيء من الفستق والبطاطا المقلية، فسألته إن كان لديهم بعض شرائح الخبز الأسمر، فاعتذر منها لكنه قال لها بأنه سيأتي ببعض القطع من المطعم. رفعت كأسها فرفع كاسه وقالت له نخب التعارف، وأخذت رشفة كبيرة. انتبه هو إلى أنه يجالس دبّة روسية فربما لن يستطيع أن يجاريها في الشرب. وما هي إلّا لحظات حتى جاء النادل بصحن صغير وفيه بعض شرائح الخبز الأسمر. وقبل أن يغادر النادل طلبت أن يأتي بكاسين آخرين من الفودكا.

استغرب آدم الأثري أن هذه العالمة التي قرأ سيرتها في الوثائق التوضيحية الملحقة برسالة الدعوة من الدكتور آدم شوبيرت، قد ألقت كل ألقابها الأكاديمية عند باب البار، فهي الآن امرأة مرحة متوهجة مليئة بالرغبة في الحياة.

فجأة سألته:

- هل سمعت بشاعر روسيا الأكبر ألكساندر بوشكين؟

- نعم.. ومن لم يسمع به، لكني قرأت له رواية «ابنة القائد» وغيرها أكثر مما قرأت من شعره.

- إنني حفيدة بعيدة له..!

- ماذا تقولين؟ حفيدة الشاعر العظيم.

- نعم..

نظر إليها بانبهار وأحس، مع سريان الفودكا في جسده، بأن شيئًا من الخدر بدأ يضغط على صدغيه، وقال:

- نشرب نخب الشاعر العظيم.. بصحتك ياحفيدته الجميلة.

انتبهت لكلماته وانتبهت إلى الروح الشرقية فيه، والتي تميل للمبالغة والحفاوة، وأعجبها ذلك، فهي لا تحب لباقة الأوربيين وبرودهم السلوكي المهذب. دقت بلطف كأسها في كأسه وارتشفت كل ما في كأسها، وأخذت قطعة خبز أسمر وأخذت تتشممها ثم قالت له:

- جرّب أن تشمّ الخبز الأسمر مع الفودكا. هي عادة روسية قديمة..! ستغنيك عن تذوق أي شيء بعد شرب الفودكا وتذهب عنك مرارته وحدته الكحولية.

أخذ قطعة خبز وتشممها أحس فعلا بشيء مريح. فجأة، قالت له:

- قرأت في السيرة الموجزة التي أرسلها الدكتور شوبيرت لنا جميعا، بأنك تكتب الروايات أيضًا، أي نوع من الروايات تكتب؟

شعر بفرح يغمره وهو شعور يجتاحه كلما دار حوار ثقافي فكري لاسيما حول الرواية، وقبل أن يجيبها جاء النادل بكاسي الفودكا ثانية. وضعهما على الطاولة وذهب. نظر إليها وقال:

- لا أعرف كيف أتحدث عن رواياتي، فأنا أكتب رواية مسلسلة اسمها «المتاهات»!

- المتاهات..!

- نعم.. وأنا الآن على وشك الانتهاء من الجزء الأخير منها والذي يحمل اسم «متاهة العدم العظيم»

- متاهة العدم العظيم.. عنوان مثير..!

نظرت إليه باهتمام وبنظرة فيها لطف ودفء أنثوي وسالته:

- وماذا تريد أن تقول من خلال هذه الرواية..!

- الحقيقة..!

نظرت إليه بتفحص وكأنها تدرسه ثم قالت:

- أنت تعرف أنه ليس هناك حقيقة واحدة، بل ليس للحقيقة الواحدة وجه واحد وأنما وجوه عدّة، ولكل منا حقيته أو حقائقه..! فهي برهان عقلي، بل كما قال أحدهم إنها مطابقة الفكر لذاته..!

لم يكن آدم الأثري ميالا إلى خوض نقاش جاد في آخر الليل وفي بار فندق بعاصمة بعيدة. كان يشعر أنها أعجبته ويريد التقرب منها بأي شكل، فقال لها:

- أنا أحاول أن أعبّر عن رأيي في العالم والحياة والأشياء..!

نظرت إليه بلطف وقالت:

- أعذرني على جدّيتي في مثل هذه الجلسة التي يفترض أن تكون للاسرخاء، لكنني امرأة لا تعرف أن تمرّ بالأشياء مرورًا عابرًا ولامباليا.

- هل أنتِ أستاذة في الفلسفة..؟

فوجئت بهذا السؤال المباغت، وأدركت أنه لا جدوى من التوغل بحوار فكري في مثل موقفهما.. فابتسمت وقالت معتذرة:

- أنا من الجيل القديم. كنت ماركسية في شبابي، ودرسنا الفلسفة الماركسية وتاريخ المدارس الفكرية، لذا أجدني أفلّسف الأشياء لا إراديا. ربما هي عادة سيئة، ثم إن ذلك ربما يجري في دمي، في جيناتي، فبوشكين لو لم يأبه لكلام الناس ولم يفلسف الشائعات لما قُتل في مبارزة حمقاء..!

انتبه إلى أنها تحاول الاعتذار لكن بطريقة ملتوية، فابتسم قائلا:

- أنت تحاولين الاعتذار عن الخوض في الحديث الفلسفي لكن بطريقة اعتذار فلسفية..!

ابتسمت له ابتسامة اعجاب مثيرة وقالت:

- تعليقك جميل..

- وأنت امرأة جميلة..!

لا يعرف كيف تجرأ وقال ذلك بشكل غزل واضح بها. ابتسمت له وارتبكت قليلا وقالت له بغنج أنثوي:

- شكرًا لك..

مدّت يدها إلى كأس الفودكا الثاني، وقالت:

- نحن الروس نحب أن نرفع الكوؤس ونقول نخبًا في شيء ما كل مرة.

فرفع هو كأسه عاليا وقال:

- نشرب نخبك أنت أيها المرأة الفاتنة، ياحفيدة بوشكين العظيم، وليكن نخبًا حقيقيًا نشرب كل ما في الكأس دفعة واحدة..

نظرت إليه مستغربة لكن بميل نفسي واضح وقالت مبتسمة:

- أنت تريد أن تسكرني الليلة.. أتريد ذلك حقًا؟

ارتبك هو، إذ شعر بأن خطته الخفية بجرها إلى السكر انكشفت، فابتسم بارتباك قائلا:

- اعترف إنك امرأة رائعة الجمال، وأنا أريد أن تكون هذه الليلة ليلة تعارف استثنائي مع امرأة استئثنائية..!

أعجبها دفاعه الجريء وصراحته وابتسمت له ففهم هو رد فعلها هذا وكأنه جواب وموافقة بخصوصية هذه الليلة، لكنها علقت على كلامه:

- هل أنت معتاد على ارتشاف الفودكا في جرعة واحدة..!

- سأجرّب..

- خذ قطعة خبز إذن وتشممها مباشرة.

أخذ شريحة من الخبز الأسمر وقال:

- بصحتك

- بصحتك.

مرت بحدود نصف الدقيقة ما بين ارتشاف الفودكا وتشمم الخبز، لكنه شعر بأن الدم يصعد إلى رأسه والخدر يجتاح جسده واسترخاء في أعصابه وبهجة للإنطلاق، وانتبه إلى أنها ربما تشعر مثله، فقد بدت منتشية.

أشار هو إلى النادل الذي كان ينظر إليهما رافعا القدح الفارغ فعرف النادل بأن يطلب كأسين آخرين. هزّ له رأسه مبتسما وبما يشير بأنه فهم طلبه. نظرت إيفا فيليبوفنا بوشكينا إليه وكأنها تدرسه وقالت:

- الشرب السريع يكون مفعوله مضاعفًا. لا نشرب سوى كأس أخرى.. ونغادر..

أحس بعدم رضا من كلامها لكنه كتم ذلك، إذ أحس بأن خطته في تمضية الليل معها قد فشلت، وأراد أن يستبقيها قدر المستطاع فسألها:

- أحب أن أتعرف عليك أكثر. حدثيني عن نفسك.

ابتسمت له وقالت:

- ليس عندي شيء خاص لأقوله، فكل ما يخصني موجود في السيرة الذاتية المكثفة التي تعرفها من خلال رسالة الدكتور آدم شوبيرت، حيث أرسل كل منا سيرته التعريفية، وهو أرسل نبذة مكثفة عن سيرنا لكل منّا. أنت هل لديك شيء خاص آخر غير سيرتك العلمية.. نعم، أنا نسيت أنك كاتب ومن المؤكد لديك سيرة أخرى غير السيرة الأكاديمية..! أليس كذلك..!.

لا يعرف من أين هبطت عليه الكآبة، ربما أحس أنها ليست سهلة، وأنه خاسر أمامها، فقال بحزن:

- أنا إنسان منكود. حياتي متاهة. وكل مَن أعرفهم ليسوا سوى أرواح تائهة ومنسية في متاهة.. أحيانا أرى وجه أمي يدعوني بأن أكون قويًا، لكني لستُ كذلك، أنا أكثر جبنًا من أن أكون قويًا. إنني أتشبّث بهذه الحياة، بهذا الحضيض الذي نسميه الحياة، حياة أشبه بحياة الخنازير، ومع ذلك نحرص على هذه الحياة الحيوانية. لديّ ابنة وحيدة. تحب رجلًا أكبر مني بالعمر، وتفضله على الشباب الذين حولها. كل حديثي معها ونصائحي بلا فائدة. تصوري هي تقبل بتعاسة الانتظار ما دام هو موجود في هذه الدنيا. كم أحتاج من العقل كي أمنح جنوني شيئًا من الحكمة.

قاطعه مجيء النادل بكأسي الفودكا. وما أن غادر حتى أخذ الكأس ليقول نخبا. انتبهت هي إلى أنها نكأت جراحه، فتعاطفت معه، وتسرب بعض الحزن إلى نفسها. رفع كأسه قائلا:

- أتعرفين.. من الصعب أن يكون المرء صادقًا على الدوام، لكني كنت أحيانًا أجد لذة في الفضول، نعم في الفضول. المهم، دعينا عن كل هذا ولنشرب في صحة الخيبات، والمتاهات، والعدم العظيم.

جارته في حالته وارتشفت شيئا من كأسها وقالت:

- يبدو أنني أيقظت أحزانك..

- حزني لا ينام كي توقظيه..

- كل منا لديه أحزانه وهمومه الشخصية، وربما لو حدثتك عن نفسي لرأيت أن وضعك أدنى حزنا من وضعي. عموما دعنا نغادر.

أشار هو إلى النادل فجاء إليهما. أخبره بأن يسجل كل المشروبات على رقم غرفته، وبينما النادل يعد الفاتورة رفعا كأسيهما وارتشفا ما تبقى من فودكا. جاء النادل بالفاتورة والمدوّن فيها رقم الغرفة، وقعها، وغادرا البار. كانا يتمايلان بشكل خفيف جدًا. عند باب المصعد سألها عن طابقها فقالت التاسع. دخلا المصعد.

حين وصلا الطابق التاسع كانت هي تتمايل بشكل أكثر وضوحا منه. وفي حركة تمايل منها مسكها هو، فصارت في حضنه.. ومشيا. كانت غرفتها مقابل غرفته. أحس بحرارة جسدها. وبشكل مباغت أراد أن يقبلها، فدفعته عنها. وقالت: تصبح على خير.

شعر هو بالخجل من تصرفه. استدار وفتح باب غرفته بالبطاقة البلاستيكية. وقبل أن يدخل إلى غرفته التفت إليها قائلًا: «أنا أعتذر.. تصبحين على خير». أجابت بتسامح: «لا شيء مهم، أنت سكرت، عليك أن تنام فورا». ودخلت غرفتها وأغلقت الباب من الداخل. ودخل هو غرفته.

حين صار في غرفته. أحس برغبة في أن يفتح اللابتوب ويواصل كتابة روايته.

فكر أنه في آخر فصل كتبه ذكر كيف أن آدم العليل استلقى على السرير ثم نهض بعدها ليواصل الكتابة.

* * *

حين دخل صباحًا إلى قاعة المطعم واجهته إيفا فيليبوفنا بوشكينا وهي تؤشر له بأنها موجودة. اقترب منها محاولا أن يبدو وكأن أي شيء لم يحدث

بينهما. انتبه إلى أنها بدت أكثر جمالا مما كانت عليه ليلة البارحة وأكثر أناقة. ألقى عليها تحية الصباح بلطف واستحياء. وضع هاتفه على الطاولة. ومضى إلى البوفيه المفتوح.

حين عاد وجلس على كرسيه في الجهة المقابلة لها سألته:

- كيف نمت..؟

- لا أعرف. صحوت وعندي صداع. يبدو أنه من الفودكا التي شربناها البارحة..

- نعم.. هذا صحيح.. الفودكا تخلف صداعًا عند الاستيقاظ والروس يعالجون هذا الصداع أما بجرعة من الفودكا أو بقنينة بيرة..!

ابتسم آدم الأثري وقال:

- انتم الروس شعب غريب. في الأعراس تشربون وفي المآتم تشربون، بل وتدارون صداع الشرب بالشرب أيضًا!.

ابتسمت له ابتسامة أذهلته، وقالت بطيبة:

- ومع ذلك.. فهذا الشعب الذي يشرب الفودكا في الأعراس وفي المآتم ويداري الشرب بالشرب قد حطّم النازية ووصل جيشه إلى برلين ليدّك السقف على رأس هتلر ويدفعه للانتحار. هذا الشعب الذي أنجب بوشكين وليرمنتوف وتيشخوف، ودستويفسكي، ليف تولستوي، وتورغينف، وكوبرين، أندرييف، غوركي، وسلوفيوف وتوتجيف، العشرات غيرهم.

هزّ رأسه موافقًا وقال:

- كلهم قرأتهم بالعربية.. إلّا الاسمين الأخيرين لم اسمع بهما..!

- من تقصد..؟ سلوفيوف وتوتجيف!!

- نعم..

- أوه.. سلوفيوف فيلسوف أقرب للمتصوفة، لديه كتاب رائع اسمه «فلسفة الحب»، أما توتيجف فهو شاعر كبير. هل تعرف أنه أحبّ شاعر إلى ليف تولستوي. أنت تعرف أن تولستوي في آخر عمره صار

بيته مزارا يتوجه إليه الزوار كما يحج الناس إلى الأماكن المقدسة، وكان الناس يهابون سؤاله عن أشيائه الخاصة، وكان هو يعرف ذلك، لذا لتواضعه العظيم كان يبادر بنفسه للبوح، فيقول مثلًا: «هل تعرفون من هو الشاعر الذي أحبه؟». طبعا ينتظر الآخرون اسم الشاعر الذي يحبه هذا الكاتب العظيم، وفي أذهان الجميع أنه سيسمي ألكساندر بوشكين، جدي الأكبر، لكنه يقول لهم: إنه توتجيف..!

- مع الأسف لم نسمع بهما ولم تترجم أعمالهما إلى العربية. سأسعى أن أحصل عليها بالإنكليزية..!

- لن تخسر فكلاهما ممتع، احدهما فيلسوف عميق للذات الإنسانية والآخر من عمالقة الرومانسية في الشعر الروسي..!

كان آدم الأثري يتأسف أنه البارحة لم يستطع غواية هذه الأنثى المثيرة، وعليه أن يسعى ما استطاع اليوم إلى ذلك سبيلا، ولا يدري كيف فلت منه السؤال فقال:

- أرجو أنني لم أزعجتك ليلة البارحة..!؟

نظرت إليه نظرة مغرية وقالت:

- لا أبدًا.. لكنك مع الكأس الثالثة كنت حزينًا. في داخلك طفل يحتاج إلى الحنان!، كما شاكستني قليلًا كما يشاكس أي طفل كبير..!

أدرك هو إلى محاولته احتضانها وتقبيلها، فارتبك وقال:

- لا أعرف ماذا قلت، لكنني أدعوك الليلة إلى سهرة أفضل، وأتمنى ألّا ترفضي.

نظرت إليه وكأنها تريد أن تعرف ما وراء دعوته، وبعد لحظات قالت:

- ولماذا أرفض.. أنت رجل لطيف، ومهذب، وجنتلمان، لذا أقبل دعوتك بككل سرور، بعدما نرجع الليلة إلى الفندق سنواصل سهرتنا، فمن المؤكد أنهم سيدعونا إلى العشاء الجماعي كما البارحة..!

- اتفقنا.

في تلك اللحظات انتبهت هي إلى الدكتور آدم شوبيرت وهو يدخل المطعم فقالت:

- ها هو الدكتور شوبيرت قد وصل.

كانت هي قد انهت فطورها أما هو فقد كان يشرب القهوة. في تلك اللحظات وصل الدكتور شوبيرت إلى طاولتهما. ألقى التحية عليهما. فسألته إيفا فيليبوفنا بوشكينا عن زوجته، فأجاب بأنها في البيت معتكفة على كتابها الأخير، وستكون موجودة في المساء على العشاء.

استعجل آدم الأثري في شرب قهوته. وبعد لحظات غادروا المطعم.

* * *

في قاعة دراسية حديثة تابعة لأحد معاهد جامعة برلين الحرة في (إيمانويل كانت شتراسة) كان الجميع في نقاش علمي حول الألواح السومرية القديمة التي وجدت في مخزن وأرشيف «متحف بيرغامون» التاريخي في برلين.

كانوا في نقاش جاد ومنظّم، إذ كانت هناك شاشة عريضة تضيء كاشفة عن أحد الألواح المكتوبة بالخط المسماري. وكانوا على وشك أعلن استراحة الغذاء حينما دخلت السكرتيرة الأنيقة وهي في ثوب أسود يحدد معالم جسدها معلنة بأن البوفية جاهز في القاعة المجاورة.

وعلى الرغم من اختلاف التفسيرات التاريخية حول الحقبة من الحضارة السومرية التي كتبت فيها هذه الألواح لكن من خلال معرفتهم باللغة المسمارية السومرية فقد تم تهجي أسطر بسيطة جدًا من الألواح، إذ كان كل لوح معنوان باسم أحد آلهة سومر السبعة. لكنهم اختلفوا في الكلمة الأولى التي تتكرر في عنوان كل الألواح، واتفقوا على أن تكون الكلمة الأولى المشتركة موضوع الندوة لليوم التالي.

في قاعة الطعام المجاورة كانت ثمة طاولة صُفت عليها أنواع مختلفة من الطعام والمشروبات والصحون، وفي وسط القاعة ثمة مائدة طعام كيبرة حولها الكراسي.

حرص آدم الأثري أن يجلس إلى جنب إيفا فيليبوفنا بوشكينا بينما جلس الدكتور آدم شوبيرت على رأس المائدة وإلى جانبه على الجهة المقابلة لآدم الأثري جلست السكرتيرة. كان آدم الأثري جائعًا لذا كان يأكل بشهية واضحة

لاسيما وأن الطعام كان شرقيًا حيث جاءوا بأنواع محتلفة كصينية للرز وأخرى للفاصوليا وثالثة للمشويات من كباب وقطع من لحم الديك الهندي، إلى جانب الفطائر وعلب العصائر.

فجأة قال الدكتور آدم شوبيرت موجها كلامه لآدم الأثري:

- إشارتك اليوم إلى مجمع الآلهة السومرية ساعدتنا كثيرًا ووفّرت علينا الكثير من التشعّبات والوقت.

- شكرًا.

أجاب آدم الأثري بخجل، فهو يخجل من المديح مهما كان بسيطا للإشادة بعلمه أو جهده. وفي تلك اللحظة أيّدت إيفا فيليبوفنا بوشكينا كلام الدكتور آدم شوبيرت قائلة:

- هذه حقيقة. أنا شخصيًا توصلت إلى الأسماء لكن لم أربطها بهذا الوضوح، بأن هذه هي أسماء مجمع الآلهة السومرية كما أثبت لنا الأستاذ الأثري.

في تلك اللحظة لا يدري آدم الأثري كيف واتته الجرأة حين مال إليها وقال لها:

- شكرًا لك، لكن لو توفري لي بعض هذا المديح حين نسهر الليلة.

ابتسمت له ونظرت إليه نظرة رقيقة خاصة وقالت:

- لو كان هذا يهمك سأغرقك بالمديح..

- سنرى..

كانت السكرتيرة هي الوحيدة التي ركّزت على تهامس آدم الأثري مع إيفا فيليبوفنا بوشكينا، بينما انشغل الدكتور آدم شوبيرت مع بقية الضيوف، إذ كان الضيف البريطاني يتحدث لزملائه عن حفديته التي سجلّها في مدرسة داخلية متحدثا عن امتيازات مثل هذه المدارس. وكان الآخران يستمعان له ويعلقان على صحة هذا الرأي لكنهما استكثرا الدفوعات السنوية لمثل هذه المدارس الخاصة، فشاركهم الدكتور آدم شوبيرت بالحديث عن ابنه البالغ من العمر تسع سنوات والذي تم وضعه في مدرسة داخلية بجنوب ألمانيا، وأخذ يمتدح مثل هذه المدارس.

بعد أربعين دقيقة أعلن الدكتور آدم شوبيرت بأنه يدعو الجميع هذا المساء إلى العشاء في مطعم آخر، وإذا كان مطعم الأمس يعجبهم فيمكنهم تكرار ذلك، وفجأة، سأل آدم الأثري مازحًا:

- هل سيكون هناك رقص شرقي..؟

ضحك الجميع، وكأنه ألقى نكتة، إلّا أن السكرتيرة أجابت بأن نهاية الأسبوع دائما تكون هناك وصلة رقص شرقي، وليس كل أيام الأسبوع، وإذا كان الأمر يعجبكم فيمكننا أن نكرر الأمر، فأيدها الضيفان البلجيكي والبريطاني بأن الطعام كان لذيذًا، أما الفرنسي فأبدى اعجابه بالمقبلات والحلويات الغريبة.. واتفقوا بأنهم لا مانع لديهم بأن يتناولوا لعشاء ثانية في المطعم العربي.

***

في مطعم «مروش» كانت المائدة عامرة مرة أخرى، بل وكانت هي المائدة نفسها التي جلسوا حولها أمس. تكررت أطباق المقبلات والطعام، مع إضافة أصناف أخرى، ولم يختلف سوى ثياب السيدة إيفا شوبيرت التي بدت أكثر أناقة بثوي أزرق قاتم اللون مفتوح بشق طويل من ناحية الساق اليسرى، وثياب السكرتيرة التي كانت في ثوب أسود لكنه طويل حتى القدمين ومغلق حتى الرقبة ويكشف عن جزء من ساقيها من خلال فتحة جانبية، ما منحها إثارة خاصة، أما الرجال فمنهم من غير ثيابه ومنهم من لبس بدلة رسمية مع ربط عنق تشبه الفراشة. إيفا فيليبوفنا بوشكينا جاءت بالثياب نفسها التي كانت تلبسها في الندوة. كان الجميع قد جلسوا وفق التوزيع الذي جلسوا عليه في المرة السابقة وكأنهم لم يغادروا المائدة منذ الأمس.

جلوس إيفا شوبيرت إلى جانب آدم الأثري مرة أخرى أثار انتباه السكرتيرة أكثر من المرة السابقة، فقد كانت لا تستطيع ألّا تلقي نظرات الانتباه الخاصة إليهما، لكن لم ينتبه لها إلّا آدم الأثري.

فجأة وعلى غير توقع وجه الضيف آدم الفرنسي سؤالا إلى السيدة إيفا شوبيرت قائلا:

- حدثني الدكتور شوبيرت عن مؤلفاتك وذكر أن لديك كتاب عن المحلل النفساني الفرنسي الفرويدي جاك لاكان، أليس كذلك؟

توقف الجميع ووجهوا الانتباه لهما. فوجئت السيدة إيفا شوبيرت بالسؤال، وحينما انتبهت إلى وجوه الآخرين المتسائلة أجابت بعد لحظات

قائلة:

- نعم هذا صحيح، وهو من كتبي الأولى..

- وما الذي دفعك إلى تأليف كتاب عن فرنسي من أتباع فرويد..!؟

كانت السيدة إيفا شوبيرت محطّ أنظار الجميع بمن فيهم زوجها الذي كان ينتظر بتوتر إجابة زوجته، بينما نظراته تلتقي بنظرات سكرتيرته. وبهدوء وبثقة أجابت السيدة شوبيرت قائلة:

- الحقيقة أن لاكان قرّب التحليل النفسي من الفلسفة، لاسيما حينما توقف بعمق عند إشكالية العبد والسيد عند هيغل، والتي بحثها جاك لاكان بعمق موضحًا أن علاقة العبد والسيد قائمة على رغبة الإنسان في اعتراف الآخر به، ولكي يتمّ للذات الاعتراف بها، فهي بحاجة لأن تفرض نفسها أو تصوّرها على الآخر، ومن هنا فأن البشر يتناحرون بشكل أخلاقي أو سياسي أو اجتماعي من أجل انتزاع الاعتراف من الآخر والحصول على الهيبة! ومن ينسحب من هذا الصراع متخليا عن رغبته في الاعتراف فأنه بذلك يقر بعبوديته، وبالتالي فأن المجتمع الانساني هو في النهاية موافقة مليارات البشر على عبوديتهم، فلا وجود لمجتمع كله سادة. هذه الرؤية كانت قد أثارت فضولي، لكن هناك ما هو أهم عند جاك لاكان ألا وهو مسألة اكتشاف الذات أو ما سمُيّ حينها ب«مرحلة المرآة»، وكذلك ما قام به من كشوفات وإضافات حينما درس ما أطلق عليه «بارانويا العقاب الذاتي» من خلال حكاية المرأة «إيمي».. والحقيقة هي امرأة حاولت اغتيال ممثلة فرنسية مشهورة، وسُجنت، وفي السجن كتبت رواية اسمها «إيمي».. وهذا كان منطلقي للغوص في فكر جاك لاكان..!

- هائل.. لقد قرأت له الكثير من كتاباته التي صدرت في «السيمينار» الذي ضم معظم كتاباته. شوقتني لقراءة كتابك عنه. علّق آدم الفرنسي.

- وعمّن تكتبين الآن سيدة شوبيرت؟ سأل الضيف آدم البلجيكي.

كان الجميع ينصتون لها معجبين بحديثها عن جاك لاكان، وها هم ينتظرون إجابتها عن السؤال الثاني. شعرت هي ببعض الحرج فهي لم تشأ أن تكشف عن عملها الحالي، لكنها وجدت نفسها مضطرة للإجابة فقالت:

- أكتب عن إشكالية الخالق عند علماء الفضاء، والتجاذب بين العلم والفلسفة واقترابهما إلى حدود الميتافيزياء، وسأتوقف عند طروحات ستيفن هوكينغ..

- واو. أطلق آدم الأثري صرخة إعجاب.

التفت الجميع إليه، فأحس بالحرج، فقال مبررًا:

- الحقيقة أنا معتكف في روايتي الأخيرة «متاهة العدم العظيم» على مفهوم الله، الخالق البارئ القدير، أو ما يمكن تسميته بالعدم العظيم، وذلك من خلال شخصية أساسية هي آدم الأكويني، تيمّنا بالقديس المفكر توما الأكويني..!

كانت السيدة إيفا شوبيرت تشعر بالإمتنان الداخلي له لأنه شوش التركيز عليها، فهي تعرف أن وجهها كثير التجاعيد، ولا يتناسب مع عمرها ولا مع فتوة جسدها المثير، لذا تشعر بالحرج كلما صار تركيز الأعين على وجهها، وها هو قد نقل انتباههم من وجهها إليه فالجميع الآن ينظرون إليه، بل هي أيضا قد أثار فضولها، فسألته:

- وما ترى أنت أو بطلك الروائي..؟

- إنه يرى، بأن من قال إنه عرفه ورآه فما رأى، وما عرف. كل المعرفة الإنسانية تنتقل إلينا عن طريق الحواس حيث تتحول إلى معرفة مفاهيمية وأيضا عن طريق الحدسي الوجداني والصوفي، وبالتالي إن الله ليس مرئيا أو كما يقول أحد المتصوفة بأن الخالق قد سبق الوجود وأوجد الوجود، وبالتالي لا يمكن تجسده كوجود. أي من الناحية العلمية كما يقول العلم قد سبق الانفجار العظيم، أو كما تقول الأديان بأنه خلق السماوات والأرض، أي هو «موجود قبل الوجود» لكنه ليس هذا الوجود، وانما بمعنى «وجود» سبق الخلق والانفجار وسبق هذا الوجود الذي نعرفه وندركه. لذا هو وحده الظاهر لنفسه، والباطن عن نفسه، وأنه موجود في كل الوجود، وأن الوجود أحد تجليّات وجوده، فهو العدم الذي يتخلل الوجود ويبث الحياة والحركة فيه وأوجده بإرادته، أي أن الوجود مرآة لهذا العدم. ومن هنا فأن الديانات القديمة، والتي تسمى جزافا بالديانات الوثنية، هي أكثر قربًا من القدير والخالق من الديانات الإبراهيمية التي تفصل الخالق عن الوجود، فالهندوسية مثلا ترى في كل شيء حياة وقدرة، فتسمي

له إلهًا، وكذا الديانة السومرية القديمة، التي ترى الآلهة في كل شيء، لذا سمّت إلها لكل شيء.

وبين انتباه وشرود الضيوف علّقت إيفا إيفانوفنا بوشكينا قائلة:

- هذا دقيق جدًا، فالديانة السومرية القديمة قريبة لحد ما من الهندوسية..!.

فجأة قال الضيف آدم البريطاني بنبرة مازحة:

- من هنا قرأت أنه بعد انتفاضة الجنوب في العراق بعد الانسحاب من الكويت إن انبرى بعض كتاب السلطة للطعن في أصول المنتفضين بأنهم جاءوا من الهند..! وحينها ولا يزال هناك من يرد بحماس رافضا ذلك معتبرًا إياه شتيمة، لكن لو تأملوا الوقائع التاريخية والمقارنات الانثربولوجية لوجدوا أن الأمر صحيح لحد ما، وهو ليس بشتيمة أبدًا.

أحسّت السكرتيرة بغيرة تجتاحها فقد تركز الانتباه على السيدة شوبيرت، والآن على السيد آدم الأثري، ولا أحد ينظر نحوها وكأنها منسية، فقالت فجأة، لاشعوريًا، لتشتت الانتباه:

- قبل أن نذهب، أرجوكم أطلبوا الدورة الأخيرة من المشروبات..!

استغرب الجميع هذه المقاطعة، فسكتوا للحظات، فبادرت إيفا فيليبوفنا بوشكينا قائلة:

- أنا أريد كأسا من الفودكا مع الليمون..!

- وأنا أيضا.. قال آدم الأثري

وتوالت الطلبات ما بين البيرة والنبيذ، لكن المفاجأة بالنسبة لهم كانت حينما طلب آدم الأثري الفودكا. حينها انحنت نحوه السيدة إيفا شوبيرت وسألته أن كان حقا قادر على أن يشرب الفودكا بعد النبيذ، فابتسم لها وقال: ليكن ما يكن.

* * *

حين دخلا إلى باحة الفندق قالت إيفا فيليبوفنا بوشكينا لآدم الأثري بأنها ستصعد إلى غرفتها وتعود، إذ عليها أن تغير ملابسها. ارتبك هو قليلا، وقال لها

بأنه سينتظرها في البار، وحين اتجهت نحو المصعد ظل يتابعها بنظراته، وانتبه إلى أنها مسترخية الجسد في مشيتها.

كان البار فارغا من الرواد. استغرب الأمر. ظن أول وهلة أنه ليس وقت افتتاحه، لكنه رأى النادل يبتسم له. دخل وتوجه إلى طاولة مخصصة لأكثر من شخص في عمق القاعة. جاء النادل وسأله إن كان حضرته لوحده، فقال لا، فثمة شخص آخر سيأتي، وطلب منه أن يأتي بكل ما لديهم من مقبلات وفواكه، مع قنينة فودكا. وظل ينتظر.

مرت ربع ساعة وهي لم تأت. ولكي لا يفتح قنينة الفودكا طلب كأس بيرة. ولم تمض سوى دقائق حتى طلب كأسًا أخرى. كان التوتر والنرفزة يتصاعدان في داخله. انتبه لقلّة صبره ولرغبته الشديدة في أن يكون مع هذه المرأة الغامضة.

وبعد مرور نصف ساعة أحس بأنه في حالة أشبه بالسكر، ولم يطق أن يصبر أكثر، ففتح قنينة الفودكا وصب لنفسه كأسًا، وحينها انتبه إلى أن المائدة تخلو من شرائح الخبز الأسمر، فأشار إلى النادل، وطلب منه شرائح الخبز، فقال له بأنه سيأتي بها من المطعم.

مع كأس الفودكا دخل آدم الأثري بمرحلة السكر الأولى. كان النادل ينظر إليه من بعيد وكأنه ينتظر إشارة منه. استغرب آدم الأثري بأنه لا أحد في البار غيره ولم يقبل أحد قط على الرغم من مرور الوقت، فأشار إلى النادل الذي جاءه مسرعًا، فسأله عن سرّ خلو البار من الرواد، فقال له بأنها ليلته الخاصة..!. ولم يفهم كلامه.

كان في البداية غاضبًا من تأخر إيفا فيليبوفنا بوشكينا، لكنه كلما توغل في الشرب كلما خف غضبه، وصار لامباليًا. انتبه إلى أنه شرب ربع القنينة، لكنه الآن يحس بنشاط وحيوية وكأنه لم يشرب شيئًا.

فجأة دخل البار رجل بملابس غريبة. اصهب الشعر ذو لحية صهباء تميل إلى الشقرة. أحس أنه يعرف هذا الرجل لكن لا يتذكر بالضبط أين رآه. تقدم الرجل نحوه. ارتبك هو. إلاّ إن الرجل توقف عند الطاولة الصغيرة التي أمامه عند الزاوية وجلس على كرسي حولها دون أن يشير إلى النادل أو يطلب شيئًا. كان الرجل متوترا وقلقا ولا ينظر لأحد وكأنه يحدث نفسه.

انشغل آدم الأثري بالنظر لذلك الرجل وهو يحاول أن يعصر ذاكرته الثملة بالتعرف عليه. في تلك اللحظة أطلّت إيفا فيليبوفنا بوشكينا وهي تجتاز

البار. كانت في ملابس مختلفة وغريبة وكأنها امرأة من القرن التاسع عشر، امرأة ارستقراطية أنيقة.

ومنذ لحظة دخولها انتبهت هي للرجل الجالس وحيدًا، مهمومًا، ومتوترًا، وشاحبًا وكأنه يعاني من وضع نفسي وصحي سيء.

ما إن اقتربت إيفا فيليبوفنا بوشكينا من طاولة الرجل الغامض حتى رفع رأسه إليها، وفتح عينيه مرعوبًا من هول الدهشة وصاح:

- ناستاسيا فيليبوفنا.

ثم انطلقت منه صرخة حيوانية هائلة، وسقط على الأرض يتلوى ويرتجف والزبد يخرج من فمه. أسرع النادل وإيفا فيليبوفنا بوشكينا إليه، وقام آدم الأثري واقفًا، لكنه تجمد في مكانه مرعوبًا. قام النادل بلف منشفة بيضاء حول ملعقة كبيرة وفتح فم الرجل المصروع، ووضعها بين فكيه، بينما قبضت إيفا فيليبوفنا على ذراعيه بقوة شديدة. وعلى غير توقع دخل رجلان إلى البار راكضين إلى حيث يرتعش الرجل المصروع ومسكوه من رجليه بقوة، ثم أشار أحدهم لإيفا فيليبوفنا بوشكينا وكأنه يعرفها قائلا:

- ناستاسيا فيليبوفنا، تنحّي قليلا رجاءً كي نمسك نحن أنا والأمير ميشكين بذراعيه ثم لننقله إلى غرفته في هذا الفندق الغامض».

- حسنا يا راغوجين..

فتنحت هي جانبًا. وفي تلك اللحظة بالذات تكشّف كل شيء في ذهن آدم الأثري، فالرجل هو الكاتب الروسي فيودور دستويفسكي، وأن هذه المرأة ليست إيفا فيليبوفنا بوشكينا، وأنما هي ناستاسيا فيليبوفنا بطلة روايته الخالدة «الأبله».. وهذا الرجلان هما الأمير ميشكين والقاتل راغوجين، العاشق المجنون.

وفي تلك اللحظات بالذات سمع آدم الأثري صوتا يقول له:

- هل أنت بخير؟

التفت ناحية الصوت فرأى وجه امرأة مليئًا بالتجاعيد يحدثه، فعرف أنها السيدة إيفا شوبيرت، وأدرك أنه لا يزال على كرسيه حول المائدة في المطعم العربي ببرلين، وأن إيفا فيليبوفنا بوشكينا مشغولة بالحديث مع آدم الفرنسي الذي يجلس إلى جانبها، وثمة نظرات مكشوفة وعلنية بين السكرتيرة إيفا والدكتور المرتبك آدم شوبيرت.

استغرب آدم الأثري وظل في حيرة لدقيقة من الوقت، ولم يكن يعرف هل هو في الفندق ويحلم بأنه أفاق في المطعم العربي، أو أنه لا يزال في المطعم وحلم بأنه في بار الفندق. وانتبه إلى أنه لم يعد يبالي بإيفا فيليبوفنا بوشكينا ولا بالضيوف الجالسين، وبحركة متهورة مدّ يده اليمنى من تحت غطاء المائدة إلى الفتحة الجانبية في ثوب السيدة إيفا شوبيرت ومسك فخذها. فزّت هي من هذه الحركة، لكنها لم تفعل شيئًا مضادًا كي لا تثير الانتباه والفضيحة، فصعد بكفه إلى ما بين فخذيها وأدخل أصبعه من تحت سروالها الخفيف الذي بالكاد كان يغطي شيئًا، فمسكتْ كفه، وبهدوء أبعدتها ووضعهتا على ساقه من دون أن ينتبه أحد لما جرى، فمال إليها وهمس في أذنها وأنفاسه تمس شحمة أذنها قائلا: «أريد أن.. أريد أن.. أريد..» ولم يكمل جملته، فنظرت إليه مندهشة من جرأته لأنها أدركت الجملة كاملة والكلمة التي لم تُقال، وأرادت أن تتأكد من حالته، هل هو صاح ويغطي رغبته بالسكر، أم هو سكران ولا يدرك ما يقول، واحتارت في ذلك، فنظراته تشي بأنه يقصد ما يقول، وملامح وجهه تشي بالسكر. وفجأة، نهضت عن كرسيها. توجهت نحو الحمّام. في تلك اللحظة نظرت السكرتيرة إيفا إلى آدم الأثري، وكأنها تتوقع أنه سيتبعها إلى الحمّام، لكنه كان مكتئبًا وحزينًا وتائه النظرات.

فجأة، أعلنت السكرتيرة عن انتهاء جلسة العشاء عندما قامت بمحاسبة موظف الخدمة في المطعم. وحين أطلت السيدة إيفا شوبيرت من جهة الحمّام فوجئت بأنهم يغادرون المائدة، فتوجهت إلى خارج المطعم أيضا.

* * *

عند باب الفندق كان آدم الأثري ثملا. صحيح أنه متماسك في وقفته، لكن ملامح الثمالة كانت بادية عليه، على العكس من إيفا فليبوفنا بوشكينا التي كانت منتشية، لكنها كانت واعية لوضعها.

أراد الدكتور آدم شوبيرت وزوجته أن يرافقا آدم الأثري إلى غرفته نظرًا لحالته دون أن يشعراه بذلك، إلا أنه رفض ذلك، وغمرته حالة من العواطف الشرقية، فشكرهما على اهتمامهما، واحتضنهما مودعًا، فتأكدا من أنه ثمل، بينما قالت إيفا فيليبوفنا بوشكينا لهما بأنها ستكون معه وستوصله بنفسها إلى غرفته. أكّد الدكتور شوبيرت بأنه سيمر عليهما في الموعد نفسه لحضور الجلسة الختامية للندوة، وسألها عن موعد طائرتها بالضبط، فقالت بأنها ستغادر الساعة التاسعة من مساء الغد.

* * *

في المصعد كانت إيفا فيليبوفنا بوشكينا تداريه كطفلها الحبيب. كانت قد لمحته حينما طلب الفودكا، ولم تود أن تمنعه عن ذلك وهم حول المائدة وأمام الآخرين، لأنها تعرف تأثير الفودكا على من لم يتعود شربها. فجأة، مدّ ذراعيه إليها وهو يقول بصوت ثمل:

- أهلا بك يا ناستاسيا فيليبوفنا. لم أكن أعرف أنك هي، فأنا أعشقك منذ مراهقتي وقرائتي الأولى لرواية «الأبله» دستويفسكي.

ابتسمت له. لم تشأ أن تناقشه، وأنما قالت بنبرة هادئة ودودة:

- إهدأ يا صغيري. كل شيء سيكون على ما يرام.

حين صارا في الممر أراد أن يقبّلها، فسحبت نفسها وقادته إلى حيث غرفتيهما. كانت هي منتشية أيضا، لكنه على الرغم من سكره فقد كان من القوة بحيث إنه ضغط بها على الجدار عند باب غرفتها وأخذ يقبل رقبتها ووجهها بينما كانت هي تتجنب قبلة الشفاه. كانت هي منتشية بحركاته، ولكي تتخلص من الوضع الذي هما فيه استدارات له بظهرها وهي تفتح باب غرفتها، فاحتضنها من الخلف ويده تعصر نهديها وتمتد للأسفل.

وحين صارا في الغرفة جرّته إلى السرير وهي تقول له:

- أثبت لي رجولتك أيها الرجل الوسيم. تعال اخترقني، حطّمني، كسر عظامي، املأني بمائك فصحرائي عطشى. فكك رموز جسدي، أنا عاهرتك المقدسة وأنت عاشقي وكاهني المجنون.

تجردت كالمجنونة وهي تنزع ثيابها. تخلت عن وقارها المعهود. بل وأخذت تنزعه ثيابه، وتقبله من شفتيه وكأنها تلتهمه، وهبطت تقبل صدرة وفتحت بنطاله ونزعته عن ساقيه وهي تجره إلى السرير، وهي تقول بشبق: «هنا عليك أن تكتشف حقيقتي وحقيقتك. اكشف عن طبيعة البشر، أنت آدم وأنا إيفا».

* * *

أفاق آدم الأثري فجأة فوجد نفسه وهو يحتضن إيفا فيليبوفنا بوشكينا وهي عارية بالكامل في أحضانه. تأمل جسدها المثير. لم يتذكر شيئًا واضحًا عمّا جرى، وبهدوء انسلّ خفية من السرير. رأى ملابسهما متناثرة على الأرض. أخذ ثيابه بخفة شديدة. ولا يدري لماذا أخذ سروالها الأسود المخرم بورود سود، وغادر الغرفة بهدوء دون أن يثير أيّما ضجة.

دخل غرفته وهو يتشمم السروال بنشوة. وضع السروال الأسود الشفيف في الجارور الذي في الطاولة حيث اللابيتوب. توجه إلى الحمّام ودخل تحت الدش. غمره الماء الدافئ. وانهمرت مشاهد ما جرى من جلسة المطعم، وما جرى من مشاهد غامضة ومتداخلة، لكن مشاهد جسدها المفتوح أمامه كانت هي المهيمنة والواضحة الرغم من تلاحقها السريع وعدم ثباتها.

* * *

انهى آدم الأثري فطوره، وجاء الدكتور آدم شوبيرت، بينما إيفا فيليبوفنا بوشكينا لم تظهر بعد. سأل الدكتور آدم شوبيرت عنها فأجابه بأنها لم تنزل من غرفتها. غادرا قاعة الطعام. وفي اللوبي اتصل الدكتور آدم شوبيرت من تليفون الاستعلامات بغرفتها، ثم عاد قائلا له بأنها تشعر بصداع قوي جدًا، وربما ستأتي في ما بعد.

وهذا ما حصل فعلًا، فلم يكونوا قد بدأوا بالمناقشة الجدية حتى أطلّت عليهما في القاعة وهي في كامل أناقتها وحيويتها. ألقت التحية عليهما، وتحدثت مع آدم الأثري مازحة بأنه ربما كان روسيًا في حياة سابقة، فهو يشرب الفودكا كأي روسي، وضحكوا لهذا المزاح اللطيف.

* * *

في القاعة نفسها واصلوا الجلسة الأخيرة لندوتهم. فما توصلوا إليه كان ملفتًا. فقد كانت الكلمة التي تتكرر في جميع الألواح هي كلمة صاغها لهم آدم الأثري بلفظ»المتاهة«، وأشار لهم بأن لكل أمة وحضارة مفهومها عن المتاهة، فهيرودت يتحدث عن المتاهة المصرية التي كانت بالقرب من مدينة التماسيح، والهنود أيضا لهم متاهتهم، ويبدو أن للسومرين متاهتهم أيضًا. واتفق الجميع بأن الألواح حسب تسلسلها تكون كالتالي: متاهة نمو Namu البحر الأزلي، متاهة أن AN إله السماء، متاهة كي KI أو GI آلهة الأرض، متاهة أنليل AN - LIL إله الهواء، متاهة أنكي AN-KI إله الماء، متاهة نانا NANA إله القمر، متاهة أوتو UTO إله الشمس، متاهة أنانا ENANA آلهة الحب والجمال وآلهة كوكب الزهرة، متاهة كلكامش Gilgamesh، متاهة أتونوبشتم Utnapishtim الإنسان الخالد.

وفي نهاية الندوة شكر الدكتور آدم شوبيرت المدعوين على تلبية الدعوة، وأكد لهم بأن نتائج هذا العمل ستكون معدّة في كتاب وسيعلن عن النتائج التي توصلوا إليها في مؤتمر علمي قريب، وستتم دعوتهما مرة أخرى، وأعلن انتهاء الندوة، ثم دعاهم لتناول الغداء في القاعة المجاورة. وهناك

سلّمت السكرتيرة إيفا لكل عضو مغلّفًا فيه مبلغًا ماليًا كمكافأة على حضورهم وجهودهم.

الضيوف الثالثة شكروا بدورهم القائمين على الندوة وأثنوا على جهود آدم الأثري الاستثنائية، ولم ينسوا السكرتيرة إيفا على إدارتها وتنظيمها المواعيد وكل أمور الحجز، وطلبوا من الدكتور آدم شوبيرت ايصال التحايا لزوجته الأستاذة إيفا شوبيرت، واستأذنوا الذهاب إلى المطار فمواعيد طائراتهم متقاربة، فأكدت لهم السكرتيرة بأنها ستقلهم بنفسها إلى هناك.

وتبادلوا التحايا والأرقام والعناوين الألكترونية والبريدية واتفقوا على التواصل والحضور واللقاء حين عقد المؤتمر الصحفي للإعلان عن نتائج الندوة. غادر الضيوف الثلاثة القاعدة بصحبة السكرتيرة.

بقي هناك آدم الأثري وإيفا فيليبوفنا بوشكينا والدكتور آدم شوبيرت، الذي أعلن لهما استعداده لايصالهم إلى الفندق مؤكدًا لإيفا فيليبوفنا بوشكينا بأنه سيوصلها بنفسه إلى المطار مساءً، فشكرته بخجل، مؤكدة بأنها يمكنها أن تذهب بالتاكسي إلى المطار فلم يوافق واعتبر من دواعي سروره أن يوصلها إلى المطار بنفسه، بينما أكد لآدم الأثري بأنه سيكون ضيفهم الليلة في البيت، إذ ستنتظره زوجته إيفا الساعة السابعة.

* * *

في الطريق إلى الفندق سألت الدكتورة إيفا فيليبوفنا بوشكينا آدم الأثري عن صحته وكيف يشعر الآن بعد ما حدث البارحة. ارتبك آدم الأثري لاسيما والحديث يدور أمام الدكتور آدم شوبيرت، فقال لها بارتباك:

- الحمد لله.. لا بأس.. كل شيء تمام.

التفت الدكتور آدم شوبيرت وسأل مستفهما:

- هل حصل شيء ما بعد أن ودعناكما..؟

فتوجهت له قائلة:

- أمس في المصعد ساءت حالته وأخذ يتقيأ، فاتصلت بالاستعلامات فساعدوني في حمله إلى غرفته، وكانوا يعاودون رؤيته كل نصف ساعة ليروا إن كان بخير! يبدو أن الفودكا بعد تلك المشروبات في المطعم أثرت فيه.

لم يكن آدم الأثري يفهم شيئًا. هل ما روته هو الحقيقة، أم أنها كانت تريد أن تغطي على ما جرى بينهما في غرفتها، فظل صامتا إلى أن وصلوا الفندق. عند باب الفندق اتفق معهم الدكتور آدم شوبيرت بأنه سينتظرهما الساعة السادسة والنصف في اللوبي.

***

حينما صارا داخل الفندق، قالت له بأنها تريد أن تطلّ على محل الهدايا في اللوبي لتشتري بعض الهدايا، فقال لها بأنه متعب ويريد أن يرتاح قليلا، فودّعته على أن تلتقيه مساءً.

وما أن دخل آدم الأثري غرفته حتى توجه إلى جهاز اللابتوب وشغله. فتح ملف الفصل السابع من روايته «متاهة العدم العظيم». واصل الكتابة عن آدم العليل الذي كان قد أدرك بأنه شخصية روائية يكتب الآن عن شخصية روائية جديدة اسمها آدم الأثري جاء إلى برلين ليشارك في ندوة عن ألواح سومرية غير مصنّفة منذ اكتشافها، وعن لقائه بالكاتبة إيفا شوبيرت، وبقية المشاركين في الندوة لاسيما الروسية إيفا فيليبوفنا بوشكينا وعن لقائه الغامض مع دستويفسكي في لحظة الصرع، وعن اللقاء المرتقب بينه وبين السيدة إيفا شوبيرت في بيتها.

***

في تلك اللحظة توقف آدم العليل عن الكتابة عن آدم الأثري ومواصلة حكاية اللقاء مع السيدة إيفا شوبيرت. شعر بضرورة إغلاق هذا الفصل، لكنه كان غير متأكد مما كتبه، فهل هو آدم الأثري يكتب عن نفسه من خلال آدم العليل أم أنّ آدم العليل يكتب عن نفسه من خلال آدم الأثري؟، ولا شعوريا فتح الجارور فرأى سروالا نسويا أسود مخرم وعليه نقوش ورود سود.!.

9

هو الظاهر لنفسه والباطن عن نفسه

في زقاق ضيق ومعتم في حي شعبي يسكنه بسطاء الناس والطبقات الدنيا من المجتمع، وفي غرفة ضيقة مليئة بالكتب والصحف المتكدسة فوق بعضها، كان ثمة رجل على مشارف التسعين يجلس وحيدًا على سجادة متواضعة وأمامه صينية فيها دورق للشاي وكوبا صغيرًا وصحن آخر فيه مكعبات سكر.

كان الرجل يفتح كتابا لابن عربي ويقرأ فيه بصوت مسموع:

«إن الله لا يُعرف إلا بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه بها.. فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، هو عين ما ظهر وما بطن. ليس في الوجود من يراه غيره، وليس في الوجود شيء باطن عنه. فهو الظاهر لنفسه والباطن عن نفسه.

الأمر حيرة في حيرة، واحد في كثرة، وكثرة مردها إلى واحد، واضداد تجتمع في حقيقة واحدة، وحقيقة واحدة لا تعرف إلا بقبولها الأضداد.

ولكنها حيرة الجهّال. أما الواقفون على سر الحقيقة، العارفون بوحدة الوجود فلهم حيرة أخرى، هي حيرة الذين يرون الحق في كل مجلى ويقرون به في كل صورة، فحيرتهم إنما في تنقلهم الدائم مع الحق في الصور».

توقف الرجل العجوز عن القراءة، ورجع للمقطع الأول وردد مع نفسه: «ليس في الوجود من يراه غيره، وليس في الوجود شيء باطن عنه. فهو الظاهر لنفسه والباطن عن نفسه.».

وظل يكرر هذه الجمله لتسع مرات قاطعه فيها دخول فتى طويل القامة كث الشعر ينسدل في فروة كبيرة من الخلف، يلبس نظارات طبية، وهو يحمل حزمة كبيرة من أوراق قديمة صفر شبه متهرئة. كان حريصا جدًا ألّا تسقط من حضنه.

- أهلا بك يا ولدي آدم..

- أهلا بك يا جدي..

- ماذا تحمل..؟

كان الفتى في حيرة غامضة، وعلى الرغم من استرخائه وفرحه برؤية جدّه، لكنه كان وكأنه يحمل أسرارًا وقال: - لا أعرف ياجدي.. اليوم أوقفني رجل نحيل جدا وكأنه شبح، يلبس قفطانا أبيض، وتغطي وجهه لحية بيضاء، وكان يحمل هذه الرزم من الأوراق القديمة. قال لي إنه لا يقرأ أو يكتب، لكنه متشرد، ودرويش من دراويش الله، ينام في الخرائب والزوايا، والبارحة كان ينام في خرائب مهدمة عند أطراف المدينة، تلك الخرائب الأثرية الغامضة، وهناك عثر على صندوق حجري، وحين فتحه وجد هذه الرزم من الأوراق القديمة شبه المتهرئة وكأنها كُتبتْ في عصور سحيقة، وهو لا يعرف كنهها، لكن الصندوق تهشم أثناء فتحه وتحول إلى رمل، فحمل هذه الرزم من الأوراق القديمة، ولأنه لا يعرف القراءة أو الكتابة، فهو لا يستفيد منها مع علمه أنها ربما ذات قيمة ما، ولأنه كان جائعًا وأراد مني بعض النقود كي يشتري خبزا وحلوى، فهو كما قال لي يحب أن يأكل الحلاوة الطحينية بالخبز، لذا أعطيته بعض النقود، وسلمّني هذه الحزم من الأوراق.

نظر الجد إلى حزمة الأوراق بفضول وقال لحفيده بحنان:

- أجلس ياحفيدي، ولننظر فيها لنعرف سرّها.

جلس آدم إلى جانب جده، ووضع حزمة الأوراق شبه المتهرئة أمامهما. وضع الجد الكتاب الذي كان يقرأ فيه جانبا وبدأ الأثنان يطالعان الأوراق فقرأ الجد بصوت مسموع: - المتاهات..

وضع الورقة الأولى جانبا، وقرأ:

- الفهرس: متاهة آدم، متاهة حواء، متاهة قابيل، متاهة الأشباح، متاهة إبليس، متاهة الأرواح المنسية، متاهة العميان، متاهة الأنبياء، ومتاهة العدم العظيم.

فقال الفتى آدم باستغراب:

- يبدو أنها رواية ياجدي..

تأمل الجّد الأوراق وقال مستفهما:

- نعم لكن من هو كاتبها؟. لا يوجد اسم لكاتبها على هذه الصفحات.

فقال آدم بحماس:

- علينا قراءة هذه الحزمة بهدوء ياجدي..

نظر الجّد إليه وقال بنبرة فيها انكسار:

- أنا لا أستطيع ياحفيدي. نظري لا يساعدني على قراءة هذه الحزمة الكبيرة من الأوراق شبه المتهرئة، لاسيما وهي مكتوبة بهذا الخط الغريب. اقرأها أنت وأخبرني بمضمونها..

فرح آدم لاقتراح جّده فهو وحده سيكتشف سر هذه الحزمة من الأوراق البالية، فقال: - لك ما تريد جدي، فلقد أثارت فضولي هذه المتاهات..

نظر جّده إليه وقال وكأنه ينصحه:

- دعك عن الفضول، وأقرأها بقلب العاقل وبعقلك الطيب وبكل أحاسيسك لتصل إلى كنهها، لكن بصراحة وياولدي انتبهت لآخر عنوان في الفهرس، متاهة العدم العظيم..

- ولِمَ أثار انتباهك ياجدي..؟.

صمت الجدّ للحظات ثم أخذ الكتاب الأول الذي كان بين يديه وقال: - لقد كنت قبل قليل أقرأ نصا لابن عربي يقول فيه: ليس في الوجود من يراه غيره، وليس في الوجود باطن عنه. فهو الظاهر لنفسه، وهو الباطن عن نفسه.

- وماذا في ذلك؟

- ألا ترى أن ما يقوله ابن عربي إشارة إلى العدم العظيم، ووحدة الوجود والعدم؟

- أنت مهووس بهذه الفكرة يا جدي، وأنا معك، فلو اتفقنا مع الأديان بأن الله قد خلق السماوات والأرض، واتفقنا مع العلم بأن الكون تشكّل في لحظة انفجار غامضة ومجهولة بقوانين جبارة ودقيقة بشكل محيّر، فأننا سنفكر بالعدم العظيم الذي أوجد الوجود، لأن الله أو العدم العظيم لو كان وجودًا كوجودنا المرئي لما كان الوجود وجودًا..!

- إذن، أنت مثلي لا تقر بثنائية الوجود والعدم،، فكما يقول ابن عربي هو الظاهر لنفسه، والباطن عن نفسه، أي الظاهر من خلال الوجود، والباطن عن نفسه كعدم عظيم، ليس في الوجود من يراه غيره، أي إن الوجود أحد تجلياته، فالوجود تجل للعدم وأحد أبعاده، وليس منفصلا عنه. الوجود والعدم واحد، الوجود ظاهر العدم، والعدم باطن الوجود، ونحن نرى بضعة من الوجود ولا نرى العدم..!

- نعم.. ليس في الوجود من يراه غيره..

وأخذ الفتى آدم يقلب حزمة الأوراق البالية التي عُثر عليها في خرائب مجهولة ولم يُعرف عنها شيئًا، والتي كتب عليها عنوان واحد دون ذكر لاسم كاتبها، عنوان غامض: المتاهات.

وفي تلك اللحظة تذكر مطلع الجحيم لدانتي أليغيري: «في منتصف طريق حياتنا، وجدتُ نفسي في غابة مظلمة، إذ ظللت سواء السبيل.. وكمّن خرج لاهث الأنفاس من البحر إلى الشاطئ، فيلتفت إلى المياه الرهيبة، ويتأمل، هكذا التفتت روحي إلى الوراء، وكانت لا تزال لائذة بالفرار.».

ألقى الفتى آدم نظرة إلى حزمة الأوراق البالية شبه المتهرئة التي أمامه. أخذ الصفحة الأولى وقرأ: المتاهات.

وضع الورقة الأولى جانبا. قرأ الفهرس: متاهة آدم، متاهة حواء، متاهة قابيل، متاهة الأشباح، متاهة إبليس، متاهة الأرواح المنسية، متاهة العميان، متاهة الأنبياء، ومتاهة العدم العظيم.

وضع ورقة الفهرس جانبا أيضًا، ثم مضى يقلب الصفحات، فقرأ: المتاهة الأولى.

ووجد نفسه يتوغل في «متاهة آدم».

البداية الجديدة

بدآت الكتابة فيها يوم 21/ 12/ 2017 في فندق آمواج - آبوسومه - الغردقة - مصر

وانتهت الكتابة فيها يوم 9/ 12/ 2018 في برلين - أربيل.